السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربية
وبلدان الخليج
رقم (١)

الحصان العربي في روسيا

تأليف: يفيم ريزيفان

تقديم ومراجعة:
قسم الدراسات والنشر بالمركز



معهد الدراسات الشرقية
المجمع العلمي الروسي
(فرع سان بطرسبورغ)



مركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث
دبي

السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربية
وبلدان الخليج
رقم (١)

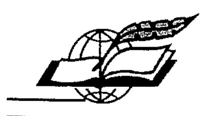
الحصان العربي في روسيا

تأليف: يفيم ريزيفان

تقديم ومراجعة:
قسم الدراسات والنشر بالمركز



معهد الدراسات الشرقية
المجمع العلمي الروسي
(فرع سان بطرسبورغ)



مركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث
دبي

تقديم

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وبعد:

في إطار التعاون القائم بين مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ومعهد الدراسات الشرقية للمجمع العلمي الروسي فرع سان بطرسبورغ، قررت المؤسستان الاشتراك في سلسلة من البحوث والدراسات الروسية المتعلقة بالجزيرة العربية، وبلدان الخليج ونشرها، ومن بينها هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للباحث العربي والمسلم في جميع أنحاء المعمورة والموسوم بـ: الحصان العربي في روسيا - تأليف: يفيم ريزيفان.

والكتاب عبارة عن مقدمة تاريخية، تناولت تاريخ الحصان العربي في روسيا، وخمسة ملاحق، هي في الأصل مؤلفات لباحثين روس اهتموا بالخيل في الجزيرة العربية، وغيرها من البلاد العربية، وتحدثت الملاحق عن تجارة الخيول في البلاد العربية، وعن ركوب الخيل في البادية، والخيول العربية الأصيلة.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن ما يرد من الآراء في هذه البحوث والدراسات، لا يعبر عن رأي المركز، ولا اتجاهه، وإنما القصد من التعاون في نشرها تمكين الباحث العربي والمسلم من الاطّلاع على وجهة النظر الروسية في تقييمها وتحليلها للقضايا محل الدراسة والبحث، إضافة إلى وجهة النظر الغربية التي يعرفها من قبل.

ومثل هذا العمل نعتقد أن له أثراً كبيراً في إثراء الفكر، وتوسيع مجال التفكير والاستنباط، والتمكن من فهم الأمور بشمولية أكبر من ذي قبل، والوصول إلى تفاصيل ما كان لها أن تظهر لولا الله ثم الرأي الآخر المعاكس.

ونحن نأمل أن يتحقق من إصدار هذه السلسلة الغاية والأثر الذي قصده المركز، والمشار إليه أعلاه خدمة للأمة والإنسانية، وتقريبها من الحقيقة أقصى ما يمكن.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

قسم الدراسات والنشر

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

المقدمة

عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عندما أراد الله تعالى أن يخلق الخيل قال للريح الجنوب إني خالقٌ منك خلقًا، فأجعله عزًا للأولياء ومذلة للأعداء وحمىً لأهل طاعتي. فقالت الريح: اخلق. فقبض منها قبضة، فجعل فرسًا فقال له: سميتك فرسًا، وجعلتك عربيًا، وجعلت الخير معقودًا بناصيتك، والغنائم محوزة على ظهرك، والعز معد حيث ما كنت، آثرتك على غيرك من الدواب، وجعلتك لها سيدًا، وعطفت عليك صاحبك، وجعلتك تطير بلا جناح، فأنت للطلب، وأنت للهرب، وسأحمل على ظهرك رجالاً يسبحونني ويكبرون لي».

علي بن عبد الرحمن الأندلسي[(١)].

عندما أصبح هذا الكتاب معدًا للطباعة، تذكرت أول سنواتي الجامعية، بينما كنت في قاعة المطالعة في مكتبة الكلية الشرقية لجامعة لينينغراد أحضر للامتحان بدورة الأدب العربي في عصر الجاهلية، فأمعنت بقراءة الأبيات المشهورة من معلقة امرئ القيس:

---

(١) حلية الفرسان وشعار الشجعان، تأليف الشيخ علي بن عبد الرحمن، المشهور بابن هذيل الأندلسي.

Edité d'apres le manuscrit de M. Nehlil, revu et corrigé sur I'exemplaire de la bibliotheque de I'Escurial. Louis MERCIER. PARIS, 1922. P. 1.

لَهُ أَيْطَلاَ ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ | وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ
ضَلِيعٌ اذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ | بِضافٍ فُوَيْقَ الأَرْضِ لَيس بأَعْزَلِ
كَأَنَّ عَلَى الكِتْفَيْنِ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى | مَدَاك عَرُوسٍ أَوْ صَلايَةَ حَنْظَلِ
كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ | عُصَارَةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ

تخيلت منظر البوادي المتوهجة من الشمس في الجزيرة العربية، إنها موطن شعب عجيب، وأصبحت دراستي لثقافته وتاريخه هي رسالتي، هنا ظهر مجال انسجام الإنسان مع الطبيعة، وانسجام الفارس مع حصانه، هذا الانسجام الذي وصلت صورته إلينا عن طريق الشعر العربي.

عند مراجعتي لسنّة النبي وجدت ما يثبت المعاملة العجيبة من قِبل سكان الجزيرة العربية لخيولهم:

عن إسماعيل بن رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم أصبح ذات يوم، فقام إلى فرسه فمسح عنقه ووجهه بطرف ردائه وبكم قميصه، فقيل: يا رسول الله، صنعت اليوم ما نراك صنعته، فقال: «إني بت الليلة وجبريلٍ يعاتبني في سياسة الخيل». وعن عامر قال: بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إنسانًا ضرب فرسه، فقال: هذه مع تلك لتمسك النار»، فكلم فيه فقال: «لا أرى أن يقاتل في سبيل الله»، فجعل الرجل يحمد عليه ويقول اشهدوا اشهدوا[١].

من خلال دراستي لتاريخ الاستعراب الروسي وقفت على الكتاب المنشور سنة ١٨٢٥م باللغة الروسية بعنوان «فارس الحصان الكميت الفاتح» المكتوب بقلم عالم ورحال بارز، اسمه يوسف سينكوفسكي[٢]، الذي عاد من الشرق، وفي سن

(١) المصدر نفسه، ص٦.

(٢) انظر بالتفصيل: كراتشكوفسكي: مرجع «فارس الحصان الكميت الفاتح» وغيرها من الروايات الشرقية لسينكوفسكي، مؤلفات ١، موسكو ١٩٥٥، ص٢٢٥-٢٦١.

الخامسة والعشرين أصبح أستاذًا في جامعة بطرسبورغ. هذا الكتاب لعب دوراً مهمّاً في تعريف القارئ الروسي التراث العربي، يرجع هذا الكتاب بأصوله إلى مجموعة مختارات لمحمد دياب الاتليدي، وله موازاة في الفلكلور العُماني.

أتذكر حينما كنت في جنوب جزيرة العرب مع البعثة السوفيتية اليمنية، وأنا في المكتبة الميدانية التابعة لقاعدة البعثة، كيف تأملت صورة فرس برونزي يعود للقرن الثاني أو الثالث الميلادي، وقد وجد هذا الفرس في جنوب الجزيرة العربية والصورة محفوظة حاليّاً في مجموعة Dumbarton Oaks، وقصة ظهور هذا الفرس في جنوب الجزيرة العربية تستدعي البحث حتى أيامنا هذه.

وعندما كنت أجمع المعلومات مرة ثانية عن تاريخ العلاقات بين روسيا والبلدان العربية في أرشيفات الاتحاد السوفيتي أصادف المعلومات المرتبطة بظهور الخيول العربية في وطني، والبعثات الروسية الهادفة لشراء هذه الخيول الرائعة.

يمكننا أن نتذكر أربعّ من هذه الرحلات على الأقل؛ رحلة الطبيب البيطري كريستينغ (١٨٢٥)، ورحلة الطبيب البيطري كليم (١٨٣٨)، ورحلة دوختوروف (١٨٦٢٠)، ورحلة الأمير والأميرة شيرباتوف والكونت استروغانوف (١٨٨٨ و١٩٠٠). من الصعب أن نبالغ في أهمية الحصان العربي الأصيل مع ظهور السلالات الروسية المشهورة، مثل حصان السرج الروسي من السلالة الأرلوفية الراستوبتشينية، الجواد الخاب من السلالة الأرلوفية والتيرسكية وغيرها.

لقد حصلت على المعلومات التي جمعتها في هذا الكتاب من الأرشيف المركزي الحكومي للوثائق القديمة (موسكو)، والأرشيف المركزي العسكري والتاريخي الحكومي (موسكو)، والأرشيف المركزي التاريخي الحكومي (سان بطرسبورغ)، وأرشيف المستشرقين ومكتبة معهد الاستشراق الأكاديمية الروسية للعلوم، فرع سان بطرسبورغ، ومكتبة معهد علم السلالات البشرية

(انتروبولوجيا) وعلم خصائص الشعوب (اثنوغرافيا) المسماة باسم بطرس الأكبر، والأكاديمية الروسية للعلوم (سان بطرسبورغ)، ومكتبة أكاديمية العلوم (سان بطرسبورغ)، ومتحف تربية الخيل التابع لأكاديمية موسكو الزراعية، المسماة باسم ك. تيميريازيف.

تثير هذه المعلومات برأيي اهتمام القارئ العربي، وتكشف له صفحات شيقة عن العلاقات الروسية العربية عبر القرون، ولهذا السبب لا أستطيع أن أحسب نفسي، بأي شكل، مختصًا في هذا المجال التخصصي الضيق، وهو تربية الخيول الأصيلة. لقد غامرت على الرغم من كل ذلك وجمعت هذه المعلومات ضمن غلاف واحد.

تقول الأساطير إن الخيول ظهرت عند سكان الجزيرة العربية بفضل إحدى القبائل اسمها بنو أزد، الساكنة في أقصى جنوب شرق الجزيرة العربية، وقد قصد أبناء هذه القبيلة النبي سليمان طلبًا للموعظة في الدين والإيمان، ونالوا منه حصانًا هدية، وأصبح هذا الحصان بالذات واحدًا من أسلاف الخيول العربية، ومن الظاهر أنه ليس بالمصادفة أبدًا أن تحولت دبي اليوم إلى مركز رئيسي لرياضة ركوب الخيل في الشرق الأوسط كله، هذه «واحة الميدان لسباق الخيل» الفريدة من نوعها، أصبح مكانًا يعمل فيه خيرة المدربين في العالم يهتمون بحوالي ٤٠٠ من أصل ٦٠٠ جواد سباق في الإمارات.

وإن التجهيزات العالية الجودة في معدات الميادين لسباق الخيل؛ كند الشبا وجبل علي معروفة، ليس على نطاق الجزيرة العربية فحسب بل خارجها أيضًا، ومعروف كذلك دور مشجعي العلوم والفنون Dubai Racing Club ووزير الدفاع في دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، وهو الآن ولي العهد في دبي، تحت قيادته بالضبط وُضع مشروع Godogphin Racing المتبصر،

للتدريب الشتوي للخيول في ظروف دبي المثالية، وذلك تمهيداً للسباقات الصيفية للخيول ذوات السمعة العالمية في أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية. ليس من العجيب أنه من بين أحد عشر حصاناً في المباراة النهائية لسباق الخيل الأولى Dubai World Cup (آذار ١٩٩٦) كان أربعة منها تابعة للاسطبل الذي تملكه أسرة آل مكتوم.

صدر هذا الكتاب بفضل المساندة الكريمة من السيد جمعة الماجد مؤسس مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي ورئيسه، على الرغم من أن هذا المركز قد أسس منذ حوالي سبع سنوات فقط، إلا أنه استطاع أن ينال سمعة عالمية، وهو من أهم مراكز تجميع التراث العربي ودراسته، كما أنني أريد أن أدون بشكل خاص معاونة الدكتور عبد الرحمن فرفور نائب رئيس المركز المذكور، فقد لعبت مساعدته وحماسته دوراً حاسماً في إنجاز ذلك المشروع. كما أشكر جامعة الإمارات العربية المتحدة على اهتمامها بنشر مثل هذه السلسلة المهمة وأخص بالشكر الدكتور سعيد حارب المهيري نائب مدير الجامعة لشؤون المجتمع.

أعتقد أن هذا الكتاب سيجد له قرّاءً ليس في دبي عاصمة رياضة ركوب الخيل في العالم العربي فحسب، بل سيجدهم من بين مالكي الخيول العربية وهواة تربيتها في البلدان العربية الأخرى، أنا متأكد أن القصة عن تاريخ الخيول العربية في روسيا ستذكر القراء الأعزاء بالعلاقة والصداقة القديمة والاحترام المتبادل بين شعوب روسيا والبلدان العربية.

يفيم ريزيفان

١ أيار ١٩٩٦م

الجزء الأول ..

رحلة إلى بادية الشام
عام ١٨٨٨م

تاريخ الحصان العربي في روسيا

«كل راقصة ستحسد جيش الحصان العربي»

(من مذكرات راقصة الباليه الروسية المشهورة غالينا أولانوفا من كتاب الضيوف الشرفاء في مزرعة لتربية الخيل تيرسكي.

بدأ تاريخ الاهتمام بالحصان العربي في روسيا منذ عدة قرون على الأقل، وتشهد الآثار الروسية القديمة، كالكتابات والهياكل العظيمة التي وجدت في الحفريات العلمية في مناطق روسيا المتعددة، أنّ الخيول الشرقية كانت موجودة في روسيا القديمة منذ ذاك الحين، ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي. تشير المدونات التاريخية الروسية إلى وجود «الفارات»؛ أي الخيول الكريمة الخفيفة، وتدل تسمية «فار» الراجعة إلى كلمة «الفرس» العربية على أنّ أصلها من الشرق، ولكن «الفارات» كانت قليلة جداً في روسيا في ذلك الحين، ولم تقدر أن تؤثر في الخيول الروسية تأثيراً ملموساً.

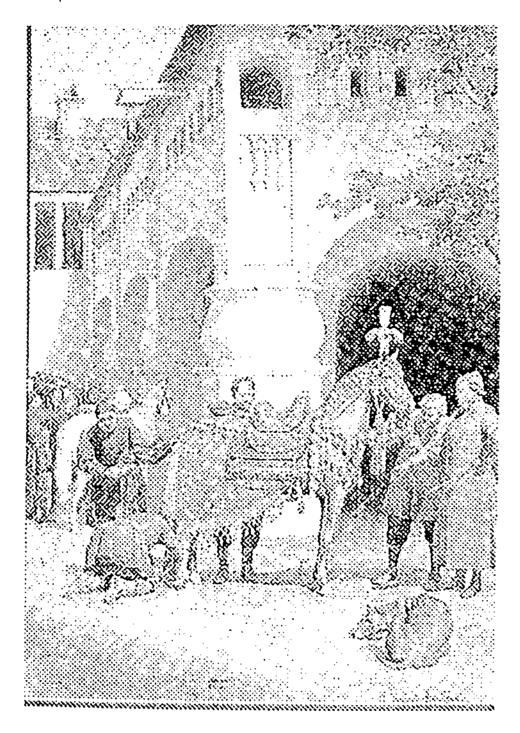
كان الكثير من الخيول الشرقية تصل إلى الإمارات الروسية من الشعوب المتنقلة المجاورة، وكانت تستخدم للصيد فقط، وكان الخدم يركبونها في رحلات سادتهم. ومن المحتمل أن هذه الخيول المطعمة بالدم الشرقي هي التي أصبحت أساساً للأجناس الخفيفة، التي ظهرت منها الخيول الأوكرانية[١].

لا توجد أي ناحية من نواحي الحياة في روسيا، سواء الروحية أو الاقتصادية أو السياسية، لم تتعرض للتغيرات الجذرية من جراء عدوان المغول والتتر في القرن

---

(١) إ. ميردير وإ. فيرسوف: الحصان الروسي في الماضي والحاضر، سان بطرسبورغ، ١٨٩٦، ص١٧-١٨.

الثالث عشر، فمنذ ذلك الحين توقف تقريبًا تصدير الخيول الشرقية إلى روسيا، لم يرغب الأمراء الروس والإقطاعيون الحاكمون أن يتشابهوا مع الفرسان التتر السريعين، فكانوا يفضلون الركوب البطيء على الخيول، وكان السواس يسحبونها من ألجمتها في المواكب الرسمية، وكان الإقطاعيون الحاكم وقتذاك يفضلون أن تكون خيولهم جسيمة وسمينة وقوية وبطيئة الحركة ووقورة (الشكل ١). وكانت هذه الخيول تربى بطريقة الاختيار والتغذية الوافرة، ومع استهانة سكان روسيا القديمة بالخيول السهبية الخفيفة والصغيرة، التي جاء بها المغول والتتر بأعداء كبيرة إلى السهوب الروسية الجنوبية، ظهرت رغبة طبيعية في الحفاظ على العادات والتقاليد؛ لمواجهة المستبدين المغول والتتر، ورفض نمط حياتهم وتصرفاتهم.



[الشكل ١]
ن. دميترييف أورينبورغسكي (١٨٣٧-١٨٩٨) امتطاء فرس الإقطاعيين

كما لعبت دوراً مهماً في نشوء الأجناس المتعددة من الخيول العربية الكليبيرات الليفونية، التي وصلت من الغرب عن طريق نوفغورود العظيم، وهي مسجلة في المدونات التاريخية الألمانية في الرابع عشر، وهي موصوفة بأنها خيول قصيرة، ولكنها قوية وصبورة جداً، ومنتظمة المظهر، وقادرة على حمل المقاتلين المسلحين بالسلاح الثقيل.

تقول الأساطير في تلك الأيام: إنّ هذه الكليبيرات أنسال الخيول الشرقية التي أحضرها الصليبيون إلى أوروبا، كما لعبت دوراً هاماً في نشوء الأجناس المختلفة من الخيول العربية الكليبيرات الليفونية، التي وصلت من الغرب عن طريق نوفغورود العظيم، وهي مسجلة في المدونات التاريخية الألمانية في الحجور من الأجناس الغابية، ثم أحضرت هذه الكليبيرات إلى الأراضي الفياتْكية والأورالية، واستخدمت لتنشئة الأجناس فياتسكي وأوبفينسكي المحلية، بقيت هذه الكليبيرات موجودة حتى أيامنا هذه، وأصبحت أجناساً محلية في إستونيا.

تركزت تجارة الخيول مع الإمارات الروسية في القرن الخامس عشر في أيدي التتر من القوم الرحل، نوغاي، التي احتلت أراضي واسعة من نهر الفولغا غرباً وإلى نهر إيرتيش شرقاً، ومن سواحل بحر قزوين وبحيرة آرال جنوباً إلى مدينة تيومين شمالاً. في أواسط القرن السادس عشر أحضر إلى العاصمة الروسية وحدها حوالي عشرة آلاف حصان للبيع، وفي بعض السنوات كان يصل عددها إلى ٢٥-٢٧ ألف حصان، ولم يكن من بينها الخيول السهبية فحسب، التي سماها الروس بجياد النوغاي، بل كانت من بينها الجياد الشرقية الأصيلة، في زمن الأمير الموسكوي إيفان الثالث (١٤٤٠-١٥٠٥) وهو ابن حفيد المنتصر على التتر دميتري دونسكوي، كانت كلمة «فار» قد نسيت، وأصبحت الخيول الشرقية الكريمة تسمى بالكلمة التترية «أرغاماك»؛ أي البراذين، وأضيفت إليها تسمية «النوغاي» سواء

كانت الخيول فارسية أم عربية أم غير ذلك، كما كانت تنتمي إلى جنس أرغاماك خيول الصيد التابعة للأمير العظيم فاسيلي الثالث (١٤٧٩-١٥٣٣)، التي كانت تمتاز بجمالها، كما يشهد على ذلك المعاصرون، كما كان القيصر إيفان الرهيب (١٥٣٠-١٥٨٤) يفضل البراذين للصيد[١]، وكانت بلاد فارس والقرم وتركيا أيضًا تصدر البراذين إلى روسيا[٢]. من المعلوم أن القياصرة الروس، وبخاصة إيفان الرهيب، كانوا يحصلون على هذه الأرغاماك الذي اشتراه السفير الروسي إيفان مامونوف من كافه عام ١٥١٦ للأمير فاسيلي الثالث بـ ١٣٠ روبل، وكان سعر فرس النوغاي القطعانية أرخص بكثير.

شهد الأجير الفرنسي مارجريت، الذي خدم عام ١٦٠٠ عند بوريس غودونوف (١٥٥٢-١٦٠٥)، ثم عند دميتري الكذاب (؟-١٦٠٦) أن خيول الإقطاعيين في روسيا كان ثمنها وقتذاك ٢٠ روبلاً، في حين أن الحصان الروسي العادي أو النوغاي كان لا يزيد سعره عن ٣-٤ روبلات، وأفضل البراذين التي كان توريدها بالغ الصعوبة، كانت تباع بـ ٥٠-١٠٠ روبل[٣]. اشترى أرخيب، وهو الراهب من دير سولوفييفسكي، فرسين (النوغاي) بأكثر من سبعة روبلات

---

(١) ن. كوتيبوف: الصيد الأمرائي والقيصري في روسيا في القرون ١٠ - ١٦، سان بطرسبورغ، ١٨٩٦، المجلد الأول، ص١٤٢-١٤٤.

(٢) المجتمع الروسي التاريخي، المجلد ٩٥، ص١٤٧؛ ن. فيسيلوفسكي: لمحة عن المعلومات التاريخية والجغرافية في الخانية الخيفينية من قديم الزمان حتى الوقت الحاضر، سان بطرسبورغ، ١٨٧٧ المجلد الأول، ص٩٤؛ المحلد الثاني، ص١؛ الأرشيف المركزي الحكومي للوثائق القديمة، الكتاب السفيري التركي رقم ١، الورقة ٢٤١-٢٤١ الوجه والظهر.

(٣) نشر ماجريت عام ١٦٠٧ في باريس كتابًا عن الدولة الموسكوية، وترجم إلى اللغة الروسية عام ١٨٣١ (إ. ميردير وإ. فيرسوف: الحصان الروسي في الماضي والحاضر، سان بطرسبورغ ١٨٩٦، ص٧٥).

بقليل[١] . تشير الشواهد الكتابية الأولى إلى وجود الحصان من الجنس العربي في روسيا إلى بدايات القرنين السادس عشر والسابع عشر، وفي الوقت نفسه ظهرت الخيول العربية الأولى في إنكلترا .

نشير إلى أنه في عهد القيصر إيفان الرهيب دبرت أمور كثيرة لتطوير تربية الخيل، وبنيت بعض الأرياف الاسطبلية، التي أصبحت مزارع لتربية الخيل بكاملها، ولكن للأسف احترقت المعلومات الأساسية عن تربية الخيل في روسيا كلها والمدونة حتى القرن الثامن عشر من جراء حريق عام ١٧٣٧ ، فقد احترق في الفناء بوتيشني كل أرشيف الخيل، كانت تربية الخيل في روسيا حتى القرن الثامن عشر متجهة إلى تربية خيول السباق لحاشية الأمراء ثم القياصرة وللأغراض الحربية عام ١٥١١ ، كما أصدر القرار الاسطبلي لإدارة اسطبلات البلاط القيصري ومزارع تربية الخيل الحكومية .

في بداية القرن السابع عشر كانت هذه المزارع تسمى بالاسطبلات الفرسية، وكان عددها في بادئ الأمر ثلاثة عشر ثم ستة عشر، وكان يربى فيها حسان من الخيول الروسية والبرذونية، وكان عدد الخيول في المزارع القيصرية كبيراً جداً، توضح رسالة بطرس الأول (١٦٧٢-١٧٢٥) إلى ابنه ألكسي أنه في عهد ألكسي ميخايلوفيتش (١٦٢٩-١٦٧٦ الذي أصبح حاكماً عام ١٦٤٥) كان في الاسطبلات القيصرية خمسون ألف فرس. كانت الحروب التي خاضتها روسيا في زمن بطرس الأول تحتاج إلى التزود المستمر بالخيول. كانت الخيالة النظامية وحدها تضم ستين ألف فرس، أدت الخسائر الفادحة والتوفير من مصروفات الإنفاق على الحواشي القيصرية إلى إغلاق مزارع تربية الخيل القيصرية، وإعادة تبعية الخيول، فأصدر قرار تأسيس مزارع لتربية الخيل الحكومية بدلًا منها لإصلاح الوضع، وهذه المزارع

(١) الأرشيف المركزي الحكومي للوثائق القديمة. الرصيد ١٢٠١ ، كتاب الإيرادات والمصروفات لدير سولوفيتسكي عام ١٥٩٣ ، الورقة ٦ ظهر .

تنتج خيولاً لتوفير حاجات الجيش وليس بلاط القيصر، ولتنفيذ هذا الهدف أعطي لمحافظ أستراخان عام ١٧٢٠ أمر «بإنتاج الخيول الكريمة في أستراخان من الجياد الفارسية والحجور الشركسية»[١].

بعد وفاة المصلح العظيم بطرس الأكبر عام ١٧٢٥ توقف العمل بإنشاء مزارع تربية الخيل الحكومية مؤقتًا، وكانت الخيول المرباة في أوروبا قد فاقت الخيول الروسية، وكان أكثر هذه الخيول من ألمانيا. في ١ كانون الثاني عام ١٧٤٠ كانت مزارع تربية الخيل القيصرية تضم ١٦٨٥ فرس منتجة، منها ٧١٣ ألمانية، و ٤٧٨ نابولية، و ٧٠ إنكليزية، و ٤٤ إسبانية، و ٣٨ فريسلاندية، و ١٧ دانمركية، و ٣ لومباردية، و٤٦ فارسية، و٢١ تركية، و ١٠ عربية، و ٥ بربرية، و ١١ شركسية جبلية، و ٢٢٩ كوبانية[٢]. في عام ١٧٣٧ اشتُريت من سيليزيا لمزرعة الخيل الحكومية ثمانية خيول عربية رمادية اللون وبرؤوس سوداء، وكانت تسمى بمورينكوبف[٣].

ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر أجريت في روسيا مجموعة من التدابير التنظيمية الحكومية الهادفة لتطوير تربية الخيل الوطنية، فأنشأت الإدارة الرئيسية لتربية الخيل الحكومية، وفي الوقت نفسه بدأت المزارع الخاصة تنشأ واحدة تلو الأخرى. وقد ساعد على ذلك المرسوم الصادر في ٣ أيار عام ١٧٥٦، الذي ينص على إلغاء قبول الخيول قسريًا، وإلغاء شرائها للأغراض الحربية، ومما يؤسف

---

(١) أ. إلمينسكي: الأوامر الحكومية ووصاياها الخاصة بمزارع لتربية الخيل الحكومية وتربية الخيل في روسيا خلال ٢٦٠ سنة من ١٦٤٩ حتى ١٩٠٩، سان بطرسبورغ، ١٩١٠، ص١٤.

(٢) إ. ميردير وف. فيرسوف: الحصان الروسي في الماضي والحاضر، سان بطرسبورغ ١٨٩٦، ص١١٩.

(٣) ي. كوجيفنيكوف، د. غوريفيتش: تربية الخيل الوطنية: تاريخها وعاصرها ومشاكلها موسكو، ١٩٩٠، ص٢٢.

له أن أكثر المزارع كانت غير نظامية، فكان أصحابها يتنافسون فيما بينهم بصرف الأموال للحصول على كل أنواع الخيول من بلدان أوروبا الغربية، كما كانت الخيول تصل من الشرق أيضًا، المشتراة منها أو المأخوذة غنائم حرب بعد انتصارات روسيا في الحروب مع تركيا، ولكن أصحاب الخيول في تلك الأوقات كانوا بعيدين عن الحقيقة في تحسين الخيول، تحت تأثير تهجينها مع الخيول الأصيلة، فكانوا غالبًا ما يفضلون الخيول كبيرة الحجم، ولكنها غالبًا ما كانت ضعيفة وغير صالحة للعمل.

كانت أكثر المزارع تنتج خيولاً للخيالة، ولم تكن خصال الخيول الهامّة للحرب كالقوة والرشاقة والمظهر تنال اهتمامًا كبيرًا من المربين، بل كان جل اهتمامهم يوجه نحو الحجم، وأناقة الشكل الخارجي، والترويض، وفقًا لشروط مدرسة الفروسية العليا. كانت طلبات المانيج ـ التي أصدرها مؤسسو «أكاديمية الخيول» في القرن السادس عشر، وهم غريزون وبينياتيلّي وبلوفينيل وبعد ذلك أتباعهم، ومنهم غرينيير ـ طلبات أساسية في تقدير كيفية خيول السباق في القرن الثامن عشر، لهذا كانت الأفضلية للخيول الإسبانية والدانمركية أكثر من العربية الأصيلة والشرقية الأخرى الأصغر منها حجمًا، كما كانت الأفضلية لخيول السباق الإنكليزية الأصيلة ذات الرشاقة الكبرى في الجري والوثب المتوقد في المانيج.

على الرغم من أن الشهادات الأولى عن إدخال الخيول العربية إلى روسيا سجلت في القرن السادس عشر (عندما قيمها مربو الخيل الروس، وقدروا صفاتها الإنتاجية وأصبحوا يوزعونها على المزارع الحكومية والخاصة)، إلا أن استخدامها الواسع في تربية الخيل لم يحدث إلا في القرن الثامن عشر، استخدم مربي الخيل الروسي المبدع أ. أورلوف الخيول العربية، فحولاً وإناثًا لإنتاج أول أجناس الخيول الوطنية العربية (الطقمية الخفيفة والسباقية).

إن نشاط أ. أورلوف تشيسمينسكي (١٧٣٧ - ١٨٠٧)، الذي نال كنيته الثانية مكافأة لانتصاره على الأسطول التركي، يحتاج إلى كلام خاص، التاريخ المفصل

عن تربية الأجناس الأورلوفية الخابة والأورلوفية السباقية قبل عام ١٨٤٥، عندما بيعت المزرعة هرينوفسكي للدولة، مسجل في كتاب عالم الخيول الروسي البارز ف. فيت، وقد كمل هذا العمل ف. شوكين وف. غريتس، اللذان عملا في مزرعة هرينوفسكي سنوات طويلة، وفي ذكرى مرور مائتي عام على تأسيس مزرعة هرينوفسكي نشر كتاب من تأليف إ. كوزنيتسوف وغ. روجديستفينسكايا[١].

كانت أول تجارب أورلوف في تربية الخيول في الستينات من القرن الثامن عشر، وكانت هذه التجارب في ضيعة أوستروف قرب موسكو[٢]، لم تصل إلينا المعلومات الدقيقة عن الأجناس التي كانت تربى في مزرعته، نعرف فقط أن أورلوف بوصية من الإمبراطورة الروسية كاترين الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) نال حقًا في اختيار أفضل الفحول والإناث من المزارع الإمبراطورية، من المؤكد أن الجزء الأساسي الذي اختاره أورلوف من تعداد السائمة كانت خيولاً من الأجناس المفضلة للجميع في ذلك الزمن، فمن الخيول الأوروبية كانت الإسبانية والدانمركية والنابولية والإنكليزية، ومن الخيول الشرقية كانت العربية والتركية والفارسية والتركمانية، كما نال أورلوف جوادين قيمين هما الشاه ودراكون (التنين)، اللذان أهداهما الشاه الفارسي لكاترين الثانية، كما وصلت إلى أوستروف عام ١٧٦٩ خيول كسبها أورلوف في الحرب الروسية التركية، عندما كان رئيسًا للأسطول الروسي في البحر المتوسط، أحضر إلى أوستروف ١٢ حصانًا، و ٩ أفراس من

(١) ف. فيت: من تاريخ تربية الخيل الروسية، إنشاء الأجناس الجديدة للخيول على تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، موسكو، ١٩٥٢؛ ف. شوكين، ف. غريتس: مزرعة هرينوفسكي في الماضي والحاضر، موسكو، ١٩٥٥؛ إ. كوزنيتسوف، غ. روجديستفينسكايا: المزرعة لتربية الخيل والسلالة، موسكو، ١٩٧٨.

(٢) في الوقت الحاضر تقع بلدة أوستروف قرب محطة لوبيرتسي قرب موسكو، وظل مشتل الخيل فيها منذ زمن أورلوف.

الجزيرة العربية وتركيا، ومن بينها أسلاف السلالة الأورلوفية، وهما الحصانان سلطان وسميتانكا، اشترى أورلوف في بلاد العرب حصانًا عربيًا سميتانكا، لونه رمادي فضي بسعر خيالي: ٦٠٠٠٠ روبل، ولكي نتصور أهمية هذا السعر في ذلك الأوان يكفي أن نقول إن الدخل السنوي في مزارع تربية الخيل الحكومية في عام ١٧٧٤ كان حوالي ٢٥٠٠٠ روبل، وكان الربح من بيع الخيول من المزارع الحكومية السبع في تلك السنة ٥٦٠٩ روبل، فمن المؤكد أن سميتانكا كان حصانًا فريدًا من نوعه، فقد كان يمتاز بحجمه الكبير، ومظهره الأنيق، وحركاته البارعة في كل هيئات سيره، بما في ذلك الخبب الخفيف والحر، كان جسده الطويل يمنحه شبهًا بخيول الطقم، كتب في ذلك الطبيب البيطري الخاص بمزارع لتربية الخيل، والخبير في الخيول ل. إيفيست أن سميتانكا هو أفضل الخيول العربية التي شاهدها(١). وبسبب قيمة سميتانكا العالية وثمنه الغالي لم يجرؤ أورلوف أن يعتمد على البيئة البحرية وإرساله على السفينة كالخيول الأخرى، فنال أورلوف شهادة الحماية الرسمية من السلطات التركية وأخذه بصحبة الحراس برًا عن طريق تركيا والمجر وبولندا، استغرق وصوله إلى موسكو قرابة سنتين، ولم يصل هذا الحصان إلى أوستروف إلا عام ١٧٧٦.

في أواسط السبعينات من القرن الثامن عشر كانت المزرعة الأوستروفية التابعة للكونت أورلوف تشيسمينسكي من أفضل مزارع تربية الخيل الروسية الخاصة، فقد جمع فيها مجموعة رائعة من الخيول بأجناسها المتنوعة، التي كانت تذهل المعاصرين، في ذلك الحين انتهت التجارب الأولى غير الناجحة في تهجين الخيول العربية مع النابولية وغيرها من التي لم تترك أثرًا في المزرعة، استخدم في أوستروف عام ١٧٧٦ سلف السلالة الأورلوفية الخابة، وهو الحصان الأسمر الداكن، سلطان الأول، وكان هذا في مدة قصيرة ولكن ناجحة، كما ظهرت في عام ١٧٧٨ أول فئة من سميتانكا.

(١) ل. إفيست: الطيار الخيلي الروسي الكامل، موسكو، ١٧٧٥، الجزء الأول، ص٤٦٧.

أدى نشاط المزرعة في هذه الظروف المناخية القاسية إلى خسائر كبيرة لأورلوف، فالخيول المهجنة من الأوروبية والآسيوية الجنوبية كانت غالبًا ما تصاب بالبرد في المراعي وتموت، ولم يتحمل الحصانان بالي سلطان وسميتانكا أكثر من شتاء واحد، فاضطر أورلوف أن يبحث عن مكان مناسب أكثر من هذا، وفي العامين ١٧٧٦ - ١٧٧٨ أصبحت الخيول تنقل تدريجيًا من أوستروف إلى ضيعة أخرى من الضّياع التابعة لأورلوف في مقاطعة هرينية وبومبروفية في محافظة فورونيج، فازداد بعد ذلك تعداد السائمة، في عام ١٧٧٦ لم يكن في أوستروف إلا ستين أنثى وفي مزرعة هرينوفسكي زاد عددها عشر مرات؛ إذ وصل إلى ٥٠٠ - ٦٠٠ فرس، ووصل عدد السائمة إلى ٣٠٠٠ فرس.

أما أ. أورلوف ومساعده ف. شيشكين فاتبعا أسلوبًا في تربية الخيل لا نظير له في تلك الأيام بالنسبة لحجم النشاطات وعمق الذهن، فقد أنتجا في مزرعة هرينوفسكي جنسًا جديدًا من الخيول هو الأورلوفي الخاب.

سبق آنفًا أن أسلاف خيول السباق الأورلوفية هو الجواد العربي الرمادي الفضي سميتانكا، والجواد الأسمر الداكن سلطان الأول، الذي سمي أيضًا بالعربي، إلا أنه في الحقيقة كان منتميًا إلى إحدى السلالات الشرقية كالفارسية أو التركية أو التركمانية، لعدم وجود البيانات الرسمية عن انتماء سلطان الأول. يقول ف. فيت رأيًا صريحًا إن هذا الجواد إما هدية لكاترين الثانية من السلطان التركي شخصيًا وإما هدية من بطل المعركة الكاغولية (١٧٧٠) الكونت ب. سالتيكوف، الذي سلب هذا الجواد من الأتراك في المعركة، ومن الأحرى أنه كان ينتمي إلى أكرم جزء من الأجناس التركمانية أخالتيكينس، وبعد انتقال الجواد سلطان الأول لأورلوف أصبح سلفًا للسلالة الأورلوفية الخابة «... أما الجياد الباقية فعربية بلا ريب ابتداءً من سميتانكا الفريد»[1] كلا الجوادين على الرغم من مدة نشاطهما

(١) ف. فيت: من تاريخ تربية الخيل الروسية، موسكو، ١٩٥٢، ص٩٨.

القصيرة لعبا دورًا أساسيًا في تنشئة الجنسين الفريدين في ذاك الزمن، هما الجنس الروسي السباقي، والجنس الأورلوفو روستوبتشيني.

منحت التهجينات العربية الآسيوية المزرعة جوادين وثلاثة حجور، وكان من بين هذه الخيول الخمسة جواد كميت أحمر سلطان الثاني، الذي ولد عام ١٧٧٧، إنه ابن سلطان الأول، والفرس الكميتة المستوردة من الجزيرة العربية، اسمها غولديفا، وكان هذا الجواد يمتاز بمظهره الرائع، وشكل رأسه المثالي، وأطرافه لا عيب فيها، كان ارتفاع منبت رقبته حوالي ١٥٥ - ١٥٦ سم، وكان قويًا وصبورًا بدرجة كبيرة، وكان ممتازًا للفروسية الميدانية، ولكن رشاقته كانت قليلة بالنسبة للمسافات القصيرة، ولم تكن له قدرات خاصة ترضي المدرسة العليا للفروسية وحسن السلوك، أصبح سلطان الثاني فحلاً أساسيًا في قسم السباق، وكما أخبر شيشكين أنه أدخلت إلى المزرعة ستة من أبنائه وإحدى وأربعين من بناته، ومن التهجينات الأخرى التي كانت لها أهمية بالغة لإنتاج الأجناس الأورلوفية هي التهجينات العربية الإنكليزية، في عام ١٧٧٨ ولد من التهجين بين سميتانكا والفرس الإنكليزية ابنة بابرام الجواد فيلكيرزام الرمادي الأول، الذي خلف في المزرعة سبعة فحول و ٥٠ أنثى.

يعرف من كتب مزرعة تربية الخيل أن ١٤ جوادًا و ٤٨ فرسًا ولدت من الجيل الأول من الخيول التي جلبت إلى عزبة أورلوف، التي كانت نقطة الانطلاق لإنتاج الأجناس السباقية، فأنسال سلطان الثاني (٥ فحول و ١١ أنثى)، وأنسال فيلكيرزام الأول (٦ فحول و ١٦ أنثى) هي الجزء الأساسي من هذه الرؤوس، تحضر إلى سلطان الثاني حجور من الأجناس المختلفة، وغالبًا ما كانوا يسفدونه مع الحجور الإنكليزية الأصيلة والحجور الإسبانية والدانمركية، كانت أفضل أنسال سلطان الثاني الأربعة مولودة من الأفراس المختلطة الإنكليزية الإسبانية، والثلاثة منها

أحفاد أيوتنايا التي تعدّها المنشورات الرسمية عربية، ولكن برأي ف. فيت أنها خيول معربة من المزرعة الليبيسيانية من بين عشرين أنثى، التي اختارها أورلوف من مزرعة البلاط القيصري عام ١٧٦٧، وكان تجسيداً لهذا الطراز حصان السباق الجديد المرغوب سفيريي الثاني (مولود من سلطان الأول وأيوتنايا). كان يشبه بمنظره الفذ شقيقه الأكبر الشرس، غير أن طبعه وسلوكه كانا بلا عيب، أما نشاطه وصلاحيته للترويض فكانت بدرجة كبيرة من الامتياز، فأصبح سفيريي حصاناً مفضلاً لأورلوف.

في بداية القرن التاسع عشر كانت الجياد الأورلوفية السباقية تستخدم للإنتاج في المزارع الحكومية وبعض المزارع الخاصة المختصة بالسباق، وقد أثرت تأثيراً فعالاً في الخيول التي كانت مخصصة لتجهيز الخيالة في الحرب الوطنية عام ١٨١٢، والأوقات التي تلتها، بعد وفاة أورلوف بقي تطوير الأجناس السباقية قائماً، واستخدمت أفضل أنسال الخيول الأورلوفية السباقية والخيول الشرقية، التي كانت تجلب إلى المزرعة بعد عام ١٨٠٠، وكان الأثمن منها الهدية المقدمة عام ١٨٠٣ من القيصر ألكسندر الأول (١٧٧١ - ١٨٢٥)، وكانت هذه الهدية حصاناً عربيّاً أبيض، ثم ولد من ابنته الفرس ياشنا وابن سفيريي الثاني أشونكا في عام ١٨١٦ (الشكل ٢) جواد كميت باشا الأول، الذي اعترفوا به أنه «أفضل فحل في كل الأوقات في القسم السباقي من المزرعة»[(١)]. يمكن أن نحكم من صور أفضل أبنائه ياشما الثاني (الشكل ٣) وأشونكا الثاني على صفات أبيهم الرائعة الذي خلف في القسم السباقي من المزرعة الكثير من الفحول والإناث.

في القرن التاسع عشر بلغت سلالة السباق الأورلوفية اتساعاً عظيماً في كل روسيا؛ لأنها كانت ترضي الطلبات كافة لتلك الأوقات، أما ممثلو هذه السلالة،

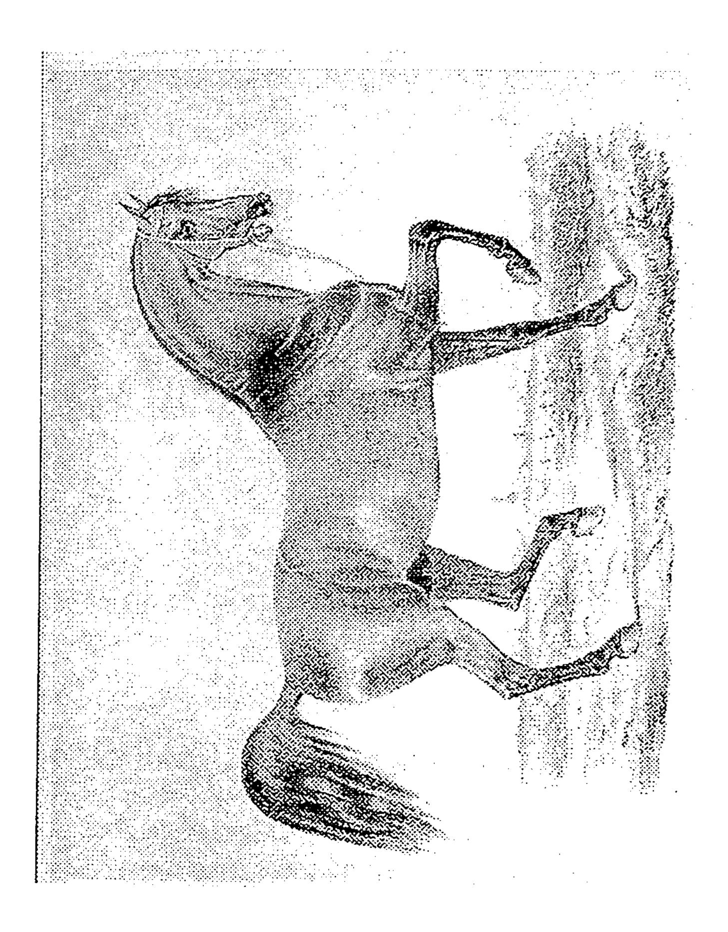
---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٤٧.



[الشكل ٢]

الرسام المجهول من القرن التاسع عشر، أشونوك: الحصان الكميت من السلالة الأورولوفية السباقية، المولود في مزرعة تربية الخيل هرينوفسكي



[الشكل ٣]

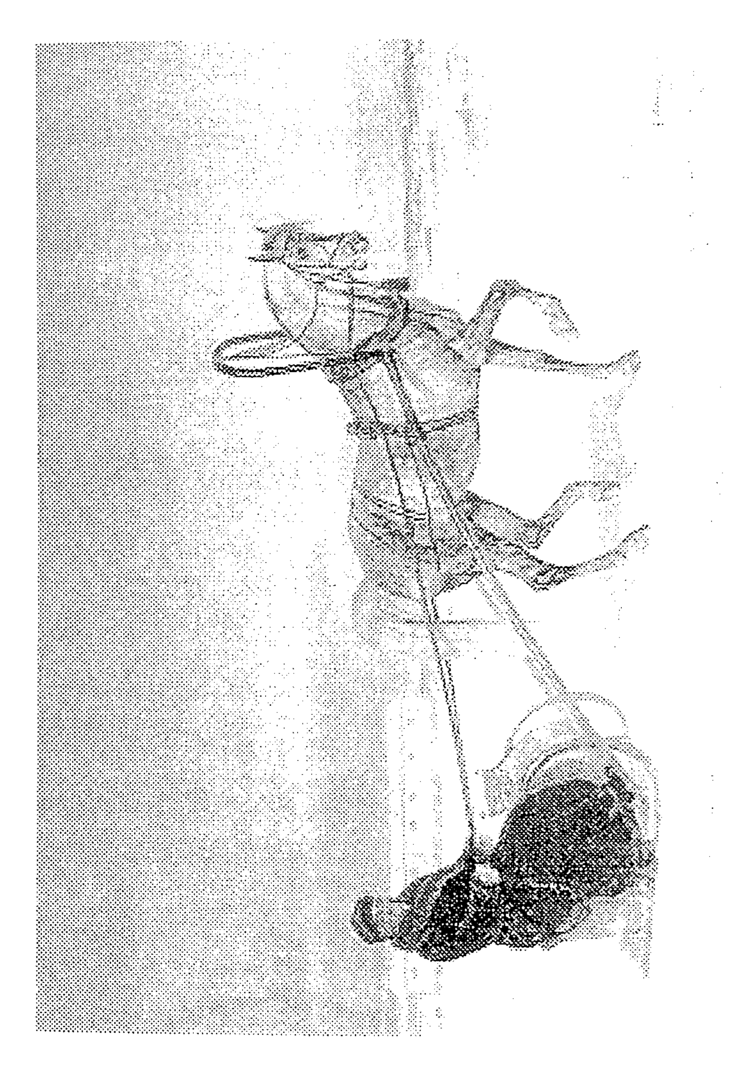
ن . سفيرتشكوف، ياشما ٢ ، الحصان الكميت من السلالة الأورلوفية السباقية المولود عام ١٨٣٣
من ياشما ١ وفينيرا في مزرعة تربية الخيل هرينوفسكي

مثل فرانت وفاكيل وفازان، فنالت الجائزة الكبرى في معرض باريس الدولي عام ١٨٦٧.

والآن سنتكلم عن تاريخ الأجناس الخابة التي لعبت في نشأتها دوراً أساسياً، ابن سميتانكا والحصان الداناركي الكميت الفاتح بولكان الأول، أما إخوانه فيلكيرزام الأول وبوفكا ولوبيميتس فلم يستخدموا من أنسالها إلا الخمسة في القسم الخيي من المزرعة ولم تترك أثراً.

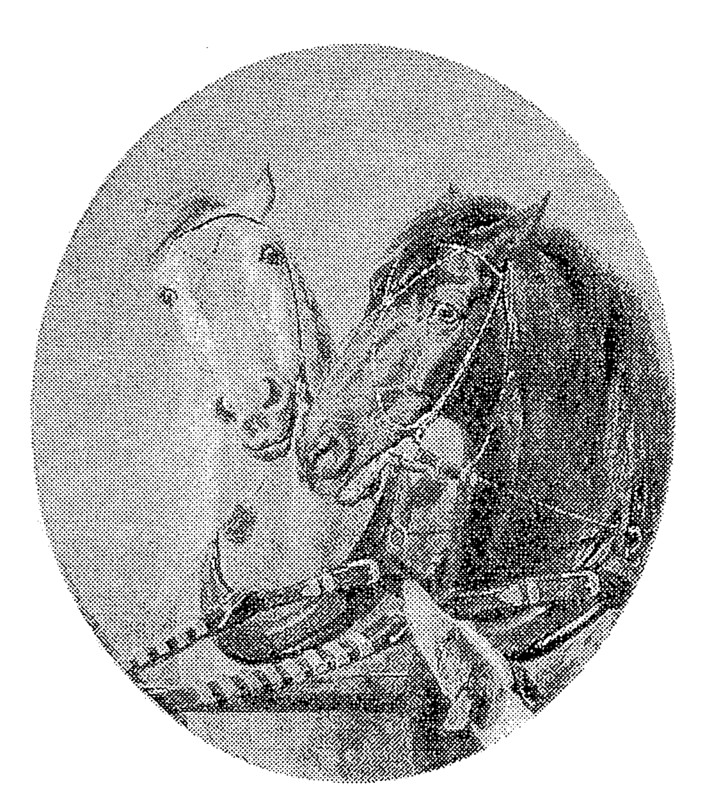
لم يتمتع بولكان الأول بالصفات الهامّة، التي بذل أورلوف جميع الجهود لأجل الحصول عليها، وهذه الصفات هي الجري بالخبب الرشيق، وقد ظهرت هذه الصفات في أنسال بولكان الأول التي ولدت من الحجور الرمادية المربلة في هولندا، والتابعة لتفرعات السلالة الفريزية، كما يظن المتخصصون؛ والتي تحسنت تحت تأثير التهجين مع الخيول البربرية، أما السلف الحقيقي للجنس الخاب فهو الحصان بارس الأول (الشكل ٤)، الذي ولد عام ١٧٨٤ من الأنثى الهولندية رمادية اللون الرقم ٢، كان هذا الحصان مطابقًا للجواد الخاب الجبار في حجمه ومظهره وقوته، والأهم من ذلك قدراته الخببية الفذة، التي سعى أورلوف إلى تطويرها، ولكن كما ثابر في تحذيره ف. فيت من أنّ هذا «شيء فطري وسطحي»، والأساس أن بارس الأول نشأ «بإشارة العصا السحرية من صاحب المزرعة العبقري»، الذي جمع في حصان واحد بلا خطأ كل صفات الأجناس الجيدة من العربية والدانمركية والهولندية، بالدرجة نفسها لا يمكن أن يكون الإثبات صحيحًا أن بارس الأول ظهر، وأخيراً من الخطأ الافتراض أنّ ولادة بارس الأول حلت مسألة استخراج الجنس الخاب من الخيول كليًا، في الحقيقة إن ولادة بارس الأول بعد عشرين سنة من نشاط أورلوف في مزرعة لتربية الخيل، واستخدام بارس الأول في قسم الخبب من مزرعة هرينوفسكي، أصبحت «. . . نتيجة التطبيق المدروس للطرق الصحيحة في العمل النسولي الإبداعي» (الشكل ٥)[١].

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٠١-٢٠٣.



[الشكل ٤]

ن. سفيرتشكوف أ. أورلوف تشيسمينسكي في الزلاقة على بارس الأول سلف السلالة الأورلوفية الخابة، ١٨٧١



[الشكل ٥]

ك. زورلاند، (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) الجياد الخابة الأورلوفية المقرونة في عرش المركبة والكلب، ١٨٣١

لم تعط عملية تهجين الأفراس الميلكينبورغية مع الأحصنة الشرقية أنسالاً رشيقة وخابة قبل ظهور بارس الأول، ولكن نشأت إناث قيمة قادرة على أن تخلف الجياد الخابة، استُخدم بارس الأول في المزرعة سبعة عشر عامًا، يمكن تقسيم الحجور التي كانت تختار له إلى أربع مجموعات: العربية الداغماركية الهولندية، والعربية الميلكينورغية، والإنكليزية الطقمية (الخابة) والسباقية، في بادئ الأمر كانت تختار لبارس الأول نصف أخواته، وهي بنات بولكان الأول، وقد تجمعت في الأنسال الأوائل الصفات الإيجابية في المجموعة العربية الدانمركية الهولندية،

وأفضل الجياد التي استخرجت بهذه الطريقة هي بو خفالني الأول، وبارسيك بولشوي، وأوسان، وكانت تختار لهذه الأحصنة حجور مع حساب صفاتها الشخصية، فقد اختبرت لبوخفالني بنات بولكان الأول من جديد، التي ولدت من الحجور الهولندية، أما بارسيك بولشوي، الذي كانت له ملامح الجنس الهولندي الواضحة، فاختبرت له حجور خفيفة، أصلها عربية إنكليزية دنمركية، وهكذا وضعت الخطط للتهجينات القادمة.

نجح تمازج بارس الأول مع الحجور العربية الميلكينبورغية نجاحًا كبيرًا؛ إذ كانت نتيجة ذلك ولادة الحصان الأسود لوبيزني الأول، الذي ولد عام ١٨٠٤ (من الفرس نيفينايا وهي ابنة فيلكيرزام)، أصبح لوبيزني الأول حصانًا خابًا ومفضلاً لأورلوف.

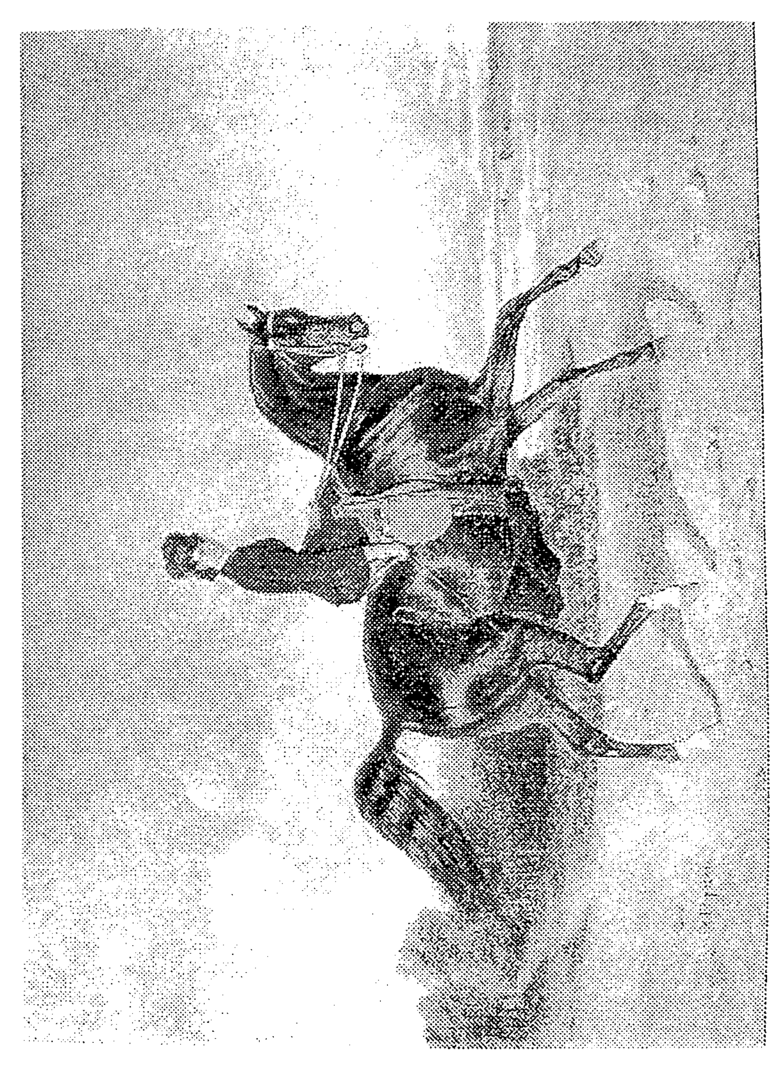
على الرغم من النجاح في تمازج بارس الأول مع الحجور العربية الميلكينورغية واصل أورلوف بحثه في الاتجاهات الأخرى، واتخذ التهجينات المعاكسة؛ إذ أخذ يسفد بارس الأول مع الحجور العربية والهولندية الأصيلة، والاختلاطات، التي استخرجت من القسم السباقي مع الجزء الكبير من الدم الشرقي، أصبحت مفيدة للأعمال القادمة، فاستبقت في القسم الخيبي من المزرعة بعض الخيول من هذا الأصل، والحصان بيزيميانكا الأول، أما أنسال الحجور الهولندية فلم تترك في مزرعة هرينوفسكي على الرغم من رشاقتها الفذة بسبب العيوب في مظهرها، طبعًا هذا الاتساع في الأعمال النسولية احتاج إلى مصروفات مالية هائلة، ولكن بفضل هذا أصبح من الممكن استخراج جنس الخيول الخابة، التي أصبحت من أكبر منجزات تربية الخيل الروسية.

إن قصة استيلاد الجواد الخاب الأورلوفي توضح سعي صاحب المزرعة إلى هدفه بمثابرته وأهليته، كما يقولون الآن، التي أوصلته إلى هدفه المرغوب، في حين أن التهجينات غير المنظمة، التي اتخذها أصحاب المزارع الأخرى لم تعط أيّ نتائج

على الرغم من الخيول الجليلة، التي استخدموها، والمصروفات الكبيرة على شرائها، والمثال على هذه المحاولات غير الناجحة لاستخراج الجياد الخابة نشاط د. شيريميتييف في مزرعة سيريبريانوبرودسكي، فقد هجن شيريميتييف الخيول نفسها التي هجنها أورلوف؛ أي العربية والهولندية والميلكينورغيةوالداغاركية والإنكليزية، ولم يستخرج أي جواد خاب رشيق، لم يجد الحصان الخاب الأورلوفي بين العامين ١٨٧٠ - ١٨٨٠ منافسيه حتى في مضامير أوروبا الغربية، فبعد أن أذهل الحصان بيدوين من مزرعة هرينوفسكي الجميع برشاقته في معرض باريس الدولي عام ١٨٦٧ حين قطع ثلاثة كيلو مترات بأربع دقائق وخمس وأربعين ثانية (الكيلو متر الأخير بدقيقة وتسع وعشرين ثانية) ارتفع الطلب على الخيول الخابة الأورلوفية بدرجة عظيمة.

بعد مرور ربع قرن من إنشاء مزرعة هرينوفسكي من قبل أ. أورلوف، أسس ف. روستوبشينسكي مصنعه في بلدة فورونوي في محافظة موسكو، وكان يسفد فيه الجياد العربية مع الحجور السباقية الأصيلة، وكانت كل الأنسال المستخرجة عنده تمر بالتدريبات والتجارب، التي أعطت نتائج جيدة، بعد ذلك جرى العمل النسولي على التهجينات الاستحداثية، وكان نتيجة ذلك ظهور مجموعة كبيرة من الخيول جيدة المظهر، وقوية البنية، والرشيقة.

في عام ١٨٤٥ بيعت مزارع لتربية الخيل أورلوف وروستوبشينسكي إلى خزانة الدولة، في بادئ الأمر كانت الأعمال النسولية مع الأجناس الأورلوفية والروستوبشينية تجري منفصلة عن بعضها، ولكن مع مرور الزمن بدأت الحجور من السلالة الروستوبشينية تختار لجياد السباق من السلالة الأورلوفية، وكانت نتيجتها ظهور مجموعة فريدة بالنسبة لذلك الوقت من الخيول، التي سميت بالأورلوفية الروستوبشينية (الشكل ٦). إنها تمتاز بارتفاعها وجمال شكلها الخارجي وأكثرها داكن اللون، كما أنها تمتاز برشاقتها وصبرها ومتانة بنيتها وصحتها الجيدة. نالت



[الشكل ٦]

ن. سفيرتشكوف (١٨١٧-١٨٤٩) أمازونة على الحصان من السلالة الأورلوفية الروستوبشينية

هذه السلالة تقديراً عاليًا في المعارض المختلفة ضمن حدود الوطن وخارجه، اعتُرف بالحصان برياتيل في معرض شيكاغو الدولي عام ١٨٩٣ بوصفه أفضل حصان سباق، وبيع بمبلغ هائل بالنسبة لتلك الأيام أي بعشرة آلاف روبل. نال الحصان بيانشيك في المعرض الباريسي عام ١٩٠٠ ميدالية ذهبية، كما نال الحصان فوروبيه الجائزة الأولى في معرض لندن عام ١٩٢١، صدر في عام ١٨٣٦ المجلد الأول من الكتاب عن الخيول الروسية الأصيلة السباقية، دخل فيه ٢٨٧ فحلٍ و٢٢٢ أنثى، وكان أول كتاب نسولي في روسيا، وكان نشره لا غنى عنه بسبب تكاثر مزارع تربية الخيل التي تربي خيول السباق، وبسبب تجديد التجارب السباقية أسس المشتل ستريليتسكي للخيول الآسيوية، والمشتل سكوبينسكي للخيول الإنكليزية الأصيلة من الاسطبل السباقي، التي خدمت بعد ذلك مزرعة هرينوفسكي عام ١٨٤٦.

وأخيراً نجحت مزارع تربية الخيل الوطنية في انسجام خيولها واستخدام مجموعة كاملة من الأجناس النسولية الفريدة المخصصة لأغراض متعددة والمرباة في البلدان التي تختلف بظروفها الجغرافية والمناخية عن روسيا كثيراً.

لم تترك التشوقات الإدارية الموظفين الإداريين لتربية الخيل الحكومية، فاستمرت الإصلاحات التنظيمية في المزارع، فتارة كانوا يفتحون في مزرعة شيسمينسكي قسمًا للخيول الآسيوية الأصيلة بنقل الخيول إليها من مزرعة ستريليتسكي، وتارة يعيدون إنشاء الأقسام السباقية في مزرعة هرينوفسكي، فيربون الأجناس الأورلوفية السباقية والروستوبشينية على حدة، وتارة مع بعضها، وأخيراً توحد المصنعان عام ١٨٥٣، ونقلت كل الخيول إلى مزرعة هرينوفسكي، أما خيول السباق الفتية من مزرعة شيسمينسكي فوزعت على المزارع الحكومية الأخرى بهدف تحسين أجناس الخيول المرباة فيها، في عام ١٨٦٠ توحدت كل الأقسام السباقية في مزرعة هرينوفسكي، فاستخدمت فيها طرائق التهجينات، كما

استخدمت بشكل واسع جياد السباق الأصيلة مع الحجور الأورلوفية والروستوبشينية، كما جرى في هذا القسم محاولة استخدام الخيول العربية التي لم تترك أثرًا واضحًا، ولكن لم يشتر أحد أي جواد أصيل سواء الأورلوفي أم الروستوبشيني من مزارع غير حكومية.

من الصعب اليوم مراقبة كل وسائل استيراد الخيول العربية الأصيلة إلى روسيا، فكان الشراء الفردي يتم من أوروبا والشرق باسخدام الطرق غير الحكومية، وذلك ببعث ممثليهم إلى الشرق[١]، إلا أن تعرجات التاريخ الروسي في القرن الأخير أدت إلى فناء الأرشيفات الخاصة وانقطاع نشاط المؤسسات.

غير أن محفوظات الأرشيف المركزي التاريخي الحكومي في سان بطرسبورغ تتضمن كميَّة كبيرة من المعلومات المرتبطة مع نشاط الدوائر الحكومية الموجهة لكسب الخيول العربية الأصيلة. مع الأسف ليس في الوثائق المكتبية في أكثر الحالات إلا المعلومات الجافة، كالأحداث والتواريخ والأسماء والمقايسات وغيرها[٢].

---

(١) من المعروف أن صاحب مزرعة تربية الخيل خريستوفسكي في مدينة سلافوتا الأمير رومان ساغوشكو كان يشتري الخيول من سوريا بين العامين ١٨٥٤ و ١٨٥٨ (دمشق وحماه) وكان وقتذاك قد بلغ مئة عام منذ بداية تربية الخيول العربية في تلك المزرعة والتي كانت تستورد من الشرق، أنجزت أول رحلة من هذه عام ١٧٩٨ عندما أرسل فويفودا (قائد جيش أو والي منطقة في روسيا القديمة. المعرب) الفولينسي الأمير إيرونيم سولوشكو شخصًا من حاشيته صاحب اسطبل بورسكي إلى البلاد العربية. (انظر أ. شيرباتوف وس. استروغانوف: كتاب عن الحصان العربي، سان بطرسبورغ، ١٩٠٠، ص١٥٧-١٥٩ من النشر الروسي).

(٢) أرشيف الدولة المركزي التاريخي في سان بطرسبورغ، الرصيد رقم ٤٧٧، الجرد رقم ٢ (١٣٣) المصنف رقم ٦٨٥، اثنا عشر جوادا التي أهداها الشاه الفارسي للبلاط القيصري الأسمى ١٨٢٣؛ الرصيد رقم ٥١٩، الجرد رقم ٦، المصنف رقم ٢٠٩، تسليم ١٥ حصانًا فارسيًا لمزارع تربية الخيل العسكرية من الاسطبل الملكي إلى شتاليبستر كوزينس، ١٨٢٣؛ المصدر نفسه، المصنف رقم ٢٤٨، إبقاء الخيول المشتراة من بلاد فارس في الاسطبل =

ابتـداءً من عـام ١٨٢٥ أرسل إلى الشـرق الأطبـاء البـيطريون من أجل شـراء الخيـول العـربية الأصيلة، ودراسة وضع الإدارة الحكومية لتربية الخيل، ومن بين هؤلاء الأطباء كريستينغ (١٨٢٤)[١] وكليم (١٨٣٨)[٢] وإغنلتوف (١٨٤٠)[٣].

= القيصري وعرضها لجلالته، ١٨٢٤؛ الرصيد رقم ٤١١، الجرد رقم ١، المصنف رقم ٥٧٣، اختيار جوادين عربيين بأمر القيصر من آسيا للمصنع يانكوفسكي في بولندا، ١٨٣٩؛ الرصيد رقم ٤٧٧، الجرد رقم ١١، المصنف رقم ٢٦٨، تجهيز الاسطبلات للخيول المستوردة من بلاد فارس والشقق للمسؤولين عنها، ١٨٢٤؛ الرصيد رقم ٤١٢ الجرد رقم ٣، المصنف رقم٩، قبـول المؤسسات الامبراطورية الخيلية إلى الديوان، ومنها ٩ خيـول من الأجناس التركمانية والعربية، ١٨٤٢؛ الرصيد رقم ٤١١، الجرد رقم ١، المصنف رقم ٤٩٣؛ الجياد المختارة بالأمر الأسمى من المدير العام والتي قدمت لجلالته من وريث العرش في بلاد فارس سيراكير أرزيروفسكي، وتصنيف الخيول على المزارع، ١٨٣٨؛ الرصيد رقم ٤١٢، الجرد رقم ٢، المصنف رقم ١١٧، شراء الأحصنة العربية الثلاثة التي جلبها إلى هامبرورغ الجنرال إيوخموس.

(١) أرشيف الدولة المركزي التاريخي في سان بطرسبورغ، الرصيد رقم ٤٤١، الجرد رقم ١ المصنف رقم ٢٨، إرسال الطبيب البيطري كريستينغ إلى بلاد فارس لشراء الخيول لمزرعة تربية الخيل العسكرية وعن إحضارها إلى بطرسبورغ، وعن سرقة الأموال من كريستينغ في بلاد فارس وإخراجها من الحساب، ١٨٢٢؛ المصدر نفسه، المصنف رقم ٥٤، إرسال كريستينغ إلى القسطنطينية لشراء الخيول، وعن كمية الأموال المسلمة له لإجراء ذلك الشراء وعن الأشخاص الموفدين معه، ١٨٢٥؛ المصدر نفسه، المصنف رقم ١٠٢، الوصية لمساعد الطبيب البيطري فارزين على مراقبة الخيول التي أحضرها الموظف كريستينغ من تركيا، ١٨٢٨؛ المصدر نفسه، المصنف رقم ٤٥٦، المذكرة مع الحساب المعد للحاكم الإمبراطور من لجنة مزارع تربية الخيل والمبلغ الذي صرفه الطبيب البيطري كريستينغ على شراء الخيول من بلاد فارس، ١٨٢٥؛ المصدر نفسه، المصنف رقم ٤٥٧، دفتر تقارير الموظف كريستينغ.

(٢) أرشيف الدولة المركزي التاريخي في سان بطرسبورغ، الرصيد رقم ٤١١، الجرد رقم ١ المصنف رقم ٢٤٧، إرسال الطبيب البيطري كليم إلى بلاد فارس لشراء الخيول، ١٨٣٤، المصدر نفسه، المصنف رقم ٣١٨، عن الخيول التي اشتراها الطبيب البيطري كليم من بلاد =

قضى الأول منهم في الشرق مدة ثلاث سنوات، فاشترى خمسة جياد وثلاثة حجور، وقضى الثاني مدة تزيد على سنة، فعاد بتسعة جياد وفرسين اشتراها من بلاد فارس، و ١٥ حصانًا و ٣٤ فرسًا من سوريا ومصر.

وقد نقل جوادان من مشتريات كليم عام ١٨٣٤، وهما أراب أوغلي وبيغري بيغرين إلى مزرعة تيرسكي الحربية الإمبراطورية، كما التحق بهذه المزرعة الجياد أمداني وبدوين وغيدبان وموناقي وراخدونوم ورخيص وشريف، التي أحضرها كليم أيضًا، أسس المشتل في بادئ الأمر ثم في عام ١٨٨٩ أسس قسم خاص للخيول العربية الأصيلة، حيث كانت ٢٦ أنثى عدا الفحول، بعد قليل تتوج نشاط المختصين في الانتقاء في المزرعة ستربلينسكي بنجاح، فقد حدثت تقوية الخيول من الأجناس العربية، وولدت الأنسال بصفاتها البارزة، التي أصبحت أساسًا للسلالة التي سميت بالستريليتسكية (الشكل ٧).

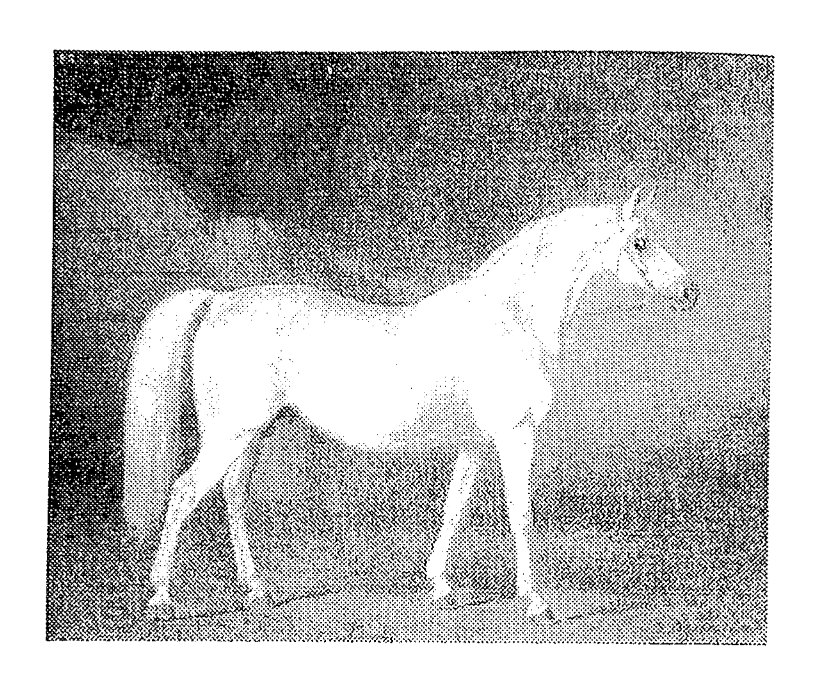
من الأهداف الرئيسة التي سعت إليها الإدارة الحكومية لتربية الخيل ضرورة إعادة إنشاء المشتل للخيول العربية، الذي كان موجودًا في المزارع الحكومية، فكان لا بد من تعبئتها بالفحول الجديدة والمضمونة على قدر الإمكان.

ومن أجل التجهيز التام لتحقيق ذلك الهدف أرسلت قائمة خاصة من الأسئلة إلى القنصليات الروسية في الدول المختلفة[1] وكان من أمتع الأجوبة التقرير الذي

= فارس، وثم من سوريا للمصانع الحربية، ١٨٣٧؛ المصدر نفسه، ٥١٥، عن الخيول التي اشتراها الطبيب البيطري كليم من بلاد فارس والقاهرة وسوريا وتصنيفها على المزارع، ١٨٣٨.

(٣) أرشيف الدولة المركزي التاريخي في سان بطرسبورغ، الرصيد رقم ٤١١، الجرد رقم ١ المصنف رقم ٦٠٢، عن مذكرات الطبيب البيطري إغناتوف عن بعثته إلى سوريا، ١٨٤٠.

(١) أرشيف الدولة المركزي التاريخي في سان بطرسبورغ، الرصيد رقم ٤١٢، الجرد رقم ٢ المصنف رقم ٢٥١، تربية الخيول العربية في روسيا، ١٨٤٨؛ المصدر نفسه، الجرد رقم ١، =



[الشكل ٧]

ن. سفيرتشكوف (١٨١٧-١٨٩٨) عبيان الفضي، الجواد الرمادي من السلالة العربية المولود عام ١٨٥١ من عبيان والفرس العربية المولودة في مزرعة تربية الخيل التابعة لسانغوشكو وهو فحل أساسي في مزرعة تربية الخيل الستريليتسكية والمشتل النسولي الشيسمينسكي وسلف السلالة الستريليتسكية

أصدره القنصل الروسي العمومي في بيروت قنسطنطين بازيلي (١٨٠٩ - ١٨٨٤)[١] (الشكل ٨).

= المصنف رقم ٥٢٢، شراء الخيول العربية لمزارع تربية الخيل الحكومية أجراه القنصل العام في سوريا، ١٨٤٩.

(١) انظر إ. سميلانسكايا (رئيسة التحرير) «سوريا ولبنان وفلسطين كما وصفها الرحالة الروس والاستعراضات القنصلية والعسكرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر»، موسكو، دار النشر «ناوكا»، ١٩٩١، ص٢٣٦-٢٥٣.



[الشكل ٨]

قنسطنطين بازيلي

يشتهر ق. بازيلي بين المستشرقين البارزين بكتابه الكلاسيكي «سوريا وفلسطين تحت الحكم التركي من الناحية التاريخية والسياسية»، وقد نشر هذا الكتاب عدة مرات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما نشر في وقتنا الحاضر من جديد، ومنذ مدة قصيرة ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية، عرف القارئ الروسي في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي اسم قنسطنطين بازيلي بعد أن نجحت مؤلفاته «الأرخبيل واليونان في العامين ١٨٣٠ و ١٨٣١» (سان بطرسبورغ، ١٨٣٤)، و «نبذ القسطنطينية» (سان بطرسبورغ، ١٨٣٦) كما تنسب

لقلم بازيلي الكثير من الرسائل القنصلية التي كونت عشرات من المجلدات الضخمة .

ولد قنسطنطين ميخالوفيتش بازيلي في استنبول في ٣ شباط عام ١٨٠٩ في أسرة يونانية ، ساهمت في تقاليد الحركة التحررية اليونانية والنهضة الثقافية ، وكان جد قنسطنطين ميخايلوفيتش ألبانيًا يوناني الأصل ، وشارك في الانتفاضة ضد الأتراك عام ١٧٧٢ ، وحرم مرتين من ثروته ، وحكم عليه بالإعدام ، أما والد الدبلوماسي الروسي المقبل ميخائيل فاسيلييفيتش فكان أيضًا محكومًا بالإعدام ونجا بفضل تدارك أحد الوجهاء الأتراك الذي أشفق عليه ، وخبأه عند السفير الروسي في استنبول . غ . استروغانوف .

بعد ذلك نزح ميخائيل فاسيلييفيتش مع ابنه الأكبر إلى تريستاالذي كان أيضًا معرضًا لخطر حكم الإعدام ، والذي استشهد مؤخرًا في إحدى المعارك التحررية ، وبعدها نزح إلى أوديسا ، حيث كان يقيم أقرباؤه ، وإلى حيث نزحت زوجته مع الأولاد الباقين سرًا بمساعدة غ . استروغانوف ، توظف قنسطنطين في الإدارة الآسيوية لوزارة الخارجية (تلك الإدارة التي ترأسها في أواخر القرن ابنه ألكسندر) ، وفي كانون الثاني من عام ١٨٣٧ ترقى في وظيفته ، وأرسل إلى ما وراء القوقاس .

وفي ٢٤ كانون الأول عام ١٨٣٨ أخرج من القوقاس مع ترقٍّ جديد في رتبته ، فعين في «وظيفة القنصل الروسي في يافا ، التي شغرت بسبب وفاة القنصل موستراس» .

حتى آب ١٨٣٩ كان قسطنطين ميخايلوفيتش موجودًا في استنبول ، ثم اتجه إلى الإسكندرية ، ليقدم نفسه للقنصل الروسي العمومي الذي يتبع له كل الوكلاء القنصليين في سوريا ، وبينما كان بازيلي في الإسكندرية صدر قرار تحويل الخدمة القنصلية في سوريا ، ونقلها من يافا إلى بيروت ؛ لأنها مركز سياسي وتجاري في

البلاد، وصل قنسطنطين ميخايلوفيتش إلى هناك في ٢٠ تشرين الثاني عام ١٨٣٩ برتبة القنصل الروسي في بيروت وفلسطين، وفي عام ١٨٤٣ تحولت الهيئة القنصلية في بيروت إلى القنصلية العمومية، فأصبح بازيلي قنصلاً عامًا يتبع له كل خدم القنصلية الروسية في سوريا.

كان أول نتائج البحوث العلمية لدى قنسطنطين ميخايلوفيتش هي «مذكرة عن التجارة الخارجية في سوريا»، التي أرفقها في ٢٠ أيار ١٨٤١، وتلت هذا المؤلف أعمال أخرى هي: «ملاحظات إحصائية عن القبائل السورية وإدارتها الروحانية»، التي نشرت في ملحق كتاب «سوريا وفلسطين» قبل الثورة، ضمت هذه الملاحظات المعلومات الدينية والعرقية لسكان سوريا، والأوصاف المفصلة عن الطوائف العرقية والدينية في البلاد.

في عام ١٨٥٣ في بداية حرب القرم سافر بازيلي إلى إيطاليا ومنها إلى روسيا حلت في نشاطه الدبلوماسي مرحلة جديدة، إذ نال مجموعة من الوظائف وفي عام ١٨٥٨ حصل بازيلي على رتب وجوائز حكومية سامية، ثم نال إجازة طويلة، ولم يعد إلى خدمة الدولة بعد ذلك، فسكن في أوديسا ونشر كتابه «سوريا وفلسطين».

قضى بازيلي الأعوام الأخيرة من حياته في دراسة الأوراق واليوميات التي كان يكتبها منذ عام ١٨٣٠، وقد توفي فوق أوراقه في صباح ١٠ شباط ١٨٨٤، للأسف بقي مصير أرشيف ق. بازيلي الثمين مجهولاً.

لقد أصبحت الوثيقة التي أصدرها بازيلي عام ١٨٤٨ عن تجارة الخيل في البلاد العربية أثرًا علميًا حقيقيًا؛ لأنها تضم الأوصاف المفصلة عن خصال الحصان العربي وعلاقة المجتمع العربي به، وعنده ملاحظة خاصة عن حب العرب لحصانهم العربي، الذي يعبر عنه الأدب الكلاسيكي والفولكلور والتقاليد والعادات التي

تنظم سير تنمية الخيول الأصيلة عند البدو، كما كان عنده وصف خاص لوسائل الدخول إلى مناطق الجزيرة العربية الداخلية ومسقط واليمن.

يصف بازيلي بشكل خاص هذا الضرر الكبير الذي يصيب تربية الخيل العربية بسبب التصديرات الوحشية الشاملة للخيول العربية عبر بغداد والخليج لتلبية حاجات الجيش البريطاني الاستعماري في الهند.

لقد قيمت الوثيقة التي أصدرها بازيلي في سان بطرسبورغ كثيراً، ومنح مؤلفها في أيلول عام ١٨٤٩ قرضًا خاصًا قدره ٢٠٠٠ روبل ذهبي للحصول على الخيول العربية لحاجات الدولة (التحقت الجياد قبايشان والصقلاوي والشامي التي اشتراها بازيلي في سوريا عام ١٨٥٠ بمزرعة هرينوفسكي وعبيان الأول بمزرعةستريليتسكي) صدر مؤخراً عمل بازيلي بطريقة طباعة الحجر ثم أرسلتها وزارة أملاك الدولة إلى كل المنظمات المهتمة بالأمر، وسنقدم عمل بازيلي في هذا الكتاب كاملاً.

من بين الأجوبة الأخرى عن قائمة الأسئلة المذكورة أعلاه توجد وثيقة ألفها العقيد تشيريكوف في محمرة، تحفظ هذه الوثيقة في الوقت الحاضر في الأرشيف المركزي التاريخي الحكومي في سان بطرسبورغ.

استدركت المعاهدة التركية الفارسية في أرضروم عن تخطيط الحدود التي عقدت عام ١٨٤٧ أن الحدود سوف توضع من قبل لجنة خاصة بمشاركة ممثلي الدول الأربع وهي روسيا وإنكلترا وبلاد فارس وتركيا، وكان العقيد ي. تشيريكوف مندوبًا ووسيطًا روسيًا.

عينت بغداد مكانًا للقاء الممثلين الأربعة، انطلق الممثلون الروس من القسطنطينية إلى سمسون عن طريق البحر، وفي ٢٤ نيسان من عام ١٨٤٩ وصلوا إلى الموصل، وفي ١٠ أيار انطلقوا من الموصل باتجاه بغداد على نهر دجلة.

كان واجب تشيريكوف حسب التعليمات هو تحديد المسالك وإجراء تصويرات على قدر الإمكان.

قضت اللجنة في بغداد بضعة أشهر، قامت خلالها بالمحادثات الممثلية، زار تشيريكوف خلال هذا الوقت آثار مدينة بابل وكْتيسيفون وكربلاء ونجف والكوفة الواقعة في أسفل جريان نهر الفرات.

في كانون الأول من عام ١٨٤٩ انطلقت اللجنة بالمراكب على نهر دجلة وشط العرب باتجاه الخليج العربي، وفي ربيع عام ١٨٥٠ زارت اللجنة بندر بوشير وشيراز، وفي الخريف من العام نفسه اتجهت إلى أصفهان، ثم كان خط سيرها بطول الحدود التركية الفارسية حتى أرارات، حيث أنهت اللجنة في تشرين الثاني من عام ١٨٥٢ عملها بوضع الحدود الذي استغرق أربع سنوات.

بعد عشرين سنة ونيف من إنهاء اللجنة عملها صدرت في سان بطرسبورغ عام ١٨٧٥ في المجلد التاسع من «مسجلات القسم القوقاسي من المجتمع الجغرافي الإمبراطوري الروسي» «مجلة سفر ي. تشيريكوف» من تحرير م. غامازوف، وهو سكرتير اللجنة الوسيطة الأسبق.

تحتوي مجلة سفر تشيريكوف على مذكراته المسجلة وانطباعاته، أكبر قسم من المجلة مكرس لبلاد فارس، ومذكراته عن القبائل العربية الكردية لها أهمية كبيرة.

كما أضيفت إلى مجلة سفر تشيريكوف بعض البيانات من يوميات سفر م. غامازوف بما في ذلك وصف رحلة اللجنة الروسية من القسطنطينية إلى بغداد مذكرات م. غامازوف أكثرها أيضًا مكرس لبلاد فارس، أما القسم المخصص لتركيا فيحتوي على تقرير عن العرب.

إن مجلة سفر تشيريكوف مع ملاحق غامازوف هي عبارة عن عمل ذاتي كبير ومليء بالمواد التاريخية والجغرافية القيمة، كما أنها مصدر جيد لدراسة الشرق الأدنى وخصوصًا بلاد فارس.

عدا ذلك تعطي مجموعة من الوثائق الرسمية المرتبطة برحلة تشيريكوف أهمية كبيرة، وسوف ننشر هنا واحدة من هذه الوثائق التي هي مخصصة للحصان العربي.

مع الأسف لم تتحقق رحلة غيورغي أوغسط فالين (١٨١١ - ١٨٥٢) أستاذ جامعة هلسينكي (كانت فنلندا تابعة للإمبراطورية الروسية) إلى البلاد العربية[١]. كان يجب أن تتحقق هذه الرحلة على حساب المجمعات الجغرافية الروسية الإمبراطورية واللندنية الملكية، كما استدركت هذه الرحلة تجميع المعلومات عن الخيول والحصول عليها، نوى فالين أن يقطع البلاد العربية كلها حتى حضرموت والعودة عن طريق بغداد.

كانت علاقة البروفيسور فالين مع مدرسة الاستشراق البطرسبورغية متينة، فاشتهر برحلته إلى بلاد العرب ١٨٤٥ - ١٨٤٨ (بما في ذلك وادي السرحان والخليل، وفي نجد تبوك والطائف ومشهد علي) كما اشتهر في دراسته لثقافة العرب ولغتهم، التي ألفها معتمدًا على المعلومات الميدانية التي جمعها.

منع موت العالم المفاجئ من إنجاز ذلك المشروع، لم تكن كل المحاولات التي حققتها الإدارة العامة لتربية الخيل لكسب الخيول العربية بكمية لازمة وصفاتها

(١) انظر أرشيف الدولة المركزي التاريخي في سان بطرسبورغ، الرصيد رقم ٤١٢، الجرد رقم ١، المصنف رقم ١١٦، تجميع المعلومات عن طريق البروفيسور فالين الذي سافر إلى بلاد العرب ١٨٥١.

الضرورية كافية، فأرغمت بضرورة مراجعة مصدر الخيول العربية مباشرة إلى وطن هذه السلالة الثمينة، وذلك بإرسال خبير في الخيول إلى هناك.

وقع الاختيار على عالم الخيل الممتاز والخيّال وعضو مجلس الإدارة الرئيسة لتربية الخيل الحكومية العقيد م. دوختوروف، في أوائل عام ١٨٦٢، أرسل دوختوروف إلى سوريا ومصر لشراء الخيول اللازمة للحكومة من العرب شخصيًا، كان طريقه على الشكل الآتي: سان بطرسبورغ - تريستا - القسطنطينية - اسكندرون - حلب - أورفا - حماة - حمص - بعلبك - اسكندرية - القدس - دمشق - بيروت - تريستا - سان بطرسبورغ، وقام بعدة زيارات للبدو في بادية الشام.

صاحب دوختوروف في رحلته إلى الشرق الطبيب البيطري باستوخوف والسواس الروس شيورني وسفيستولا، كما استأجر دوختوروف في بيروت الترجمان إلياس عباس، والطباخ العربي أنطون.

وفي ضواحي تريستا زار دوختوروف مزرعة لتربية الخيل النمساوية الإمبراطورية الليبيسيانية ووصفها (انظر أدناه)، وفي استنبول زار اسطبلات صاحب المانيج والتاجر ليون لسريشا، وسليم باشا ابن الوزير الأعلى كربتيل مصطفى باشا، ومن بين الخيول التي شاهدها «تميزت أربعة منها بأنها من أصل عربي، وهي عبيان أبو جريس، وصقلاوي الجدران، والأعنق الحدروج، وكحيلان العجوز، كلها بيضاء اللون، وكلها أصلها من الجياد المشهورة من مزرعة عباس باشا في مصر، إذا تأملها أحد بدقة فسيلاحظ أن ساقيها الأماميتين متباعدتان، ومتونها طويلة، ومنبت رقابها مسطح، ورؤوسها لحمية وكبيرة، ولكنها إجمالاً تعبر عن الكرامة والجمال، عرض سليم باشا على الاثنين منها سعراً قدره عشرة آلاف قرش؛ أي ما يقارب ثمانية آلاف روبل، فضي للواحدة»[١].

(١) رحلة م. دوختوروف إلى الشرق، سان بطرسبورغ، ١٨٦٣، ص٦٥-٦٦.

حاول دوختوروف في استنبول أن يجمع معلومات عن الاسطبلات السلطانية: «فوجد أن كل عضو من أعضائها العرب يحق له الدخول إلى اسطبلات الباشا، ويأخذ منها في أي وقت حصانًا جديرًا بأن يركب على متنه أمير المؤمنين، وما عدا ذلك كل الباشاوات والوزراء الحربيين وغيرهم من الأشخاص المنفذين في الإمبراطورية التركية يعدّون تقديم هدايا للسلطان من أفضل الخيول التي يجدونها في المحافظات من واجبهم في كل سنة، وهكذا تتركز في اسطبل السلطان خيرة خيول الإمبراطورية، وهذه الخيول لا ترى إلا عند تحول السلطان في المدينة أو في الصباح الباكر، عندما يركبها السواس حول القصر، وهذا بسبب الاعتقاد الذي يحتم عدم السماح للغرباء بالدخول إلى الاسطبلات كي لا تصيبها العين.

. . . منذ مدّة قصيرة مرض حصان السلطان المفضل، ومن الظاهر أن الوسائل الطبية لم تؤد إلى شفائه سريعًا، لهذا نصح الملا (الشيخ) السلطان باتباع طريقة أخرى في علاجه، وهي ذبح خروف وتوقيف الحصان المريض على المكان الملطخ بدم الخروف المذبوح، فاتبعوا هذه الوسيلة فشفي الحصان، ومنذ ذاك الحين منع في الاسطبلات السلطانية استخدام الأطباء البيطريين وبخاصة الكفار منهم المعروفون بأنهم يصيبون بالعين»[1].

تأمل دوختوروف في حلب الخيول من اسطبلات المضارب المشهور محمد أغا عطار، والقناصلة الأوروبيين الذين كانوا يتاجرون بالخيول أيضًا، وشاهد في القاهرة اسطبل المضارب علي أغا جنباس أوغلي، الذي كان يملك ١٥٠ حصانًا للبيع، كما تأمل اسطبل رئيس المحكمة التجارية علي بيك، فرأى عنده ثلاثة جياد جيدة مشتراة من مزرعة عباس باشا، الشهير، «مزرعة العباسية».

(١) المصدر نفسه، ص٤٦.

عندما كان دوختوروف في القاهرة حاول أن يعرف شيئًا عن هذه المزرعة المشهورة التي قضي عليها، «كانت هذه المزرعة تقع قرب القاهرة في السهب الذي يمتد إليها من طريق معبد، ولا تزال المباني الضخمة من المزرعة السابقة التي شيدها عباس باشا قائمة حتى الآن، تقع الاسطبلات تحت الظلال في ثمانية أفنية، تحيط بها جدران حجرية، كلفت هذا المزرعة أموالاً باهظة، وقد صرف عليها عباس باشا الهاوي والمتحمس الكبير للخيل الملابين، كان وكلاؤه يتنقلون في السهوب، ويشترون من البدو أفضل الخيول، وكان له تفوقه الباشاوي إذ كان البدو يقدمون له أفضل ما عندهم من خيول بشرط أن ينالوا مهراً أو مهرين مولودين منها، ولولا هذه الشروط لما رضي البدو على مفارقة خيولهم، التي كانوا يقدمونها له بأي شكل.

كان عباس يرضي ولعه بالخيول بالاستفادة من علاقاته مع البدو للأهداف السياسية أيضًا، كما كان يربط علاقاته مع القبائل المتنقلة والبدو يقدمون له خيولهم فيأتون إلى مصر في وقت ولادة المهرة، وفي مثل هذه الأوقات كان عباس يستضيف البدو ويقدم لهم هدايا، لذلك قوي نفوذه على القبائل كثيراً، توفي عباس باشا عام ١٨٥٦ فورثه ابنه الجامي باشا الذي بلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت ابنة السلطان زوجته، لم يكن الجامي ولوعًا بالخيول، فلم يعتن بمزرعته الموروثة كثيراً فكان يهدي أفضل الخيول إلى القسطنطينية ولأصدقائه يهدي واحداً أو اثنين أو ثلاثة خيول، فلم يبق من ١٠٠٠ رأس إلا ٣٥٠، استغل الإداريون عدم مبالاته بالمزرعة فأخذوا يكسبون الخيول منه بالسرقة والاحتيال، انتقلت أفضل خيول المزرعة إلى أيدي الهواة الأغنياء بتقديم الرشاوي للسواس، وأخيراً رهنت المزرعة إلى المصرف، وعينت للبيع الذي تحقق في ١٠ كانون الأول عام ١٨٦٠، جرى المزاد العلني دون أي جرد أو تقارير صحيحة، اشتري أفضل جواد منه قدير الأبيض وعمره ٢٦ سنة للملك الفيورتيسيرغي، واشترى أبناء قدير الثلاثة علي بيك رئيس المحكمة التجارية والتي لا تزال في اسطبله حتى الآن، كما اشترى أربعين أنثى، واشترى الفرنسيون ١٨ فحلاً وأنثى، واشترت النمسا اثنين منها عن

طريق الأمير أرينبيرغ، واشترت بييمونت عشرين حصانًا، كما اشترى الملك الفيورتيمبيرغي الحصان الكميت ضرغام وثلاث حجور رمادية: دخمة ودويبة وموريقيا، اجمالاً كان في المبيع ٣٠ حصان (منها ١٤ أصيلاً) وعدد الإناث ١١٠، والمهور ١٨٠»[١].

كسب دوختوروف في الشرق إجمالاً ٥ فحول و ٧ إناث، كما تمكن عدا ذلك أن ينال تصريحًا في حماه من الشيخ شوحان محمد أغا، فنجح في إسفاد فرسه المغراء، اسمها «الشقراء»، مع مهرها الأمغر، دون سمات وهي من أفضل الخيول التي رآها دوختوروف في سوريا، كان هذا الجواد ينتمي «إلى سلالة الأعنق الحدروج أصله من حجور النبي محمد الخمسة، فلم يرض صاحبه ببيعه بأي شكل»[٢].

بعد سنة من عودة دوختوروف إلى وطنه نشر في سان بطرسبورغ تقريرًا عن رحلته[٣]، وسوف نقدم بعض المقتطفات من هذا التقرير في هذا الكتاب.

أصبحت الخيول التي استجلبها دوختوروف أساسًا للمشتل العربي ليماريفسكي، الذي أسس عام ١٨٦٣، كما التحقت بهذا المشتل خيول من المشتل شيسمينسكي، التي اشتريت من السمسمار العربي علي عبد الله (١٨٦٥ - ١٨٦٦ - ١٨٦٧) في مزرعة الأمير ساغوشكو، التي نيلت هدية من القيصر والأمراء وغيرهم.

في عام ١٨٨٠ أخرج ف. باستوخوف الذي صاحب دوختوروف كتاب مزرعة المشتل ليماريفسكي.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٧.

(٣) انظر أيضًا أرشيف الدولة المركزي التاريخي في سان بطرسبورغ، العمل المكرس لرحلة دوختوروف، (الرصيد رقم ٤١٢، الجرد ١/ ٤، المصنف رقم ٤)، الرصيد رقم ١٤٠٩، الجرد رقم ١، الوثيقة رقم ٤٥٦٤، شراء الخيول العربية من الشرق، ١٨٦٤-١٨٦٦.

إلا أن أساس هذا الكتاب هو المواد المرتبطة مع نشاط الرحالة الروس وأصحاب المزارع الأمير شيرياتوف والأميرة شيرباتوفا (الشكل ٩) وشقيقها الكونت استروغانوف، الذين قاموا برحلة إلى بادية الشام في بدايات القرنين التاسع عشر والعشرين، بهدف الحصول على الخيول العربية الأصيلة لمزارعهم.




[الشكل ٩]
ألكسندر شيرباتوف في آخر أعوام حياته وأولغا شيرباتوفا

وبما أنهم ينتمون للأرستقراطية الروسية السامية والأثرياء والمثقفين في مختلف الجهات، لعبوا دوراً حاسماً في تطوير التقاليد الروسية في تربية الخيول العربية الأصيلة، ونشاطهم في هذا المجال يقاس مع جهود الكونت أورلوف شيسمينسكي المذكور أعلاه، الذي حفظت اسمه أفضل أجناس الخيول الروسية السباقية والخابة.

كان ميدان اهتمام الزوجين شيرباتوف واسعاً جداً، فقد زارا بعض البلدان العربية والهند وسيلان وسنغافورة وجاوة، قام الزوجان شيرباتوف برحلتهما

الأولى إلى البلاد العربية عام ١٨٨٨، وفي العامين ١٨٩٠ و ١٨٩١ زارا الهند وسيلان، وفي عام ١٨٩٣ قاما برحلة إلى جاوة، وأخيرًا في عام ١٩٠٠ قاما برحلتهما الثانية من بيروت إلى دمشق، ثم الرافدين، وعادا من الطريق نفسه[١].

أصبح الانطباع عن رحلتهما إلى الشرق أساسًا لثلاثة كتب من تأليف أولغا شيرباتوفا[٢]، وما عدا ذلك ألف ألكسندر شيرباتوف بالتعاون مع شقيق زوجته س. استرغانوف «كتاب عن الحصان العربي»[٣]، الغزير بالمعلومات الأثنوفرافية عن العرب السوريين، وهذه الكتب مزودة بالصور الفوتوغرافية من صنع يد مؤلفيها الرحالة.

---

(١) ف. باستوخوف: المشتل العربي ليماريفسكي، كتاب مزرعة عن الخيول من المشتل العربي ليماريفسكي، سان بطرسبورغ، ١٨٨٠.

(٢) أولغا ألكسنادروفنا شيرباتوفا: ركوب الخيل في مواطن البدو، البحث عن الخيول العربية الأصيلة (٢٦٠٠ فرستا غير صحارى الجزيرة العربية سنة ١٨٨٨م و ١٩٠٠م) سان بطرسبورغ ١٩٠٣، المؤلفة نفسها: في الهند وسيلان، مذكراتي السفرية ١٨٩٠-١٨٩١، مع فصلين إضافيين عن الدين وفن العمارة في الهند، المؤلفة نفسها: في بلاد البراكين، مذكرات الرحلة إلى جاوة عام ١٨٩٣ سان بطرسبورغ، ١٨٩٧، انظر أيضًا: أ. شيرباتوف: لمحة تاريخية مختصرة والوضع الراهن في الهند، موسكو، ١٨٩٢.

(٣) أ. شيرباتوف وس. استروغانوف: الكتاب عن الحصان العربي، سان بطرسبورغ، ١٩٠٠، (النشر الإنكليزي:

A. G. Sherbatov & S. A. Stroganov. The Arabian Horse (J. A. Allen, 1989).

تشبه آثار شيرباتوف واستروغانوف بحماستها واستنتاجاتها كتب المؤلفين الأوروبيين المنشورة في الوقت نفسه تقريبًا، انظر:

Colonel Spencer Borden. The Arab Horse NY, 1906; H. Davenpat. My Quest of the Arabian Horse. London, 1911; B. V. Lukomsky. Das arabish Pferd: Stuttgart, 1906; T. P. Boucaut. The Arab, the Horse of the Future London 1905.

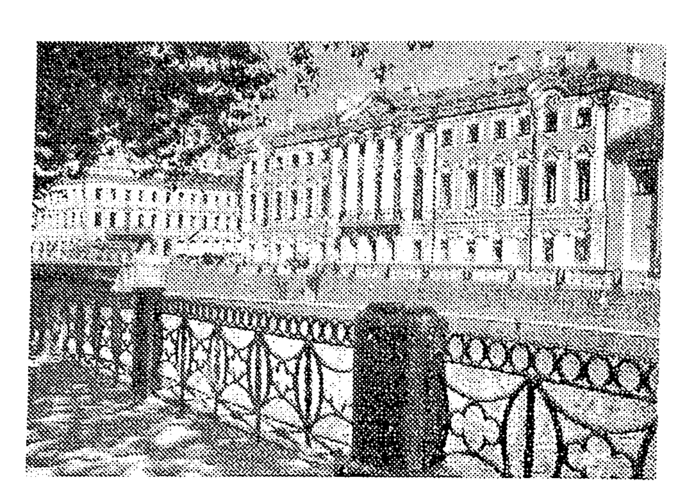
قام الزوجان شيرباتوف بكل رحلاتهما على حسابهما ؛ أي إنّ رحلاتهما كلها كانت خاصة ، لم يحتج المسافرون للأموال كبعض زملائهم الموفدين من قبل الجمعيات الجغرافية الروسية أو غيرها من المؤسسات العلمية والحكومية ، لم يكن لهم أي ارتباط مع المسالك المقررة سلفًا ، أو العناية من السلطات ، وكانت المسافات التي قطعوها من خلال رحلاتهم تصل إلى آلاف الكيلومترات .

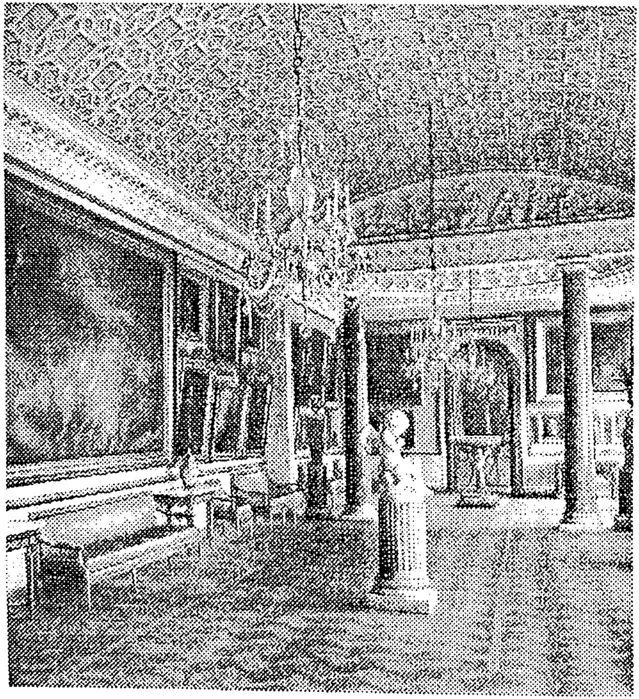
يعود أصل أسرة شيرباتوف إلى السلالة القيصرية ريوريك ، وهم سليلو إحدى فروع الأمراء شيرنيغوفسكي والمنضمين بعد ذلك إلى أسمى ألقاب الأرستقراطية الروسية وأغناها .

كان من أبرز أجداد أولغا شيرباتوفا جدها سيرغي غريغوريفيتش استروغانوف الذي أسس في موسكو المدرسة الفنية على حسابه التي لعبت دورًا حاسمًا في تنمية الثقافة الفنية في روسيا ، ولا تزال هذه المدرسة تحمل اسمه حتى الآن .

بقيت أسرة استروغانوف تجمع القيم الفنية من جيل إلى جيل كآثار الفنانين الكلاسيكيين من الدرجة الأولى ، ومنها فنون الرسم العالمية والنحت والبرونز وآثار فن الحضارة الإغريقية والرومانية القديمة ، يقع قصر أسرة استروغانوف (الشكل ١٠) في بطرسبورغ وبناه المهندس المعماري الشهير راستريلي ، ثم أصبح هذا القصر من أغنى المتاحف الروسية الخاصة ، بعد عام ١٩١٧ انضمت مجموعاته الفريدة إلى مجموعات المتحف هيرميتاج ، وهذا ما ساعد على دعم الجو الروحاني في أسرة شيرباتوف واستروغانوف حيث نشأ الرحالة المقبلون .

ولد ألكسندر غريغوريفيتش شيرباتوف في ١٠ تشرين الأول عام ١٨٥٠ في بطرسبورغ ، وأنهى دورته التعليمية في جامعة بطرسبورغ ، ويتضح نشاطه الاجتماعي والإبداعي من ميوله للمواد الاجتماعية وبخاصة الاقتصاد والمحاماة ، وكان يعرف الكثير عن المؤلفات الوطنية والأجنبية في هذا المجال ، كما كان يتكلم





[الشكل ١٠]

قصر أسرة استروغانوف في سان بطرسبورغ (الواجهة) وإحدى قاعاته

بعدة لغات أوروبية بطلاقة، في أثناء الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ - ١٨٧٨ عمل ألكسندر شيرباتوف مندوبًا في الصيب الأحمر في الفرقة الروشوكسية في البلقان ونال وسام فلاديمير بأربع درجات مع السيوف.

اشتهر ألكسندر شيرباتوف ليس كرحالة فحسب بل كرجل اجتماعي وعالم اقتصادي، وناصر إعادة بناء الاقتصاد في روسيا[١].

عقد القران بين ألكسندر غريغوريفيتش شيرباتوف وأولغا ألكسندر وفنا استروغانوفا عام ١٨٧٩، وكانت العروس الفتية ابنة الاثنين والعشرين أصغر من زوجها بسبع سنوات، نالت أولغا استروغانوفا ثقافة منزلية جيدة بالنسبة لتلك الأيام؛ لأن التعليم العالي لم يكن سهل المنال للنساء حتى لممثلات الأرستقراطية الأسمى، أصبحت هذه المرأة الفائقة واحدة من الرحالات القلائل في البلدان الشرقية وطبعًا كانت المرأة الروسية الوحيدة التي قطعت بادية الشام ركوبًا على الحصان من دمشق حتى أواسط الفرات، كما قطعت جزيرة جاوة كلها.

نال ألكسندر شيرباتوف من والديه ميراثًا ضخمًا اكتمل على حساب جهاز العروس، فملك الزوجان عدة ضيع في محافظة موسكو وفورونيج وساراتوف وعدة بيوت في موسكو وبطرسبورغ.

اتحد الزوجان أولغا وألكسندر شيرباتوف بسعيهم وراء الأهداف والتعطش لمعرفة المجهول، والتحمس لعملهم، ومع ذلك كانا مختلفين بمزاجيهما وطبعيهما،

---

(١) تنتمي لقلم ألكسندر شيرباتوف أكثر من ٣٠ مؤلفًا بما فيها الكتب والكراريس والمقالات والمحاضرات المنشورة، ومنها: أ. شيرباتوف: وسائل تنمية الإنتاج في المزارع الفلاحية موسكو، ١٩٠٥، المؤلف نفسه: أهمية الحرب مع اليابان لروسيا، سان بطرسبورغ، ١٩٠٥، المؤلف نفسه: روسيا المجددة، موسكو، ١٩٠٨، المؤلف نفسه: الاقتصاد الوطني في روسيا في المستقبل القريب، موسكو، ١٩١٠.

فقد كانت الأميرة ذات مزاج قوي ومسيطر إذا لم نقل مستبد، أما الأمير فكان ليناً أكثر منها، ولا يحب التدخل في الأعمال المنزلية، كانت الأميرة هي التي تدير أعمال المنزل، أما زوجها فكان يفضل النشاط الاجتماعي والإبداعي، بقيت الأميرة على قيد الحياة ثلاثين عاماً بعد وفاة زوجها في أوائل الحرب العالمية الأولى(١).

في ١١ أذار ١٨٨٨ رمى اليخت الأبيض آنفًا الذي يرفرف فوقه العلم الروسي مرساه في ميناء بيروت، كان هذا اليخت تابعًا للكونت سيرغي استروغانوف.

كان الكونت في شبابه ضابطًا في الأسطول، فوصل إلى رتبة الملازم، وقدم استقالته بعد أن خضع تمامًا لهوايتيه وهما تربية الخيل والرحلات، كانت مزارع استروغانوف مشهورة في روسيا كلها، فكان هدف رحلتهم المقررة إلى البلاد الشرقية الحصول على الخيول العربية الأصيلة للمزرعة، وكان عنبر يخته معدًا لمرابط الخيل.

صاحب الكونت في رحلته وشاركه فيها شقيقته أولغا مع زوجها الأمير ألكسندر شيرباتوف، كان الصهران صديقين، ومن تأثير هذا الملازم المتقاعد من

---

(١) اضطر أبناء الزوجين شيرباتوف إلى مغادرة روسيا بعد ثورة ١٩١٧، وكان ابنهما الأصغر غيورغي يدرس في موسكو، وأصبح بعد ذلك ضابطًا في القوات البحرية في الولايات المتحدة، زار الاتحاد السوفيتي وقت الحرب العالمية الثانية في أثناء المؤتمر اليالطاوي لرؤساء ثلاث دول عظمى في شباط ١٩٤٥، فكان من أفراد الوفد المرافق لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية روزفيلت، مات غيورغي شيرباتوف دون أن يخلف أولادًا، أما شقيقته ي. شيرباتوفا فعاشت في إنكلترا، وتوفيت فيها في أواخر السبعينات، أما أحفاد الرحالة شيرباتوف؛ أي بنات ألكسندر بن ألكسندر شيرباتوف فتسكن في البرازيل وفرنسا والنمسا، وبعد إخماد أسرة استروغانوف سمى أحفاد الرحالة أنفسهم بشيرباتوف استروغانوف تلبية لتقاليد المجتمعات الروسية المهاجرة.

كرس لأسرة شيرباتوف نشر خاص (ل. ديمين: في البلدان البعيدة، موسكو، ١٩٨٤)، الذي استخدمناه لكتابة هذا الجزء من عملنا.

الأسطول الروسي بدأ الأمير مع زوجته يهتمان بتربية الخيل أيضًا، فتحمسا لرغبتهما بأن يصبحا أصحاب الخيول القوية والمشوقة الأرجل من السلالة العربية، كما أن أولغا شيرباتوفا كانت متأثرة بكتاب Lady Anne Blunt التي قامت برحلتها ركوبًا على الخيل عبر بادية الشام، وألفت كتابين(١).

كانت رحلتهم مصحوبة برفاهية تليق بالأسر الروسية الأرستقراطية المشهورة، أدهشت أناقة سفينتهم الفاخرة كل ضيوفها من السفراء والقناصل والتجار، كانت رحلتهم مصحوبة بالخدم المهذبين وأصحاب البوفيه والطباخين، عندما استقبل القنصل الروسي الرحالة في بيروت وأخذهم إلى مقره اشتكى من ضغينة السلطات المحلية وعداوتهم الحقيقية، لممثلي روسيا، لقد مضى عشر سنوات على نهاية الحرب الروسية التركية الأخيرة والسلطات السلطانية لا تستطيع أن تنسى مرارة الهزيمة وفقدان الأراضي بعد أن ظهرت على الخريطة السياسية لشبه جزيرة البلقان

---

(١) A. Blunt, Lady A Pilgrimage to Nejd (Murray, 1881)

النشر الجديد: A. Blunt. A Pilgrimage to Nejd. London 1981)

نفس المؤلفة: The Bedouin Tribes of the Euphrate (Murray 1879)

كما انظر:

Archer F. Lady Anne Blunt: Journals and Correspondence (Alexander Heriot), 1986

اتبعت مثال Lady Anne Blunt وأولغا شيرباتوفا امرأة أخرى وهي: Lady Wentworth.

انظر:

Wentworth, Lady. The Authentic Arabian Horse and His Descendants. (Allen & Unwin), 1945

المؤلفة نفسها:

Thoroughbred Racing Stock and Its Ansestors. (Allen & Unwin), Best Horse (Allen & Unwin), 1958.

المؤلفة نفسها: The Swift Runner. (Allen & Unwin), 1957.

دولة جديدة، وهي الإمارة البلغارية بفضل انتصارات الروس، كان المحافظ المحلي يتهرب أيّ معونة للقنصل حتى في موضوع البروتوكولات المتعارف عليها بما يخص القانون الدولي؛ إذ كان يتذرع بعدم اختصاصه في هذا المجال، وعدم وجود الأوامر المباشرة من القسطنطينية له، وكما قال القنصل إن الضيوف المحترمين قلما يمكنهم الاعتماد على مساعدة هذا العنيد، بل قد تحدث منه مفاجآت مزعجة وغير متوقعة، وقد يدبر الاستفزازات أيضًا، أما العرب فبالعكس، كانت معاملة الأكثرية منهم ودودة وصديقة تجاه الروس، فكان من الممكن الاعتماد عليهم وعلى صداقتهم، وقد أكد لهم القنصل شخصيًا أنهم سيجدون المرشدين الأمناء بين العرب فقط، ولكن مع الأسف لم يكن للعرب وقتذاك دور سياسي كبير في سوريا.

لم يتمكن رحالتنا من استلام تصريح من السلطات التركية للتجول الحر في البلاد، فقرروا أن ينالوا على الأقل تصريحًا للقافلة بحيازة الأسلحة النارية، ذهب ألكسندر شيرباتوف إلى الباشا ليجري معه محادثات، وحاول أن يقنعه بأن الطريق الطويل والشاق عبر بادية الشام ليس آمنًا، وقد يكون مليئًا باللصوص أو الحيوانات المفترسة، كما أن الأسلحة لا غنى عنها في الصيد؛ لأن القافلة الكبيرة سوف تحتاج إلى تعبئة احتياطاتها بالطرائد، ولكن الباشا فند كل حججه بعناد، السلطات العثمانية لا تستطيع أن تسمح للقافلة بحيازة الأسلحة والذخيرة؛ لأن إدخالها محظور في كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية، وإذا احتاج المسافرون للحماية فالسلطات مستعدة أن تؤمن لهم الحراسة في دمشق، أما إذا احتاج الزوار الروس للصيد فعليهم أن يصيدوا الكمية المطلوبة هنا، وبعد أن عجز ألكسندر شيرباتوف عن الاتفاق مع السلطات عاد إلى اليخت مكدرًا، بعد ذلك قرر المسافرون أن يرسلوا برقية لسفير روسيا في القسطنطينية، يصفون فيها حالتهم، طالبين مساعدته، وأرادوا في بادئ الأمر ألا يغادروا بيروت إلا بعد تسلم الرد منه، ثم

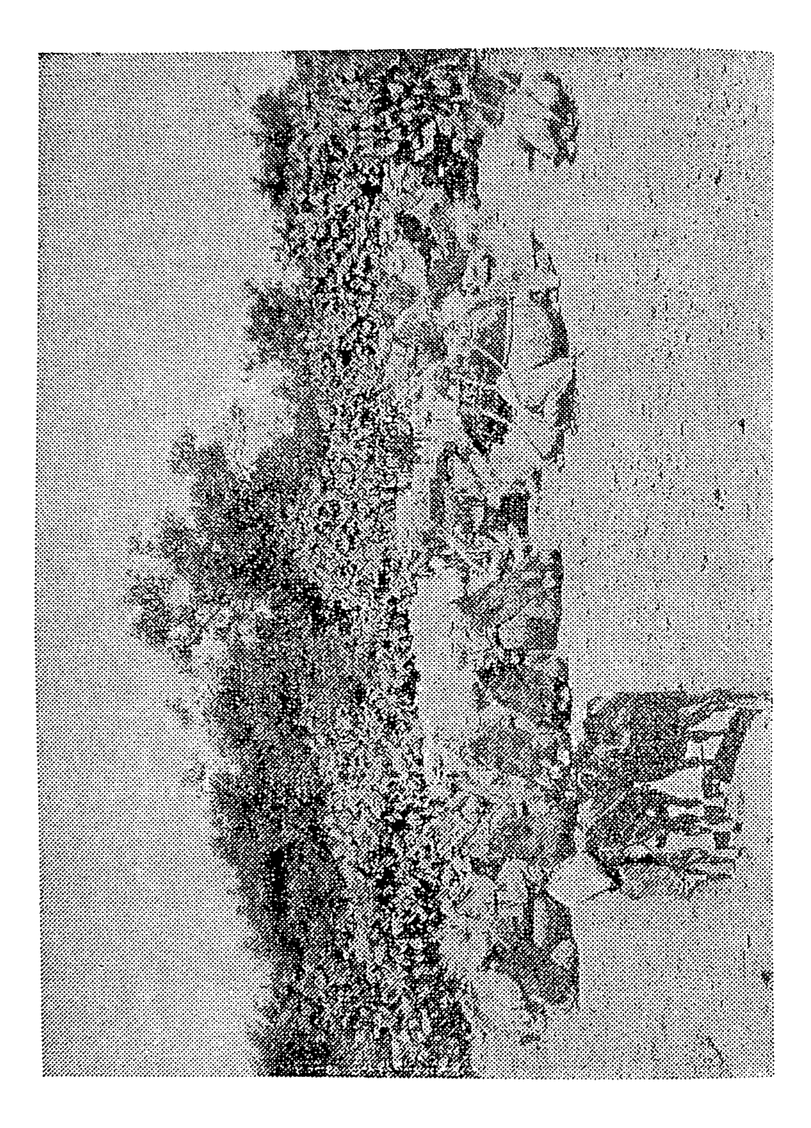
قرروا ألا يضيعوا وقتهم وأن ينطلقوا مع القافلة، كان من المحتمل أنهم لن يتسلموا ردًا؛ لأن السلطات التركية المحلية المعادية للروس قد تؤخر البرقية عمدًا أو ستحرف مضمونها، لهذا قرر الزوجان شيرباتوف الانطلاق مع القافلة، أما استروغانوف فسيبقى في بيروت بانتظار الرد من القسطنطينية، وبعد استلامه سيلحق القافلة في طريقه، ولكن شيرباتوف لم يرغب في أن يكون مجردًا تمامًا من السلاح، فأمر أن تحضر له بندقيته فينشيستير مع الذخيرة في الليل سراً.

في ١٤ آذار عام ١٨٨٨ انطلقت القافلة في سبيلها، حملت الجمال والبغال أحمالاً ثقيلة كالخيم ولوازمها ولوازم المطبخ والأطعمة والهدايا للشيوخ (الشكل ١١)، لقد أخذ المسافرون معهم خمس خيم منها ثلاث خيم نوم للزوجين شيرباتوف واستروغانوف والبحارة، وخيمة الطعام والمضيفة، وخيمة المطبخ.

فرض على شيرباتوف الواجبات الرسمية كتأدية الزيارات واستقبال الزوار وإجراء المحادثات مع ممثلي السلطات التركية وشيوخ القبائل، كان مزاجه الهادي والمتزن يجعله صالحًا لهذه الواجبات، أما سلفه الكونت استروغانوف فأخذ على عاتقه شراء الخيول؛ لأنه خبير في هذا الميدان.

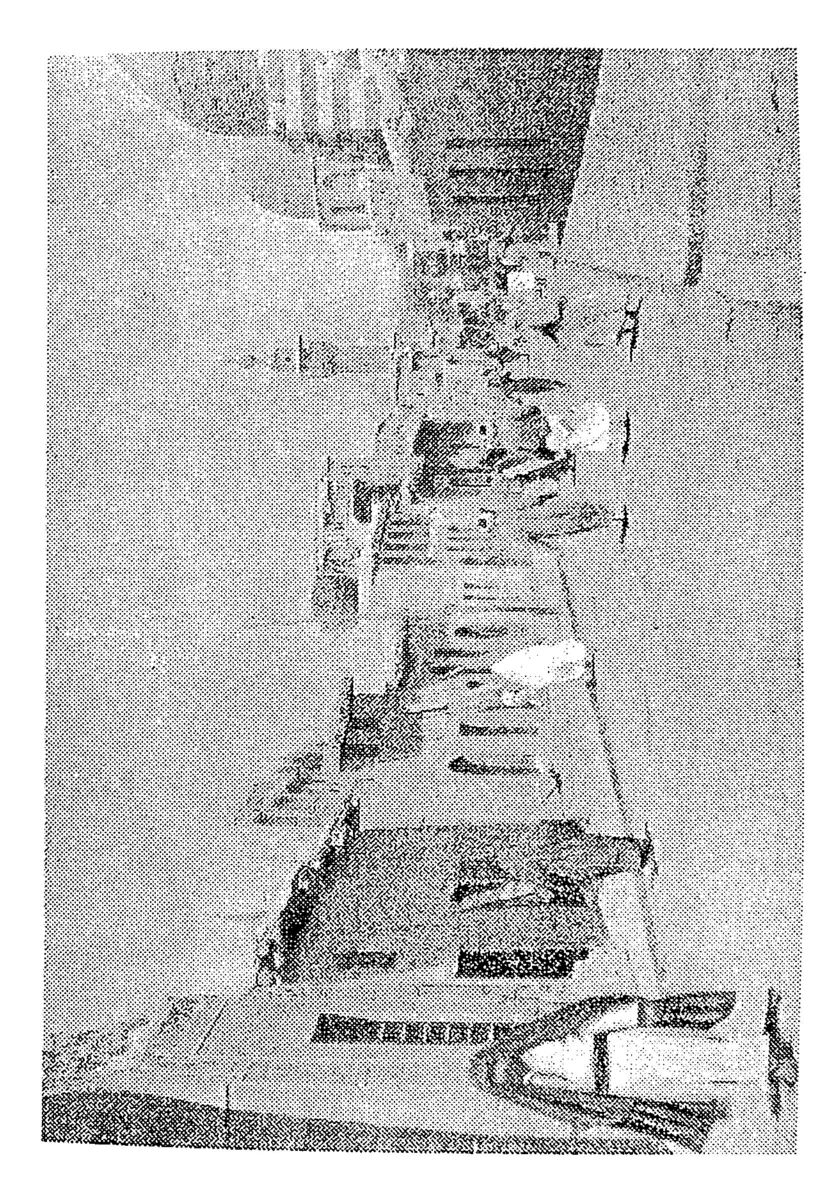
لحق استروغانوف القافلة في بلدة الديماس قرب دمشق، وهو راكب دون متاعه وأخبرهم خبرًا سارًا بأنه تسلم رسالة عاجلة من سفير روسيا في القسطنطينية منحت بموجبها السلطات العثمانية تصريحًا بحيازة الأسلحة التي سترد إلى دمشق بالعربات.

لم يشاهد المسافرون من معالم دمشق القديمة وآثارها (الشكل ١٢) إلا القليل بسبب ضيق الوقت، فقد سعى الزوجان شيربانوف واستروغانوف إلى السفر إلى البادية بأسرع وقت عبر الواحات ومخيمات البدو؛ لربط العلاقات مع شيوخ القبائل، وتحقيق هدفهم بشراء الخيول من الأجناس الجيدة.



[الشكل ١١]

القافلة في الاستراحة (الصورة الملتقطة في أول القرن)



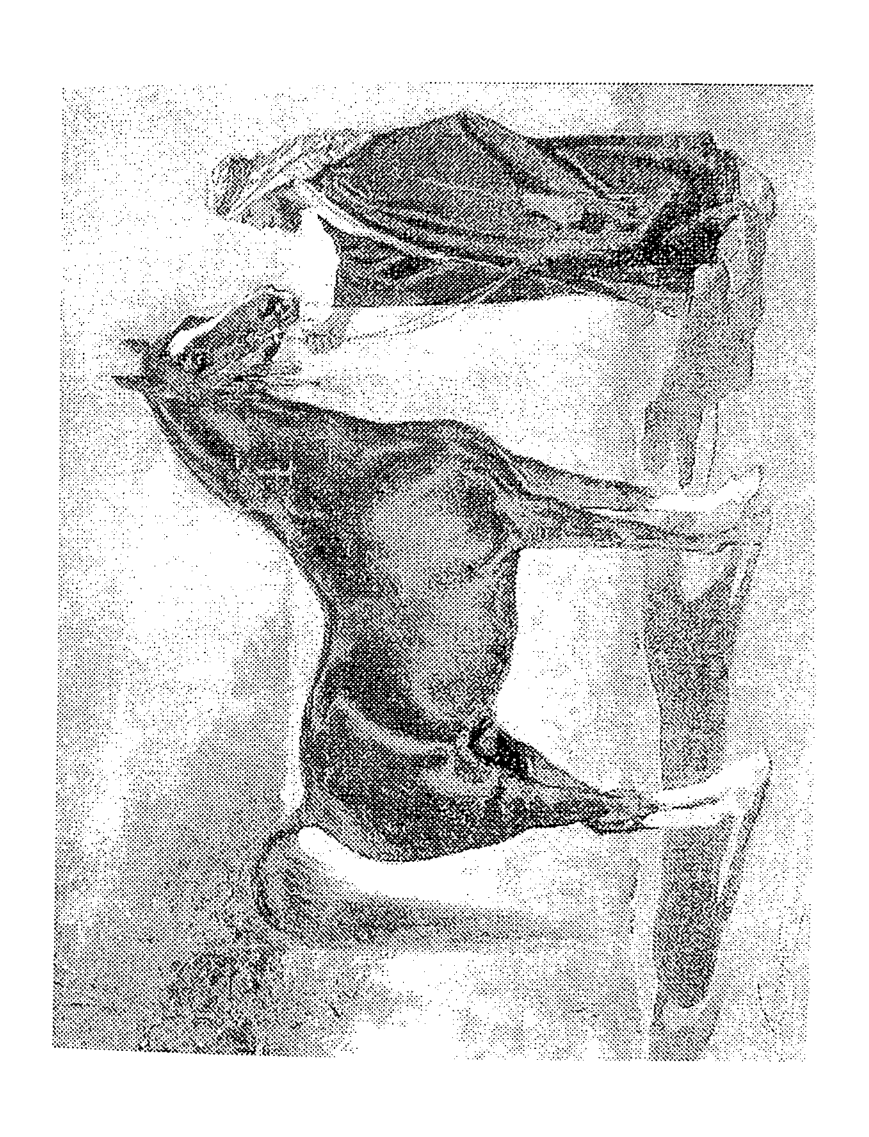
[الشكل ١٢]

ضاحية من ضواحي دمشق (الصورة الملتقطة في أول القرن)

لقد استأجر المسافرون في دمشق مرشدين خبيرين، وهما الشيخ نصر من قبيلة القموصة، وعبد العزيز من قبيلة العجيل، وكان الاثنان يعرفان بادية الشام جيدًا، فكانا يستأجران دائمًا لمصاحبة القوافل، أصبح الشيخ نصر مساعدًا مخلصًا للمسافرين لا بديل له، فقد كان دائمًا يخلص القافلة من المواقف الصعبة بدهائه ونكران ذاته، كتبت عنه الأميرة شيرباتوفا في مذكراتها بكل المحبة والاحترام، وكان باقي أفراد القافلة المحليين من العرب المارونيين، ومن بينهم خادم البوفيه ومساعده وثلاثة سواس وسبعة بغالين وجمالان، كما أخذوا مترجمًا محليًا اسمه خليل، وأربعة أشخاص من اليخت، وهم الخادم فاسيلي، ورئيس النوتية كوريتسين المسؤول عن التجهيزات، والبحارة كاراكين وبلاتوف، كان الأشخاص من اليخت مسلحين بالبنادق والمسدسات، وكان عدد أفراد القافلة إجمالاً ٢٥ شخصًا.

لا تخلو صفحات كتاب أولغا شيرباتوفا من وصف العرب من أفراد القافلة والبدو من المخيمات التي زاروها؛ إذ تصف حسن استضافتهم وأدبهم الموروث وعدم تكلفهم، من خلال زيارة المسافرين لمخيمات البدو وربط العلاقات معهم راقبوا نمط حياتهم وأخلاقهم وعاداتهم (الشكل ١٣).

صادفت القافلة في طريقها ليس الرمال والنباتات الشوكية الفقيرة ومخيمات البدو فحسب، بل صادفت آثار الحضارة القديمة التي تكثر في سوريا، فبعد زيارة قبيلة الشيخ فياض وجد المسافرون أنفسهم بين آثار تدمر القديمة . . وها قد بقيت تدمر في الخلف البعيد، وندرت المخيمات البدوية، والنباتات تفقر، والأوعاس تكثر، وأخيرًا داست القافلة أرض سنجق دير الزور في وسط الرافدين، ولمع أمام القافلة نهر الفرات المتعرج، مضى اثنان وعشرون يومًا منذ مغادرة القافلة بيروت، وقضت سبعة عشر يومًا في الصحراء القاحلة.



[الشكل ١٣]

كوساك (١٨٢٤-١٨٩٩) البدوي مع الحصان العربي

نصب المسافرون مخيمهم على شاطئ الفرات قرب مدينة دير الزور على مسافة نصف فرستا[١] عن ثكنات الحاسية التركية، هذه المدينة العربية التركية، التي هي مركز إداري للسنجق، لم يزرها الروس قبل ذلك أبدًا، ولم يصلها الأوروبيون عدا القليل منهم.

في البدايات الأولى لم يكن شيء ينبئ عن المتاعب، عندما عرف محافظ السنجق محمد توفيق باشا عن قدوم الروس أرسل ياوره إليهم ليهنئهم بقدومهم من السفر ويقدم لهم خدماته، من المحتمل أن مأمورية الباور كان هدفها الاطلاع على الموقف في المخيم؛ ليبلغ رئيسه عن كل ما سيجد فيه موضعًا للانتقاد، ومن الظاهر أن الباشا اللطيف بمظهره نوى أن يضايق المسافرين بممانعاته ودسائسه طبعًا بالرشوة الكبيرة، هكذا وصفت شيرباتوفا تصرفاته، لقد كان هذا في روح الأخلاق التقليدية عند الموظفين العثمانيين المأجورين من الرتب كافة، ماذا وجد الياور في المخيم المنصوب على ساحل الفرات يستحق اللوم؟ على الأقل رأى الشباب الفارعين من اليخت، وهم يرتدون لباس البحارة ومسلحين والبنادق والمسدسات.

بعد قليل ذهب ألكسندر شيرباتوف إلى توفيق باشا لأداء الزيارة الواجبة بصحبة خليل الذي يجيد اللغة التركية دون أن يتوقع من المحافظ هذه النيات العدائية، استقبل الباشا زواره بلطف زائد عن الحد بكلماته المنمقة، يعبر فيها عن فرحه وسروره لرؤية الزوار الروس الشرفاء في سنجقه، لم يكن شيء ينبئ عن الخطر.

في السادس من نيسان نوى سيرغي استروغانوف السفر إلى ضواحي حمص بصحبة الشيخ نصر وغيره من العرب لزيارة مخيمات البدو ومشاهدة الخيول عندهم، وبينما كان يهيّئ نفسه للسفر جاء إلى مخيمهم ضابط مبعوث من الباشا، وفجع المسافرين بالبلاغ المفاجئ: لم يبرز الروس وثيقة رسمية خاصة تمنحهم حقًا

(١) فرستا: وحدة القياس تعادل ١٠٦٠ مترًا، المعرب.

بالتجول في الدولة العثمانية وبخاصة مع حمل الأسلحة، وبعض أفراد القافلة يرتدون لباسًا عسكريًا روسيًا، فاضطر سعادة محمد توفيق باشا المرسل لتنفيذ قوانين الإمبراطورية العثمانية ضمن السنجق المكلف به أن يؤخر القافلة لحين يسلم الروس أسلحتهم ولباس البحارة والجنود.

ذهب شيرباتوف وسلفه إلى توفيق باشا كل واحد بدوره، وبقي كل واحد منهما يفسر طويلاً وبصبر بأن ادعاءاته باطلة، فجوازاتهم التي استلموها من الوكالة الدبلوماسية الروسية في القاهرة يحق لهم بها السفر إلى فلسطين وسوريا، وأن التصريح لحمل الأسلحة مستلم عن طريق السفارة الروسية في القسطنطينية، وأن السفير نيليدوف أبلغ بهذا التصريح إلى بيروت، كما أن الجنود لا وجود لهم بين أفراد القافلة، ومن الظاهر أن ممثل السلطات التركية قد أخطأ عندما ظن بأن الخدم الروس المرتدين لباس البحارة جنودًا، إنهم بحارة من يخت استروغانوف الخاص، وليس عندهم أي ارتباط مع القوات العسكرية البحرية الروسية، وبعد أن قدم استروغانوف وشيرباتوف حججهم صرحوا له: «إننا لن نسلم أسلحتنا بأي شكل، لأن هذا التصرف لا يليق بنا كروس!»[1].

لم يتأثر الباشا من كلامهما، فبعد أن بدأ الحديث معهما بأدب حوله إلى التهديد والترهيب، فقد هدد توفيق باشا الغاضب على مثابرة الروس بأنه سيؤخر القافلة في دير الزور، وبعد أن وجد المسافرون أن المحافظ لا يريد أن يقتنع بل يكاد ينفذ تهديداته، تشاوروا فيما بينهم، وعرضوا على الباشا اقتراحهم بإرسال القافلة إلى دمشق تحت الحراسة وكان هذا الاقتراح مرفوضًا.

---

(١) أولغا شيرباتوفا: ركوب الخيل في موطن البدو، البحث عن الخيول العربية الأصيلة (٢٦٠٠ فرستا عبر صحارى الجزيرة العربية سنة ١٨٨٨م و ١٩٠٠م) سان بطرسبورغ، ١٩٠٣، ص٥٧.

بعد ذلك امتنع شيرباتوف واستروغانوف عن مقابلة الباشا شخصيًا؛ ليظهروا له علاقاتهما تجاهه، فأخذوا يرسلون إليه خليلاً للمحادثات، كما عرض على الباشا عن طريق خليل طلبًا بإرسال مبعوث إلى دمشق أو أي مدينة أخرى فيها ممثل القنصلية الروسية؛ لكي يتأكد من صحة شهادات المسافرين، ولكن توفيق باشا العنيد رفض طلبهم.

ساءت أحوال المسافرين الروس، وتعقدت بشكل جدي، قرر الزوجان شيرباتوف واستروغانوف إرسال رسولهم الشخصي إلى حلب لكونها أقرب مدينة فيها قنصلية روسية، ومكتب تلغراف، أبلغ المسافرون عن نواياهم للسلطات التركية وطلبوا منح وثيقة الحماية للساعي، وقد رفض هذا الطلب أيضًا، كان رده على هذا الاقتراح تقريبًا على الشكل التالي: الوضع الذي وقع فيه الروس هو شأن الروس بذاتهم، وليس شأن السلطات التركية المحلية، فليدبر الروس الأمور للإفراج عن أنفسهم بأنفسهم.

اضطر المسافرون إلى إرسال الساعي دون علم السلطات التركية، فاختاروا الشيخ نصر وهو إنسان خبير وصبور، ويعرف بادية الشام كأصابعه الخمسة، ويكره الأتراك ككل العرب المحبين للحرية، كان على الرسول معرفة كل المشقات التي قد تصادفه في طريقه، فمن المحتمل أن رجال المحافظ قد يقبضون عليه في الصحراء الخالية من الناس، وقد يقتلونه أيضًا، لأن الباشا لا يريد أن تباح قصته المفضوحة، وافق المرشد على السفر دون تردد، فالبدوي الفخور لا يخاف من المتاعب، عندما قيمت شيرباتوفا شرف مرشدهم الشيخ نصر وإخلاصه كتبت الآتي: «الشيخ نصر الذي نال ليس ثقتنا فحسب، بل حبنا وتقديرنا أيضًا، وافق على السفر إلى حلب دون تردد، وخلاف ذلك وعدنا أنه سيسير ليلاً نهارًا دون توقف، وسيرجع بالجواب بعد ستة أيام، ولو أن المسافة في الاتجاه الواحد ٣٠٠ فرستًا»[١].

(١) المصدر نفسه، ص٥٩.

زود الشيخ نصر بالأموال وبأفضل حصان في القافلة، وكان بإمكانه أن يشتري حصانًا آخر من البدو، كان واجب الساعي توصيل الرسالة إلى القنصل الروسي في حلب، التي يصف فيها كل ما حدث بالتفصيل، وكذلك الرسالة العاجلة للسفير نيليدوف في القسطنطينة، التي يطلبون فيها معونته بالإفراج عنهم وعدّوا أنفسهم أسرى حقيقيين، وكذلك الرسالة إلى أقربائهم في روسيا، وكان على القنصل أن يرسل الرسالة العاجلة إلى القسطنطينية بالتلغراف.

بعد أن نال الشيخ نصر الوصايا والرسائل بدأ يهيئ نفسه للسفر، ومن أجل تضليل الجواسيس الأتراك خرج من خيمته وبقي ساعة ونصف الساعة جالسًا مع البغالين ثم امتطى حصانه بخفاء وغادر المخيم دون أن يراه أحد.

وبعد مدة وجيزة حوصر المخيم بالجنود الأتراك المسلحين، قد تكون السلطات علمت عن رحيل الشيخ نصر المفاجئ، في بادئ الأمر لم يكن هذا الفعل العدائي من الباشا يصل إلى المنع من التجول في المدينة، لهذا تمكن الزوجان شيرباتوف في اليوم نفسه من الذهاب إلى أسواق دير الزور وعلى الجزيرة الكبيرة في وسط الفرات حيث لقطت شيرباتوفا بعض الصور الناجحة للسكان المحليين من النساء والأطفال.

ولكن في الأيام التالية بدأ الوضع يتعقد أكثر، فالباشا الجامح كان يبتكر متاعب جديدة للمسافرين: «تخترع السلطات التركية متاعب جديدة كل يوم، أراد شيرباتوف اليوم الذهاب لصيد الغزلان إلا أن الحراس بعد أن عرفوا ذلك أبلغوا الخبر إلى الثكنات، فجاء ضابط وأعلن أن الخروج خلف نطاق المدينة محظور علينا، وهكذا بعد أن فاتت علينا ساعات برودة الصباح اضطر شيرباتوف أن يؤجل ذهابه إلى الغد، وأرسل خليلاً إلى الباشا ليخبره بأنه سينطلق غدًا إلى الصيد سواء بموافقته أو بدونها، وإذا حاولوا منعه من ذلك قسرًا فلا يلوم الباشا إلا نفسه، يبدو

أن الباشا خاف من أن يكون قد ذهب بعيدًا في أفعاله، فأرسل ياوره ليعتذر عن اسمه على «سوء التفاهم» الذي حدث، غير أننا منعنا من الخروج إلا تحت حراسة الجنود، فكان الاثنان منهم يحرسوننا بالسلاح إذا أردنا الذهاب إلى أي مكان، كانت حياتنا كلها مراقبة بكل تفاصيلها، كما كانت المراقبة شديدة علينا لكي لا نجتمع بأحد من السكان المحليين»[1].

في مساء اليوم الثالث بعد رحيل الشيخ نصر جاء إلى المخيم بدوي غير معروف، وقال: إنه من قبيلة عجيل، كان من بين أفراد القافلة مرشد من القبيلة نفسها وهو عبد العزيز المستأجر في دمشق، جاء هذا البدوي بحصان الشيخ نصر، التقى به في الصحراء، وقال إن نصرًا اشترى حصانًا جديدًا ليكمل سفره عليه، وأنه سيصل اليوم إلى حلب، يظهر أن القصة هذه كانت قريبة للحقيقة، كان الشيخ نصر رجلاً معروفًا ومحترمًا بين البدو، وكان بإمكانه أن يستعين بأي بدوي من القبيلة الصديقة ليكلفه في هذه المهمة، ومع ذلك ظل المسافرون قلقين على مصيره.

ومضت مدة من الوقت وما زال الموقف في المخيم متوترًا، والباشا لا يخفف من إجراءاته المقيدة، بل يبتكر الجديدة منها، «أعلن لنا في يوم من الأيام أننا لسنا محرومين من شراء الخيول فحسب بل يُمنع السكان المحليون من إحضارها إلى المخيم، في أحد الأيام يمنعون شيئًا وفي يوم آخر يلغى ذلك الحظر، وهكذا كل يوم»[2].

في غضون ذلك مضت مدة عودة الشيخ نصر، فخاف المسافرون أن الأتراك قد قبضوا عليه في الطريق أو في حنب، وربما قتلوه، لهذا يحاول المسافرون الخروج من الأسر فقرر الزوجان شيرباتوف الانطلاق مع جزء من القافلة إلى دمشق، وسيتركان الأسلحة لاستروغانوف، الذي سيبقى مع البحارة والقسم الآخر من

(١) المصدر نفسه، ص٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٤.

القافلة ريثما يأتي الجواب من حلب، وبعد تسلمه سيلحقهم بالسير السريع، أجريت هذه المحاولة في ١٦ نيسان.

«أثبتت السلطات التركية لنا اليوم أننا أسراهم بكل معنى الكلمة، ففي العاشرة صباحًا، بعد أن حزمت الأمتعة، وأزيلت الخيم، وحملت على البغال، أرسل شيرباتوف شخصًا إلى المحافظ ليخبره أنّ الأسلحة ستبقى في دير الزور مع البحارة فلا يوجد أي سبب لتأخيرنا ولذلك سنرحل الآن.

بعد قليل بدأت المشاورات بيننا وبينه عن طريق خليل، واستمرت حتى الواحدة بعد الظهر، والباشا مصرّ على رأيه، ثم هدد أنه إذا حاولنا أن نتحرك فسيوقفنا بالإخبار، وأنه لن يسمح لنا بالخروج أبدًا سواء مع الأسلحة أو بدونها، سواء وحدنا أو مع غيرنا، ولن يسمح بالخروج حتى لبغل واحد إلا بعد استلام الرد من حلب.

ومن أجل التثبيت على قوله أرسل الباشا عشرين حارسًا مسلحًا وصفّهم بعرض الطريق، وعندما أمر شيرباتوف البغالين بالتحرك مع البغال، وانطلقنا بأنفسنا أخذ الجنود بنادقهم بإيعاز من ضابطهم، ورفعوا زنادهم، فاقتنعنا أن محمد توفيق تجرأ على استعمال القوات المسلحة ضدنا صراحة، فاضطر شيرباتوف أن يأمر بتخليص البغال من حملها، وإعادة الخيم إلى مكانها»[(١)].

لم تنجح محاولة الفرار ولا أخبار عن الشيخ نصر، حاصر جنود الأتراك المخيم وهم مسلحون بالبنادق المحشوة، وبعد أن تشاور الأسرى فيما بينهم وجدوا أنه لا مخرج من هذا الموقف الحرج إلا بإرسال رسول جديد إلى حلب، طبعًا هذا الحل لا يخلو من الخطر؛ لأن المسافرين يضطرون إلى أن يجازفوا بحياة إنسان آخر، وهم ليسوا متأكدين من أن الساعي سيعود سالمًا، ولكنه الحل الوحيد للمشكلة.

(١) المصدر نفسه، ص٦٤-٦٥.

وقع الاختيار لتنفيذ هذه المهمة الصعبة على العربي سعد، من قبيلة العجيل، وهو واحد من الجمالين، وكان ثقة كأي إنسان مجتهد وأمين، ومن أجل البعد عن عوائق السلطات التركية قرروا إرسال سعد في الليل سرًا عندما يؤدي الجنود الأتراك خدمتهم، ليس بيقظة تامة بل ينام الكثير منهم، وفي خيمة الطعام أعطوا للساعي كل الإرشادات كما أعطوا له الرسائل للقنصلين الروسي والفرنسي في حلب، وللسفير نيليدوف في القسطنطينية ولأقربائهم في روسيا.

كان محتملاً أن تكون القنصلية الروسية في حلب مراقبة من قبل الشرطة الساهرة التي لن تسمح للرسول البدوي بالدخول إلى القنصل وستقبض عليه، فلهذا قرر أن يوصل سعد الرسالة إلى القنصل الفرنسي، لم تكن العلاقات بين روسيا وفرنسا متوترة كالعلاقات مع إنكلترا، اعتنى المسافرون بسعاتهم نصر وسعد؛ إذ رجوا القنصل الروسي أن يأخذ البدو تحت رعاية القنصلية إذا كانوا معرضين للمتاعب من جهة الأتراك.

في الصباح الباكر من يوم ١٨ نيسان أيقظ خادم المقصف الزوجين شيرباتوف واستروغانوف بخبر منتظر بفارغ الصبر وسار: لقد عاد الشيخ نصر على حصانه المغطى برغاوة العرق سالمًا، ارتدى المسافرون ملابسهم بسرعة، واجتمعوا في خيمة الطعام، وهنأوا نصرًا بقدومه من السفر، وأخذوا يسألونه عن كل شيء، قال نصر إنه وصل إلى حلب بثلاثة أيام دون متاعب وسلم الرسائل للقنصل الروسي بلا عرقلة ولكن بقي ينتظر ردًا من القسطنطينية في حلب ستة أيام، وكان هذا هو سبب تأخره، وعندما وصل الجواب انطلق نصر إلى طريق العودة مباشرة، والتقى سعداً في الطريق قرب دير الزور فأرجعه نظرًا لعدم حاجته إلى متابعة السفر.

عاد الشيخ نصر بأخبار مفرحة، كانت مع رسالة القنصل نسخة من رسالة نيليدوف التلغرافية العاجلة من القسطنطينية تبلغ بأن السلطان العثمانية أرسلت

لمحافظ دير الزور أمراً صارمًا بإطلاق سراحنا فوراً، استقبل الجميع هذا الخبر الذي جاء به الشيخ نصر بابتهاج كبير، ثم تبين أن هذا الابتهاج كان مبكراً.

أبلغ استروغانوف وشيرباتوف مضمون الأوراق المستلمة من حلب لتوفيق باشا فوراً، استمع الباشا إلى هذا الخبر برباطة جأش ورد تقريبًا على الشكل الآتي: إذا كان الروس على علم أن محمد توفيق مجبور على إطلاق سراح القافلة، فمحمد توفيق نفسه ليس على علم بأي شيء؛ لأنه لم ينل أي أوامر من رؤسائه، وهكذا لم يتحسن وضع المسافرين بل ساء وتعقد أكثر.

ولكن بعد قليل جاء بدوي من حلب برسالة عاجلة للباشا، وبدلاً من تسليمها برسم المرسل إليه اتجه إلى مخيم الروس، يبين هذا الواقع كيف كانت علاقة السكان المحليين ودودة تجاه الروس، وقبل أن يترك المسافرون هذا البدوي تشاوروا كيف سيوصلون هذه الرسالة إلى المحافظ دون أن يتمكن من إخفائها عنهم، وكيف سيخلصون هذا البدوي من المتاعب التي سيصادفها عقابًا على هذه الخدمة الكبيرة.

«وأخيراً جاءنا خبر سعيد عن نهاية أسرنا! فقد سافر محمد توفيق منذ بضعة أيام في جولة رسمية في السنجق، من المحتمل أن هذه الجولة كانت حجة فقط لا غير، وفي الحقيقة أنه هرب خوفًا من العواقب الوخيمة لدسائسه، ولكي يتخلص من تحمل المسؤولية أسرع بتسليم السلطة لنائبه الذي سيسوي أموراً معقدة خلط فيها سيده الحابل بالنابل . . . تنفسنا الصعداء فقط بعد أن اختفت أبنية دير الزور خلف الهضاب، ونحن مدركون أنه من الصعب القبض علينا في الصحراء، فشعرنا فيها بنوع من الأمان»[١].

ولكن هذه الآمال لم تتحقق تمامًا، فتوفيق باشا لم يخلصهم من مكائده حتى بعد أن غادرت القافلة دير الزور، في ٢٢ نيسان وصل المسافرون إلى أرك وهي

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٩-٧٠.

أقرب بلدة في بادية الشام إلى دير الزور، كان فيها منصب حراسي صغير، فتوقف المسافرون فيه للاستراحة، قدم الجنود للروس القهوة التركية السوداء، وبعد قليل جاء ضابط رائد بصحبة ثلاثة جنود، وقال إنه مبعوث من المحافظ توفيق باشا بصفة حرس الشرف للضيوف الروس، هل هذا حرس الشرف أم حرس الأسرى؟

مر المسافرون بدمشق دون أن يتأخروا فيها، دخلوا بيروت بصورة مهيبة، امتدت القافلة على شكل سلسلة طويلة، نالت الخيول الهيفاء الجميلة المشتراة من البدو إعجاب خبراء الخيول العربية، كان استروغانوف متخطراً في الأمام على فرسه العربية المغراء، وكان الشيخ نصر راكبًا بجانبه، ملوحًا بحربته ومرتديًا لهذه المناسبة ثيابًا جديدة: الكوفية الناصعة البياض، والعباءة المغزولة في البيت، وركب خلفهم الزوجان شيرباتوف، وكانت أولغا شيرباتوفا على الحصان الفارع الخلوق أبيض اللون، لم يتأخر الحرس عن المسافرين برئاسة الرائد التركي المضايق والمزعج، وكان خلفهم البحارة والسواس الساحبين الخيول المشتراة من أرسانها ومن خلفها البغال والجمال المرحلة.

استمرت الرحلة سبعة أسابيع تمامًا عبر البلاد القاحلة التي لم يزرها الأوروبيون في تلك الأيام إلا نادراً، قطعت القافلة ١٢٠٠ كيلو متر في مناطق خالية من الطرقات، كانت أولغا شيرباتوفا تشارك في مشقات السفر ومخاطره فأظهرت بذلك قوة تحملها الفائقة وصبرها الجسماني، لقد كانت امرأة وحيدة في القافلة تقارب الثانية والثلاثين من عمرها.

ما النتيجة العملية من رحلتهم إلى بادية الشام؟ كتبت شيرباتوفا في ذلك: «جمعنا معلومات قيمة عن الحصان العربي النادر والفائق، وهو مؤسس أفضل السلالات الأوروبية، وما سمعناه عن الحصان العربي في موطنه أوحى إلينا بالحب العميق لهذا الحيوان الكريم والوديع والمثالي الجمال، فحثنا الكونت استروغانوف

على تأسيس أول مزرعة لتربية الخيول العربية الكريمة في روسيا»[٤٠]. حصل استروغانوف والزوجان شيرباتوف في رحلتهم على خمسة عشر رأسًا من الخيول العربية الأصيلة، منها ستة فحول، وتسع إناث، لم يشتر الزوجان شيرباتوف لأنفسهما إلا حصانين، أما الخيول الباقية فاشتراها استروغانوف لمزرعته.

كتبت شيرباتوفا في ذلك ما يأتي: «بعد أن تعرفنا الخيول العربية شخصيًا وتأكدنا من كيفياتها الكثيرة وصلاحيتها لتحسين تربية الخيول المطية في روسيا للخيالة والصيد وبخاصة للبريات، بدأ الكونت استروغانوف والأمير شيرباتوف بعد عودتهما من الجزيرة العربية العمل بتأسيس أول مشتل عربي، والمربى العربي الكابارديني، والآخر العربي الدوني»[٤١].

لم يكن الزوجان شيرباتوف أصحاب المزارع الكبار؛ إذ كانا يملكان مزرعة صغيرة في ضيعتهم التامبوفية مارينو، حيث كانت بعض الخيول القليلة من الأجناس العربية. وقد لعب ألكسندر شيرباتوف دورًا جديًا في تطوير تربية الخيل الروسية ليس كصاحب مزرعة أو رجل أعمال، وإنما كشخصية اجتماعية وكداع مدافع عن مسائل تربية الخيل من الأجناس العربية بشكل واسع، كان يكتب المقالات والكراريس في مسائل تربية الخيل، وكان يلقي المحاضرات العلنية، فنجح في جذب انتباه تربية الخيل الحكومية إلى الحصان العربي، التي بدأ يرأسها بنفسه.

وكما كتبت أولغا شيرباتوفا: «على الرغم من عدم وجود أي تأييد لذلك في روسيا، إلا أن الكونت استروغانوف والأمير شيرباتوف بقيا مثابرين على عملهما وهما مقتنعان بصحة رأيهما عقائدهما التي تُدعم في بلدان أخرى، حيث ينال الحصان العربي درجة عالية من الشرف، وأخيرًا بعد سنوات من الجهود العقيمة

---

(٤٠) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٤١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

نبتت في بلدنا أول ثمرة من البذرة التي زرعناها، فكلفت تربية الخيل الحكومية لشيرباتوف الحصول على الأحصنة العربية والأفراس»[1].

سافر استروغانوف والزوجان شيرباتوف إلى بادية الشام من جديد[2] للهدف نفسه وهو شراء الخيول العربية الأصيلة لأنفسهم ولمزارع تربية الخيل الحكومية، وكان لشيرباتوف هذه المرة توكيل رسمي، وهكذا أنجزت رحلتهم الشتوية إلى سوريا عام ١٩٠٠.

كان التهيُّؤ لهذه البعثة الجديدة أكثر دقة من المرة السابقة، فقد اشترك فيها الطبيب البيطري الموفد من الإدارة العامة لتربية الخيل، كما اتصل الأمير شيرباتوف بالقنصل الروسي في دمشق سلفًا طالبًا منه تجميع كل المعلومات على قدر الإمكان عن الأمكنة المتوقعة لوجود البدو في آذار ونيسان؛ أي في الأشهر التي سيكون فيها المسافرون في بادية الشام، لقد تعلم المسافرون من تجربتهم القاسية في بعثتهم السابقة، لهذا اهتم الزوجان شيرباتوف واستروغانوف في أثناء مرورهم بالقسطنطينية بالتزود بالوثائق الرسمية المختلفة، يحق لهم بها التجول الحر في حدود الإمبراطورية العثمانية مع الأسلحة النارية، ومثل هذه الوثائق تحمي من الممانعات بلا أسباب من قبل السلطات المحلية، كالتي عانوا منها عام ١٨٨٨، لقد ألغي الحظر على تصدير الخيول من سوريا، وفرضت مكانه رسوم التصدير التي تقدر بخمسين على الرأس، وهذا ما أزال الهم من خلال تدبير التصريح الخاص على تصدير كل حصان، وبخاصة أن السلطات التركية كانت تمنح هذا التصريح بغير إرادة.

(١) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٢) في عام ١٨٩٥ قام الرحالة شيرباتوف برحلة إلى سوريا وفلسطين من جديد، وفي عام ١٨٩٩ زاروا مصر، لم تكتب هاتان الرحلتان في كتب أولغا شيرباتوفا، ربما لقصر مدتهما.

كان سفرهم من بيروت إلى دمشق هذه المرة بالقطار، وفي دمشق زودت القافلة بالأفراد كاملة، كانت الهيئة الخدمية مكونة من ثلاثة روس واثنين وعشرين عربيًا، وقد شارك البعض منهم في البعثة الماضية، لقد حاول الزوجان شيرباتوف أن يشركوا في خدمتهم الناس المعروفين والمجربين، الذين يمكن الاعتماد عليهم، فاستأجروا العربي سمعان بصفة خادم البوفيه والشخص الأول في القافلة، وهو شارك الزوجين شيرباتوف في رحلتهما إلى سوريا وفلسطين ومصر عام ١٨٩٥ و١٨٩٩، كما اختاروا عبد العزيز من قبيلة العجيل مرشداً وهو المساعد الأسبق للشيخ نصر في رحلتهم الأولى إلى سوريا. لقد عرف المسافرون بكل مرارة أن صديقهم المخلص الشيخ نصر قد توفي منذ سنتين، فكانوا يتذكرون دهاءه ونكران ذاته باستمرار.

لم تكن رحلتهم عام ١٩٠٠ مصحوبة بالمغامرات عكس الرحلة الأولى كانت رمال بادية الشام المديدة البعيدة نفسها قلما تنبت عليها النباتات الجافة الذاوية والواحات النادرة نفسها ومخيمات البدو والاستضافة العربية الكريمة والذكريات عن اللقاءات السابقة وعن الذين فارقوا الحياة، واللقاءات مع الأصدقاء القدامى والمعرفة الجديدة لشيوخ القبائل، ونتاجات الخيول، والمتاجرة البطيئة والتقليدية.

بلغ المسافرون دير الزور على الفرات من جديد، وأعادت هذه المدينة ذكرياتهم الكئيبة، عند اقترابهم للمدينة أخذوا يؤشرون لبعضهم على الأماكن المعروفة لهم، ويتذكرون ذلك الحبس الذي مضى عليه اثنتا عشرة سنة، إلا أن معاملة السلطات التركية المحلية تجاه المسافرين الروس تغيرت هذه المرة جذريًا.

وبعد قضاء مدّة قصيرة في دير الزور اتجهت القافلة إلى طريق العودة إلى دمشق، وكان توقفهم القادم في مدينة ضمير، التي تمتد بينها وبين الفرات الصحراء

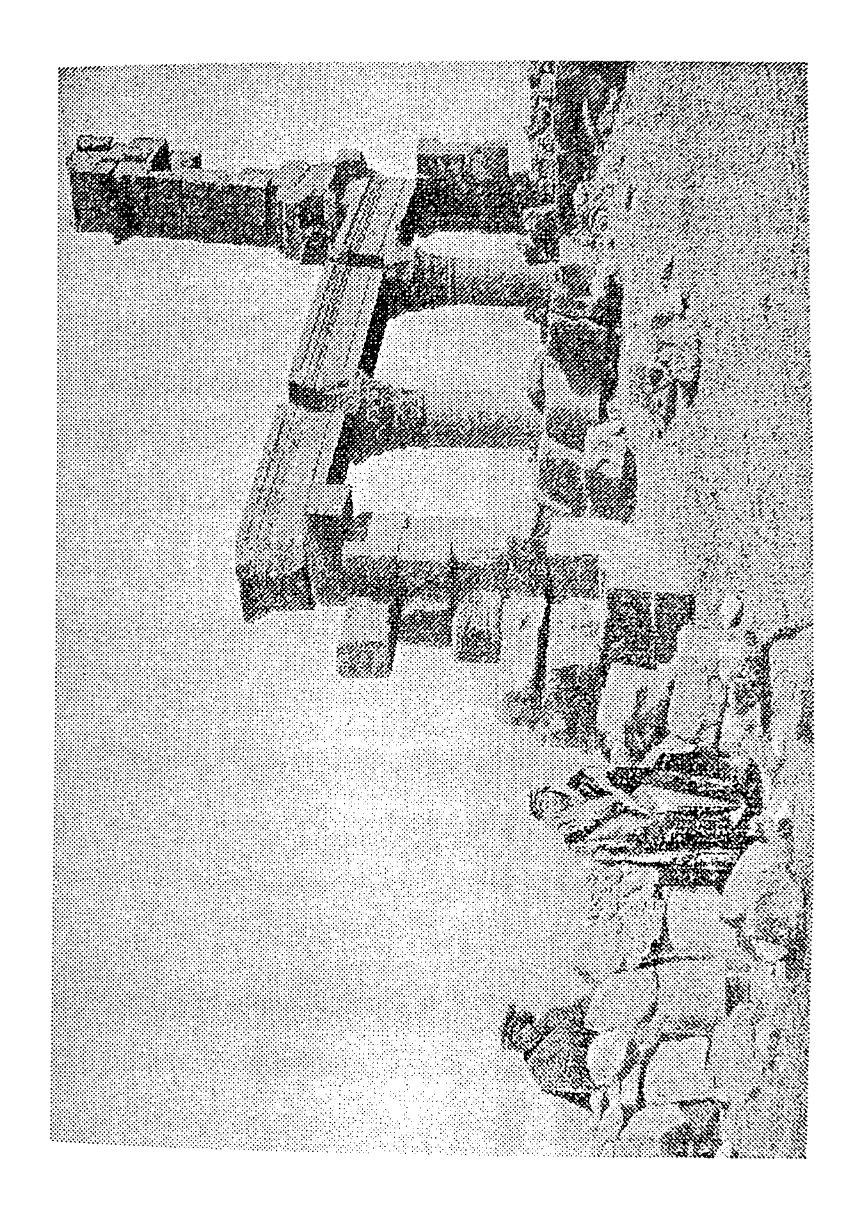
الموحشة، شاهد المسافرون في ضمير الآثار القديمة، ومن بينها معبد قديم، حيث وجدوا كتابة إغريقية تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد (الشكل ١٤).

عادت القافلة إلى دمشق في أوائل شهر أيار، وهكذا انتهت رحلة الزوجين شيرباتوف وسيرغي استروغانوف الثانية إلى سوريا والرافدين، التي استمرت ٥١ يومًا، أجروا من خلالها ٣٢ اجتيازًا، وقطعوا إجماليًا قرابة ألف وخمسمائة كيلو متر كانت نتيجة رحلتهم هي شراء كمية جديدة من الخيول العربية الأصيلة، فكسبوا جوادًا واحدًا، وأربع حجور لمزرعة الخيل الحكومية وجوادًا واحدًا وثلاث حجور لمزرعة وأربع حجور لمزرعة استروغانوف.

بعد عودة شيرباتوف واستروغانوف إلى وطنهما اقترحا واستنفذا نظامًا كاملاً لإعادة إنشاء عملية تربية الخيول العربية الأصيلة في روسيا، وتطويرها كان التدبير الأهم.

من ذلك إنشاء كتاب المزرعة (stood-book) عن تربية الخيول العربية وتأسيس المشاتل لها، وقد أيد هذه الفكرة مربو الخيل الكبار في روسيا كالأمير غيورغي رادزيفيلوف، ونيقولاي ارديلي، وأدولف كوبيز، وم. شورينا وأ. كروسوفسيف، وي. يلسكي والأمير رومان سانغوشكو، صاحب مزرعة الخيل خريستوفسكي، حيث استمر العمل مع الأجناس العربية مدّة طويلة، وكانت الخيول تستورد من الشرق فقط.

في عام ١٩٠٣ نشر هذا الكتاب الذي يضم وصف الخيول العربية في مزرعة استروغانوف في القوقاس الشمالي (٩ فحول و ٢١ أنثى، إجمالاً ٦٦ رأسًا) تحتوي مزرعة تيركولسكي فحلين وتسع إناث، ويحتوي القسم العربي في مزرعة الزوجين شيرباتوف (ماربيفكا في محافظة فورونيج) ٣ فحول و ٤ إناث، وفي عام ١٩١٣



[الشكل ١٤]

الآثار القديمة في بادية الشام (الصورة الملتقطة في أول القرن)

صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية[١].

حسب آراء أصحاب مزارع تربية الخيل الكبار كان لابد من تغيير طباع انخفاض الطلب مع مراعاة تخفيض أسعار الخيول العربية الأصيلة، التي ظهرت أول مرة في أواخر السبعينات، وأوائل الثمانينات، من القرن التاسع عشر، عندما أصبحت الخيول الإنكليزية يتباهى بها، ولكن التزيد من الدم الإنكليزي فيها خفض من كيفية نسلها، في حين أن إعاشتها كانت أغلى ثمنًا.

إلى جانب السيد بلانت الذي أسس مصنعه المشهور كريبيت بارك عام ١٨٧٨ اشتهر استروغانوف وشيرباتوف كالأصحاب الأوائل لمزارع تربية الخيل العربية في أوروبا.

* * *

كان من بين الرحالة الروس إلى الشرق كثير من ضباط الاستعلامات الحربيين، وكان نفاذ روسيا إلى الشرق الأدنى والأوسط وآسيا الوسطى في حاجة إلى التوفير الإعلامي، وكان أكثر انتباه الاستطلاع الروسي موجه إلى تركيا العثمانية منافسة روسيا القديمة في المنطقة.

إن مشروع تمديد سكة الحديد البغدادية في أوائل القرن العشرين الذي سيحسن من إمكانات تركيا العسكرية لفت انتباه المأمورية العسكرية الروسية إلى مراقبة

---

(١) كتاب مزرعة الخيول العربية في روسيا مع سلسلة نسبها، المجلد الأول، الجزء الأول، الخيول العربية الأصيلة من الأصل البدوي؛

Registre des chevaux de pur sang arabes d'origine bcduine importe ou nés en Russie Traduction du Stud Book Russe. Tome I et II, 1903-1912. Moscou. 1913.

جيوش منطقة الفيلق التركي السادس (الولاية البغدادية والموصلية والبصرية والعراق واردوسي)، أظهرت الحسابات أنه إذا أنجز مشروع تمديد سكة الحديد فإن وحدة الفيلق السادس ستستطيع الاقتراب من أرضروم، وتشكيل احتياطي التكتلات القريبة التي تعينها تركيا ضد روسيا بعد عشرين أو واحد وعشرين يومًا من إعلان التعبئة؛ أي بـ١٦ - ١٧ يوم قبل الأوان بالمقابلة مع مسير جيش المشاة على الأقدام، فاضطرت أركان الدائرة الحربية القوقاسية أن ترسل ضابط استعلامات إلى منطقة وجود الفيلق السادس، فوقع الاختيار على النقيب بوريس شيلكوفنيكوف، وهو ضابط مدفعية محنّك، وقد أرسل بحجة الأغراض العلمية، وكانت معه الوثائق التي تثبت أنه عضو معهد الآثار وعضو المجمع الجغرافي الإمبراطوري الروسي، ومن أجل إخفاء مأمورية شيلكوفنيكوف الحقيقية اتخذ قرار أن تصاحبه زوجته في سفره.

في ١ أيلول عام ١٩٠٢ وصل شيلكوفنيكوف إلى القسطنطينية، وبعد أن ترك في السفارة وثائقه الحربية نال من السفير المعلومات الهامة منها: أنّ الطراد «أسكولد» من الرتبة الأولى سينطلق إلى الخليج، وعندما وصل شيلكوفنيكوف إلى بورسعيد حاول أن يجد سفينة مدنية توصله إلى الخليج، ولكنّه لم يجد، أما سفن الشحن فلا تأخذ الركاب على متنها، وعندما رمت «أسكولد» مرساها في ميناء بورسعيد لجأ شيلكوفنيكوف إلى القبطان ن. ريسينشتاين، وكشف له عن سر مهمته، وطلب منه أن يوصله إلى إحدى مرافئ الخليج.[1] وعلى الرغم من من أن بعض ضباط السفينة أبلغوا القبطان أنهم يعرفون شقيق شيلكوفنيكوف ويعرفون مكان خدمته الأخيرة، إلا أن ريسينشتاين لم يغامر بالإبحار إلى الخليج مع شخص لا ليس لديه وثائق رسمية، لأن المعلومات هذه سرية جدًا، وبعد استلام الجواب

---

(١) انظر بالتفصيل: الأرشيف المركزي الحكومي للأسطول الحربي؛ الرصيد ٤١٧، قائمة موجودات الرقم ١، القضية رقم ٢٥٤٨، الورقة ٨٩.

فقط عن برقيته الرمزية من بطرسبورغ وافق على أن يوصل شيلكوفنيكوف إلى بوشير، حيث سلمه إلى رئيس القنصلية الروسية.

اتجه شيلكوفنيكوف من بوشير إلى الفاو ثم إلى المحمرة فالبصرة، ثم إلى أعالي شط العرب والدجلة إلى القرنة فالعمارة فكوت فعمارة فقوت العمارة، ثم إلى بغداد فسامراء فتكريت فعطلان كبري، ثم إلى كركوك، فطوق، فحرمتلي فكفري، فخانقين، فشراban فبعقوبة ثم إلى بغداد من جديد ثم إلى مزيب فكربلاء والنجف.

وبعد أن تجول شيلكوفنيكوف بهذه المناطق حتى أيار ١٩٠٣ عاد إلى روسيا وكتب تقريراً عن بعثته، فنشرت منه بالأختام «سرّاً» عشرات من النسخ، ونشرتها الدائرة الحربية القوقاسية عام ١٩٠٤ في تفليس[1].

وأصبح تقرير شيلكوفنيكوف اليوم مصدراً تاريخياً فريداً، يحتوي جزؤه الأول على وصف مفصل عن أماكن إقامة الجيوش وعددها وتسلحها وتجهيزاتها القتالية وإدارتها ووضعها المادي والتجنيد في أقسام الفيلق السادس ووصف رؤسائه، كما لفت انتباهه سكان المنطقة غير المسلمين (أي الحلفاء المحتملين) والمهاجرين من روسيا كالجبلاوية القوقاسيين والتتر القرميين، وهم أشخاص مضادين لوطنهم الأسبق، كما وصف بالتفصيل حالة حزب تركيا الفتاة، ومعاملة الجنود الشيعيين والخصومات الدينية والقبلية بين المرؤوسين.

يحتوي الجزء الثالث على اللمحة المفصلة عن الوضع الاجتماعي السياسي في الرافدين، ومنطقة الخليج، وفيه وصف الحركة الشيعية وارتباطها مع السياسة

(١) واحدة من النسخ القليلة الباقية من تقرير [ب. شيلكوفنيكوف: الجيوش ومنطقة الفيلق التركي السادس (الولاية البغدادية والموصلية والبصرية) التقرير عن بعثة إلى الرافدين عام ١٩٠٢-١٩٠٣، المجلد الأول، الجزء ١ و ٣، نشر دائرة أركان حرب القوقاس، تفليس، ١٩٠٤]، يحفظ في سان بطرسبورغ في فرع من فروع معهد الدراسات الشرقية، للمجمع العلمي الروسي، في صندوق مينورسكي الشخصي بالشيفرة ١٦١/ ٥ Min.

الإنكليزية في المنطقة، وقضية الكويت، وتحليل موقف ابن رشيد، وموقف القبائل العربية والكردية تجاه السلطات التركية، كما ينبه على الأبواب عن منابع النفط خاصة في قصر شيرين، والقضايا المرتبطة ببناء طرق المواصلات الجديدة وخاصة الطريق البغدادي خاصة، ونشاط قنصليات الدول الغربية، وتضمن هذا التقرير الخرائط التي أضاف فيها المؤلف ما كان ناقصًا من تسمية البلدات ووجود القبائل العربية والكردية، أما المسالك وأوصافها فخصص لها الجزء الرابع من التقرير.

إن التقرير السري هذا الذي عبر فيه مؤلفه عن فهمه لمصالح روسيا في المنطقة ووسائل السياسة الروسية ووكالتها الحربية في الرافدين والخليج جعل من عمله مرجعًا لا بديل له لهذه القضايا، التي تصف الوضع الداخلي والدولي في الخليج في مرحلة التحولات التاريخية(١). إجمالاً هذه الأوصاف المفصلة لأقسام الفيلق الخامس (غربستان أردوسي) التي جمعها قسطنطين بازيلي المذكور أعلاه قبل ذلك بنصف قرن، تمنح المؤرخ المعاصر كمًا هائلاً من المعلومات الصعبة المنال وتعطي شرفًا للدبلوماسيين وضباط الاستعلامات الروس(٢).

من الطبيعي أن شيلكوفنيكوف كشخص حربي محترف لا بد أن تلفت انتباهه قضايا تجهيز أقسام الخيالة والمدفعية في الفيلق السادس، وقد كرس لهذه القضية الفصل العاشر كاملاً من الجزء الثالث من تقريره، ويعالج في هذا الفصل مجموعة

(١) لمحة تحليلية لمجموعة الوثائق المتعلقة ببعثة ب. شيلكوفنيكوف، وفي الوقت الحالي أريد أن أنشر تقريره باللغة العربية الذي سيصبح مجلدًا مصورًا ومهيبًا بحجمه.

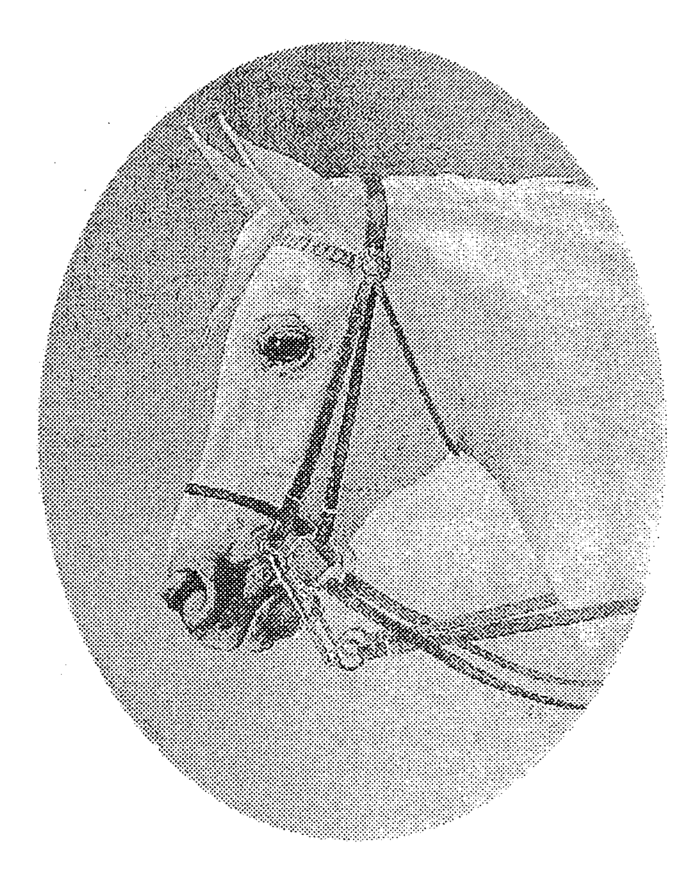
(٢) «لمحة عن الجيش العثماني في سوريا» جمعها قسطنطين بازيلي في كانون الثاني عام ١٨٥٢، كما جمع بلاغ الوكيل العسكري الروسي في الإمبراطورية العثمانية أوستين ـ ساكين من ١٦ شباط ١٨٥٢، نشرت هذه الوثيقة المتعة بكاملها في كتاب: «سوريا ولبنان وفلسطين كما وصفها الرحالة الروس، التقارير القنصلية والعسكرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر»، نشره دار «ناووكا» في موسكو عام ١٩٩١ من تحرير إ. سميلانسكايا.

من القضايا المناسبة (كتراكيب الخيالة وعدد الخيول في الرافدين وتعبئة احتياطات الخيالة بها في أوقات السلم والحرب ومؤونة العلف والمزارع الرشيدية والموزارية إلخ . .) ترجم هذا الفصل إلى اللغة العربية كله تقريبًا وهو في ملحق من ملاحق هذا الكتاب .

تميزت مرحلة الاستقرار السياسي القصيرة في روسيا بين العامين ١٩٠٧ و١٩١٤ بتنمية اقتصادية سريعة أوصلت البلاد إلى القيادة العالمية في الاتجاهات الجذرية ، ولم تتأخر تربية الخيل عن التطور العام ، فحققت في تلك المرحلة نجاحات كبيرة ، والبرهان على ذلك بعد نشوب الحرب العالمية الأولى حيث لم تستطع أي خيالة أن تضاهي الخيالة الروسية .

وكما قيل : إن كرامة الخيول العربية كانت هي الصفات الرئيسة للأجناس السباقية والخابة (الشكل ١٥) إلا أن البلاد وقعت في كوارث كانت عواقبها قضية استمرار وجودها .

قيل في المرسوم الأول الذي أصدره البلشفيون بعد الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧ «المرسوم على الأرض» : «كل مزارع تربية الخيل القيصرية والخاصة وتربية المواشي النسولية سوف تصادر وتنقل إلى أملاك الشعب ، وتنتقل إما إلى انتفاع الدولة أو المشاعية على قدر أهميتها» ، ثم بدأت الحرب الأهلية ، وتركت آثارًا لا تمحى في كل نواحي الحياة في روسيا ، كما ألحقت تربية الخيل بخسارة كبيرة مزرعة تربية الخيول الأصيلة خاصة ، لم يبق من تعداد السائمة من الخيول الأصيلة ما قبل الحرب إلا ٥٪ ، وأصبحت هذه المجموعة الصغيرة متناثرة في كل أرجاء البلاد ، في مطلع عام ١٩١٨ بنيت أول رعية تركمانية شعبية في مكان مزرعة تربية الخيل نارينسكي في قرغيزيا ، وكانت تضم خيولاً مؤممة من البايات الكبار والإقطاعيين الروس المقيمين في قرغيزيا ، وكما يتذكر السكان القدماء لا يوجد نوع من الخيل إلا



[الشكل ١٥]

ي. سيبولينا تورشينا (١٨٩٥-١٩٦٢) رأس الحصان العربي (١٩١٣-١٩١٥)

وكان متوافراً في تلك الرعية، كالخيول الخابة والإنكليزية الأصيلة والأخالتيكينية وحتى العربية الأصيلة، كانت الخيول تربى في هذه الرعية ثم تسلم للجيش الأحمر.

في عام ١٩٢٠ قررت اللجنة الشعبية السوفيتية مع اللجنة الشعبية الأرضية في جمهورية روسيا الاتحادية السوفيتية إنشاء الإدارة الرئيسة المخصصة لتربية الخيل

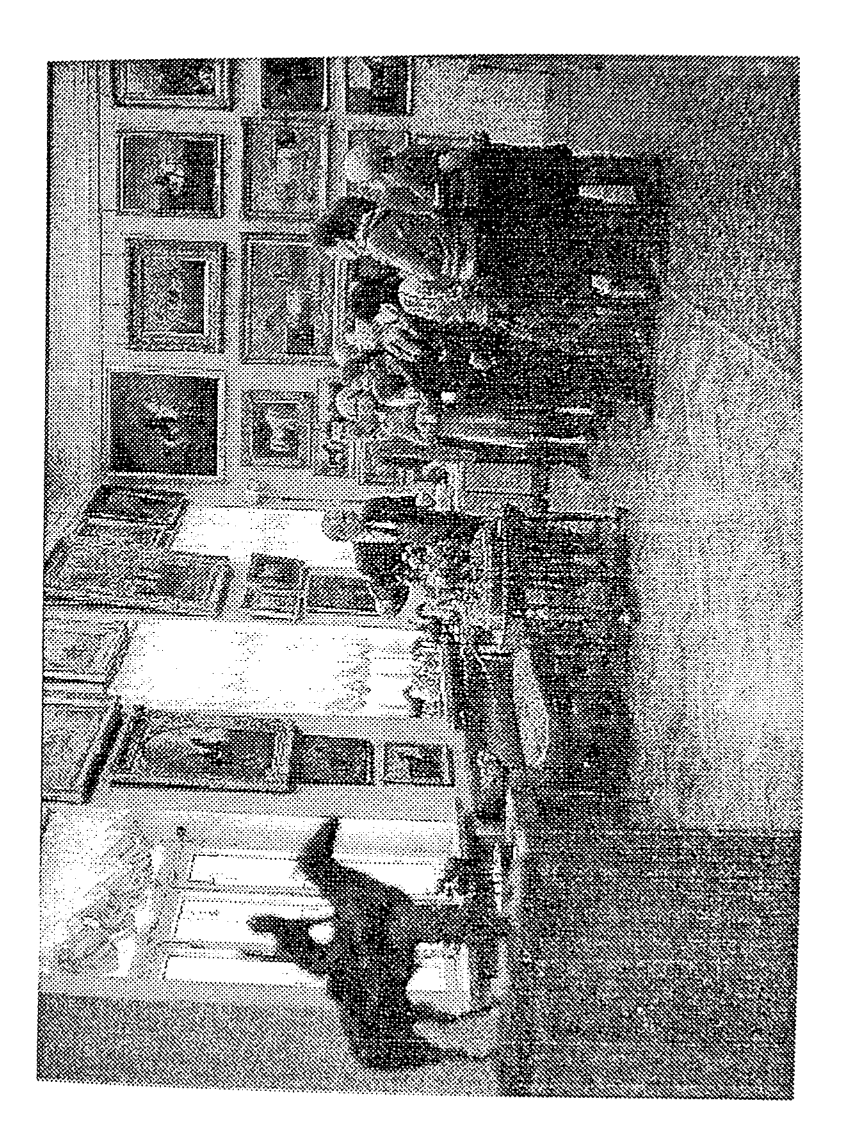
ومزارع تربية الخيل، وكان مفتشها الرئيسي بين العامين ١٩٢١ - ١٩٢٣ أ. بروسيلوف، وهو خبير عظيم في الخيول، وجنرال الجيش القيصري، ويملك كل الفخر والاعتزاز، فقد كان إليه الفضل في انتصارات الجيش الروسي عام ١٩١٦ في الجبهة الجنوبية الغربية.

في تشرين الأول عام ١٩٣٠ أنشئ المعهد السوفيتي للأبحاث العلمية في تربية الخيل، كانت تلك أول مؤسسة وصلت إلى هذه الدرجة في عملية الخيل العالمية، وكان يجب معرفة الموارد في تربية الخيل المتوافرة في الاتحاد السوفيتي، كما ينبغي إجراء سلسلة من الأبحاث في تربية الخيل في مجموعة من الأقاليم الجغرافية، تم تحليل نتائج هذه الأبحاث، وتدبير الأمور السريعة؛ لتحسين كيفية تعداد السائمة في البلاد.

أسس في مجمع موسكو الزراعي المسمى باسم ك. تيميريازيف كرسي تربية الخيل، ومع ظهور هذا الكرسي ظهر متحف تربية الخيل الفريد (الشكل ١٦). في الوقت الحاضر تحتفظ وفي هذا المتحف حوالي ثلاثة آلاف من الأشغال الرسومية والكتابية والنحتية الأصيلة من الفنانين والنحاتين الروس والأجانب، وكان مؤسس القاعات لعرض الصور الفنية. بوتوفيتش، وهو صاحب مزرعة البريليبسكي في محافظة تولا، وفي عام ١٩٢٩ نقلت القاعات لعرض الصور الفنية إلى موسكو، وكملت بالمعروضات من الاحتياطات الفنية الحكومية لمجمع ففتح متحف تربية الخيل العلمي والفني.

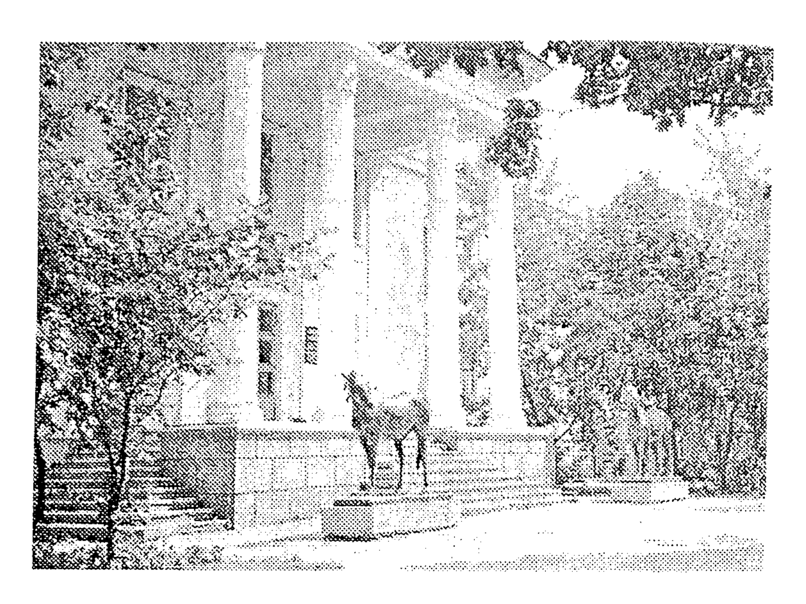
وفي عام ١٩٤٠ قدم هذا المتحف لمجمع موسكو الزراعي المسمى باسم ك. تيميريازيف (الشكل ١٧).

كما نلاحظ منذ القرن التاسع عشر من بين أجناس الخيول السباقية التي كانت تستخدم للأغراض الحربية والرياضية كانت الخيول الستريليتسكية المشهورة التي



[الشكل ١٦]

زيارة متحف تربية الخيل من المجمع الزراعي الموسكي المسمى باسم ك. تيميريازيف



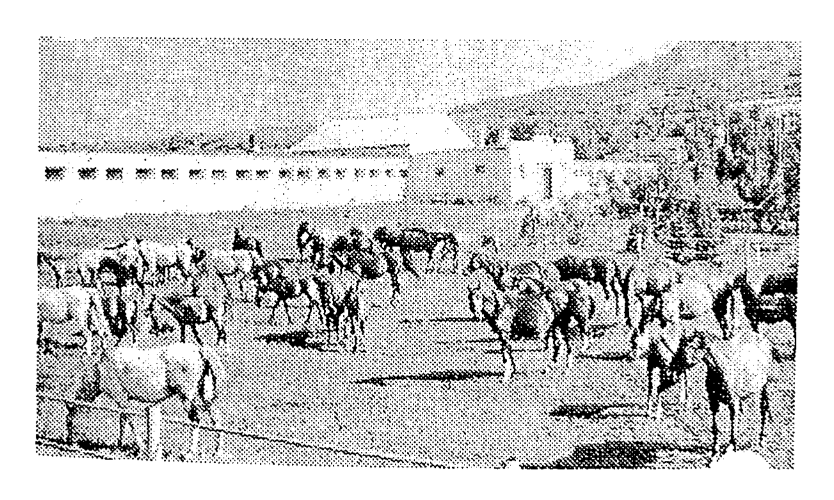
[الشكل ١٧]

متحف تربية الخيل من المجمع الزراعي الموسكي المسمى باسم ك. تيميريازيف

سميت بهذا الاسم نظرًا لتربيتها في مزرعة تربية الخيل ستريليتسكي، استخرجت هذه الخيول من التهجين بين الخيول العربية وخيول السباق الوطنية، وكان فضلها الأساسي أناقتها كأناقة الخيول العربية، ولكن أكبر حجمًا منها ومنسجمة مع المناخ الروسي، وغير متعنتة لظروف معيشتها، مع الأسف لم يبق إلى وقت تأسيس مزارع تربية الخيل السوفيتية سوى جوادين من هذه السلالة، ولكن هذين الجوادين بارزان، فقد حصل عليهما المقاتلون من الجيش الخيلي الأول غنائم حرب بعد هروب البارون فرانغيل من القرم، واحد منهما اسمه سيليندر الرمادي الفاتح، وقد أراد فرانغيل أن يدخل إلى موسكو التي حررها راكبًا عليه، والثاني نصف أخيه سينيتيل، وأصبح هذان الجوادان سلفين لسلالة الخيول التيرسكية، كما بقيت بعض

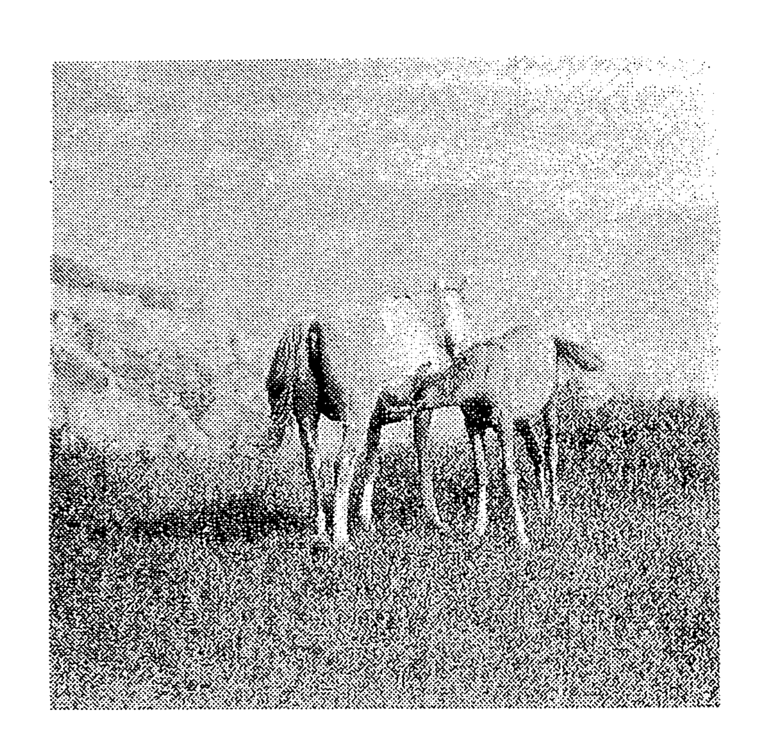
الحجور، ولكننا لا نستطيع حتى أن نحلم بإعادة إنشاء سلالتها الأصيلة، ومع ذلك كانت تربية الخيول هذه تستخدم للأغراض الحربية، ومن جراء هذا وضعت مهمة للمتخصصين في الانتقاء من مزرعة تربية الخيل التيرسكية الحربية التي أنشئت في ١١ شباط من عام ١٩٢١ على أراض المزارع السابقة التابعة لاستروغانوف وسلطان غيري المنتجة لخيول الخيالة الحربية، وهذه المهمة هي انتاج خيول السباق التي تتوافر فيها الأصالة والأناقة والسرعة مع قوة الحيوية الطبيعية للخيول الروسية المحلية، وكان تعداد السائمة العربية الأساسية مركزة في مزرعة تيرسكي.

وكان خبراء الخيول يجمعون خيولاً من كل أرجاء البلاد، وفي الوقت نفسه استمر شراء الخيول العربية الأصيلة لتكميل التركيب النسولي للمزرعة، وكانت تستورد هذه الخيول من المجر وفرنسا وإنكلترا وبولندا ومصر وألمانيا، وقد انسجمت الخيول العربية في شمال قوقاس بشكل ممتاز (الشكل ١٨)، وهي منطقة تمتاز بمناخها الجيد (الشكل ١٩).



[الشكل ١٨]

مزرعة تربية الخيل التيرسكية

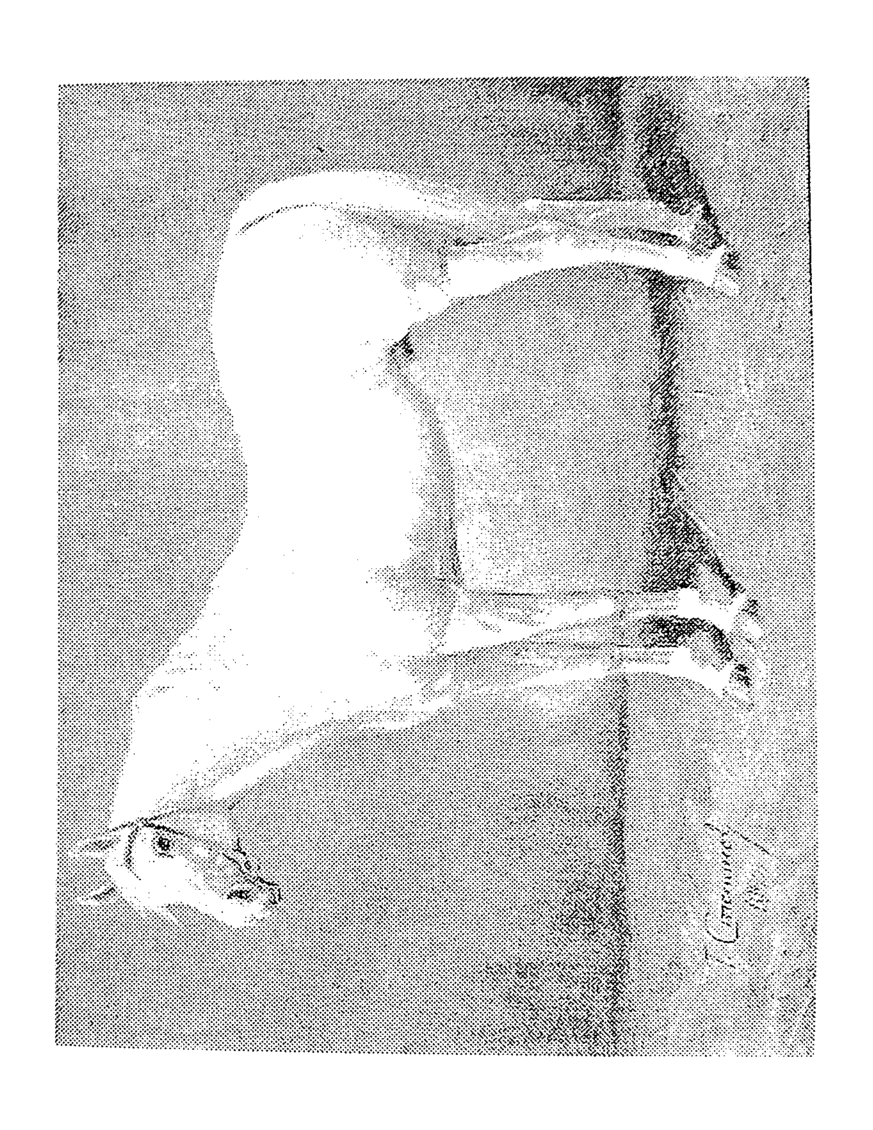


[الشكل ١٩]

الظروف المثالية لعيش القطيع الأنثوي في المزرعة التيرسكية التي تساعد على نجاح تنمية السلالة

بما أن السلالة ستريليتسكية كان يجب أن تكون نموذجًا أصليًا للسلالة المشروعة نقل الجوادان سيليندر وسينيتيل إلى مزرعة تربية الخيل عام ١٩٢٥ .

ولد الجواد سيليندر عام ١٩١١ من الجواد ستريليتسكي الرمادي الفاتح اسمه سيني والفرس ستريليتسكية الرمادية اسمها بيختا، وكان ارتفاع منبت رقبة هذا الجواد عن الأرض ١٥٥ سم، وطوله الأزور لبدنه ١٥٥ سم، وباع صدره ١٨١ سم وباع سنعه ١٩,٥ سم، كان ممثلاً نموذجيًا لجنسه بطبعه الجيد ومزاجه الحيوي وحركاته الجيدة، والجواد الرمادي سينيتيل (الشكل ٢٠) ولد عام ١٩١٠ من الجواد



[الشكل ٢٠]

الفنان غ. استيبانوف ١٨٩٤٠-١٩٥٩) سينيتيل، الجواد الرمادي من السلالة الستريليتسكية، ولد عام ١٩١٠ من الحصان سيني والفرس بازيليكا في مزرعة تربية الخيل الستريليتسكية استخدم لاستخراج السلالة الستريليتسكية

سيني والفرس الرمادية الفاتحة من السلالة الستريليتسكية اسمها بازيلكا، كان ارتفاع منبت رقبته عن الأرض ١٥٣ سم، والطول الأزور لبدنه ١٥٣ سم، وباع صدره ١٧٨، وباع سنعه ١٩ سم، كان مزاجه طيب الخلق وحيوي، أصبح هذان الجوادان بالذات سلفين لسلالة السباق الروسية الجديدة التي سميت باسم المزرعة التي بدأ فيها العمل؛ أي التيرسكية. عند استخراج هذه السلالة استخدمت طريقة إعادة التهجين والاستعانة في البداية بالخيول القريبة بجنسها لأسلاف هذه السلالة، استخدمت في مزرعة تيرسكي بشكل واسع تقاليد وتجارب صاحبه القديم استروغانوف وصديقته شيرباتوف.

في عام ١٩٤١ عندما اخترقت ألمانيا حدود الاتحاد السوفيتي استطاع الهتلريون سلب بعض المزارع الموجودة في الأراضي التي تعرضت للاحتلال المؤقت، وبعض المزارع أجليت إلى وسط البلاد في أوانها، فمثلاً كل السائمة النسولي من مزرعة هرينوفسكي القديمة أجليت أولاً إلى محافظة ساراتوف، ثم إلى محافظة كورغان، تمكن عمال المزرعة في هذه الظروف الإجلائية الصعبة من المحافظة على أكبر عدد من الخيول بما في ذلك الخيول الفتية واستمروا في العمل النسولي وتدريب الخيول الخابة وتجربتها على المضمار السفيردلوفسكي، كما نجح إجلاء الخيول العربية الأصيلة من مزرعة تربية الخيل تيرسكي الحربية من مدينة لفوف، حيث كانت تتمرن على المضمار، قطعت الخيول ١٢٠٠ كيلو متراً سيراً خلال ١٩ يومًا دون خسائر، فبلغت مزرعة تربية الخيل بروفالسكي الحربية قرب مدينة ديبالسيفو في دونباس، مع الأسف كانت مزارع تربية الخيل الأخرى من المضمار اللفوفي أقل تنظيمًا، فالخيول الأصيلة وعالية الأصالة ضاعت تائهة في الأراضي المحتلة، أجلي حوالي ٤٠٠٠٠ حصان، وكان قضاء الشتاء في مكانها الجديد صعبًا عليها، استطاعت المزارع المحلية أن ترصد من احتياطاتها المحدودة لتعداد السائمة المنقولة أقل من نصف

الكمية المطلوبة من العشب المجفف، واستلمت بعض الكمية من حبوب العلف من احتياطات الدولة، وهذا مساعد على المحافظة على التركيب الأنثوي والخيول الفتية المخصصة للخيالة في الظروف الشتوية القاسية وتجنب الخسائر على قدر الإمكان.

في صيف عام ١٩٤٢ بدأت مزارع تربية الخيل هجرتها من جديد بسبب الموقف القتالي الصعب قرب مدينة ستالينغراد، وبعد أن انتقلت إدارة مزارع تربية الخيل الحربية إلى المنطقة قرب مدينة أورالسك دمرت المحطة فيرخني باسكونشاك بالقصف الجوي، حيث استقرت هذه الإدارة، رحلت مزارع تربية الخيل دون خسائر، بدأ سوق قطعان الخيل إلى وسط كازاخستان الغربية في أواخر شهر تموز، وانتهت في أواسط أيلول، توزعت المزارع في محافظة أورال من بلدة أوردا غربًا إلى منطقة جامبابتينسك خلف نهر أورال شرقًا.

كان قضاء الشتاء الثاني شاقًا أيضًا، ولكن نهايته كانت مقبولة، فقد سمنت الخيول على المراعي في ربيع عام ١٩٤٣، وتحملت سوقها الطويل إلى المناطق المحررة من قبل الجيش الأحمر في محافظة روستوف وقوقاس الشمالي دون خسائر، بعد سنتين من بداية الإجلاء؛ أي في تشرين الأول عام ١٩٤٣ عادت كل مزارع تربية الخيل الحربية عدا الأوكرانية منها إلى أماكنها القديمة، عادت الخيول مكتنزة وجيدة الصحة، وقد بقي التركيب الأنثوي في الإجلاء سالمًا، والجياد المنتجة كذلك (عدا الانحرافات الفردية). وفي مدينة بياتيغورسك في صيف عام ١٩٤٤ جددت سباقات الخيل وجرب منها ٢٤ حصانًا في السباق الأصيل(١).

---

(١) ي. كوجيفنيكوف، د. غوريفيتش: تربية الخيل الوطنية: ماضيها وحاضرها ومشاكلها موسكو، ١٩٩٠، ص١٤٢-١٤٧، ٢. ب. كامبيغوف: تربية الخيل ومزارع لتربية الخيل في روسيا موسكو، ١٩٨٨، ص٤٩-٥٠.

في عـام ١٩٤٥ نقل كل الأعـداد السـائمـة من مـزرعـة تيـرسكي إلى المزرعـة الستـافـروبوليـة، حـيث استـمـر العـمـل في تشكيل أجناس الخيـول، وإلى جـانب الأساليب العادية في العـمل الاصطفائي بدأوا في هذه المزرعة يهتمون الاهتمام التام بضرورة تطبيق الخيول للإعاشة الثقافية والقطعانية، وأدى هذا إلى النجاح في إنشاء السلالة، تتفق فيها أناقة الخيول العربية، وسباقها الجيد، وطيبة خلقها، وسرعة رماحتـها، مع الصبر ومتـانة البنية، وجـودة الإخـصاب، وعدم التعنت لظروف المعيشة، بكلمة واحدة كل الصفات الخاصة بالسلالات المحلية الأصيلة، والخيول من السلالة التيرسكية خفيفة الحركة، وتخضع للترويض جيداً، فتستخدم في رياضة الخيل والسيرك بشكل واسع.

كانت نتيجة العمل الزراعي الصحيح الذي امتاز بالتتابع خلال عشرات السنين هو أن المنتقين من مزرعة تيرسكي أنشأوا تركيبًا من المنتجين دارجًا بالتوالد، كل هذا يساعد على إكمال العمل مع السلالات في الاتجاه الصحيح، لا تقل الخيول العربية المتوالدة في روسيا جمالاً وأناقة عن أجدادها العربية من بلاد العرب، وتتفوق عليها بإخصابها وقدرتها على العمل.

إن تفسير صفات الفحول والإناث التيرسكية الفريدة وقوتها يتم بوساطة استخدام الخيول في العمل من الأجناس الداخلية المختلفة، التي ليست من أصل الواحد والمرباة في خمسة بلدان (إنكلترا والمجر وبولندا وألمانيا ومصر)، وقد ساهم سفادها مع بعضها في تقوية نسلها.

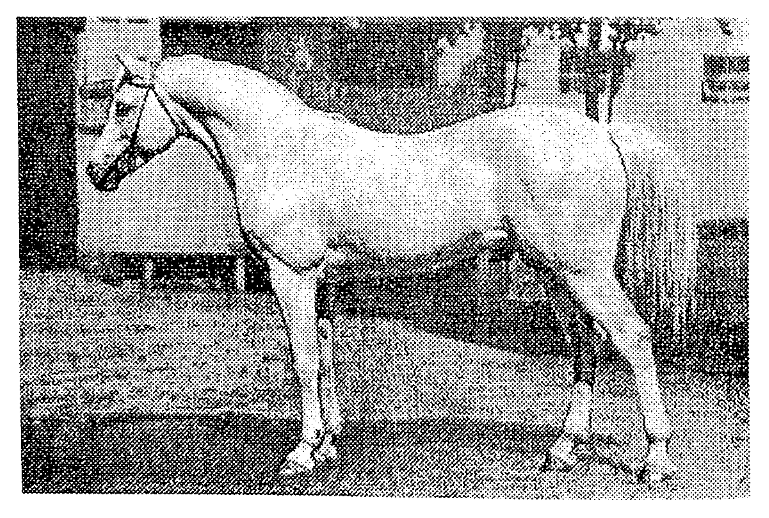
يوجد في التركيب النسولي من مزرعة تيرسكي ممثلو السلالات المشهورة من بعض الطرازات من الأجناس الداخلية المرباة بالطريقة العربية، يمكن الانتباه على أصل الحصان العربي المولود في مزرعة تيرسكي من أجدادها المسجلة في الكتاب الفرنسي والإنكليزي والبولندي والمصري. في عام ١٩٧٦ قبلت مزرعة

تيرسكي في عضوية الرابطة العالمية للخيول العربية، وهذا ما يثبت الاعتراف العالي بهذه المزرعة وأهميتها النسولية العالية.

الخيول الروسية من الأصل العربي كبيرة الحجم نسبيًا وقياس جياد المزرعة المتوسط هو: ارتفاع منبت الرقبة عن الأرض ١٥٣ سم، الطول الأزور للبدن ١٥٣ سم، باع الصدر ١٧٩، وباع السنع ١٩ سم، وتتدرب الخيول الفتية في المضامير البياتيغورسكية بشكل منتظم، تثبت الخيول رشاقتها على الأراضي المسطحة إذ تقطع ١٠٠٠ متر، بدقيقة وثماني ثواني، وتقطع مسافة ٥٠ كم بساعة وثمان وثلاثين دقيقة، و ١٠٠ كم بخمس ساعات وسبع دقائق(١).

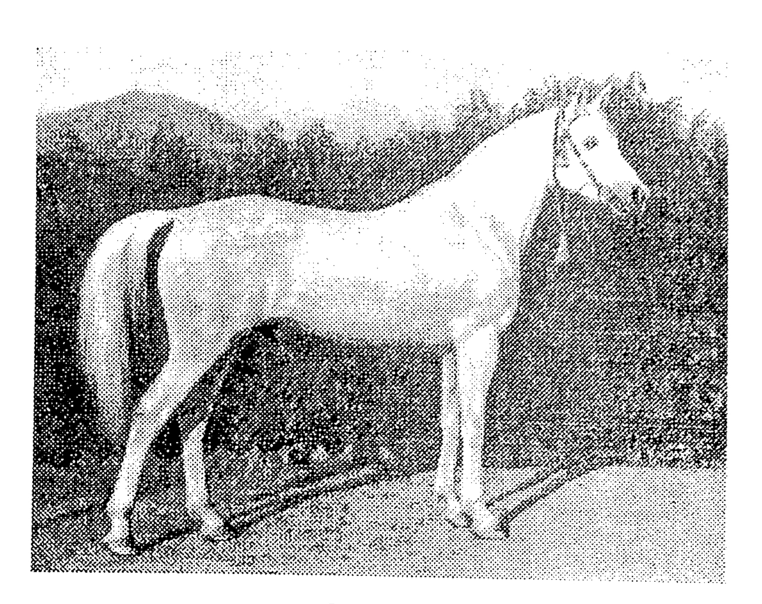
اشتهر في تربية الخيل العربية العالمية السلالة الخيولية التي ابتدأت في مزرعة تيرسكي من الحصان نسيم (الشكل ٢١) الذي ظهر هنا عام ١٩٣٦ من المزرعة الإنكليزية المشهورة كرابت بارك، وقد كمل سلالته بطل المعرض الزراعي لعموم الاتحاد السوفييتي اسمه نيغاتيف (الشكل ٢٢) الذي ولد عام ١٩٤٥ من تاراشا (والد الحصان البارز نابور) (الشكل ٢٣) والحصان الرمادي صالون (المولود من الفرس سوناتا)، ولد عام ١٩٥٩، وكان بطلاً في المعارض المختلفة (الشكل ٢٤)، كما كمل هذه السلالة ابنا صالون الجميلان، الأول موسكات (الشكل ٢٥) والثاني مومينت (الشكل ٢٦)، وقد لازما الاسطبل النسولي في المزرعة في الأعوام المختلفة، وفي عام ١٩٨٢ أصبحا الممثلين لسلالة نسيم الحصان التيرسكي الأمغر مورمانسك (الشكل ٢٧) (من موسكات ومونوغراما)، وبوتوماك الرمادي (من موسكات وبانوغراما)، وفي عام ١٩٨٣ ولد نيمروز الرمادي (من مومينت ونيزينا) كلها دموية المزاج وأنيقة وجميلة جدًا، ورقباتها كرقبات البجع، ورؤوسها فخورة، وعيونها لوزية الشكل، وتمتاز هذه الخيول بحركاتها الزلقة والسريعة، وليست

(١) ب. كامبيغوف: تربية الخيل ومزارع لتربية الخيل في روسيا، موسكو، ١٩٨٨، ص٤٩.

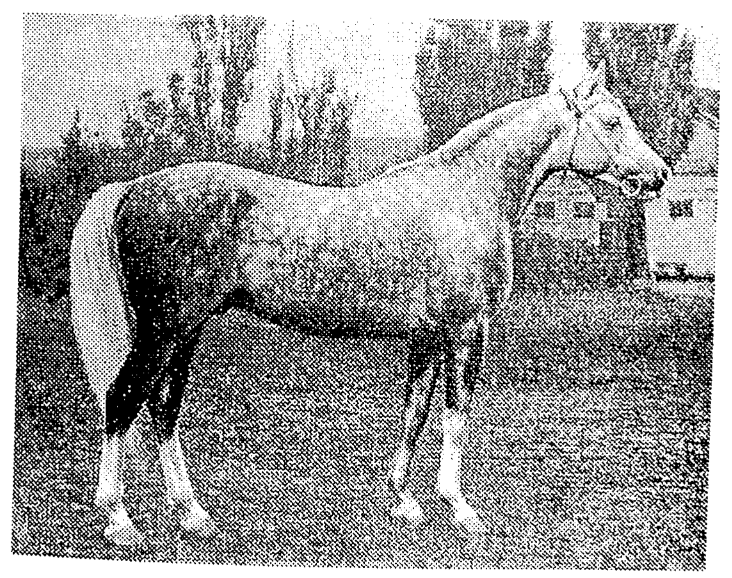


[الشكل ٢١]

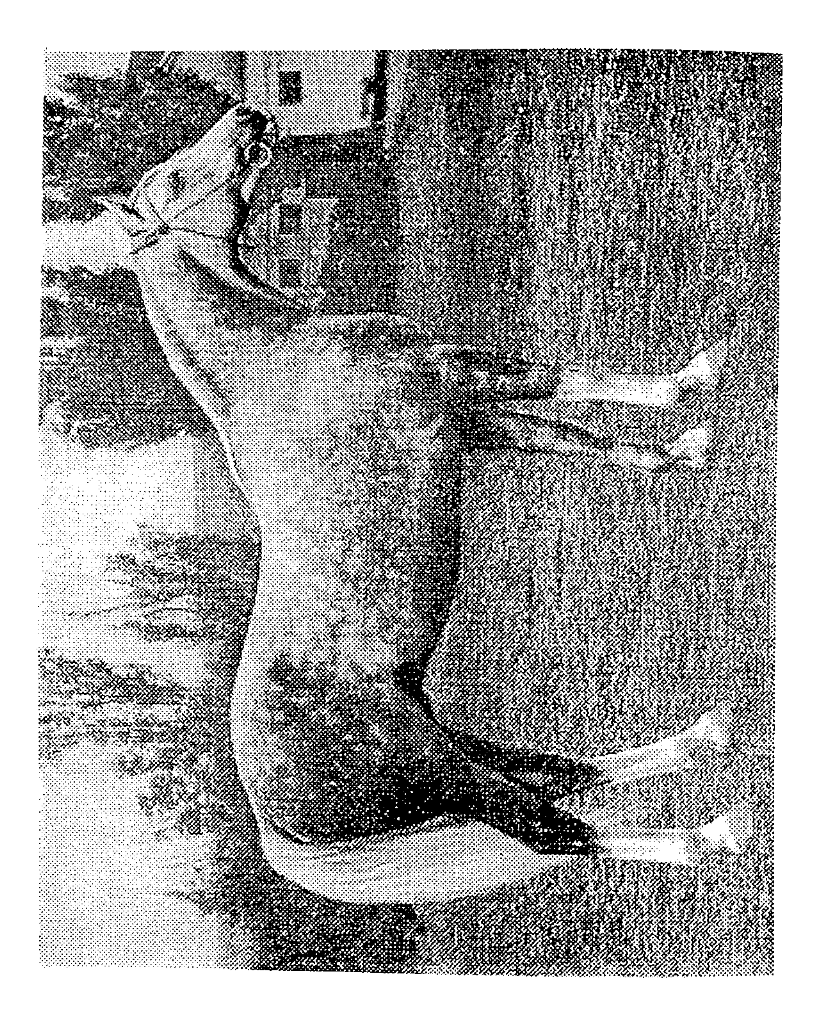
غ. استنيبانوف (١٨٩٤-١٩٥٩) الحصان نسيم (من اسكوفرونيك ونظرة)
التحق بالمزرعة التيرسكية عام ١٩٣٦ من المزرعة الإنكليزية المعروفة كرابيت بارك،
وصورة فوتوغرافية للحصان نفسه



[الشكل ٢٢]
الخيل من المزرعة التيرسكية : نيغاتيف

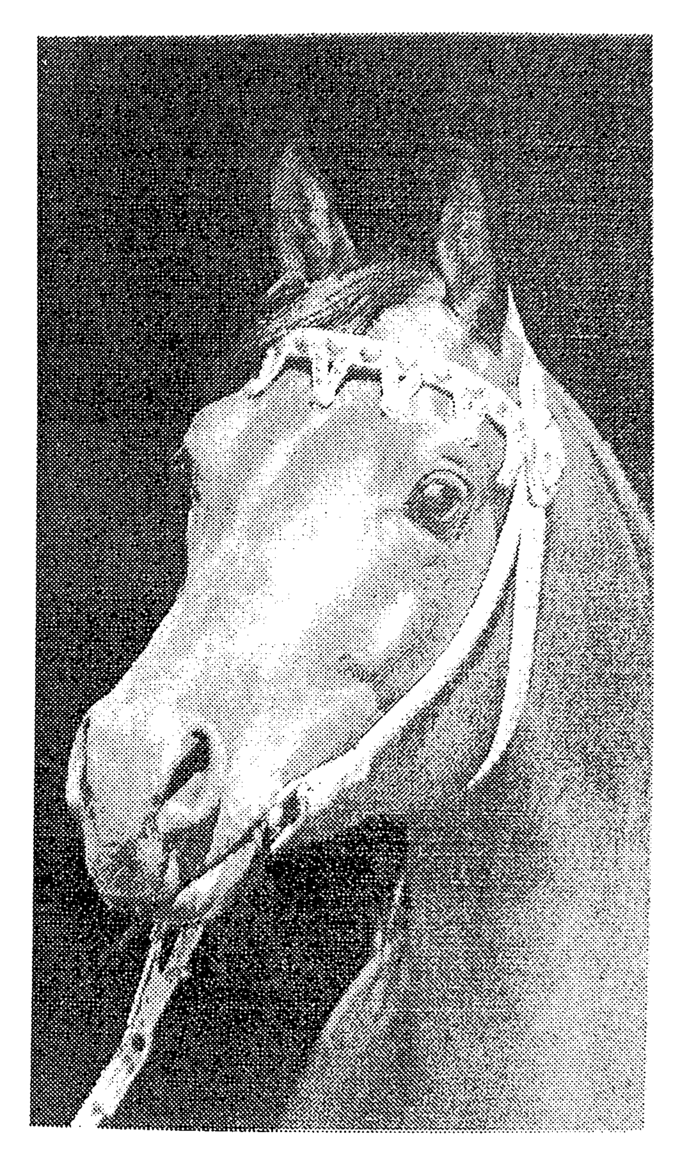


[الشكل ٢٣]
الخيل من المزرعة التيرسكية : نابور



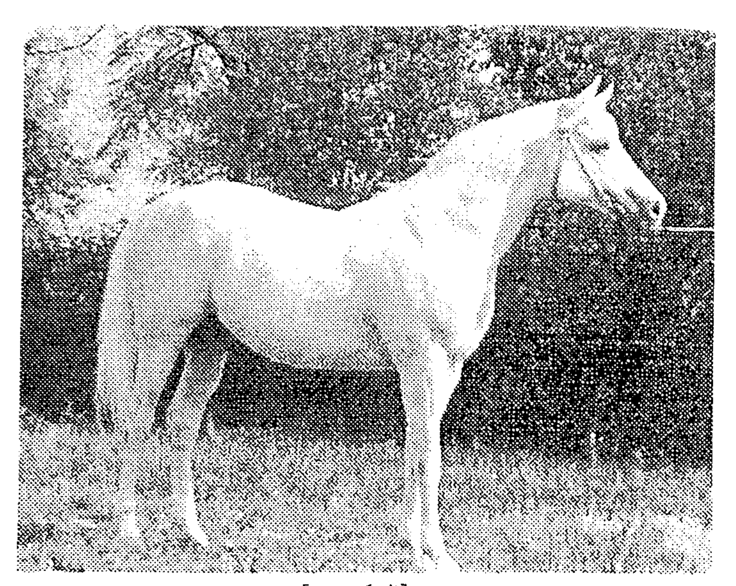
[الشكل ٢٤]

الخيل من المزرعة التيرسكية: صالون



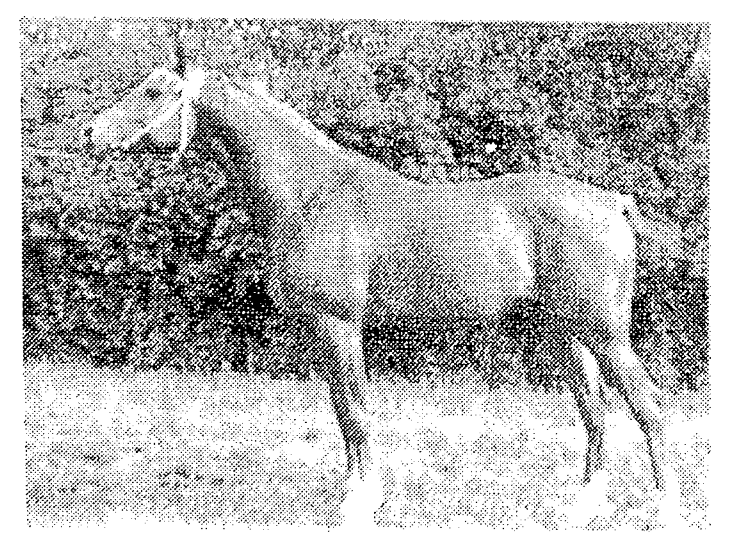
[الشكل ٢٥]

الخيل من المزرعة التيرسكية: موسكات



[الشكل ٢٦]

الخيل من المزرعة التيرسكية : مومينت



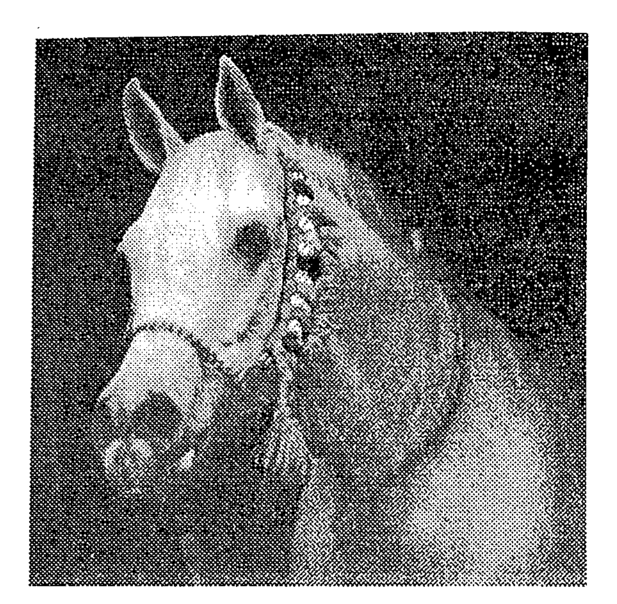
[الشكل ٢٧]

الخيل من المزرعة التيرسكية : مورمانسك

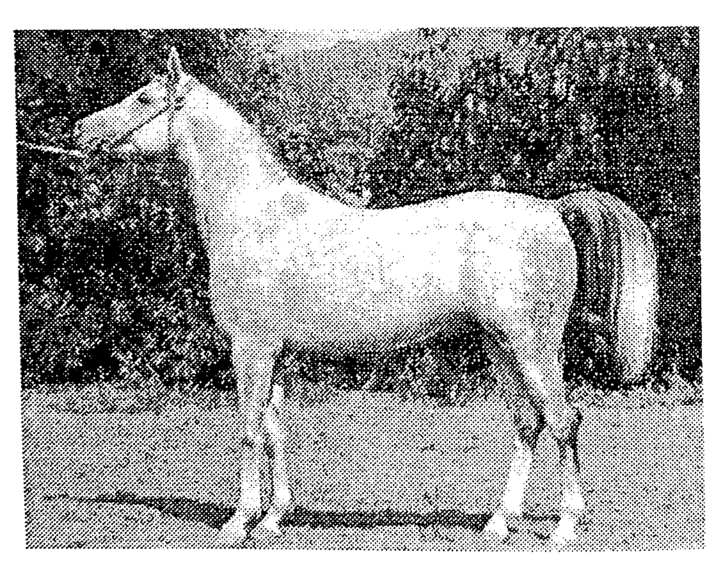
الخيول الفتية أسوأ منها كبوغريموك الأمغر وموروم بيريدني الرماديان وبوي وفيرتووز الكميتان.

كما توجد في مزرعة تيرسكي مجموعة كبيرة من ممثلي سلالة الحصان المشهور أسوان (الشكل ٢٨)، وهو ذو مزاج دموي جاد، ولد هذا الحصان عام ١٩٥٣ في مزرعة تربية الخيل الزجرة قرب القاهرة، ويذكر في تأصيله أسماء أنسال الحصان المشهور منصور، والحصان أسوان أصيل جدًا، فرأسه صغيروجميل وعريض الجبين ذو عينين كبيرتين لامعتين، جيد القفا وممتاز الرقبة، والحصان أسوان هدية من الرئيس جمال عبد الناصر للحكومة السوفيتية، وظهر في مزرعة تيرسكي عام ١٩٦٣ وخلف فيها ثلاثمائة نسل كلها عامة من الصقلاوي أو الكحيلان الصقلاوي، وتوجد حاليًا في مزارع تربية الخيل في الكثير من بلدان العالم، وفي القطيع الأنثوي من مزرعة تيرسكي توجد ٤٧ بنتًا لأسوان، وأبناؤه المشهورون هم مسقط وماشوك (الشكل ٢٩) ونيابول، وأصبح أخوانهم الصغار أنيلين وبيزنس منافسين لهم، أسوان هو عصر كامل في تربية الخيل العربية العالمية.

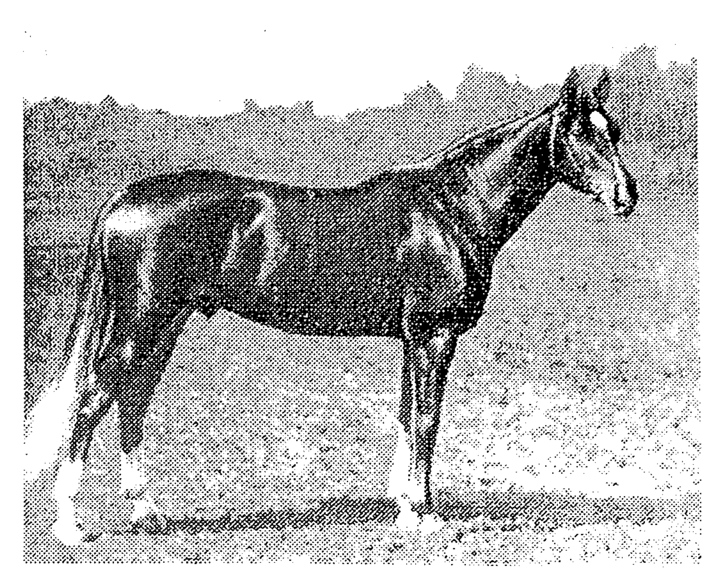
كما تتميز في مزرعة تيرسكي مجموعة كبيرة من الخيول التي هي أنسال الحصان المشهور بيولون (من كحيلان ١ ودزيفانا) (الشكل ٣٠)، وتنتمي لهذه المجموعة الجياد المشهورة بيتوشوك وبوميرانيتس (الشكل ٣١) وبريبوي (الشكل ٣٢) كما كمل هذه السلالة خلال سنوات طوال ابن بريبوي وتاكتيكا الحصان الكميت توبول (الشكل ٣٣)، وكان يمتاز بانتظام مظهره وهيكله الأهيف المتين، وكان يظهر رشاقته العالية في الجري على مسافات طويلة في أثناء التجارب في المضمار، كما أنه نقل صفاته إلى أنساله التي يمتاز منها الحصان الكميت نفتالين (ابن الفرس نيبريادفا) (الشكل ٣٤) المولود عام ١٩٧٧، وهو ممثل بارز لطراز «الكحيلان»، وله عيون كبيرة وطيبة، وصدره واسع، وأرجله قوية وجافة، ورث أنسال نفتالين بغدات وفيرسال أفضل خصاله.



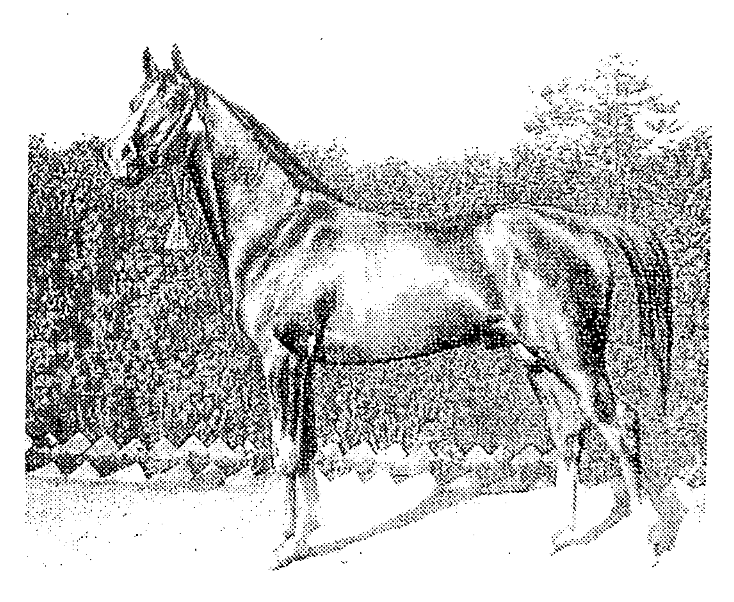
[الشكل ٢٨]
الخيل من المزرعة التيرسكية : أسوان



[الشكل ٢٩]
الخيل من المزرعة التيرسكية : ماشوك

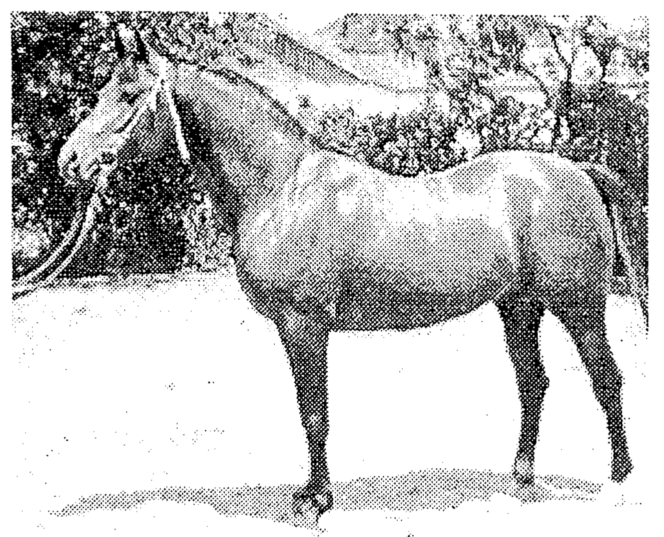


[الشكل ٣٠]
الخيل من المزرعة التيرسكية : بيولون

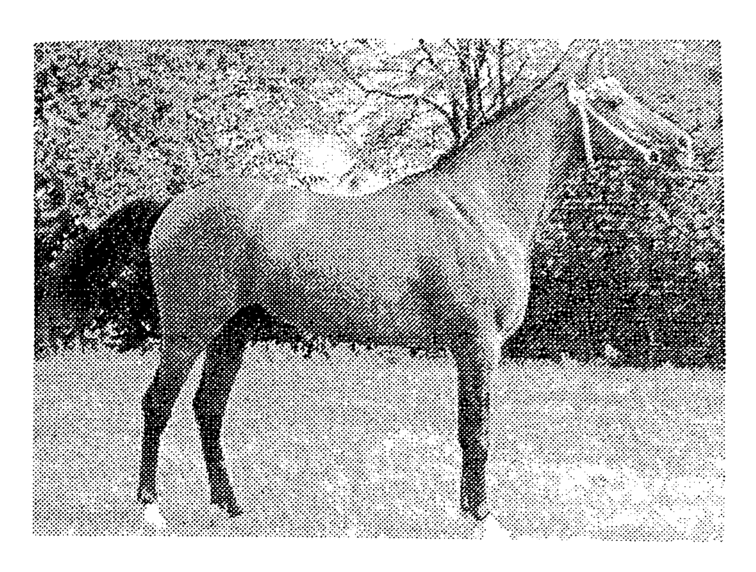


[الشكل ٣١]
الخيل من المزرعة التيرسكية : بوميرانتس

[الشكل ٣٢]
الخيل من المزرعة التيرسكية : بريبوي



[الشكل ٣٣]
الخيل من المزرعة التيرسكية : توبول

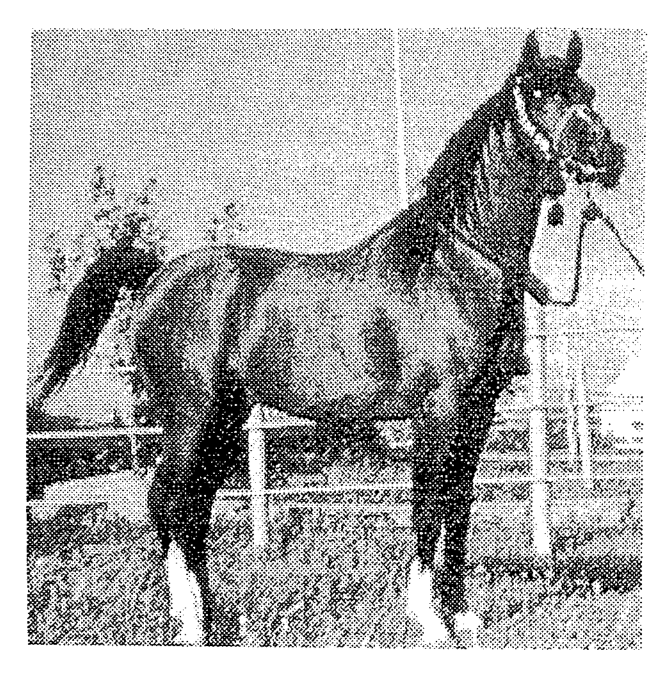


[الشكل ٣٤]

الخيل من المزرعة التيرسكية: نافتالين

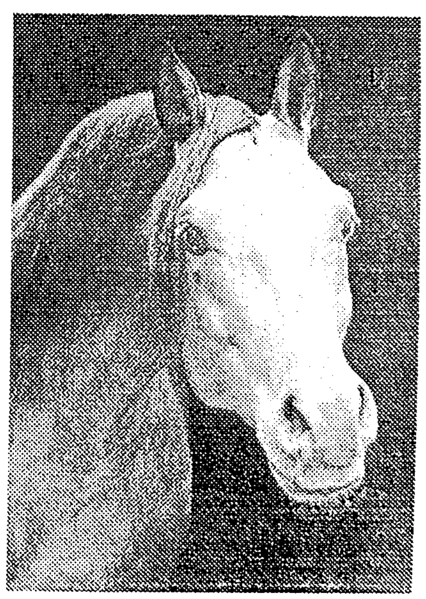
تعدّ سلالة أمورات جنسًا بارزًا كذلك، وكان ممثلها في المزرعة خلال عشر سنوات الحصان أراكس الذي جلب من بولندا، وفي مزرعة تيرسكي ولد منه الحصان الوسيم نابيغ (الشكل ٣٥)، وكمل سلالة الأب بيسنيار (الشكل ٣٦) ثم مينيس (الشكل ٣٧)، الذي فسح مكانه في الاسطبل النسولي للحصان الكميت تآلين (من نابيغ وتالانتليغاريا)، والحصان الأمغر بيلينغ (من نابيغ وبالميرا) والدة بيلينغ الفرس الجميلة بنية اللون وبطلة معرض منجزات الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفيتي، كما أنها ابنة الحصان المشهور صالون، وأم الحصان تالين هي ابنة أسوان والفرس الأسرية البارزة تبيليتسا، كلا ولدي نابيغ ممتازا البنية وظريفان، وعلى الرغم من الدم «الذهبي» الذي ورث من الأجداد أنفسهم إلا أن أنسالها نشأت مختلفة عن بعضها، فتالين ممثل طراز «الكحيلان» وبيلينغ «كحيلان صقلاوي»، لقد بيع إلى فنلندا بـ ٢٣٥٠٠٠٠ دولار، ومنها إلى الولايات المتحدة بـ ٣٠٠٠٠٠٠ دولار، وأنسال الحصان أمورات الأخرى بارزة أيضًا، ومنها أمبير وبوس الكميتين

وبالاتون الأمـغر وفيـمبيل الكميت الغـامق (ابن مينيس ومولفـا) وكلها تتـحدى للزعامة.



[الشكل ٣٥]
الخيل من المزرعة التيرسكية: نابيغ

بيسنيار المذكور أعلاه (الشكل ٣٦) هو ابن نابيغ (من أراكس ونومينكلاتورا) والفرس الأسرية بيسنيا (من أسوان وبتاشكا) من سلالة منصور المصرية، وقد تركزت فيه أفضل خصال أجداده، فقد ورث بيسنيار من أبيه متانة الهيكل ومن أمه الحنان ومن جده أسوان المزاج الشرقي الدموي، ومن جدته بتاشكا اللون الكميت المبقع، وخلف بيسنيار الكثير من الأحصنة الرائعة، ومنها أسترونوم وأمبليتودا الأمغرين وكاربال وأمبير وبوس وبوغينيا وغيرها من اللون الكميت، والبعض من

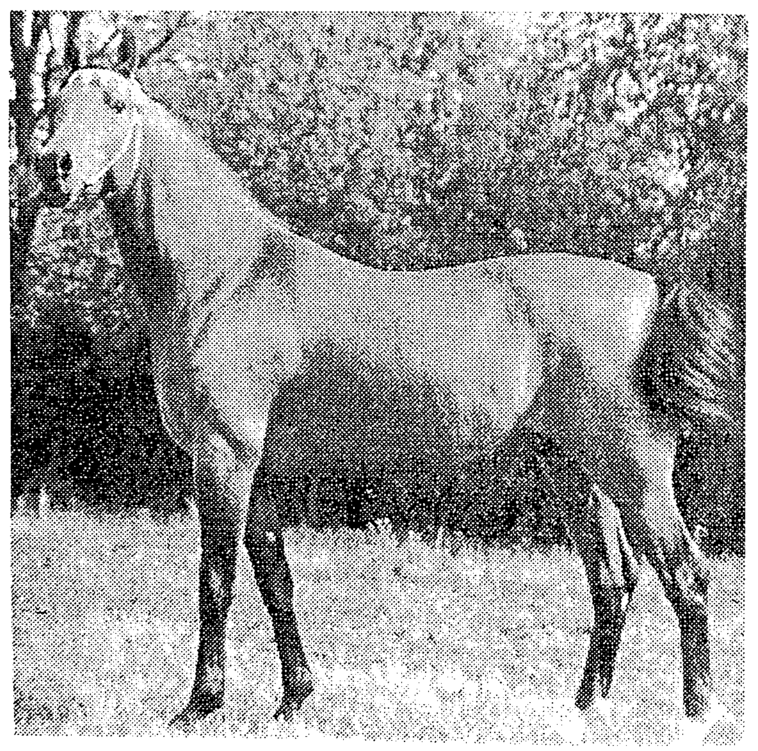


[الشكل ٣٦]

الخيل من المزرعة التيرسكية: بيسنيار

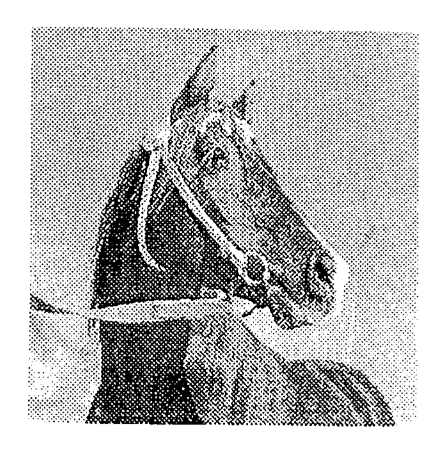
أنسال بيسنيار (ميتيس وبوتسيفال وبالتيكا) كانت مأجورة لصاحب مزرعة تربية الخيل في الولايات المتحدة الأمريكية.

لفت مينيس انتباه الخبراء (الشكل ٣٧) منذ أول أيام حياته، فبعد شهر فقط من ولادته بدأ هذا الحصان يتميز عن أترابه بكمال شكله وحركاته الطبيعية وهيئته المميزة وعزته ومزاجه الدموي وعينيه المعبرتين قدر ميتيس بثلاثة ملايين دولار (انظر أدناه) وأولاد ميتيس من التي بقيت في المزرعة هي الحجور بريغانتينا وباليرينا وفزياتكا وفينغريا والأحصنة بالاتون وفيكينغ وفالس وفيمبيل، وكلها تدل دليلاً ملموساً أن النجوم الجديدة قد طلعت في سماء تربية الخيل العربية العالمية.



[الشكل ٣٧]
الخيل من المزرعة التيرسكية: مينيس

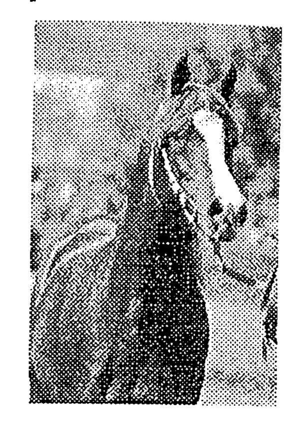
وسلالة كوراي القيمة (والده كان ووالدته ريكاسلينا) تمثلها مجموعة صغيرة من الخيول، التحق كان الأمغر بمزرعة تيرسكي من فرنسا، وريكاسلينا لها أصل إنكليزي، بقي كوراي في مزرعة تيرسكي حتى عام ١٩٥٨، ثم كمل سلالته أبناؤه كنيبيل وكانكان ولاك وماك، الذي ولدت بالسفاد معه الفرس كابيلا عام ١٩٧٣ حصانًا أمغر اسمه كومير (الشكل ٣٨)، الذي أصبح بدوره حصانًا رئيسيًا في هذه السلالة، وكومير قوي ومتين البنية وأنيق الشكل وممتاز الخلق وطيب المزاج، وأبدى هذا الحصان في الممشى للعدو في المضمار البياتيغورسكي صبره ورشاقته وروحه القتالية الحازمة، يورث كومير صفاته إلى أنساله.



[الشكل ٣٨]
الخيل من المزرعة التيرسكية: كومير

في عام ١٩٧٩ ولد عند الفرس مالينكا (المولودة من أسوان ومالوتكا) وكومير مهر أمغر اسمه موكومول (الشكل ٣٩)، وقد ورث هذا المهر من أمه المظهر الحسن والعفرة الحريرية والجلد الملمس الرقيق وفتحتي الأنف الكبيرتين، وورث من أبيه قوة البنية واللون الجميل والعينين الكبيرتين، التي تعبر عن ذكائه وبره، وأولاد

كومير الأخرى هي بيسينيك وشيك وتاكيما وترافكا وترويكا وهي تقدير ممتاز لهذا الحصان، ظهر في عام ١٩٨٤ في الاسطبل النسولي الحصان الرمادي بريزراك (من كانكان وبتاشكا) توافر في هذا الحصان الطول ومتانة البنية والرقبة اللبقة الطويلة تنتهي عند رأس جميل ذي عيون طيبة.



[الشكل ٣٩]
الخيل من المزرعة التيرسكية: موكومول

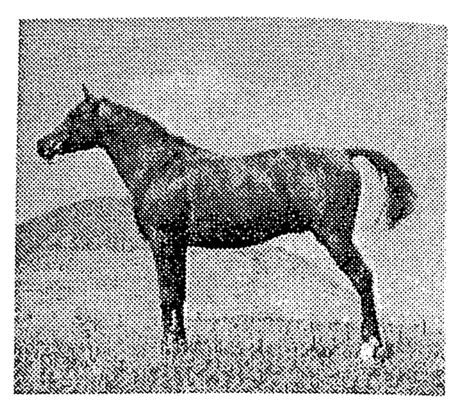
يوجد من بين الفحول في المزرعة أنسال الجواد الأصلي ديري، وقد بدأت هذه السلالة من الحصان الرمادي، النيل، وهو أيضًا هدية من الرئيس جمال عبد الناصر للاتحاد السوفيتي، خلف هذا الحصان ١٦ نسلاً، ومن بينها الحصان الرمادي ناسليدنيك (المولود من الفرس نيتوشكا)، وهو مستديم لهذه السلالة المصرية الفريدة، كما أنه بطل المعرض الليبسيغي ومعرض منجزات الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفيتي، قدر ناسليدنيك بكيفية نسله كثيراً، وكلها رمادية اللون وخفيفة ولبقة و «صقلاوية»، ويتميز منها الحصان الأنيق كروان (من ناسليدنيك وكارالينا) ويكتمل جماله الخارجي بالتأصيلة الحسنة.

من خلال سير العمل النسولي مع الخيول العربية في مزرعة تيرسكي ظهرت ـ ما عدا السلالات ـ الفصائل الأنثوية القيمة، وهي: كابارينا وكواليسيا ورودانيا وغيرها من المنبت الأصلي، والخيول التي تتميز بكيفية نسلها هي رواد الفصيلة تاكيتيكا وتاراشا، وأصبحت الأفراس نيتوشكا وتيبليتسا وترابيسيا أفراسًا قطعانية، وأكبر فصيلة من القطعان فصيلة مامون الذي تفرعت منه الإناث الأسرية، وهي الحجور المعروفة: مانوليا، وميتروبوليا، ومونوبوليا، ونيبوسيدا.

مهد هذا التركيب الجنسي المعقد لدى المجموعة النسولية وتكنولوجيا التغذية الصحيحة وتنشئة الخيول الفتية وتجربتها سبيل النجاح في العملية النسولية والأجناس في مزرعة تيرسكي وإرضاء طلبات السوق الداخلية والخارجية وتسويق الخيول من الدرجة العالية.

نالت الخيول المرباة في مزرعة تربية الخيل تيرسكي تقديراً عاليًا من خبراء المعارض الدولية المختلفة، فمثلاً الفرس كاتون (من أسوان وكابيلا) صارت بطلة أوروبا في المعارض الهولندية والفرنسية عام ١٩٧٨، كما كان الممثلون الآخرون لمزرعة تيرسكي مقدرين في المعارض نفسها كالجياد كاليمانجور (من أسوان وكارتا) ونيمان (من نابيغ ونيغا)، وفي جمهورية ألمانيا الاتحادية أصبح أبطال معارضها الحصان صالون (من نيغاتيف وسوناتا)، والفرس بريما (كنيبيل وبلاتفورما). وفي عام ١٩٨٠ اعترفوا في المعرض الأمريكي بالحصان موسكات (من صالون ومالبيا) والفرس بريستان (من أسوان وباليرا) كالأبطال العظماء، ونال موسكات التسمية نفسها في المعرض في كندا، وأصبحت الفرس الرمادية بيسينكا (من صالون وبانوراما) بطلة احتياطية في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٠، وفي العام التالي نال الحصان مارسيانين تسمية البطل الوطني في الولايات المتحدة (من صالون ومانوليا)، ونال الجوادان نابيتوك وناريادني والفرسان بريستان وناريادنايا الجوائز الكبرى، وأصبحت الفرس كاتون (من أسوان وكابيلا) بطلة معرض باريس الدولي، وأصبح الحصان أنتاي (من أسوان ونيميزيدا) بطل اسكانديناڤيا (الشكل ٤٠).

الطلب على الخيول من مزرعة تيرسكي في الأسواق الدولية عال جدًا، كما سنرى بعدُ أن بعض الجياد تقدر بملايين الدولارات، وثمن السفاد معها ثلاثون ألف دولار.



[الشكل ٤٠]

الخيل من المزرعة التيرسكية : أنتاي

في كل سنة في أواخر شهر حزيران تجرى في مزرعة تيرسكي المزادات العلنية العالمية (الشكل ٤١ - ٤٤) وأجري الأول منها عام ١٩٧٠ ، عندما اشترت جماعة من ممثلي الشركة الألمانية الغربية «أوليمبيا ريزين» ثمانية خيول، من بينها كيليمانجارو الشهير المذكور أعلاه، المولود من أسوان وكارتا، وكان بطل ألمانيا الاتحادية أكثر من مرة وولد العديد من الأبطال، كانت الخيول قبل تنظيم المزادات العلنية تصدر إلى البلدان الأجنبية بشكل متقطع، وكان يجري هذا في بادئ الأمر بعقد الهبة، ففي عام ١٩٥٥ أهدي الجوادان كولوس وكوبيدون

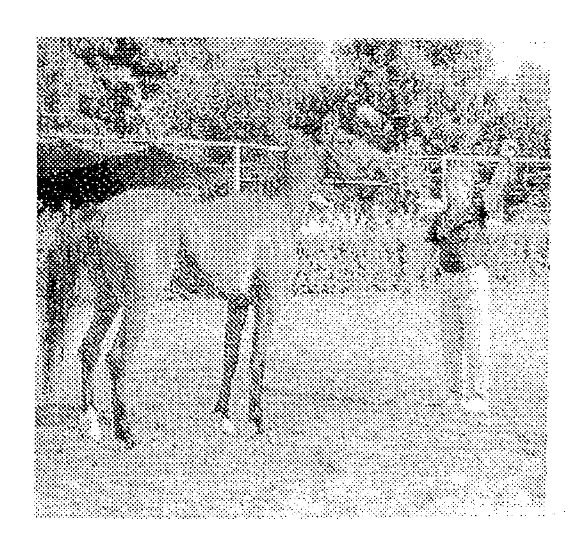


[الشكل ٤١]

المزادات العلنية في المزرعة التيرسكية في سنوات عدة

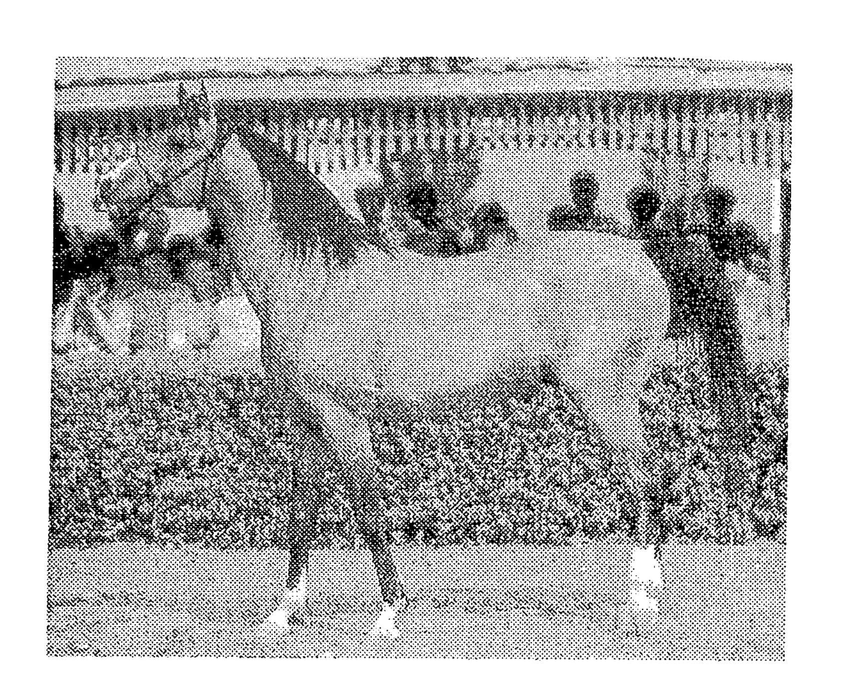
[الشكل ٤٢]

المزادات العلنية في المزرعة التيرسكية في سنوات عدة



[الشكل ٤٣]

المزادات العلنية في المزرعة التيرسكية في سنوات عدة



[الشكل ٤٤]

المزادات العلنية في المزرعة التيرسكية في سنوات عدة

لرئيس وزراء الهند نهرو، ورئيس يوغوسلافيا بروزتيتو، كما أهدي الحصان كابوت لملك أفغانستان محمد زاهر شاه، ثم بدأت الخيول تصدر إلى إنكلترا خلال بضع سنوات، فسوقت أنسال البطل بوميرانس ليبيستوك ونابليف وكابلا وأنسال أراكس ماسكاراد وبوداروك، وكذلك بطلة إنكلترا المقبلة الفرس نابراسلينا، وقد أثرت هذه الخيول في انطباع الناس في البلدان الأوروبية جيدًا، فبدأت المزادات العلنية في مزرعة تيرسكي بعد ذلك بشكل منتظم، بيعت بالمزاد العلني لعام ١٩٧٣ حيث اشترى المشتركون من هولندا وإيطاليا وفرنسا وبولندا وألمانيا الاتحادية ثلاثًا وعشرين فرسًا، وكان من بينها بطل الولايات المتحدة المقبل الحصان مارسيانين (من أسوان ومانوليا)، وخلال العامين ١٩٧٥ - ١٩٧٦ اشترى صاحب مزرعة تربية

الخيل الأمريكي كابل من مزرعة تيرسكي مجموعة من الخيول الحسنة، ومن بينها بطل الولايات المتحدة وكندا المقبل الحصان موسكات (من صالون وميتروبوليا)، والبطلة بيسينكا (من صالون وبانوراما)، وناريادني (من نابيغ وناريادنايا) أصبح ١٤٦ من أنسال موسكات أبطال المباريات والمعارض المختلفة، وسجل في stood-books الأمريكية ٧٤٧ مهر.

زادت موجة المشترين بالمزادات العلنية من مزرعة تيرسكي وكان أكثرهم نشاطًا في بداية السبعينات صاحب مزرعة تربية الخيل الهولندي الشهير خارتوغ، ومزرعته «كوساك فارم» مزودة بالخيول من «الانتقاء الروسي» كما يسمونها، كما شارك في المزادات العلنية بنشاط ممثل إيطاليا لاتوري.

نجحت المزادات العلنية بين العامين ١٩٧٥ - ١٩٧٨، وفي عام ١٩٧٩ اشترك في المتاجرة المشترون من الولايات المتحدة وألمانيا الاتحادية وإيطاليا والسويد وهولندا وإنكلترا وفرنسا والبرتغال، بيعت في عام ١٩٨١ أربعة وأربعون فرسًا بسعر جيد، وفي هذا اليوم عقد الاتفاق على السعر العام فوق ثلاثة ملايين دولار، فبيعت الفرس نارادا (من أسوان ونيبوسيدا) وحدها بـ ٣٥٠٠٠٠ دولار لرجل أعمال أمريكي، كما دفع التاجر خامر ثمنًا للحصان المعروف بيسنيار (من نابيغ وبيسنيا) الذي يستخدم كفحل في مزرعة تربية الخيل «لاسما أرابيانس» مليون دولار، وهذا أعلى سعر أعطي ثمنًا للحصان العربي في تلك الأيام، وبيع في المزاد العلني نفسه الحصان أنتاي ابن الحصان أسوان وبطل هولندا الوطني المقبل بـ ٣٥٠ ألف دولار، والفرسين نارادا وبوزنان بـ ٣٥٠ و ٢٨٠ ألف دولار، وفي عام ١٩٨٤ قبض ثمن ثلاثين فرسًا مبلغ ١٢٠٩٠٠٠ دولار، أجر الحصان مينيس نصف أخ الحصان بيسنيار إلى أمريكا بـ ٢٤٠٠ دولار، ومؤخرًا بيع ابن نابيغ الآخر بيلينغ بثلاثة ملايين دولار، يلاحظ أن أغلى سعر أعطي هو ثمن الحصان العربي الذي بلغ ٣٢٠٠٠٠٠

دولار ثمن الحصان عبد الله (من باترون وبسيخيا). نجحت المزادات العلنية كذلك في العامين ١٩٨٦ - ١٩٨٧، بعد ذلك انخفضت أسعار الخيول العربية بشكل ملحوظ ليس في روسيا فحسب بل في بلدان أخرى؛ لأن الأسواق أصبحت مكتظة بالخيول العربية فوق الحد.

في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات استمرت الخيول الروسية من الأجناس العربية بفوزها في المباريات والمعارض في سويسرا وبريطانيا وألمانيا الاتحادية وفرنسا وإيطاليا والنمسا والأرجنتين وبولندا وهولندا والولايات المتحدة وكندا.

إجمالاً قبل بداية التسعينات بيعت من روسيا ـ إلى إحدى وعشرين دولة ـ حوالي ٧٠٠ حصان عربي، وفي عام ١٩٨٧ بيعت سبعة خيول بما فيها الأمهار ضمير، ودوناي إلى أبو ظبي.

ما عدا مزرعة تيرسكي تربى الخيول العربية بكميات صغيرة في مزارع تربية الخيل هرينوفسكي وباغولنيتسكي وغيرها من جمهوريات الاتحاد السوفيتي الأسبق، استخدمت فيها الخيول العربية كالمحسنة للأعمال النسولية مع السلالات التراكيسكية وبوديونوفسكية والدونية واللاتفية وغانوفيرسكية، كما أنها تستخدم بشكل واسع في ما وراء القوقاس (كمزرعة أغدامسكي في أذربيجان الذي يعمل في إعادة إنشاء الحصان الكارباخي اعتماداً على تهجين الخيول العربية والسباقية) وآسيا الوسطى وكازاخستان، وفي جمهوريات بحر البلطيق تعرف مزرعة تربية الخيل الفيلنوسي (ليتوانيا) والمزرعة الخيولية النسولية «تيرفيت» التي كانت كولخوزا سابقًا في الناحية الدبلسكية (لاتفيا) وبين العامين ١٩٨١ و ١٩٨٥ بيع ٢٥١ حصان ٣٨ منها إلى البلدان الأجنبية (بالمزاد العلني في موسكو) وفي أواخر الثمانينات كان في هذه المزرعة حوالي ٧٠ فرسًا نسولية من الأجناس السباقية المختلفة الغانوفيرسية والتراكينية والعربية والسباقية الأصيلة واللاتفية من الطراز السباقي، تربى الخيول

الرياضية التراكينسية والخيول الهجينة العربية الاستونية في مزارع الخيل التي كانت تابعة سابقًا لسوفخوزات «فازليما» و «فيلاندي» و «كيليالا»[1]، والطلب على الخيول الإنكليزية العربية السريعة والصبورة[2] والخيول العربية التراكينية الجليلة، الخيول العربية الدونية الهيفاء عالي بين هواة الخيل الرياضيين في كل أنحاء العالم.

في عام ١٩٦٣ صدر المجلد الأول من الكتاب النسولي عن الخيول العربية الأصيلة، وصدر المجلد السادس والأخير عام ١٩٩٣[3]، ساعدت البحوث الدقيقة المجرية في روسيا على إظهار مميزات التركيب الدموي والعظمي التي منحت للخيول العربية صفاتها الفريدة[4].

---

(١) ي. كوجيفنيكوف، د. غوريفيتش: تربية الخيل الوطنية: ماضيها وحاضرها ومشاكلها موسكو، ١٩٩٩٠، ص١٩٠-٢٠٢.

(٢) ن. سولداتينكوف: مع الخيول الإنكليزية الكايسية والإنكليزية العربية الكايسية الهجينة، بلاغ الفرع التادجيكي من أكاديمية العلوم السوفيتية، النشر ١٤، ١٩٤٩، ص٢٢-٢٧.

(٣) الكتاب الحكومي عن الخيول العربية الأصيلة: المجلد الأول، موسكو، ١٩٦٥، ريغا، ١٩٨٥، المجلد الثاني، موسكو، ١٨٧٣، ريغا، ١٩٨٥، المجلد الثالث، ريغا، ١٩٧٨، موسكو، ١٩٨٠، المجلد الرابع، ريغا، ١٩٨١، المجلد الخامس، ريغا، ١٩٨٧، المجلد السادس، ريغا، ١٩٨٥، ريازان، ١٩٩٣.

ضم المجلدان الخامس والسادس الخيول العربية الأصيلة من مزارع تيرسكي وستافروبولية وهرينوفسكي في روسيا، والمزرعة الفيلنوسية في لتوانيا ومزرعة باغولنيتسكي في أوكرانيا وأكروفيرما «تيرفيت» (لاتفيا).

وانظر: الحصان العربي في الاتحاد السوفيتي (الملحق للكتاب النسولي الحكومي عن الخيول العربية الأصيلة) موسكو، ١٩٧٨.

الكتاب النسولي الحكومي عن الخيول العربية من السلالة التيرسكية، المجلد الأول، ستافروبول ١٩٥٢.

(٤) عبد الرحيم طارق، وصف علم تربية الدواجن وخصائص تعدد الأشكال الآحي في دم الخيول من الأجناس العربية في روسيا وسوريا، الرسالة العلمية لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الزراعية موسكو، ١٩٩٤.

تتصرف روسيا اليوم بتعداد السائمة الصغير من الخيول العربية (٢٠٠٠ رأس بما فيها ٣٥ - ٤٥ فحلاً و ٣٠٠ - ٣٣٠ من الإناث العربية) ولكن قيم جدًا، يعبر الخبير بالأجناس بالاشكين عن رأيه أنه من أجل اكتمالها المقبل مع حساب رصيد الموروثات المحدود في بلدنا ينبغي تحديد المورثات بشراء الخيول من البلدان الشرقية من أصل غير نسيب، ولكن قريب من الخيول الروسية بطرازه.

قبل أن آتي إلى ختام هذه اللمحة المختصرة أريد أن أشير مرة أخرى إلى أنّ هدفي الأساسي التقديم للقارئ العربي المواد المجهولة والفريدة التي تبدي المجالات الخاصة في علاقات روسيا مع البلدان العربية، وهذا الهدف بالذات هو الذي جعلني أختار هذه المعلومات للنشر، أتمنى أن يستمتع بهذا الكتاب ليس المختصون في تربية الخيل فحسب[٥٥] بل كل من يهتم بالأحداث التاريخية في تلك المرحلة.

= بالاشكين، تطور الخيول من الأجناس العربية في الاتحاد السوفيتي ودورها في تحسين عدد السائمة في الخيول، الرسالة العلمية لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الزراعية، موسكو، ١٩٦٦.

ي. جوكوفسكايا: وصف علم تربية الدواجن وخصائص تعدد الأشكال الآحي البيوكيماوي لدى دم الخيول العربية الأصيلة، الرسالة العلمية لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الزراعية، ريبنوي ١٩٨٨.

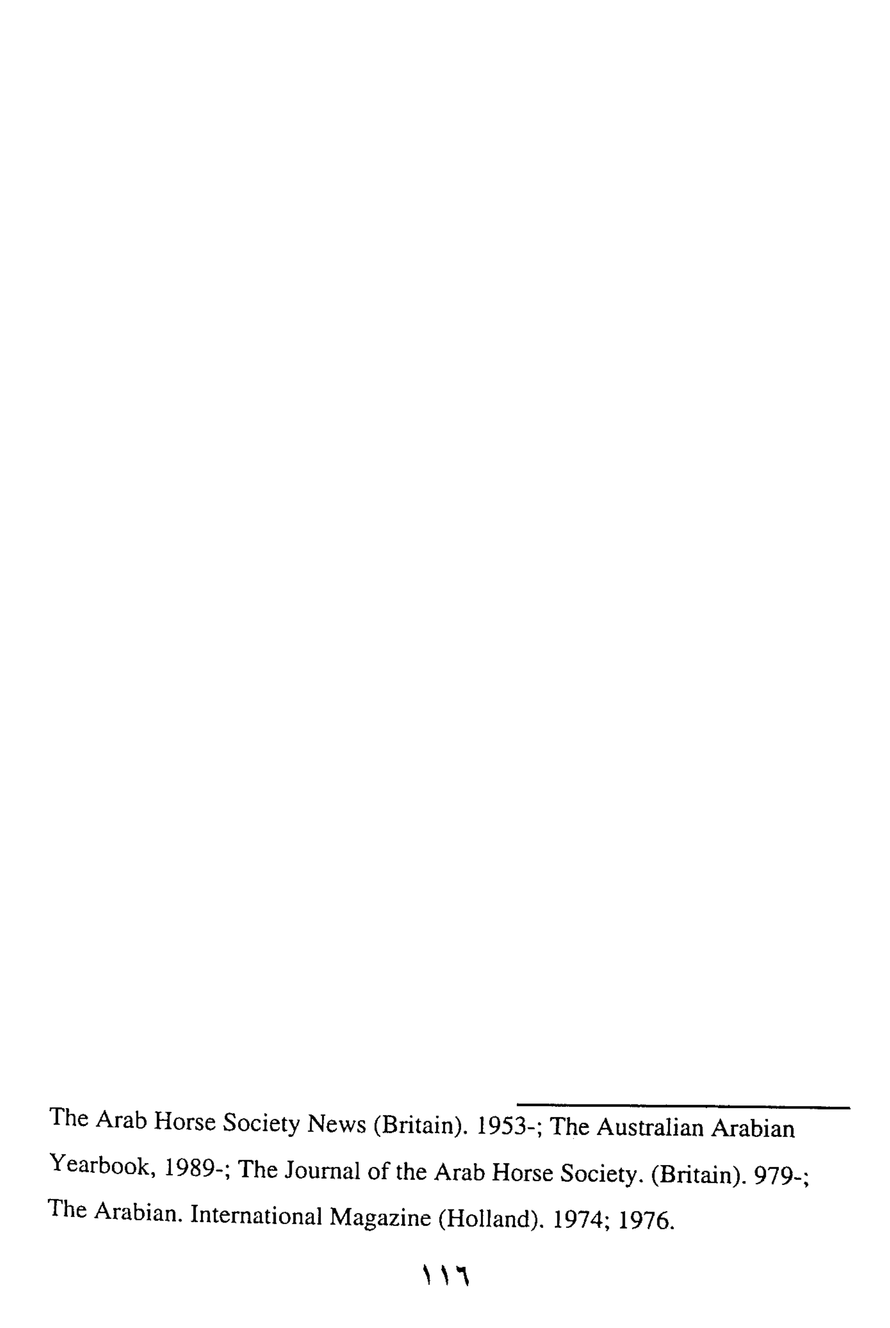
(٥٥) راجع:

Ammon K.W. Nachrichten von der Pferdezucht der Araber und den arabischen Pferden. N'rnberg. 1834. Reprint. Hildesheim 1983. (Ammon K.W.. News of the Arab's Horse-Breeding and of the Arabian Horses. Translation of the N'rnberg 1834 edition by Helen Staubli. Hildesheim, 1992); The Arabian Horse in Australia Arabian Horse Society of Australia, 1990; Arabian Horse. Abu Dhabi, 1990, Vol. 1; Archer R., Pearson C., Covey C. The Crabbet Arabian Stud Its History and Influence. Alexander Heriot, 1978; Asil Araber III ü Arabiens edle Pferde. Hildesheim 1985. (Documents Hippologi- =

= ca): Bilke E. Pferdcpassion. Von Pferdezucht und Pferdesch. nheit. Hildesheim 1976. (Documenta Hippologica): de Blomac N. & Bogros D. L'Arabe. premier cheval de sang. Paris. 1978: Borden S. The Arab Horse,. Doubleday, Page & Co., 1906 (reprint 1961): Brown W. R. The Horse of the Desert. New York, 1928 (2nd editon, New York 1977). Reprint: Hindesheim, 1977. (Documenta Hippologica); Carcopa. Le Cheval pur-sang arabe dans le monde. Paris. 1975; Coolie K. Spirit of the Wind: the Horse in Saudi Arabia. London, 1982; Cuttnamm U. & Klynstra F. B. The Lineage of the Polish Arabian Horses ü Die Abstammung der polnischen Araber. Hildesheim, 1968. (Doucumenta Hippologica); Damoiseau L. Hippologische Wanderungen in Syrien und der W'ste. Leipzig, 1842. Reprint: Hildesheim, 1979. (Documenta Hippologica); Daumas E. Les Chevaux du Sahara. Paris, 1853 (German edition. Pferde der Sahara. Berlin 1853/54. Reprint: Hidelsheim, 1988). (Documenta Hippologica): Edwards G. B. Faites connaissance avec le cheval arabe. Traduit par P. d'Autheville, Quebec, 1974: idem. The Arabian War Horse to Show Horse. The Arabian Horse Trust of America. 1969; Flade J. F. Das Arabe Ziems1977; Flynn J. & Gordon C. The Crabbet Arabian Imports to Australia. Somerset Publications. 1988; Forbis J. The Classic Arabian Horse. Livernight. 1976; Guarmani C. C. & Pesce A. The Purebred Arabian Horse. London, 1984; Gordon C. The Crabbet Silver Family in Australia. Somerset Publications, 1987; von Hammer-Purgstall J. F., Das Pferd bei den Arabern. Wien, 1856. Reprint: Hildesheim, 1981. (Documenta Hippologica); Jager A. Das Orientzlische Pferd und das Privatgest'te Seiner Majest't des Knings {Wilhelm II} von W'rttemberg. Stuttgart, 1846. Reprint: Hildesheim. 1983. (Documentta Hippologica); Kretschmar N. Pferd und Reiter im Orient. Hildesheim, 1980; Lawrence J. The History and Delincation of the Horse in all His Varities. London, 1809. Reprint: Hildesheim, =

1979/ (Documenta Hippologica): L ffler E. Die sterreichische Pferdeankauf- mission unter dem k. k. Obersten Ritter v. Brudermann in Syrien. Palstina und der W'ste in den jaren 1856 und 1857. Troppau, 1860. Reprint: Hilde- sheim, 1978. (Documenta Hippologica); Lukomski-Borowiak-Dnkelberg. Zum arabischen Pferd. Stuttgart. 1906. Reprint: Hildeshcim, 1979. (Documenta Hippologica); de Madron F. R. La Race chevaline pure arabe dans son etat actuel. Paris, 1927; Maury R. Le Cheval de pur sang arabc. Paris. 1964; Milner M. The Godolphin Arabian. J. A. Allen, 1990: Mohamed Aly, Prince H. H. Breeding of Pure Bred Arab Horses. 1976; Parkinson M. J. The Kellogg Arabian Ranch: The First Sixty Years. Cal Poly Kellogg Unit Foundation, 1975; Pearson C. & Kees K. The Arabian Horse Families of Egypt from 1870 to 1980. Alexander Heriot, 1988; Piduch E. Arabien Horse of El Zaharaa. Hildesheim, 1982 (Documenta Hippologica); Raswan C. R. Im Land der schwar/enzelte. Hildescheim. 1976; idem. S. hne der W'ste. Hildesheim, 1977; idem. Trinker der L'fte. Hildesheim, 1976; idem. & Sey- del R.-H. Der Araber und sein Pferd. Stuttgart 1930; Breslau, 1932; Hanno- ver, 1933. Reprint: Hildesheim, 1990. (Documenta Hippologica); idem. Im Land der schwarzen Zalte, Berlin, 1951. Reprint: Hildesheim. 1990; idem. Escape from Baghdad London, {1938}. Reprint: Hildesheim. 1978; idem. The Arab and His Horse. Oakland Calif., 1955; idem. & Guttamann U. Les Chevaux arabes Traduit par R. Albeck, Paris, 1967; Schiele E. The Arab Horse in Europe London, 1970; Summerhays R. S. The Arabian Horse Wil- shire Bool Company. 1969; Tweedie W. The Arabian Horse: its Country and pcople. London, 1924 (reprint: Borden Publishing house, 1961); Upton P. The Arab Horse. Crowood. 1989; Upton R. D. Newmarket and Arabia: An Examination of the Descent of Racers and Courses. Henry S. King, 1873.

يراجع المجلات الخاصة :



The Arab Horse Society News (Britain). 1953-; The Australian Arabian Yearbook, 1989-; The Journal of the Arab Horse Society. (Britain). 979-; The Arabian. International Magazine (Holland). 1974; 1976.

الملحق الأول ..

مذكرة عن الخيول العربية
من تأليف القنصل الروسي العام في بيروت
السيد ق. بازيلي
حيث تعالج الأسئلة الصادرة
عن وزارة أملاك الدولة

الأرشـيف المركـزي التـاريخي الحكومي في سـان بطرسبورغ، الرصيد رقم ٤١٢ ، الجرد رقم ٣ ، القضية رقم ٦٣٢ ، الأوراق ٥٩-٧٣ .

ينشر للمرة الأولى

مذكرة عن الخيول العربية من تأليف القنصل الروسي العام في بيروت السيد ق. بازيلي، حيث تعالج الأسئلة الصادرة عن وزارة أملاك الدولة.

الصحراء الكبيرة التي تحد سوريا من الشرق، حيث تتنقل القبائل البدوية في جنوب شبه الجزيرة العربية، على طول الفرات حتى ديار بكر، هي مرتع لأفضل أجناس الخيل، ولكن الحصول على الخيول عالية الخصال ـ وفقًا للعقائد العربية ـ كما سنفسرها فيما بعد ـ صعب ليس للأجانب والرحالة فحسب بل للسكان المحليين، الذين يرتبطون بعلاقات متينة مع البدو، إذا كانت فرس ما من سلالة سامية فهي ثروة للشعب وملك للبدو، وتنتشر الشائعات عنها في الصحراء كلها، وإذا كان لها صاحبها الخاص يصعب عليه أن يفارق فرسه الوجيهة من عزة نفسه.

تأتي القبائل المتنقلة بقطعانها في الربيع إلى البوادي الشمالية على طول الفرات والقسم المسكون من سوريا، وتارة يصل عدد البدو الذين ينصبون خيمهم بخمس وعشرين فرستا عن دمشق إلى مليون نسمة، وتمتد المخيمات البدوية الأخرى بالمنطقة الشرقية من سوريا بتجاور مع حماه وحمص وحلب. إنهم لا يأخذون خيولهم إلى تلك المدن للبيع بأي شكل، خوفًا من السلطات والعلاقات المعادية معها، ولكن مع اتخاذ الاحتياطات يمكن القيام بزيارة هذه القبائل ومشاهدة الخيول، وينبغي قبل ذلك إجراء محادثات مع شيوخ القبائل أو رؤساء المخيمات عن طريق أصحاب نفوذ من أهل المدن الذين يتاجرون مع البدو، ويصادقونهم على

هذا الأساس، يأتي أحد الشيوخ إلى المدينة، حيث يبقى رهينة، ريثما يزور مشتري الخيل المخيمات البدوية ويعود لا يحمل معه المال من الحذر، وبعد الاتفاق على السعر يدفع المال للوكلاء.

بعض الأسر العربية النبيلة، مثل الشهابيين في جبال لبنان وسلسلة جبال لبنان الشرقية، وعبد الهادي في نابلس، وعبد الملك في جبال لبنان، وأحمد يوسف في دمشق، وغيرها من التي هي أقل شهرة في حماه وحلب تملك أنواعًا من الخيول المشتراة من البدو، ويحافظون على نقائها بسفاد الأحصنة مع الأفراس من الجنس نفسه، تتفوق هذه الخيول عن أبناء جنسها من خيول الصحراء بجمالها، بفضل العناية الجيدة بها والتغذية الحسنة، ولكن ما يخص خصالها الجوهرية كتطور غريزتها وسرعتها في الجري الطويل، وقدرتها على تحمل المشقات وصحتها، فتتأخر عنها كثيرًا بسبب نموها في اسطبل، والعلف الوفير من الشعير والقش، وخبرة أهل المدن المستعارة من الأتراك، وهي تربية الخيول المكتنزة والأكثر من ذلك وقوف الخيول المستمر وعدم الحركة. يطعم البدو خيولهم الأصيلة لبن الجمال أو كلأ المرعى حتى تبلغ ثلاث سنوات من عمرها، وأحيانًا حتى سبع سنوات، ولا يطعمونها الشعير إلا نادرًا، خيولهم دائمًا ضامرة، ولكن سليمة، إنها غير متوقدة وتسير منحنية الرؤوس بقدم واحدة على الأرض، ونادرًا ما يلبسونها شكائم عند نشوب حرب أو مطاردة، وفي أوقات السلم يضعون لها أرسانًا، يعيش حصان البدو في الهواء الطلق ويتربى في الخيمة مع أسرة العربي البدوي، مثل كلب البيت في بلدنا، يؤدي هذا النوع من التربية إلى تطور غريزة لا تصدّق، تمتاز بها الخيول العربية عن غيرها في العالم كله، وليس خرافة أن الحصان يحمي صاحبه وهو نائم، وأنه يوقظه بحافره عندما يشعر بالخطر وأنه يبقى قرب تابوته حتى يموت من الحزن، وبعد قتله في الحرب يحمله بأسنانه إلخ... ولكن كل هذه الخصال تزول

بتغير نمط التربية، فلن تجدوا طيلة حياتكم في الخيول المرباة في المدن شيئًا كهذا، على الأقل تظهر فيها كرامة السلالة ما عدا جمالها الخارجي وقوتها، وهي تمشي بحذر على طريق لا تعرفه، وتنظر إلى الجهتين، وتعرف سائسها وسيدها، وليس فيها عيوب.

إن توصيل الخيول المشتراة من قلب سوريا إلى بيروت ليس صعبًا، ومن بيروت يسهل توصيلها بالباخرة إلى القسطنطينية، وبخاصة إذا كان لكل منها مربطها المصنوع من ألواح خشبية على شكل صندوق، فتصل إلى القسطنطينية تحت مراقبة سائس. يحتاج السفر عبر البحر إلى ستة أو سبعة أيام، وإذا أزيل الحجر الصحي بين سوريا والقسطنطينية فلن تؤثر هذه الرحلة في صحتها، أما إذا ما ظل الحجر الصحي باقيًا فستضطر الخيول أن تتوقف في إزمير مدة اثني عشر يومًا في جناح المرضى حيث الراحة والاسطبل وباحة واسعة، تسير الباخَرة من بيروت إلى إزمير أربعة أيام ونصف، ومنها إلى القسطنطينية بست وثلاثين ساعة، ثم إلى أوديسا بست وثلاثين ساعة.

بعد كل ما قلناه عن أسلوب زيارة المخيمات البدوية قرب مدن سوريا نطرح سؤالاً: هل من الممكن الدخول إلى قلب الصحراء؟ أقصد الرحلة عبر الصحراء الكبيرة، إذا اتخذنا مأثرة كهذه من أجل الحصول على الخيول، فعلاً يمكننا الحصول على أفضل الخيول النقية، ولكن ينبغي التزود بالقدرة على القيام برحلة كهذه وعدم العجلة وتحديد الوقت، وينبغي زيارة المخيمات واحدًا بعد الآخر، والانتباه إلى الخيول الحسنة، واستيعاب أخلاق البدو وعقائدهم، والحصول على حصان في أول فرصة تسنح، كما ينبغي في مثل هذه الرحلة التزود بالصحة والصبر؛ لأنها قد تستمر سنتين أو أكثر، ويكون الغذاء خلالها حليبًا وخبزًا نصف نيء، ونادرًا لحم الجمل في الأعياد العائلية ومضافات الشيوخ، يجب على كل من يقوم بهذه الرحلة

أن ينال ثقة الشيخ للسبب نفسه الذي ذكرناه سابقًا عند زيارة المخيمات القريبة من المدن، وعدم أخذ المال إلا كمية صغيرة، أفضل شيء هو لعب دور تاجر، وأخذ البضاعة التي يشتريها البدو، يمكن إيجاد مترجمًا جيدًا في المدن السورية.

من الأفضل البدء بهذه الرحلة من بغداد، ومنها إلى المسقط فاليمن فالحجاز؛ لمشاهدة خيول شبه الجزيرة العربية، ولكن يجب ألا ينسى المسافر أن هذه الرحلة لا تخلو من متاعب وأخطار وخصوصًا عبر الصحراء المترامية الأطراف والمحرقة والمضطربة من اعتداءات القبائل المتوحشة.

سلالات الخيول العربية الرئيسة هي:

صقلاوي.

جلفي.

كحيل.

كلها أصلها من الحجاز من بلاد النجد، لذا تسمى كل الخيول الأصيلة بالنجدية.

وتسمى السلالة النقية من أب وأم صقلاوي بصقلاوي جدران، وإذا كان الأب صقلاوي والأم جلفي عندئذ تسمى السلالة بصقلاوي أبو عرقوب، وإذا كان الأب جلفي والأم صقلاوي فتسمى بشعيمان سباع.

سلالة كحيل لا تشتهر بها مصر كما يظن الأكثرية؛ لأن أصلها ليس من هذا البلد ولكن تقيم فيها كثيرًا، وتتفرع إلى طريفي وسويتي وعبيان وقبايشان وسعادان طوقان ومطيري وشنين وغيرها.

كل هذه السلالات الرئيسة بفروعها لا يختلف بعضها عن بعض بخصالها، ولا حتى أي خبير في الخيل لا يستطيع أن يعرف سلالة الحصان من مظهره وكيفية شعره وهيأة رأسه وبنيته أو علاماته المميزة أو قدراته.

تعد السلالة عند الحصان العربي رمز تفوقه من كل النواحي كما هي الحال في المجتمع الإنساني، حيث تحترم الأسر النبيلة وتكرم، وأسماء السلالات لها الدور نفسه كدور اسم العائلة التي ينتسب الإنسان إليها، تسمى السلالات نسبة إلى سلفها التي نالت سمعتها من مأثرة ما منذ غابر الزمان في شبه الجزيرة العربية، كالجري المتواصل خلال يومين أو ثلاثة أيام، أو الجرح في المعركة وغيرها. يزعمون مثلاً أنه في قديم الزمان كان أعرابي يهرب من عدوه على الفرس جلفي، وكان يتبعها مهرها الذي ولد من الحصان صقلاوي، ضرب الأعرابي المهر بسيفه على ركبته خشية أن يقع في يد العدو سالمًا، وعندما بلغ مخيمه وجد أن المهر لا يزال يتبعه على أرجله الثلاثة فسماه أبو عرقوب، هكذا هي العادات العربية أن يلقبوا الكل نسبة إلى الصفة التي يمتاز بها (أبو الدهاء، أبو الخدعة إلخ. . .) ومنذ ذاك الحين سمي نسل هاتين السلالتين بأبي عرقوب، كل القصص عن صفات السلالات وقدراتها وعلاماتها خيالية فقد تأكدت من ذلك برؤيتي هذا بأم عيني، ومن الخبراء، وهذه القصص التي يصدقها الأجانب سببها خيالات العرب الواسعة وميلهم للخرافات والمعجزات وخبرة تجار الخيل بقص الهراءات.

كل الشهادات عن أصل الحصان مسجلة عند الشيوخ أنّ أصله من حصان معين وفرس معينة، وسلالته، والقبيلة التي ولد بها، فلكي يقدّر المشتري الحصان عن طريق وثائق كتابية لا بد من الشهادة عن أسلافه المسجلة في سلسلة النسب، وتُعرف هذه الشهادة نهائيًا من الأقوال الشفهية عن حصان ما، كما يمكن التأكد من الشاهدين أنفسهم الذين وضعوا أختامهم على الوثائق، وشيخ القبيلة لا يكذب قط في ما يخص أصل الحصان.

تلك الشهادات الكتابية التي تعطى عند شراء الحصان تعد شروطًا ضرورية في تجارة الخيل بين العرب، ولكن الأجنبي الشديد الثقة بهذه القصاصات الورقية

المتسخة والمرقشة بالأختام يعرض نفسه ليقع ضحية الخدعة، كما لا بد من معرفة سلالات الخيول معرفة تامة، وهي تخلو من النظريات، بل تحتاج إلى الخبرة والتجارب، والأختام على الوثائق مشكوك بها؛ لأن لكل شيخ ختمه، يصنعه تلبية لخياله، فتارة يكتب اسمه عليه بدلاً من لقبه المميز كما يسميه الشعب، أو حتى دون اسم، بل يكتبون آية قرآنية، أفضل ما يساعد على انتقاء الحصان بدقة هو عين الخبير والشهادات الشفهية عن أسلافه التي يعطيها البدو العارفون الحقيقة.

لا توجد عند البدو مزارع لتربية الخيل كالتي عندنا، والمزرعة الكبيرة الوحيدة هي التي أسسها محمد علي في مصر، في قصر شبرة قرب القاهرة، قمت بزيارة هذه المزرعة عام ١٨٣٩ كان يرأسها وقتذاك فرنسي موهوب جداً، استطاع أن يحسن الخيول المكلفة له ويزيد من حجمها، كان في المزرعة وقتذاك ٧٠٠ فرس و٨٠ حصانًا، من بين تلك الأفراس مئة عربية نقية، حصلوا عليها بصعوبة بالغة وأسعار باهظة، والبعض منها سلبوها من القبائل البدوية بالقوة، كانت هذه المزرعة جزءًا من المؤسسات الاقتصادية لدى باشا مصر في ذلك الوقت عندما كان يرأس جيشًا ضخمًا، فكان يحتاج إلى احتياطات الخيالة الهائلة، ولم يبق من هذه الخيول للباشا شخصيًا والهدايا وفقًا للعادات الشرقية إلا جزء بسيط، والجزء الأكبر كان يذهب كله إلى الخيالة، عندما انهزمت جيوشه في سوريا عام ١٨٤٠ فقدت الخيالة كل الخيول تقريبًا، ثم تلاها التفوق وعانت المزرعة من الخسائر، ولم يعد إنشاؤها بعد ذلك.

إذا قلنا إنّ أعمال البدو المنزلية هي أعمال تربية الخيل في المزارع نفسها، فكل الشيوخ البارزين تقريبًا، سواء المترحلين أو الحضر، عندهم أفراس أصيلة اثنتين أو ثلاثة أو أربعة ونادرًا جدًا أكثر من ذلك، يحافظ البدو على نقاء السلالات كما قلنا. ونادرًا ما يعرضون خيولهم الأصيلة للبيع، ويفعلونها فقط إذا كان في نسلها

عيوب أو عند حاجة ماسة للنقود، قلنا سابقًا عن مزرعة تربية الخيل التابعة لأمير لبنان الأسبق بشير الشهابي، كانت تحتوي على ١٠-٢٠ فرسًا أصيلة تتمتع بأفضل الخصال، وكانت أفضل مزرعة في سوريا كلها، ولكن الأمير لم يكن قط يبيع خيوله، وإنما كان يهديها للباشاوات والشيوخ من أجل تقوية علاقاته السياسية ونفوذه، ومع سقوط الأمير سقطت مزرعة لتربية الخيل، برهانًا على تعلق العرب بخيولهم ومفاهيمهم بالأفضال الأسرة نشير إلى أنه بعد طرد الأمير دون الأمل في عودته إلى السلطة وانهيار أسرته التي اعتنق أكثر أفرادها الديانة الإسلامية، لا تزال بقايا مزرعته يُحرص عليها في صيدا، والخيول فيها تفسد عام بعد عام بسبب سوء العناية بها، ومع ذلك لم يصل أي أمر من الأمير ببيعها، من بين المزارع المنزلية الأخرى عند الشيوخ لا توجد مزارع مشهورة، ولكن يمكن أن نقول يقينًا إن الخيول البارزة تتلاقى فيها، ويجب تحين الفرصة لإيجادها.

ثمن الحصان الأصيل في كل الأمكنة وبخاصة عند البدو غير محدد؛ لأن الحصان الأصيل لا يمكن أن يملكه شخص ذو مقام غير عالٍ وإنما غالبًا ما يكون ملكًا لشيخ يحتاج إلى المال بين الفينة والأخرى، ولكن لا يبحث عن شخص ليبيع له حصانه قطعًا، وإذا تنازل عنه فهذا معروف منه يفعله بعد القيام بأساليب كثيرة لإقناعه اعتمادًا على الأخلاق والعادات المحلية، عندئذ يحدد الشيخ الثمن بنفسه تلبية لخياله أو حسب الظروف أو الأساليب التي يتخذها المشتري تشير إلى أن ثمن حصان ممتاز، وهو في سنه المناسبة (بين الأربع والعشر سنوات)، دون عيوب ومتوسط الحجم (كما يبدو بالعين) يكلف لخيالتنا ٨٠٠ أو ١٠٠٠ روبل فضي، أما الفرس من الخصال نفسها وبخاصة إذا كانت تفلى فتقدر أغلى بمرتين أو أكثر كأي فرس في البلاد العربية؛ لأن العرب وبخاصة أهل الجبال والبدو الرحل يفضلون الركوب على أفراس نظرًا لهدوئها ولأن الأفراس سليمة أكثر من الأحصنة وقادرة على تحمل التعب، ولا تحتاج إلى العناية الكبيرة، وأقل تعرضًا للإصابة بالبرد

وتتكيف مع ظروف الحياة وتنقلات البدو الطويلة، كما أن الفرس التفلى تجلب دخلاً سنويًا أكيدًا.

توجد في بعض القبائل فحول لاستئناف السلالة، فلا يبيعونها حتى بألفي روبل فضي، وتوجد أفراس لا يقبلون بيعها بأي ثمن، باستثناء ما إذا كانت غير تفلى، أو كانت قد خلفت نسلاً أنثى لاستئناف السلالة، وحتى في مثل هذه الحال لا يمكن شراؤها إلا بعد محادثات طويلة وبمبلغ هائل.

كما قلنا أعلاه إن توصيل الخيول من سوريا إلى روسيا مريح وليس عالٍ، ونقدم فيما يأتي تعدادًا مفصلاً على نقل ثلاثة خيول مثلاً ولها سائس واحد:

	روبل فضي
ثلاثة مرابط، سعر الواحد ١٥ روبلاً	٤٥
تكليف الشحن	٥
أجرة النقل البحري إلى القسطنطينية بـ ٦٥ روبلاً للرأس	١٩٥
في حالة الحجر الصحي في إزمير، تكاليف تفريغ السفينة وشحنها وتكاليف الحجر الصحي	٤٠
ثمن العلف	١٠
أجرة النقل البحري لسائس حتى القسطنطينية وإطعامه والتكاليف في أثناء التوقف بسبب الحجر الصحي والهدايا	٤٠
النفقات في القسطنطينية في أثناء انتظار الباخرة من البحر الأسود، تفريغ السفينة وشحنها وغير ذلك	١٥
أجرة النقل البحري حتى أوديسا وأجرة السائس والعلف إلخ... قرابة	١٣٠
أجرة السائس وكلفة عودته	٤٠

المجموع ٥٢٠ روبل

بالنسبة للسؤال ما الأفضل نقل الخيول المشتراة عن طريق ساع أو عن طريق القنصلية؟ ، هذا يتعلق بالمبلغ الذي خصص لهذا الغرض ، وكمية الخيول التي يجب الحصول عليها ، نؤشر إلى أنه إذا أرسل مأمور للبحث عن الخيول فلا داعي لتعيين وقت محدد له ، وإنما ينبغي السماح له بالسفر غير المحدد المدة ؛ ليزور المخيمات البدوية في كل من سوريا والرافدين حتى بغداد ، ومشاهدة خيول كثيرة وانتقاء الأفضل منها ، سيضطر المأمور في بعض الأحيان أن يساوم عن طريق أشخاص أخر أو بنفسه ، وقد تطول المساومة مدة أشهر إلى أن يحصل على حصان نال إعجابه ، تستطيع القصنلية من جهتها أن تزوده بالتعليمات والنصائح ، وتوفر له الحرس ، وتستطيع أن تعرفه أناسًا بارزين وأن توفر له كل الراحة ، فمن دون هذا ستتضاعف صعوبة الرحلة في هذه البلاد . إيجاد السواس سهل ، ولكن لا بد من الطبيب البيطري يأتي معه من روسيا أو على الأقل مروض الخيل لمراقبتها ، ففي مثل هذه الرحلة قد يضطر المأمور أن يترك خيوله المشتراة مدة طويلة أو يرسلها عند الحصول عليها إلى بيروت حيث ستبحر إلى روسيا . سوف يستغرق هذا السفر عدة سنوات حتى تعوض نتائجه الجهود المبذولة والنقود المصروفة ، أما إعاشة الخيول في أثناء السفر فلا أرباح منها ولا راحة .

أما إذا كلفت القنصلية بالحصول على الخيول فسيكون هذا أسهل وأربح ، وستنفذ القنصلية هذه المهمة بنجاح إذا لم يحدد لها وقت معين للحصول على كمية معينة من الخيول ، وإذا منحت القنصلية إمكانية الاطلاع على الخيول الأصيلة أو إجراء محادثات عن ثمن الغالية منها ، ثم تقديم أوصاف الخيول ، واستلام تصريح لشرائها ، ونلفت النظر إلى أن الأبحاث والتساؤل عن الخيول أيضًا تحتاج إلى المال ولو قليلاً ، وهي تكاليف إرسال الناس عند الحاجة ، واستجلاب حصان ، وتقديم هدايا وغيرها .

على أي حال لا شيء حسن في هذا، فالخيول ذات الخصال العالية في هذا البلد لا تعرض للبيع، ولا يمكن الحصول عليها إلا بالمصادفة.

خواص أجناس الخيول السامية، منها داخلية، ومنها خارجية.

أ) الخواص الداخلية هي الغريزة وليونة الخلق والوداعة، فغريزة الحصان العربي لاحظها كل المسافرين، هذه الغريزة لا تقيّم كثيرًا في أوروبا بسبب استغلال الحصان لأغراض أخرى لا تحتاج إليها، بينما عند العرب غريزة الحصان ثروة ثمينة عند كل القبائل البدوية، لقد لوحظ أنه مع تغير المناخ ونمط الحياة تزول الغريزة وبخاصة في النسل مع استمرار نقاء الدم، إذًا هذه الخاصة متعلقة بتربية الحصان الأولية، وليس بالسلالة، وفعلاً إن خيول القوزاقيين في بلدنا وخيول الحوذية في المحافظات الروسية العظمى غير أصيلة، ولكن لها غرائز عجيبة نتيجة تربيتها ونمط حياتها، ولكن الوداعة وطيبة الخلق ميزة ثمينة إذا بذلوا جهودًا للحفاظ عليها في السلالة، لا يعرف الأتراك إلا أن يفسدوا الخيول العربية، ويحولوها إلى حيوانات مفترسة بالركوب الجنوني عليها، والشكائم الضخمة، في حين أن الحصان العربي نشيط ومتوقد بطبيعته على الرغم من هدوئه، حتى لو كان الحصان العربي مسفدًا يسير بهدوء بين الأحصنة والأفراس الأخرى، فلا يعض ولا يضرب، بل يفرح لوجوده بين الخيول وبخاصة التي يعرفها. الحصان العربي لعوب عندما يمشونه بالزمام، ولكنه يهدأ أكثر من الحصان الخصي عند امتطاء الفارس إياه، الذي يعطيه إيعازًا ليسرع من جديد بالركبة أو الزمام أو الصوت، يحافظ الحصان كهذا على قوته حتى العشرين من عمره أو حتى الثلاثين، في حين أن خيول الأتراك المجنونة تهرم، وهي في الثانية عشرة من عمرها، ومعرضة للأمراض كافة.

ب) خواص الحصان العربي الخارجية هي: نعومة شعره وجلده، لدرجة أن أوعيته الدموية ظاهرة، وبروز صدره دليل على قوة رئتيه، ورأسه قصير وعريض

الجبين، وفتحات أنفه واسعة، ونظرته حادة، وأرجله دقيقة، أرجل الحصان العربي خالية تقريبًا من اللحم، ومن يمسها بيده يشعر بمرونة الأوعية الدموية والعظام، تكون أرجل الحصان العربي في بعض الأحيان دقيقة لدرجة أن من يراها يخاف على متانتها، ولكن التجارب دلت أن عظام الحصان الأصيل الدقيقة أكثر متانة من عظام حصان آخر الغليظة، وثقيلة الوزن، يجب أن تكون الركب كبيرة، ويجب أن تبدو العظام دقيقة من الأمام، أما من المنظر الجانبي فيجب أن يكون الجزء الأعلى من الساق عريضًا، كما أن العرب يهتمون بأنه إذا كان حافرا الحصان على ساقيه الأماميتين متلاصقتين، فيجب أن تكون الركبتان على الساقين نفسيهما متباعدتين قليلاً، أما إذا كانت الركبتان متلاصقتين فهذا يعني أنه ضعيف الصدر؛ أي دليل على ضيق صدره، ولكن إذا كانت المسافة بين الركبتين فيرشوكين فهذا يقيم كثيراً، الصدر والأرجل والرأس دلائل على كرامة الحصان بالدرجة الأولى، أما العلامات الأخرى، أكانت أفضالاً أم عيوبًا، فثانوية.

وما يخص المحافظة على أصالة الخيول برهن الإنكليز بتجاربهم أنه بعد مثابرة طويلة لا تبقى أصالة الخيول فحسب بل تتحسن طبيعتها، وتتكيف مع المناخ ومع استخدامها للأغراض المحلية، الخيول الإنكليزية الكريمة أصلها من السلالات العربية النقية؛ لأن أسلافها جلبتها الحكومة الإنكليزية منذ قرنين ونصف من سوريا والدول البربرية، ولا تزال هذه الأجناس تبعد عن التهجينات الجانبية حتى الآن، ستكون نتيجة التهجين مع الأجناس غير الأصيلة في الجيل الأول والثاني خيولاً متوقدة، ولكن جميلة أكثر مما هي قوية، ثم تزول خصالها تدريجيًا، وستظهر في الأجيال التالية خيول بعلامات عربية منفردة، أي سيكون حصان ما نظرته ذا حمية، والآخر بساقين أماميتين ممتازتين، والثالث ناعم الشعر إلخ . . . ولكن كلها تحمل عيوبًا كثيرة، يمكن أن نضم إلى هذا الصنف كل الخيول من الأجناس الكاراباخية في

ما وراء القوقاس، إذ توجد هنالك خيول محافظة على الأصل العربي ولكنها هجينة مع الخيول التركمانية والفارسية والترية.

على هذا الأساس لا بد من مراعاة نقاء السلالة بدقة في عدة أجيال متوالية اعتماداً على تجارب الإنكليز، ومن أجل هذا ينبغي الحصول على أكبر عدد من الأفراس وعدد قليل من الأحصنة، والانتباه إلى العلامات الجوهرية للسلالة أكثر من الحجم؛ لأن تجارب الإنكليز أثبتت أن الحجم يزداد بفضل نمط التربية والانتقاء الميسور في عملية السفاد، ففي مزرعة تربية الخيل التابعة لمحمد علي ظهر نسل كبير الحجم في الجيل الأول.

نقدم ملاحظتين منتقتين من تجارب العرب:

١ - يجب ألا يزيد حجم الحصان عن الفرس؛ لأن النسل إذا كان مشابهاً للأب فلن ينشأ على الشكل المقتضى، وستكون أطرافه غير متناسبة الحجم.

٢ - يجب أن تتحرك الفرس التفلى مثل باقي الأفراس مع مراعاة التحفظات اللازمة؛ لأن الوقوف المستمر في اسطبل مع تنزهات دورية، كما هي الحال عندنا، يؤدي إلى فقدان أهم خصال الحصان العربي في النسل، وهي قوة الأعصاب والفرس، إذا أنعمت في اسطبلها من أول تفلها فستتعرض أكثر للتأثر من البرد والتعرق والتعب وغيرها.

إن السبب الجوهري لازدياد ندرة الخيول العربية وغلاء ثمنها الجيش الإنكليزي في الهند، الذي أخذ منذ بضع سنوات يعبئ احتياطات خيالته فقط بالخيول العربية عن طريق الخليج العربي، التجار الهنود الذين يكسبون رزقهم بهذه التعبئة عندهم وكلاؤهم في بغداد وغيرها من المناطق الشرقية من البلاد العربية، فيستوردون من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف رأس سنوياً، تشترى هذه الخيول بمبلغ ٧٠٠٠ قرش تركي، ثم تصل إلى بومباي عن طريق البحر، وثلثها ينفق في الطريق بسبب

الأمراض، وما يتبقى يباع في الهند بـ ١٠٠-١٥٠ جنيه استرليني، لذا تجلب هذه الحرفة أرباحًا طائلة. المناخ الهندي مميت للخيول العربية، والمسيرات التي قاموا بها عليها أبادت عددًا هائلاً منها. كل التجارب التي أجريت في الهند بإدخال أجناس مختلفة من الخيول كانت غيرناجحة، ولو أن الإنكليز لا يطالبون بأفضل الخيول من بلاد العرب، ولكن هذه الاستيرادات الهائلة تؤثر في الأسعار، والأسوأ من ذلك تحول عملية تربية الخيل إلى التجارة، وهذا لم يحدث في البلاد العربية قبل ذلك، فتجعل البدو لا يهتمون بالمحافظة على نقاء السلالات، بل كمية النسل، إذا استمر الحال هكذا فيتوقع أن تتلاشى تمامًا السلالات الجيدة من الخيول، ثم إن البدو الذين يعيشون منفصلين عن العالم مئات السنين، ويكتفون بإنتاجاتهم الشخصية، يتعلمون التجارة الآن، فيخالطون الإنكليز، ولا يستطيعون المحاسبة على المانيفاتورة المتسربة الآن إلى مخيماتهم إلا بالخيول.

إن الحصول على فرس عربية من سلالة جيدة صعب؛ لأن الفرس نادرًا ما تكون ملكًا لشخص واحد، بل تتبع عدة أشخاص، يصل عددهم إلى العشرة وأكثر، ويحدث هذا على الشكل الآتي: يبيع صاحب الفرس الأولى نصفها أو ثلثها أو ربعها، ولكنها تبقى عنده، وهو الذي يستخدمها ويطعمها، ويحاسب زملاءه بالنسل، ولهذا الحساب وضع نظام خاص، وهو مؤسس على العادات، ومعترف به في المحكمة، كما أن الأخلاق العربية لا تسمح بالغش مع الزملاء في مثل هذه الأعمال، إذا كان النسل ذكرًا فيتسوق في مدة محدودة لصالح الزملاء، فيدفع صاحب الفرس لهم حصصهم، أما إذا كان النسل أنثى، فيقسم بين الزملاء، فمن يملك نصف الفرس له حق في نصف النسل، ومن له الربع فيحق له الأربعة، ومن يملك ثمنها فيحق له الاثنين، وهكذا، يبدو نظام الزمالة هذا معقدًا، ولكنه يطابق الأخلاق المحلية، وله فائدة ثمينة، وهذه الفائدة تعني أن الفرس القيمة إذا فقدها سيدها فهذا يؤدي حتمًا إلى إفلاسه؛ لأنها كل أملاكه، ولكنها ملك لعدة

أشخاص، وكل شخص يمكنه أن يملك أجزاء من الأفراس الأخرى، فليس هذا إلا التأمين المبادل على الأفراس.

ولكن هذا الظرف بذاته سبب صعوبة الحصول على الأفراس، يقدم البدو لكم نصفها أو ثلثها أو ربعها أو ثمنها، فإذا اشتريتم نصف الفرس أو ثلثها فلكم حق ملكها بقيود قانونية في نسلها، يمكنكم أن تأخذوها إلى بغداد أو اليمن، وترسلوا النسل للملاك المشتركين معكم، ولكن لا يحق لكم إخراجها خلف نطاق العالم العربي، اشترى القنصل الفرنسي عام ١٨٤٠ نصف فرس أصيلة، وبعد سنتين استطاع بصعوبة بالغة أن يفدي نصفها الآخر من ثلاثة أو أربعة ملاك مشتركين معه. في عام ١٨٤١ اتفقت في دمشق على ثمن نصف فرس ممتازة، وهو ٥٠٠٠ قرش، مع حق بامتلاكها عندي، وليقنع بائعها مالكها المشترك معه المقيم في بغداد بأن يبيع لي نصفها الثاني كان المالك الثاني يقدر نصف فرسه كثيرًا، فطلب ثمنه ١٠٠٠٠، فاضطررت أن أمتنع عن الشراء؛ لأتخلص من هموم المراسلة مع ملاك الفرس المشتركين معي، بعد سنتين حصل مسافر خبير في الخيول على هذه الفرس ودفع ثمنًا لها ٢٥٠٠٠ قرش.

[يمكن أن يستغل شاري الخيول العربية خرافات العرب عن علامات الخيول، كلونها، والبقع على شعرها، فيرى العرب والأتراك والفرس أن ترتيب البقع البيضاء على الحصان الأدهم أو الأمغر أو الكميت لها أهمية خاصة، وتؤثر في ثمن الحصان بشكل ملموس فمثلاً إذا كان ترتيب البقع على شكل ما فهذا ينبئ عن موت فارسه أو أولاده، أو أي مأساة أخرى، اللون الرمادي أكثر انتشارًا في السلالات العربية الجيدة، وليست له أي علاقة بهذه الأمور.]



الملحق الثاني ..

العقيد تشيريكوف
مذكرة عن الخيول العربية في الرافدين وبلاد الشام والجزء الشرقي من الجزيرة العربية

(أسئلة وزارة أملاك الدولة المسجلة بالتدريج
والإجابة عن كل سؤال)

الأرشـيف المركـزي التـاريخي الحكومي في سـان بطرسبورغ، الرصيد رقم ٤١٢ ، الجرد رقم ٣ ، القضية رقم ٥٢٢ ، الأوراق ٢٤-٣٦ .

العقيد تشيريكوف

مذكرة عن الخيول العربية في الرافدين وبلاد الشام والجزء الشرقي من الجزيرة العربية
(أسئلة وزارة أملاك الدولة المسجلة بالتدريج والإجابة عن كل سؤال)

السؤال الأول: هل من الممكن في الوقت الحاضر الحصول على الأحصنة والأفراس العربية النقية من أفضل الخصال؟

يمكن الحصول على الأحصنة النقية بسهولة وبخاصة الفتية منها، التي عمرها بين عام واحد وأربعة أعوام، العرب لا يركبون الأحصنة بعادتهم، وإنما ينتقون البعض منها للنسل، والباقية يحاولون بيعها، يمكن الحصول على الأفراس الفتية من السن نفسها ولكن هذا أصعب، والحصول على الأفراس النقية المشهورة شبه مستحيل، فلا يحدث هذا إلا بالمصادفة فمثلاً بعد انتصار قبيلة ما في الحرب مع قبيلة أخرى، يمكن شراء الخيول المسلوبة، التي أخذت بصفة غنيمة الحرب، أو يمكن إغراء البدوي صاحب الفرس الجيدة بالمنفعة، ولكن مستحيل فعل هذا بطريقة المتاجرة العادية، بل يجب معاشرة البدو بعض الوقت، ونيل ثقتهم، وتقديم بعض المساعدات لهم، وبعد كل هذا فقط يمكن استغلال الظروف.

في أثناء سفري من القسطنطينية إلى بغداد صادفت في الموصل شخصاً يدعى ليوقو، وهو من سكان القسطنطينية، وكان مسافراً بهدف شراء الخيول العربية لمزارع تربية الخيل التابعة لملكة إسبانيا، كان معه أكثر من أربعين من الخيول، ربعها من

الأفراس ومن بينها فرس مشهورة من قبيلة شمر، قضى ليوقو في الرافدين أربعة أشهر، وهو يتنقل مع قبيلة شمر حتى أصبح صديقها، حصل ليوقو من هذه القبيلة على أفضل خيوله، والفرس المذكورة، والخيول الباقية اشتراها من بغداد والحلة، لم يقل لي عن أسعارها شيئًا.

السؤال الثاني: من أي مدينة أو منطقة بالذات يمكن شراء خيول كهذه؟

مدينة بغداد مركز تجارة الخيل، وأكثر الأسواق إفادة المدينة العربية الحلة، الواقعة قرب آثار بابل القديمة، ومدينة كربلاء، وتبعد المدينتان عن بغداد عشرين ساعة ركوبًا.

في أواخر شهر آب يتجمع البدو من قبيلة شمر حول بغداد وبعض عشائر قبيلة عنزة الخاضعة للحكومة، وغيرها من القبائل الصغيرة المجاورة لبغداد، يأتي البدو من هذه القبائل ليتزودوا بالحاجات اللازمة لحياتهم البدوية، تكفيهم مدة سنة كاملة، كما يتزودون بالتمر الذي ينضج في شهر أيلول، فيحضرون خيولهم للبيع مقابل هذا، ولكن خيولهم كلها فتية، كما قيل أعلاه، أي البالغة من سنة حتى أربع سنوات من عمرها، وكلها تقريبًا من الأحصنة، ولا توجد أفراس كهلة إلا نادرًا، يقع السوق قرب نصب تذكاري لزبيدة خلف سور المدينة.

يعرقل الشك في تجار الخيل شراء الخيول في بغداد الذين يشترون الخيول لتسويقها إلى الهند، وصداقتهم مع البدو تعطيهم الأولية في عيون المشترين الأجانب. يملك تجار الخيل اسطبلات واسعة في الجزء الغربي من بغداد، التي لا تحتوي إلا على الخيول العربية الأصيلة، ما عدا حقبة الخريف هذه لا يمكن شراء الخيول في بغداد إلا من هؤلاء التجار، فيقبضون ثمنًا لها أموالاً مضاعفة، وينبغي الحذر من الغش، في شهر أيلول تأتي إلى الحلة وكربلاء والقريتين شثات والرحمية المتباعدتين بيومين ونصف ركوبًا عن كربلاء، قبيلة عنزة أيضًا؛ للتزود بالتمر

وغيرها من الحاجات اليومية تكفيها مدة سنة، من المعروف أنهم أصحاب أفضل أجناس الخيول في البلاد العربية بعد قبيلة أم الطير من نجد، كما يأتي إلى الحلة المتفيقيون وغيرهم من القبائل الصغيرة، ولكن مدينة كربلاء الواقعة على طرف الصحراء سهلة البلوغ للعنزيين فقط، تجار الخيل في أسواق كربلاء قليلون، لذا فشراء الخيول فيها من أيدي البدو مباشرة أسهل.

إذًا بغداد والحلة وكربلاء فيها أكبر أسواق الخيل، يمكن توسيع عملية الشراء إلى قبيلة شمر في الشمال، وإلى الجنوب بطول نهر الفرات وشط العرب حتى الخليج العربي، وسنصف هذه الأمكنة بالتفصيل.

تتنقل قبيلة شمر في الرافدين بين الموصل والعدر (؟) والخابور والفرات حتى جبل السنجر وحران، تعدّ خيول قبيلة شمر أفضل الخيول بعد نجد وقبيلة عنزة، يتوقع أن يكون شراء الخيل في شمر مفيدًا وناجحًا، ولكن بالشروط التي ذكرتها سابقًا؛ أي يجب زيارتهم في البادية وقضاء مدة معهم لنيل ثقتهم، تنقسم قبيلة شمر حاليًا إلى قسمين؛ القسم الأول يتنقل بين تكريت وبغداد، ويحتل الحضر، ويمتد إلى الشمال الغربي حتى نهر الخابور، وعلاقة شيخها الرئيسي فرحان والقسم الخاضع له من القبيلة جيدة مع باشاوات بغداد والموصل باختلاف القسم الثاني الذي يتنقل في الشمالية الغربية قرب جبل السنجر حتى حران وجبل الكوكب.

من أجل إقامة علاقات جيدة مع قبيلة شمر قد يفيد ذلك شيخ قبيلة العجيل أحمد القط، المقيم في بغداد، البدو من العجيل أقرباء البدو من شمر، والشيخ أحمد القط عم الشيخ الكبير فرحان.

من الصعب إقامة علاقات مع قبيلة عنزة في قلب الصحراء حيث تتنقل هذه القبيلة باستثناء الأماكن التي يقبل إليها العنزيون للتزود بالتمور والحاجات الأخرى، والأماكن هذه مذكورة، وهي الحلة وكربلاء وضواحيها، وسبب هذه

الصعوبة استقلال قبيلة عنزة التام عن الحكومة التركية، وتوسع مخيماتهم في الصحراء بين بغداد ودمشق، وصعوبة بلوغ هذه الأماكن؛ والسبب الثاني طبع العنزيين وميلهم للنهب، وانقسامهم إلى عشائر كثيرة، فلا يمكن نيل ثقتهم إلا كل عشيرة على حدة.

والآن نتجه إلى الجنوب من الحلة إلى الخليج العربي: أول نقطة هي بلدة الديوانية الواقعة قرب مخيمات قبيلة المنتفيق، ثم سوق الشيوخ حيث يقيم شيخ المنتفيق، في هاتين المنطقتين يمكن الحصول على الخيول، ولكن ليس بكميات كبيرة دفعة واحدة، بل حسب الظروف، وإن كانت قبيلة المنتفيق غير مشهورة بخيولها ولكن تملك بعض الجيدة منها.

بعد سوق الشيوخ تقع مدينة عربية الزبير وبعده ثلاث ساعات ركوبًا عنها تقع مدينة البصرة.

في الحقيقة مدينة الزبير لا توجد فيها خيول، ولكن عندما يقبل إليها البدو المنتفيقيون من الشمال في موسم قطف التمور، ومن جنوب غرب تقترب إلى جبل سنعان قبائل من نجد، عندئذ تصبح الزبير سوقًا للخيول، وهي المدينة الوحيدة التي تنتمي إلى منطقة البصرة التجارية، لذا فكل ما سنقوله عن البصرة ينطبق على الزبير أيضًا.

نعرف أن البصرة نقطة انطلاق الخيول العربية المتجهة إلى الهند، لذا فتجارة الخيل فيها منتشرة أكثر من بغداد، وخيولها أغلى ثمنًا، يقوم بهذه التجارة بعض التجار الأغنياء من بغداد والبصرة، ولهم وكلاؤهم من البدو من قبيلة العجيل، الذين لهم الحق في نصف الربح دون أن يخاطروا برأسمالهم، ولكن يعرضون أنفسهم للمتاعب والأخطار بحثًا عن الخيول بين القبائل البدوية والأسواق المذكورة.

تُرسل الخيول التي اشتُريت قرب بغداد بهدف إرسالها إلى الهند إلى البصرة أولاً عن طريق نهر دجلة في تموز وآب، ومن البصرة إلى الهند بعد موسم قطف التمور، وسنضيف بعض التفاصيل عن هذه التجارة.

يأتي البدو في فصل الخريف إلى بغداد بثمانمئة فرس، منها ثلاثمائة على الأقل من قبيلة عنزة، والخمسمائة الباقية من قبيلة شمر، عمر هذه الخيول كما ذكرنا سابقًا بين عام وأربعة أعوام، يتراوح ثمنها في اسطبلات تجار الخيل البغداديين بين ٥٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ قرش تركي، وإذا سنحت الفرصة بشرائها من البدو مباشرة بدلاً من تجار الخيل، فيمكن توقع نصف المبالغ المذكورة، خيول البصرة أغلى ثمنًا، وبعد نقل الخيول إلى الهند يزداد الربح ١٠٠٪ إذا استبعدنا نفقات النقل.

خلال عشر سنوات أخيرة كانت تصدر من البصرة حوالي ألف وخمسمئة فرس سنويًا، والأصيلة منها لا تزيد عن ثلاثمئة، والباقية مختلطة الأجناس ولو أنها عربية الأصل، وتسمى «عراجي» (؟) إنها جميلة جدًا، وهي فتية، ولكن عندما تبلغ أربع سنوات من عمرها يتوقف عندئذ نمو هيكلها فتصبح حقيرة في أكثر الأحيان، ولكن الأمهار النقية الدم ليست كذلك، لذا البدو لا يهتمون بهيكل المهر بل ينظرون إلى سلالته.

إضافة إلى البصرة تسوق مدينة بو شهر إلى الهند أيضًا أكثر من ألف حصان فارسي سنويًا، وبعد الوصول لا تعرض الخيول للبيع للعامة إلا بعد أن تختار السلطات الصالحة منها للخيالة، وهي خيول لا يقل ارتفاع منبت رقبتها عن ثمان وخمسين بوصة، أو أرشينين وفيرشوكين ونصف، دون الاكتراث بسلالتها، ثمن هذه الخيول محدد بـ ٦٢٥٠ قرش تركي، في السنتين أو الثلاثة الأخيرة قلّ الطلب على استيراد الخيول في الهند، فقد أسست في كلكتا وبومباي مزارع لتربية الخيل الخاصة لتعبئة احتياطات الخيالة، كما انتشرت الشائعات أن الخيول الكبيرة الحجم

تستورد من رأس الرجاء الصالح، ولكن لم تؤسس مزرعة لتربية الخيل في مدراس لذا لم يقل الطلب على الخيول فيها.

في العام الماضي أي ١٨٤٩ انتشرت الشائعات بأنّ الهند ليست بحاجة للخيول، في حين أن اسطبلات البصرة كانت مليئة بها، ولكن في شهر تشرين الثاني جاء فجأة طلب كمية منها، فأرسلت خيول البصرة كلها إلى الهند، وكان سبب ذلك الحكومة الفارسية منعت تصدير الخيول من بو شهر، فاضطرت الهند إلى أن تستعين بالخيول العربية من جديد للتعويض عما نقصها من الخيول الفارسية، نقدم في الجدول الآتي تكاليف نقل الخيول من بغداد إلى الهند على الرأس الواحد:

١ - من بغداد إلى البصرة:

رسوم الجمارك البغدادية عند إخراج الخيول .... ١ خازي[1]

رسوم الجمارك في سوق الشيوخ التي تدفع لشيخ المنتفيق .... ٢ خازي

أجرة السائس .... ٢ خازي

رسوم حق التصدير .... ١٤ خازي

تكاليف العلف .... ١ خازي

المجموع: ٢٠ خازي

٢ - من البصرة إلى الهند:

ثمن مربط حصان واحد على السفينة .... ١٢,٥ خازي

ثمن العلف .... ٥ خازي

أجرة السائس .... ٥ خازي

المجموع: ٢٢,٥ خازي

(١) خازي: عملة ذهبية تركية تعادل عشرين قرشًا.

تستخدم مراكب عربية لنقل الخيول من البصرة والكويت ومسقط، وكلها مشحونة بالتمر أو الخبز، وتثبت على سطح المراكب في المقدمة قماش هباية، تقف عليها أفراس بساقيها الأماميتين منزوعة النعل، فتلامس بمؤخرتها جانب السفينة وتستند بصدرها على الحاجز الخشبي، فتقف متراصة، ولا تقع عند تلاعب الأمواج بالسفينة، ولا تستطيع الاستلقاء، وهذا سبب انتفاخ أرجلها، وبعد نزول الخيول إلى الشاطئ يزول الانتفاخ.

السؤالان الثالث والرابع: هل من الممكن توصيل الخيول من سوريا ومصر إلى أي ميناء كبير في البحر المتوسط دون ضررها، أو (إذا كانت الخيول مشتراة من بلاد فارس) إلى حدود روسيا؟

ما الصعوبات التي يمكن مواجهتها عند النقل، وما الأمور التي يمكن تدبيرها من أجل تجنبها؟

يمكن توريد الخيول المشتراة من بغداد (التي هي مركز تجارة الخيل) عبر طريق من الطريقين: الأول إلى سواحل البحر الأسود ثم إلى أحد المرافئ الثلاثة وهي سمسون أو طرابزون أو القسطنطينية عبر سكوتاري، والثاني عبر بلاد فارس؛ أي من بغداد إلى كرمانشاه وتبريز إلى حدود القوقاس.

وصف الطريق الأول:

سوف تبلغ حكومتنا أحد المرافئ، وهي سمسون أو سرابزون، أو سكوتاري سلفًا عن وصول قافلة من الخيول، على أي حال ستسلك القافلة طريقًا واحدًا من بغداد إلى مكان عبور الفرات في قبنمادن (؟) (قرب مدينة هاربروت)، وبعد عبور النهر يتفرع الطريق إلى اليمين، باتجاه أرضروم، ومنها إلى طرابزون، ويتفرع الطريق إلى اليسار باتجاه مدينة أماسيا، ومنها إلى سمسون، ويسارًا إلى سكوتاري.

كل هذه الطرق مخصصة للقوافل والنقل التجاري، ولو أنه توجد طرق أخرى أقصر منها، ولكنها أكثر خطراً، لذا ينبغي ملازمة الطرق الأولى؛ لأنها أفضل بتكوينها وراحتها، وتوجد عليها أمكنة للاستراحة وشراء المواد الغذائية، لقد مررت بنفسي بالطريق بين بغداد وسمسون، واستفسرت عن طريق طرابزون وسكوتاري، لذا أستطيع إعطاء أوصاف مفصلة عن الطرق المؤدية من بغداد إلى البحر الأسود.

أما ما يتعلق بالطريق الثاني عبر بلاد فارس فليست عندي معلومات مفصلة عنه، ولكني أستطيع فيما بعد أن أرسل تقريراً كاملاً عنه مع وصف أجناس الخيول الكردية، وأساليب الحصول عليها.

والعوائق التي يمكن مصادفتها في الطريق الشديد القيظ في الصيف، وقطاع الطرق من العرب والتركمان والأكراد، من أجل تجنب العائق الأول ينبغي تقدير الوقت، والثاني استئجار الحراس من السلطات التركية المحلية والاستفسار منها عن لتأمين المرور بالطرق، فتارة قد تضطر القافلة إلى الانتظار وتارة أن تسير على طريق غير مباشر، لا يمكن التنبؤ عن هذا سلفاً، بل يتوضح ذلك في الطريق.

يقدّر الوقت بعد معرفة الطريق: يستغرق السير من بغداد إلى سمسمون حوالي ثلاثمئة وخمسين ساعة (١٧٥٠ فرست)، وإذا استغرق اجتياز واحد وسطياً خمس ساعات (٢٥ فرستا) فيكون المجموع واحداً وسبعين اجتيازاً، وإذا حسبنا الوقوف في الاستراحات لمدة نهار كامل، وعبور الأنهار والتوقف في المدن الكبيرة، أي زيادة خمسين يوماً، سيكون المجموع ١٢٠ يوم، أو أربعة أشهر للوصول إلى سمسون، الوقت نفسه يستغرق إلى سرايزون، أما الذهاب إلى سكوتاري فيستغرق قرابة شهر.

سنوضح أسباب ضرورة هذا التقدير في الوقت : يمتد الطريق من بغداد على الضفة اليسرى من نهر دجلة مرورًا بكركوك وأربيل والموصل، ويستغرق عبور هذه المسافة قرابة تسعين ساعة، والأفضل عبورها في فصل الشتاء، عندما تتراوح درجات الحرارة بين ١٨ و ٢٢ ريومور في الظل، وفي الليل تنخفض إلى ٦ درجات ونادرًا إلى درجتين، ونادرًا جدًا إلى الصفر، تهطل بعض الأمطار بين الحين والآخر، ولكن الوحول تجف بعدها سريعًا، ترتفع مياه الأنهار والسيول بسبب الأمطار، ثم سرعان ما تنخفض؛ لأن فصل ذوبان الثلوج على الجبال شهر آذار، لا يتلاقى في الطريق إلا معبران كبيران عبر نهري الزاب الكبير والزاب الصغير، وبما أن الطريق هذا بريدي وتجاري بنيت معابر خاصة، ولكن نتنبه إلى أن الخيول عادة تعبر النهر سباحة أو يربطون عددًا منها بطوف (من جلود حيوانات منفوخة)، أو يدخلون الخيول النهر فيسبح بجانبها بعض الزورقحية المتمسكين بعواماتهم، ويوجهون الخيول إلى الشاطئ المقابل، الخيول المحلية معتادة على هذه الطريقة لعبور الأنهار، فلا تصاب بالسوء إلا نادرًا، لقد رأيت بأم عيني عبور قافلتين أكثر من مرة عبر دجلة والفرات في زمن فيضانات الربيع، عندما تجري مياه الأنهار سريعة، فلم تغرق فرس أو بغل واحد، قد تكون السيول أخطر من الأنهار، ولكن مياهها تنخفض سريعًا، في بعض الأحيان يدوم الانتظار على الشاطئ بضعة أيام، يوجد في الموصل جسر عبر دجلة، ولكن في فصل الفيضانات تنهدم الجسور كلها، فيتم العبور على مراكب جيدة فسيحة تتسع لاثنتي عشرة فرسًا. على أي حال لا حاجة لعبور النهر في الموصل؛ لأن الطريق يمر بجانبها، ويمتد حتى الجزيرة على الضفة اليسرى من دجلة، تنتقل في هذه المنطقة أي، بين بغداد والموصل، قبيلة العبيد بفروعها الكثيرة، في بعض الأحيان لا يخضع البدو من هذه القبيلة للسلطات، فيعملون في قطع الطرق وبخاصة قرب قرطيق (؟) وكركوك والموصل، حتى الشمريون يتركون في بعض الأحيان منطقة الرافدين ويعملون في قطع الطرق

على الضفة اليسرى من نهر دجلة، توجد الجيوش التركية النظامية في هذه المناطق؛ أي بين بغداد وكركوك والموصل باستمرار.

تتصادف في الطريق بين الموصل والجزيرة سيول جبلية، وأخطرها سيل زاهو، وتكثر هذه السيول غزارة في أثناء هطول الأمطار أو ذوبان الثلوج.

ينتقل الطريق في الجزيرة إلى الضفة اليمنى من دجلة عبر الجسور، وفي فصل الفيضانات يعبرون النهر على جلود حيوانات منفوخة، أما الخيول فسباحة.

ثم يمتد الطريق عبر بوادي الرافدين إلى نصيبين فماردين، ثم المناطق الجبلية حتى ديار بكر، الطريق بين الجزيرة وديار بكر مريح لسير القوافل، ولكن يتوقع الاصطدام بقطاع طرق من الشمريين، إلا أن هذا الاحتمال ضعيف في الشتاء والربيع؛ لأن الشمريين يقضون هذه الفصول من السنة قرب نهر الخابور، وفي الصيف يقتربون إلى دجلة، يوجد في الجزيرة جيش نظامي وفي نصيبين مراكز حراسية قوية من باشي بوزوك (غيرنظاميين)، وفي ماردين هذا وذاك.

تستطيع القافلة أن تستريح في ديار بكر لتهيئ نفسها لعبور جبال طوروس، وهذا العبور صعب جداً في الشتاء، بسبب تراكم الثلوج، وفي بعض الأحيان يضطر المسافرون والبريد إلى الانتظار بضعة أسابيع، في ٢٠ آذار بالتقويم الشرقي القديم واجهت صعوبات هائلة، ويصبح العبور سهلاً في النصف الثاني من نيسان، ينبغي الاستعانة في هذه المناطق بالسكان المحليين من الأكراد الجبليين؛ لأنهم يحملون الأمتعة على أكتافهم بمهارة، ويساندون الخيول في المنحدرات، وعلى حافة تيارات مندفعة، أكثر الجبال انحداراً في هذه المناطق جبل محراب، توجد بين ديار بكر وجبال طوروس منطقتان، هما أرغانا وأرغانا مادن، وتقع الأخيرة عند حضيض جبال طوروس، وفي الاجتياز الأخير يوجد جسران حجريان عبر نهر دجلة.

بعد عبور جبال طوروس تقع مدينة هاربروت، ثم بعد اجتازين يوجد معبر نهر الفرات إلى قبنمادن، على المراكب الناقلة للخيول.

ثم يتفرع الطريق إلى اليمين عبر المدن أرابكير وإيفين وأبرزينغيان، ثم من أرضروم إلى طرابزون، سنصف هذا الطريق فيما بعد، أما الآن فستتكلم عن الطريق إلى سمسون وسكوتاري: بعد الفرات يمتد الطريق إلى سيواس عبر جبل عال، وأكثر الأمكنة فيها انحداراً هي ديليكليماش، يقع الطريق في الوديان حول الجبال، والقرى فيها كثيرة، حيث يمكن شراء الأطعمة، وقرب سيواس يوجد جسر حجري عبر نهر كيزيل أرماك.

تليها المنطقة بين سيواس وتوكات، ثم إلى أماسيا، وهي منطقة رتيبة عبارة عن سلاسل جبلية عرضية، ومضائق أكثرها صعبة المرور، ولكن ليس لدرجة الاستحالة؛ لأنها معمولة لتكون صالحة لسير القوافل، والأنهار عليها جسور، والوديان كلها مسكونة، وفي مناطق خالية من القرى توجد خانات، وأخطار الطريق من الأكراد والتركمان، ففي الطريق بين ديار بكر والبحر الأسود لا بد من الحرس، يتفرع الطريق بعد أماسيا إلى اليسار باتجاه سكوراتي عبر ميريفان، وإلى الأمام باتجاه سمسون بثلاثة اجتيازات، لا تختلف طبيعة المناطقة هذه عن السابقة، ولكن سكانها أقل.

يحتمل مواجهة بعض المصاعب في سمسون بسبب شحن السفينة بالخيول، لأن مكلأ سمسون ضحل، ولا تستطيع السفن الاقتراب إلى الشاطئ، لذا لا بد من استخدام أطواف لإيصال الخيول إلى المراكب إذا كان الجو هادئًا، الخشب متوافر في سمسون، ومسافة المكان الضحل قرابة نصف فرستا.

لا توجد أشياء طارئة على الطريق بين أماسيا وسكوتاري، فهو طريق مأمون ومنظم لسير القوافل عليه، وقبل إدخال ملاحة البواخر من القسطنطينية بطول

الساحل الجنوبي للبحر الأسود كان هذا الطريق يوصل بين القسطنطينية وأرضروم وبلاد فارس.

الطريق الممتد بين الفرات وطرابزون ماراً بأرضروم عسير بين الصخور قرب إيغين، ولكن قابل للمرور، ثم يصبح سهلاً حتى أرضروم، وبعدها حتى طرابزون ماراً ببيبورت، وتصادف على شاطئ طرابزون المصاعب نفسها التي في سمسون، فالسفن لا تقترب إلى الشاطئ، ولكن يمكن إيصال الخيول إلى السفن بالأطواف.

وما يخص الطريق إلى البحر المتوسط؛ أي من بغداد إلى دمشق أو حلب عبر الصحراء، فأنا أعدّه طريقًا متعبًا لقلة المياه والأطعمة في الصحراء والأخطار من البدو، وبخاصة مع الخيول الجيدة المشتراة؛ لأنها ليست إلا غواية موسوسة لهم.

السؤال الخامس: هل توجد إمكانية الدخول إلى قلب الجزيرة العربية لشراء الخيول وتوصيلها دون التعرض للمتاعب والأخطار القاهرة؟

يمكن الدخول إلى قلب الجزيرة العربية من الجهة الشرقية من ثلاثة اتجاهات:

١ - من بغداد إلى تدمر في بادية الشام إلى قبيلة عنزة.
٢ - من كربلاء والإمام علي باتجاه مكة عن طريق جبل شمر.
٣ - من البصرة إلى نجد عن طريق الزبير وأيضًا باتجاه مكة.

ولكني لا أستطيع أن أقول شيئًا محدداً عن هذه المحاولات التي ستكون مصحوبة بالأخطار وخيانة الحظ، وتعود إلى درجة همة المرسل لشراء الخيل وأهليته والعلاقات التي سيقيمها مع البدو، أفترض أنه في هذا العام يجب الاكتفاء بالخيول المشتراة من الأمكنة التي ذكرتها والتعرف على الأحوال وإقامة علاقات مع البدو حين اقترابهم إلى بغداد وكربلاء والزبير، وفي الأعوام القادمة يمكن أن نكون أكثر همة لمعالجة كل الظروف لصالح النجاح، ولتحقيق هذا حبذا لو استأنف أحد

الوكلاء وجوده في دائرة عمليات الشراء، وأن يقوم بتوصيل الخيول بشكل خاص، بعد ذلك يمكن الكشف عن الوقت والمال، والمصادفات.

سوف تنحصر المصاعب في تفرعات القبائل البدوية إلى عشائر كثيرة؛ لأن التعرف على عشيرة أو قبيلة واحدة لا خطر منها لا يعد ضمانًا للسلام مع عشيرة أخرى من القبيلة نفسها.

سوف أقدم بعض البيانات التي سمعتها من مسافرين وقواد قوافل وعقداء قاموا برحلة إلى مكة.

تسير القوافل التجارية والمسافرون المتجهون من بغداد إلى دمشق بطول نهر الفرات على الضفة اليسرى حتى غيتا (؟)، وبعد عبور النهر يسيرون على الطرف الشمالي من بادية الشام أو باتجاه تدمر، أو يتجنبونها يمينًا من أجل التهرب من لقاء البدو من قبيلة عنزة، ولكن عندما يكون التعرف عليهم شرطًا لا بد منه لشراء الخيل، ينبغي الاتجاه إلى الجنوب إلى قلب البادية حيث توجد مخيمات عنزة بين كربلاء وإمام علي وتدمر، يمكن سماع معلومات مفصلة عن عنزة من شيخ العجيل المذكور أحمد القط المقيم في بغداد، والذي كان في السابق يقود القوافل عبر بادية الشام، في أثناء وجودي في إمام علي (مشهد علي والنجف أيضًا) انطلقت قافلة من الحجاج إلى مكة، وبعد مرور سبعة أيام من رحيلهم وصلت قافلتهم إلى جبل شمر أو حايل، ثم إلى قبيلة أم الطير المشهورة بخيولها أكثر من عنزة.

تقع على الطريق بين الزبير ونجد مدينة عنزة التي تتنقل حولها قبائل متحدة وتسمى بالقصيم، ولكن قبيلة عنزة لا مكان لها هناك، وقد يكون أصلها من هذه المنطقة، وطردت منها إلى بادية الشام، ويحتمل أن هذا هو سبب جودة خيول عنزة نظرًا لأصلها النجدي، ولكن هذا افتراض لا أكثر، أما البيانات الصحيحة فلم أتمكن من معرفتها.

تقع في نجد مدن أخرى وهي سدير لقبيلة المحماق، وزلفة والدرعية وهي أهم مدينة للوهابيين وغيرها، ويجب أن تكون قرب مدينة عنزة قبيلة أم الطير المشهورة بخيولها.

في الزبير يمكن معرفة معلومات قيمة عن نجد، وأنصح لهذا الغرض شخصًا عربيًا اسمه حجي محمد، الذي زرته في بيته، الكل يعرفون أنه رجل أمين، وأنه كان مرشدًا لبعثة العقيد تشيسنين على الفرات، كما كان جريحًا في صدره من رصاصة من البدو، ويقبض راتبًا من الحكومة الإنكليزية، أما شقيقه المقيم معه فليس جديرًا بالثقة مثله.

ما عدا هذه المخاطر التي تواجه المسافر إلى قلب الجزيرة العربية يضاف حسد تجار الخيل غير الخاضعين للحكومة وضغينتهم والشكوك من جهة عملاء East Indian Company.

❋ ❋ ❋

الملحق الثالث ..

من كتاب:
رحلة م. دوختوروف إلى الشرق

الفصل السادس
رحلة إلى البدو

[. . .] لقد قررت القيام بزيارة لقبيلة شمر، وهي من أقوى القبائل وأغناها بالخيول بعد قبيلة عنزة، لقد وصل البدو الشمريون منذ مدة قصيرة من شمال نجد في منطقة الحجاز، حيث يقضون نصف سنة في هذا المكان، وجدنا بدويًا أخذنا إلى شيخ هذه القبيلة الرئيسي المعروف في كل البادية، اسمه عبد الكريم، لقد نال الشيخ لقب البيه من السلطان، ويقبض من الحكومة التركية راتبًا قدره ٤٠٠٠ قرش (٢٣٠ روبل فضي)، يسمي العرب والأتراك عبد الكريم قات الوجوه؛ أي إن الجميع يجب أن يخضعوا له في كل مكان.

يحكم عبد الكريم إلى جانب قبيلته الرئيسة قبيلتين أخريين وهما الفداقة والقمود، وكل هذه القبائل تنقسم إلى الأجيال حيث يبلغ عدد الرجال ٦٠٠٠٠ ثلثاهم من الفرسان، والباقي من المشاة الجمالين.

بدأنا رحلتنا في ٢٦ آذار في الصباح مبكرين، كان في قافلتنا خمسة عشر شخصًا، وكان معي الترجمان والطباخ والبغالان مع الخيول المستأجرة وصديقي باشي بوزوك علي إضافة إلى السيد باستوخوف، كان مع أرمان مارتين انكشاري وابن رئيسه الفارس المقدام والخادم عبقر، والتاجر مصطفى، الذي خدم عبد الكريم سابقًا، وأخيرًا عطار مع خادميه أحدهما تركي والثاني عربي.

كان طريقنا يمر في سهل ممهد، حيث رأينا الحقول الكثيرة المزروعة بالشعير، لقد نبت الشعير حتى ربعه، ولكن في بعض الأمكنة قضى عليه الجراد، لم نصادف شخصًا واحدًا طوال النهار، كان هذا السهل الممهد الفسيح يلتقي في البعيد مع السماء بخط الأفق، وبعض خيم العرب الحضر.

وصلنا في المساء إلى بلدة قران، التي تقول عنها الأساطير أنها كانت مدينة النبي إبراهيم، وتقع على نهر جلابة، أبنية هذه البلدة من الأكواخ الطينية غير المنظمة، وتقع على طرفها آثار مجدل قديم، وبقربه بئر الكتاب المقدس، كان في القرية مئة باشا بوزوك، نصبنا خيمنا على ضفة النهر المتعرج، حيث قضينا ليلتنا، وفي الصباح الباكر تزودنا بالمياه، وانطلقنا في سبيلنا.

في العاشرة صباحًا عبرنا جبل طقطق، وبعده تبدأ صحراء حقيقية بكل معنى هذه الكلمة: سهل أجرد، وليس فيه أثر للحياة حتى المخيمات البدوية، ومع ذلك قابلنا جماعة من أبناء السبيل، وكان عددهم قرابة العشرين، وعندما رأونا توقفوا بمسافة خمس عشرة خطوة عنا، ثم ركعوا وأخذوا يتوسلون إلينا أن نعطيهم حسنة أو مالاً، وكان هذا التوسل مصاحبًا بالعزف الموسيقي على آلة يعزف عليها البدو التي تشبه الكمان، ولكن بوتر واحد (الربابة)، كانت أزياء هؤلاء البدو مكونة من ثياب سوداء وكوفيات سوداء، وخناجر خلف الزنانير، لقد أعجبت بوجوههم السمراء البدوية وعيونهم اللماعة وأسنانهم البيضاء كاللآلئ، لقد بدا أنهم أقوياء على الرغم من أجسادهم النحيفة المنتظمة، ما كدت أخرج محفظتي لأعطيهم بعض القروش حتى اندفعوا كلهم نحوي وكادوا يسلبون المحفظة مني، كان هذا الاعتداء شجاعًا لدرجة أن انكشاري القنصل أخرج يقطانه[1]. أما نحن فتابعناه بالمثل، ولكن على الرغم من هذا بقي المتسولون يتبعوننا طويلاً، كانت مشيتهم خفيفة ورشيقة، إنهم قادرون على قطع عشرات الفرستات ركضًا دون تعب.

بعد قليل رأينا من بعيد مجموعة من الخيم السوداء، يبدو أن سكانها رأونا أيضًا، وخرج من الخيم قرابة خمسين رجلاً يشبهون أولئك الذين سبق وصفهم، واندفعوا جميعًا باتجاهنا، فتراصصنا وجهزنا الأسلحة، أما البغال وأمتعتنا

(١) اليقطان: سيف محدب ذو وجهين، المعرب.

فوضعناها في الوسط، مع اقتراب هؤلاء الناس انفصلت عنا جماعتهم الأولى، لقد عرفنا من محادثتنا مع هذا الحشد الجديد من البدو، الذين اقتربوا منا أنهم من قبيلة نهبها قبل قليل رجال من قبيلة الشيخ عبد الكريم، لقد انضمت جماعتهم إلينا، ليصاحبونا إلى مخيمه، ويطلبوا منه إرجاع قطعانهم المسلوبة.

تصيد باشي بوزوك والسلاب إلياس الطيور، وعندما لمحا من بعيد قطيعًا من الغزلان كان فيه قرابة المئتين، لفتوا نظرنا إليها، فانطلق الفرنسي أرمان مارتين على حصانه السريع باتجاهها وتبعه كل خدمه، ثم تبعناهم أنا وباستوخوف، على الرغم من الضجيج الذي أحدثه موكبنا، بقي القطيع ثابتًا في مكانه طويلاً، لقد أدارت هذه الحيوانات البهية رؤوسها باتجاهنا، ورسخت نظرها فينا وكأنها تريد أن تفهم من أين جئنا وإلى أين نسرع، هكذا، ثم تبين أنها أدركت الحكاية فاندفعت باتجاهات مختلفة، وبما أن أكثر الإناث كانت تفلى والقليل منها كانت قد حررت نفسها من هذه الحمولة، وكانت واقفة قرب حملانها، لم تستطع إنقاذ نفسها من مطاردتنا بسرعتها الطبيعية، لقد أطلقنا النار عليها، ولحقنا بها إلى مسافة قريبة يمكن وخزها بالحربة.

إلا أن هذه العلالة لم تستمر طويلاً، فرجعنا لنكمل طريقنا ونحن مسرورون من اكتسابنا، بعد مدة من الزمن قابلنا قطيعًا من الجمال والأغنام التابعة لقبيلة الجس، فقطع الأمل بوصولنا القريب حديثنا عن مطادرتنا المسلية اللغزلان، كان الاجتياز منهكًا، فشعرنا جميعنا بالتعب، وأصابنا النعاس، ولكن حادثة فجائية طارئة أزاحت الكرى عن عيوننا، بعد أن صاح البدو التابعين لقافلتنا: «حية! حية!» واندفعوا جميعهم إلي رافعين عصاهم، لقد انزعجت من هذا في البداية، ثم تبين أن سبب اضطرابهم كان أفعى خضراء فاتحة اللون زاحفة بين أرجل فرسي، وطولها لا

يقل عن ساجين[١]، ما كادت فرسي تتخطى هذه الزحافة الشنيعة حتى أخذ العرب يقذفونها بالعصي والحجارة، ولكن الأفعى استطاعت أن تهرب منهم، واختفت مباشرة في فتحة في الأرض، لعله جحرها.

مع اقترابنا من مخيم عبد الكريم كانت أعداد الجراد تزداد، إذ كانت تغطي السهب، وتلتهم بقايا النبت الفقير المتوهج بالشمس، وتحدث أصواتًا تحت أرجل خيولنا. وأخيراً في الساعة الثانية بعد الظهر وصلنا إلى بئر يقع على بعد ثلاث ساعات سيراً عن المخيم، سقينا الخيول والبغال بالماء العكر الذي كاد أن يكون سببًا للمشاجرة بين أصحابي والبدو من قبيلة الجس، الذين حضروا في الوقت نفسه لسقاية قطعان أغنامهم وبعض الأفراس الأصيلة مع أمهارها، كانت الأفراس مغطاة باللبد، ووضعت على متنها وسائد جلدية محشوة بوبر الجمال بدلاً من السروج، كما لاحظت أن العرب يسقون خيولهم من قِرَبٍ جلدية.

جاءنا المرشدون الذين وعدناهم بمكافأة بعد أن أرشدونا إلى مكان مخيم الشيخ عبد الكريم، كان مخيمه يغطي مساحة كبيرة من الأرض، ومكونًا من أربعين خيمة سوداء في أعلاها، ومخيطة من جلود الجمال، وتقع بمسافات بعيدة بعضها عن بعض، لم يكن عبد الكريم موجوداً، فاستقبلنا شقيقه الثاني رزاق، وهو شاب نحيف، في حدود الثالثة والعشرين من عمره، وتنبت على ذقنه لحية قصيرة.

لقد شبهته بماريو من حيث الوجه، عندما اقتربنا إلى الخيمة تقدم رزاق إلينا ودعانا للجلوس بقربه على السجاجيد، وعليها سروج الجمال العالية للاستناد عليها، أما البدو الباقون الذين أحصيتهم فكان عددهم ثلاثة وستين شخصًا، فجلسوا حول الخيمة، كلهم كانوا يرتدون أردية مخططة، ورؤوسهم مغطاة بكوفيات سوداء، وكانوا مسلحين بالخناجر والمسدسات، لم أر في حياتي هذه

(١) ساجين: وحدة القياس تساوي متراً و ١٣ سنتيمتراً، المعرب.

المجموعة الكبيرة من الوجوه اللصوصية، كوجوه هؤلاء قطاع الطرق السهبيين السمراء الجهمة! وفقًا لقواعد الرسميات العربية استمر الصمت العام أكثر من نصف ساعة، ثم قدم لنا زنجي طبقًا من التمر وسمن النعاج الطازج، وأحضر زنجي آخر (العبد) جرنًا نحاسيًا، وأخذ يسحق فيها حبوب القهوة بالدقات المنتظمة، وبعد كل ضربة مرزبة بالحبوب كان يدقها بجدران الجرن، ثم أوقد نارًا في الوسط (وكان وقوده روث الحصان اليابس)، ووضع عليه ثلاثة أباريق، كان في الإبريق الأول الكبير ماء وفي الثاني الأوسط قهوة، ثم كان يصب الماء والقهوة في الإبريق الثالث الصغير.

بعد القهوة بدأ الحديث بين البدو، ولم يتكلم معنا أحد، فتلك هي الرسميات العربية، في هذه الأثناء جاء أخو الشيخ الأصغر فارس، وهو صبي في حدود العاشرة من عمره، بعيونه البهية وأسنانه البيضاء اللماعة، وملامح وجهه المنتظمة، كان يرتدي رداءً مخططًا من اللون البني والأسود، وعلى رأسه كوفية صفراء غامقة، تنزل من تحتها ضفيرتان طويلتان، اقترب فارس إلينا للتعرف، فمد يده لنا، وقبل كل واحد منا مرتين، ولكنه لم يجرؤ على الجلوس بوجود أخيه الأكبر، فابتعد إلى الدائرة الكبيرة، واستند على أكتاف أحد البدو الجالسين.

وأخيرًا جاؤوا إلينا وقالوا إنّ خيمتنا منصوبة، وقفنا لنودع صاحب الدار فوقف كل الموجودين حتى رزاق نفسه، وأوصلونا إلى باب الخيمة، بعد أن ابتعدنا بضعة خطوات أدرت رأسي ووجدت أن الكل في الخيمة جلسوا في أماكنهم من جديد، وصاحب الدار كذلك، بعد ساعتين جاء رزاق لزيارتنا، كان يشرب القهوة ساكتًا ويدخن نركيلته دون شبق بفوهة طويلة، يسحبون بها الدخان الحار، كما كان يقدم نركيلته لنا بالدور، كما يفعل صاحب الدار البشوش، كان حديثنا هذه المرة يمتاز بسكوت فصيح أكثر من المرة السابقة، في المساء جاء إلينا فارس ليرينا مفتاحه، وأبلغ أنه قفل فرسه، وأنه حان الوقت لنقفل خيولنا نحن أيضًا، بعد غروب

الشمس حل مكان النهار المقيظ مساء عليل، لقد أحيت عودة الإبل المخيم وبدّدت هذا الصمت السائد فيه، فقد مثلت هذه الدقيقة صورة مخلوطة للحياة البدوية اليومية كما نقرؤها على صفحات الكتاب المقدس، إذ إنّ نمط هذه الحياة لم يتغير كثيراً عما كان في عهد النبي موسى، كنا نستمتع بالقر المسائي والمناظر المحيطة حولنا، ونحن جالسون في خيمتنا، نستمع إلى الفرنسي الكثير الكلام، الذي كان يضحكنا ويمرحنا بثرثرته، يبدو أنه كان يتمتع بالاستراحة بعد نهار شاق أكثر من الجميع، كان البدو يزورونا بين الحين والآخر، ويتحدثون معنا بموضوع الخيل بالدرجة الأولى. سأقص الأسطورة التي سمعتها في هذه المحادثات، وهي قصة ظهور سلالة صقلاوي جدران وصقلاوي عبيران، كان جدران وعبيران أخوين، وكانت عند جدران فرس صقلاوي، لم يرد أن يبادلها إلا بحصان يسبقها في الجري، فسبقه أخوه عبيران على حصانه الذي لم يكن نقيًا، وفى جدران بوعده فبادله بفرسه، ولكنه ندم على ذلك، فأراد أن يقتل مهرها؛ لكي لا ينهش سمعة فرسه، ولكن أخوه منعه من ذلك، فأخذ منه المهر مقابل عدة جمال، كبر المهر وأصبح فرسًا جيدة خلفت سلالة صقلاوي عبيران، مختلفة عن السلالة التي ظهرت من أمها، التي سميت بصقلاوي جدران نسبة إلى شقيق عبران جدران، نمنا في ساعة متأخرة من الليل، على الرغم من عواء بنات آوى المستمر، قضينا ليلتنا بهدوء، عرفنا في الصباح أن سبب غياب عبد الكريم لأنه كان مع رئيس الفصيلة التركية، لقد أبلغ أن جماعته من البدو، الذين نهبوا القافلة المارة على نهر دجلة قرب الموصل مطاردة من قبل الخيالة التركية، وأن الفصيلة اقتربت إلى أول مخيمات قبيلته لاسترجاع الغنائم، لقد أرغمت هذه الظروف عبد الكريم أن يأمر بإعادة المنهوب ودفع ثمن الخسائر، فقد كانت إساءة العلاقات مع السلطات التركية في هذا الوقت بالنسبة لقبيلته في غير محلها أبدًا، وإضافة إلى حلول زمن بيع الصوف والسمن والأغنام كانت القبيلة في حاجة إلى المراعي، التي لم يتم الجراد

إهلاكها، كما حصل في الأماكن الأخرى، عرفنا هذا من البدوي الذي جاء بهذا الخبر من الموصل، كما أنه ما لبث أن عبر عن أسفه لإخفاقه، كونه كان يتبع الفصيلة التركية ثلاثة أيام مع بعض أصحابه، فأسفوا لأنهم لم يتمكنوا من سرقة شيء من هؤلاء الأتراك الخرق.

زارنا في اليوم نفسه ضيف عبد الكريم، الذي كان في زمانه يخدم في رتبة يوزباشي عندما كان علي باشا يحكم المنطقة، وبعد أن فقد غساني السمين (كما كانوا يسمونه) حظوته تهرب من المتاعب التي تحدث غالبًا في هذه الظروف، فالتحق بالبدو من قبيلة اللفوي والموالي، وهم من أرهب قطاع الطرق، ويقومون بنشاطهم في ضواحي حلب، انتخب البدو غساني المبجل شيخًا لهم، ربما احترامًا لشخصيته المتوحشة، وفعلاً من سيعجب بمظهر غساني غير البدو، فكما قلت أعلاه كان غساني رجلاً سمينًا، أمغر الشعر بشوائب، زاد عمره على الخمسين ومتوحش الوجه.

بينما كنا جالسين على السجادة المفروشة في الخيمة كشفنا فيها بعض الثقوب المدورة في الأرض بحجم عملة نقدية صغيرة، وعندما سألنا عنها ردوا ببرود أنها جحور العقارب، وفعلاً أنزلنا إلى إحدى هذه الفتحات شوكة فكانت هذه الزواحف السامة تتمسك بها، لا أستطيع تصور كيف تتكاثر هذه المخلوقات بهذه السرعة الجنونية، كانت كل الأرض التي نصب عليها مخيم عبد الكريم منخورة بهذه الثقوب، في ذلك الوقت كانت هذه المخلوقات فتية ولا تخرج إلى نور الشمس إلا قليلاً، ولكن ليست العقارب فقط كانت بجوارنا، لقد اصطاد البدو بعض الأفاعي خلف خيمنا وقتلوها، كان هذا مزعجًا، ولكننا انزعجنا أكثر عندما سمعنا أن قطعانهم شربت كل المياه من الآبار، وأننا سنبقى مع خيولنا هذا اليوم من غير ماء، لم يبق شيء أمامنا نفعله إلا أن نشاهد الخيول الموجودة في هذا المخيم، لم نجد خيولاً جيدة غير خيول الشيخ، والباقية كانت خارجًا، أبلغ رزاق المخيمات

البدوية الأخرى البعيدة عن رغبتنا في مشاهدة خيولهم، وبعد ثلاثة أيام من وجودنا في مخيم عبد الكريم بدأ البدو يأتون بخيول جيدة، وفعلاً كانت بعضها بارزة، ولكن ليس بينها واحدة تضاهي فرس عبد الكريم الكميتة التي اشتراها منذ مدة من قبيلة أخرى مقابل ثمانين جملاً وفرسًا واحدة، فرسه كبيرة الحجم وعريضة العظام، وقصيرة الأرجل، وحادة الاتصال بين الرقبة والمتن، كانت هذه الفرس تسبق كل الخيول في الغزوات، وهذا ما سمعناه عن قصتها: عندما قتلوا فرس شقيق صاحبها الأسبق أخذه عليها، فتمكن الاثنان الهرب من خمسين رجلاً على فرس واحدة، في اليوم نفسه زرنا مخيمات بدوية أخرى، حيث رأينا خيولاً جيدة، وبدأنا نتفق مع أصحابها على الثمن، كل الأحصنة التي شاهدناها لم يزد عمرها عن أربع أو خمس سنوات، ولكنها كلها كانت منهكة من السفاد، إذ كان كل واحد منها يسفد مع ستة أفراس يوميًا؛ لأن هذه العملية تجلب للبدو أرباحًا حسنة؛ إذ إنهم يأخذون على كل سفاد من روبل ونصف إلى خمسة روبلات، كانت الأصالة واضحة في تلك الأحصنة على الرغم من كل العيوب.

في المساء عندما رجعنا إلى المخيم زارنا شيخان فقدمنا لهم بعض الحلويات كالزبيب والعنب والتمر والسكر، وكان ميلهم إلى السكر كبيرًا، لقد أدت زيارتهم إلى امتلاء خيمتنا بالضيوف، وكان وجودهم مزعجًا، لذا أصبح المسحوق الفارسي الذي معي مناسبًا جدًا، وانزعجنا كثيرًا من أصغر الشيوخ خاصة وهو فارس لأنه مزعج حقيقي، لم يسمح لنا فارس أن نستريح طوال النهار إذ كان يمسك بيده كل ما يراه ويكسره بلا تكلف، وفي وقت الغداء كان يفسد شهيتنا بو ساخته إذ كان يضع يديه القذرتين في الطبق، ويأخذ حفنات من الرز، فيضغطها في يديه ويضعها في فمه، في المساء وجدنا عقارب كثيرة ليس خارج الخيمة فحسب بل في داخلها أيضًا، تلبية لطلبي قطع أحد البدو حافة ذيل العقرب وصب على كلف يده سائلاً

مائيًا سامًا الذي تكون كميته عند العقرب الكهل حوالي نصف ملعقة شاي، ولكن العقارب كانت كثيرة وقطع ذيولها كلها كان مستحيلاً، وبعد قليل اصطدمنا بالعواقب الوخيمة من هذا التجاور الخطير، بعد أن لبس المقاتل عطار أحمد رداءه، كان على الأرض ولم ينتبه للعقرب الذي كان على قمة الرداء، فلدغه العقرب في رقبته بقساوة، صرخ أحمد من الألم والخوف، وبعد مدة قصيرة ظهر على رقبته ورم أحمر واستمر الألم طوال الليل. يعالج البدو لدغة العقرب بوضع الملة على الورم، فتحسنت حال أحمد في اليوم التالي، لحسن الحظ لدغته أنثى فلدغة الذكر أخطر بكثير، والفرق بين الأنثى والذكر أن لون ذكر العقرب داكن أكثر من الأنثى كما أنه أكبر من حجم سرطان الماء العذب بقليل، أما لدغة أنثى العقرب فأقل خطراً وتزول بيوم.

أرغم استنفاذ الآبار وعدم كفاية المياه وكثرة العقارب عبد الكريم إلى إصدار أمر بالانتقال إلى مكان أفضل من هذا، لقد أرسل هذا الأمر إلى أخيه رزاق، وفي اليوم التالي بدأت القبيلة الشمرية بتحميل الجمال والتهيّؤ للرحيل، انطلقنا مع رزاق في السابعة صباحًا، كان رزاق يركب فرس أخيه الأكبر التي وصفتها أعلاه، وكانت عليها عدة جلدية صغيرة، وتحتها حلس لبادي موبر أزرق اللون، كان يغطي الفرس حتى الذيل، كانت ثياب رزاق مثلما كانت عند أول لقائنا معه أي مكونة من قميص طويل ورداء مخطط، وعلى رأسه كوفية صفراء مثبتة بجلدية تيلية (على شكل عقدة)، كان العجائز يركبون أمامنا على خيول الشيخ الأخرى، وفي الخلف كان يركب حوالي أربعون فارسًا مسلحًا بالحربات، وكانت على بعض الحربات كرات من ريش النعامة الأسود.

يتسلى البدو عادة في هذه الرحلات المملة بالسباق والتدرب على استعمال الحربات، إذ يمسك فارس حربته من وسطها ويركب بمنتهى السرعة هازاً حربته فوق

رأسه، ويشق الهواء محدثًا صوتًا مشابهًا للزعيق، كان عند البعض على حافة الحربة خنجر بدلاً من الرمح، وعلى الحافة الأخرى سنان صغير لغرز الحربة في الأرض.

امتد خلفنا رتل طويل من قطعان الماشية والجمال بالأمتعة والنساء والأطفال وضعت لهم على متون سفن الصحراء هوادج بأشكالها المختلفة، وكان لبعض منها شكل زروق موضوع بعرض السرج، وكانت هذه الزوارق داخلها مفروشًا باللبد أو السجاجيد، ومزينة من خارجها بالهدب، لقد توقفت خلال الرحلة على رؤية امرأة عجوز كانت حسناء في شبابها، إنها والدة الشيخ عبد الكريم، اسمها عمشا، وهي تتمتع باحترام كبير في العشيرة كلها، وثيابها مثل ثياب كل النساء، ولا تختلف عن الرجال؛ أي القميص الطويل الكحلي والكوفية السوداء على الرأس يحجب وجوههن أكثر من الرجال.

لم تستمر رحلتنا أكثر من ثلاث ساعات، وعند وصولنا إلى المكان المقرر أمر الشيخ بغرز الحربة المزينة بريش النعامة في الأرض، وبنصب الخيم، أما هو فجلس مع أشخاص كانوا معه على الأرض وبعد صمت غامض بدؤوا بالصلاة.

بعد انتهائنا من مشاهدة الخيول ودّعنا الشيخ، وأخذنا مرشدين وانطلقنا في طريق العودة، وبعد قطعنا مسافة صغيرة رأينا مخيمًا بدويًا آخر، فتوقفنا قرب الخيم لنسقي خيولنا، كانت تلك قبيلة الجس، فدعانا شيخها إلى خيمته لنشرب القهوة.

قبيلة الجس هي طليعة قبيلة شمر؛ إذ انضمت إليها عام ١٨٥١ بعد أن نهبهم عبد الكريم تمامًا، وبما أنهم يقطنون دائمًا قرب المدن كانوا يشتغلون في التجارة، ونمط حياتهم أكثر أناقة من البدو الآخرين، وحتى خيولهم أفضل من خيول شمر.

كان الجسيون لطفاء جدًا معنا، ورافقونا حتى حران، في الطريق أخذنا نطارد قطيعًا من الغزلان مرة أخرى، ثم طاردنا حلوفًا أسود كبيرًا، يحب هذا الحيوان أن يتلذذ بحملان صغيرة؛ لذا يمكن إيجاده عادة خلف قطيع من الغزلان، لقد كان

صيدنا ناجحًا، تمكن باشي بوزوك من قتل ابن آوى ومعزة، أما إلياس السلاب فقتل بعض الطيور.

عندما وصلنا إلى حران حل الظلام، فنصبنا خيمنا على أماكنها القديمة، وطلبنا بعض حرس الباشي بوزوك ليحرسونا ويحرسوا فرسنا التي اشتريناها، وبعد مجيء الحرس غرقنا في نومنا حتى السادسة صباحًا بسبب التعب الشديد.

وفي طريق عودتنا إلى حلب مرورًا بأورفة كنا ننحرف عن الطريق لزيارة بعض المخيمات البدوية، ومشاهدة الخيول، لذا لم نصل إلى حلب إلا في السادس من نيسان.

❋ ❋ ❋

من الفصل الحادي عشر
دمشق وضواحيها، العودة

[. . .] بقي من حايل إلى مكان وصولنا، وهي قبيلة ولد علي، ثلاث ساعات، تمتاز هذه القبيلة عن غيرها من القبائل البدوية بأنها لا تتفرع إلى قبائل ثانوية صغيرة، وإنما تستقر دائمًا متراصة، فتحتل خيمها مساحة واسعة من الأرض، تضم هذه القبيلة ستين ألف عشيرة، منها ثلاث وعشرون تملك خيولاً، والباقي يعملون في تربية المواشي، يمتاز شيخها محمد دوخي بشجاعته، لم يتغير نمط الحياة اليومية لدى هذه القبيلة منذ زمن النبي إبراهيم، وتتقيد عقائدها الدينية بالإيمان بالخالق الواحد.

[. . .] لقد ورث البدو من هذه القبيلة عادات أجدادهم، وهي نظام الحكم الأبوي، إنهم يدفنون الموتى في الصحراء دون وضع علامات مميزة على القبور، تمتد مخيماتهم حتى المدينة، مضى مئتا عام منذ أن بدأت قبيلة ولد علي وأسرة الشيخ محمد موسى بقبض رواتب سنوية من الحكومة التركية؛ ليسمحوا بدخول القوافل إلى مكة، ولكن في هذا العام لا أعرف لماذا انتقل هذا الراتب إلى فيصل شيخ قبيلة الروالة، التي تضم أربعين ألف عشيرة، ومن جراء هذا اتحد دوخي مع أصدقائه الذين طلبت منهم السلطات التركية تسليم المتهمين في مذبحة المسيحيين عام ١٨٦٠، فاتفقوا أن يتعاونوا سوية ضد السلطات التركية، وشيخ قبيلة الروالة فيصل.

توقفنا قرب خيمة الشيخ دوخي، الذي استقبلنا ببشاشة، إنه قصير القامة، ولكن قوي البنية وأسمر، أسنانه الأمامية مكسرة في المعركة بالحربة التي تركت أثرها على الشفة أيضًا، كما أنه جرح منذ مدة في يده لذا الضماد مربوط عليها.

قائد جيشه صالح الطيار أيضًا رجل قصير القامة ونحيف وماهر، ويمتاز بافتتانه في استعمال الحربة، فهو دائمًا يسبق بها الكل، ويرغم حشودًا من الناس أن تولي الأدبار، لقد بدا لنا أن الشيخ وقائد جيشه مشغولا البال، ثم تبين أن أسباب هذا الانشغال هام: لقد عرفا عن وصول الجيوش إلى مزيريب، ونوايا فيصل بالهجوم عليهم، فأرادا أن يعرفا منا ما هي أوامر وزير الحرب في دمشق، لقد حاولت أن أطمئنهم بقولي إنه لو كانت عند السلطات نوايا بتوجيه الجيوش إليهم لكان وزير الحرب ثنى عن مجيئي إليه، وقد استمع الشيخ لكلامي بارتياب، ومد يده لي، في الساعة الثامنة دخل إلى الخيمة سائس، وبلغ أنه في المخيم اضطراب، أسرعت بالخروج ورأيت شيئًا لا يوصف: رأيت عددًا لا يحصى من الفرسان المتجهين من المخيم إلى المراعي بسرعة الريح، وهم مسلحون بالحربات، أما النساء فكن يخرجن من الخيم، يحدثن بأفواههن أصواتًا مشابهة لصوت الخشخشة، استمر هذا الجري بضع دقائق، ثم اختفى في ضباب من الغبار، قال لنا الشيخ أن نهيئ أنفسنا للرحيل، ثم تبين أن الاضطراب كان كاذبًا، فعاد البدو وهم يغنون يسابق بعضهم بعضًا بخيولهم، لقد أدركت أنني أتيت في وقت غير مناسب؛ لأن قبيلة ولد علي تتوقع الحرب بين ساعة وأخرى، لذا كانت بحاجة إلى أفضل خيولها؛ لأن النصر في الحرب وحياة كل فرد تعود إلى أهمية الخيول.

بعد يومين من وجودنا في المخيم أبلغنا الشيخ أنه سيرحل إلى قلب البادية ودعانا للذهاب معه، انطلقنا في الصباح الباكر، وبعد أن قطعنا قرابة عشر فرستات توقفنا قرب آثار قرية ثريا (؟).

منحت محمد دوخي هدية أحضرتها من دمشق، وهي رداء مطرز بالذهب، يسمونه العباءة، والرداء الثاني كان أقل ثمنًا منه بقليل، فقدمته للشيخ الشاب حجاج بن مؤجل، وهو فارس مقدام، قتل أربعمئة شخص في أوقات مختلفة،

والهدية الثالثة قدمتها لياسر جدعان أبي مؤجل بن فرحان، وهو بدوي من عشيرة قلب الدور من قبيلة ولد علي، الذي اشتريت منه حصانًا أمغر سلالته صقلاوي جدران، وسميته «بيدوين» (أي بدوي بالروسية).

في المساء من اليوم نفسه حدث في المخيم اضطراب جديد، أخرج عددًا هائلاً من الفرسان من خيمهم، وكلهم كانوا يمرون قرب خيمتي ويتجهون إلى قطعانهم في المراعي، ذهبنا ركوبًا إلى الربوة التي تقع عليها آثار قرية ثريا، حيث كان واضحًا كيف كان الفرسان البدو يتباطؤون في مكان واحد، ثم يسرعون من جديد، وعندما تبين أن البدو الذين حاولوا سرقة الأغنام كانوا قليلين، وهربوا كلهم على خيولهم عند رؤية الفرسان، اهتممت بمشاهدة المكان، حيث كان البدو يتباطؤون على خيولهم، فذهبت ووجدت كتلاً كبيرة الحجارة الحادة والبلاط الأملس التي كنا نعبرها بصعوبة ونحن على أقدامنا، أما البدو الذين مروا بهذا المكان على خيولهم رماحة، فلم يسقط أي منهم، ولم تنجرح خيولهم، هذا هو التقدير الحقيقي لخصال الخيول العربية.

حين وجودي عند دوخي أقبل إليه رؤساء الدروز لعقد الاتحاد، ثم حلف اليمين في الدفاع المتبادل ضد فيصل وجيوش السلطات.

في طريق عودتنا وصلنا بالسلامة إلى قرية إنهايل (؟) حيث استأجرنا مرشدين واتجهنا لإكمال الطريق على خيولنا الجديدة.

قابلنا قرب إنهايل (؟) قافلة من الجمال، وعرفنا من الجمّال أن عصابة من مئات البدو الجبليين، من قبيلة صرغان، قد سلبوا منه فرسه، وكمنوا في وهدة بانتظارنا، أرغمنا هذا الخبر أن نعود إلى إنهايل (؟) إلى حيث أرسل شيخ القرية المجاورة الذي عرف بدوره عن مرورنا رسولاً خاصًا لإبلاغنا الخطر، حاولت أن

أجمع في القرية أكبر عدد ممكن من المرشدين، ولكن لا أحد رضي أن يغادر بيته، كانت المشكلة نفسها عند الضابط التركي جابي الضرائب وجنديه.

قضينا النهار كله في فناء شيخ القرية، وفي المساء عندما أدرك الشيخ أن وجودنا خطر حتى بالنسبة للقرية جمع لنا ستة أشخاص صاحبونا في الليل بالدوارة في مناطق خالية من الطرقات، بقينا راكبين طوال الليل متراصين وبأسلحة جاهزة، وفي الصباح بلغنا الطريق العام.

كانت الليلة مظلمة لحسن حظنا؛ لذا فاتت على البدو فرصة نهبنا، ولكن الضابط التركي كان حظه أسوأ، فقد عرفت في دمشق من الأمير عبد القادر ثم من الإشاعة التي انتشرت سريعًا أن جثته وجدت قرب الطريق.

إن الاعتداءات البدوية تنسف تجارة دمشق كثيراً، ففي عام ١٨٤٥ نهب البدو قافلة ضخمة مكونة من ثلاثة آلاف جمل متجهة من دمشق إلى بغداد، وأدى هذا إلى خسائر مادية تقدر بالملايين، ومنذ ذلك الحين لا يجرؤ التجار على إرسال بضاعتهم من دمشق إلى بغداد مباشرة، فتضطر القوافل أن تطوف بين هاتين المدينتين التجاريتين عن طريق حلب والموصل.

بعد استراحة قصيرة في قرية قناقرة وصلنا مساء إلى دمشق ونحن مرهقون للغاية، ومع ذلك كنا قد جربنا قوة خيولنا الجديدة: كانت الخيول المستأجرة متثاقلة في مشيتها، في حين أن البغال وفرسي وفرس الطبيب البيطري بقيت نشيطة في سيرها على الرغم من عدم تغذيتها عند البدو إلا بلبن الجمال لعدم كفاية العلف.

قبل مغادرة دمشق كنت أود أن أتعرف شخصية الأمير عبد القادر البارزة، فذهبنا في اليوم التالي لزيارته بصحبة القنصل، استقبلنا عبد القادر ببشاشة، إنه رجل قصير القامة، ودقيق ملامح الوجه، وذقنه قصيرة وشائبة قليلاً، كما أنه عريض الجبين ومتألق العيون.

كان عبد القادر ودودًا في المحادثة ولطيفًا، حدثنا أنه كان عند البدو وصادف في طريقه طليعة من الكتيبة التركية هجم عليها البدو، كان أفراد الطليعة يدافعون عن أنفسهم، ولكن عندما جاء عبد القادر ركع الأتراك أمامه وتوسلوا إليه ليحميهم، أما البدو فيحترمون عبد القادر كثيرًا فطاوعوه وتفرقوا جميعهم تلبية لأمره.

كما حدثنا عبد القادر عن الخيول كثيرًا، وأسف عن كون الخيول الأصيلة تنقرض من عام إلى آخر، وحدثنا عن بعض المصاعب التي صادفها عند اختيار الخيول ليهديها للإمبراطور نابليون الثالث، إضافة إلى ذلك ذكر لي بعض الأدلة عن جودة الحصان:

١ - إذا وضعت طاسة من الماء أمام حصان فشربه دون أن يحني ساقيه الأماميتين فهذا دليل على انتظام بنيته.

٢ - في السير يجب أن يرفع الحصان ذيله عند خطوته الثالثة أعلى من موضعه العادي، لأن هذا دليل على نشاطه.

اهتم الأمير عبد القادر بمصير شاميل، وسألني عن أحواله كثيرًا، وقال إن عنده بعض الرسائل استلمها من الإمام الجزائري في دمشق، كما تحدث عن الأوسمة وبدا أنه كان مسرورًا جدًا من جائزته التي استلمها من الحكومة الروسية بعد مجزرة دمشق، عندما أنقذ الأمير مئات من المسيحيين بإخفائهم في بيته، فنال نيشان النسر الأبيض [...].

❊ ❊ ❊

ملحق الكتاب رقم ١
مزرعة تربية الخيل الليبيسيانية

توجد مزرعة تربية الخيل المجرية الليبيسيانية الإمبراطورية في ضواحي تريستا، وتبعد عنها ساعتين ركوبًا في المزرعة، أقيمت المزرعة على منطقة مرتفعة عديمة المياه بتربتها الحجرية، وتتكون من أبنية حجرية كبيرة، تمتد حولها حقول فسيحة مغروسة بالأشجار، يخرجون إليها قطعان الخيول بعد حصاد الأعشاب المزروعة، تحتوي المزرعة على ستة أحصنة وست وستين فرسًا من الأجناس العربية والعربية الإسبانية (بما في ذلك الخيول المستوردة من الجزيرة العربية، وهي أربعة أحصنة وست عشرة فرسًا)، من بينها حصانان اشتراهما السيد غوتشليك عام ١٨٥٢، ويمتازان بأصالتهما: الأول اسمه غزلان، عمره اثنان وعشرون عامًا، لونه أبيض فضي من سلالة الكحيلان، عينه اليسرى عوراء، وهو ضيق الأرساغ في ساقيه الأماميتين، واتصال رقبته بمتنه مسطح بعض الشيء، والأجزاء الباقية من جسده لا عيب فيها، اشتري قرب غزة عند البحر الميت، دُفع لشرائه ٨٠٠ فلورين (فلورين يعادل ستين كوبيك فضيًا)، والثاني سعادان عمره تسعة عشر عامًا، أبيض اللون من سلالة سعادان طوقان، فيه بعض العيوب في أرجله ومتنه، منخفض، وكله طويل بلا انتظام في شكله، ولكنه ليس أسوأ من الأول، ويقولون إن نسله من أفضل ما يكون، دُفع ثمنًا له ٩٠٠ فلورين.

في عام ١٨٥٧ اشترى العقيد (الجنرال حاليًا) بروديرمان حصانين، الأول سمسون، عمره اثنا عشر عامًا، أبيض اللون وأسود العفرة والذيل وحسن الشعر، سلالته مخلدي، اشتري من قبيلة الروالة، لا تبدو عليه الأصالة من مظهره، ولكنه

ماهر، دُفع عليه ألف فلورين، والحصان الثاني حدودي (Fater-Pferd)، عمره اثنا عشر عامًا، أبيض اللون، حريري الشعر، ساقاه الأماميتان ملتويتان، والخلفيتان قليلتا العضل، كما أنه ثقيل السمع، ولكن كثير الأصالة والنشاط، دُفع ثمنًا له ٩٠٠ فلورين.

كل الأحصنة الأربعة صغيرة الحجم.

والحصانان الآخران مولدان في المزرعة: الأول صقلاوي عليا، لونه بين الأحمر الغامق والرمادي والكميت الأشهب، أصله من الحصان العربي الذي اشتراه الأمير شفارتسيبيرغ والفرس الإسبانية، أرجله لحيمة، ومتنه قصير وأخطل، وعصعصه طويل ومستقيم، نشيط الحركة، وقوي مقسم الذيل، والحصان الثاني فاقوري من الجنس الإسباني، شعره رمادي غامق ومبقع، أحدب الأنف، حسن الشكل كشكل خيول مزرعة ستريليتسكي لتربية الخيل.

الأفراس أيضًا فيها عيوب وبخاصة التي أكثرها أصالة؛ إذ لها كفل البقر، وبعضها منخفضة المتون عند الاتصال مع العصعص، وقصيرة الرقبات، وتعدّ الأفضل من بين سبعين فرسًا اشتراها السيد بروديرمان في أوقات مختلفة، إنها تتغير كثيرًا في سيرها، فهي تسير على التربة الصلبة بجسارة، فتصبح حركتها مرنة، وتستقيم متونها وأكفالها، فيها شيء يذكر بخيول البادية، التي منحتها الطبيعة القدرة على تحمل المشقات، فيها نشافة ومتانة البنية إضافة إلى الطمأنينة، وثقتها بنفسها وبقوتها، دُفع ثمن هذه الأفراس قرابة ألفين إلى ثمانية آلاف فلورين.

كانت عند السيد بروديرمان باخرة تحت تصرفه، وبعض المساعدين، ونوتية السفينة، لذا كلفت أسفاره أموالاً ضخمة.

❋ ❋ ❋

ملحق الكتاب رقم ٩

أين توجد الخيول العربية

من بين المناطق التي زرتها رأيت أفضل الخيول في الرافين في مدينة أورفا الأفضل منها الأفراس خاصة لأنها كثيرة الأصالة، وبنيتها من الدرجة الأولى، ولكن لها بعض العيوب بسبب لعب الجريد، ولكثير منها نوام في مفاصل الجري وغيرها من العيوب التي لا يقبلونها في أوروبا، أفضل فرس رأيتها فرس علي باشا محافظ أورفا الأسبق، ولكني لم أجرؤ على شرائها بسبب الفالج على شفتها السفلى؛ لأن هذا مثير للشك، فمنذ خمس سنوات ظهرت تقرحات بسبب حزام السرج عند الخيول، وعدم قدرتها على السفاد، وأعراض هذه الأمراض هي الفالج في الأذن أو الشفاه.

وجدت في حران، الواقعة على مسافة أربعة أيام ركوبًا عن أورفا في السهب حيث تتنقل القبائل الشمرية، وهي الفداحة والجس والحمود الخاضعة لعبد الكريم، خيولاً متنوعة، تمتاز بقوتها وحجمها، ولو أنها ليست أصيلة كالأولى، كانت هذه القبائل تخوض حروبًا مستمرة مع قبيلة عنزة، فسلبت منها خيولاً كثيرة تمتاز عن خيولهم بجمالها الفتان.

الأحصنة النقية قليلة جدًا، فلكل مئة فرس حصان واحد لسفادها، والأحصنة الباقية غير نقية الدم، إنها تبدل بالأفراس حين تبلغ السنتين من عمرها، وعندما تبلغ خمس سنوات تسفد مع خمس أو ست أفراس يوميًا؛ لذا فالكثير منها ينهك بسرعة.

خيول حلب ليست متنوعة بهذه الدرجة مثل خيول أورفا، ولكن توجد فيها اسطبلات القناصل، حيث تربى خيرة الخيول، وهي غالية الأسعار طبعًا، أهمها اسطبل القنصل الإنكليزي السيد اسكين، واسطبل القنصل النمساوي السيد موسى بيتشيتو، وتاجر الخيل عطار، الذي يساهم مع بيتشيتو[١]، يملك بعض الأتراك الخيول أيضًا، وهي كخيول القناصل؛ أي مشتراة من البدو ومتربية في المدن، يمتاز منهم علي أفندي جبري، وهو صياد وخبير في الخيل.

تعيش قرب حلب قبيلة شبه حضرية، هي الحدادين، عندها خيول جيدة أيضًا والقنصل الإنكليزي السيد اسكين يشتري من هذه القبيلة خيولاً كل عام.

وفي الطريق بين حلب وحماه توجد الخيول البارزة في المبيت الأخير قبل الوصول إلى حماة، عند رئيس خان شيخون حيث تربى أمهار مشتراة من البدو، كلها معروضة للبيع، ولكنها غالية الثمن وبخاصة للشارين الأجانب، الذين يشترونها بوصية من قنصلهم، كما يوجد في خان شيخون حصان أمغر سمعت عنه في حلب كثيرًا، عمره خمس سنوات، من سلالة أعنق حدروج، ارتفاع رقبته أرشينان[٢] وفيرشو كان ونصف، عريض ومتين البنية، وقصير الأرجل والمتن، ومستقيم العصعص، ومقسم ذيله غير عادي، منتظم الرقبة وجميل الرأس وجاحظ العيون وكبير فتحات الأنف، مع الأسف كان هذا الحصان مصابًا بالتهاب في مفصل الجري، كان صاحبه الشيخ غائبًا، فلم يستطع أحد أن يحدد ثمنه الحقيقي، ثم استلمت من وكيلنا في حماة تصريحًا يسمح لي إسفاد فرسي المغراء، التي اشتريتها، واسمها شقراء مع هذا الحصان، فتفلت هذه الفرس بعد ذلك، حبذا لو

(١) اشترى الأمير عبد القادر الجزائري واحدًا من هذه الأحصنة ليهديه للإمبراطور نابليون الثالث (كميت اللون عمره ست سنوات)، وكان هذا الحصان لعطار، دفع ثمنه ١٨٠٠ روبل حسب العملة الروسية.

(٢) أرشين: مقياس طول روسي قديم، يساوي ٧١ سنتيمترًا، المعرب.

حققت النسل آمال كل من شاهد ذلك الفحل، مدينة حماة مركز هام لشاري الخيل؛ لأنها المركز المسكون في سوريا، ولأن قبيلة السباع العترية من نجد تأتي إلى هذه المدينة، إضافة إلى ذلك يوجد في هذه المدينة كثير من أناس أغنياء يشترون الخيول من البدو. خيول قبيلة السباع أصغر حجمًا من خيول قبيلة شمر، وأكثرها فاتحة اللون وخرقاء وطويلة بمتونها القصيرة، عظامها الأمامية رقيقة ومتينة، وأوعيتها الدموية بارزة على جنوبها.

تنتقل قبيلة الموالي بجانب طريق حمص ولها خيولها البارزة أيضًا، حمص فقيرة بالخيول الجيدة بالمقارنة مع حماة، ولو أن حمص تحصل عليها من قبيلة عنزة فقط، ولكن على طريق دمشق وتدمر؛ أي في حسية توجد عند رئيسها عبده آغا سحيدان خيول من نوعية ممتازة، وقد نال رئيس بلدية حسية لقب البيه، وفيها كثير من باشي بوزوك، إنه غني جدًا، ويربي خيولاً نقَية الدم، وتشبه الكثير منها الهونترات الإنكليزية من حيث جمال مظهرها، أسعار الخيول هنا عالية أيضًا، والأهم من ذلك أن أفضل الخيول كانت فاسدة.

دمشق غنية بالخيول الجيدة، ولكن النوع الأول فيها أقل مما توقعت، من بين أفضل الخيول توجد الفرس الدهماء، التي يملكها الباشا صاحب الأعمال، والحصان الرمادي من عشيرة نوري المشهورة في حي الميدان، استقرت في سهول حوران الفسيحة قرب دمشق قبيلة ولد علي برئاسة شيخها محمد دوخي، من بين خيولها الكثيرة العدد توجد بعض الخيول الممتازة، وغيرها حسنة بحجمها وعرضها وكثيرة الأصالة وسريعة، دفع النمساويون ثمنًا لهذه الخيول في حدود ثمانية آلاف غولدين (وغولدين يعادل ستين كوبيك فضيًا)، مع الأسف لقد جئت إلى هذه القبيلة وقت الحرب، فلم يرض البدو بيع خيولهم بأي ثمن، دفعت ثمن واحدة من الأفراس ثلاثة آلاف روبل، والاثنتين الأخريين خمسة آلاف، فاصطدمت

بالرفض، وحصلت بصعوبة بالغة على فرس واحدة فقط، وهي ليست من أفضل الخيول، ولكن من سلالة عبيان النقية، الأحصنة النقية قليلة العدد، كان من بينها حصان صالح بنظرنا، رمادي اللون، عمره خمس سنوات من سلالة الكحيلان، اشترى الأمير عبد القادر أخاه للإمبراطور نابليون الثالث، ولكنْ ركبتاه الأماميتان مقلوبتان، وتوجد نوام عظيمة على ساقيه الخلفيتين، اشتريت حصانًا أمغر عمره أربع سنوات من سلالة صقلاوي جدران، نقي الدم، ولو أنه لم ينشأ تمامًا بعده، لكن يتوقع أن تكون فوائده كثيرة، لم يكن يتغذى إلا بلبن الجمال، ومع ذلك ركبت عليه في طريق العودة يومين متتاليين دون أن أطعمه علفًا، إضافة إلى ذلك كان يسير في الاجتيازات الليلية الطويلة بنشاط، عند مرورنا ببعض القرى الدرزية عرف الناس هذا الحصان الذي كنت راكبه، فكانوا يؤشرون عليه ويقولون: «صلاوي جدران!».

كان في هذه القبيلة بعض الأحصنة من سلالة الصقلاوي، ولكن صقلاوي جدران ثلاثة فقط، مع الأسف الشديد أصيب هذا الحصان في الطريق إلى أوديسا بالبرد، ثم بالروماتيزم، فنفق في بكاترينوسلافل في اسطبل زيمستفو[1].

لم أتمكن من زيارة قبيلة الروالة المشهورة بخيولها أكثر من ولد علي [. . .]. لقد أسفت على ذلك كثيرًا؛ لأنني أعرف أن هذه القبيلة مصدر هام لمن يشتري الخيول العربية، فمثلاً أكثر الخيول التي اشتراها عباس باشا لمزرعته في مصر كانت من فيصل شيخ قبيلة الروالة.

عند وصولي إلى مصر املت لو أن أحد بعض الخيول من خيل مزرعة عباس باشا الأسبق، الذي بيعت أجزاؤه المتبقية بالمزاد العلني عام ١٨٦٠، بيعت في هذا

---

(١) زيمستفو: مجلس منتخب محلي في الريف الروسي قبل الثورة، المعرب.

المزاد العلني أربعة أحصنة، لا مثيل لها في العالم، أفضلها الحصان قدير، الذي اشتري خصيصًا لملك فيورتيمبيرغ، عمره ست وعشرون سنة، دفعوا ثمنه ٧٥٠ جنيه استرليني (٥٢٥٠ روبل)، واشتري الثاني لمزرعة تربية الخيل النمساوية الإمبراطورية، والثالث للسلطان، والرابع اشتراه الصيرفي المليونير أوبينغايم، واشترى رئيس المحكمة التجارية في القاهرة علي بيه، شاب غني جدًا، خمسة أحصنة، كل هذه الخيول أصلها من الحصان قدير، وتمتاز بقوتها وجمالها وكرامتها.



ملحق الكتاب رقم ١٠
ملاحظات لمشتري الخيول العربية

كل خيول سوريا والرافدين وفلسطين تالفة بسبب الركوب المبكر عليها وبخاصة خيول سكان المدن، كما أنها تبيد من جراء لعبة الجريد بوقفها السريع بالشكائم التي تقطع أفواهها، أما البدو فيبدؤون ركوب مهورهم الفتية عندما تبلغ سنة ونصفًا من عمرها، وعندما تبلغ السنتين يعودونها على الحربات، كما عرفت أن البدو ليست عندهم معلومات عن الركوب الصحيح، فيستغلون ضعف حيواناتهم بهدف تدريبها السهل على بعض الحركات اللازمة عند استعمال الحربة، وهي أكثر الأسلحة استعمالاً عند البدو.

إضافة إلى ذلك توجد في هذه الخيول عيوب، لا يعيرها البدو أهمية فأصبحت هذه العيوب مترسخة في خيولهم وراثيًا، وأهم هذه العيوب هي (كوربا) ونوام عظيمة بأنواعها المختلفة.

نستنتج مما سبق أن المشتري لا ينبغي له أن يغفل عن فرس نقية أو حصان، إذا وجده عند البدو، حتى لو كان فيها بعض العيوب البسيطة التي لا تنتقل وراثيًا، ولو كان المشتري آملاً أن يجد خيولاً مماثلة لها في القبائل الأخرى ومن غير عيوب، يرتكب هذا الخطأ أكثر المشترين الذي يزورون سوريا أول مرة، وغالبًا ما يحدث أنهم يمتنعون عن شراء أفضل الخيول، فيضطرون بعدئذ إلى شراء الخيول الأقل جودة، لذا ينبغي عند شراء الخيول تعرف القواعد الآتية:

بما أنه لا توجد أدلة واضحة على سلالات الخيول لا ينبغي التعلق بآمال باطلة من مظهر الخيول الجميلة، التي تربت أفضل تربية في اسطبلات الباشاوات،

وسكان المدن والقناصل، وإنما يفضل شراؤها من البدو مباشرة، حيث يمكن معرفة الحقيقة، تنتشر أخبار عن الحصان الجيد في كل مكان، وبعد سماع قصص البدو المحتالين، ولكن ليس كسكان المدن المتعلمين والمثقفين، يمكن أن يثق المشتري بأنه سيحصل على حصان نقي. مثلاً أنا اشتريت من قبيلة السباع القادمة من نجد حصانًا أمغر عمره عشر سنوات، وهو مضروب وخلق ومنهك، وقد سمعت عن هذا الحصان من البدو المختلفين، الذين جاؤوا إلى مخيم شيخهم إضافة إلى تأكيد الشيخ أنه حدود حقيقي، بعد إنهاء المتاجرة أكد سبعة شيوخ بما فيهم شيخ القبيلة الرئيسي فارس العجوز ابن المئة، وحلفوا اليمين على كلامهم بوجود البدو الخاضعين لهم، وما جعلني أن أقتنع في ذلك تمامًا هو سماح الشيخ فارس لي وفقًا لشروط المتاجرة أن أسفد معه فرسه الشخصية، وهي من أفضل الأفراس التي رأيتها عنده، وقدمت له أموالاً هائلة ثمنًا لها، ولكن الشيخ لم يرض بيعها.

المثال الثاني وصفته عندما كنت أشتري حصانًا من قبيلة ولد علي.

وأخيرًا البدوي نصاب وحرامي وكذاب، ولكن نادرًا ما يحدث أن واحدًا منهم يتذلل ويتأثم أمام الله، لدرجة أنه سيقول الكذب عن حصانه.

كما أعتقد أنه لا يمكن الاكتفاء بشراء حصان واحد فقط، حتى لو كانت أصالته موثوقة، وإنما ينبغي شراء ثلاثة على الأقل، واختيار واحد منها، الذي وصل إلى المزرعة بالسلامة، وإلحاقه بمربى الخيول النقية، وليس حصانًا واحدًا كما يفعل الإنكليز. قد يبدو أن هذه الطريقة تؤدي إلى الخسارة وليس الربح، ولكن الأرقام التي سأقدمها في الأسفل ستبين أن هذه الأحصنة ليست غالية جدًا كما يظن الكثيرون وبخاصة إذا كانت مشتراة من البدو مباشرة.

يحتاج شراء الخيول إلى حذر؛ لأن الجميع ابتداء من سكان المدن سواء الأغنياء أو الفقراء أو الباشاوات أو قائمو المقام أو المترجمون وانتهاء بالبدو، كلهم يحاولوا

أن يخدعون الرحالة، وحيلهم كثيرة ومتنوعة إلى درجة أنه لا يمكن التهرب منها في الوقت المناسب، بعد أن يستلم البدوي الأموال ثمن حصانه يرحل، وبعد مدة قد يأتي بدوي آخر ويصرح أن نصف الحصان ملكه، فيطلب دفع المال، لذا ينبغي إجراء المتاجرة عن طريق الوكلاء ودفع المال للشيوخ أو خدمهم، فهم الذين يقومون بأعمال الرئاسة، وهذا ضروري لعدم الاصطدام بهذه الأحداث.

يبيع البدوي حصانه بتثاقل وبخاصة الفرس، فيتردد في البداية، ويطلب أموالاً جنونية، يوافق عشر مرات، ويقطع المتاجرة عشر مرات، في مثل هذه الأحوال يجب التزود بالحذاقة والصبر، ويجب التعرف على فطرتهم وعاداتهم، يجب مداهنة البدوي بالهدايا وإغرائه بكمية الأموال المقدمة له.

أسباب قاهرة تجلب الأسى برأي البدوي، غالبًا ما تجعله مضطرًا إلى مفارقة فرسه، لاحظت أنه إذا كانت سلالة فرس ما موجودة في عشيرة البدوي منذ غابر الزمان فلن يبيعها بأي ثمن إذا لم تكن عنده من هذه الفرس فرسان صغيرتان على الأقل، حتى تكون الواحدة منها أنثى، والثانية للسفاد، ففي مثل هذه الحال يبيع البدوي الواحدة من الثلاثة بغير إرادة، ويبكي وكأنه يفارق أحد أفراد أسرته.

والظروف الأخرى التي تجعل البدوي يبيع فرسه بسرور إذا كان نسلها الأول والثاني أمهارًا، إذ يعدّ البدو أن مثل هذه الإناث تجلب خسائر مادية.

الكل على يقين عن أفضال الدم العربي فلا حاجة لتعدادها، بنظر أصحاب عزب تربية الخيل، الدم العربي دون شك أفضل دم لتكاثر خيول السباق، وكل الأعمال، إذا كان الفحل نقي الدم.

ونقص هذا الدم الوحيد أن النسل يتقهقر في إقليم آخر، والمحافظة عليه بالوسائل نفسها كالتي في الصحراء صعب.

هذا الحيوان غير مقيّم بنظر شخص عسكري، فقدرته على تحمل كل الحرمانات والجري الطويل تجعله حتى اللحظة الأخيرة من عمره خادمًا أمينًا وصديقًا مخلصًا لسيده، لقد حدث كثيرًا أن غريزة الحصان العربي أنقذت حياة الإنسان، وعند التقدم إلى العدو أو التراجع يظهر الحصان العربي نشاطه العجيب وقوته التي لا تعرف التعب.



ملحق الكتاب رقم ١٢
قائمة الخيول المستوردة من بلاد العرب عام ١٩٦٢

١ - الأحصنة

١ – **بقشيش :** أسمر داكن، عمره عشر سنوات، ارتفاع منبت رقبته أرشينان وربع فيرشوك، توجد ثغرة على جبينه، ثلاثة من أرجله بيضاء، سلالته كحيلان حدلي، سفد في القبيلة، اشتري في البادية قرب مدينة حماة، في مخيم قبيلة السباع من عنزة من عشيرة العواجة، دُفع ثمنًا له ٤٣٢ روبل و ٥٧ كوبيك .

٢ – **كحيل :** رمادي فاتح، عمره ست سنوات، ارتفاع منبت رقبته أرشينان وربع فيرشوك، سلالته كحيلان العجوز، اشتراه حسين بيه من عشيرة فلج من قبيلة عبدة من السباع العنزية .

٣ – **حدبان :** رمادي اللون، عمره ست سنوات، ارتفاع منبت رقبته أرشينان وفيرشوك ونصف، سلالته حدبان عنزجي، اشتري من البدو من قبيلة القموصة من السباع (عنزة)، دُفع ثمن الحصانين ١٤٨٧ روبل و ٤٣ كوبيك .

٤ – **بدوين :** أمغر فاتح، عمره أربع سنوات، ارتفاع منبت رقبته أرشينان ونصف فيرشوك، توجد ثغرة على جبينه، ساقاه الأماميتان بيضاوتا، اليسرى حتى الثنة، واليمنى حتى منتصف الفخذ، سلالته صقلاوي جدران، اشتري في سهول حوران من البدوي ياسر جدعان، أبو مؤجل بن فرحان، من عشيرة بدوية قلب الدور من قبيلة ولد علي، كان مسفدًا، دفع ثمنه ١١٨٢ روبل و ٨٥ كوبيك، نفق في مدينة يكاترينبورغ .

٥ – **الشام:** رمادي فاتح، عمره ست سنوات، ارتفاع منبت رقبته أرشينان وربع فيرشوك، اشتري في حمص من الباشا الذي ناله هدية من قبيلة السباع العنزية، دفع ثمنًا له ٣٩٢ روبل و ٥٧ كوبيك.

٢ - الأفراس

١ – **عمشا:** رمادية اللون، عمرها خمس سنوات، ارتفاع منبت رقبتها أرشينان ونصف فيرشوك، سميت بهذا الاسم تكريمًا لوالدة الشيخ عبد الكريم، سلالتها دهماء العمر (والدها ريشان كحيلان)، اشتريت في سهول الرافدين من قبيلة شمر، تفلى من حصان كميت غامق بأرجل بيضاء من سلالة حدبان، أفلت في ١٦ (٢٨) أيار عام ١٨٦٢ فولدت فرسًا سميت فاطمة، دفع ثمنًا لها ٨٦٩ روبل.

٢ – **حية:** مغراء اللون، ارتفاع منبت دقبتها أرشينان وفيرشوكان وثلاثة أرباع فيرشوك، سلالتها كحيلية المصوني، اشتراها علي أفندي جبري من قبيلة عنزة، سفدت مع حصان من سلالة حدبان عنزجي، دفع عليها ١٠٠٠ روبل.

٣ – **صقلاوية جدران:** كميته غامقة، عمرها ست سنوات، ارتفاع منبت رقبتها أرشينان وفير ونصف، كانت ملكًا لعرزان أبو حلدي بن شعلان من عشيرة فيصل شيخ قبيلة الروالة، اشتريناها من البدوي نحار، الذي أخذها غنيمة حرب، وهو أخو غساني شيخ قبيلة الموالي، ثمن وكيل عباس باشا، والدة صقلاوية بأربعة عشر ألف فرنك، والدها من السلالة نفسها؛ أي صقلاوي جدران، سفدت مع حصان أمغر فاتح، اسمه كحيل في ١٠ أيار ١٨٦٢، دفع ثمنًا لها ١٧١٥ روبل.

شقراء: مغراء اللون، عمرها خمس سنوات، ارتفاع منبت رقبتها أرشينان وفيرشوك، سلالتها حمداني سمري، كانت ملك جدعان شيخ قبيلة الفدعان، في

أثناء الهجوم على قبيلة بقمشلي كان أحمد الرشيد راكبها، وهو من أقرباء جدعان وقائد جيشه، قُتل أحمد عليها، أما الفرس فأخذت بصفة غنيمة حرب، وبيعت لعلي أفندي جبري، والد شقراء من سلالة كحيلان نواق، كان ملكًا للبدوي دوبي من قبيلة السباع، سفدت مع حصان من سلالة كحيلان أبو جنب الذي اشتراه حافظ باشا من علي أفندي جبري للسلطان، في أواخر شهر نيسان عام ١٨٦٢ ظهرت هذه الفرس من جديد، فسفدت في خان شيخون (ثلاثون فرستا عن حماة) مع حصان أمغر عمره خمس سنوات من سلالة أعنق حدروج، الذي كان ملكًا لشيخ خان شيخون، دفع ثمنًا لها ١٧١٤ روبل، وأجره السفاد ٥ روبلات و ٧٠ كوبيك.

جلفة: رمادية اللون، عمرها ثماني سنوات، ارتفاع منبت رقبتها أرشينان ونصف فيرشوك، سلالتها جلفي، (والدها كحيلان)، اشتريت من قبيلة السباع بمبلغ ٥٤٠ روبل.

كايما كانشا: رمادية فاتحة، عمرها ست سنوات، ارتفاع منبت رقبتها أرشينان وفيرشوكان وثلاثة أرباع فيرشوك، سلالتها صقلاوية سمري، أهداها البدو من قبيلة السباع لقائم المقام في حمص عام ١٨٦١، دفع ثمنًا لها ١١١٤ روبل و ٥٧ كوبيك.

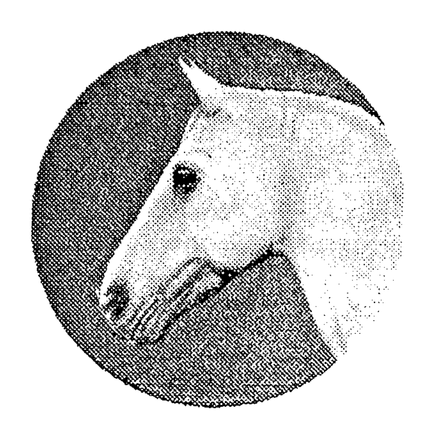
عبية: رمادية اللون، عمرها ثماني سنوات، من سلالة عبيان شرك، اشتريت من الشيخ حجاج بن مؤجل في مخيم قبيلة ولد علي المتنقلة في حوران، دفع ثمنًا لها ١٢٠٠ روبل.

كلف نقل الخيول بالباخرة من بيروت إلى أوديسا ١٠٠ روبل على الرأس.

كل المبالغ المذكورة كانت مدفوعة بالقروش، وحولت قيمتها إلى الروبل الروسي.

الملحق الرابع ..

ركوب الخيل
في مواطن البدو



القادر

الفصل الأول

في شتاء عام ١٨٨٨م كنا نتجول في البحر المتوسط على اليخت «إنفا» لصاحبه الكونت استروغانوف، وفي حين إقامتنا في مصر وجدنا مصادفة كتابًا شيقًا جدًا عنوانه: The Bedouins of the Euphrates حيث تصف مؤلفته آن بلانت رحلتها مع زوجها إلى صحراءالجزيرة العربية، وهذه الرحلة كان هدفها فقط تعرف الخيول العربية والحصول عليها لمربّي الخيل، شجعتنا أن نشاركها أن نقوم بالبعثة نفسها، فقد تحمسنا لذلك لأسباب عديدة: أولاً التعرف على الأماكن المجهولة (فالزوجان بلانت كانا الأوروبيين الأولين اللذين انسابا إلى هذه المسافة البعيدة داخل البلاد) وثانيًا فرصة مشاهدة الخيول العربية الأصيلة في موطنها، وأخيرًا طريقة السفر نفسها أي ركوبًا على الخيول، التي كانت تجذبنا بطرافتها.

عندما كنا نستأنف رحلتنا عبر النيل إلى آثار طيبة القديمة، كان استروغانوف في القاهرة في وكالة كوك يستعلم عن رحلتنا المتوقعة، وعن تجهيز القافلة التي لا

غنى عنها في الصحراء، لأنها تخلو من الطرقات والمساكن، لهذا اضطررنا أن نستعين بالبغال لحمل الخيم والأطعمة وغيرها.

بعد عودتنا إلى القاهرة عرفنا أن استروغانوف اتفق مع كوك التي ستوفر لنا ترجمانًا وخادمًا والخيم والأطعمة مقابل الأجرة اليومية، لذا فنحن لم نهتم بشيء حتى وصولنا إلى بيروت، ومنها كان علينا الانطلاق في الرحلة إلى داخل الجزيرة العربية التي مدتها ستة أسابيع.

في الثامن والعشرين من شهر شباط (الموافق في ١٢ آذار بالتقويم الغربي) انطلقنا بالقطار إلى مدينة السويس بالباخرة بـ: Peninsuar & Oriental Company عبر القناة، وفي بور سعيد ركبنا اليخت ووصلنا به إلى يافا، وبعد زيارتنا للأمكنة المقدسة عدنا إلى «إنفا» في العاشر من آذار وفي اليوم نفسه انطلقنا إلى بيروت.

انضم إلينا في يافا الترجمان خليل، الذي أصبح بعد ذلك واحدًا من أول مرافقينا في الرحلة، كان يظهر من شكله أنه ليس شابًا، وكان يبدو عليه الحزم والنشاط، وكانت على وجهه شوارب شائبة وملففة إلى الأعلى، وحواجبه الكثيفة نازلة على عينيه، فكانت تمنحه ملامح حربية، كما كان يبدو عليه أنه قادر على أن يشرف على قافلتنا، ويكون وسيطًا بيننا وبين البدو، كان زيه البسيط مكونًا من قفطان أسود طويل، وعليه أزرار ملونة بلون الذهب، والحذاء الجلدي والكوفية الملونة على رأسه.

في بادئ الأمر أعجبنا به كثيرًا، وبدا أنه يعرف البدو وبلادهم جيدًا، وأنه زارهم عدة مرات، حسبما أخبرنا، وكم خيبنا مؤخرًا، سنوضح ذلك فيما بعد.

الجمعة ١١ (٢٣) آذار، بيروت: وصلنا إلى بيروت في التاسعة صباحًا، ورمينا المرساة في مكلأ مكشوف، حيث كان يختنا يهتز بسبب التماوج. الخفيف

من جهة شمال الغرب، فأسرعنا بأخذ الأمتعة والنزول إلى الشاطئ، وبعد خروجنا من الزورق وجدنا على الساحل شخصين سوريين، وقد عرفنا خليل عليهما، كان الأول اسمه فرعون، الذي سيكون خادمًا في البوفيه، والثاني اسمه يوسف الذي سيكون طباخنا.

بعد ذلك نزلنا في فندق جيد جدًا، مطل على البحر وبدأنا نهيئ أنفسنا للرحلة ونقرر أيًا من الأمتعة سوف نأخذها، اضطررنا أن نقتصر على الأمتعة المهمة فقط، لأنه، يجب ألا تزيد الأمتعة الشخصية، المحملة على البغال، على ثلاثة أبواد[1]، حسب اتفاقنا مع كوك، أما الأمتعة المحملة من قبل الحمالين فلا أكثر من بود واحد، وغير ذلك كنا سنضطر أن ندفع مبلغًا زائدًا على الوزن الزائد، وكان هذا من إدراكنا أن رحلتنا التي ستدوم احتمالاً ستة أسابيع في الأماكن البرية حيث لا مجال لغسل الثياب وشراء الأغذية، كان هذا سبب همنا الكبير من مشكلة اختيار الأمتعة اللازمة.

قضيت جزءًا من النهار في حزم الأمتعة، أما الآخرون فكانوا يدبرون القافلة والخيول إلخ . . . أخذنا معنا أربعة أشخاص من اليخت، هم: خادم استروغانوف فاسيلي، ورئيس النوتية كوريتسين، والبحارة كاراكين وبلاتوف، وكلهم كانوا مسلحين بالبنادق والمسدسات، أما استروغانوف وشيرباتوف فكانا يحملان بندقيتي صيد إضافة إلى ذلك.

وكانت الأسلحة سببًا في وقوعنا في بعض المتاعب مع الأتراك، الذين يدبرون الصعوبات للأوروبيين باستمرار ليعرقلوهم عن دخول البلاد، هذه المرة رفض الأتراك السماح لنا بإدخال الأسلحة والرصاص عبر الجمارك بحجة أن إدخالها محظور في كل أرجاء الأراضي التركية، وقد حاول خليل إقناعهم طوال النهار ولكن دون جدوى.

---

(١) البود: وحدة الوزن، زنتها ١٦,٣٨ كيلو غرامًا، المعرب.

كان الجو خانقًا والهواء لم يكن رطبًا على الرغم من قربنا من البحر؛ وبيروت تقع على شبه الجزيرة الصخرية الفقيرة بالنباتات إلى حد ما، ومن جراء ذلك كانت الشمس تشوي المدينة دون رحمة.

لم نخرج من الفندق حتى موعد الغذاء خوفًا من الحر الشديد، وانتظرنا قدوم المساء، ثم خرجنا لنتعرف على مخيمنا الجديد الذي نصب في مكان قريب من الفندق، كان عدد الخيم خمسًا، منها أربع خيم كبيرة وواحدة صغيرة لاستروغانوف، أما الخيم الباقية فكانت واحدة منها معدة للنوم لي ولزوجي، والثانية مطعمًا ومضيفة، والثالثة للبحارة، والرابعة مطبخًا، كانت الخيم مثمنة السطوح ومخيطة من الداخل بالبفتة الزرقاء والمطرزة على شكل زخارف والعبارات العربية المأثورة، وكانت السطوح مكونة من جزئين، الجزء الأعلى أكبر وأوسع بقليل من الأسفل مما يسهل دخول الهواء من بينها، ويجعل الجو في الخيم قريرًا، وهذا شيء ملائم جدًا في مثل هذا المناخ الحار.

كان الفرش في الخيم بسيطًا جدًا: في خيمة النوم الأسرّة والمنضدة مع الطاسة والإبريق للاغتسال والمقعد؛ وفي خيمة الطعام المنضدة والكراسي بلا مسند، والمقعد المطوي؛ ولم يكن في خيمة البحارة سوى الشراشف وكراسي بلا مسند والمنضدة.

لقد هيئنا أنفسنا للانطلاق غدًا أو بعد غد، كانت القافلة جاهزة بما فيها من الناس والخيول والبغال، أما المشكلة الوحيدة الباقية فهي الأسلحة.

السبت ١٢ (٢٤) آذار، بيروت: لم يسمح الأتراك بإدخال الأسلحة نهائيًا، وقد اقترح خليل تهريبها ليلاً كما يفعل الإنكليز دائمًا، مؤكدًا أن السلطات المحلية تغمض عينيها عن ذلك، وتستغرب من تصميمنا على المطالبة بالتصريح، على الرغم من وجود هذه الطريقة السهلة لتجنب القانون، ولكننا لم نتخل عن رغبتنا بإدخال الأسلحة قانونيًا، ولهذا رفضنا هذا الاقتراح، وبعد إرهاقنا في محاولة إقناع

ضباط الجمارك ووضع الحجج والبراهين لهم، لجأنا مباشرة إلى الحاكم العام في بيروت، ولكن نهايتها كانت غير ناجحة أيضًا؛ لأن الباشا الذي كان سفيرًا لتركيا في باريس سابقًا؛ أي الإنسان المثقف لم يفهم أو لم يرد أن يفهم مدى حاجتنا للأسلحة، وأبى كل استفسارات شيرباتوف الذي ذهب إليه ليقابله شخصيًا، فقد علل الباشا أنه إذا كنا نحتاج للأسلحة للدفاع عن أنفسنا فستوفر لنا الحراسة في دمشق، أما إذا احتجنا إليها للصيد، فعلينا أن نصيد هنا الكمية المطلوبة لنا من الطيور والحيوانات! وبعد أن سمع شيرباتوف هذه الكلمات، وأدرك أنه لا فائدة من التحدث مع شخص ذي عقائد تركية أصيلة، حمل نفسه وانصرف.

بعد إخفاقنا التام في كل المحاولات نفد صبرنا، فاضطررنا أن نرسل برقية إلى سفير روسيا في القسطنطينية، طالبين مساعدته، كما اضطررنا أن نؤجل رحلتنا ريثما نستلم ردًا منه، كان هذا التأجيل شيئًا كريهًا؛ لأن بيروت، ولو أنها مدينة كبيرة، لكنها تخلو من الملاهي أو أي شيء يتسلى به الإنسان، ولهذا السبب كانت عيشتنا فيها روتينية جدًا، في النهار كنا نذهب إلى السوق لشراء بعض الحاجات مثل العباءات والكوفيات وغيرها، والعباءة عبارة عن برنس عريض ذي أكمام يلبسه البدو فوق ملابسهم العادية ويستعملونه كوقاية من الشمس والمطر، أما الكوفية فهي عبارة عن شال حريري أو قطني، يلبس على الرأس، ويثبت عليه بشريط من وبر الجمل، ويسمى عقالاً.

في إحدى جولاتنا في الأسواق رأينا مشهدًا ليس بنادر في هذه الأماكن، رأينا مشاجرة بين شخصين سوريين أحدهما مسيحي والآخر مسلم، في بعض الأحيان كانت تصل المشاجرات كهذه إلى نطاق واسع، وتؤدي إلى تدخل الشرطة والجيش، فمنذ مدة كانت نتيجة إحدى المشاجرات عشرات من الجرحى والقتلى، وكل هذا من المسلمين المتعصبين الذين يكرهون أبناء بلدهم من المسيحيين، وأي

خلاف بسيط بينهم يؤدي بعد ذلك إلى معركة طاحنة، وكان هذه المرة كذلك، ففي البداية تخاصم هذان السوريان لسبب ما، فهجم المسلم على المسيحي وأخذ يضربه، فتجمع الناس في مدة قصيرة، وحاولوا تفريقهم عن بعض، ولكن المتشاجرين كانا متمسكين ببعضهما لدرجة أن تفريقهما لم يكن سهلاً، فاضطر الناس إلى استعمال طريقة تفريق الكلاب؛ أي برش الماء عليهم، وهذا ما أدى إلى النتيجة المرغوبة، فالحمية الحربية تبردت لدى المتشاجرين تحت تأثير هذا الماء البارد، وبعد ذلك وصل كل واحد منهم إلى بيته. عندما بدأت المشاجرة أسرع مرافقنا بإدخالنا إلى البناء المجاور، لأن الأوروبيين إذا وقعوا تحت بصر هؤلاء فسيكون ذلك مغامرة خطرة لهم.

بعد عودتنا إلى الفندق بدأنا بحل السؤال الصعب إلى حد ما، وهو نقل الكمية الكبيرة من الأموال اللازمة للرحلة ولشراء الخيول، فالبدو لا يقبلون الذهب، وكل الناس تتحاسب معهم بالعملة الفضية كبيرة الحجم، قيمة الواحدة منها تعادل روبلين؛ لهذا اضطررنا أن نختزن القسم الأصغر من الذهب، والقسم الأكبر من الفضة ثقيلة الوزن، لقد قررنا شراء الزنانير الجلدية المعدة لخزن المال فيها، وأن نقسم الكمية بين البحارة، طبعًا حمل مثل هذه العمل الثقيلة الوزن ليس بمهمة لذيذة، ولكنها الطريقة الوحيدة لتوفير الأمانة لها، أما استروغانوف وشيرباتوف فأخذا على عاتقهما حمل الذهب في هذه الزنانير، وفي المساء أحضر المال في الأكياس من المصرف، وقد قضينا عدة ساعات في عدها وتصنيفها[1].

قابلنا اليوم القنصل الروسي الذي كان سيسافر إلى روسيا بعد بضعة أيام؛ وقد عرّفنا القنصل على مساعده الذي ينوب عنه دائمًا في أثناء غيابه، لقد استفسرنا من القنصل ومن المحافظ كذلك عن أمر المرسوم من السلطات التركية، الذي سيسمح

---

(١) بعد كل هذا وجدنا أن مثل هذه الطريقة لحمل المال غير مريحة أبدًا، فوضعناه في حقيبة متينة.

لنا بالمرور إلى داخل البلاد بحرية، ولكنهم ردوا أنه لا حاجة لذلك، ولكننا احتياطًا طلبنا من الباشا في بيروت أن يمنحنا أي وثيقة تثبت شخصيتنا وحقنا بالسفر، ولكنه رفض، وقد أسفنا على ذلك كثيراً فيما بعد.

الأحد ١٣ (٢٥) آذار، بيروت: اليوم هبت رياح قوية من جهة شمال غرب، مما أدى إلى برودة الطقس، حتى الآن لم نستلم ردًا على برقيتنا في موضوع الأسلحة، ولكي لا نضيع الوقت قررنا أن نرحل أنا وشيرباتوف مع القافلة، أما استروغانوف فسيبقى هنا، وسيلحق بنا حالما يستلم البرقية من القسطنطينية، وطالما أن شيرباتوف لم يرض بالسفر وهو مجرد تمامًا من السلاح، أمر أن تحضر له بارودة الصيد من اليخت، وكذلك الذخيرة، كان لا بد من أخذها؛ لأنه لا مجال آخر لتوصيلها إلى دمشق.

بعد تناول الفطور بدأنا بتجريب الخيول التي وفرت لنا بالاتفاق مع كوك، كان لشيرباتوف حصان خصي؛ لونه أمغر، وكبير الحجم، ذو أرجل حسنة، فكانت تبدو عليه القوة والصبر، أما استروغانوف فنال حصانًا كميتًا أحمّ ذا حمية متوقدة ومع ذلك مشية جيدة؛ وكانت لي فرس هزيلة الشكل التي لا تعرف السير جيداً، وقد جربت العديد منها، ولكنها كانت أسوأ حالاً منها، على أي حال لا تهمنا كيفية الخيول المعدة للسفر لا تهمنا كثيراً، لأننا اخترناها فقط للوصول إلى البدو، وشراء الخيول منهم التي ستكون أفضل بكثير من هذه.

في المساء اشتدت الرياح لدرجة أن وقوف يختنا في مكلأ مكشوف أصبح خطراً، فرفع عنه المرساة، وانطلق يختنا إلى وسط البحر، في أثناء غيابنا سيبحر اليخت إلى بور سعيد، حيث سينتظر بلاغًا عن عودتنا إلى بيروت.

لقد وصلت قافلتنا اليوم إلى أول محطة في شتورة بكامل طاقمها، وغداً ستلحق بها هناك.

الاثنين ١٤ (٢٦) آذار، شتورة: وأخيراً بدأنا رحلتنا بفرح كبير، فقد انطلقنا من بيروت اليوم في الثامنة صباحًا بصحبة خليل وفاسيلي وبلاتوف وكوريتسين.

عند مخرج المدينة، وخلف غابة الصنوبر مباشرة، يبدأ الارتفاع الجبلي، ويبدأ الطريق المعبد الذي عبّدته الشركة الفرنسية والتي تأخذ آجاراً من المارين بهذا الطريق، كما تستأجر هذه الشركة عربات كبيرة للركاب المنطلقين من بيروت إلى دمشق، والسفر بين هاتين المدينتين يستغرق قرابة أربع عشرة ساعة، والمسافة بينهما مئة وعشرة فرستات.

وقرب الطريق المعبد بقي طريق قديم كان يستعمل من قبل دواب النقل وسائقيها، الذين كانوا يفضلون طريقًا مجانيًا ولو سيئًا، وكان الطريق ممتلئًا بأرتال طويلة من الجمال والحمير والبغال المحملة بأشياء ثقيلة.

كان أبناء السبيل ينظرون إلينا بدهشة وفضول؛ لأن الأوروبيين لا يأتون إلى هذه الأماكن إلا نادراً، وخاصة أن منظرنا كان سيجذب انتباه الناس في أي بلد كان، فقد كان منظر البحارة مضحكًا أكثر من الجميع؛ لأنهم يمتطون الخيول للمرة الأولى وبخاصة في ملابس البحارة التي كانت لائقة لهذا المنظر مثل منظر قوزاك الذي ينظر بوحشية إلى عوارض الصار، وكانت جلستهم مترددة بعض الشيء، ولو أن فاسيلي كان خيالاً أيام زمان، ضاعت مقدرته على الركوب، وكان يتمسك بالسرج بصعوبة عندما كانت فرسه تتركل، وكانت فرسه البيضاء الصغيرة تفعل كذلك عندما يحاول فاسيلي حثّها على السرعة، وهذا بسبب كسلها الشديد، ولم ترض أن تتحرك إلا بخطوات بطيئة، وإذا أردنا أن نسيرها إنجامًا أو رماحة، لا تفهم فرسه ذلك إلا بعد ضربات متتالية بالكرباج، وكانت تظهر للجميع احتجاجها بالركل كما قيل سابقًا.

كنا نصعد تدريجيًا إلى جبال لبنان، وفي بعض الأحيان ننحدر إلى المنخفضات والوديان الضيقة، وكان المنظر الطبيعي من حولنا رائعًا تتراءى فيه الوديان والثغور

العميقة، ومنحدراتها مزينة بكروم الزيتون والتوت المزروعة على العرائش المرتفعة واحدة على الأخرى، وكانت الفتيات والبيوت تزدحم في بساتين الفواكه وفي بعض الأمكنة كانت تظهر الغابات بكل أنواعها وبخاصة الصنوبر.

وعندما التفتنا إلى الخلف ذهلنا من منظر في غاية الجمال، رأينا سطح البحر المتوسط الهادئ، وعلى ساحله تناثرت أبنية بيروت البيضاء المطوقة من طرف واحد بالماء الملون بلون الياقوت الأزرق، والبساتين الخضراء على طرف ثان، وبعدها مباشرة تبدأ الحيود الجبلية المنقطعة بالشقوق والسيول والوديان، ومن جهة مقابلة كانت سلسلة جبال لبنان شامخة علينا، وكانت القمم تلمع من ضوء الشمس ومن الثلج الذي لم يذب كله حتى الآن، وكان الهواء يبرد تدريجيًا كلما ارتفعنا أكثر.

بعد قليل أصبح الجو باردًا تمامًا، ثم هبت الرياح الشمالية الغربية وأخذت السماء تمطر، فأحسسنا بالبرد الشديد بعد أن تعودنا على الطقس الحار في مصر وفلسطين، بعد ذلك هبط علينا ضباب كثيف وحجب كل الضواحي المحيطة بنا، وهذا أجبرنا إلى ضرب خيولنا آملين أن السير السريع سيدفئنا، على كل لم يستمر الجو الماطر طويلاً، وبعد قليل من الوقت ظهرت الشمس من جديد.

كانت طبيعة النباتات والأمكنة تتغير بشكل ملحوظ مع اقترابنا إلى القمة، وعلى النقطة العلوية من العبور الجبلي، حيث لا يزال الثلج يغطي الأرض في بعض الأمكنة، لم تكن هنالك أي شجرة أو نبات أو أي شيء، ليس إلا الصخور الجرداء بمنظرها الكئيب الصارم.

توقفنا في الثانية عشرة ظهرًا في إحدى القرى لنأكل ونستريح، ففي منتصف الطريق بدأ كوريتسين يعاني من السخونة والصداع الشديد، حتى إنه كان يتوقف باستمرار لينزل من فرسه، ويستلقي على الأرض.

ومن مكان توقفنا بدأ الطريق المعبد ينحدر بشكل متعرج إلى وادي البقاع، الذي يفصل سلسلة جبال لبنان الغربية عن سلسلة جبال لبنان الشرقية، ويشكل سهلاً مسطحًا تخرقه التلال الصغيرة، التي تشبه جزرًا مرتفعة عن سطح السهل، يبلغ ارتفاع هذا الوادي ٢٣٠٠ قدم عن سطح البحر، ويبلغ طوله حوالي ١١٠ فرستات وعرضه وسطيًا ١١ فرستا، يخرق هذا الوادي نهر الليطاني الذي ينبع من مدينة بعلبك، ويجري بطول الوادي، وبعد ذلك يمر في شق ضيق في جبال لبنان، ويصب في البحر المتوسط.

وتمتد سلسلة جبال لبنان الغربية موازية لشاطئ البحر، ويبلغ طولها حوالي ١٧٠ فرستا، وتوجد النقطة الأكثر ارتفاعًا في الشمال، أما في الجنوب فتنقطع الجبال فجأة بوادي الليطاني قرب مدينة صور، أما سلسلة جبال لبنان الشرقية فهي موازية لسلسلة جبال لبنان الغربية بخمسة وثلاثين فرستا إلى الجنوب الغربي، حيث تبدأ بالارتفاع التدريجي حتى تبلغ بعد مسافة ١٥٠ فرستا إلى الجنوب ذروة ارتفاعها في جبل الحرمون (١٠٠٠٠٠ قدم).

يمتاز وادي البقاع بآثار المدن القديمة، أشهرها مدينة بعلبك، التي تقع عند سفح جبل من الجهة الشرقية من السهل، ومدينة كلسيكيا (؟)[1] التي تبعد تسعة وثلاثين فرستا جنوب بعلبك عند الطريق الموصل بين بيروت ودمشق.

في الساعة الرابعة بعد نزولنا إلى الوادي وصلنا إلى المخيم المنصوب عند حضيض جبل لبنان قرب الطريق المعبد، وهكذا قطعنا خمسة وأربعين فرستا بتسع ساعات.

---

(١) طالما أن المؤلفة نقلت بعض الأسماء بشكل غير صحيح، فإن في بعض الحالات من المستحيل تحديد كتابتها العربية الصحيحة، سوف نؤشر على هذه الحالات المشكوكة بإشارة استفهام المعرب.

بعد ذلك بدأ خادم البوفيه فرعون بتسخين الشاي، وقدمه لنا فشربناه بشهية كبيرة بعد تعبنا من هذا السفر الطويل، ثم بدأنا بمشاهدة الخيم والخيول والتعرف على الناس، وبشكل عام حاولنا أن نتطبع مع الموقف الذي سيحيط بنا ستة أسابيع، والذي بدا لنا جميلاً ومريحًا.

بعد الغداء تغطينا بالعباءات من الرأس حتى الأقدام بسبب البرد، وأخذنا نطالع الكتب ونتحدث، وهكذا حتى أجبرنا البرد على أن نأوي إلى الفراش.

الثلاثاء ١٥ (٢٧) آذار، الديماس: عندما أيقظونا في السابعة صباحًا كانت درجة الحرارة في الخيمة أربع درجات مئوية؛ وفي مثل هذه الحالة لم نسر أبدًا لمنظر حوض الاستحمام المعد لنا، ولكن ماذا نفعل؟ كان علينا أن نتعود على مشقات الأسفار، وبعد أن لبسنا بسرعة وتناولنا بعض الشاي انطلقنا بقافلتنا الساعة الثامنة لنتم سفرنا، بعد خروجنا من بلدة شتورة المحاطة بساتين الفواكه، وجدنا أن الطريق يتقاطع بنهرين، هما الليطاني ورافده نهر العنجر.

على يسار الطريق المعبد رأينا أنقاض بعض الحيطان وأكوام الحجارة والأعمدة من زمن غير معروف؛ حسب المعلومات التي وصلت إلينا عرفنا أن عصر ازدهار كلسيس (؟) كان في عهد بطليموس؛ لأن المؤرخ استرابو ذكرها ووصفها كعاصمة لولاية كبيرة، وبعد قليل لفت خليل انتباهنا إلى المعبد القديم الواقع على ربوة صغيرة، والذي ما زالت جدرانه سليمة إلى حد ما، وقد عدّه علماء الآثار أقدم من أبنية بعلبك وتدمر، وأنه ما زال أنيقًا كما يقولون.

في منتصف النهار وصلنا إلى مثوى لمبيت القوافل، الذي كان عبارة عن بناء مفتوح من جانب واحد، وفي وسطه نافورة جميلة من الماء الزلال، أما الظل والبرودة في هذا المكان فكان شيئًا مرغوبًا لنا بعد تعبنا من الطريق الحار المغبر، ولهذا قررنا أن نتوقف هنا ونتناول بعض الأطعمة، في أثناء توقفنا وصل إلينا

استروغانوف، وهنا لأول مرة أدهشنا السوريون بمعاملتهم الشاذة للخيول، كانت فرس استروغانوف بسبب عرقة السفر الطويل، وعلى الرغم من ذلك إلا أن أحدهم أخذها ليسقيها وتركها تشرب حتى تشبع، وقد رد خليل على اعتراضنا أن هذا من عادات السوريين والبدو، وأن هذا لا يجلب عواقب وخيمة أبدًا.

لقد أخبرنا استروغانوف أنه استلم رسالة عاجلة من نيليدوف يخبره فيها عن منحنا تصريحًا لازمًا لإدخال الأسلحة عبر الجمارك، التي سترد غدًا مباشرة إلى دمشق، في الثانية بعد الظهر انطلقنا لنتابع السفر، وقبل وصولنا إلى سفح سلسلة جبال لبنان الشرقية دخلنا إلى وادي الحرير المتعرج وكثير الارتفاعات والمنخفضات، التي تمنحه منظرًا جميلاً جدًا، وقد استغل استروغانوف وشيرباتوف خلو المكان للتدرب على الرمي باستخدام الحجارة والصخور كمرمى لهم، في هذه الأثناء سبقتنا عربة كبيرة قادمة من بيروت، وقد بدا لي أن ركابها كانوا مندهشين من سمع طلقات نارية على الطريق المسالم.

بعد ذلك تمكنا من لحوق القافلة التي سبقتنا في أثناءتوقفنا، التي أصبحت تسير بنشاط بقيادة خليل، ظهرت خلف وادي الحرير هضبة صغيرة يخرقها جدول من الماء، عليه طاحونة مائية جميلة محاطة بالأشجار، ومن خلفها ظهر وادي القرن الذي يعدّ من أرهب الممرات في جبال لبنان الشرقية، ففي غابر الزمان كان هذا الوادي مكانًا مفضلاً لتجمع عصابات من اللصوص الذين كانوا ينهبون المسافرين.

كان طول هذا الثغر من أربعة إلى خمسة فرستات، يجري بطوله سيل جبلي سريع على القاع الحجري، ومن جوانبه تقع الأجرف والصخور، ينبت في شقوقه البلوط القزمي، وغيره من الأشجار والنباتات، وبعد أن تركنا خلفنا وادي القرن الكئيب ومسيله وجدنا أنفسنا في مكان واسع، ولكن لا أقل كآبة من الأسبق،

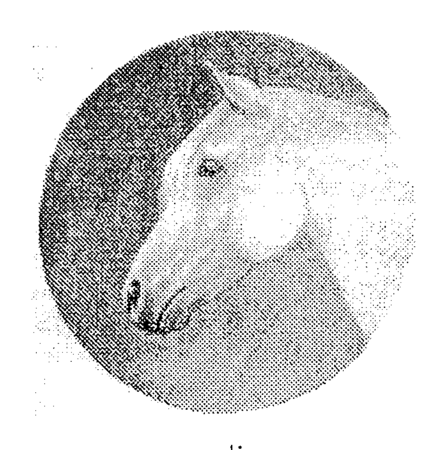
ومزين بالحقول ومزارع الكروم في كل مكان، نظرًا لتأخر الوقت أردنا أن نتوقف لنستريح، لكن خليلاً أرغمنا أن نتابع السير لنتوقف بعد ذلك في مكان أفضل منه.

بعد نصف ساعة ظهرت خلف منعطف الطريق بلدة الديماس المتناثرة على القمة والمنحدرات من المرتفع الحجري، لقد جعلنا خليل نمرّ بالقرب من البلدة، وأوصلنا إلى ساحة مسطحة على حافة الجرف العميق، وفي الوقت نفسه وصلت القافلة وبدأ العمل بنصب المخيم يجري على قدم وساق؛ البعض أخذ يثبت العصي، وهذا لا يستغرق إلا دقائق بفضل حسن تركيبها، والبعض الآخر أخذ يفحص الخيول أما البغالون فبدؤوا بعقد البغال، وبدأ يوسف بتشغيل الموقد في المطبخ المتنقل وفرعون يهيئ المناضد، وبعد مدة وجيزة أصبح كل شيء جاهزًا ومعدًا، وقبل أن نلحق بوضع الأمتعة ونتنظف من الغبار كان الشاي ينتظرنا على المنضدة.

قطعنا مسافة أربعين فرستا بسبع ساعات، أما القافلة فقطعتها بتسع ساعات[١]. كانت درجة الحرارة في المساء خمس درجات ريميور.



(١) في هذه الساعات المذكورة لا تحسب ساعات الوقوف، وكانت القافلة تسير دون توقف.



فارس

الفصل الثاني

الأربعاء ١٦ (٢٨) آذار، دمشق: كانت الحرارة في السابعة صباحًا خمس درجات ريميور، وبعد أن أتحنا فرصة للقافلة باللحوق بنا على مهل، انطلقنا في الساعة الثامنة إلى دمشق، التي تبعد خمسة عشر فرستا عن الديماس، وبعد الديماس يبدأ السهل المعروف بالصحراء، وهو مماثل للصحراء الكبرى في إفريقيا؛ أي الرملية والقاحلة، ولكن القسم الثاني من الطريق يختلف جذريًا عن أوله، ففي وسط الصحراء ينخفض الطريق فجأة إلى واد رائع، تنبت فيه أنواع مختلفة من النباتات، وتخرقه جداول كثيرة، وغزارة المياه فيه تؤثر في كل شيء: فهذه الصحراء الكئيبة تتحول فجأة إلى أراضٍ أكثر خصوبة في البلاد بفضل الرطوبة المرتفعة.

وعلى جانبي الطريق ظهرت القرى الصغيرة من خلال الأشجار، كما بدت بساتين الفواكه ومزارع الكروم والحقول والأشجار العالية التي تحيط بالطريق، أما في الجانب الأبعد فتبدو جبال شامخة تمنح هذا المنظر مزيدًا من الروعة والجمال، وقد بدا لنا هذا المنظر رائعًا وبخاصة بعد أن قضينا يومين في هذا الجو القائظ،

ومررنا بالمرتفعات والمنخفضات الخالية من الظل وقليلة النباتات، أما هنا فأصبحنا تحت ظلال الأشجار، واستمتعنا بالرطوبة والبرودة الصادرة عن الجداول والنافورات.

بعد بلدة دمر يصبح الطريق موازيًا لضفاف نهر بردى، حيث يتحول الوادي إلى ثغر ضيق محاط من جهتيه بصخور من الحجر الأبيض شديدة الانحدار، كما توجد في بعض مواضع من النهر سدود بدائية وبواسطتها تنقل المياه بالقنوات العريضة المعدة للري إلى الأماكن الأكثر ارتفاعًا في سهول دمشق المغمورة في خضرتها وممتلئة بالمياه، بعد نصف ساعة وصلنا إلى الفندق، وكانت الساعة الحادية عشرة صباحًا.

بعد تناول الفطور انطلقنا بعربتنا لمشاهدة المدينة، وبعد قليل وجدنا أن السير على الأقدام أفضل من الركوب، لأن الشوارع كانت ضيقة جدًا، ومكتظة بالمشاة وبسببها كانت عربتنا تسير بصعوبة وتكاد تدهس إنسانًا في أيّ لحظة، اتجهنا أولاً إلى الجامع الكبير(١). إلا أننا لم نستطع زيارته لعدم وجود التصريح اللازم لهذه الزيارة، يمتاز هذا الجامع بقدمه وبتوقيره عند المسلمين بوصفه مكانًا للعبادة.

ولكن أكثر ما نال إعجابنا في دمشق أسواقها التي تشكل أحياءً كاملة من الشوارع المسطحة، فيها دكاكين ذات منصات، يجلس عليها الباعة المحاطون ببضاعتهم، يشربون القهوة ويدخنون النركيلة، يبيعون ويتحدثون مع معارفهم، باختصار يمارسون حياتهم اليومية على مرأى من الناس، وفي داخل الأبنية توجد دكاكين أيضًا ومستودعات كبيرة وغرف للعيش، وإذا أراد أحد الزبائن مشاهدة البضاعة ذات النوعية الجيدة، فعليه الدخول إلى ذلك القسم الداخلي للسوق، حيث تخزن أجود النماذج للإنتاج الشرقي، كالأقمشة الحريرية والقطنية والصوفية والأنسجة من الشاش والكتان، منها سادة، ومنها مطرزة بالحرير والذهب؛ كما

---

(١) المقصود الجامع الأموي، المعرب.

توجد سجاجيد بأنواعها المختلفة، وكوفيات وعباءات، منها سادة أيضًا ومنها حريرية عليها زخارف بلون الذهب أو الفضة، اختصارًا هنا تباع أجود الإنتاجات من آسيا الصغرى وبلاد فارس والهند وكشمير وإفريقيا، ومن جراء ذلك تشتهر دمشق بغنى أسواقها في الشرق كله.

لكن أظرف ما رأيناه في هذه الأسواق الشوارع نفسها مع نشاطها الهائج وحيويتها الشرقية الأصيلة، وكنا نصادف أرتالاً طويلة من البغال والجمال مربوطة الواحدة بذيل الأخرى، وهي بديل لوسائط النقل الموجودة عندنا، وتستخدم لحمل الأثقال والبضائع، كما صادفنا خيولاً للرتل والحمير الصغيرة، التي كانت مخفية تحت أحمالها من العشب المجفف والحطب القشاش وغيرها، فلا يكون أي شيء مرئيًا سوى الأرجل النحيلة من تحت، والأذان الطويلة الظاهرة من أمام، ثم رأينا تجارًا ذوي مقام كبير في المجتمع وغيرهم من السكان المحليين يمتطون حميرًا رائعة وكبيرة الحجم، منها بيضاء اللون، ومنها سوداء اللون، مقصوصة الشعر ومزينة بالسروج الأنيقة والأرسان، أما الراكبون فكانوا يرتدون ملابس الأغنياء كالأرواب الحريرية والكوفيات والعمائم البيضاء، وبقربهم يركض السواس حفاة الأقدام، كما لاحظنا تباينًا كبيرًا بين هؤلاء الأغنيا وأحد السكان المحليين بجانبهم كان يرتدي ملابس مهترئة مكونة من سروال أزرق عريض، يرتديه رجال الطبقة الأدنى، وسترة قصيرة من اللون نفسه، أما ساقاه الطويلتان فتكادان تمسان الأرض؛ لأن حجم حماره الأشعث والمتسخ لا يزيد عن حجم كلب كبير، وإلى أي درجة كانت حمير الأغنياء منعمة ووقورة وتمشي مشية سريعة ومنتظمة، محركة آذانها الطويلة، بالدرجة نفسها كانت حمير الفقراء هزيلة وحقيرة، ولو أنها وضعت آذانها إلى الخلف، وهي تدلف بأرجلها النحيلة، ومنظرها مضحك، ولكنها ليست أبطأ في سيرها من إخوانها الأكثر سعادة.

دمشق مشهورة بحميرها السوداء والبيضاء، والحمار الأسود يستخدم لإنجاب البغال، وقد صعب علينا التصور في بادئ الأمر أن هنا يوجد هذا النوع من الحمير؛ أي كبيرة ومتينة البنية، حيث إننا لم نر مثلها في سوريا والجزيرة العربية، والبغال أيضًا كانت رائعة، ولو أنها أصغر حجمًا من التي في إسبانيا وفرنسا، ولكنها أكثر منها قوة وصبراً.

من بين هذه الأعداد الكبيرة من الحيوانات المختلفة والعربات القليلة (لحسن الحظ) رأينا مشاة يمشون في هذه الشوارع، ولذا فأسواق دمشق عبارة عن كتلة متحركة من الناس والدواب المختلطين بشكل فوضوي، يسمع منها الضجيج من الصرخات والمحادثات والمجادلات، ويستمر هذا الهدير في الأسواق من الصباح حتى المساء.

لقد استمتعنا كثيرًا بطرافة هذه المناظر، ونحن نتجول في الأسواق، كما تمكنّا من زيارة بعض الدكاكين؛ لنقدر البضاعة ونستفسر عن أسعارها، ولكننا أجلنا شراءها حتى عودتنا من الجزيرة العربية، وفي الساعة الخامسة عدنا إلى مخيمنا الذي نصب في بستان على ساحل ترعة.

كانت الحرارة في المساء ثلاث درجات ريمور، ففي مثل هذا الفصل من السنة عندما لا يزال الثلج يغطي الجبال تكون الليالي باردة.

الخميس ١٧ (٢٩) آذار، دمشق: كانت درجة الحرارة صباحًا خمس درجات ريمور في الظل، وتحت أشعة الشمس عشرون درجة، وفي الظهيرة وصلت الحرارة من ثماني عشرة إلى سبعة وعشرين درجة، ونزلت في المساء إلى خمس درجات.

قضينا صباحنا في مشاهدة الخيول المعدة للبيع والمتوسطة من نوعها، عدا واحد منها، وهو الحصان الأبيض الكحيلان السويتي، كان هذا الحصان مكتنز البدن ومتأنقًا بدرجة عالية، وكان ارتفاعه حوالي ثلاثة فيرشوكات[1]، أصيل الرأس

(١) المقصود: «أرشينان وثلاثة فيرشوكات» أي ١,٥٥ سم تقريبًا، المعرب.

والرقبة، فكان طرازه يذكرنا بالجياد الخابّة من السلالة الأورلوفية، كما شاهدناها في الصور القديمة المحفورة، وتبين لنا أن شعر الحصان كثيف بالمقارنة مع الحصان العربي، وهذا ما جعلنا نشك في أصالته، على الرغم من أن الشيخ نصرًا حاول إقناعنا أنه ولد في الروالة وأنه أصيل؛ ولكننا لم نجرؤ على شرائه وبخاصة أن ثمنه كان غاليًا.

بعد أن عرف الدمشقيون رغبتنا في شراء الأحصنة للركوب، أخذوا يقدمون لنا كل ما كان عندهم من الخيول الجيدة، ولكن لم يرض رغبتنا أيًا منها، فقررنا أن نكتفي مؤقتًا بالخيول المستأجرة، آملين أن نجد عند البدو خيولاً مقبولة أكثر من هذه في المستقبل القريب.

في المساء ذهبنا إلى الأسواق من جديد لنشتري هدايا للشيوخ الذين سنتعامل معهم، وذلك اعتمادًا على التعليمات من كتاب الزوجين بلانت، اشترينا العباءات والكوفيات البسيطة أو المطرزة بالذهب والفضة، كما اشترينا أحذية غالية حمراء اللون مصنوعة من السختيان التي يحبها البدو كثيرًا، وبعد أن جربنا الشمس الحارقة في هذه المناطق وجدنا أنه لا بأس من الحصول على العباءات نفسها والكوفيات لنا وللبحارة، أما شيرباتوف فلم يجد أي حاجة لشراء الألبسة المحلية واكتفى بخوذته الهندية وردائه الطويل، عدا ذلك اشترينا السجاجيد الفارسية والوسائد لاستقبال الزوار من البدو، الذين لا يعرفون الجلوس إلا على الأرض متربعي الأرجل كجلسة الأتراك، في كل الدكاكين التي زرناها قدموا لنا القهوة والعصير الممتاز.

بعد عودتنا إلى المخيم عرّفنا خليل على بدويين سيكونان مرشدينا إلى القبائل البدوية، ولو أن موقعهم غير معروف تمامًا، لأنهم يتنقلون من مكان إلى آخر باستمرار، عندما ينفد كلأ المرعى، ولا يتوقفون في مكان واحد أكثر من يومين أو

ثلاثة أيام، وما داموا يتنقلون في الربيع من الجنوب إلى الشمال أملنا أن نجدهم قرب تدمر. لم يكن البدوي الأكبر من الآخر شيخًا للقبيلة، إلا أن الناس كانوا ينادونه بالشيخ نصر أدبًا منهم، ومن جهة أخرى احترامًا لانتسابه إلى عشيرة الشيوخ المعروفة بابن مرشد، التابعة لقبيلة القموصة، وبسبب أن أبناء القبائل البدوية المتنقلة في شمال الجزيرة العربية لا يقبلون الحكم التركي ويعدون أنفسهم مستقلين عنه، تؤمن الحكومة المواصلات الحرة بين دمشق والمدن الواقعة على الفرات، وذلك بدفع الإعانة السنوية لبعض البدو مقابل مرافقتهم القوافل والبريد وحمل المسؤولية على سلامتها، وهذا ما كان يفعله نصر خلال السنتين الأخيرتين لحين تعرفنا عليه.

كان نصر طويل القامة في حدود الثلاثين وشكله شرقي وسيم؛ وكان وجهه الأسمر يحمل ملامح منتظمة بلحية سوداء وعينين معبرتين تجذبان كل الناس كما أن وقاره وهدوءه الرزين كانا يفعلان كذلك، أما صاحبه عبد العزيز فكان إنسانًا بسيطًا، ولا يمتاز بعقل كبير، وكان ينتمي إلى قبيلة عجيل التي يعمل أعضاؤها في حظائر الإبل، ويتمتعون بسمعة الناس الأمناء.

دخل مرافقانا الجدد الخيمة وسلما على الطريقة الشرقية؛ أي بالانحناء ومس الأرض ثم الصدر ثم الفم ثم الجبين، بعد ذلك جلسا مع استروغانوف وشيرباتوف على السجاجيد المعدة لهم، ثم أحضرت القهوة والدخان؛ لأن الزيارات في الشرق لا تستغني عن هذه الأشياء، وبدأت المناقشة بينهم وبمساعدة خليل المترجم، كنا نريد أن نعرف أين يوجد البدو وأي من القبائل يمكننا زيارتها وما عدد الخيول الموجودة عندهم، ثم تحول موضوع المناقشة إلى أجناس الخيول وأوصافها وغيرها، كان هذا هو المحور الأساسي لأحاديثنا المتواصلة والممتعة.

الجمعة ١٨ (٣٠) آذار: مرة أخرى قضينا الصباح كله في مشاهدة الخيول أيضًا دون أي نتيجة، في الثانية عشرة تحركت قافلتنا باتجاه تدمر، وقد استطعنا زيارة عدة

اسطبلات، كما زرنا ثريًا دمشقيًا اسمه بردي بيه، فشاهدنا عنده فرسًا جيدة، عربية أصيلة عمرها ثلاث سنوات، وهي من سلالة أبو عرقوب، وكانت هذه الفرس تشبه بشكلها فرسًا إنكليزية أصيلة أو حصانًا من سلالة قابايشان العمير الأبيض، وهو ليس بسيئ ولكنه جلف بعض الشيء.

بعد أن تركنا استروغانوف في دمشق؛ ليكمل بعض أعماله، انطلقنا أنا وشيرباتوف باتجاه أول محطة ركوب في بادية الشام، وبعد ركوبنا الطويل بشوارع دمشق اللانهائية، وجدنا أنفسنا على الطريق المعبد والمتعرج بين البساتين ومزارع الكروم والزيتون وغيرها من الأشجار بشكل جميل، وبعد أن تجاوزنا عدة قرى، وتركنا خلفنا النبات الغني في ضواحي دمشق، أصبحنا في المنخفض المليء بمزروعات القمح والشعير، وكانت الأشجار ترى من بعيد في عدة أمكنة كدليل على وجود القرى، ومن جهة شمال شرق رأينا سلسلة جبلية، هي سلسلة جبال لبنان الشرقية.

بعد أن قطعنا خمسة عشر فرستا وصلنا الساعة الخامسة إلى مخيمنا المنصوب والمجهز بكل شيء.

كانت الحرارة نهارًا عشرين درجة في الظل، وفي المساء نزلت إلى خمس عشرة درجة، فقضينا ليلة دافئة تمامًا أول مرة.

السبت ١٩ (٣١) آذار، جيرود: تحركنا في الثامنة والنصف صباحًا وبدأنا بالصعود إلى مرتفع جبلي ليس عاليًا ولكن صخري، وقد استغرق صعوده حوالي ساعة من الوقت، ومن الأسفل المقابل لهذا المرتفع الجبلي يبدأ سهل واسع يمتد حتى الأفق الشرقي، محاط من الشمال بخط من الجبال المنخفضة وكثير الحجارة، كما أن هذه الأمكنة كثيفة السكان وآمنة للمسافرين تمامًا وبخاصة أن الدوريات التركية الموجودة في كل مكان تحمي السكان من هجمات القبائل المجاورة المتوحشة.

توقفنا الساعة الثانية عشرة لنأكل في ظل الأشجار على طرف إحدى القرى، وبعد ساعة انطلقنا من جديد، ما زال الطريق مطروقًا قاطعًا حقول الشعير والقمح البادئة بالنضوج، وكان السكان المحليون الذين صادفونا في الطريق ينظرون إلينا بدهشة، سواء أكانوا مشاة أم راكبي الخيول، ولكن إذا سُئل أحدهم كان يجيب بأدب، وأخيرًا ظهرت من البعد سقوف منازل مدينة جيرود، حيث سنتوقف لننهي مشوارنا لهذا اليوم، وقبل دخولنا إلى المدينة رأينا أنابيب المياه التي تحت الأرض كانت محاطة بأكوام من التراب الأبيض والحصى، وفي جهة الشمال على بعد فرستا واحدة رأينا متاريس مماثلة تدل على وجود أنابيب مياه أخرى، توجد مثل هذه الأقنية الموضوعة تحت الأرض في كل مكان من آسيا الصغرى وبلاد فارس، ومحتمل أن الكثير منها موجود منذ مئات السنين؛ إنها أقنية محفورة من ٦ حتى ١٢ أرشينًا تحت سطح الأرض، وعليها ثغور تبعد عن بعضها من ٥ إلى ٦ ساجينات، لا يحتاج مثل هذا التكوين إلى جهود كبيرة مثلما تحتاجها المجاري المفتوحة، كما أنها تخفف من التبخر، وهي ظاهرة منتشرة في الأقاليم الحارة.

ثم بدأنا نتهيأ لراحة النهار ليوم الغد، ونبحث عن مكان مناسب للتوقف بحيث لا نكون قريبين من مساكن المدينة، بل قريبون من الماء، فوجدناه على مسافة نصف فرستا عن جيرود بين أنابيب المياه والبحيرة الصغيرة المحاطة بالأشجار، شاهدنا في الجهة الشمالية من مخيمنا سلسلة جبلية، وهي سلسلة متفرعة عن جبال لبنان الشرقية الممتدة حتى تدمر، أما في الشرق فتبدأ بادية الشام.

في الساعة السادسة وصل استروغانوف وفاسيلي من دمشق، وما دمنا قد دخلنا البلاد المجهولة لنا، قررنا القيام بحراسة ليلية مدتها ثلاث ساعات بالمناوبة، وذلك ابتداء من السادسة مساء، كان هذا الواجب على فاسيلي وثلاثة بحارة كلفوا

بالحراسة بالدور وهم مسلحون بالبنادق، قطعنا المسافة الأخيرة أي أربعين فرستا بخمس ساعات ونصف، أما القافلة فقطعتها بثمان ساعات ونصف.

الأحد ٢٠ آذار (١ نيسان) جيرود: كان الجو حاراً على الرغم من هبوب الرياح، في المساء أخذ استروغانوف وشيرباتوف بنادقهم وذهبا إلى قمة الجبل المجاور سيراً على الأقدام لتعرف المنطقة المحيطة بنا ولصيد الحجلات وغيرها من الطرائد، وقد وصلا القمة فعلاً وبصعوبة إلا إنهم لم يجدوا لا طيوراً ولا حيوانات، فعادوا بعد حلول الظلام.

في المساء جاء خليل ومعه البدو والجمال لحمل المياه لعدم وجودها في أكثر المناطق الصحراوية.

بما أن القافلة أصبحت جاهزة تمامًا لا بأس من أن أصف أعضاءها باختصار، ما عدا البدو كان فيها بعض المارونيين، نالت هذه الطائفة الدينية اسمها من أحد السوريين، اسمه مارون، الذي ترك الإسلام، واعتنق الديانة الكاثوليكية، وبعد أن أصبح راهبًا أخذ يدعو أبناء قبيلته إلى الدين المسيحي، وبقي يفعل كذلك حتى وفاته سنة ٧٠١ ميلادية، وكان أتباعه يمارسون الكاثوليكية بدرجة عالية من الغيرة والتعصب، وتشهد على ذلك كثرة الأديرة مما لا يتناسب وعدد السكان، ومن جراء ذلك كانت مكانة المارونيين بارزة بين الطوائف المسيحية في العالم، وللكنيسة المارونية بطريركها الخاص من أصل سوري نال مقامه في روما، وقد أسس البابا غريغوري الثالث عشر في روما هيئة للطلاب المارونيين، وهؤلاء الطلاب يجب عليهم العودة إلى أوطانهم عند انتهائهم من الدراسة التي تمنحهم وظائف كنائسية هامة، يعيش معظم أعضاء هذه الطائفة في جبال لبنان، ويعملون بالزراعة، ويتمتعون بالشجاعة والاستقلال.

كان الشخص الأساسي في قافلتنا بعد الشيخ نصر وخليل خادم البوفيه فرعون عون (عون: اسم عائلته)، كان فرعون إنسانًا مسنًا، ويبدو على ملامح وجهه التركيز والإمعان، كما كان إنسانًا مجاملاً وخدومًا على الرغم من عبوسه وتذمره، ومن بداية الرحلة كان يؤدي واجباته الصعبة بلا تذمر، وما عدا خليل الذي كان يجيد الفرنسية، كان فرعون الوحيد الذي استطعنا أن نتفاهم معه، كان فرعون سكوتًا، ولكننا إذا استطعنا أن نحمل عليه عندئذ يتلهى بقصصه التي كان يقصها باللغة الفرنسية المكسرة.

كان مساعده أسعد طويل القامة وعريض الكتفين، وكان مزاجه مرحًا بعكس سيده، كما كان يتكلم ويمزح مع البحارة كثيراً، وتعلم منهم بوقت قصير بعض الكلمات الروسية، وكانت رتبة يوسف الطباخ ثالثة بدرجتها، وكان يتقن مهمته بشكل ممتاز، ويتميز بمجاملته واجتهاده، وكان مساعده شاب بحدود الثامنة عشرة، واسمه يوسف أيضًا، وهو الوحيد الذي كان يتبع قافلتنا سيراً على الأقدام، أما أسعد فكان يمتطي حماره والبقايا يمتطون أحصنتهم، وإضافة إلى ذلك حمل فرعون ويوسف على حصانيهما لوازم البوفيه والمطبخ، وجلسا فوقها، وهذا ليس بشيء مريح.

كما كان معنا ثلاثة سواس هم: سمعان وصالح وحسين، وكان سمعان وصالح شابين مرحين، يرافقاننا بالبلغة والخيمة في كل الأمكنة ركوبًا على الخيل، وتنتهي قائمة أعضاء قافلتنا بسبعة بغالين وحمّالين، وهكذا كان عددنا إجمالاً بما في ذلك البحارة ونحن ستة وعشرين شخصًا، كما كان في القافلة اثنان وأربعون حيوانًا، منها: ١٦ بغلاً للنقل، و ٦ جمال للنقل، وجملين تابعين للبدويين اللذين يرافقاننا، كما كان معنا ٦ حمير للنقل، و ١٢ فرسًا، ولا بد من التذكير عن عضو آخر في بعثتنا وهو الكلب «بيلكا» كما سميناه، هذا الكلب انضم إلينا في دمشق

دون دعوة منا، ولم يتخل عنا منذ ذلك الحين، فقد كان يحرس مخيمنا بنشاط، ويطرد عنه كلابًا ضالة بعنف، وقد ارتبطنا كثيرًا بهذا الكلب الأبيض غير الجميل، وأردنا أن نأخذه معنا إلى روسيا بعد نهاية رحلتنا، ولكنه اختفى مع عودتنا إلى دمشق.

قضى يوسف نهاره بانشغاله لاختيار حمار للركوب بمساعدة أسعد، وكل البغالين الذين عاونوه بنشاط، وكان يوسف شابًا فقيرًا، ولم تكفه أمواله لشراء الحمار لذلك أشفق عليه استروغانوف وقدم له حماره هدية.

الاثنين ٢١ آذار (٢ نيسان) القريتين: استيقظنا في وسط الليل على طلقات نارية، واتضح أن سببها ذئب اقترب إلى مخيمنا، فأطلق بلاتوف النار عليه إذ حدث ذلك في أثناء مناوبته.

لم ننطلق هذه المرة إلا في التاسعة صباحًا مقررين الوصول إلى القريتين خلال يومين، وقد انطلقت الإبل قبلنا بيوم واحد محملة بالمياه لعدم وجودها التام في كل المنطقة على بعد ستين فرستا وأكثر، عدا قرية قطنا الصغيرة، التي تبعد ساعة واحدة ركوبًا عن جيرود، وبعد ابتعادنا عدة فرستات لاحظنا أن كمية المياه المأخوذة لا تكفي لسقاية كل الحيوانات في القافلة، لذلك قررنا الذهاب إلى القريتين للتزود بالماء دون أن نتوقف بها.

كان طريقنا يقع في واد مستقيم عرضه من ثلاث إلى ست فرستات، تمتد بطوله ممرات الإبل والخيول كثيرة العدد، وفي الطرفين امتدت جبال قليلة الارتفاع، وكانت التربة حجرية ورملية ينبت عليها عشب نادر وشجيرات الشوك، كما شاهدنا في كل مكان أنقاض القصور والأبراج ومثاوي لمبيت القوافل.

بعد خروجنا من جيرود رأينا قطيعًا من الغزلان، إلا أنها ما إن سمعت صوت حوافر خيولنا حتى هربت إلى الجبال واختفت عن أنظارنا، بعد قليل رأينا ثعلبًا فتتبعته أنا وفاسيلي لمسافة فرستا ونصف.

كان سيرنا مستقلاً عن القافلة التي كانت تسير في منطقة ممهدة بسرعة تتراوح بين ثلاثة ونصف وخمسة فرستات في الساعة، كان الشيخ نصر يرافقنا ومعه خليل وفاسيلي وسمعان وصالح، وكان الاثنان الأخيران يمتطيان الخيول المحملة بالأطعمة، والجزء الأعلى من خيمة استروغانوف الصغيرة التي كنا ننصبها لتناول الطعام ونستريح فيها في منتصف النهار مدة ساعة ونصف.

على بعد خمس عشرة فرستا عن القريتين يبدأ مرتفع صغير وخفيف الانحدار وتبدأ خلفه منخفضات ومرتفعات متتالية، وتنتهي بمنحدر طويل عند المدينة الواقعة على شاطئ نهر صغير، مياهه نقية نسبيًا، وقد خيل لنا الجزء الأخير من العبور طويلاً جدًا بعد أن تعودنا الممرات القصيرة، فتعبنا كثيرًا، فكنا ننزل عن خيولنا لنمشي سيرًا على الأقدام، ثم نعود نمتطيها من جديد، ونغير وضع جلستنا على السرج كل دقيقة، ولكي نتسلى قليلاً ركبنا أنا واستروغانوف على «ماشكا» كما سمينا دلول الشيخ نصر، لقد سئمنا كثيرًا من الربوات الصغيرة، فقد كان يخيل لنا من قممها أننا سنرى القريتين، في حين لم تكن هناك سوى تتمة المنطقة المتموجة.

مالت الشمس إلى الغروب، والقرية لما تظهر بعد، وعندما حل الظلام سبقنا أنا وشيرباتوف وفاسيلي الجميع، ووجدنا أنفسنا أمام الجدار، فوقفنا ننتظر قدوم البقية، عندما وصل البقية انصرف الشيخ نصر إلى الأمام ونحن نتبعه سيرًا على الأقدام، ساحبين خيولنا بالأرسان، ونتعثر في الظلام بأقنية الري والحصى الصغيرة، قد تكون مجاري أنهار جفت، ثم وصلنا إلى مدخل المدينة، واستغرقنا وقتًا طويلاً في استئناف سيرنا عبر الأزقة اللامتناهية والمتعرجة بين الحيطان الطينية العالية.

كل شيء له نهايته، وكانت نهاية سيرنا بوابة وصلنا إليها، وأخذ مرافقنا يدق عليها مدة طويلة دون أن نرى أو نسمع شيئًا، فقد خيم الهدوء التام من حولنا، لا

تخرقه سوى أصواتنا ووقع حوافر خيولنا المنهكة مثلنا بعد السير الطويل فهي متشوقة لتناول العلف والاستراحة، وفي هذا الموقف المحيط بنا شعرنا بشيء غريب وغامض أوحى إلينا بذكريات رحالة القرون الوسطى، الذين يدقون أبواب المجادل طالبين المأوى، ومن تحتهم ترسم شبح الشيخ نصر بلا وضوح، وهو يرتدي العباءة والكوفية واضعًا حربته على كتفيه، كما ترسمت أشباح خليل وصالح وسمعان، وكلهم يرتدون سرابيل غير مألوفة لنا، غير أن أزياءنا كانت خيالية كذلك، وقادرة على أن تدعم أوهامنا أننا انتقلنا إلى قرن آخر، وإلى عالم غير عالمنا.

أخيرًا سمعنا وقع خطوات، ثم بان النور، وفتحت البوابة، دخلنا إلى فناء كبير ومحاط بالجدار ومبان واطئة مبنية من اللبِن، إنه مقر الشيخ فياض، كان صاحب الدار غائبًا، وينوب عنه أخوه الذي أدخلنا إلى غرِفة واسعة ونظيفة جدًا ومكلسة الجدران، وعلى طرف الغرفة منصة مرتفعة، مغطاة بالسجاجيد والوسائد فجلسنا عليها بدعوة من صاحب الدار، بعد قليل أحضر طعام القرى الذي كان موضوعًا على صينية نحاسية، عليها طاسات مليئة بالأرز والحليب والتمر والخبز وبعض الأطعمة التي لا نعرفها، ولم نمسها من الحذر، كانت الساعة بين التاسعة والعاشرة ليلاً، لأننا لم نأكل شيئًا منذ الظهيرة وكنا جائعين جدًا أكلنا بشهية كبيرة وبخاصة أننا لم نأخذ زادنا معنا، بعد أن أخمدنا جوعنا دخل أصحاب البيت وفرشوا لنا الشراشف على الأرض، فاستلقينا عليها ثلاثتنا، ونمنا دون أن نخلع ثيابنا.

وصلت قافلتنا في منتصف الليل بعد أن قطعت اثنتين وستين فرستا بخمس عشرة ساعة، في حين أننا قطعنا المسافة نفسها بعشر ساعات.

الثلاثاء ٢٢ آذار (٣ نيسان) القريتين: استيقظنا في الصباح الباكر ثم شكرنا أصحاب البيت على حسن ضيافتهم، واتجهنا إلى المخيم، ووجدناه جاهزًا تمامًا، ثم

اغتسلت في حوض من الماء البارد والنقي، الذي جلب من نهر جار على مسافة قصيرة من الخيم، فانتعشت من هذا الحمام، ونسيت تعب وإرهاق أمس.

بعد الفطور ذهبت لزيارة زوجة الشيخ فياض، فاستقبلني عند باب البيت ابنه الأكبر، وبعد أن ترك خليل في الخارج أخذني إلى الحريم، حيث يمنع الدخول للرجال الغرباء، دخلت غرفة كبيرة مفروشة بالأرائك بطول الجدران، وكانت مليئة بالنساء والأطفال، فصرت في وسطهن، بعد أن جلست في مكان محترم تلبية لدعوة صاحبة البيت، ثم سلمت عليهن وقلت بعض الألفاظ الترحيبية الشرقية وانصرفت إلى الحديث معهن الذي كان موضوعه الأولاد وبعض الأسئلة والأجوبة السهلة، لكن ذخيرتي اللغوية العربية نفدت بعد قليل، فخيم الصمت الذي لا يخرقه سوى تبادل النساء ببعض الألفاظ التي تخصني أنا بلا شك، لم يكن وضعي مضحكًا فحسب، بل كان حرجًا أيضًا، فلذلك أسرعت بالقيام وتوديع زوجة الشيخ بعد أن قدمت لها ولابنها كوفيتين هدية.

القريتين قرية كبيرة، يسكن فيها الفلاحون المسلمون والعديد من المسيحيين معظمهم من المارونيين والكاثوليكيين، وعندهم كنيسة مع قسيسها، يعمل السكان بالزراعة وتربية المواشي ويعاشرون البدو باستمرار.

في النهار أحضر إلى المخيم حصان للبيع من سلالة سعادان طوقان، لكن جودته كانت متوسطة.

الأربعاء ٢٣ آذار (٤ نيسان) مقر الشيخ فياض: كان انتقالنا اليوم إلى جهة شمال شرق حيث يستغرق سبع ساعات حسب سرعة القافلة؛ أي ٢٥ فرستا، انطلقنا الساعة الثامنة صباحًا عازمين على الوصول إلى مخيم البدو ولد علي، كان الطريق الضيق في البداية ممتدًا على منطقة مرتفعة، وعلى يمينه تظهر سلسلة جبلية حجرية شديدة الانحدار، لا تختلف كثيرًا بطبيعتها وتربتها عن التي رأيناها أمس،

في الساعة الثانية بعد الظهر استأنفنا سيرنا، ولم نقطع ستة فرستات حتى بلغنا مقر الشيخ فياض، فتوقفنا فيه بفضل العادات البدوية الحسنة التي لا تسمح التردد على دعوة من صاحب البيت وإلا فهذا يعتبر شيئًا في غاية الفظاظة، كما كان الدخول شيئًا لا بد منه في مثل حالتنا لنعبر عن شكرنا للشيخ على الاستضافة الحسنة التي لقيناها في القريتين من قبل عائلته.

في أثناء نصب مخيمنا دعانا الشيخ فياض إليه وقدم لنا القهوة، كان فياض نصف فلاح ونصف بدوي، كما كان غنيًا ومنظورًا وذكيًا ومثقفًا نسبيًا، إلا أنه لم يكن موضعًا للثقة، كان موضوع حديثنا يدور حول الخيول بشكل خاص، وقد أثبت لنا الشيخ ما قاله الشيخ نصر سابقًا عن جيل خاص من الخيول الموجودة في الرياض عند ابن السعود، التي لا توجد عند عنزة، وهذا الجيل الممتاز يسمى بكحيلان القروش[1]، إلا أن الزوجان بلانت نفيا هذا القول لأنهما لم يريا في الرياض مثل هذه السلالة، كما كان تصديق كلام فياض صعبًا، لأنه كان يتكلم بتردد.

أرانا فياض فرسيه الكميتتين على أساس أن الواحدة منهما من سلالة صقلاوي جدران، عريضة جدًا، ولكنها قصيرة، ورأسها ركيك؛ والأخرى من سلالة صقلاوي عبيري متمددة، سيئة المؤخرة، غليظة الرأس، وأنيقة في آن واحد، على أي حال لم تنالا إعجابنا لعدم تأكدنا من أصالتهما.

---

(١) من تعليقات المؤلفة سنة ١٩٠٠ : تأكدنا من صحة هذا القول في نهاية رحلتنا الأولى وخلال رحلتنا الثانية إلى الجزيرة العربية سنة ١٩٠٠، في سنة ١٨٨٨ وفي أثناء عودتنا إلى دمشق اشترى استروغانوف حصانًا من سلالة كحيلان القروش المولود عند محمد دوخي بن سمير شيخ ولد علي، في سنة ١٩٠٠ شاهدنا هذه السلالة في دير الزور، حيث أحضر بدوي من قبيلة حرسة (؟) من فدعان، فرسًا مولودة من أب كحيلان القروش، كما شاهدنا فرسًا أخرى مولودة من أم كحيلان القروش عند البدو من قبيلة الروالة في مخيمهم الواقع في الجنوب من دمشق، من المحتمل أن مثل هذه السلالة التي لا توجد إلا في الرياض انتقلت إلى قبيلة عنزة عن طريق الغزوات.

الخميس ٢٤ آذار (٥ نيسان) مقر الشيخ ولد علي: قضينا ليلتنا دون قطرة واحدة من الماء، وذلك إذا لم نحسب بركًا من الماء العكر والقذر تشرب منها الناس والحيوانات، والطريق بين تدمر والقريتين يخلو تمامًا من الآبار والجداول عدا هذه البِرك التي تظهر في الربيع التي يبعد بعضها عن بعض مسير ٤ أو ٦ ساعات.

مررنا اليوم بمناطق وعرة وجبلية وصادفنا فرقًا من قبيلة ولد علي التي تنتقل إلى الشمال مع قطعان ماشيتهم وإبلهم لقلة أعشاب المراعي، فالبدو بعادتهم لا يبتعدون هكذا، ولكن هذا العام كان عامًا قاحلاً وقليل الأمطار حتى إن الأعشاب جفت كلها على مرتفع تدمر.

أطلق استروغانوف النار على بنات آوى، ولم يصبها، توقفنا بعد ثلاث ساعات من السير لنستريح، وبعد وصول القافلة انطلقنا من جديد قاصدين مقر سطام الشيخ طيار، فوصلنا إليه الساعة الخامسة، ونصبنا مخيمنا بالقرب من خيمته.

طيار جزء من قبيلة ولد علي، التي بدورها تعدّ جزءًا من قبيلة عنزة، التي تسيطر على بادية الشام كلها، لم يكن سطام شيخًا لقبيلته فحسب، بل كان شيخًا لكل ولد علي؛ وبفضل قدرته على التفاهم مع السلطات التركية أصبحت الأفضلية الآن لمحمد دوخي بن سمير وهو سيئ العلاقات مع ابن سلفه فينتقل منفصلاً عنهم؛ أي جنوب القريتين، وفي الشتاء يتنقلون كلهم مع عنزة جنوبًا إلى صحراء الحماد.

قبيلة ولد علي مسالمة ورعوية، متحالفة مع السباع والفدعان، كما أن علاقاتهم بعضهم مع بعض متينة، تقول أساطير قبيلة السباع (أي الأسود)؛ إنهم انفصلوا عن أصحابهم منذ زمن ليس ببعيد، بعد أن كانوا قبيلة واحدة، فكان تنقلهم المعتاد بين بغداد ودير الزور.

هذه القبائل الأربعة من قبيلة عنزة مع قبائلهم الفرعية حسنة وعواجة[1] ينظرون بعداوة إلى إخوانهم من قبيلة أقوى منهم، وهي الروالة أو جلعاس، التي تتنقل جنوب ولد علي، ومن جهة أخرى كل أعضاء عنزة يشعرون بعداوة دهرية إلى قبيلة كبيرة ثانية في الجزيرة العربية، وهي قبيلة شمر الموجودة على طرف آخر من الفرات في منطقة الجزيرة.

كان انتقالنا ٣٦ فرستا إلى جهة شمال شرق.

الجمعة ٢٥ آذار (٦ نيسان) مقر الشيخ سطام: استغل شيرباتوف واستروغانوف استراحة النهار فرصة للذهاب إلى صيد الطيور قبل الفطور، إلا أن النتائج كانت بائسة وقد أكد الصيادان إخفاقهما كان بسبب سوء الذخيرة، وما دمنا قد أخذنا رحلاً كاملاً من الذخيرة المماثلة، لا ينبئ على نجاحنا في الصيد في المستقبل، فقد جرح استروغانوف حجلة ولم تستطع الطيران بعد ذلك، بل الجري فقط، إلا أنه لم يقتلها على الرغم من إطلاقه النار عليها عدة مرات.

تخبر أرصادي الجوية الشخصية لـ ٢٥ من الشهر أن الطقس كان باردًا ورطبًا مع هطول بعض الأمطار، وفي المساء هبت رياح شديدة، كادت تطير خيمنا في الهواء، أما ميزان الحرارة فأشار إلى ثماني درجات.

في النهار أحضرت بعض الخيول للبيع من سلالة صقلاوي عبيري وكحيلان أبو عرقوب وحدبان العنزخي (؟) وغيرها، وقد لاحظ استروغانوف أن أيًا منها لا تستحق انتباهنا عدا فرس واحدة بيضاء اللون، عمرها بحدود العشرين، وأصيلة دون شك، منتظمة الشكل، وحسنة الهيكل.

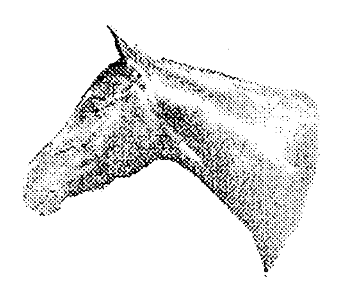
اليوم دعانا الشيخ سطام إلى الغداء، ولكنني شككت في فن طبخهم ونظافة طباخيهم وصحونهم، فلذلك نفيت هذه الدعوة بحجة صداع شديد، أما غيري

(١) عند المؤلفة «مواجة».

فكانوا مضطرين إلى إجابة الدعوة ورفضهم لها يعدّ إهانة كبيرة للشيخ، ولكن كما تؤكد حكايات الأطفال أن الفضيلة تتوج بالجائزة دائمًا، فإن نكران الذات من قبل شيرباتوف واستروغانوف كانت مكافئة بغداء لائق ولذيذ بعكس توقعهم.

يوم أمس ونحن نقترب إلى مكان التوقف، مررنا بجانب بركة صغيرة ماؤها أخضر فاتح، وكان قطيع من الأغنام يقف فيها، وفي المساء أُحضر شاي كريه الرائحة والطعم، فشربناه من شدة العطش وعدم وجود أي مشروب آخر، وبعد استفسارنا علمنا أن الماء للشاي أخذ من هذه البركة لعدم وجود المياه ضمن مسافة بضعة ساعات سيرًا على الأقدام، كانت هذه الصيغة في أتم نقائها بلون الشيكولاته، فاضطررنا إلى شربها دون أيّ توابل، فالليمون نفد كله، ولم تكن عندنا قطرة نبيذ عدا القليل من الكونياك، الذي أخذناه لمعالجة الأمراض، حاولت أن أصنع فلترًا (مصفاة) من علبة صفيح قديمة والفحم، ولكن تجربتي لم تنجح، فتحول الماء من اللون البني إلى الأسود.

***



حمد

الفصل الثالث

السبت ٢٦ آذار (٧ نيسان): كان الطقس اليوم ليس بأفضل من البارحة، واستمر هبوب الرياح من جهة شمال غرب، وميزان الحرارة يشير إلى ١٣، كما هطلت زخات منقطعة من المطر طوال النهار، لم يكن اجتياز خمسة وعشرين فرستا إلى الشمال طويلاً بسبب اضطرارنا إلى إرسال الإبل لإحضار الماء الموجودة على بعد خمس ساعات عن مكان مبيتنا، انطلقنا الساعة الثامنة وبعد نصف ساعة توقفنا عند مقر الشيخ ابن مزيد من قبيلة الحسنة المشهورة بخيولها منذ زمن بعيد، وتعدّ عشيرة ابن مزيد أولى في الصحراء، لأصالتها القديمة وشرفها.

هذا ما قاله استروغانوف في مذكراته عن الخيول التي شاهدها:

«الحصان الأمغر من سلالة حمداني سمري (؟) ارتفاع منبت رقبته قرابة متر ونصف، أنيق البدن وبرأس لا بأس به، وساقاه الأماميتان جيدتان، ولكنه ضعيف، وخصره ليس بجيد جداً، كان يذكرني بطرازه بخيول من السلالة الأورلوفية من مربي الخيل هرينوفسكي، كما أن الحصان الرمادي عمره سنتان، كان لا بأس به، أما الفرس البيضاء المبقعة التي عمرها ثماني سنوات من سلالة حمداني

سمري (؟) فكانت ممتازة؛ على الرغم من صغر عيونها، كان رأسها أصيلاً، وعظامها جيدة، وسيقانها نظيفة، وكفلها عريض، بالتأكيد ستكون أنثى فائقة في مربى الخيل، أما الخيول الباقية فلم تستحق أي انتباه ولو أنها من سلالة جيدة، والأسعار التي طلب منا جعلتنا نستغني عن أي صفقة».

الأحد ٢٧ آذار (٨ نيسان) مخيم الرحل المصراب: صادقنا في طريقنا اليوم خيم بني خالي (؟) للشيخ وائش، وهي قبيلة لا يعترف بها البدو، لأن أعضاءها يدفعون الإتاوات للحكومة التركية، تقدر هذه الإتاوات بعدد الأغنام، وقد أتى الجنود على مرآنا، وعملوا تفتيشًا على القطعان، لم نتوقف في مخيم الرحل هذا إلا مدة قصيرة لأن خيولهم كانت ركيكة جداً.

كانت منطقة عبورنا مشابهة للمناطق التي مررنا بِها في الأيام السابقة: السهول المتموجة نفسها والأعشاب النادرة والمصفرة نفسها، وقد صعب علينا تصور ـ على ما أكده السكان المحليون ـ أن هذه الأعشاب يصل طولها إلى آرشين وأكثر في السنوات الماطرة، في منتصف النهار قطعت رتابة المناظر تضاريس جبلية صخرية وعالية، وكان ينبغي علينا الصعود إليها عبر منحدر خفيف وطويل، ثم تنقطع التضاريس فجأة بواد، وبعدها يبدأ صعود شديد الانحدار إلى جبل آخر.

كان النزول من المنحدر صعبًا للجمال والبغال وبخاصة أن الحصى والصخور كانت متناثرة عليه، والحجارة بارزة، تتدحرج من تحت الأقدام، ولكن الحيوانات الذكية كانت تزن كل خطوة من خطواتها، وتنتقل بحذر، وهي تختار الأمكنة المناسبة للنزول، كانت درجة الصعوبة في النزول واضحة إذ إنّ القافلة نزلت من الجبل بعد ساعة ونصف، في حين أن نزولنا لم يستغرق أكثر من ثلث ساعة، فانتهزنا الوقت الباقي لتناول الطعام ومراقبة حركات القافلة من بعيد بانتظار وصولها.

حين كنا نصعد إلى الجبل رأينا ذئبين، وقبل وصولنا القمة بقليل لمحنا ابن آوى في شعب جبلي ضيق، وبعد لحظة رأينا ابن آوى آخر، وكلاهما هربا بسرعة ولم يتمكن أحد من إطلاق النار عليهما، وقد حاولنا ملاحقتها ركوبًا على الخيل إلا أننا توقفنا عن ذلك عندما وجدنا استحالة السير السريع في المناطق الوعرة، وبعد المعبر رأينا حلوفًا ضخمًا ومسنًا، كان شيربانوف قد هيأ بندقيته فأطلق النار عليه، فخيل لنا في بادئ الأمر أن محاولته كانت غير ناجحة لأن الخلوف انطلق بسرعة هائلة إلى الجبل بعد إطلاق النار عليه مباشرة، ولكنه قطع حوالي عشرة ساجينات وأخذ يدور حول نفسه كالدوامة، حتى سقط جثة هامدة، إلا أننا اضطررنا آسفين أن نتركه في مكانه نظرًا لقرب توقفنا عند البدو من قبيلة المصراب، ونحن آخذين بعين الاعتبار نظرة المسلمين إلى الخنازير أنها حيوانات نجسة.

كان منحدر السلسلة الجبلية الممتدة بعدة فرستات كثيرة الحواليف، فقد رأينا العديد منها بعد ذلك.

قطعنا اليوم ثماني وعشرين فرستا ببطء شديد؛ أي بخمس ساعات ونصف، بسبب الطريق الوعر، وكان اتجاهنا إلى شمال شرق، نصبنا مخيمنا قرب مقر الشيخ فياض بن محمد من قبيلة المصراب، وهي جزء من قبيلة الرسالين (والرسالين تابعة لقبيلة السباع)، كان الماء ليس بأحسن من الأمس، وجلب من بركة قذرة أيضًا.

استقبلنا الشيخ فياض بحفاوة كبيرة، وكان من حوله كبار أعضاء القبيلة جالسين على شكل نصف دائري حولنا بعد أن جلسنا على أمكنة الشرف في خيمة الشيخ الطويلة، وكان في وسطها موقد (تجويف صغير في الأرض) وقربه كان أحد البدو يعدّ القهوة، تتم هذه العملية عند مجيء الضيوف، وتلك هي خطواتها: في البداية تقلى حبوب القهوة على الفحمات الساخنة، ثم تسحق في جرن، و«القهوجي» يدق بمرزبته الخشبية الكبيرة (المهباش) بإيقاع منتظم، بعد ذلك

تغلى القهوة مع سكر، إلا أن كمية السكر قليلة جداً، ولا يشعر به، وتسلق الحبوب ليس بالماء بل بالقهوة المبردة، وبعد الانتهاء من إعداد القهوة يأخذ القهوجي الإبريق بيديه ويأخذ بيده الأخرى خمسة أو ستة فناجين خزفية سعتها ثلاث أو أربع جرعات لا أكثر، ثم يدور بالحاضرين ويوزع القهوة لهم، فيبدأ من الكبار أو من الضيوف الشرفاء، يستمر تقديم القهوة حتى يرفضها الجميع، ويجب أن يشرب كل واحد فنجانين على الأقل من أجل المجاملة، أما الفنجان الثالث فيمكن الامتناع عنه، والكل يشرب من الفناجين نفسها دون غسلها!

تذوقنا هنا لأول مرة لبن النياق، فبعد أن جلسنا في خيمتنا أحضرت طاسة كبيرة مليئة بهذا الشراب، فتناولتها بشراهة من عطشي الشديد لعدم وجود الماء النقي، ودون علمي أن هذا ليس لبن البقر، يمكن تصور درجة خيبتي الكبيرة بعد أن تناولت جرعة من هذا السائل المقرف، واضطررت إلى بلعه، وأنا أخفي مشاعري عن صاحب البيت، ثم تابعني في ذلك شيرباتوف، وهو مخدوع من منظر الحليب مثلي.

لقد وعدونا بعرض خيول كثيرة يوم غد، بعضها لقبيلة المصراب والآخر للقبائل البدوية في المناطق المجاورة.

الاثنين ٢٨ آذار (٩ نيسان) مخيم المصراب: في الصباح ذهب شيرباتوف بصحبة كاراكين وكوريتسين لصيد حواليف إلى الجبل نفسه الذي نزلنا منه يوم أمس، وكما حدثونا أن سفح الجبل كان مكتظًا بالحواليف، وقتل الصيادون العديد منها.

صورت صورة خيمتنا مع جاعة الشيخ نصر وفياض وعمه محمد واستروغانوف وشيرباتوف وخليل، كما توجهت اليوم جماعة من القبيلة إلى شيرباتوف مترجين منه أن يفحص الجريح الذي عاد الليلة من غزوه مع بعض

أصحابه، وفي أثنائها جرح في ساقه من رصاصة طائشة، كان معي صندوق أدوية فبعثت له حمض الكاربوليك لتنقية الجرح.

بعد أن تناولت طعام الفطور وجلست في خيمتي أقرأ كتابًا دخلت إلي فجأة زوجة الشيخ فياض بصحبة بعض أقربائها، كنت على علم أن البدو يتلذذون بالحلويات، فقدمت مربى وتينًا وقهوة، تمت زيارتهن حوالي نصف ساعة نظرنا في أثنائها بفضول كبير عليّ وعلى لوازم الخيمة، وبعد ذلك انصرفن، وبعد مرور بعض الوقت ذهبت أنا لزيارتهن، لم تكن محادثاتي مع السكان المحليين متنوعة، وأنا محرومة من مترجم، وكانت تتعلق أكثر شيء بمواضيع اللوازم العائلية.

في إحدى المرات بعد عودتنا من النزهة إلى خيمة الطعام رأينا قرب المدخل صقرًا واقفًا على منصة مغروزة في الأرض، كانت هذه الهدية من محمد عم الشيخ فياض، ذلك العجوز الذي أحببناه كثيرًا بسبب لطفه وحسن معاملته، وأما ما يخص ابن أخيه فقد نال ثقتنا من أول لقاء، لقد كان شابًا منتظم ملامح الوجه، ومتحضر السلوك، وهذا ما أدهشنا؛ لأنه لم يخرج في حياته من نطاق الصحراء، كانت مضافته الحسنة، واستعداده الدائم للخدمة تجذبنا إليه أكثر وأكثر، ولأننا دخلنا إلى موضوع السلوك لذلك يمكن أن نهمل ميزة البدو الواضحة مثل أدب سلوك الشيخ نصر وفياض ومحمد وغيرهم، فعلى سبيل المثال في كل مرة عندما أدخل الخيمة حيث يجلس البدو الذين سبق ذكرهم، أو عندما أقوم من مكاني، كانوا كلهم يقومون معي ولا يجلسون في أثناء وقوفي، واليوم مثلاً كان الشيخ فياض ونصر يتناولان الغداء معنا، فكان سلوكهما كأنهما معتادان على هذا النمط الذي يريانه لأول مرة دون شك أي الطاولة ولوازمها، كانا ينظران إلينا بطرف عيونهما، ولم تكن حركاتهما تختلف كثيرًا عن حركات الناس المثقفين في أثناء تناول الطعام.

كان استروغانوف وشيرباتوف خلال النهار يتحدثان مع أصحابهم الجدد عن الخيول وأجناسها، وعن البدو ونمط حياتهم وعن عاداتهم وتقاليدهم وعن سياسة الصحراء.

لم تحضر لنا الخيول الموعودة، وهكذا راحت وقفة النهار هباءً، كانت الرياح القوية تهب طوال النهار، وكانت الحرارة في الشمس ٢٩، وفي الخيمة ٢٠.

الثلاثاء ٢٩ آذار (١٠ نيسان): بسبب عدم وجود الخيول المعروضة للبيع قررنا الذهاب إلى تدمر، وبخاصة أن قبيلة المصراب سوف ترحل اليوم عن هذا المكان.

يقضي البدو حياتهم كلها بالتنقل المستمر، فهم يتوقفون في مكان معين يومين أو ثلاثة، ونادرًا أربعة أيام حتى ينفد كلأ المرعى لقطعانهم، وما إن ينفد العشب في المناطق القريبة عن مخيمهم (فهم يرعون مواشيهم بالقرب من الخيم خوفًا من الهجمات) تتحرك القبيلة إلى مراعي جديدة تبعد عادة ٤ - ٦ ساعات عن المكان السابق، وهكذا تتنقل القبائل طوال العام، في الربيع والصيف يتجهون إلى الشمال حيث العشب الكثيف بعد الأمطار الشتوية، وفي الخريف والشتاء يتجهون إلى الجنوب.

لا تسمح اللباقة البدوية إزالة خيمة شيخ القبيلة قبل أن تزال خيمة الضيوف، وقد التزم فياض هذه العادة اليوم على الرغم من أن أبناء قبيلته قد رحلوا جميعهم، وبعد ذلك أزيلت خيمتنا.

تحركنا في الساعة العاشرة صباحًا، وبعد قليل لحقنا بالبدو، وبدأنا نسبقهم، ونحن نستمتع بمنظر القبيلة وهي تتحرك، مثلاً: الجمال المسنة التي تشكل أرتالاً طويلة وتهز رؤوسها الخرقاء، وتحمل على متنها كل حاجات سادتها، بما في ذلك النساء والأطفال الذين يجلسون فوق أكوام الخيم والأواني وغيرها من الأدوات المنزلية، ومن خلفها تركض الأحوار، البعض منها حديثة الولادة، لونها أبيض

زبدي ومتجعدة كالكلاب السلوقية، فكانت جميلة جدًا برقابها الرفيعة، ومن بينها تخب الأغنام المعجلة من قبل الكلاب، ومن كل أطراف القافلة كان الرجال والمراهقون يحملون الحربات على أكتافهم وهم يمتطون حجورهم، والحجور غالبًا ما ترافقها المهور.

مثل الشيخ وثلاثة شباب تكريمًا لنا تمثيلاً اختلاقيًا، فكان الواحد منهم ثم الثاني يتقدم إلى الأمام برماحة سريعة، وهو مطارد من قبل البقية، وكأنهم يريدون ذبحه؛ وتارة يرفعون أسلحتهم في أثناء السير، ويطلقون النار في الهواء بالذخيرة الحيّة! وتارة يتراجعون بسرعة ثم يتقدمون من جديد مع حركات رهيبة إلى اليمين واليسار مثل أرنب تطارده كلاب سلوقية، كانت التربة وعرة إلا أنها لم تؤثر في الفرسان، وهم معتمدون على خيولهم العربية الأصيلة التي لم تخن ثقتهم أبدًا، فلم تتعثر ولم تتراجع، كنا نتابع حركات الفرسان بفضول ونندهش من مهارة ونشاط خيولهم ونشاطها وأرجلها الأمينة، كان الشيخ فياض يركب بشجاعة على فرس عمرها عامان، صغيرة، ولكن جيدة جدًا، أما البقية فكانت خيولهم متوسطة الجودة.

عند الساعة الثانية بعد الظهر قطعنا ثمانية وعشرين فرستا، فتوقفنا ونصبنا خيمتنا الصغيرة، وتناولنا الفطور بانتظار وصول القافلة، كانت الأرجاء المحيطة بنا جديدة بمنظرها، رأينا الجمال والأغنام والبدو بأزيائهم البهية، كانت الخيم تنصب في كل مكان، والجمال تتحرر من حملها، وكانت النيران توقد، والأطفال يلعبون ليريحوا أرجلهم بعد الجلوس الطويل والمتعب فوق الرحال، أما الحيوانات فكانت تبحث عن علف لها. انتهزت هذه الفرصة لأصور بعض اللقطات من الحياة المحلية.

كان شيخ القبيلة هو الذي يختار مكانًا مناسبًا للتوقف، وعند الوصول إلى المكان المختار يغرز الشيخ حربته في الأرض، حيث يجب أن تنصب خيمته، وينصب باقي أفراد القبيلة خيمهم حيثما يشاؤون في الأمكنة المحيطة بخيمة شيخهم

بغرز حرابهم في المكان المختار لنصب خيمهم، كما أن الشيخ يعين يومًا لإزالة الخيم ويعين مكانًا للتوقف القادم.

قضينا الجزء الباقي من النهار في مشاهدة الخيول، إلا أنها كانت أقل عددًا مما وعدونا به، وتلك هي ملاحظاتنا تجاهها:

١ - الفرس المغراء، أرجلها بيضاء، عمرها أربع سنوات، من سلالة كحيلان جلال (؟) ومن أب صقلاوي جدران، أنيقة وبرأس وهيكل ممتازين، أحضرت لنا هذه الفرس بمنظر كئيب للغاية، فقد كانت نحيلة ومنهكة، طلب ثمنًا لها ٨٠٠ خازي، في حين أن ثمنها الحقيقي ٣٠٠ خازي، أي ٤٦ عملة ذهبية[١].

٢ - الفرس الكميتة، عمرها سبع سنوات، من سلالة كحيلان تمري (؟)، من أب أعتق بن سبيل، أنجبت مهرًا في العام الماضي، قوية البنية وممتازة لمربي الخيل، ركبها مسطحة، ذيلها جيد، ورأسها مثالي، وكانت تذكرنا بطرازها الفرس الإنكليزية الأصيلة طلب منا ثمنًا لها ١٠٠٠ خازي في حين أننا لم نرض أن تدفع أكثر من ٣٥٠ خازي؛ أي ما يعادل ٥٥ عملة ذهبية؛ فلم يرضوا ببيعها.

٣ - الحصان، عمره ثلاث سنوات، رمادي اللون، من سلالة صقلاوي جدران، من أب أعتق بن سبيل، كيفيته لا بأس بها، كان أخوه قد بيع إلى إنكلترا بـ ٥٥ خازيًا طلب ثمنه ٩٠٠ خازي، ولم يرضوا أن يبيعوه بـ ٤٠٠ خازي.

٤ - الفرس الكميتة، عمرها ست سنوات، وهي أخت الحصان المذكور، جيدة الكيفية، ولكن متعثرة في سيرها، قدرها الشيخ نصر بـ ٦٠٠ مجيدي؛ أي ١١٧ عملة ذهبية.

٥ - فرس عمرها ثلاث سنوات، رمادية اللون، ومن سلالة كحيلان العجوز، من أب صقلاوي جدران، لم يكن فيها أي عيوب ظاهرة، إلا أنها خفيفة الشعر وجائعة.

---

(١) العملة الذهبية التركية تعادل ستة خازي، وربع أي ٢٣ فرنكًا.

٦ - الفرس الكميتة عمرها سبع سنوات من سلالة أعتق حدروج، سيئة جداً أرجلها متباعدة وركبها قريبة على بعضها، صدرها ضيق أما كفلها وظهرها فجيدتان ومشيتها جيدة.

٧ - الفرس الكميتة عمرها خمس سنوات من سلالة عبيان نجرام (؟) ومن أب أعتق ابن سبيل، متينة البنية ومقدمتها جيدة، إلا أن مشيتها متعثرة وكفلها مثل كفل البقر.

٨ - الفرس الرمادية عمرها تسع سنوات من سلالة أعتق لقرة (؟)، كانت تذكرنا بجواد خاب فيما عدا ذيلها، كانت أرجلها وعظامها ممتازة وثمنها ٦٥٠ خازي أحضرها بدوي من قبيلة القموصة.

٩ - جواد عمره عامان لونه رمادي غامق، حسن جداً وهو ابن الفرس المذكورة أعلاه والحصان كحيلان العجوز، اشتراه استروغانوف بـ ٣٠٠ خازي من بدوي من قبيلة القموصة.

أما الخيول الباقية فكانت سيئة لدرجة أنها لم تستحق التسجيل في مذكراتنا كانت الأسعار المعروضة تعبر عن تقدير البدو لخيولهم وعن تقديرها من قبل الشيخ نصر حسب رأيه الشخصي، على أي حال من الصعب التحديد كيف يثمن البدو خيولهم إنهم غالبًا ما يقدرونها بعكس كيفيتها، يبدو أن الأوليّة تعود إلى عدد الخيول ضمن سلالة واحدة، فإذا كان عددها قليلاً كان ثمنها أغلى، أو قد يعود ذلك إلى جمال شكلها الخارجي، فعلى سبيل المثال سيأخذ المرتبة الأولى خلال السنوات القادمة كحيلان العجوز، وستباع أنساله بأسعار غالية، حتى إنها أغلى من النماذج التابعة لسلالة نادرة، ثم سيبتعد كحيلان العجوز إلى درجة ثانية من الأهمية، وسيحل محله كحيلان نواف (؟) أو كحيلان تمري (؟). وعلى الرغم من هذه التبدلات توجد بعض السلالات ثابتة الثمن منذ زمن بعيد إلى وقتنا الحاضر،

مثل صقلاوي جدران وعبيان شرك (؟)، وكحيلان العجوز وكحيلان نواق(؟) وغيرها.

الأربعاء ٣٠ آذار (١١ نيسان) جبال العمور: انطلقت قافلتنا في الساعة التاسعة صباحًا، واتجهت إلى مكان التوقف القادم الذي يبعد ثمانية وعشرين فرستا عن مبيتنا الأخير باتجاه تدمر، أما نحن فلم نمش بالطريق باستقامة، على عكس القافلة، وفي الساعة العاشرة والنصف توقفنا في المخيم الجديد التابع للشيخ فياض، حيث قدم نصر لاستروغانوف خيول أمس، منها المغراء [رقم ١] وكميته [رقم ٢] والجواد الرمادي، وقد أراد استروغانوف أن يدفع ثمن الأول ١٠٠٠ فرنك وثمن الثاني ١٣٠٠ فرنك والثالث ١٢٠٠ فرنك، إلا أن أصحابها لم يرضوا أن يتنازلوا عن أسعارهم التي طلبوها، لذلك اضطررنا إلى إلغاء الشراء، فانطلقنا من جديد بصحبة فياض.

كان توقفنا هذه المرة على جبال العمور، التي نالت هذا الاسم من قبيلة العمور (غير بدوية)، التي كانت تتنقل على أذيال هذه الجبال في اتجاهات مختلفة حول تدمر، وتعمل في قطع الطرق، إنهم ينهبون القوافل ويسلبون الأغنام والجمال من سكان تدمر ويهاجمون البدو، ومن جراء هذا التجاور الخطير كان الشيخ نصر قلقلاً على سلامة القافلة، ومستاءاً من قرارنا التوقف في هذا المكان، أما خليل فقد جبن نهائيًا بعد أن بدأت شخصيته الحقيقية تتجرد عن كل المجاملات.

قطعنا المسافة الأخيرة بخمس ساعات أما القافلة فقطعتها بسبع ساعات.

الخميس ٣١ آذار (١١ نيسان) أرك: قبل انطلاقنا لتتمة الرحلة أحضرت لنا فرس كميتة من سلالة كحيلان العجوز، وطلب ثمنًا لها ٣٥٠ خازي، كانت هذه الفرس قصيرة وصالحة للركوب، ولكن قليلة الأصالة.

انطلقنا في السابعة صباحًا لأننا قررنا أن نقطع اليوم مسافة طويلة، واضطررنا إلى التوقف في منتصف الطريق في تدمر، التي تبعد عن مكان توقفنا ثلاثين فرستا، فقطعنا هذه المسافة بخمس ساعات.

كان طريقنا في البداية جبليًا، وقبل الوصول إلى تدمر بساعتين أصبحنا في منخفض محاط بالجبل الأبيض، الذي يبلغ عرضه عدة فرستات، يتصل هذا المنخفض بواد عريض يمتد حتى القريتين، وفي الاتجاه الشمالي الشرقي ينتهي هذا الوادي عند جبال يخرقها ثغر ضيق وصخري، يمتد حتى تدمر، شاهدنا على جانبي الطريق خرابًا من أبراج مربعة الشكل، وعلى بعد فرستا إلى الشمال كان مجدل قديم يشمخ علينا، وعندما انتهى الثغر رأينا منظرًا رائعًا هو السهل الكبير، تناثرت عليه آثار قديمة ومهدمة، وهي آثار مدينة تدمر، فيها معبد الشمس، وصفوف الأعمدة والأروقة والبوابة وغيرها، وعلى سفوح الجبال المجاورة رأينا بعض الحوائط والأبراج التي كانت في غابر الزمان حصونًا منيعة لحماية هذه العاصمة المشهورة لمحافظة من المحافظات الرومانية، ومن بين هذه الآثار توجد قرية صغيرة محاطة بالبساتين والحقول، تخرقها أقنية الري، تحيط بهذا السهل جبال من ثلاث جهات، فتمتد إلى اليمين من الثغر؛ أي بالاتجاه الجنوبي، ثم تمتد إلى الشرق، ومن اليسار تمتد سلسلة جبلية إلى الشمال، ثم تعرج تدريجيًا إلى الشرق وجنوب شرق.

حتى تكون مذكراتي أكثر تنوعًا سأضيف إليها لمحة تاريخية عن تدمر التي قرأتها في أحد الكتب الإنكليزية:

«مدينة بالميرا، التي تسمى حاليًا تدمر، قديمة جدًا، والأسطورة التي تقول إن بانيها النبي سليمان مشكوك فيها، يفترض أنها كانت مركزًا تجاريًا غنيًا قبل القيصر الإسرائيلي بمئات السنين، هذه المدينة واقعة على منتصف الطريق بين لبنان والفرات، وعلى منتصف طريق القوافل الممتد من بغداد إلى دمشق في الصحراء

القاحلة المياه، فهذا الموقع الاستراتيجي الممتاز كان بالتأكيد يجذب كل التجار من بداية عهد الحضارة الشرقية، هذه التسمية الإغريقية «بالميرا» تدل على أصل كلمة «تدمر»، وهي «تمر»؛ أي نخيل التمر.

في سنة ١٣٠ ميلادية انضمت تدمر إلى المستعمرات الرومانية، وكان حاكمها أدريان، والكثير من المعابد والأعمدة التي احتفظت بفخامتها، على الرغم من انهدامها تنسب إليه، ومن هذا الوقت إلى أواخر القرن الثالث الميلادي كانت تدمر تكبر وتزدهر.

على الرغم من أن تدمر كانت مستعمرة رومانية، إلا أنها في حقيقة أمرها كانت جمهورية مستقلة، في سنة ٢٦٠ ميلادية احتل أوديناتوس (وهو من سكان تدمر) بلاد ما بين النهرين، التي كانت تابعة للفرس، فنال بعد ذلك لقب الملك، في عام ٢٦٧ قُتل على يد ابن أخيه في حمص، فتولت الحكم زوجته زنوبيا، وهي واحدة من النساء المشهورات اللواتي خلدهن التاريخ، لقد مدت زنوبيا ربوعها إلى سوريا ومصر وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين، وبقيت تحكم هذه الملكيات الواسعة خمس سنوات، وعندما انهزم جيشها في معركة ضد الإمبراطور أوربي قرب حمص هربت زنوبيا إلى تدمر، ثم استسلمت بعد الحصار القصير وأخذت أسيرة إلى روما.

بعد الإطاحة بزنوبيا حل على تدمر انحطاط شديد، ولم يبق من هذه العاصمة العظيمة سوى عشرات من الأبنية.

في المرتبة الأولى من بين هذه الآثار معبد الشمس، يتكون رواق أعمدته من ٤٠٠ عمود تحيط بفناء مربع الشكل مساحته ٧٤٠ قدم مربع، ويأتي في المرتبة الثانية قدم، وعبارة عن رواق كبير من الأعمدة، وكان طوله أيام زمان يصل إلى ٣٧٥٠ قدم، وكان يخرق تدمر كلها من جنوب غرب إلى شمال شرق، جاعلاً من صفوفه

الستة ثلاثة ممرات، لم يبق منه في الوقت الحاضر إلا ١٥٠ عمود، وتدل الكتابات المنقوشة عليها أنها تعود إلى سنة ٢٣٨ ميلادية.

وما يجذب الانتباه الأشرحة على شكل أبراج التي لا توجد في أي مكان آخر غير تدمر، ولها الأهمية نفسها مثل الأهرام في مصر، هذه الأبراج متناثرة حول تدمر على السفوح الجبلية وعلى السهول البعيدة، ومن المحتمل أنها كانت مخصصة لدفن أناس شرفاء وبارزين.

أعترف صراحة أنني بعد أن وصلت إلى قمة المعبر الجبلي ورأيت تدمر، سررت كثيراً، ليس من روعتها وجمالها فحسب بل لغزارة المياه، وهذا شيء طبيعي إذا تذكرنا ذلك السائل الذي كان عندنا بديلاً لمياه الشرب، والذي بدأ يفسد من يوم مغادرتنا دمشق، ووصل إلى درجة أننا امتنعنا عن شربه، فإضافة إلى منظره وطعمه المقرف صارت رائحته كريهة، ولكي أقضي على ظمئي نزلت بعجلة إلى النهر، ثم قفزت من فرسي وانحنيت إلى الماء، ولكن أول جرعة منها جعلتني أستلقي إلى الوراء وأسعل بشدة، فهذا الجدول الذي خدعني بشفافيته النقية كان مشبعًا بالكبريت، أما فرسي المسكينة التي كررت التجربة نفسها، وشربت جرعة كبيرة من هذا الماء المر، ابتعدت عن الجدول خائبة. لقد عوضنا هذا بنصب خيمتنا قرب نبع جيد فشربنا منه حتى ارتوينا.

توقفنا في تدمر حتى الثالثة والنصف بعد الظهر ننتظر القافلة لنذهب سوية إلى أرك، حيث سنتوقف، وقد انتهزنا هذا الوقت لنشاهد معبد الشمس والآثار الأخرى، وقد صورت العديد منها، وكان تصويري ناجحًا، كانت معي آلة تصوير ممتازة وحديثة، قياسها ١٣ × ١٨ سم، أخذتها خصيصًا لهذه الرحلة، صنع هذه الآلة ماك كيلين في لندن، وكان لها عدستان، الواحدة لدايلر Rapid Rectilinear، والأخرى لروس Wide Angle؛ كما أنني احتطت بحاجب الضوء البرهي

ليولداريف، فمن دونها لا يمكن أن تنجح أي صورة تحت الشمس العربية الساطعة، لم أستطع أن أحدد سرعة حاجب الضوء بدقة؛ لعدم وجود حواجب الضوء التي تنظم سرعتها ميكانيكيًا في تلك الأيام، أما الآن فيوجد منها الكثير، أعتقد أن مدة التعريض الوسطية كانت تتراوح بين الجزء والثلاثين والسبعين من الثانية، وبسدادة ٣٢، حمضت الأفلام بعد عودتنا إلى روسيا، ولم يحترق منها إلا صور معدودة، وكان هذا بسبب إطالة مدة التعريض.

زارنا ثلاثة شيوخ محليين، من بينهم الشيخ محمد بن عروق، الذي صاحب الزوجين بلانت في رحلتهم إلى نجد، زار الشيخ محمد باريس مرة واحدة، فتعلم بعض الكلمات الفرنسية، وكان يفتخر بها كثيراً، أرونا بعض الخيول التابعة للجنود الأتراك من الحامية المحلية؛ كانت هذه الخيول لا بأس بها، إلا أن أصالتها كان مشكوكًا بها؛ لأنه لا يمكن تصديق كلام الأتراك في مثل هذه الحالات.

اتجهنا بعد مغادرتنا تدمر إلى الشرق حيث كان المنظر الطبيعي قبيحًا ورتيبًا، على اليسار الطريق المؤدي إلى أرك، على مسافة خمس فرستات رأينا جبالاً واطئة ومن حضيضها وباتجاه الجنوب تمتد الصحراء مئات الفرستات، كما أن خلو هذه الأرض المسطحة من النبات يمنحها مزيداً من الكآبة، فلا أشجار تحييها ولا تضاريس تنوعها.

ركبنا الساعتين الأخيرتين في ظلام الليل، ثم اضطررنا إلى النزول عن خيولنا، وسحبناها من أعنتها، وكان هذا بسبب الحقول الوعرة التي وصلنا إليها والتي تخترقها القنوات الكثيرة، فكانت خيولنا تتعثر وتقع، أما مرافقونا فتأخروا عنا، فبقينا نتجول طويلاً حتى الساعة الثامنة، إلى أن وجدنا مكانًا مناسبًا للتوقف، ثم انتظرنا القافلة أكثر من ساعة، حاولنا أن نقطع الوقت بالنوم على الأرض الصلبة.

قطعنا اليوم ٦٢ فرستا بسبع ساعات ونصف، وقطعت القافلة المسافة نفسها بـ ١٤ ساعة.

الجمعة ١ (١٣ نيسان) السخنة: كانت أرك عبارة عن واحة صغيرة فيها قرية محاطة بحقول القمح المروية بالمياه التي تؤخذ من الخزانات التي تحت الأرض، وفي بعض الأمكنة كانت الأشجار الفتية مغروسة، كانت هذه المنطقة مليئة بالمراكز الحراسية التركية، مثل كل المناطق السكنية على أطراف الصحراء.

كان ركوبنا في منطقة وعرة خلال النهار، حيث كانت الهضاب الكثيرة تنوع ركوبنا الروتيني، وعلى يسارنا رأينا السلسلة الجبلية نفسها الممتدة من دمشق حتى نهر الفرات، ولكل جبل اسمه الخاص، أما التربة فلم تتغير وبقيت حجرية ورملية، كما كان عليها عشب قصير، وكانت الشمس تحرقنا دون رحمة، ففي الصباح الباكر قبل مغادرتنا أرك كان ميزان الحرارة يؤشر إلى خمس وعشرين درجة مئوية في الظل، ولا شك أن الحرارة في الشمس كانت لا تقل عن خمسين درجة.

ركبنا إلى السخنة دون توقف (٣٦ فرستا)، ووصلنا إليها في الثانية بعد الظهر، أما القافلة فوصلت إليها في الخامسة مساء، السخنة مثل أراك؛ أي عبارة عن واحة مليئة بالمياه الجارية، اشترينا فيها بعض الشعير للخيول والبغال، فأخذت الحيوانات تلتهم هذا العلف الطازج واللذيذ بشراهة؛ لأنها لم تتذوقه منذ مدة طويلة؛ أي بعد خمسة وعشرين يومًا من التغذية بالقش المفروم والشعير.

السبت ٢ (١٤ نيسان) الوقفة في الصحراء: سنبيت هذه الليلة وسط الصحراء من دون ماء الذي أحضر لنا من السخنة على الجمال، كان عبورنا طويلاً: خمسة وأربعين فرستا، إلا أن القافلة قطعت هذه المسافة بسرعة؛ أي بعشرة ساعات وصلنا كالعادة إلى مكان التوقف قبل وصول البغال، ونظرًا لبرودة الطقس أضرمنا نارًا

واستلقينا حولها على الأرض، ونحن متدثرون بعباءاتنا حماية من الرياح الشديدة، كانت الليلة ماطرة وعاصفة.

الأحد ٣ (١٥ نيسان) الوقفة في الصحراء: قطعنا اليوم مسافة أقل من مسافة أمس بست ساعات بالنسبة لنا، وتسع ساعات بالنسبة للقافلة، وتساوي ٤٠ فرستا، وقد تنشط البغالون مع اقترابنا إلى دير الزور، فأخذوا يحثون بغالهم لتسرع بعكس عادتهم، توقفنا في منتصف النهار عند بئر قباقب، حيث توجد دورية عسكرية تركية، أحضرت الجمال إلى هذه المنطقة في الصباح الباكر من أجل التزود بالماء بسبب عدم وجودها في المكان المعين لقضاء الليلة، انتظرنا وصول القافلة وتركنا الحيوانات تشرب حتى تشبع ما دامت المياه المأخوذة لن تكفيها حتى الصباح والمساء القادمين، ثم انطلقنا من جديد، وفي الرابعة والنصف وصلنا إلى الموقف الأخير قبل دير الزور.

الاثنين ٤ (١٦ نيسان) دير الزور على نهر الفرات: انطلقنا الساعة الثامنة صباحًا، وتابعنا سفرنا إلى دير الزور دون توقف، فوصلنا إليها في الواحدة والنصف بعد الظهر، أما القافلة فوصلت بعدنا بأربع ساعات، والمسافة الأخيرة طولها أربعين فرستا.

على بعد خمس فرستات عن دير الزور تبدأ الهضاب والمرتفعات التي تفصلها عن بعضها وديان ضيقة ومسايل، كما توجد أرض رملية مليئة بالحجارة والصخور الجرداء البارزة هنا وهناك، هذه هي طبيعة شاطئ الفرات الصخري في أعالي النهر بالنسبة لبغداد.

دخلنا إلى دير الزور ونصبنا مخيمنا على شاطئ النهر، لنستمتع بمنظر الماء وبالهواء المنعش طوال النهار والمساء، كان هذا المكان يمتاز بجماله وموقعه المريح:

كـان أمـامنا وعلى يميننا جـدار عـال كـان يحـمـينا من السكان المحليين وفـضـولهم اللحـوح، وعلى يسارنا كـانت مـياه الفرات المصبـغة بلون الشـيكولاتة، وسـريعة الجريان، وعلى ضفتيه تناثرت أبنية دير الزور، وفي وسط النهر أمامنا مباشرة كانت جزيرة كبيرة يصل طولها إلى حوالي فرستا ونصف، وكانت هذه الجزيرة تداعب نظرنا بخضرتها الكثيفة، وعلى شاطئنا كانت شجرتان كبيرتان، ولم تسقط علينا ظلها، وإنما ما شابه ذلك، كانت عيوننا المتعبة من الغبار وأشعة الشمس الساطعة تستريح وسط هذه الخضرة والماء بعد سبعة عشر يومًا من عبور الصحراء الرتيبة والجرداء والجافة.

على بعد نصف فرستا من مكان توقفنا، وعلى هضبة يمر عليها الطريق الذي يصل بغداد بحلب مارًا بدير الزور، كانت ثكنات عسكرية تركية بمنظرها والمكونة من الخيالة والمشاة.

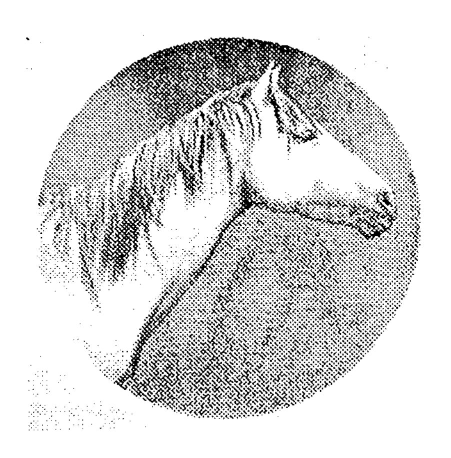
بعد أن عرف الأتراك بقدومنا (فقد كنا أول روس ينزلون في دير الزور التي لا يزورها الأوروبيون إلا نادرًا)، أرسل محافظ السنجق محمد توفيق باشا ياوره إلينا ليهنئنا بالقدوم من السفر، ويقدم لنا خدماته عند الحاجة، بعد قليل أخذ شيرباتوف على عاتقه الواجبات النيابية مع السلطة كالزيارات واستقبال الضيوف والمحادثات وغيرها، ثم ذهب لزيارة المحافظ، استقبله المحافظ بحفاوة مرحبًا به بكلمات شرقية منمقة، عبر فيها عن سروره برؤية الضيوف الشرفاء في السنجق، وبشكل عام كان لطيفًا معنا للغاية، إنني أشدد في كتابتي على هذه الوقائع نظرًا لارتباطها بالأحداث القادمة.

الاثنين ٥ (١٧ نيسان) دير الزور: قرر استروغانوف السفر في الغد إلى حمص دون متاع، أما أنا وشيرباتوف فقررنا العودة إلى دمشق مع القافلة سالكين الطريق

نفسه، ولكن السلطات التركية اعترضت على هذا المشروع لسبب غير معروف، ذهبنا في النهار لمشاهدة الخيول، وقد أعجبنا بفرس رمادية اللون من سلالة كحيلان العجوز، أما الخيول الباقية فكانت سيئة، ثم تجولنا في الأسواق الكبيرة والغنية ببضاعتها الشرقية المتنوعة، وبشكل عام دير الزور مدينة حسنة فيها أبنية حجرية كبيرة.

كان الجو غائمًا وباردًا وساكنًا من الرياح.





الفصل الرابع

الأربعاء ٦ (١٨ نيسان) دير الزور: هطلت في الصباح زخات خفيفة من المطر، وكانت درجة الحرارة ١٦ في الظل، وكانت الغيوم تحجب وجه الشمس طوال النهار.

كما ذكرت سابقًا، لقد هيأ استروغانوف نفسه ليسافر اليوم بصحبة الشيخ نصر وكاراكين وفاسيلي إلى الشمال على طول الفرات، ثم باتجاه الغرب، مروراً بمخيمات البدو، وبعد ذلك إلى حمص، كان ينوي اللحاق بنا إلى بيروت بعد مشاهدة خيول جديدة في سفره، أما نحن فنوينا السفر غدًا إلى تدمر وبعدها إلى دمشق، ولكن في تركيا يمكن تطبيق المثل الفرنسي مع بعض التغيرات الذي يقول: «الإنسان يقدر والتركي يقرر»[1]، فالباشا من مماحكته لم يسمح لنا بتنفيذ ذلك البرنامج، إلا أننا أملنا أن هذا لن يدوم طويلاً.

عندما هيأ استروغانوف نفسه للسفر تمامًا جاء الضابط المرسل من الحافظ وأخبرنا عن لسانه أنه لما كنا لا نحمل تصريحًا يمنحنا حقًا بالتجول في الأراضي

(١) في الحقيقة: «الإنسان يقدر والله يقرر»، المعرب.

التركية وبخاصة مع الأسلحة، فهو لن يسمح لنا بمغادرة دير الزور إلا بعد تسليم الأسلحة واللباس العسكري الذي يرتديه «الجنود» (أي البحارة).

اندهشنا كثيراً من هذه النزوة غير المتوقعة من الباشا، الذي كان متفضلاً جداً معنا منذ مدة، ولم نر منه أي إيماءة على هذه الطلبات في هذين اليومين الأخيرين، ثم ذهب شيرباتوف وبعده استروغانوف إلى محمد توفيق، وحاول كل واحد منهما إقناعه أن ادعاءاته لا أساس لها من الصحة، وأخبر كل واحد منهم عن طريق خليل أننا استلمنا قبل مغادرتنا بيروت تصريحًا خاصًا لإدخال الأسلحة (بالبرقية من السفارة الروسية في القسطنطينية)، وأن خدمنا الروس المرتدين لباس البحارة ليسوا جنوداً، إنما بحارة من يخت استروغانوف الخاص، وأن جوازاتنا المأخوذة من الوكالة الدبلوماسية الروسية في القاهرة مخصصة للسفر إلى فلسطين وسوريا، وفيها تأشيرات لازمة لذلك، ثم أضافا: «إننا لن نسلم أسلحتنا بأي شكل، لأن هذا التصرف لا يليق بنا كروس!».

كان يبدو أن هذه الكلمات لم تؤثر فيه أبداً، فبعد المحادثات المهذبة لجأ الباشا إلى التهديد أنه سيؤخرنا في دير الزور بالإكراه إذا بقينا على مثابرتنا، ولن تخضع لخيالاته، وبعد أن بدا لنا أن الباشا لن يتراجع وينوي تحويل تهديداته من قول إلى فعل أرسل شيرباتوف واستروغانوف شخصًا إليه ليخبره أنه ليس من حقه أن يطلب منا تسليم الأسلحة، وإذا كان يشك في شخصياتنا، فمن حقه أن يأمرنا بالعودة إلى دمشق تحت حراسته فوراً، ولكنه لم يوافق على ذلك أيضًا.

تشاورنا فيما بيننا، كيف سندبر الأمور؛ لنتخلص من هذا المأزق الذي دبرته لنا السلطات التركية، فكلفنا خليل أن يطلب من الباشا إرسال رسول خاص إلى دمشق أو إلى أيّ مدينة أخرى؛ لإثبات صحة شهاداتنا، ولكنه رفض ذلك أيضًا.

قضينا الصباح كله في المناقشات والمشاورات، إلا أننا كنا بعيدين عن حل المشكلة، ولم نتقدم بشيء منذ البداية، وقد شاركنا الشيخ نصر وخليل في المناقشة، وكان خليل يذهب إلى السنجق باستمرار وهو مزود بالتعليمات الجديدة بعد لقاء استروغانوف وشيباتوف مع محمد توفيق، الذي انتهى بالإخفاق، لم يرض الاثنان بالذهاب إليه مرة أخرى؛ لأن هذا لا يليق بكرامتهم.

أثبت لنا العناد الأخير من الباشا أننا لن نتوصل إلى أي شيء في دير الزور، فلم يبق علينا إلا إرسال ساع إلى حلب كأقرب مدينة فيها القنصلية الروسية والتلغراف، ثم أخبرنا عن هذا القرار للسلطات، وطلبنا منهم منح الساعي تصريحًا للخروج الحر، ولكننا اصطدمنا بالسماحة التركية مرة أخرى: كان طلبنا مرفوضًا بحجة أن هذا كله يخصنا نحن فقط، ولا يخص الأتراك، وعلينا تدبير أمورنا بأنفسنا إذا أردنا التخلص من هذا السجن.

بعد إدراكنا أنه لا حل آخر سوى الاعتماد على النفس طلبنا من الشيخ نصر السفر إلى حلب، طبعًا مثل هذا السفر لا يخلو من مغامرات خطرة؛ لأن المحافظ الذي اعتقلنا طمعًا في الرشوة (مئة أو مئة وخمسين روبلاً كانت تكفي للإفراج عنا؛ ولكننا لا نستطيع أن نقوم بهذه الصفقات مع الباشا)، لا يستطيع التخلص الآن من هذا الوضع الحرج الذي فعله بنفسه، طبعًا هو لم يتوقع منا هذا التصميم في المحافظة على حقوقنا بعد أن أعلن لنا طلباته، وهكذا أوقع نفسه في المقلب الذي دبره، بعد أن وجد الباشا أننا لن نتخلص منه بالرشوة أصبح من المستحيل إطلاق سراحنا وإلا فستسقط سمعته أمام السكان المحليين، الذين يكرهون السلطات التركية، ويعرفون تفاصيل القصة التي حدثت والتي أصبحت موضوعًا لحديث السكان في الأسواق، وهم يراقبون مصيرنا بإمعان، كان من غير المحتمل إرسال ساع إلى دمشق، وإلا فإن تصرفات الباشا ستكشف، وسيصل الخبر إلى الحاكم العام، الذي يعرف كل شيء عن رحلتنا؛ لأنها صارت بموافقته

التامة، فلم يبق للباشا إلا مخرج واحد، هو منعنا من السفر أملاً في أن وسيلته القاسية ستؤدي إلى استسلامنا، ومن أجل تحقيق ذلك الهدف كان عليه أن يقطع كل اتصالاتنا مع العالم الخارجي؛ ليحرمنا من إمكان إبلاغ المسؤولين الرسميين عن كل ما حدث.

آخذين بعين الاهتمام كل هذا، أدركنا أن سفر الساعي فيه شيء من الخطر، فمن المحتمل أن الأتراك سيمسكون به، وقد يقضون عليه لكي لا تفشى أفعالهم المضادة للقانون، إلا أن الشيخ نصر الذي نال ليس ثقتنا فحسب بل حبنا وتقديرنا أيضًا، وافق على السفر إلى حلب دون تردد، وخلاف ذلك وعدنا أنه سيسير ليلاً ونهارًا دون توقف، وسيرجع بالجواب بعد ستة أيام، ولو أن المسافة في الاتجاه الواحد ٣٠٠ فرستا، كان يتوقع الوصول إلى حلب في التاسع من الشهر الجاري، وبعد استلام الجواب حسب العودة في الثالث عشر أو الرابع عشر من الشهر.

أعطينا للشيخ نصر خمسين ليرة ذهبية تركية، ورسالة إلى القنصل الروسي في حلب، وصفنا فيها كل ما جرى لنا بالتفصيل، كما سلمنا له رسالة عاجلة للسفير نيليدوف في القسطنطينية، طالبين فيها معاونته ومساعدته في الإفراج عنا في أقرب وقت ممكن، كما أرسلنا رسالة إلى أقربائنا في بطرسبورغ طالبين معاونتهم أيضًا عن طريق وزارة الخارجية.

بعد أن نال الشيخ نصر تعليماتنا خرج من الخيمة وذهب إلى المخيم الخلوي حيث يوجد البغالون، وقضى عندهم ساعة ونصف، لكي لا يلفت انتباه الأتراك، ثم سافر في الواحدة بعد الظهر دون أن يراه أحد، لقد أعطينا له أحسن حصان في قافلتنا، كما زودناه بالنقود التي تكفيه لشراء حصان جديد عند الحاجة.

بعد قليل حوصر مخيمنا بالحراس المسلحين، مع السماح لنا بمغادرته إلى أي مكان نريده، فذهبنا أنا وشيرباتوف إلى الأسواق وزرنا الجزيرة الكبيرة على الفرات حيث صورت السكان المحليين من النساء والأطفال.

الخميس ٧ (١٩ نيسان) دير الزور: كنا نشعر بالقيظ في هذه المناطق أكثر من الصحراء، حيث تهب الرياح باستمرار، أما هنا فحرمنا من الرياح بسبب الأبنية والحائط الكبير والجبل، تنزهنا في المدينة والجزيرة، وكان شيرباتوف مشغولاً جدًا بإنشاء البروتوكول عما حدث لنا؛ لتقديمه كشكوى لنيليدوف، هبت اليوم رياح شديدة غيرت الخيم، ثم تابعها المطر، وخفف علينا المطر الغبار الكثيف الذي تسرب حتى إلى الحقائب المغلقة.

اشترينا حمارًا صغيرًا أبيض اللون عمره ثلاثة عشر شهرًا، وسميناه «باشا»، وزيادة على ذلك عندما كان البحارة يتذكرون عدونا المحافظ، كانوا يسمونه بالباشا الديرسكي (أي الديري)[١].

الجمعة ٨ (٢٠ نيسان) دير الزور: تخترع السلطات التركية متاعب جديدة كل يوم، أراد شيرباتوف اليوم الذهاب لصيد الغزلان إلا أن الحراس بعد أن عرفوا ذلك أبلغوا إلى الثكنات، فجاء ضابط وأعلن أن الخروج خلف نطاق المدينة محظور علينا وهكذا بعد أن فاتت علينا ساعات برودة الصباح اضطر شيرباتوف أن يؤجل ذهابه إلى الغد، وأرسل خيلاً إلى الباشا؛ ليخبره أنه سينطلق غدًا إلى الصيد سواء بموافقته أو بدونها، وإذا حاولوا منعه من ذلك قسريا، فلا يلوم الباشا إلا نفسه.

يبدو أن الباشا خاف أنه ذهب بعيدًا في أفعاله، فأرسل ياوره ليعتذر باسمه على «سوء التفاهم» الذي حدث، غير أننا منعنا من الخروج إلا تحت حراسة الجنود فكان اثنان منهم يحرسوننا بالسلاح إذا أردنا الذهاب إلى أي مكان، كانت حياتنا كلها مراقبة بكل تفاصيلها، كما كانت المراقبة شديدة علينا؛ لكي لا نجتمع بأحد من السكان المحليين، ولكن ما يخص خيمنا التي يرفرف فوقها العلم الروسي المأخوذ

(١) المؤلفة هنا تتلاعب، فكلمة «ديرسكي» تعني بالروسية «الديري»، كما تعني أيضًا «وقح وسليط»، المعرب.

من اليخت، فلم نسمح لهم بالتدخل فيه، وكان البحارة المناوبون يمنعون من ليس له شأن من الاقتراب من المخيم.

السبت ٩ (٢١ نيسان) دير الزور: ذهبنا اليوم أنا وشيرباتوف في السابعة صباحًا إلى الشاطئ المقابل للنهر، أي إلى منطقة الجزيرة تحت حراسة ضابط وثلاثة جنود، والنهر في هذه المنطقة عريض وسريع الجريان جدًا، يعبرونه بماعون مسطح القاع بتجذيف ثلاثة أو أربعة من السكان المحليين، والجريان السريع يجرف الماعون إلى أسفل النهر، وفي الشاطئ المقابل يشدونه بالحبال إلى المكان المطلوب.

امتطينا خيولنا واتجهنا إلى شمال شرق حيث كانت تتراءى لنا سلسلة من الهضاب المنخفضة، وهو المكان المفضل للغزلان، التقطنا فيها قطيعًا واحدًا منها، إلا أنها عند رؤيتنا هربت بسرعة جنونية واختفت بعد ثوانٍ خلف الأفق، التقطنا خلال النهار ثلاثة قطعان، في كل منها من سبعة إلى عشرة غزلان، إلا أنها كانت حساسة لدرجة أنها لم تسمح لشيرباتوف الاقتراب منها بمسافة يمكنه منها قتلها، حاولت ملاحقتها على فرسي لأجبرها على الهرب باتجاه شيرباتوف، ولم أستطع فعل ذلك بسبب فرسي الغبية، ولكنني استطعت رؤية هذه الحيوانات البهية من قرب، واستمتعت بجمالها وخفتها العجيبة حين كانت تهرب بأقصى سرعتها، وتقفز برشاقة فوق الشجيرات وأكوام الحجارة وغيرها من العوائق دون تخفيف من سرعتها، ما عدا الغزلان رأيت أرنبين رماديين وثعلبين، كان الجو حارًا طوال النهار، لذلك سررنا كثيرًا بعودتنا إلى المخيم في الثالثة بعد الظهر لنحتمي في خيمتنا من الشمس، جاء في المساء أحد البدو وأحضر حصان الشيخ نصر؛ لأنه اشترى حصانًا جديدًا، كما أخبرنا ذلك البدوي أن الشيخ سيصل اليوم إلى حلب، حتى الآن لسنا متأكدين من صحة هذه الأخبار.

الأحد ١٠ (٢٢ نيسان) دير الزور: أشر ميزان الحرارة في السابعة صباحًا إلى ٢٥ في الشمس، وفي منتصف النهار ٥٠، وفي الخيمة ٢٨، أما في المساء فانخفضت درجات الحرارة إلى ١٥ فقط.

شاهدنا الخيول التي أحضرت إلى مخيمنا، لو بقينا هنا لمدة طويلة لحصلنا على خيول جيدة جدًا بما فيها الفحول والإناث؛ لأن دير الزور سوق للبدو على طرفي الفرات، وخلاف ذلك أبناء البلد هواة الخيول العربية وخبراؤها لهم عقائد ومبادئ بدوية أصيلة تجاهها، ولكن مع الأسف كل الخيول تتغذى حاليًا بعشب المراعي، لذلك لم نستطع إلا مشاهدة القليل منها.

ومع ذلك أحضرت فرس بيضاء اللون ومبقعة من سلالة عبيان شرك (؟)، كنا جالسين عند مدخل خيمتنا، فرأينا في الشارع الموازي للثكنات ـ وهو المكان المعتاد لتجمع تجار الخيل ـ فرسًا رائعة الجمال، بعد مشاهدتنا لها من قرب وجدناها كما توقعنا، فهي متوسطة الحجم وجميلة ورأسها منتظم وعيونها حسنة وسيقانها طويلة وهيأتها منتظمة، باختصار إنها فرس من النوع الأول، كانت وضعية رقبتها وحركاتها وأناقتها تذكرنا بالجواد، كما كانت حركاتها في أثناء الامتطاء قوية ورشيقة، أما جمالها في أثناء السير فلا أستطيع وصفه، ولكن الشيء الوحيد الذي كان يفسد جمالها وفي الوقت نفسه بتقييمها أكثر هي البقع والخطوط الكثيرة عليها، التي كانت عند البدو تستخدم بديلاً للوسم، فإذا كان الحصان غالي الثمن، يضعون عليه العلامات والوسوم بكثرة حتى يستطيع صاحبه معرفته بسهولة وتثبيت حقه عليه في سرقته أو غنيمته في الغزو.

طلب ثمن غال جدًا، وبعد المجادلات الطويلة استطاع استروغانوف تخفيض ثمنها إلى ثلاثمئة ليرة ذهبية تركية، كان اسمها عنزة، أحضرت أيضًا فرس أخرى رائعة مغراء اللون، وبرأس جميل جدًا، إلا أنها كانت صغيرة الحجم.

خرج شيرباتوف للنزهة بالحصان تحت حراسة جنديين.

الاثنين ١١ (٢٣ نيسان) دير الزور: الجو حار والوقت يجري بصورة مملة جداً، استروغانوف لا يخرج خارج نطاق المخيم، تنزهت أنا وشيرباتوف على طريق بغداد، ولأننا سئمنا كثيراً من مراقبتنا المستمرة من قبل الجنود خطرت لنا فكرة خداعهم بعد أن طلبنا منهم امتطاء خيولهم امتطينا خيولنا، وجرينا إلى الهضاب الممتدة إلى الشمال بطول النهر لنختبئ خلفها من قدوم الحراس، ولأنّ خيولهم كانت في الثكنات، إحضارها وامتطاؤها يحتاجان إلى وقت.

كانت توقعاتنا صحيحة، فبعد اختبائنا خلف الهضاب سمعنا صوت الحوافر على الطريق، فتطلعنا بحذر من خلف الحجر الكبير، ورأينا خفيرين يجريان برماحة سريعة، ويظنان بالتأكيد أن أسيريهما قد هربا إلى حلب.

ولأنهم كانوا مسؤولين عنا، تصورنا رغبتهما من العودة إلى دير الزور من غيرنا والاعتراف بغفلتهما أمام الباشا الرهيب، وبعد اختفاء الحراس عن أعيننا رجعنا من الاتجاه المعاكس، ونحن نختبئ خلف الهضاب، ونراقب الطريق بحذر؛ لنتأكد أنهما لم يعودا، بعد أن قضينا نزهة ممتعة عدنا إلي مخيمنا، وبعد قليل عاد الجنديان وهما حائران ومتضايقان، وبخاصة أن أفراد قافلتنا كانوا قد علموا ما حدث، وأخذوا يستهزؤون منهما دون رحمة.

الثلاثاء ١٢ (٢٤ نيسان) والجمعة ١٥ (٢٧ نيسان) دير الزور: الأيام تشبه بعضها، بروتينيتها، وليس عندي أي شيء أسجله في مذكراتي: نتنزه بالخيول، نقرأ الكتب ونمل، وبخاصة استروغانوف، لا نهتم بشيء سوى مراقبة طريق حلب بانتظار عودة الشيخ نصر، نحن نمثل تماماً 05[22]jur Annco من الأغنية الفرنسية s'en va-t-en guerreoMalbrouck، ومع ذلك لا يعود الشيخ نصر، والسلطات التركية تعرضنا كل يوم لمتاعب جديدة، أعلن لنا في يوم من الأيام أننا لسنا محرومين من

شراء الخيول فحسب بل يمنع السكان المحليون إحضارها إلى المخيم، في يوم يمنعون شيئًا، وفي يوم آخر يلغى ذلك الحظر، وهكذا كل يوم.

صورت خيمنا ومناظر المدينة وضواحيها، كما صورت أفراد قافلتنا كلهم، وهكذا نفدت كل موضوعات التصوير، فحرمت من هذه المتعة أيضًا.

من خلال وجودنا هنا شاهدنا الكثير من الخيول التي كانت تحضر يوميًا سبعة أو ثمانية، على الرغم من حظر المحافظ على ذلك، وكانت الخيول كلها تقريبًا من الإناث، اخترنا منها فرسين من قبيلة شمر، عمرهما سنة ونصف، وكان ثمن الواحدة ٥٥ والثانية ٦٠ ليرة ذهبية تركية، كما أحضرت أنثى لونها رمادي فاتح من سلالة كحيلان نواق(؟) مقدمتها لا بأس بها، ورأسها أصيل جدًا، ولكن مؤخرتها سيئة، كما أحضرت فرس كميتة جيدة، عمرها سنتان، اشترى استروغانوف فرسًا بيضاء اللون وسماها «بدوية»، وهي من سلالة أعتق ابن سبيل، من أب حمداني سمري (؟)؛ وكانت هذه الفرس عريضة، وأرجلها جيدة، متينة البنية، ورأسها لا بأس به، ستكون بالتأكيد أنثى ممتازة في مربى الخيل.

بعد أن وجدنا أن وضعنا لا يتغير، وحان وقت عودة الشيخ نصر من حلب خشينا أن الأتراك قد قبضوا عليه في الطريق، فقررنا أنا وشيرباتوف أن نحاول غدًا السفر إلى دمشق، ونأخذ معنا نصف القافلة، بعد أن نسلم الأسلحة لاستروغانوف، ونتركه هنا مع البحارة بانتظار رد من حلب، وبعد استلامه سيلتحق بنا.

السبت ١٦ (٢٨ نيسان) دير الزور: أثبتت السلطات التركية لنا اليوم أننا أسراهم بكل معنى الكلمة، ففي العاشرة صباحًا بعد أن حزمت الأمتعة، وأزيلت الخيم، وحملت على البغال، أرسل شيرباتوف شخصًا إلى المحافظ؛ ليخبره أنَّ الأسلحة ستبقى في دير الزور مع البحارة، فلا يوجد أي سبب لتأخيرنا، ولذلك سنرحل الآن.

بعد قليل بدأت المشاورات بيننا وبينه عن طريق خليل، واستمرت حتى الواحدة بعد الظهر، والباشا متمسك برأيه، ثم هدد أنه إذا حاولنا أن نتحرك فسوف يوقفنا بالإجبار، وأنه لن يسمح لنا بالخروج أبدًا سواء مع الأسلحة أو بدونها، وسواء وحدنا أو مع غيرنا، ولن يسمح بالخروج حتى لبغل واحد إلا بعد استلام الرد من حلب.

ومن أجل التشبث بقوله أرسل الباشا عشرين حارسًا مسلحًا وصفّهم بعرض الطريق، وعندما أمر شيرباتوف البغالين بالتحرك مع البغال وانطلقنا بأنفسنا، أخذ الجنود بنادقهم بإيعاز من ضابطهم ووضعوا على أيديهم الزناد، فاقتنعنا أن محمد ابن توفيق تجرأ على استعمال القوات المسلحة ضدنا فعلاً، فاضطر شيرباتوف أن يأمر بتنزيل أحمال البغال وإعادة نصب الخيم في مكانها.

كان في هذه الواقعة مشهد مضحك، هو ذعر خدمنا المحليين الشديد من رؤيتهم الأتراك المسلحين أمامهم، فهم يخافونهم حتى ولو كانوا مجردين من السلاح، فشحبت وجوههم بشكل غير طبيعي، واختبأ البعض منهم خلف الأشجار، طبعًا لا أحد منهم يتجرأ على عصيان السلطات التركية ولن يتبعونا أبدًا إذا أردنا مغادرة دير الزور فعلاً.

كانت الرياح الجنوبية تهب طوال النهار وتغير كالعادة، وكان الجو غائمًا حتى الليل، أتى بعد الظهر بريد من حلب، ولم تكن فيه أيّ أخبار جديدة تهمنا.

اشترينا حصانًا رمادي اللون عليه بقع سوداء من سلالة عبيان غنديش (؟) وسميناه «فارسًا»، أحضره بدوي طويل القامة من قبيلة شمر بعد أن قطع به مسافة ستين فرستا، بغض النظر عن أن الحصان لم يتجاوز العامين من عمره، والظاهر أن هذا الحصان كانوا يركبونه منذ مدة طويلة؛ لأن متنه كان مضروبًا، كما اشترينا حمارة بيضاء اللون ورائعة بـ٢٣ ليرة ذهبية تركية، وكان حجمها بحجم حصان صغير، ركبتها في المساء واندهلت من رشاقة سيرها وخطاها الكبيرة الواصلة إلى

٩-١٠ فرستات في الساعة، يعدّ ركوب الحمر البيضاء شرفًا في الشرق كله سواء في مصر أو سوريا أو جزيرة العرب، فهي تستعمل من قبل الناس الأغنياء والوجهاء للذهاب إلى الأسواق، أو لتأدية الزيارات وغيرها، ولهذا تقدر هذه الحمير كثيراً، ومن الصعب إيجادها بأسعار متوسطة.

أحد الشعانين ١٧ (٢٩ نيسان) دير الزور: كان الجو غائمًا وحاراً مع زخات متقطعة من المطر، وبسبب أننا لم نستلم أيّ أخبار عن الشيخ نصر قررنا إرسال ساع آخر إلى حلب، فأرسلنا أحد الجمالين مع ثقتنا في أمانته، وهو من قبيلة عجيل واسمه سعد، ولتجنب الأخطار المتوقعة من السلطات التركية كان علينا إرساله سرًا، لذا أخذه خليل في منتصف الليل إلى خيمة الطعام، وأعطاه الرسائل للقنصل الروسي والفرنسي، ورسالة لسفير روسيا في القسطنطينية ولأقربائنا في بطرسبورغ.

وبسبب احتمال وجود الشرطة السرية في حلب، التي تراقب المدخل إلى القنصلية الروسية للقبض على سعاتنا، أرسلنا سعدًا إلى القنصل الفرنسي ليسلمه رسالتنا، وصفنا فيها كل ما حدث معنا في دير الزور، طالبين منه إرسال الرسالة إلى نظيره القنصل الروسي إذا لم يتمكن الشيخ نصر من توصيل الأوراق اللازمة إليه، كما أضفنا في نهاية الرسالة: «إذا كان زميلك القنصل الروسي غير موجود في حلب، فنحن نعتمد عليك، ونأمل أن ترسل البرقيات الموضوعة في الرسالة وتساعدنا في التحرر؛ لأننا متأكدون من أنك لن تمتنع عن تدبير الأمور اللازمة لذلك».

وما يخص الرسالة باسم القنصل الروسي فما عدا تكرارنا كل ما كتبناه في رسالة سابقة أضفنا أن الشيخ نصراً وسعدًا اللذين لا يعدان من الرعايا الأتراك[١] ويخدمونا بأمانة يحق لهم الاعتماد على الرعاية الروسية، ونأمل أن

(١) يعد البدو أنفسهم شعبًا مستقلاً ولا يقبلون الحكم التركي ولا يدفعون له الإتاوات.

تحميهم عند الحاجة القنصلية بصفتهم أناسًا راغبين في مساعدة الرعايا الروس.

الاثنين ١٨ (٣٠ نيسان) دير الزور: أيقظنا فرعون في الخامسة صباحًا بأخبار سارّة عن عودة الشيخ نصر! لبسنا بسرعة واستعجلنا إلى خيمة الطعام ونحن مسرورون جدًا من عودته بالسلامة، ومتشوقون لسماع أخبار سفره ونتائجه.

قال نصر إنه وصل إلى حلب بثلاثة أيام كما أراد، ولم يوقفه شيء في طريقه، ثم بقي ستة أيام ينتظر ردًا من القسطنطينية، وبعد استلامه يوم الجمعة سافر من فوره، وعندما التقى في طريقه سعدًا أعاده إلى هنا، حاسبًا أنه لا حاجة لسفره ما دامت الحالة قد تحسنت.

كان في رسالة القنصل الروسي في حلب نسخة من رسالة عاجلة من نيليدوف، يخبر فيها أن الأوامر الصارمة بالإفراج السريع عنا أرسلت إلى محافظ دير الزور.

على الرغم من كل هذا لم يرض الباشا الإفراج عنا بحجة أنه لم يتسلم أي أوامر رسمية من رؤسائه، وبهذا لم تتحسن حالتنا وتعقدت أكثر ولم يبق أي أثر من فرح وسرور الصباح بعودة الشيخ نصر، فحزن الجميع بعد ذلك وساد اليأس علينا، وكان كل واحد يقول في نفسه: هل صحيح أننا سنبقى طويلاً في هذه المدينة؟!

كنا متأكدين أن المحافظ سيستسلم هذه المرة، وسيفرج عنا من فوره بعد أن يعرف تفاصيل الأوراق التي أحضرها نصر، كنا متأكدين من ذلك إلى درجة أن البعض حلموا بالانطلاق غدًا، ومع ذلك لم يتغير شيء: الحراس أنفسهم يقفون في أماكنهم القديمة، ولا يسمحون لأحد بالخروج إلا تحت حراستهم، أصبح مستقبلنا غامضًا من جديد، وحتى شيرباتوف يئس ووعد فرعون بإعطائه عشرة آلاف فرنك، إذا داست قدمه أرض دير الزور مرة أخرى!!

اضطررنا إلى إرسال سعد إلى حلب من جديد وبأوراق جديدة.

في المساء جاء بدوي من حلب راكبًا حصانه ومعه رسالة عاجلة للباشا، وبدلاً من تسليمها له ذهب إلى مخيمنا، هذا الواقع فائق جدًا؛ لأنه يشهد إلى أي درجة يعاملنا السكان المحليون بمودة وينحازون إلى جانب الروس ضد السلطات التركية الكريهة والممقوتة، قبل أن نترك الساعي الجديد أخذنا نفكر كيف نرسل هذه الرسالة إلى المحافظ، حتى لا يتمكن من أن يخفيها عنا، وكيف نخلص هذا البدوي من المتاعب التي سيصادفها عقابًا على تصرفه الشريف الذي أراد فيه أن يخدمنا خدمة كبيرة تخص مصيرنا المقبل.

الثلاثاء ١٩ نيسان (١ أيار) الوقفة في الصحراء: وأخيرًا جاءنا خبر سعيد عن نهاية أسرنا! فقد سافر محمد توفيق منذ بضعة أيام إلى جولة رسمية في السنجق، من المحتمل أن هذه الجولة كانت حجة فقط لا غير، وفي الحقيقة أنه هرب خوفًا من العواقب الوخيمة لدسائسه؛ ولكي يتخلص من تحمل المسؤولية أسرع بتسليم السلطة لنائبه الذي سيسوي أمورًا معقدة خلط فيها سيده الحابل بالنابل.

بعد معرفتنا أنه لا شيء الآن يمنعنا من السفر، أعطينا من فورنا أوامر بالانطلاق السريع، فجرى العمل في مخيمنا على قدم وساق، وكان الجميع مسرعين بمغادرة دير الزور، أخذ البعض بإزالة الخيم والبعض الآخر بمساعدة الطباخ وخادم البوفيه في جمع أدوات المطبخ، وأخذ البحارة بحزم أمتعتنا والسواس بامتطاء خيولهم، والبغالون بتحميل البغال، وخليل بمحاسبة الموردين إلخ . . . كانت الاستعدادات هذه المرة في تواد تام، وكان الجميع يساعد بعضهم بعضًا، ويتبادلون الكلام والهزلات بعكس استعدادات أخرى، غالبًا ما كانت تصاحبها المجادلات والمهاترات.

كان الطقس في الصباح ممتازًا، ولكن في ساعة الانطلاق هبت رياح شديدة، ثم نزل المطر مع عاصفة رعدية استمرت ساعة من الزمن، وبعد ذلك صفت السماء من جديد، على أي حال لم تؤثر هذه المشكلات الطفيفة في الحالة النفسية الفرحة لدى الجميع، وانطلقت القافلة في الثانية بعد الظهر باتجاه تدمر والكل يضحكون ويغنون.

تنفسنا الصعداء فقط بعد أن اختفت أبنية دير الزور خلف الهضاب، ونحن مدركون أنه من الصعب القبض علينا في الصحراء، فشعرنا فيها ببعض الأمان، كان حماس الجميع كبيرًا لدرجة أنه لو لحق بنا الجنود من جديد وأمرونا بالعودة أتصور أن القافلة ستثور كجسد واحد ضد هذه الأوامر، كانت خفة الناس تنعكس على الحيوانات أيضًا، فبعد الاستراحة مدة أسبوعين سارت الحيوانات بنشاط وبخاصة البغال التي كشفت هذه المرة عن طبعها الحقيقي بالركل، كما تمكنت البغال من الإفلات عدة مرات خلال النهار على الرغم من من يقظة البغالين، عبرت بهذا الشكل عن نزوتها، التي كانت نهايتها عادة سقوط الرجال من على متنها، عندئذ كانت الحيوانات تضطر إلى التوقف.

ولأننا انطلقنا في ساعة متأخرة، قررنا أن نتوقف لقضاء الليلة في منتصف طريق بئر قباقب، قطعنا ثمانية وعشرين فرستا بسرعة كبيرة؛ أي بثلاث ساعات ونصف، وقطعتها القافلة بخمس ساعات ونصف، هبت في الليل رياح شديدة وطيرت خيم استروغانوف والبحارة في الهواء، أما خيمتنا فبقيت في مكانها.

الأربعاء ٢٠ نيسان (٢ أيار) الوقفة في الصحراء: انطلقنا في الثامنة صباحًا فبلغنا بئر قباقب ظهرًا، وبعد ساعة وصلت القافلة، وقبل وصولها استرحنا وتبلغنا بقليل من الطعام وسقينا خيولنا بسبب عدم وجود المياه في مكان التوقف المقبل، ثم

انطلقنا من جديد، وكان العبور القادم اثنين أربعين فرستا، كنت راكبة طوال النهار على حمارتي الجديدة التي سميناها «بيضاء»، وكان سيرها أكثر نعومة ورشاقة من الحصان.

انفصل استروغانوف عنا منذ الصباح ليزور البدو الموجودين على مسافة بضع ساعات ركوبًا إلى الشمال من تدمر، وصاحبه الشيخ نصر وكاراكين والسواس وسمعان، ولأنهم رحلوا دون متاع، أملوا أن يقوموا بجولتهم سريعًا وأن يلحقوا بنا بعد بضعة أيام.

الخميس ٢١ نيسان (٣ أيار) السخنة: كانت اجتيازاتنا طويلة هذه المرة، وذلك من أجل التعويض عن الوقت الضائع في دير الزور، لو قررنا ذلك من قبل لكانت نتيجة هذا القرار تذمرًا عامًا، أما الآن فكان الجميع عجلين للعودة إلى بيوتهم، ولم تكن أي حاجة للعجلة، وكان العمل بتنصيب وإزالة الخيم يجري بسرعة دون مماحكات أو زلات لسان، وحتى البغالون لم يشفقوا على بغالهم، بل كانوا يسوقونها دون رحمة لعدم وجود أي حاجة للاعتناء بها ما دام السفر اقترب إلى نهايته، على أي حال الحيوانات تزودت بالقوة في دير الزور، وكانت تسير بنشاط بنفسها، ومن جراء هذا كنا نقطع المسافات الطويلة بسرعة نسبيًا، فاليوم مثلاً قطعنا خمسة وخمسين فرستا بسبع ساعات، وقطعتها القافلة بإحدى عشرة ساعة، كما كان الطقس ملائمًا باعتداله.

كان الحصان «فارس» أنيسًا لدرجة أنه كان يسير حرًا خلف الخيول الأخرى، وكان يتوقف بين الفينة والأخرى؛ ليأكل العشب ثم يلحقنا بسرعة.

الجمعة ٢٢ نيسان (٥ أيار) تدمر: انطلقنا مبكرين جدًا في السادسة والنصف صباحًا؛ لأن المسافة المقبلة كانت طويلة، فقد صممنا على الوصول إلى تدمر مباشرة دون البيات في أرك على عكس العادات، وهكذا سنوفر من الوقت يومًا كاملاً.

بلغنا أرك في الحادية عشرة والنصف، وتوقفنا في منصب الحراسة حيث قدم لنا الجنود القهوة، في هذه الأثناء وصل ضابط رائد بصحبة ثلاثة جنود وصرح أنه مبعوث من قبل محمد توفيق محافظ دير الزور ليصاحبنا بصفة حرس الشرف، بعد أن قدم الضابط تقريره استجار بشيراتوف أن يتشفع لمصلحته في القسطنطينية.

من الظاهر أن هذا التحول السريع في المعاملة من الوقاحة إلى اللباقة لدى محمد توفيق حدث بسبب الأوامر الجديدة من حلب التي تخصنا، على أي حال مهما كان السبب في ذلك لم نفرح أبداً على هذا اللطف المتأخر، فوجود الأتراك المستمر بيننا شيء لا يفرح القلب، وبخاصة بعد هذا الحبس في دير الزور الذي استمر أسبوعين، كرهنا الحرس مدة طويلة سواء أكان هذا حرس الشرف أو غير الشرف.

عندما برد الطقس قليلاً استأنفنا رحلتنا وجئنا إلى تدمر في السادسة مساء ووصلت القافلة بعد أن سارت ثلاث عشرة ساعة دون توقف بمسافة ٦٧ فرستا.

السبت ٢٣ نيسان (٥ أيار) عين البيضاء: زارنا في الصباح الشيوخ العجائز فاروش (؟) ومحمد، ولأن استروغانوف كان غائبًا قررنا التوقف في عين البيضاء لننتظره فيها، وكان الطقس حاراً جداً.

الأحد (عيد الفصح) ٢٤ نيسان (٦ أيار): جاء في الساعة الثالثة ليلاً الشيخ نصر وكاراكين واندهشا كثيراً لعدم وجود استروغانوف في المخيم، ثم اتضح أنهم غادروا السخنة جميعًا صباح أمس، ووصلوا إلى تدمر بعد حلول الظلام، وفي تدمر أرسل استروغانوف الشيخ نصراً وكاراكين لشراء الشعير، وسافر مع سمعان حاسبًا اللحاق بنا بعد قليل، توقعنا أنه قد يتوه في الظلام، فأمرنا بتعليق المصابيح المضيئة على قلائد الخيم وإشعال النار باستمرار.

استيقظنا في الخامسة صباحًا بعد قضاء ليلة قلقة بسبب ضياع استروغانوف، وبعد قيامنا هنأ بعضنا بعضًا بعيد الفصح، أما فرعون والطباخ اللذان عرفا عن عيدنا

اليوم، فقد أعدا لنا مفاجأة، هي كعك عيد الفصح والبيض الملون[1]، كنا قلقين جدًا لاختفاء استروغانوف وبخاصة أن الجبال المجاورة مليئة باللصوص من قبيلة العمور، إذا انتظر استروغانوف بزوغ الفجر فلن يتوه؛ لأن الطريق بين تدمر والقريتين يقع في واد ضيق عرضه من ٤ إلى ٦ فرستات، تمتد على جهتيه سلسلة من الجبال الواطئة.

انطلقنا في السادسة والنصف صباحًا مع القافلة تاركين الشيخ نصرًا وكاراكين في تدمر لينتظرا وصول استروغانوف، وبعد أن قطعنا اثنتي عشرة فرستا فرحنا كثيرًا عندما رأينا في الاتجاه الشمالي ثلاثة فرسان، فقد ظننا في بادئ الأمر أننا رأينا استروغانوف بصحبة البدو، ولكن بعد أن توضحت لنا حرباتهم خاب أملنا كثيرًا، وعندما رآنا هؤلاء الفرسان اندفعوا إلينا بسرعة.

على الرغم من بأسنا من عدم وجود استروغانوف بينهم تأملنا بإمعان منظر البدو الجميل وهم يركبون خيولهم، والمنظر الطبيعي الملائم لهذا، لقد ترسخت هذه الصورة في ذاكرتي، وسأحاول وصفها: كانت خلفيتها الصحراء بلونها الرملي والتي تنوعها النباتات كالعشب النادر النابت في بعض الأمكنة، وعلى الأفق البعيد ترسمت هيئات الجبال بنفسجية اللون، وفي مقدمة هذا المنظر الفريد من نوعه يركب البدو الثلاثة على خيولهم العربية الرشيقة، وهي رافعة رؤوسها الجميلة بعزة، وكانت عباءاتهم تخفق في الهواء من شدة السرعة، وكوفياتهم مربوطة على رؤوسهم، كما أن حرباتهم القصبية كانت تمنح ميزات نموذجية لهذا المنظر الجميل والمحروق بأشعة الشمس العربية الساطعة.

اتضح أن هؤلاء البدو الثلاثة أصحابنا من مصراب، وهم: ابن الشيخ محمد وساحر الشجاع، وواحد آخر لا نعرفه، بعد أن علم الثلاثة ضياع استروغانوف

(١) تصنيع الكعك وتلوين البيض في عيد الفصح من العادات الروسية، المعرب.

أداروا خيولهم وانطلقوا للبحث عنه في ثلاث جهات، استطعنا إقناعهم أنهم سيجدونه حالاً، واستأنفنا رحلتنا إلى آثار الخان القديم، فتوقفنا لنتناول الفطور، استرحنا مدة ساعة في ظل الغرفة الصغيرة، قنطرية الشكل وباردة، وهي الوحيدة التي بقيت من هذا المبنى القديم، الذي كان فخمًا أيام زمان، وعندما هيّأنا أنفسنا لتتمة الرحلة جاء صالح فجأة وهو يصيح بفرح: «جاء الكونت!»، فاندفعنا إلى الخارج وكدنا نصطدم باستروغانوف الذي جاء لتوه، ثم عرفنا سبب تأخره، فعند وصول استروغانوف إلى تدمر فقدت فرسه نعلها؛ فطلب استروغانوف من سمعان أن يأخذها إلى الحداد، وركب حصانًا آخر، وانطلق به دون مرشد، فتاه في الظلام وعاد إلى تدمر، وبات الليلة عند الشيخ محمد.

بعد أن أخمد استروغانوف جوعه امتطينا خيولنا وانطلقنا، وفي الطريق جربنا سرعة العدو لدى الخيول التي اشتراها استروغانوف، قطعنا خمسين فرستا.

من أجل إكمال قصتي سأنقل بعض الشواهد من مذكرات استروغانوف عن الأيام الأربعة، حيث كان يتنقل منفصلاً عنا.

الأربعاء ٢٠ نيسان (٢ أيار): ركبت ساعتين بالاتجاه الشمالي الغربي ونصف ساعة بالاتجاه الجنوبي الغربي، وثلاثة أرباع الساعة بالاتجاه الشمالي الغربي وإجمالاً ثلاث ساعات وربع، وصلت إلى مخيم البدو مسخ (؟) من قبيلة السباع إلى الشيخ ماحوش بن خلدان (؟)، تأملت عندهم فرسًا مغراء وجميلة جدًا، ولكن صغيرة الحجم، وكانت التي رأيتها بدوائر سوداء حول العيون، وفتحات الأنف، وهذه العلامات تدل على أصالة الحصان العربي، كانت هذه الفرس من سلالة صقلاوي نقيم (؟) وأنا لم أسمع قط عن هذه السلالة من قبل، ولكنهم تكفلوا بأنها أصيلة، ولم يكن يعرف البدو ما هي سلالة والد الفرس، فقد أخذت هذه الفرس غنيمة الغزوات مع قبيلة الروالة، وبالتحديد من ابن شعلان، كما كانت عندهم فرس جيدة جدًا من أب وأم صقلاوي جدران.

الخميس ٢١ نيسان (٣ أيار): انطلقت في السابعة والنصف، وكان اتجاهنا من مسخ شماليا غربيًا وكنا قريبين من بدو من قبيلة الرسالين من السباع، اشتريت حصانًا أمغر من سلالة صقلاوي عبيران (؟) وحصانًا أبيض مع سلالة سعادي طوقان (؟).

الجمعة ٢٢ نيسان (٤ أيار): انطلقت في الثامنة والنصف صباحًا ووصلت إلى السخنة في العاشرة مساء، فقطعت ٨٠ فرستًا، أما سمعان فتأخر عني، وكانت خيمتي معه.

السبت ٢٣ نيسان (٥ أيار): غادرت السخنة في السادسة والنصف صباحًا، ووصلت إلى أرك في الحادية عشرة والنصف، فقطعت ٣٦ فرستًا، وفي أرك كانت الخيول تأكل ثلاث ساعات، انطلقنا في الثانية عشرة والنصف، ووصلنا إلى تدمر في الثانية والنصف، واجتزنا ٣١ فرستًا، ثم ابتعدت عن تدمر مسافة خمس فرستات، وفي الثامنة بعد أن حل الظلام عدت إلى تدمر إلى الشيخ محمد، وقضيت الليلة عنده، أما الشيخ نصر وكاراكين فبعد أن نعلا الفرس رحلا، ولم يلتقيا بي في الطريق فوصلا إلى عين البيضاء في الثالثة ليلاً بعد أن قطعا ٩٢ فرستا.

الأحد (عيد الفصح) ٢٤ نيسان (٦ أيار): غادرت تدمر في السابعة صباحًا ووصلت إلى عين البيضاء في التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، ثم تحركت من جديد في الحادية عشرة والنصف، فلحقت بالزوجين شيرباتوف، وكملت الرحلة معهما حتى الخامسة مساء واجتزنا ٧٨ فرستًا، قضينا ليلتنا دون قطرة ماء».

ركب استروغانوف في هذه الأيام الثلاثة على فرسه الجديدة «عنزة»، فقطع بها ٢٣٥ فرستا على التوالي؛ أي وسطيًا ٧٨ فرستا يوميًا، على الرغم من القيظ الاستوائي إلا أن هذه الفرس شربت خلال هذا الوقت أربع مرات فقط، ولم تأكل إلا في السخنة وأرك وتدمر، ومع ذلك وصلت ناضرة تمامًا، فركبتها حتى

القريتين، ثم ركبها استروغانوف في اليومين الأخيرين قبل الوصول إلى دمشق، فاجتازت هذه الفرس ١٤٧ فرستًا بثلاثة أيام.

أعود إلى قصتي:

الاثنين ٢٥ نيسان (٧ أيار) القريتين: تحركنا في السابعة والنصف صباحًا باتجاه القريتين، فوصلنا إليها في الثانية والنصف، والقافلة بعدنا بساعة، واجتزنا مسافة ٣٠ فرستًا، رأينا قطيعًا من الغزلان على بعد عدة فرستات عن القريتين، فأطلق استروغانوف وشيرباتوف عليها النار، ولكن دون جدوى.

لكي نختصر رحلتنا يومًا واحدًا قررنا الذهاب غدًا إلى جيرود دون توقف فأرسلنا يوسفًا ليسبقنا، أخذ معه خيمة صغيرة لينتظرنا في منتصف الطريق حيث سنتوقف ونريح خيولنا.

الثلاثاء ٢٦ نيسان (٨ أيار) جيرود: تحركنا في الخامسة والنصف صباحًا، وفي الحادية عشرة والنصف وصلنا إلى مكان حيث عسكر يوسف، فتلمجنا، وبعدها صورت صورة وقفتنا وجماعتنا الطلائعية (أي التي تسبق القافلة)، والتي زاد عددها بسبب الخيول العربية التي اشتريناها، وهي ثلاثة وفحول وسبع إناث، يقودها السواس والبحارة، وعندما وصلت القافلة صورتها وهي تتحرك وتشكل سلسلة، وبعد رحيل القافلة في الثانية عشرة والنصف بقينا حتى الثالثة ونحن معتقدون أن الأمتعة ستصل إلى جيرود قبلنا وستكون الخيم منصوبة حين وصولنا، ولكن حساباتنا كانت خاطئة، فقد سبقنا القافلة، وانتظرناها نصف ساعة، والمسافة ٦٢ فرستا.

كان الطقس يزداد حرارة من يوم إلى يوم.

الأربعاء ٢٧ نيسان (٩ أيار) دمشق: شعر استروغانوف بالمرض منذ الصباح، فتأخر بضع ساعات في جيرود، ولم يصل إلى دمشق إلا مساء.

وفي الطريق حاولت أنا وشيرباتوف التخلص من مرافقينا الأتراك عدة مرات؛ لأننا لا نرغب الدخول إلى دمشق تحت حراسة الجنود كالأسرى، ولكننا إذا حاولنا ذلك كان الضابط وجنوده يخمنون نوايانا، فلم يتأخروا عنا، بقطع النظر عن سرعة ركوبنا.

نزلنا في دمشق في الفندق، فوجدنا فيه كومة كبيرة من الرسائل، ومنها الرسائل المستلمة قبل مغادرتنا بيروت منذ سبعة أسابيع.

الخميس ٢٨ نيسان (١٠ أيار) الديماس: تأملنا الخيول طوال الصباح، وكانت نتيجتها مشتريات ثمينة جدًا، اشترى استروغانوف حصانين، الأول منهما أمغر اللون مائل للون الذهبي وكان جميلاً جدًا، وطرازه يشبه الحصان الإنكليزي الكريم، وكان من سلالة نادرة جدًا، وهي كحيلان القروش، أطلق عليه استروغانوف اسم «أمير العرب»، والحصان الثاني لَونه رمادي غامق من أب وأم صقلاوي جدران، يحب البدو هذا التمازج بين السلالتين كثيرًا ويعدونها مثالاً للأصالة العربية، هذا الحصان اسمه سطام القريش باسم صاحبه شيخ قبيلة بني صخر.

واشترينا نحن بدورنا الحصان الأبيض، الذي عرض علينا في أثناء وجودنا السابق في دمشق، ولم نشتره وقتذاك، لعدم التأكد من أصالته، والآن أزيل هذا الشك لأن الشيخ نصرًا تكفل في أصالته، سمينا هذا الحصان «القادر»، وهو من سلالة كحيلان سويتي ومن أب أعنق بن سبيل، وقد كان هذا الحصان متين البنية وجبارا ورأسه جميل ومعبر، ومشيته جميلة بشكل خاص.

أرسلنا القافلة في الصباح وبقينا نكمل بعض أعمالنا في الفندق، ولم ننطلق إلا في الخامسة والنصف مساء، ووصلنا إلى مخيمنا في الثامنة، أما استروغانوف فبقي في دمشق، وهو ينوي السفر بعد غد بالعربة إلى بيروت مباشرة، هبت في

المساء رياح شديدة، خفضت درجات الحرارة إلى ٦، وقد كان هذا التبدل المفاجئ في الطقس محسوسًا جدًا بعد القيظ الصحراوي بسبب الثلج على جبال لبنان.

الجمعة ٢٩ نيسان (١١ أيار) شتورة: ركبت اليوم على حصان «القادر» الذي أذهلني بخفة سيره رشاقته، بعد وصولنا إلى شتورة ذهبنا إلى الفندق لنشرب الشاي ريثما تصل القافلة، الكل مسرور من الوصول غدًا إلى بيروت، وقد صار هذا الفرح الجماعي لأول مرة منذ بداية رحلتنا.

السبت ٣٠ نيسان (١٢ أيار) بيروت: تحركنا في الثامنة صباحًا، ولم نتوقف إلا مدة قصيرة، ثم أسرعنا إلى بيروت فوصلنا إليها في الثالثة بعد الظهر، ومن قمة المعبر الجبلي من حيث تتراءى بيروت والخورحاولنا أن نرى يختنا إذا كان واقفًا هناك أم لا، ولكن دون جدوى، طبعًا لا يمكن أن تظهر الأعلام على السفن بوضوح من هذه المسافة البعيدة.

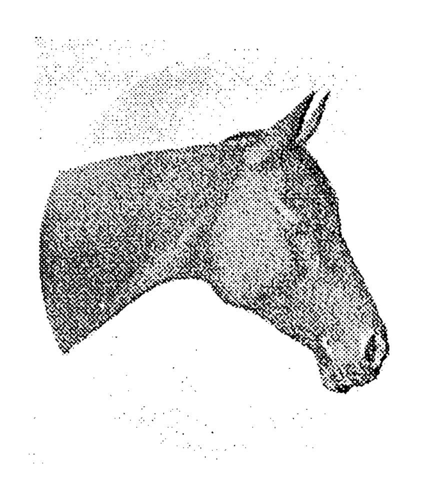
كان دخولنا هذه المرة إلى بيروت احتفاليًا، أخذ مفعوله في الشوارع التي مررنا بها لدرجة أن الناس كانوا يتجمعون لينظروا إلينا، كان استروغانوف يفتتح الموكب وهو راكب حصانه العربي الأمغر، والشيخ نصر الذي ارتدى لهذه المناسبة العباءة والكوفية الجديدتين، وحمل حربته على كتفيه، ونحن خلفهم، وبعدنا الحراسة الديرية؛ أي الضابط وجنوده، ومن خلفهم السواس والبحارة، وهم يسحبون خيولنا الجديدة.

وهكذا بعد أن غادرنا بيروت منذ سبعة أسابيع عدنا إليها من جديد بعد أن قضينا رحلتنا الممتعة من كل نواحيها كطرافة البلاد المجهولة للأوروبيين، وأصالة سكانها وغير ذلك. جمعنا معلومات قيمة عن الحصان العربي النادر والفائق وهو مؤسس أفضل السلالات الأوروبية، وما سمعناه عن الحصان العربي في موطنه

أوحى إلينا الحب العميق لهذا الحيوان الكريم والوديع ومثالي الجمال، فشجعنا الكونت استروغانوف على تأسيس أول مزرعة لتربية الخيول العربية الكريمة في روسيا.

قطعنا خلال هذه الأسابيع السبعة مسافة ١١٥٥ فرستًا، وفي طريق عودتنا العاجل من دير الزور إلى بيروت قطعنا ٥٢٣ فرستا خلال اثني عشر يومًا، أي وسطيًا أربع وأربعين فرستًا وثلث يوميًا.





الحمراء

ملحق الجزء الأول

أ) الرسالة العاجلة من روستوفسكي، ب) الرسالة العاجلة من نيليدوف، ج) البلاغ من الترجمان غولدنبرغ.

بعد أن نال القنصل الروسي باكيمانسكي في حلب أجوبة من القسطنطينية عن إطلاق سراحنا، أرسل إلى دير الزور الترجمان السيد غولدنبرغ لتقديم المساعدة لنا في حال إذا عاند المحافظ، ولكن كما عرف من قصتي أننا لم نترقب ذلك ورحلنا قبل مجيء الساعي إلى الباشا.

أ) الرسالة العاجلة من السيد القنصل باكيمانسكي في حلب المؤرخة في ١١ أيار ١٨٨٨م.

Veuillez informer Comte Stroganoff que reponse Ambassade annoncant autorisation retourner par voie qu'il indiquait et orders relatifs ex-

pés a Ex- Gouverneur de Deir du Palais et de la Porte a été envoyée par moi avee drogman accompagné cabas et que sa lettre du 19 avril reçue seulement avant-hier aprés départ de mon courrier.

Yakimansky.

ب) الرسالة العاجلة من السفير في القسطنطينية إلى القنصل الروسي في حلب المؤرخة في ١٢ (٢٤ نيسان) ١٨٨٨م.

Tegramme Viziriel indique au Moutesarif de Zor identil du Comte Stroganoff et Prince Scherbatoff prescrivant de les laisser retourner par Alep en les faisant accompagner pour leur securit par un officier. it informe Gouverneurs de Zor et d'Alep que port de einq carabines avee munitions leur a permis par Sublime Porte. Veuillez en informer nos voyageurs et m'annoncer leur arriv Alep.

Nelidow.

Copie du rapport adress an Consulat Imprial de Russie Alep. en (ج date du 14 mai 1888, par M.Goldenberg. Dragoman du meme Consulat.[1]

Monsieur le Consul.

J'ai l'honneur de Vous soumettre un expos de mon voyage pour Deirezor.

parti d'ici Mereredi le 27 avril 1888 a midi preis, je suis arriv aux environs de Mskn, ou a cause de la grande innondation de I'Euphrate j'ait

(١) هذا البلاغ منقول حرفيًا من الأصل، من تعليقات المؤلفة.

oblig de prendre pendant 20 kilometres au large du cotsud, et ainsi passer sur les monticules de Mskn pour arriver a Abou-hrra' la plaine dans ce lieu ant couverte de 10 a 40 kilom tres d'eau et la oute innonde. l'ai continu de suivre les monticules et de couper a travers les ravins l'usqu'a Hamam et Sabgha; dans cette dernicre station j'ai abandonn mon cheval et j'ai continu ma route sur un cheval que le Mudir de Sabagha m'a procur et j'ai travers le desert jusqu'a Drzor.

Arriv a Drzor dimanche a 9 heures du matin. je n'ai pas trouv les nobles Voyageurs S. E. le comte Stroganoff et S. E. le Privce Scherbatow.

Je suis descendu directement a la cascrne qu'on abait transverti en scrail. locale des Autorits civiles, car l'innondation avait emport une partie du Serail et rempli d'eau le reste de cet difice.

Le Gouverneur de Drzor tait absent dans les cazas pour la vente des dimes, j'ai toblig de voir le Mouhassibedji (comptable) Nedjib-bey. qui etait le Grant du Moutessaefflik, Ayant demand quel jour sont partis les Nobles Voyageurs Russes, le Grant m'a dit qu'ils avaient quitt Dr-zor jeudi dans l'aprs midi c'est-a-dire depuis 10 jours.

Comform ment aux habitudes des employs ds qu'ils se reconnaissent coupables de queique fait. et qu'ils supposent que l'auditeur a quclque mission de faire une enqute sur leur cupabilit. ils commencent par reciter le discours pr par d'avance pour leur justifcation. et ainsi le Grant

Ndjibbey, sans que je lui demande me recita sa le on avec leur usuelle c linerie de circonstance en disant:

ös. E. le Mout ssariff, a l'arrive des Nobles Mousafirs (voyageurs) russes, s'tait empress de leur rendre les devoirs d'hospitalit; mais se conformant aux devoirs de Gouverneur il abait demand les papiers de route; les Voyageurs n'ayant pas exhibaucum document vispar les Autorits de l'Empire Ottoman S. E. le Gouverneur a inform ces voyageurs qu'il se trouvait dans la nessit de demander des instuctions a la Sublime Porte: et comme on avait appris que les voyageurs avaient aussi avec Eux des caisses contenant des armes et munitions. le Moutessariff a pri ces Messicurs de les lui consigner pour etre exp dies a Damas au IV Cops d'Arme. d'ou. en cas que des ordres arriveraient de Constantinople. les voyageurs pourront. a leur passage par Dumas. les reprendre.

Cette proposition ayant t r jete par les Voyageurs. le Gouverneur leur proposa qu'ils tl graphient aussi a l'Ambassade de Russie a Constantinople pour faire ter la ponse aux instructions que le Mout ssarif a demand de la Sublime Porte. Lex Nobles Voyageurs consentirent a cette juste susdite proposition et t l graphierent a Constantinople et le jour m me que l'ordre est arriv, ils sont parti d'icj. J'ai mis a leur disposition un officicr avee dix cavaliers pour les escorter pendant le trafet de D r-exer a Alep. mais comme S. E. le Prince Scherbatow avait insist de re-

tourner voie de Damas. je n'ai pas pu obtenir qu'ils attendent 24 heures pour aue j'obtienne une reponse du Mout ssarif relativement a cette nonvelle insistance. c'est-a-dire de rentrer voie de Damas, tandis que l'ordre t l graphique d signait la voie d'Alep: les vovogeurs partirent voie de Damas accompagn s de l'escorte neccssaire pour la s ret de la route.

Ayant pu apprenre d'un huissier de la l-en Instance de D r-zor que j'ai rencontr a Sabagha. comment le Moutessarif avait mis un cordon de gendarmes autour du campement des Voyageurs russes. et comment on a emp ch toute communication aves Eux, je me suis adress au G rant N djb-bey: öSans doute vous avez mis une garde au compement des Voyageurs? il m'a repondu que oui, mais seulement pour prevenir quekque vol ou autre inconv nient, car les habitants de D r-zor ne sont pas civilis s.

öCependant, lui ai je dit, votre perspicacit a pouss votre zele au point d'int rdire m me la communication avec quelques Vendeurs de cheveaux dont les Voyageurs voulaient acheter? oui, m'a-til repondu. mais non pour interdire la communication avec les Voyageurs, seulement pour empecher l'achat des cheveaux qui est interdit.

Il est superflu d'entrer dans les details des absurdit s de cet ignorant fonctionnaire, qui n'a d'utre capacit que de ruiner le fice de son gouvernement a son profit personnel. En lui faisant compredre que ses

faux contes et ses tergiv rsations ne me persuaderent pas. j'ai pris cong en lui disant, que nous aurons revenir sur sa justitication dans une entrevue prochaine.

Des d tails que jai appris, il-y-a admirer le sang froid des Nobles Voyageurs vis-a-vis ces fonctionnaires de basse extraction; du reste il n'y-a que les Russes qui sont capables et ont le don d'imposer a sex parv nus d'employ s ev s dans une ignoance revoltante.

Les manieres affables et communicatives des voyageurs russes ont frapp tant les nomades du desert ainsi que les habitaints de D r-zor. surtout parmi I'l ment musulman. et la sympathie que les voyageurs russes ont su laisser pendant leurs passage est vraiment digne d'tre mentionne; surtout que les habitants de ces parages n'etaient pas habitu s de voir dans les voyageurs Anglais ces qualit s prodigieuses des voyageurs russes.

La generosit des voyageurs russes a tonn les habitants des contr es de D r-zor, et que de b n dctions j'ai entendu prononcer pour S.S.E.E. le comte Stroganoff, le Pince et la Princesse Scherbatow. car tout ceux qui leur tendirent les mains, furent soulag s dans leur mis re.

D'un cot ou peut tre fier de tels voyageurs rcsses. qui pendant leur trajet laissent des souvenirs qui honorent leur Patrie. de l'autre cot il serait a d sirer de ne pas laisser impunis les audacieux employ s turcs qui par leur arrogance se croient fort dans leur microcosme isole. ou en se

voyant appuyes par queiques gendarmes d gu nill s. ils se croient auto-
is s d'agir arbitrairement et d'imposer leur grossiert inexplicable tout
etranger!

Je n'ai pas manqu d'apprendre les details qui pouvaient tre connus en
dehors du Serail sur les machinations du Mout ssarif de D r-zor. de la
mise du campement des voyageurs russes sous un cordon de 17 gen-
darmesy compris le caporal Ibrahim Techaouiche et command s par
un sous officier qui avait des instructions d'interdire toute r lationavec
les habitants de D r-zor. mais a la suite de la fermet demontr e par le
Prince Scherbatow. ce Gouverneur dessappointe est parti pour un de
ses districts. laissant la g rance a son complice le Mouhassibedji. et ce
dernier voyant que les voyageurs russes taient bien r solus d'attendre
let ordres t l graphiques de Constantinople sans avoir l'id e d'entrer en
n gociation öa la turquc le cordon fut diminu a 4 gendarmes avec le
caporal Ibrahim Tchaouiche.

S. E. le comte Stroganoff a achet D r-zor trois cheveaux et une anesse
blanche. apres quoi l'Autorit de D r a int rdit aux habitants d'en vendre
d'autres.

Le desppointement du Mout ssarif a t paye par la d stitution du Mudir
de Toudmour sous l'inculpation d'avoir permis le libre passage aux
Voyageurs russes.

Le z le de la garde du campement est arriv au point de in nacer de bat-

tre le our Syrien Catholoqie. qui se proment sur la plage avait appoch a dix m tres de distance du campement: de rosser un vendcur de liqueures pendant qui'il se rendait au campement pour d noncer le vol de quclques bouteilles de boissons vole s par le corporal Ibrahim: vec leurs yassalks. its interdirent meme a S. E. le Prince Scherbatow- d'aller a la chasse.

Le Grant du Mout ssareflik etant venu me faire une†visite scux jours apr s mon arrivee, je lui ai dit que j'admirais les gards d'hopitalit qui'il savait si bien suer envers les trangers. et la preuve en est: que me voila depuis quelques jours ici et par courtoisie il ne s'informait pas. qui j'etais et m me demandait pas meme mes feuilles de route! tandis que S.E. le Moutessarif ne lui avait pas donn un tel exemple en arr tant les Voyageurs russes; et que lui pour se montrer cons quent, avait aussi arret deux pauvres voyageus sujets Autrichiens. qui n'avaient que des passeports vises par les Autorit s de Smyrne et non du Vilayet d'Alep. et qui furent relach s le lendemain de mon arrive.

Ayant appris que le Grant la veille avait reu le second Ordre t l graphique de la Sublime Porte pour laisser librement retourner les Voyageurs russes par la voic qu'ils d sireraient. je lui ai demand s'il avait reu quelques autres ordres t l graphiques r lativement a L. E. le Comte Stroganoff et le prince Scherbatow? le Mouhassibedji avec une effronterie audacieuse m'a repondu: qu'il avait reu une 2-de copie du premier

t l gramme, et qu'il en ignorait le motif, du reste il suppose qu'on lui a envoy cette copie pour prevenir le cas de perte de la premiere d p che. et que lui n'a fait que faciliter l depart des Voyageurs russes. me repetant l'affaire qu'il n'a pas voulu bliger ces Messicurs d'attendre m me 24 heures jusqu'a ce qu'il ai re u les instructions du Mout ssarif.

Je confesse que ce l che mensonge m'avait revolt. mais tout en me dominant, je n'ai pas manque de dire au Grant: qu'il doit tre heureux de la juste insistance de S. E. le Prince Scherbatow. qui lui avait declar: öqu'en vertu de l'ordre reu il est decid de partir. et que rien ne l'emp chera de partir le m me jour.

J'ai fait rappeler au Mouhassibedji qu'il ne doit pas oublier que si les Voyageurs russes ne seraient pas partis le m me jour. la unit m me a onze heurex l'innondation aurait indubitablement emport le compement tout entier, et puisque le courant avait port la crue des eaux devant la easerne. par cons quant les deux branches de la rivi re, s'etant unies il n'y aurait eu pour les voyageurs russes, enferm s dans le campement aucun moyen d'echapper a une mort certaine.

Dans l'endroit qu'on m'avait indiqu ou se trouvait le ravin dans lequcl camperent les Voyageurs russes. a l'heure qu'il ext. on ne voyait que les somments des muriers a cots desquels se trouvaient placcs les tentes. malgr que les caux avaicnt baisses.

Mes paroles ont provoqu une telle lividit sur la physionomie du Mou-

hassibedji, qu'un juge d'instruction aurait t difi sur la culpabilit que ressentait ce fonctionnire.

J'avais appris. que le Mout ssarif ainsi que le Mouhassibedji avainet esp rs d'etre d car pour cet exploit: ce que lui-m me a propag parmis ses confidents, je lui ai demand si les d corations qu'il exp rait recevoir avec son chef'le Moutessarif ont ete annonc es?

Sans doute les öistaghfer-allahs ü (Dieu me pardonne) n'ont pas fait dfaut ce croyant; mais la paleur de son visage dmontrait assez. qu'il sentait que le role changeait: au lieu d'tre juge arbitraire. il se voyait comme un criminel soumis a l'interrogatoire; mais ce moment de gene naturelle pass, j'ai du me refermer dans les limites de mon devoir, et enendre pendant quelques instants les balivernes deraisonnes de ce fonctionnaire que je n'ai pas voulu revoir.

L'innondation de l'Euphrate a devast e les champs cultiv s sur tout le parcours de ce fleuve, et dans le Sandjak de D r-zor on a ramass 86 ca-davtes jet s aux revis; on comple la perte, par des Milliers de moutons et de boeufs; en un mot les arbes, habitants les deux rives de l'Euphrate, se trouvent actuellement dans une des plus triste misere.

Je n'ai pas pu suivre Vos ordres, Monsiour le Consul. pour mon retour. car apres l'innondation et la famine existante a D r-zor je n'ai pu me procurer de suite des chevaux pour retourner. et le moucre n'a pu ach-eter un cheval pour remplacer le 2-e qu'il etait oblig d'abandonner, que

trois jours apr s mon arrive a D r-zor et ainsi je n'ai pas pu partir que samedi mation le 7 mai pour arriver ici Mercredi le 11 Courant.

J'ai l'ihonneur de Vous soumettre ei-inclus le Compte des prix de che vaux Ale p'd a r Dzor et vice-versa eleant sa Press 1666)[1].



(١) نقلت البلاغ المذكور حرفيًا دون تغيير الكلمات والكتابة المميزتين، من تعليقات المؤلفة.

الجزء الثاني ..

رحلة إلى بادية الشام والجزيرة
وشمال سوريا سنة ١٩٠٠م

المقدمة

عرّفت رحلتنا التي أنجزناها سنة ١٨٨٨ الكثيرين في روسيا وجود الحصان العربي، فقد كان هواة الخيل، عدا القليلين منهم، يعدون ذلك الحصان خرافيًا أو ليس له وجود، ودون الاعتراف بأهمية هذا الحصان في الماضي واستهانته في الحاضر هكذا هي الجهالة بالسلالة العربية التي منحت أوروبا أفضل خيولها في العصر الحاضر، فلولاها لما ظهرت الخيول الإنكليزية الكريمة والخيول الروسية الخابة، ولا يغتفر أيضًا أننا نحن بالذات نقلد الإنكليز بكل شيء فيما يتعلق بالخيول، والإنكليز يقدرون الخدمات التي أدتها لهم الخيول العربية كثيرًا، ولا أحد في إنكلترا سينكر، كما يفعلون عندنا، الدور الحاسم الذي لعبته السلالة العربية في تكوين الخيول الإنكليزية الكريمة أو سيكذب أصالتها.

يصل الحماس عندنا في روسيا بالخيول الإنكليزية الأصيلة إلى درجة عالية من السخافة، فإذا تأمل أحد ذلك فسيندهش عفوًا من عمى الأتباع الذين لا يعترفون بأي سلالة أخرى لأي هدف كان.

إن الحصان الإنكليزي عموميّ لهذه الدرجة وصالح لجميع التطبيقات مضحك جدًا كما لو نسبنا لأي نوع من البهائم أعلى الكيفيات الحراثية واللحمية واللبنية، أو عددنا نوعًا واحدًا من الأغنام لإنتاج اللحم والصوف، ولن يقول أي صياد أن كلاب الصيد السلوقية لا منافس لها من الكلاب الرعوية أو الحراسة.

طبعًا سيضحك أي إنسان إذا رأى شخصًا مؤمنًا بهذه العقائد الغربية، ومع ذلك أليس مربو الخيل عندنا هم الذين يدعون إلى هذه النظرية المستحيلة تجاه الخيول

الإنكليزية مؤكدين أنها أفضل خيول للسباق والخيالة والصيد والركوب؟ وبكلمة واحدة يقولون إن هذه الخيول تتوافر فيها كل الصفات المناقضة لبعضها، وهذا ما يشابه الدواء المستحيل الذي يريد صانعوه معالجة الأمراض كافة بمزيج من الأدوية من نوع واحد.

كل العاملين في تربية الحيوان يعرفون جيداً أن تطوير صفة معينة ضمن سلالة واحدة خلال الأجيال قد يؤدي إلى نتائج عجيبة، لكن البديهية التي يتجاهلها مربو الخيل عندنا أن مثل هذه المذاهب الضيقة تؤثر في الصفات الأخرى وتؤدي تدريجياً إلى فقدانها[١]، هذه الظاهرة، كما كان متوقعاً، حدثت مع الخيول الإنكليزية الكريمة التي ربوها خلال عشرات السنين الأخيرة بهدف واحد، وهو الزيادة من سرعة حركتها، لقد تحقق هذا الهدف تماماً ولكن مع ضرر للصفات الأخرى التي كانت تخصها منذ مئة عام، وفقدانها يجعلها غير صالحة لتحسين السلالات الأخرى[٢].

قلت سابقاً «التحمس للخيول الإنكليزية في روسيا»؛ لأنها وصلت إلى هذا الحجم الهائل عندنا فقط، ففي فرنسا وإنكلترا وألمانيا والنمسا وهنغاريا وأمريكا كانت ولا تزال سلالات ثابتة لأهداف معينة، فمثلاً في إنكلترا Hakney، مخصص للركوب في المواكب؛ وفي فرنسا races du midi (مع اختلاط كبير مع الدم العربي) خيول خفيفة للسباق و Normands وللركوب؛ وفي ألمانيا غانفيرسية وأولدينبورغية للركوب، أما؛ Trakehnen للركوب والسباق، في هنغاريا توجد

---

(١) بعد أن كتبت المؤلفه السطور الأخيرة، قرأت بعد شهر الملاحظات المتطابقة لها حرفياً التابعة لـ: "Sir Walter Gibey" في كتابه *.öHorse Breeding in England & India & Army.Horse Abroado page 14Æ

(٢) انظر في هذا الموضوع في أجر الكتاب مقتطفات من تأليف "Sir Walter Gilbey".

سلالات Lippieza ، Nonuis (وهو خليط بين الدم العربي والإسباني)؛ في إنكلترا Norfolk وسلالات أخرى خصصت للسباق، في النمسا سلالة Kladrub خصصت للركوب، و Pinzaucr خيول خفيفة مخصصة للسباق وللركوب أيضًا، في أمريكا أيضًا توجد خيول من سلالة مخصصة للسباق، ولها «ستود بوك» خاص.

بعد أن تعرفنا الخيول العربية شخصيًا، وتأكدنا من كيفياتها الكثيرة وصلاحيتها لتحسين تربية المطية في روسيا وللخيالة والصيد وبخاصة في البر بدأ الكونت استروغانوف والأمير شيرباتوف بعد عودتهما من الجزيرة العربية العمل على تأسيس أول مشتل عربي والمربى العربي، الكابارديني، والآخر العربي الدوني.

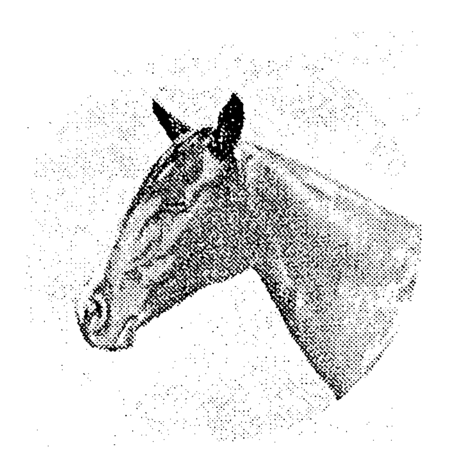
عندما كان الاثنان يذيعان رأيهما كانا يصطدمان باعتراض متفق عليه من دواع عمومية السلالات الأصيلة وبخاصة من أصحاب الخيول المعدة للركوب الذين خشوا أن إدخال الخيول العربية سيخفف من تسويقهم المواريات من مربيات الخيول الركوبية أو الاسطبلات التي تباع، كما يدعون، لتحسين سلالات أخرى، وذلك بسبب عدم صلاحيتها للسباق، أو لأي شيء آخر.

على الرغم من عدم وجود أي تأييد لذلك في روسيا، إلا أن الكونت استروغانوف والأمير شيرباتوف بقيا مثابرين على عملهما، وهما مقتنعان بصحة عقائدهما التي تُدعم في بلدان أخرى حيث ينال الحصان العربي درجة عالية من الشرف، وأخيرًا بعد سنوات من الجهود العقيمة نبتت في بلدنا أول ثمرة من البذرة التي زرعناها، فكلفت تربية الخيل الحكومية لشيرباتوف الحصول على الأحصنة العربية والأفراس لتأسيس المشتل العربي في مربى الخيل دير كولسكي.

كلفتنا طلبات المنتجين هذه أن نقوم مع الكونت استروغانوف برحلتنا الجديدة إلى الجزيرة العربية، فأنجزناها في شتاء عام ١٩٠٠م، وبما أن شيرباتوف نال توكيلاً من مربى الخيل الحكومي، اتصل سلفًا بالقنصل الروسي في دمشق السيد ب[١] مطالبًا منه جمع معلومات مفصلة عن المكان المتوقع لوجود البدو في الشهرين آذار ونيسان، وهكذا عرفنا سلفًا الأماكن التي سنتوجه إليها.



(١) في بعض الحالات لم تكتب المؤلفة من الكنيات إلا الحرف الأول، المعرب.



دير سكايا

الفصل الأول

تعلمنا خلال الرحلتين الأخيرتين إلى الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين[1] أنه لا جدوى من استئجار الناس والخيم وغيرها عن طريق وكالة كوك، فقررنا ألا نستعين هذه المرة بالوكالات، بل نرتبط مع الموردين مباشرة بكل ما يخص الحيوانات والخدم، ونمتلك الحاجات بأنفسنا.

ومن أجل تنفيذ هذا البرنامج أرسلنا كاراكين إلى بيروت قبل رحلتنا المقررة بعدة أسابيع، لأن كاراكين اشترك في بعثتنا السابقة عام ١٨٨٨ كما زار سوريا عام ١٨٩٥ لشراء الخيول.

لقد كلفنا كاراكين بكسب أو باستئجار ـ حسب الظروف ـ الكمية اللازمة من الحيوانات للرحل وخيول لركوب الخدم ولنا، كما كلفناه باستئجار البغالين وخادم

(١) كان سفرنا الأخير إلى سوريا وفلسطين عام ١٨٩٥م.

في البوفيه وطباخ وغيرهم من السكان المحليين، طلبنا الخيم في العام الماضي من القاهرة، أما صناديق الصحون وأدوات المطبخ فصنعت في روسيا تحت مراقبتي، كما استجلبت من إنكلترا الأطعمة ولوازم الخيم كالأسرّة والكراسي والمصابيح وغيرها من الأشياء الكثيرة اللازمة للرحلة في الصحراء مدة شهرين، بدأت بالتجهيزات قبل مغادرتنا روسيابعدة أشهر لأن الطلبات والاستجلابات وإرسال الحاجات إلى بيروت يستغرق وقتًا طويلاً.

غادرنا روسيا في ٢٤ من شهر شباط، ومررنا بفيينا والقسطنطينية، وفي يوم الاثنين الموافق ٦ (١٩ آذار) وصلنا إلى بيروت، حيث استقبلنا كاراكين ومعه شخصان روسيان: أخذا لهدفين: أن يكون عندنا الخدم الروس ولزيادة عدد الأوروبيين في القافلة ضمانًا لسلامتها، كما كان ينتظرنا السيد «أ» وهو الطبيب البيطري المبعوث بطلب من شيرباتوف ومن الإدارة العامة لتربية الخيل، كما كان معنا صديقنا «ي».

لقد سرّنا كاراكين بخبر عن نهاية تجهيز القافلة كاملة، كما لا يمكن إلا أن نذكر أنه أدى واجباته بشكل ممتاز، فقد استأجر كاراكين الناس كما استأجر البغال والحمير والخيول، لأن شراءها أغلى بكثير من استئجارها، وكل الحاجات الأخرى مشتراة أيضًا كما استؤجرت الخيمة لـ «أ» و «ي»، أما خيمنا فاستلمت في دمشق من القاهرة، ولم يبق سوى انتظار وصول الأمتعة من إنكلترا، وبعد ذلك سننطلق مباشرة، لقد وصلت الأمتعة بعدنا بيومين بسبب مصادفة مزعجة، هي فقدان أحد الصناديق الأكثر أهمية، بينما كان وكيل البواخر يرسل برقيات إلى الموانئ المختلفة باحثًا عن الصندوق الضائع، سافر «أ» و «ي» إلى بعلبك لمشاهدة الآثار، فهذه أول زيارة هما للشرق، ومنها سيتجهان إلى دمشق، كما أن القافلة انطلقت أيضًا إلى دمشق يوم السبت، أما نحن فبقينا في بيروت ننتظر الأخبار.

وأخيرًا استلمنا أمتعتنا المفقودة في الرابع عشر من آذار، وفي اليوم التالي سافرنا بالقطار، هذا الطريق الذي كان يقطع على الخيول منذ اثنتي عشرة سنة ويستغرق ثلاثة أيام، لم يستغرق الآن سوى ثماني ساعات بفضل وسائل المواصلات المعاصرة والمتحضرة والسريعة، ولكنني أفضل الطريقة القديمة أكثر بحياتها التنقلية بين المناظر الطبيعية الخلابة، التي نراها الآن بلمحات خاطفة من نوافذ عربة القطار.

وصلنا إلى دمشق في الثالثة بعد الظهر فاستقبلنا في المحطة الخفراء الشراكسة المرسلين من الحاكم العام، ثم اتجهنا إلى المخيم مباشرة الذي نصب على شاطئ نهر بردى مثل المرة الماضية.

كنت مشغولة مع سمعان وكاراكين طوال النهار في تصنيف الأطعمة وغيرها من التموينات التي أرسلت من إنكلترا محزومة في أربعة وعشرين صندوقًا، كان صعبًا تنظيم هذه الأعداد الهائلة من التنكات والحزم والعلب، وبخاصة أنني كنت أدل سمعان على الأمكنة التي توجد فيها الحاجات المختلفة؛ لأخفف عنه التعب وذلك بشراء الأشياء الضرورية للاستخدام اليومي في الطريق، وإضافة إلى ذلك كان ينبغي علينا أن نحصي كل الحاجات التي كانت عندنا ونشتري منها ما كان غير كاف بنظر خادم البوفيه قبل مغادرتنا دمشق، ولا سيما أن الشان الأخير كان مهمًا؛ لأننا سنقضي قرابة شهرين في الصحراء التي لا يباع فيها أي شيء من الغذاء سوى لحم الغنم.

أمرت أن تكون الصناديق مرقمة، وأن يكون في داخل أغطيتها قائمة الحاجات الموضوعة فيها، كان وزن الصناديق من ثلاثة إلى أربعة أبواد وربع، فكان الاثنان أو ثلاثة منها رحلاً كاملاً.

قضينا اليومين التاليين كل واحد في عنائه، فشيرباتوف الذي جاء إلى هنا في الأسبوع الماضي؛ لينال المعلومات المجمعة في القنصلية عن مكان استقرار القبائل

البدوية أخذ على عاتقه الواجبات الدبلوماسية والعمومية، فكان يؤدي الزيارات، ووقع نصيبي تدبير شؤون القافلة، فقد كنت أصرف وقتي كله في شراء الهدايا للشيوخ في الأسواق كالمخدات للخيم والأرسان للخيول وغيرها من الخرداوات، وكان «ي» و «أ» يدوران بين تجار الخيل والاسطبلات لمشاهدة الخيول المعدة للبيع.

لا يزال حبسنا في دير الزور الذي استمر أسبوعين عام ١٨٨٨م حيًا في ذاكرتنا؛ لذا تزودنا في القسطنطينية بالمراسيم اللازمة من الحاكم التي تسمح لنا بالتجول في أرجاء تركيا، وتمنحنا حقًا في حمل الأسلحة النارية، ومنذ مدة ألغي الحظر على تصدير الخيول من سوريا، وحلت محله رسوم جمركية قدرها خمسون روبلاً على الرأس، وهكذا أزيلت همومنا بالتفكير عن مطالبة التصريح الاستثنائي لتصدير الخيول، الذي كانت السلطات التركية تمنحه لنا بتثاقل كبير.

أخيرًا انتهينا من تجهيز القافلة تمامًا، وكان أفرادها ثلاثة أشخاص روس، ما عدا نحن الأربعة واثنان وعشرون شخصًا من المحليين، وكانت واجبات الأشخاص الروس هي الآتية: كاراكين هو المدبر الأول والصراف، وميخايلو خادمنا الشخصي أنا وشيرباتوف، أما فولكوف فليس له عمل حاليًا؛ لأنه خصص للخيول التي سنشتريها. وكان من المحليين تسعة عشر مارونيًا وواحد من عجيل واثنان من دير الزور، كما اخترنا لخدمتنا في البوفيه صاحبنا القديم سمعان، الذي صاحبنا في رحلتنا إلى سوريا وفلسطين عام ١٨٩٥م، وإلى مصر عام ١٨٩٩م، إنه رجل ممتاز وأمين، ولكن عابس وشكس بعض الشيء كأكثر السكان المحليين، ومع ذلك نشيط ومشغول باستمرار، وكان معنا ترجمان اسمه سركيس وهو خادم «ي» والوحيد من السكان المحليين الذي يتكلم الفرنسية بطلاقة، لقد سئم منه سيده في بيروت؛ لأنه كان يلاحقه في كل مكان سواء في المدينة أو ضواحيها عازمًا ألا يغيب عن نظره،

عندما كان سركيس ينادي شيرباتوف أو يناديني، كان دائمًا يبدأ بكلمة óAltesse! التي كان يلفظها بلذة مميزة، وكان طباخنا يوسف، وهو صديقنا القديم والوحيد الذي صاحبنا في رحلتنا عام ١٨٨٨م، وكان طباخنا وقتذاك أيضًا، أما مساعده سمعان فكان رجلاً نحيفًا وعجوزًا، ويمتاز بخدمته الكبيرة لنا.

كان السائس الأكبر اسمه إبراهيم، وهو أخو ابن درويش الذي استأجرنا منه البغال والخيول، وقد كان إبراهيم شابًا جميلاً، طويل القامة، له شوارب سوداء طويلة، وعينان سوداوان تلمعان، تمنحانه نظرة غاضبة، وكان فارسًا ممتازًا ولكن غاضبًا وغير لطيف، والسائسان الآخران هما الصبي فايز الذي يمتاز بملامح الوجه المنتظمة وبجمال يجذب انتباه أي فنان، والسائس عبد الله وهو محبوب من قبل الجميع؛ لأنه حاذق ومرح ولطيف، كان عبد الله يؤدي واجباته بسرعة وهو يضحك ويغني، كما كان شجاعًا ويجيد الفروسية.

وكان عدد البغالين أحد عشر شخصًا، أكبرهم حنا الأحدب، يمتاز بنظرته الصارمة، ومع ذلك خدوم، كما اخترنا للخيول التي سنشتريها السائس درويش وهو مهرج القافلة، فقد كان يلهي الجميع بحركات عضلات وجهه الشائخ والمتجعد والمضحك، واستأجرنا لحمل الفحم بغلين مع أصحابهما، وهما من أهل دير الزور، أما دليلنا فكان عبد العزيز من عجيل، الذي كان مساعد الشيخ نصر في رحلتنا عام ١٨٨٨م، نسيت أن أذكر أن صديقنا المخلص والأمين الشيخ نصر قد توفي منذ سنتين، فأصبحنا محرومين من مرشد ومستشار لا بديل له لمثل هذه الرحلة، ومن دونه لن نستطيع أن نهتدي في الصحراء جيدًا.

وكانت حيواناتنا تتكون من: ١٨ بغلاً رحلاً، و ١٢ حمارًا يركبها البغالون والطباخ، وجمل واحد لعبد العزيز، وفرسي رحل لحمل الخيم، والأطعمة و ٢١ حصانًا للركوب، وكانت حادة المزاج جدًا، وتحتاج إلى انتباه مستمر، ولم تريحنا

من المتاعب حتى آخر الرحلة، إذا غفلنا عنها قليلاً كانت تبدأ بالمقاتلة والعض مثل الكلاب تمامًا، حتى ولو كانت مربوطة بساقيها الأماميتين والخلفيتين والأرسان، وكان أكثرها شراسة مربوطًا بالحديد، كنا نضطر أن نبتعد بعضنا عن بعض في أثناء السير، وعند التوقف حاولنا إبعاد الخيول عن بعضها، وكان حصان شيرباتوف كبيراً وقويًا كميتًا أحمّ يمتاز بنفسيته الحقيرة أكثر من الجميع، فسميناه وحشًا.

قمنا اليوم مع القنصل ب بزيارة مدرسة المجتمع الفلسطيني للبنات المحليات، هذه المدرسة عبارة عن أبنية متصلة ببعضها بالأفنية، لا أذكر كم كان عدد الأطفال فيها فقد كان عددهم كبيراً، ومن كل الأعمار ابتداء من الصغار الذين لا يتجاوز عمرهم أربع سنوات وانتهاء بالصبايا اللواتي أعمارهن ١٤ - ١٥ سنة، وكانت المعلمات على ما أذكر من السكان المحليين، وقد تلقن البعض منهن في سوريا والبعض منهن في روسيا، وكانت الواحدة منهن طالبة في سيمينار[(١)] ييبفانيفسكي في موسكو، أما الناظرة فكانت روسية دائمًا.

تلقى الدروس في هذه المدرسة بالعربية والروسية، واللغة الروسية إجبارية، كان انطباعنا عن هذه المدرسة جيدًا، فقد كان الأطفال فيها مرتبون ومرحون ومن الظاهر أن حياتهم المدرسية لا تتعبهم أبدًا، كما أعجبنا كثيراً بهيئة التدريس، فهم يسكنون في السكن العام، فيه غرف للنوم والأكل والمضيفة والفناء، وترتيب السكن هذا بسيط ومريح جدًا.

السبت ١٨ (٣١ آذار) التوقف الأول: قضيت الصباح كله في كتابة الرسائل وحزم الأمتعة الشاق، ففي آخر دقيقة يظهر دائمًا أن عدد الأمتعة أكثر من عدد المحلات، حتى إذا اختصرنا عددها إلى الحد الأدنى، ورمينا الأشياء غير المهمة، تكون النتيجة نفسها، على أي حال ففي بلد خال من المياه والنساء الغسالات نضطر

---

(١) سمينار: مدرسة ثانوية دينية، المعرب.

أن نأخذ معنا أشياء كثيرة زائدة، فمتاعي الخاص يضم حقيبتين وزنهما الإجمالي بودان ونصف، وسلة وزنها بودان، فيها كتب للقراءة وأدوات الإسعاف.

في الحادية عشرة استطعنا أخيراً إغلاق حقائبي بعد توحيد القوى لدى «ي» وميخايلو وفولكوف، بعد أن بلغنا الحد الأقصى من سعة الحقائب، وبما أن الخيم كانت مطوية سلفًا، كان أفراد القافلة يحملون البغال بينما كنا نحن نتناول طعام الفطور، وفي منتصف النهار بدأنا رحلتنا بطاقمنا الكامل.

مررنا بشوارع دمشق الضيقة والأسواق حيث الازدحامات الكبيرة، وكان سركيس يشق الطريق من أمامنا وهو يتخطر بشكل جميل (كما كان يظن)، فهو معتاد على قيادة سواح من وكالة كوك، ويحلم بالتأكيد أن يكون أستاذاً لـ öAltesseإلا أنه لم يسر لواجبه كمرشد في الشوارع المزدحمة، لذلك عندما خرجنا من نطاق المدينة وأصبحنا على الطريق المعبد، اندفع سركيس إلى الأمام، فاتفقنا أنا و «ي» بحث خيولنا على السرعة، ولم نتوقف إلا بعد اختفاء سركيس عن نظرنا، وكم حزنا عندما لحقنا هذا المرشد العارم، وأصبح أمامنا من جديد، عندئذ نفد صبري وقلت لـ «ي»: «لقد بدأت أسأم من سركيس!» فرد «ي» على ذلك: «أنت تبدئين؟ أما أنا فسئمت منه منذ وقت طويل».

نصبنا مخيمنا في الثانية والنصف قرب منصب الحراسة.

الأحد ١٩ آذاد (١ نيسان)جيرود: الطريق إلى جيرود معروف للمسافرين جيداً، فلا داعي إلى وصفه، وخصوصًا أني وصفته في رحلتنا الأولى، أما جيرود فقد كبرت خلال الاثنتي عشرة سنة الأخيرة، وتغيرت كثيراً، فقد زادت فيها مزارع الكروم التي غيرت مناظر الضواحي، بحيث إنني لم أستطع تعرف مكان توقفنا المعتاد، وبعد ابتعادنا ثلاث فرستات عن المدينة وجدنا مكانًا مناسبًا لنصب الخيم ونهراً بمياه نقية إلى حد ما.

الاثنين ٢٠ آذار (٢ نيسان) الموقف الثالث: استأجر سركيس في جيرود ثلاثة جمال لحمل المياه؛ لأن المبيت القادم سيكون في منطقة خالية من المياه في منتصف الطريق المؤدي إلى القريتين.

وضعنا النظام اليومي على الشكل الآتي: في الخامسة صباحًا تزال الخيم وتربط، ومن هذه الخيم المطبخ والمأكل وخيمة الخدم، ثم تعد صناديق الأطعمة وتحمل على البغال، ونستيقظ نحن في الخامسة والنصف، وبعد خروجنا تزال خيمنا؛ أي خيمة «ي» و «أ» وخيمة شيرباتوف وخيمتي، وفي السادسة نجتمع أمام مائدة الشاي في الهواء الطلق، فنشرب الشاي أو القهوة بينما يحمل البغالون البغال والخيول.

بعد أن ينتهي شيرباتوف من شرب الشاي يمتطي حصانه وينطلق بصحبة «أ» مع الفرقة الأمامية وأفرادها فايز وهو يركب حصان النقل مع الخيمة والأطعمة الخفيفة وغير فايز يوجد في هذه الفرقة سركيس ودرويش وعبد العزيز وهو المرشد، أما أنا فأبقى مع «ي» لمراقبة تحرك القافلة، فالبغالون غالبًا ما يتباطؤون في تحميل البغال وهم يتشاتمون ويتذامرون فيما بينهم لأي سبب بسيط، فكل واحد يحاول أن يخفف من وزن الأمتعة عن بغله.

وأخيرًا ربطت الأدوات الأخيرة وأخذ ميخايلو يتقدم إلى الأمام كقائد الطابور وهو متدثر بعباءته وكوفيته ومسلح بالبندقية، وتتبعه من خلفه البغال على شكل سلسلة بصحبة البغالين الراكبين على حمرهم، وقد كلف فولكوف وكاراكين بمراقبة حقيبة المال؛ لأن فيها مبلغًا لا يستهان به، والاثنان مزودان بالأردية المحلية ومناديل الرأس ومسلحان بالبنادق والمسدسات، أما سمعان ويوسف فيركبان خيولهما مثل إبراهيم وعبد الله.

ارتدينا كلنا العباءات والكوفيات، فمن دونها من المستحيل البقاء طويلاً تحت هذه الشمس الحارقة، التي يتشقق بسببها جلد الوجه والأيدي، وليس هذا فقط، بل قد نتعرض لضربة الشمس، وتتألم العيون من لمعان الرمال الشديد، ولتجنب هذا تربط الكوفية حول الرقبة والرأس ويترك شق ضيق للعيون.

كانت البغال اليوم نشيطة وكان الإمساك بها صعبًا، في مرات أخرى كانت البغال المحملة تنتظر بصبر نهاية تحميل البغال الأخرى، ثم تسير خلف قائد الطابور، ولكن في بعض المرات تندفع البغال إلى الأمام بانتهاء تحميلها وبخاصة ذات الحمل الخفيف، وقد تكون هذه العجلة بسبب الثقل، فتحسب البغال أن سيرها السريع سيوصلها قريبًا إلى مكان التوقف المقبل، حيث ستتخلص من حملها، ومن العجيب أن البغال المتروكة وحدها لا تخطئ أبدًا في الاتجاهات المطلوبة، وبدلاً من أن تتجه بطبيعتها إلى طريق العودة من حيث أتت، تسير بالاتجاه المعاكس أي الصحيح، على العموم البغال حيوانات ذكية وجميلة وصبرها عجيب، ولم تكن في قافلتنا إلا البغال الكبيرة والمتينة البنية ما عدا القلائل، فقد اخترناها في بيروت وامتنعنا عن الضعيفة منها بانتباهنا إلى ظهورها، التي غالبًا ما تكون مضروبة بالسروج القبيحة التي يستعملونها في جميع أرجاء سوريا، كما أن هذه السروج ثقيلة الوزن، ولا يستطيع الإنسان رفعه وحده، ووضعه على متن البغل وسوء صنع هذا السرج يؤدي إلى اهتزازه وميله من جنب إلى جنب، ولا يثبت في مكانه إلا بالتوازن أو الربط بالحبال، وإذا أخذنا بالحسبان أن هذه السروج لا تخلع إلا مدة ربع ساعة في الصباح، وربع ساعة في المساء لتنظيف الحيوان، وباقي الوقت تشوي ظهره البطانة التي لا تجف من العرق أبدًا، فليس من العجيب أن ظهور الحيوانات تتضرر ولا تندمل بل تسوء من يوم إلى يوم.

يتراوح وزن الرحل من ١٠ إلى ١١ بودًا دون حساب وزن السرج والعلف لثلاثة أيام، الذي يحتوي على القش المفروم والشعير، وإجمالاً يكون الوزن ١٢-١٣ بودًا، تتصادف مثل هذه الأوزان فقط عند استئجار القافلة من وكالة معينة التي تأخذ مبلغًا كبيرًا من المسافرين، وتحاول أن تختصر من عدد البغال والأفراد المأجورين وتوفر بذلك مصروفها.

في مثل هذه الظروف من المستحيل أن تسرع القافلة لتتمكن من اجتياز المسافات الطويلة، ومن جراء هذا كنا في رحلتنا قبل الأخيرة إلى بادية الشام نتخاصم مع البغالين كل يوم تقريبًا، وهم يشتكون أننا ننهك بغالهم، أخذنا بالحسبان هذه الظروف، فحسبنا ألا يزيد هذه المرة وزن الأمتعة عن ثمانية ونصف أو تسعة أبواد، فأصبح وزن الرحال مع السروج والعلف لا يزيد عن عشرة أو عشرة ونصف بود.

ولكن حتى بهذه الرحال الخفيفة نسبيًا من العجيب أن البغال تتحمل السير بسهولة، وذلك مع ضآلة كمية التغذية التي كانت تتكون من مخلاتين من القش المفروم والشعير يوميًا، وبخاصة أن القش تفتت من جراء الاهتزاز المستمر فتحول إلى تبن دقيق، وغير ذلك لم يكن عندنا متسع من الوقت للأكل، ففي الخامسة صباحًا كانت البغال تقف جاهزة ومحملة، كما أن اجتيازاتنا تستغرق وسطيًا من ثماني ساعات ونصف إلى تسع ساعات ونصف، وإذا انطلقت القافلة في السابعة صباحًا فلن تصل إلى مكان التوقف إلا في الرابعة أو الرابعة والنصف، ثم يحتاج نصب المخيم إلى ساعة ونصف أو ساعتين، وتربط الخيول إلخ . . . عندئذ تترك البغال لترعى بحريتها باحثة عن الكلأ ولكن الكلأ نادر جدًا بحيث إن الحيوانات قلما كانت تستطيع أن تملأ معدتها.

في السادسة أو السابعة صباحًا أو بعدها حسب طول الاجتياز كانت المخلاة التي تأكل منها الخيول والبغال تملأ بكمية واحدة، وكمية الشعير اليومية لكل

حيوان لا تزيد عن غارنيتسين[1]، أهم ما لاحظته صبر البغال غير العادي وصبر الخيول التي لم تنهك ولم تنحف، حتى بعد ستة أو ثمانية أسابيع من الحركة المستمرة في الجو الحار مع قلة المياه.

كما قلت سابقًا عندما كانت البغال ترى شيرباتوف وهو يتحرك للرحيل كانت تندفع خلفه دون أن تنتظر إخوانها على الرغم من من مراقبة ميخايلو وفولكوف، وبخاصة واحد منها وهو البغل الغيور وزعيم القافلة، كبير الحجم، ورمادي اللون، فإذا أراد اثنان من البغالين تحميله كانا يمسكانه بصعوبة كبيرة، وإذا نسيا من غفلتهما ربط رقبته بالسلسلة من أرسانه، فعندئذ يسقطهما البغل بضربة ورفسة، ثم يجري بالمخيم ويتركل، حملوه في هذا الصباح بنجاح، ولكن بصعوبة بالغة، ولتخفيفه من حميته حملوا عليه أثقل حمل؛ أي صندوقين من لوازم المطبخ (١١ بودًا) إلا أنه حين ينال حريته يشاغب كعادته ولا يهدأ إلا بعد أن يسقط الرحل من على متنه، راقبنا تلك «الألعاب النارية» برعب، فقد تأكدنا أنه لم يبق من أملاكنا إلا حطام، ولكن لحسن الحظ لم يتكسر شيء، على أي حال ليس هو الوحيد الذي أتعب البغالين اليوم.

بعد أربع ساعات من السير (٢٧ فرستا) وجدنا مكانًا مناسبًا للمخيم، فتوقفنا، في الوقت نفسه وصلت معنا ثلاثة جمال حاملة المياه في اثنتي عشرة قربة، لم تنل الخيول والبغال إلا ثلث سطل من الماء لكل رأس، وطبعًا هذه الكمية لا تروي عطشها أبدًا.

الثلاثاء ٢١ آذار (٣ نيسان) القريتين: قطعنا اليوم مسافة قصيرة نسبيًا استغرقت ثماني ساعات للقافلة وخمس ساعات لنا (٣٥ فرستا)، وعلى بعد ٤ فرستات عن القريتين جمعت باقة من أزهار السوسن البرية والجميلة من نوع قزمي.

---

(١) غارنيتس: مقياس وزن روسي قديم للمواد السائلة، تعادل ٣,٢٨ لترًا، المعرب.

استقررنا في بادئ الأمر قرب القريتين على ساحل النهر، ولكننا عرفنا بعد ذلك أن نساء القرية تغسل عادة الغسيل في هذا الجزء من النهر، فانتقلنا بنصف فرستا إلى أعالي النهر، حيث كانت المياه أنقى.

بعد وصول القافلة بقليل جاء إلينا ابن الشيخ فياض القريتيني، الذي تعرفنا عليه في عام ١٨٨٨م، وهو الآن موجود مؤقتًا في حمص، كانت مع شرباتوف خيمة لاستقبال الزوار مربعة الشكل، مع ظلة تفرش فيها السجاجيد وتوضع الوسائد لأن السكان المحليين يجلسون عادة على الأرض متربعي الأرجل.

جاء إلينا الكثير من السكان ممتطين الخيول، وأخذوا يتخطرون حول مخيمنا آملين أن يبيعوا لنا خيولهم.

الأربعاء ٢٢ آذار (٤ نيسان) الوقوف في الصحراء: كان الجو لطيفًا في النهار ومعتدل الحرارة، ذهبنا إلى مكان مبيتنا في الصحراء دون توقف فوصلنا إليه في السابعة مساء، ووصلت القافلة في العاشرة، نظرًا لعدم كفاية المياه أخذت هذه المرة خمسة جمال حاملة عشرين قربة، ولكن هذه الكمية لا تكفي لسقاية الحيوانات حتى الشبع.

رأى «ي» في أثناء نزهته عدة جحور عقارب وعبر بهدوء أن هذه الحشرات السامة توجد هنا بكثرة، وبعد أن زرع في قلوبنا شعورًا بالضيق مع تلك الملاحظات أضاف أنه لم يسمع قط أن أي إنسان قد مات من لدغة عقرب.

وبسبب اقترابنا من الجبال التي تتخذها قبيلة العمور اللصوصية مقرًا لها، أمرنا البغالين والسواس بحراسة المخيم ليلاً بالمناوبة.

الخميس ٢٣ آذار (٥ نيسان) تدمر: كانت الليلة باردة جدًا، وفي السادسة صباحًا أشر ميزان الحرارة على ثماني درجات في الخيمة، امتنع الجميع اليوم عن

استخدام الصابون في أثناء الاغتسال الصباحي، لكي لا تتلوث المياه وتترك للخيول تشرب منها، أما أنا فنلت استثنائيًا حوضًا كاملاً من الماء للاستحمام الذي أسقى بعد ذلك حصاني الأمغر، أما البقية فلم يكرموا لهذه الدرجة، ونال كل منهم إبريقًا من الماء يجب أن يكفيه حتى صباح غد.

في أثناء سيرنا قفز من تحتي أرنب رمادي، فدفعتني غريزة الصيادين إلى مطاردته، لكن التربة كانت مليئة بالحجارة اضطررتني إلى تنكيص فرسي، في هذه الأثناء كان البقية يركبون بمسافة فرستاتين على يسار الطريق، وتوقفوا قرب البدو، وبعد أن وصلت إليهم عرفت من شيرباتوف أن هؤلاء البدو يزعمون إنهم من قبيلة القموصة، فسررنا لهذا اللقاء، ونزلنا عن خيولنا وجلسنا على الأرض بشكل دائري، وأخذنا نسأل معارفنا الجدد عن مكان وجود قبيلتهم وشيخهم إلخ . . . ولكن لدهشتنا الكبيرة كانت أجوبتهم غير متتابعة ومترددة، فتخبرنا كثيرًا حتى جاء عبد العزيز وفسر لنا أن محادثونا ليسوا من البدو بل من قبيلة العمور.

كانت هذه المصادفة مربحة من جهة واحدة؛ لأني تمكنت على شراء حمار أبيض، فقد رغبنا ذلك أنا و «ي» سوية منذ قدومنا إلى بيروت، ولكن «ي» أرضى طلباته في دمشق، في حين أنني لم أتمكن من إرضاء نزوتي حتى الآن، وهنا عند قبيلة العمور وجدنا العديد منها، وبعد مساومات طويلة استطاع إبراهيم أن يتفق على الثمن الرخيص نسبيًا لواحد منها.

توقفنا في الحادية عشرة والنصف في عين البيضاء، ونزلنا عن صهوة خيولنا قرب قلعة صغيرة، وبعد ذلك أحضر لنا الجنود الخدومين العباءات واللحافات والسجاجيد، وفرشوها على المقاعد الحجرية الواقعة على طرفي المدخل، ثم دعونا للجلوس.

تستخدم دوائر الشرطة التركية هذه استراحات جيدة للمسافرين، فالحيطان الحجرية والقنطرات تفح بالبرودة، والهواء يخرق المكان، توجد على الطريق بين دمشق ودير الزور ثلاثة مناصب حراسية تركية، تتبدل كل ثلاثة أشهر، وواجب الجنود الحفاظ على أمانة الطريق، وأفضل وسيلة لذلك الآبار التي تبعد عن بعضها عشرات الفرستات، ولعدم وجود مياه أخرى تضطر القبائل البدوية إلى سقي قطعناها من هذه الآبار، والدخول الحر إلى منطقة الآبار تعود إلى إرادة الأتراك الطيبة.

وجدنا هنا بدويين من قبيلة العواجة، أخبرانا أن قبيلتهم توجد حاليًا قرب أرك، أما هذان البدويان فكانا ذاهبين إلى دمشق لبيع الأغنام، لقد سررنا كثيراً من خبر لقائنا السريع مع البدو وإمكان شراء الخيول منهم.

في الثانية عشرة وصلت القافلة وبدأ أفرادها بسقي الحيوانات، وكان هذا العمل يحتاج إلى دقة وتعب بسبب عمق الآبار وصغر حجم المغارق، ارتوت الحيوانات في الواحدة والنصف، وتحركنا من جديد بطاقمنا الكامل، وبعد قليل تأخرت القافلة عنا كالعادة، أما بعض أفراد الفرقة الطلائعية، وهم «ي» وعبد العزيز وأنا، فقطعنا ٥٨ فرستا بثماني ساعات ووصلنا في الخامسة والنصف إلى تدمر.

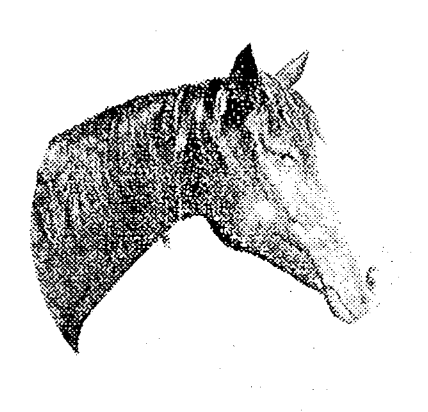
لقد سبقنا القافلة عمداً لنجد مكانًا مناسبًا للتوقف سلفًا، فقد علمتني التجارب السابقة أن هذا الشيء ليس بسهل، ولا يوجد بين الآثار سوى بئرين من الماء العذب، حيث تكون الأرض مرصعة بالحصى، ولا تسمح للخيول والبغال بالاستلقاء ولا حتى بنصب خيمتنا الصغيرة إلا بعد تنظيف المكان منها.

غابت الشمس منذ مدة طويلة وستر ظلام الليالي الجنوبية حتى الأشياء القريبة والقافلة لا تظهر، ثم وصلت القافلة في الثامنة والنصف بعد اثنتي عشرة ساعة من

السير، اضطررنا إلى تعليق المصابيح لإنارة المنطقة ولترتيب البغال والخيول والحمير والصناديق والخيم والحزم.

كنا جائعين جدًا، فقد أفطرنا في الحادية عشرة ومنذ ذلك الحين لم نتناول شيئًا سوى فنجانٍ من الشاي، وأشبعنا جوعنا في العاشرة مساء.

❋ ❋ ❋



شمسة

الفصل الثاني

الجمعة ٢٤ آذار (٦ نيسان) الوقوف في جبال العمور: قررنا الانطلاق في الساعة الثامنة من صباح غد، نام الجميع نومًا عميقًا بعد تعب أمس، عندما خرجت من خيمتي متأخرة وجدت أن الجميع يشربون شاي الصباح، ومن بينهم صاحبنا القديم الشيخ محمد من تدمر، الذي أخبرنا أن قبيلة العواجة توجد في مكان يبعد ثلاث ساعات سيراً إلى الشمال عن تدمر.

بعد أن سمعنا هذا الخبر الجديد قررنا أن نغير طريقنا ونذهب إلى قبيلة العواجة اليوم، وبعد أن عرف الشيخ محمد ذلك تبرع أن يدلنا على مكانهم، فقبلنا اقتراحه بكل سرور؛ لأن الشيخ محمد الذي تنقل كثيراً برفقة الزوجين بلانت وكانت عنده مخالطات كثيرة مع السواح الأجانب في تدمر، تعود على معاشرة الأوروبيين وأصبح التفاهم معه سهلاً دون الاستعانة بالترجمان، ونظراً لهذا سيفيدنا كثيراً في المحادثات مع البدو، كما أنه صديق قديم لفرحان بن حديب (؟)، وتلبية لآداب

السلوك في مثل هذه الحالات أرسل الشيخ محمد أحد الركاب ليخبر الشيخ عن قدومنا القريب.

بعد خروجنا من تدمر تركنا الطريق المؤدي إلى أرك على يميننا، واتجهنا إلى الشمال، وبعد فرستاتين أو ثلاثة وصلنا إلى ذيول جبال العمور، وهي سلسلة جبلية ممتدة موازية للصحراء من جبال لبنان حتى نهر الفرات، كانت همة النفس لدى جميع أفراد القافلة عالية، فقد فرح البغالون والسواس وغيرهم للاجتياز السهل وقرابة راحة النهار، وفرحنا نحن لقرب لقائنا البدو، لهذا كان الناس والبغال المسرعة بهم يسيرون بسرور وخفة.

بعد أن عبرنا الجبال الصغيرة نزلنا إلى واد ضيق، يخرق الجبال من الغرب إلى الشرق، وفي مؤخرتها البعيدة ظهرت بعض الخيم، في البداية ظننا أنها جزء من قبيلة العواجة، التي نبحث عنها، ولكن مع اقترابنا إليها تأكدنا من خطأ ظنوننا لعدم وجود الحربات القصبية المغروسة في الأرض كما هي العادة عند البدو الأصليين.

بعد ذلك سبقنا شيرباتوف للاستطلاع، وبقينا أنا و «ي» وفولكوف ننتظر عودته؛ بعد قليل من الوقت أخبرنا شيرباتوف أنه سيبقى ليشرب القهوة عند العمور، وهم أصحاب هذه الخيم، وطلب منا إكمال سيرنا إلى مكان التوقف المقبل قرب النبع في الجبال الواقعة على بعد ساعتين ركوبًا إلى الجهة الشمالية الغربية.

بعد أن قطعنا عدة فرستات بالاتجاه المؤشر من قبل العمور دخلنا واديًا عريضًا ورأينا في جهته الشمالية منحدرًا خفيفًا ومرتكزًا على الصخور الجبلية المحاصرة لهذا المنخفض على شكل نصف دائري، وفي بداية المنطقة الصخرية وجدنا كهفين مليئين بالمياه الزلال النقية والباردة جدًا، وعلى الرغم من أننا لم نقطع سوى ٢٨ فرستا إلا أنه وجب علينا أن نتوقف هنا لعدم وجود مياه أخرى بمسافة عدة فرستات من حولنا.

اخترنا مغارة واحدة للاغتسال والأخرى للشرب، ولم نتمكن من نصب مخيمنا إلا على مسافة أربعين ساجين إلى الأسفل من الينابيع على مكان ممهد بعض الشيء، ولكن كثير الحجارة أيضًا، فاضطررنا إلى بعثرتها لننصب خيمتنا في مكانها، كانت المناظر الطبيعية المحيطة بنا خلابة جدًا كمنظر الجبال الجميلة والوادي المليء بالعشب العالي، الذي كان يداعب النظر بحضرته بعد الصحراء الرتيبة، ويجذب البغال والحمير التي رعته طوال النهار، وهي تلتهم سيقانها الريانة بشراهة.

اغتسل جميع أفراد القافلة في الكهف بالتوالي، فتبعتهم بالمثل وصعدت إلى الأعلى على الحمار، في السادسة قَدِمَ سطام وهو الابن الأكبر لشيخ قبيلة العواجة فرحان بن حديب (؟) التابع للعشيرة التي تعدّونها من أفضل العشائر في الصحراء وأقدمها.

كان سطام مبعوثًا مع البدو الثلاثة من قبل أبيه للترحيب بنا ودعوتنا إلى مخيمه على مسافة قرابة ثمانية عشر فرستا من هنا، كان من رؤية هؤلاء البدو الأربعة من أعالي الجبل ممتعًا وهم يقتربون على خيولهم العربية الكريمة، بأزيائهم البهية، وحرابهم على أكتافهم، عندما اقترب الأربعة إلى مقرنا سلموا خيولهم ثم غرسوا حرابهم في الأرض، وألقوا السلام بعزيمة وكبرياء لشيرباتوف، الذي خرج لاستقبالهم، ثم دخل الجميع إلى خيمة صغيرة، أعطانا إياها الشيخ محمد الذي سيصاحبنا إلى السخنة، جلس شيرباتوف مع ضيوفه على السجاجيد المفروشة على الأرض، وبدأت المحادثات مع شرب القهوة مثل العادة.

أرسل لنا الاثنان من شيوخ قبيلة العمور المتناثرة بخيمها في كل الضواحي المحيطة بنا خروفين على سبيل الترحيب ثم جاءا بأنفسهما، كما قدم لنا الصيادان من قبيلتهم حجلات مقتولة، ثم بقيا يتجولان حول مخيمنا طوال النهار، كانت أزياؤهم ومناظرهم لا تستميل أحدًا إليهم، فقد كانوا يرتدون قمصانًا قصيرة ولا

شيء آخر سواها، وبدوا كالمتوحشين تمامًا بشعرهم الأسود الأشعث والطويل، وبأسلحتهم البدائية وسكاكينهم الطويلة.

ركب الشيخ محمد اليوم على فرس جيدة جدًا، وقال إنها من سلالة صقلاوي جدران «كل»؛ أي من أبيها وأمها، وهي بيضاء اللون ومبقعة، عمرها عشر سنوات اشتراها الشيخ منذ خمس سنوات من قبيلة السباع، وكانت هذه الفرس تمتاز بمؤخرتها العريضة جدًا، والعظام الممتازة، والركب الواطئة، والرقبة الجميلة، ورأس جيد ضيق بشكل منتظم إلى منخارها ذي الفتحات العريضة، أما نواقصها فهي ركبها التعيسة، وعدم أناقتها في سيرها، بشكل عام من الممكن أن تصبح هذه الفرس أنثى طيبة في مربى الخيل، ولكن للأسف لم نستطع تصديق كلام صاحبها حول سلالاتها.

تدرب شيرباتوف و «ي» والشيخ محمد علي على الرمي لتجربة الأسلحة، وقد تنعم الشيخ بالنظر إلى بندقية شيرباتوف.

السبت ٢٥ آذار (٧ نيسان) مخيم بدو قبيلة العواجة: نمت الليلة الماضية نومًا عميقًا كعادتي، وإذ أيقظني منه ضوء الشمعة المشعل فجأة والأصوات كما خيل لي، ففتحت عيوني واندهشت عندما رأيت في وسط الخيمة واحدًا من العمور مرتديًا قميصه القصير، الذي لا يغطي ركبتيه، ومعه سكينة طويلة ضمن حزامه وشعره الأسود والأجعد يظهر من تحت منديله العكش بشكل فوضوي، كان ينظر نظرة بليدة وخائفة إلى شيرباتوف، الذي كان يصيح: «روح، روح من هون!»، فأخذ هذا العموري يدمدم متقطعًا بعض الكلمات غير المفهومة، وابتعد إلى الجنب وتوقف، وبعد نداء آخر من شيرباتوف انحنى واختفى، تبين لنا فيما بعد أنه لم يدخل من طرف الخيمة المستخدم مدخلاً وإنما من درز الحائط الجانبي قرب سريري.

كانت مسدساتنا على الأرض كعادتها على طرف الأسرة من ناحية الرأس ولكن لا أنا ولا شيرباتوف لم نقصد أن نخيف بها هذا الضيف الواغل، لم يكن انطباعي الأول من ذلك هو الخوف؛ لأني لم أدرك في البداية أن هذا الشخص دخل إلينا للسرقة بل خطرت في رأسي فكرة: «يا لهم من لجوجين هؤلاء العمور، حتى في الليل لا يريحونا من إلحاحاتهم»، ففي اليوم الأسبق كان هذان الصعلوكان يضايقان الجميع طوال النهار، وهما يطلبان كل ما يرياه، وبدون شك رأيا شيرباتوف وهو يخرج النقود ليقدمها للشيخين الذين أرسلا لنا الخرفان، وقد افتتنا بها وبالبنادق التي شاهداها في عملها في أثناء التدرب على الرمي، ثم التقطا الخيمة التي نام فيها شيرباتوف، فقررا أن يجربا حظهما، وهما معتمدان على عريتهما؛ ليدخلا دون أن ينتبه إليهما أحد، حدثنا شيرباتوف بعد ذلك أنه استيقظ ظنًا أن الأفعى تزحف عليه؛ أذكر أنه في اليوم السابق رأى إحدى هذه الزواحف، وكان الحديث يدور حولها وقت الغداء، أسرع شيرباتوف يأخذ الكبريت فأشعل الشمعة بنجاح، فرأى قرب سريره شبح واحد من العمور، الذي بقي مذعوراً في مكانه بسبب الضوء المفاجئ، وبكل تأكيد مس هذا الشخص بيده صدر شيرباتوف باحثًا عن النقود فأيقظه، ولحسن حظنا لم يتمكن اللص من الوصول إلى المسدسات.

بعد أن تلاشى هذا العموري عدت إلى وعيي بعد دهشتي الكبيرة من هذا الحادث، وخطرت لي فكرة تفتيش الخيمة فوجدت أنه سرق كيسًا من الألبسة الداخلية، وهذا أولاً، وثانيًا اقتلع كل شاخصات خيمتنا باحثًا عن المدخل، وفتش في الداخل آملاً أن يخطف شيئًا، وثالثًا دخل وفك قطعة النسيج، وقد تبين من ذلك لأي درجة كانت مهارته كبيرة من سهولة اختفائه عندما توارى كالطيف بعد سمع صيحة شيرباتوف، وهذا بغض النظر من أن الفتحة في الخيمة كانت صغيرة جدًا، وكانت بقربه الحقيبة والمغسلة غير المثبتة على الأرض.

عندما كنت أفتش الخيمة لبس شيرباتوف بسرعة ثم أخذ بندقيته وذهب ليوقظ الناس بعد أن قال لهم ما حدث، أمرهم أن يحرسوا المخيم بالمناوبة، وأن يعلقوا المصابيح للإنارة. أوضح تفتيش شيرباتوف أن الحرامية نشلوا أخراج سركيس من خيمة الطعام، ورموا محتوياتها على الأرض عندما لم يجدوا فيها حاجات ثمينة وذهبوا.

لا أعرف كم مضى من الوقت بعد هذه الحادثة، ولكننا نمنا من جديد فاستيقظنا على صوت طلقتين ناريتين، الواحدة تلو الأخرى، ثم شرح لنا المناوب كل شيء بعد أن سمع نداءنا، فقال إنّ كاراكين بعد الانتهاء من مناوبته أيقظ فولكوف ليقف مكانه حارسًا، أما فولكوف فاتجه إلى خيمة الطعام وألقى سلاحه على سركيس الذي كان جالسًا قرب المدخل، ثم نظر إلى داخل الخيمة حيث كانت الشمعة مضاءة وينام سمعان، ورفع قطعة القماش عند المدخل، ورأى تحتها واحدًا من العمور، وهو يفتش الأرض، فانحنى فولكوف ليمسكه، ولكن يده تزحلقت على جسده العاري فغطس الثاني تحت قطعة القماش وتلاشى، عندما سمع سركيس استغاث فولكوف: «النجدة! النجدة!» طاف راكضًا حول الخيمة، وأطلق من المسدس رصاصتين إلى شبح العموري الهارب، لا نعرف كيف كانت النتيجة من ذلك، ولكننا قضينا باقي ليلتنا بهدوء.

وفي الصباح عندما اجتمع الشيخ محمد وسطام بن فرحان مع بدوييه وشيوخ العمور في خيمة واحدة، ألقى شيرباتوف على شيوخ العمور كلمته القصيرة عبر فيها عن استيائه عن مخالفتهم قواعد الضيافة المقدسة، فقال: «لقد كنا نعدّ أنفسنا ضيوفكم؛ لأن خيامكم تحيط بنا من كل الجهات، وقضيتم أنتم ليلتكم عندنا، وعلى الرغم من كل هذا فإن أناسكم يسرقوننا»، وبعد أن انتهى شيرباتوف من كلمته طلب من هولاء الشيوخ المرتبكين الانصراف من المخيم.

انطلقنا في التاسعة إلى مقر فرحان بصحبة سطام الشاب الجميل ذي الوجه اللطيف والأسنان البديعة، كما كان أحد البدو اسمه محمود يختلق الأسباب باستمرار ليأتي إلينا فكان سطام يطارده بين الحين والآخر مع اثنين من رفاقه، عندما كان «أ» ينظر إلى سرعتهم المجنونة وانعطافاتهم الشديدة على الأرض الوعرة والمليئة بالحصى، كان يذعر ظنًا أن أحصنتهم ستقع، ولكن لم تخفف أي واحدة منها من سرعتها.

أعجبت كثيرًا بفرس سطام، بيضاء اللون، عمرها ست سنوات، من سلالة عبيان لبدا (؟) ومن أب كحيلان سويتي، فمشيتها جميلة، وعظامها جيدة، ومنتظمة، ورأسها أصيل، أما نقصها الوحيد الذي أوقفنا عن شرائها هو ساقاها الأماميتان المشوهتا مشوهتي الأرساغ.

كان محمود راكبًا على فرس مغراء وسيئة، وكان يقترب بها إلي باستمرار ويعلق معي الأحاديث ضاحكًا على أخطائي في اللغة العربية، ومقاطعًا نفسه ليغني أغنية، وبعدها ينطلق من جديد صارخًا ومؤثرًا في الجميع بمرحه.

على بعد فرستاتين عن مخيم بدو قبيلة العواجة ظهر ١٥-٢٠ بدويًا متجهين إلينا حاملين حرباتهم، فقال سطام إن هؤلاء المستقبلين هم والده وكبار أعضاء القبيلة، ثم أسرع سطام ورفاقه بالانضمام إليهم، عندما التقينا بالبدو ترجل الجميع ما عدا أنا، ثم خرج فرحان إلى الأمام وسلم على الشيخ محمد، وبعد أن امتطى حصانه انطلقنا من جديد ونحن محاصرون بزحمة بهية من البدو، الذين كانوا يتحججون بأشياء عديدة، وبقرب فرحان كان يركب ابنه الأصغر جلال، وهو شاب جميل، عمره أربع عشرة سنة، وكان راكبًا على فرس مغراء، عمرها ثلاث سنوات من سلالة كحيلان غزالي، التي أبهجتني كثيرًا بجمالها وحسن سيرها، من الظاهر أن صاحبها الفتي كان يفتخر بفرسه كثيرًا، وكان يقلد الكبار بمهارته وبنشاط فرسه، إلا أننا مع الأسف وجدنا فيها بعض النواقص بعد مشاهدتها

تفصيليًا وما منعنا عن شرائها: فقر عظامها تحت الركبتين الأماميتين(tied-in) وعدم نموذجية رأسها.

عند بلوغنا مخيم بدو قبيلة العواجة اتجهنا مباشرة إلى خيمة فرحان حيث اجتمع عدد كبير من البدو، عندما دخلنا الخيمة قام الجميع احترامًا لنا، فأتبع شيرباتوف عاداتهم، وقال بصوت عال: «السلام عليكم!» فرد عليه الموجودون: «وعليكم السلام!».

كانت الخيمة مفروشة بالسجاجيد والوسائد وسروج الجمال المغطاة بجلود النعاج، التي تستعمل للاستناد عليها، جلسنا في صدر المجلس وكان حولنا البدو وعددهم من ٥٠ إلى ٦٠ شخصًا؛ وفي وسط الخيمة جلس كالعادة خادم الشيخ، وكان هذه المرة زنجيًا فارعًا، أخذ بإعداد القهوة.

ثم دار حديث حار بوساطة الشيخ محمد؛ وكان موضوعه أشياء كثيرة وممتعة: فمثلاً كان الشيخ فرحان يعرف الزوجين بلانت تمام المعرفة، فهما زاراه في مخيمه ومدحا كثيرًا أدب سلوكه ولطفه وحسن ضيافته.

عندما وصلت القافلة ذهبت لأتناول الفطور في خيمتي، أما شيرباتوف و «ي» و «أ» فبقوا ليتناولوا طعام الضيافة، الذي كان يقدم دائمًا في مثل هذه الحالات، والامتناع عنه يعدّ جلافة.

زارني في النهار زوجتا الشيخ وزوجة الزنجي التي حدثتني أن زوجها عندما كان طفلاً بيع لسيده الحالي من السودان، يوجد في كل مخيمات البدو تقريبًا الخدم من الزنوج؛ لأن البدوي لا يرضى أن يكون خادمًا حتى لشيخه؛ إنهم يحترمونه كثيرًا، ومع ذلك يعدون أنفسهم بمستواه منذ ولادتهم، يكرمونه فقط كالشيخ المختار من بينهم ولكن ما يخص هذا الإكرام الأخير فهو عجيب وأدهشنا أكثر من مرة: فمثلاً في كل مرة عندما يقوم الشيخ من مكانه، يقوم كل الموجودين حتى أبناؤه، ويستمرون بالوقوف حتى يجلس الشيخ.

أما ما يخص النظام السياسي عند البدو فقد كتبت السيدة آن بلانت الآتي[١]:

«نظام السياسة البدوية شيق جدًا؛ لأنه يعدّ أنقى ديمقراطية في العالم، وقد تكون وحيدة التي تطلق فيها العبارة: الحرية والمساواة والأخوة، ليس كلامًا مجردًا، والحرية فعلاً هي أساس النظام كله، وليس الحرية القومية فحسب، بل الحرية الشخصية أيضًا التي لا ترتبط بضيق القهر ليس من الملك ولا من الحكومة.

البدوي كشخصية ليس عليه أي واجبات حتى تجاه قبيلته، ولو أنه مرتبط بها أشد الارتباط، وما يخص شخصيته أيضًا فهو لا يخضعها لأي قصور من جهة السلطات، وإذا لم يذعن لتصرفات مجتمعه فيمكنه الانفصال عنه في أي وقت دون شرح الأسباب أو خوف من العقوبات، والبدوي بوضعه الاجتماعي يشبه عضواً في النادي السياسي أكثر من الخاضع أو المواطن.

إذا كان البدوي مع قبيلته فهو مكره على أن يخضع لقواعدها في كل مظاهرها، ومع ذلك يستطيع الابتعاد عن نفوذها في أي وقت إذا وجد أن رأيه هو رأي الأقلية أو حريته مقيدة، لذلك لا أحد في الصحراء يشتكي من الاضطهاد؛ لأن التحرر منها بيد كل فرد، فكثيراً ما يحدث إذا انتشرت العداوة بين العشائر المختلفة في القبيلة لأي سبب، فإن الأقلية بدلاً من أن تخضع لرأي الأكثرية تنفصل عن القبيلة الرئيسية، وتعيش على حدة، وهذا لا يعدّ تصرفًا عدائيًا أو خيانيًا بالنسبة للقضية العامة، حتى شخص واحد يستطيع أن يترك قبيلته دون إذن، وينصب خيمته في أي مكان يريده، في وقت السلم نادراً ما تعيش ٥٠-١٠٠ عشيرة مع بعضها وبالعلاقات اليومية، وفي وقت الحرب يتحد أعضاء قبيلة واحدة، خوفًا من تعرضهم للهجمات على حدة، وليس من الشعور بالواجب تجاه قبيلتهم.

وهكذا فإن نقطة انطلاق النظام السياسي في الصحراء هي الشخصية بذاتها، فكما أن الإنكليز يعتزون أن بيوتهم هي حصونهم، فخيمة كل بدوي هي مملكته،

(١) The Beduins of Euphrate by Lady Anne Blunt.

فهو حر في أن ينصرف بها أينما يشاء، دون اعتراضات أو عراقيل من جيرانه، والبدوي في خيمته متحرر من كل المراقبات كجباة الضرائب أو الشرطة، وهو غير مجبور أن يقدم شيئًا لجيرانه، حتى الخدمات في أثناء الحرب، ولكن من مصلحته أن يتنازل بعض الشيء عن حريته التامة، فهو لا يستطيع العيش منعزلاً؛ لأن القبائل الأخرى تستطيع نهبه مع حقها التام في هذا النهب.

وهكذا يعيش البدوي أكثر الوقت مع قبيلته، ويستعمل حربته عند الحاجة للدفاع عن نفسه، كما أنه يشارك إخوانه في الهجمات والحروب التي لا يستطيع أن يخوضها بمفرده، ويخضع للقوانين العامة والقواعد الضرورية للمجتمع، وعلى الرغم من أن البدو فقراء بشكل عام إلا أنه لا يمكن أن يسودهم الشعور بالخضوع للقوانين الموضوعة من قبل غيرهم، أو مخالفة لمصالحهم الفردية.

نظام الحكم بسيط جدًا، كل قبيلة أو جزء منها يكون تحت إدارة الشيخ الاسمية الذي ينتخب بالتصويت، لا يطلب من الناخبين ولا من المنتخب أي صفات خاصة أو الوضع المادي، لكن الآراء الشعبية تفضل تسليم السلطة لأعضاء الأسر المشهورة وبالعادة يكون شيوخ القبيلة من هذه الأسر، ولكن بعض الثروة لابد منها للشيخ؛ لأن أعباء الاستضافة تقع عليه، ويعترف في الصحراء بالصفات اللازمة للقيادة التي تكون وراثية احتمالاً، ابن أو أخ أو عم الشيخ المتوفى ينتخب بالعادة كنائبه، والإنسان الجديد له الأهمية نفسها إذا توافرت فيه الصفات البارزة، لا يتمتع الشيخ بالسلطة المطلقة إلا قليلاً، ولو أن مئات من الناس يخضعون له اسميًا، في الحقيقة يمثل الشيخ الإدارة المتحدة لدى القبيلة، وفي القضايا السياسية يضطر الشيخ أن يخضع للرأي العام دون قيادته، إذا كان الشيخ ذكيًا جدًا أو شجاعًا يمكنه أن يتمتع مؤقتًا بالسلطة المطلقة، ولكن هذا لا يكون بحكم منزلته، وإنما يعود هذا إلى مقدرته الشخصية، أما إذا كان الشيخ لين العزيمة فلن يكون إلا ممثلاً للرأي العام، والأفضلية دائمًا لأمثاله.

واجبات الشيخ كثيرة ومصالحه قليلة، فهو يحل المشكلات البسيطة كالمخاصمة بين الأزواج والزوجات لامتلاك الجمل أو النعجة، كما يجب على الشيخ ممارسة القضايا السياسية لدى القبيلة وتوقيع الرسائل التي كتبها الكاتب واستقبال الزوار وترك خيمته مفتوحة لأبناء قبيلته طوال النهار.

إذا حدثت مخاصمات يدعى الشيخ ليحلها بنفوذ شخصيته وليلوم المخالفين للنظام، وتفوق الشيخ الرئيسي هو نقل القبيلة من مكان إلى مكان آخر، ويحدده بنصب خيمته، ينال الشيخ الجزء الأكبر من غنائم الحرب، وله مكان شرف في الاجتماعات، وله تمثيل في مجلس الشورى العسكري، ومع ذلك لا يستطيع الشيخ بسلطته الشخصية أن يجبي الضرائب أو يحل مشكلات هامة، ولا يوجد تحت تصرفه أي شيء ما شابه الشرطة أو الحرس لحماية نفوذه، تسمع أوامر الشيخ في القضايا البسيطة فقط؛ لأن الرأي العام بجانبه، وإذا لم يتوافر ذلك عندئذ يستهان بأوامره.

ومع ذلك ففي أكثر القبائل يقدمون لممثلهم المختار الاحترام الفائق: فالرجال يقومون عندما يدخل الشيخ إلى خيمتهم، ويعاملونه بإكرام عديم الكلفة، كما يعامل الناس المهذبين والديهم، والشيخ قلما يستهتر بمنزلته فالبدو لا يطيقون ظواهر السلطان، والشيوخ لا يتسلطون عليهم في أكثر الحالات.

لا يقبل البدو الامتياز بالأزياء أو جمال التسلح، والشيوخ يختلفون عن باقي الأفراد بحمل السيوف الدمشقية القديمة في الأغماد المبتذلة الموروثة من أجدادهم، كما أنهم يتميزون عن غيرهم بتصرفاتهم، أما قدم الأصالة فتمتزج مع حسن السلوك في الصحراء دائمًا.

تبدي القبائل لبعض الأسر إكرامًا يكاد يكون خياليًا، وإذا حدث أن أحد أعضائها إنسان بارز فإن نفوذه ليس له حدود تقريبًا، في مثل هذه الحالات يتمتع هذا الإنسان بسلطة مطلقة.

نظريًا كل أعضاء القبيلة سواسية، والراعي الفقير يتكلم مع شيخه كما يتكلم مع قريبه ويسميه باسمه، ولكن هذه المساواة تتعدل بمحاباة تجاه الأصل، لا تستطيع الثروة وحدها أن تكسب احترامًا، ولكن سمو العشيرة والأصالة التي تعود إلى الأسر أو الأبطال المشهورين، الذين يمتازون بحسن تربيتهم، كما تقول الأساطير، يقدرونهم عاليًا جدًا، فمثلاً البدو من العنزة والشمر أعلى من البدو من قبيلة الجبوري أو الحدادين، وأعضاء أسرة ابن جندل أو ابن حمازدي (؟) أعلى من العنزة، ابن مزيد[1] من حسنة إنسان فقير، ومع ذلك يمكنه الزواج من ابنة أي شيخ ونيل صداق كبير من الإبل.

ولكن هذه مميزات عامة، أما الخاصة منها فهي أن كل أعضاء القبيلة سواسية أمام القانون، سواء أكان الفرد غنيًا أم فقيرًا، أكان من أصل عال أم غير ذلك؛ والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة بعض الأسر المشهورة التي تنال الأفضلية في أثناء توزيع غنائم الحرب.

مع انتقالنا من الأشخاص الذين يكونون القبيلة إلى القبيلة نفسها يمكننا القول إن السمو الذي يناله أعضاؤها تخص القبيلة أيضًا، كل قبيلة في حقيقة أمرها أمة مستقلة، لها حقوقها الخاصة تجاه السلام والحرب واستقلالها السياسي، فالبعض منها كالروالة والشمر أقوياء لدرجة كافية ليعيشوا منعزلين، ولكن أكثر القبائل تتجمع مع بعضها بقدم العشائر أو لحماية بعضها، فمثلاً قبيلة السباع فيها سبع قبائل مستقلة ولكل قبيلة شيخها، والرابط بينها رابط دموي، وكل منها تعدّ مساوية للقبيلة المجاورة، ولا يقبلون النفوذ العام، ومنذ غابر الزمن كانت هذه القبائل تتحد مع بعضها، وتخوض المعارك تحت قيادة الأمر العام.

ينتقل نفوذ الشيخ في أثناء الحرب إلى القائد الحربي باستثناء القضايا المدنية، ويعود اختياره إلى كرامته الشخصية، فينال القائد زعامته، يخضع لها الجميع،

(١) من تعليقات المؤلفة: انظر التفاصيل في كتاب أ. شيرباتوف: كتاب عن الحصان العربي.

وحتى الشيخ يسمي هذا القائد الحربي عقيدًا، أما الحرب فهي ظاهرة طبيعية بين القبائل ولهذا يعدّ العقيد شخصية ذات أهمية بالغة، فالثروة ورفاهية الجميع تعود إليه فيعاملونه بإكرام عظيم».

فرحان بن حديب (؟) ليس شيخ قبيلة العواجة فحسب، التي تتكون من ٥٠٠ خيمة، وأجزاؤها الأخرى هي: رفة (؟) وعتيرة (؟) وعميان (؟) وبغد (؟) وبعابا(؟)، إجمالاً تحصى بـ ١٠٠٠ خيمة، وبالاختيار الحر يعدّ شيخًا لقبيلة عبادات (؟) وحباوة (؟)، وهذا العدد عدد نصف قبائل السباع.

في الساعة الثالثة جاء إلينا فرحان مع أبنائه، وكان منظر المخيم في تلك اللحظة نموذجيًا جدًا، فقد جلس في خيمتنا على السجاجيد محمد وفرحان مرتديًا عباءته وكوفيته الجديدتين اللتين قدمناهما له هدية، وكان سطام مرتديًا لباسًا أبيض، وفي الخارج جلس البدو على شكل نصف دائري، ومعهم خيولهم المعدة للبيع، فقد دار الشيخ بخيمهم المتناثرة في الأرجاء المحيطة، وأخبرهم أننا نرغب بشراء الخيول، وللأسف لم يكن هنا سوى ٢٠٠ خيمة، أما باقي البدو فلم يأتوا من الجنوب حتى الآن، ففي هذا العام تأتي القبائل إلى الشمال متأخرة بسبب توفر العلف، ولهذا لا تزال القبائل التي أردنا زيارتها في الجنوب البعيد، كان الراكبون يقتربون إلينا باستمرار ثم ينزلون عن خيولهم ويقيدونها ويتركونها لحريتها، وبعدها يغرسون حرابهم في الأرض، وينضمون إلى المجموعة قرب الخيمة.

وفي هذه الأثناء كان يدور بيننا حديث ممتع وحار: كنت أريد رؤية قائمة الخيول المذكورة في كتاب آن بلانت، ومعرفة رأي البدو تجاه كيفيتها، شارك في الحديث كل الموجودين فأصبح عندي تصور كامل في هذا الموضوع، استمرت المناقشات مدة ساعتين أو أكثر، بدأنا بعدها بمشاهدة الخيول، كان من بينها فرس جيدة جدًا جلفي الأطناب الفولاذية، لونها رمادي غامق، وعمرها خمس

سنوات، أصيلة الرأس والرقبة، أنيقة في وقوفها وسيرها، ومنتظمة الشكل، لم نشترها؛ لأننا كنا نتوقع مشاهدة الكثير من الخيول، فلم نسرع في الشراء، ثم أسفنا كثيرًا لعدم شرائها.

شاهدنا من ٢٥ إلى ٣٠ حصانا، وكان من بينها حصان كميت أحم، عمره سنتان، من سلالة شعيمان (؟) السباع، وقد قال فرحان إنّ كل أفراد القبيلة يرسلون أفراسهم إلي هذا الحصان التابع لبدوي من القمومصة، وأنه جيد لدرجة، كما عبر الشيخ: «يمكن إعطاء كل شيء ثمنًا له، وسيكون هذا قليلاً»[١].

يدرس ابن فرحان الأكبر (وسطام ابنه الثاني) في القسطنطينية، حيث أسست الحكومة مدرسة خاصة لأبناء البادية، وهذه الوسيلة حكيمة بالنسبة لتركيا؛ لأنها من أفضل الطرق لتتريك البدو الذين لا يقبلون حكم الأتراك حتى الآن ويكرهونهم، أما بالنسبة لمحبي البدو وهواة الخيول فهذا شيء محزن؛ لأنه ينبئ عن اختفائهم التدريجي.

يدرس في القسطنطينية في الوقت الحالي حوالي ثلاثمائة شاب بدوي، وبعد انتهائهم من التعليم ينالون منصب المدير وغيره، قال الشيخ محمد إنه لن يبعث أولاده إلى هناك بأي شكل، ولكن عمومًا التتريك ظاهر في الصحراء، فسطام بن شعلان أصبح باشا، وشيخ الشمر فارس أيضًا، وكلاهما ينالان من الحكومة التركية خمسين جنيهًا استرلينيًا في الشهر، عرفت قبيلة العواجة توًا عن خبر وفاة سطام، وقد تأثر الجميع بموته كثيرًا؛ لأن سطام كان شيخًا لقبيلة الروالة منذ عشرين سنة، وكان يلعب دورًا حاسمًا في سياسات الصحراء.

كانت الروالة وجلعاس (؟) سابقًا من أكبر القبائل جبروتًا في الجزيرة العربية، وتضم ١٢٠٠ خيمة، وكانت بينهم وبين السباع عداوة مستمرة، ومنذ بضعة أشهر

---

(١) ألم يكن هذا الحصان هو نفسه الذي اشتريناه بعد مدة قرب بئر قباقب وسميناه حمدًا؟

فقط شارك سطام بن فرحان في الغزوة ضدهـم ، أما الآن فقد حل السلام بينهم كما حل السلام مع ولد علي .

قال محمد إن فرحان يتمتع بأهمية كبيرة عند السلطات التركيةوالبدو ، وهو يجمع إتاوات بالإبلة للسلطات التركية من القبائل المعترفة بسلطته العليا ، ومنها قبيلة دؤام (؟) ومسخة (؟) التي تنال بالمقابل حقًا في رعي قطعانها في المراعي المحيطة بحمص وحماة وغيرها ، إلا أنه يحمي أبناء قبيلته من الحكومة التركية عندما ترسل جنودها ضدهم لسبب ما .

لم يؤثر فينا فرحان تأثيرًا جيدًا لأنه متترك جدًا ومن جراء ذلك فقد الكثير من الصفات الخاصة لشعبه كالأدب الأنيق الذي يتميز به البدو من العائلات السامية ، كما أنه خالف آداب السلوك البدوية في الاستضافة ، ولن يبعث لنا خروفًا ، ولو أنه دعانا كلنا للضيافة .

جاء إلينا العديد من المرضى خلال النهار ، فعالجناهم أنا و «أ» و «ي» وضمدناهم بتوحيد القوى ؛ كان معي صندوق أدوية للسفر فيها عقاقير منظمة في الصندوق لتوفير المكان لها فكانت بذلك مريحة للسفر .

تناول الشيخ فرحان ومحمد طعام الغداء عندنا ، كان الماء كريهًا ونتنًا وقذرًا إلى درجة أن الخيول امتنعت عن شربه ، وقد أحضر ذلك الماء على الجمال ، وكان مأخوذًا من البركة الموجودة على بعد عدة فرستات من هنا في الجبال .

الأحد ٢٦ آذار (٨ نيسان) السخنة : عندما خرجت من خيمتي صباحًا وجدت فرحان جالسًا ومعه طفلان من أولاد أخيه اليتامى يتربون عنده ، لقد كان فرحان قلقًا جدًا على صحة الطفلة التي كانت تعاني من الحرارة فأعطيتها شراب كينا ، البدو يحبون الأطفال ويعاملونهم برقة ، على أي حال مزاجهم يجعلهم يعاملون الجميع بمودة حتى الحيوانات ، وهذا ما يفسر الأنس العجيب والخلق الطيب لدى الخيول العربية .

لقد أزال أكثر البدو خيمهم وكانت أرتال من الجمال تمتد من كل الجهات وتسير باتجاه واحد إلى مكان التوقف القادم، ولم يبق من الخيم إلا خيمة الشيخ الذي كان ينتظر إزالة خيمتنا حسب العادات البدوية، ولهذا كان فرحان ينتظر ذلك وهو لا يستطيع مغادرة المخيم قبل الضيوف، إلا أنه استهان هذه المرة بواجبات الضيافة فأزال خيمته، وعندما رأى أبناء قبيلته يرحلون ودعنا بعجلة، وأخذ يحضر نفسه للرحيل، ولو أننا لم نهيئ أنفسنا حتى الآن، وضع فرحان أحد الطفلين في الخرج الكبير المثبت على سنم الجمل، فغطست الطفلة في الكيس، ولم يظهر منها إلا رأسها، وعندما جلس بنفسه تسلق خلفه الطفل الذي لا يتجاوز خمس أو ست سنوات من عمره، وتمسك بحزام عمه.

اضطررت أن أرحل اليوم على الريق دون تناول الشاي أو القهوة بسبب الماء الرديء، كان الشيخ محمد مرشدنا، وبسبب قرب مكان العمور الموجودين في الضواحي المحيطة بطريقنا طلبنا من القافلة أن تسير متراصة كما طلبنا من ميخايلو وكاراكين أن يحملا أسلحتهما جاهزة ويراقبا أفراد القافلة حتى لا يتأخر أحد، ومن غيرهم كان سمعان مسلحًا بمسدسه وواحد من البغالين مثله، كما أعطينا لكل من درويش ويوسف بنادق صيد «ي» وشيرباتوف، أخذنا معنا فولكوف للأمان، وركبنا دون أن نضيع القافلة عن نظرنا، كان سركيس المسلح بالمسدس يركب في الخلف ويعجل ثلاثة سواس الذين يحملون الخيم والطعام ويتأخرون باستمرار.

كان طريقنا يقع في منطقة جبلية ومحجرة جدًا، ينبت عليها عشب عالٍ، وكان محمد يميل من جنب الطريق إلى جنب آخر حتى يتأكد من عدم وجود اللصوص، إلا أن اللصوص لم يزعجونا هذه المرة، فكان ركبونا دون مغامرات، فاتجهنا إلى السخنة دون توقف، من الظاهر أن قافلتنا بعددها الكبير وبتسلح جيد وبخاصة وجود عدد كبير من الأوروبيين فيها أوحت للصوص احترامًا ضروريًا، ولذلك لم يتجرؤوا على مهاجمتنا، عمومًا إنهم نادرًا ما يهاجمون الأوروبيين؛ لأنهم يعرفون

أن الحكومة التركية تعاقب على هذا التصرف بشدة، ومع ذلك فهم ينهبون الأتراك والبدو دون رحمة، بينما كان محمد معنا عرف أن العمور سرقوا كل جماله تقريبًا قرب تدمر.

توقفنا في السخنة قرب ترعة الري بمياهها النقية، ولكن مليئة بالكبريت، وغير طيبة المذاق.

طلب شيرباتوف من محمد العائد غدًا إلى تدمر أن يجمع معلومات في أثناء غيابنا عن مكان وجود القبائل الروالة وولد علي، وأن ينضم إلينا في طريق عودتنا لنرحل معًا إلى مخيمات بدو تلك القبائل التي يجب أن توجد في الوقت الآتي قرب مدينة ضمير وبركة العتيبة، قال محمد إنه سيرشدنا إلى البركة عن طريق القريتين؛ لأن الطريق المستقيم يمر في الجبال، يسكن فيها العمور، وهم مسلحون ليس بالحربات فحسب بل بالبنادق والمسدسات أيضًا، فمنذ خمسة أيام في منطقة الجنوب قرب ضمير هجموا على قافلة كبيرة وسلبوا منها ٥٠٠ جمل وقرابة ٥٠٠٠ نعجة.

بعد تناول الشاي ذهب شيرباتوف و «ي» مع كاراكين وفولكوف إلى الصيد، وأخذ البغالون الحمير إلى الشعير، وتفرق باقي الناس في أماكن متعددة، فبقيت في المخيم وحدى مع سمعان ويوسفين وفايز، كما لو عمدًا استغل «الوحش» وحصاني الأمغر هذا الوقت للمقاتلة، وعلى الرغم من أنهما كانا مربوطين بأرسانهما وأرجلهما إلا أن أحدهما هجم على الثاني بشراسة وله صوت كصوت الوحوش وكان هذا المشهد مرعبًا، كانت نهايتهما أن «الوحش» تغلب على الحصان الأمغر وأوقعه أرضًا، وأخذ يدوسه بأرجله، جربنا كل الوسائل لتفريقهما ومنها رش الماء ولم يفد شيئًا، وأخيرًا تناول أحد الأشخاص خطافًا حديديًا وأخذ يضرب به «الوحش» على فنطيسته، عندئذ ترك الأخير ضحيته، فأخذه فايز وهو ملطخ بالدم.

بعد حادثة الأمس مع اللص قام شيرباتوف و «ي» بحراسة ليلية ستستمر من التاسعة مساء حتى الخامسة صباحًا، ينوب ساعة واحدة من الأوروبيين وسركيس وسمعان، وهم مسلحون بالبنادق والمسدسات، ومعهم اثنان من المحليين، وبعد الطلقة النارية الأولى ينبغي على الجميع الخروج من الخيم بسرعة.

الاثنين ٢٧ آذار (٩ نيسان) بئر حميدية: انطلقنا في السابعة صباحًا بعد أن تودعنا مع الشيخ محمد، أصبح النظام المتخذ في المخيم مثاليًا والكل يعرفون واجباتهم التي يراقبها كاراكين حتى تنفذ الأعمال في وقتها، فقد كان ترحيل البغال سابقًا يستمر حتى الثامنة، واليوم انتهى في السابعة، فأصبحنا نادرًا ما ننطلق بعد هذه الساعة.

بعد الانطلاق يركب الجميع كما يريدون وحيثما يشاؤون؛ شيرباتوف و «أ» يسيران كعادتهما بالطريق المستقيم ويتعرجان، وأنا أنحرف بالعادة إلى جوانب الطريق؛ لأن خطوات حصاني كبيرة، وعلى بعد ٣-٤ فرستات خلفنا يسير السواس ببطء وكسل وهم مسرعون، ثم نسير دون توقف حتى مكان المبيت القادم، الذي نصل إليه في الثانية عشرة ظهرًا أو في الثالثة بعد الظهر حسب طول الاجتياز، فيرفع الجميع السروج عن خيولهم، ويربطونها، ويثبتون خيمتنا الصغيرة لنستريح في ظلها اللطيف، ونتكلم ونطالع الكتب، وننام حتى تصل القافلة، وعندما نسمع صوت جلاجلها نرتب أنا و «ي» المخيم؛ ليعرف البغالون أين يضعون الرحال، وهنا يظهر أيضًا النظام المتخذ الذي كانت تسود مكانه سابقًا فوضى مفرطة: البعض يعملون شيئًا والبعض يعملون شيئًا آخر، فكان العمل ينفذ أبطأ بمرتين مما يجب، أما الآن فتتحول الجلبة من الأمتعة والحاجات المتناثرة على الأرض إلى تنظيم تام بعد ١٥-٢٠ دقيقة من وصول القافلة: الخيم منصوبة، والأمتعة موضوعة، في أماكنها، ويوسف يشعل النار ويغلي الماء، ثم ندخل جميعنا إلى خيمنا لنرتب

حاجاتنا، ولكن خادم البوفيه والطباخ حثيثان إلى درجة أننا ما كدنا نخرج حاجاتنا ونستحم حتى سمعنا صوت سمعان وهو يقول: «الشاي حاضر!»، عندئذ يأتي أجمل وقت في النهار، فبعد غروب الشمس يصبح الهواء في الخيمة باردًا ومنعشًا، فنروي عطشنا الشديد بالشاي، ثم نقرأ كتبًا ممتعة، ونتمتع ببرودة المساء، وبعدها نتناول طعام الغداء في الثامنة، وينام الجميع بين التاسعة والنصف والعاشرة ما عدا الحراس.

هبت في الأيام الأخيرة رياح شديدة، وبفضلها اعتدل الطقس، ولو أن ميزان الحرارة كان يؤشر في الخيمة إلى ٢٥، ولكن في الصباح نادرًا ما كان يشير إلى أكثر من ٨.

رأينا اليوم الكثير من الحجلات الجميلة برؤوسها ورقابها الملونة بلون القش الفاتح، وبأجنحتها وظهورها المخططة، كان كاراكين يعرفها جيدًا؛ لأنه مولود في سيبيريا، وقال إن هذه الطيور توجد في وطنه بكثرة، وتسمى «الخرفان الحقلية»، وهنا تتصادف هذه الطيور بمفردها تارة وأزواجًا تارة أخرى، وتارة بتجمعات من ٥ حتى ٢٠ حجلة، إنها لا تخاف الناس وتطير مرفرفة من تحت أرجل الخيل وغالبًا لا تطير، بل تهرب على مسافة بضعة خطوات، وتختبئ بين الأعشاب، قتل فولكوف أربعة منها في الطريق.

كان الطريق إلى بئر حميدية يمر في البداية بين الهضاب المنخفضة الحجرية التربة، ثم دخلنا إلى منطقة وعرة مطوقة من الشمال بالسلسلة الجبلية، ومتصلة من الجنوب بالصحراء الشاسعة، كان اتجاهنا إلى SO.

بخلاف العادة كانت الأعشاب في هذا العام كثيفة وعالية ومرقشة بالأزهار المتنوعة أكثرها من الأقحوان وشقائق النعمان، الذي كان في بعض الأماكن يغطي الأرض جاعلاً منها سجادة حمراء دموية رائعة، كل هواة المزارع الذين يعدون شقائق النعمان غير المركب زهرة بستانية مستنكفة، لا يستطيعون تصور مدى جمال

هذه الأزهار عندما تنبت بكميات كبيرة في الصحراء، وتظهر من بين خضرة العشب من كل الجهات على شكل جزر صغيرة، كما رأيت اليوم تواليب حمراء وأرجوانية بديعة، لا تختلف بشكلها عن الأصناف البستانية المعروفة باسم parrot tulips؛ كان أكثر الأزهار مع الأسف ذابلاً ولم نصادف اليانع منها إلا القليل، قبل وصولنا إلى مكان التوقف جمعت باقة كاملة من الأزهار المتنوعة؛ لتزيين مائدة الطعام.

كان في بئر حميدية منصب حراسي بني بعد رحلتنا عام ١٨٨٨م، وهو عبارة عن فرقة أخيرة من التحصينات الممتدة بالطريق كله بين جيرود ودير الزور.

كان عند الشرطة كلب سلوقي، وكما قال صاحبه يصيد الأرانب جيداً، كان عليه طوق صياد حقيقي، وفي الليل كانوا يلبسونه جلاً.

عندما كان عبد العزيز يتكلم اليوم مع شيرباتوف، قال إنّ دير الزور مليئة بالخيول في الوقت الحاضر، وهذا التوفر حدث بسبب الغزوة بين الشمر والعنزة التي حدثت منذ بضعة أشهر، وبعد أن سلبت الشمر من العنزة خمسين حصانًا تعرضت للهجوم التركي، فالأتراك بعد سماعهم عن هذه الغارة الناجحة كمنوا للمنتصرين وهم عائدون، وبعد أن دمروهم سلبوا منهم الكثير من الخيول، التي توجد حاليًا في دير الزور.

أما ما يتعلق بهذه الحروب المستمرة بين الأعداء التقليديين الشمر والعنزة، تطاولنا في المعرفة من فرحان كيف كانوا يعبرون نهر الفرات العريض السريع الجريان في كل مكان، فاتضح أن البدو يعبرون النهر سباحة بسبب عدم وجود المخاضات، وبخاصة أن خيولهم لا تمتنع عن ذلك أبدًا.

ذهب الجميع في المساء لصيد الحجلات، ولم يقتلوا منها إلا القليل؛ لأن هذه الطيور كانت تسمح باقتراب الفرسان إليها، ولكنها لا تثق بالمشاة، فكانت تطير بعيدة عن مرمى إطلاق النار الناجح.

قطعنا اليوم أربعين فرستا بست ساعات أما القافلة فبتسع ساعات.

الثلاثاء ٢٨ آذار (١٠ نيسان) بئر قباقب: قبل انطلاقنا بقليل أخذ سمعان فجأة يعاني من آلام المعدة، وبما أن الأمتعة كانت محزومة كلها فلم أستطع أن أعطيه شيئًا سوى الكونياك، طلبنا من يوسف أن يعتني به، وانطلقنا بعادتنا إلى الأمام، ولكن بعد ساعة ونصف لحق بنا كاراكين وأخبر أن سمعان قد زادت معاناته من آلامه، ومن جراء هذا لم يستطع ركوب فرسه، فأركبوه على الحمار ليمسكه شخصان، وبسبب هذا السير البطيء لن تصل القافلة إلى مكان التوقف حتى ساعة متأخرة من الليل.

أسرعت إلى الوراء فوجدت المريض مستلقيًا على الأرض، ويكاد يفقد وعيه، أكانت نوبته قوية فعلاً، كما كان يبدو عليه، أم أن «ي» الذي شك في مرضه كان على حق بأن سمعان تدنى فجأة مثل كل السكان المحليين، لا أعرف، على أي حال كان تدبير الأمور لمساعدته مستحيلاً لانقضاء الليل في المكان حيث توجد القافلة، ولعدم وجود المياه اضطررنا إلى مواصلة السير حتى البئر التي تبعد عن مكاننا خمسة وثلاثين فرستا، أمرت بإنزال الرجل عن البغال، فأخرجت صندوق الأدوية، وأرغمت سمعان على تناول كمية ثقيلة من الأفيون، وبعد قليل من الوقت وصل «أ» وأفزعني بقوله إنني أعطيته كمية زائدة عن الحد، ولكن بعد الفحص اتضح أنني لم أخطئ.

تركنا المريض ليستريح قليلاً، ثم أرغمناه على الوقوف على قدميه؛ ليسير بمساعدة بغالين، وبقينا أنا و «أ» معه، أما شيرباتوف و ي فسبقانا، بعد ساعة شعر سمعان بتحسن، واستطاع أن يمتطي الحصان بنفسه، إلا أنه كان يغفل باستمرار من تأثير الأفيون، أسرعت بفرسي للحاق بشيرباتوف، أما «أ» فبقي مع القافلة ليساعد سمعان عند الحاجة.

كان منظر الصحراء اليوم أجمل من الأمس، فقد كان العشب أكثر كثافة وأعلى، كما زادت أعداد الأزهار، وكان في إحدى المنخفضات حوالي أربع ديساتينات[1] مغطية كليًا بالخزام المزهر.

هذا النبات الطريف الذي وجدته هنا لأول مرة بهذه الكمية الكبيرة كان السكان المحليون يسمونه بالشيتات (؟)، وهو عبارة عن شجيرات ارتفاعها ربع أو ثلاثة أرباع آرشين، وأوراقها خضراء فاتحة، وكان يشبه نبات السنط، ولكن أكثر منه خشونة، لم أستطع التحديد إلى أية فصيلة تنتسب زهرتها وثمرتها، فقد كانت تشبه عنب الثعلب بلونها الأصفر الفاتح، ولكن طرية جدًا وفارغة؛ إذ أنها كانت تنفقع عند اللمس، لا أحد يتغذى بهذا النبات لا إنسان ولا حيوان، كما كان هناك ممثل آخر لهذه المملكة النباتية وهو نبات يشبه ثمرة الذرة، وكانت أطرافه مدببة، كان لونه بنفسجي قرمزي من الخارج، وزهري فاتح من الداخل، وينبت من الأرض مباشرة من دون الساق، قال عبد العزيز إن السكان المحليين يستعملونه كدواء، وأنه «طيب كثيرًا للبطن».

نصبنا مخيمنا بعيدًا عن تحصين قباقب بربع فرستا قرب مسيل صغير، وكانت المنطقة المحيطة بنا مليئة بالحجارة البيضاء الناتئة من الأرض على شكل طبقات، وكانت تذكر ببياضها الرخام من النوع الأول، ولو أنها كانت ذات تركيب آخر.

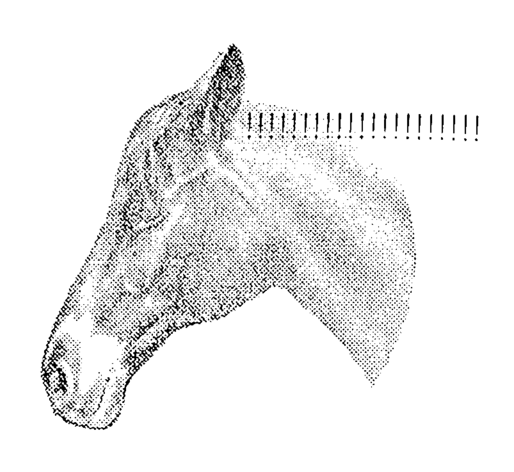
عاد عبد العزيز في المساء بعد سفره لجمع المعلومات عن البدو، وأفرحنا بخير أننا متجاورون مع الرسالين، الذين سيقتربون غدًا على مسافة بضع ساعات ركوبًا من هنا، بعد سماع هذا الخبر قررنا أن نتوقف ونرسل الناس إلى دير الزور لشراء العلف للحيوانات، وأن نرسل الرسائل مع عبد العزيز إلى شيخ قبيلة القموصة عبتاين (؟) ابن مرشد، وإلى شيخ الرسالين حميد بن عيد.

---

(١) ديساتينا: وحدة المساحة في روسيا قبل الثورة، تعادل هكتارًا واحدًا تقريبًا، المعرب.

في المساء مرض خمسة أو ستة أفراد من قافلتنا مثل سمعان، حدث هذا الانحراف الصحي العام بسبب الماء السيئ من حميدية، فهو مشبع بالكبريت، ومفعوله لا يقل عن مفعول الماء من حنيادي (؟)، كل المرضى يتعالجون عندنا وأنا أفتخر بعلاجي الناجح، فسمعان تخلص من الآلام بعد وصوله إلى هنا، ولم يبق من مرضه إلا الشعور بالتعب.

❋ ❋ ❋



جريفة

الفصل الثالث

الأربعاء ٢٩ آذار (١١ نيسان)، بئر قباقب: كانت الرياح الشديدة تهب من الصباح إلى المساء، وترفع عموداً من الغبار، وعلى الرغم من النسيج المشمع والسجاجيد وغيرها من الأشياء إلا أن كل شيء في الداخل غُطي بطبقة كثيفة من الرمل الذي تسرب حتى إلى الحقائب المغلقة. تنال الرياح المرتبة الأولى من بين الظروف السيئة في حياة الخيم فنضطر إلى حسابها. فالرياح تغير كل شيء، وتقرقع الحبال والخيش وتصخب، وتوحي بذلك مخافة من انشقاق الخيمة وانقطاع الحبال أو انقلاع الشاخصات من الأرض، فتطير بعدها الخيمة في الهواء. وعندما يأتي الليل تنطفئ الشموع والمصابيح ويضطر الناس إلى الطوفان المستمر في المخيم؛ لتثبيت الشاخصات، أو صيانة الخياطات المقطوعة، بكلمة واحدة إنها حالة حرجة بكل شيء.

استغل الجميع النهار للنوم، وعلى ما بدا لم يخرج أحد حتى الساعة الثامنة. وبعد تناول الشاي ذهب ي وكاراكين وفولكوف إلى الصيد، فقتلوا أرنبًا رماديًا وستة طيور.

كانت نتيجة استطلاعات عبد العزيز في الضواحي حضور واحد من قبيلة القموصة، الذي قابله مرشدنا مصادفة وأرسله إلينا. كان اسمه حمد بن نحيبة، وجاء راكبًا على حصانه من سلالة كحيلان تمري (؟)، عمره أربعة سنوات وكميت، وهو يستخدم كفحل في قبيلة الرسالين والفدعان والقموصة والأخذعات (؟) وغيرها. ويدور صاحبه به بين هذه القبائل، ويعرض خدمات حصانه. اشتريناه أنا وشيرباتوف لأنفسنا فقط؛ لعدم صلاحيته لمربى الخيل والكونت استروغانوف.

لم يعجبني هذا الحصان من النظرة الأولى، ولكن حمدًا، كما سميناه باسم صاحبه، بعد أن سمن بجسده تحسن كثيراً.

بعد الغداء وصل إلينا عبد العزيز، وأخبرنا أنه رأى حميد بن عيد، وهو شيخ الرسالين، وسلم له رسالة شيرباتوف. عقد الشيخ العزم أن يأتي إلينا من فوره، ولكن في الطريق لحقه بدوي وطلب منه العودة بسبب الشائعات عن غزوة ولد علي القريبة منهم. وبعد أن فكر حميد قليلاً قرر أن يبيت في بيته، وينطلق غدًا مع قبيلته، ويزورنا في الطريق، فاضطررنا أن نبقى هنا يومًا آخر.

كما عرف عبد العزيز أن القموصة والمصراب توجد حاليًا في الجنوب البعيد، وحدثنا عن غزوة كبيرة حدثت منذ أيام بين قبائل صحراء الحماد وهي الأخوينات (؟) وبني صخر وغيرهم من الذين حاربوا ضد السباع؛ أي المصراب والقموصة والفدعان والمسخة (؟). في البداية هجمت هذه القبائل، التي كان عددها كبيراً أيام زمان على الجزء الصغير من السباع، فدمروهم وسلبوا كل أملاكهم؛ ولكن خبر الهجوم هذا انتشر سريعًا بين القبائل المجاورة فامتطى البدو خيولهم وذهبوا بها

لإنقاذ أبناء قبيلتهم، فحاصروا أعداءهم وقتلوا منهم، كما قالوا، قرابة مئة شخص، ولم يسترجعوا أملاكهم السليبة فحسب بل أخذوا منهم خمسون حصانًا. قتل من قبيلة السباع ثلاثين شخصًا.

الخميس ٣٠ آذار (١٣ نيسان)، بئر قباقب: بعد أن تناولنا شاي الصباح جاءنا الشيخ حميد بن عيد. كان يبدو عليه أن عمره يقارب الستين، وكان معه ابنه حياح(؟) وبعض البدو. بعد أن أجلسناه وقدمنا له القهوة وأهديناه العباءة والكوفية، استرسلنا معه في الحديث بكل ما يخص اهتماماتنا المحلية. اتضح أنه على بعد ساعتين سيرًا عن بئر قباقب لا يوجد إلا جزء صغير من الرسالين، ولن يأتي البقية إلا بعد يومين أو ثلاثة، وبما أنهم سيبقون هنا عشرة أيام، قررنا أن نذهب إلى دير الزور ونزورهم في طريق عودتنا.

قيل عن الغزوات الكثير لأنها توحي للرسالين مخافات كبيرة لقلة عددهم. عمومًا الصحراء في هذا العام مضطربة جدًا، والهجمات كثيرة من كل الجهات.

رأى الشيخ لأول مرة الحصان الذي اشتريناه، فعرفه من مشابهته لأبيه، ومدح الأب كثيرًا والابن الذي سمع عنه من قبل، كما أكد أن حمدًا أصيل دون شك وهادئ تمامًا.

من بين الخيول التي جاء عليها البدو كانت فرس حسنة جدًا من سلالة كحيلان تمري (؟) عمرها عشر سنوات، بيضاء اللون، ومولودة في قبيلة الشمر، وسلبت منهم بالغزوة الأخيرة التي ذكرت عنها قبل قليل. إنها فرس جيدة بكل شيء، ولكن للأسف كان صاحبها متأكدًا من صحة المعلومات تجاهها إلا إنه لم يستطع أن يتكفل ذلك.

راجعت قوائم السلالات المأخوذة من الشيوخ من جديد، واستخرجت منها أسماء بعض السلالات الجديدة. أهدى لي حميد قبل أن يتركنا فرسه، وطبعًا لم أقبل منه هذه الهدية بحجة أن هذه الفرس سوف تنفعه أكثر مني . . . إلخ.

شاهدنا خلال النهار ١٠-٢٠ رأسًا من الخيل وأكثرها لا تستحق الانتباه باستثناء واحدة منها، التي اشتبه أنها مصابة بربو الخيل ولذلك لم نستطع شراءها للأسف.

أرونا بين الفينة والأخرى الخيول المسلوبة من الشمر، وقد أخبرنا أصحابها الجدد عن السلالات التي تنتمي إليها هذه الخيول، ولكنهم لم يستطعوا أن يحلفوا على صحة شهاداتهم.

ذهب الصيادون لصيد الحجلات، وقتلوا الكثير منها. أما أنا فجربت ركوب الحصان حمد، وأعجبت كثيرًا بهيئة سيره.

يزداد عدد المصابين في قافلتنا من يوم إلى يوم بسبب الماء المحلي، فاضطر أن أصرف الكثير من الوقت في تحضير الأدوية، ومع ذلك أفتخر بعلاجاتي الناجحة.

الجمعة ٣١ آذار (١٣ نيسان)، دير الزور: قررنا في المساء إرسال خيمتين والطباخ يوسف إلى دير الزور ليعد لنا الفطور، وانطلقنا بأنفسنا في السابعة، وقطعنا خمسين فرستا دون توقف حتى وصولنا إلى المكان المحدد في الثانية. كانت الخيول ناضرة بعد الاستراحة التي استمرت يومين، فكانت تسير بنشاط، ولهذا استطعنا أن نسير أسرع من العادة وبخاصة أننا قررنا البقاء في دير الزور بضعة أيام. قطعت النصف الأول من الطريق على حمد، ثم انتقلت إلى الحصان الرمادي؛ لكي لا أتعب الحصان الفتي الذي لم يتعود السير السريع والطويل، فالبدو لا يركبون المهور أبدًا ولهذا فإنها غير معتادة على اجتياز المسافات الطويلة.

عندما اقتربنا من دير الزور بدأنا أنا وشيرباتوف نشير إلى الأمكنة المختلفة التي ترسخت في ذاكرتنا بعد أسرنا عام ١٨٨٨م. وقد كبرت المدينة منذ ذاك الحين بشكل ملحوظ، والثكنات التي كانت بعيدة عنها بعض الشيء، لم يفرق بينها وبين البيوت الأولى إلا فراغ صغير. والأرض المحروثة الممتدة بطول الفرات توسعت أيضًا،

وهي لم تضم مكان توقفنا الماضي والحيطان الطينية فحسب، بل امتدت بساتينها ومزارع الكروم بعيدًا حتى أبعد من الثكنات.

لأن يوسف قرر أن يضع خيمنا على الربوة بين المدينة والثكنات، حيث نكون عرضة لغبار الصحراء ولن نخلص من إلحاح الفضوليين، ذهبنا لنبحث عن مكان آخر، وكان هذا شيئًا لا غنى عنه، لأن وقوفنا سيستمر هنا بضعة أيام. بعد جولاتنا الطويلة ذهابًا وإيابًا وجدنا أخيرًا حقلاً محاطًا بالسور وصالحًا للتوقف. كان القمح قد حصد منه. ويقع هذا الحقل قرب الثكنات مباشرة، وكان تابعًا لها، فاستلمنا تصريحًا لحجز ذلك المكان المريح بكل شيء كقرابة الماء والأمان بفضل الحوائط المحيطة بنا. وصلت القافلة في الخامسة والنصف.

عاملتنا السلطات التركية هذه المرة باختلاف جذري عما كان عام ١٨٨٨م. بعد أن نصبنا مخيمنا جاء إلى شيرباتوف رئيس الشرطة المبعوث من المحافظ؛ ليهنئنا بقدومنا من السفر، ويخبرنا عن اسمه أنه استلم رسالة عاجلة من ب، وهو القنصل الروسي في دمشق، يطلب فيها مساعدتنا ومساندتنا على قدر الإمكان.

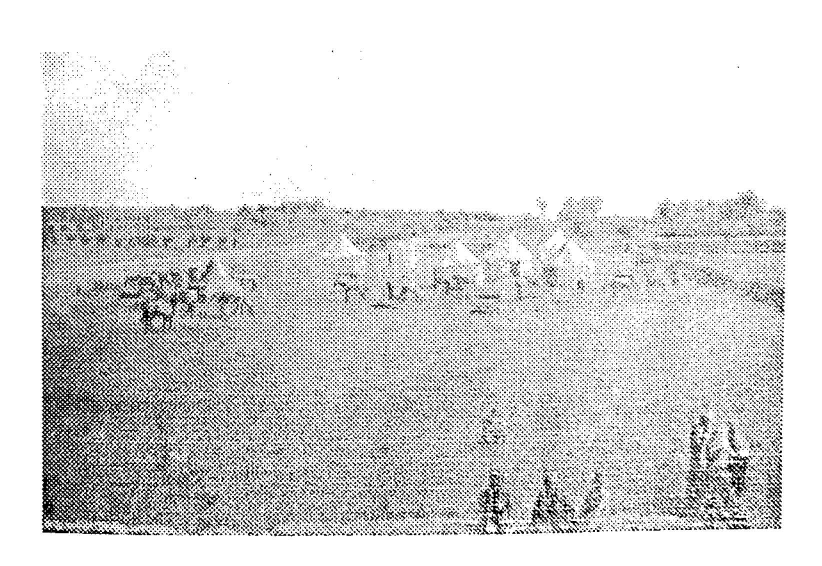
كما أرسل المحافظ حرسًا من ضابطين وعدة جنود لحراسة المخيم، نصبوا خيمتيهم قرب مخيمنا. كان الحراس يدورون في الليل حاملين أسلحتهم المحشوة وفي النهار يطردون السكان المحليين المزدحمين من حولنا، الذين جاؤوا ليتأملوا الضيوف الغرباء النادرين.

هطلت زخات خفيفة من المطر وخففت التغير وكان الجو معتدلاً.

جاء كثير من الناس خلال النهار لزيارة شيرباتوف، وكان من بينهم رجلان قدما لنا خدمات هائلة بفضل معارفهم الجيدة عن الخيول، وكان الاثنان هاويين كبيرين لها. كانت معنا رسالة لواحد منهما وهو ويس أفندي من صديقه الكبير الشيخ محمد التدمري. إنه رجل طويل ونحيف، ووجهه جاد، وكان يتكلم ببطء

ووضوح، ويتصرف بكرامة كبيرة ككل إنسان يعرف ثمنًا لنفسه. وحقًا إن غنى لويس منحه نفوذًا ذا شأن كبير، ليس بين أبناء وطنه فحسب بل بين الأتراك. والثاني اسمه عائش الحجي، وكان وكيلاً لشيخ الشمر فارس في دير الزور. إنه مكلف بكل أعمال فارس التجارية كبيع الأغنام والجمال وشراء الحاجات السوقية اللازمة للبدو، وهذا من خشية الشيخ أن يقبضوا عليه غدرًا، فلم يجرؤ على الاقتراب من مكان نشاط السلطات التركية. وكان معنا لعائش رسالة من رفيقه الترجمان في القنصلية الروسية بدمشق.

استلمنا في المساء الأخبار الأولى من روسيا منذ بداية رحلتنا. لقد مدد التلغراف (التركي) إلى هنا، وبفضله يمكننا الاتصال بالأقاليم المتحضرة. أدخلت هذه الرفاهية بعد رحلتنا الأخيرة، عندما كانت أقرب محطة تلغراف إلى هنا في حلب على بعد ثلاثمئة فرستا.



مخيمنا في دير الزور عام ١٩٠٠

سبت العازار ١ (١٤) نيسان، دير الزور: كانت الخيول المعروضة للبيع تحضر إلى مخيمنا منذ الصباح الباكر. ولأن حياتنا في دير الزور كانت منتظمة فيما عدا الاستثناءات الصغيرة، سوف أصف روتينية الأيام المألوفة: في الثامنة صباحًا عندما يذهب الجميع إلى خيمة الطعام، نجد عدة أشخاص واقفين مع خيولهم بانتظارنا. بعد تناول الشاي نذهب جميعًا للمشاهدة، وزيادة على ذلك أنا أسأل صاحب الحصان دائمًا عن سلالة الحصان وأصله إلخ . . . كما أسأله عن نفسه وإلى أيّ قبيلة ينتسب، وعن اسم شيخ قبيلته، وغيرها من المعلومات اللازمة للتحقق من شهادات البائع. ثم كانت هذه المعلومات تثبت على قدر الإمكانية من الشهود، الذين يعرفون ذلك البدوي شخصيًا، أو سمعوا عنه وعن حصانه. بعد إلقائنا نظرة عامة على الحصان وقناعتنا بأنه غير مقبول كنا نرجعه مباشرة، وننتقل إلى الحصان القادم. أما إذا كان بالعكس؛ أي إذا وجدناه مقبولاً بعد نظرتنا السطحية الأولى عندئذ ننتقل إلى المشاهدة المفصلة، وإذا لم نجد فيه عيوبًا نأمر بامتطائه، وإذا أرضى طلباتنا بهيئة سيره عندئذ نطلب من صاحبه الانتظار، وبعدها نكمل مشاهدة الحيوانات الباقية. وبعد انتهائنا من ذلك كنا نعرض الخيول المختارة بنا إلى الاختبار الجديد، وبعد أن نقرر تمامًا التي سنشتريها ندعو أصحابها إلى خيمة شيرباتوف بالتتالي، حيث كنا نتحدث بهذا الموضوع بوجود عائش وويس. في بعض المرات كان شيرباتوف يطلب من أصدقائنا أن يساوموا شخصيًا على سعر الحصان. وبعد اتفاقنا على سعر معين كنت أبدأ بالتساؤل من جديد عن كل ما يخص الحصان وأسجل حرفيًا كل ما أسمعه، وبعد ذلك يحلف صاحب الحصان بصورة مهيبة على صحة شهاداته وأصالة حصانه، وبعد كل هذا ينتقل الحصان إلى أيدينا نهائيًا.

كانت مشاهدة الخيول تستمر حتى الحادية عشرة مع انقطاعات صغيرة، ومن المحتمل أن هذا كان شيئًا مسليًا لهواة الخيول وخبرائها من سكان دير الزور ولهذا

كانوا يزدحمون في هذه الساعة قرب مخيمنا. لقد كانوا كثيرين إلى درجة أننا طلبنا من الحراس عدم السماح لهم بالدخول ضمن سياج المخيم. في الثانية عشرة نتناول الفطور، ثم ينام البعض ويقرأ البعض الآخر والبعض يدبر أموراً منزلية. من الظاهر أن أهل المدينة كانوا يستريحون أيضًا؛ لأنهم يتركوننا في هدوء حتى الساعة الثالثة، وبعد هذا الوقت يبدؤون بإحضار خيولهم من جديد. كنا نشاهد من ٢٠ إلى ٣٠ حصان يوميًا.

ذهبت اليوم أنا وي بعد الفطور إلى الأسواق على الحمير؛ لنشتري العباءات والكوفيات للهدايا، والأجلال والأرسان للخيول المشتراة. وجدنا الأسواق فقيرة جدًا، وأسعار البضاعة أغلى بمرتين مما هي عليه في دمشق. كان طابور طويل من الفضوليين يصاحبنا في كل أنحاء المدينة دون الإصغاء لتهديدات الجنود الحراس.

التقنيا في طريق عودتنا بموكب رسمي: رأينا شيرباتوف الذاهب لزيارة المحافظ، وكان أمامه سركيس راكبًا حصانه الأمغر واضعًا يديه على خاصرتيه وكان متشبعًا بأهمية مقامه لدرجة أنه لم ينعمنا بتحية، وحتى لم ينظر إلى جهتنا؛ لأن راكبي الحمير شخصيات حقيرة، ولا تستحق انتباه ترجمان الأمير الروسي، وهو في طريقه إلى الباشا! كان شيرباتوف يتبع سركيس ممتطيًا حصانه، وكان على جانبيه شرطيان من المشاة، ومن خلفهم كان يسير عبد الله، وهو يبتسم ابتسامة عريضة وساخرة، فمن المحتمل أنه يتمتع كثيراً بفكاهة وضعه؛ وكان يختتم الموكب ياقر (؟) الذي انضم إليهم لسبب غير معروف، وواحد من البغالين.

بعد أن تجنبنا على سبيل المزاح أنعمنا شيرباتوف بهزة رأسه المظاهرة، فقابلنا هذا التفضل بضحكتنا العالية.

يبدو أن الباشا مولع بالبستنة، فهو الذي خطط الحديقة العامة هنا، وغرس الأشجار حول الثكنات.

الأحد ٢ (١٥) نيسان، دير الزور: قضينا الصباح كعادتنا في مشاهدة الخيول ولم نجد شيئًا ملائمًا. في الحادية عشرة قام المحافظ بزيارة لشيرباتوف.

ناقشنا طويلاً مع ويس وعائش موضوع مشاريعنا المستقبلية، ولم نعرف ما نقرره، فقبيلة العنزة لا تزال بعيدة في الجنوب، ولا يعرف أحد متى ستقترب إلى الشمال، وكيف نزورهم في تدمر في طريق عودتنا. أردنا على الأقل أن نلتقي فياضًا شيخ المصراب الذي سيفيدنا كثيرًا، فأرسلنا له رسالة طالبين فيها مجيئه إلى دير الزور إذا سنحت له الظروف، أو إلى أي مكان آخر. لقد كفل ويس رسوله الموصي أنه سينجز مهمته بنجاح.

لقد عزلنا عبد العزيز لأننا بعثناه من قباقب حاملاً بعض الرسائل إلى الشيوخ، ووجدناه في دير الزور بعد وصولنا إليها. وقد قص لنا قصة كاذبة ليبرئ نفسه بأنه توقف ليشرب الماء، وترك جمله، فاستغل الجمل فرصته ليهرب، فهرب ولا يزال ضائعًا حتى الآن.

كان تفسير هذه القصة البعيدة عن الحقيقة بسيطًا جدًا: لقد خاف عبد العزيز بكل بساطة من الذهاب إلى البدو، فقرر أن يخلص نفسه من هذا السفر. تلبية لنصائح أصدقائنا قررنا أن نبقى هنا بضعة أيام ونتصرف بعد ذلك تبعًا للظروف. لقد أكد ويس وعائش أن دير الزور مركز تجارة الخيل في كل المنطقة، ولهذا فإن تجار الخيل بعد أن يعرفوا رغباتنا سيأتوا إلينا بأنفسهم. كما أخبرنا عائش أن عيسى بن صفوق(؟) وهو ابن أخ فارس، شيخ الشمر يوجد حاليًا مع جزء القبيلة التابع له على مسافة ثلاثة أو أربعة اجتيازات عن دير الزور، وإذا ذهبنا لنستقبله في الطريق فسنلتقيه على نهر الخابور الذي يبعد عن الفرات اجتيازًا واحدًا.

لم نرد أن نضيع فرصتنا النادرة التي ستسمح لنا التعرف على الشيخ شخصيًا، ومشاهدة خيول قبيلته، فوضعنا المشروع الآتي: سوف نبعث رسولاً إلى عيسى بن

صفوق (؟) الثاني من شيوخ الشمر؛ ليخبره عن نوايانا بزيارته، وأننا سننطلق إلى الخابور يوم الثلاثاء؛ لنقضي هناك يومًا أو أكثر، وبعدها سنتوقف مدة يومين أو ثلاثة في دير الزور من جديد، وهكذا نقطع الوقت ريثما يصل البدو من العنزة إلى الشمال.

رأينا يوم أمس خيولاً زعموا أنها عربية، وكانت من مربى الخيل «السلطان» المقام على بعد عشر ساعات سيرًا عن بغداد، وسوف تؤخذ هذه الخيول إلى المعرض الدولي في باريس، وستكمل طريقها اليوم إلى حلب، وستصلها بعد ثمانية اجتيازات (٣٠٠ فرستا)، ومنها ستصل إلى الإسكندرون بثلاثة أيام، ثم ستبحر بالباخرة المتجهة إلى مرسيليا مباشرة. ومن أجل تجنب الجو الحار لا تسير هذه الخيول إلا ليلاً، وتستريح في النهار. اقترح المحافظ على شيرباتوف مشاهدتها.

إلا أن شيرباتوف كان مشغولاً، فذهبت أنا مع ي بعد الشاي؛ لنشاهد الطوف ومكان عبور الفرات. وفي الطريق مررنا بخان حيث كان الهرج والمرج شديدين. على طرفي الفناء الفسيح، وتحت الرواق، كانت الخيول «السلطانية» واقفة في أرسانها وفي وسط الفناء ازدحم المشاهدون، وكان البغالون يرحلون البغال ويهيّئون الحمير وينظمون هودج الضابط، الذي سيصاحب الخيول إلى باريس.

زعم صاحب الاسطبل أن الخيول كلها أصيلة، ولكن نظرتنا السطحية عليها كانت كافية للتأكد من عدم صحة هذا القول، وأنها تنتمي إلى السلالة التي تسمى في الهند Baghdad أو Gulf Arabs.

كتب الأمير شيرباتوف في هذا الموضوع في كتابه عن الحصان العربي ما يأتي:

«قبيلة المنتفيق (؟) المشهورة قبل كل شيء بخيولها، فقدت أصالتها بسبب إفراطهم في تكثيرها لتسويقها إلى الهند. فقد وجدوا أن النسل من الاختلاط بين الحصان العربي والفارسي يسوق في الهند بسهولة مقابل الخيول العربية الأصيلة،

كما يزداد ثمنها بازدياد حجمها. يكون ارتفاع الخيول الفارسية والتركمانية أرشينان وأربعة فيرشوكات وقد خلطها المتفيق (؟) مع بعضها. تسمى هذه الخيول في الهند Gulf Arabs».

كانت رؤوس الخيول «السلطانية» بضخامتها وغلاظتها تنبئ عن عدم أصالتها أما شكلها المدور كشكل الخيول المخصصة لحمل الأثقال فلم يترك شكًا في الكمية القليلة من الدم العربي الباقي فيها. لم يكن من بينها إلا فرس واحدة جيدة برأسها النموذجي وشكلها المنتظم. كان الضابط يرينا كل شيء بنفسه وكان يبيّن لنا السلالات التي تنتمي الخيول إليها، وكان لطيفًا معنا للغاية.

اتجهنا من الخان إلى معبر الفرات، وبعد أن تجاوزنا الأسواق عبرنا بالجسر الحديدي أحد فروع الفرات إلى الجزيرة التي تنطلق منها ماعونات صغيرة مسطحة القاع بدائية جدًا في تصميمها، وهي الوسيلة الوحيدة التي تستخدم للاتصال بين ضفتي النهر. شحنت واحدة منها أمامنا وأقلعت وهي مليئة بالخيول والحمير والناس. لم يكن لهذه الماعونات مرافئ خاصة وكان الإركاب والإنزال يجريان على الضفة الشديدة الانحدار، كما اندهشنا من معاملة الحيوانات بوحشية، فقد كانت الحيوانات تجبر على الصعود من الضفة الواطئة إلى جانب الماعون العالي الضيق الذي هو أعلى منها بأرشين ونصف. ثم تقفز الحيوانات من هذا الارتفاع إلى قاع الماعون غير الممهد، تجرف الزوارق بسبب الجريان السريع إلى أسفل النهر ثم تشد بالحبال إلى المكان المطلوب. بينما كنا نتأمل عبور النهر جاء إلينا شيرباتوف و (أ) وكانا قد شاهدا الخيول «السلطانية» أيضًا واستنتج شيرباتوف تجاه سلالتها ما استنتجته أنا.

رأينا في طريق عودتنا إلى البيت قافلة الخيول «السلطانية» تمرُّ من أمامنا وهي متجهة إلى حلب، فأسرعنا لنلحق بها ونشاهدها في أثناء السير: كان لكل حصان

سائسان يقودانه من أرسانه وهما يسيران على أقدامهما، أما الأفراس فكان يقود كل واحدة منها سائس واحد راكبًا على بغل. وكان الضابط راكبًا في هودجه المعلق بين بغلين، كما كان ١٠-١٥ من رجال الشرطة بصفة الحرس.



جزء من مخيمنا في دير الزور

في المساء حمضت الأفلام في الخيمة التي صنعها (ي) بمهارة عظيمة إذ كانت تتكون من منضدتين مغطتين بالسجاجيد.

الاثنين ٣ (١٦ نيسان)، دير الزور: اشترينا أنا وشيرباتوف في الصباح فرسًا مغراء اللون من سلالة سعادان طوقان (؟)، أحضرها بدوي من قبيلة الأخدعات(؟) وسميناها «جريفة». قال صاحبها إنه عاد لتوه من مطاردة سراق الخيل الذين سرقوا فرس أحد أقربائه. استمرت المطاردة ثمانية أيام وفي خلال هذه الفترة لم يترك هو ورفاقه السرج إلا قليلاً وهذا ما جعل الفرس يبدو منهكًا.

ذهبت الخيول والبغال والحمير في الثانية بعد الظهر إلى مكان عبور النهر لتنتقل في ذلك اليوم إلى الضّفة اليسرى من الفرات، لكي لا نتأخر في اليوم التالي بالانطلاق إلى نهر الخابور. أما حمد وحريفة فبقيا تحت مراقبة إبراهيم ودرويش وهما مكلفان بخيمة الطعام أيضًا والصناديق المختلفة التي تركناها لنسافر بغير متاع.

الثلاثاء ٤ (١٧) نيسان، شاطئ الفرات الأيسر: استيقظنا باكرًا جدًا في الخامسة صباحًا نظرًا لطول الاجتياز المقرر، ولننقل الخيم والأمتعة عبر الفرات قبل بدء التحرك. ومع ذلك استغرق النقل الكثير من الوقت وخاصة أن الأمتعة كانت تُنقل على حصانين لعدم وجود البغال فكانت تمشي ذهابًا وإيابًا بين الخيام والمركب بعيد عن مكان توقفنا.

وأخيرًا عندما أُخذ الرحل الأخير انطلقنا بأنفسنا خلفه، وكان بعضنا يركب الحمير وبعضنا يسير على الأقدام وآخرون على الخيول.

وجدنا على معبر النهر ماعونين مربوطين معًا ومشحونين بأمتعتنا فجلسنا فوقهما. عندما حل رباط الماعونين أخَذَنا جريان النهر إلى الأسفل بسرعة هائلة على الرغم من جهود الجذافين. ولأنهم كانوا يستعملون الصواري الطويلة بدلاً من المجاذيف فليس من العجيب أنهم لم يستطيعوا مقاومة الجريان. وغريب أنه على نهر كبير كهذا الذي يعبرونه منذ عشرات السنين، لم يخطر ببال الناس استعمال مجاذيف حقيقية وماعونات أفضل من هذه.

عندما وصلنا إلى الشاطئ المقابل بعد جهود كبيرة وأصبحنا بفرستا ونصف أسفل مما كان مطلوبًا، بدؤوا يسحبوننا بالحبال إلى أعالي النهر، فقفز ثلاثة جذافين إلى الوحل الذي كان يفصل بين الماعونين والأرض الصلبة عرضه حوالي عشرة ساجينات.

استقبلنا عائش على الضفة المقابلة حيث نزلنا ومعه بعض البدو من الشمر المبعوثين من الشيخ يعس (؟) كما فهمنا. صاحبنا عائش إلى الخابور. نظرًا لتأخر الوقت حيث زاد على العاشرة ليلاً، اقترح عائش أن نقضي ليلتنا هنا وننطلق غدًا في الصباح الباكر، وقد كان اقتراحه معقولاً لأن شيخ الشمر لن يأتي إلى مكان موعدنا إلا في اليوم القادم.

على الأقل هكذا نقل سركيس كل ما سمعه من عائش، ثم تبين إنه لا يفهم السكان المحليين جيدًا، ولعدم معرفته أسماء الشيوخ والقبائل والسلالات كان كثيرًا ما يحرف أحاديثنا ويترجم ما نقوله ترجمة غير صحيحة.

بعد أن تشاورنا بعضنا مع بعض قررنا أن نسمع نصيحة عائش فأمرنا بتنصيب المخيم. ثم جاء إلينا البدو بخيولهم، وقد أعجب شيرباتوف بواحدة منها كثيرًا فأراد شراءها حالاً ولكن لنفسه، لأنه وجد فيها بعض العيوب فكان من الأفضل ألا نشتريها لعزبة لتربية الخيل وسميناها «شمسة».

كانت مراقبة الطريقة المحلية لعبور النهر على جلود الجواميس المنفوخة مضحكة جدًا. فقد كان العابرون يتعرون وينزلون القربة إلى الماء ثم يستلقون عليها ويجذفونها بأيديهم وأرجلهم فيأخذوهم الجريان السريع إلى أسفل النهر حتى يصلوا إلى الضفة الأخرى. وبما أن القربة كانت تغوص في الماء كلها تقريبًا فلم يظهر على السطح إلا زوج أو زوجين أو ثلاثة أزواج من الأيدي والأرجل.

ذهب الصيادون في المساء لصيد الطيور التي تكثر في العشب الطويل والشعير العالي.

الأربعاء ٥ (١٨) نيسان، الوقفة على نهر الخابور في منطقة الجزيرة: تحركنا في السابعة صباحًا بعد استراحة في الطريق لفترة ساعة ونصف، ثم وصلنا إلى الخابور في الثالثة والنصف (٤٥ فرستا)، ووصلت القافلة بعدنا بساعة.

ما عدا عائشًا وبعض البدو من الشمر والأخدعات (؟) كان معنا شرطي من دير الزور كان يرغب كثيرًا في أن يبيع لشيرباتوف فرسه التي كان يريها لنا في دير الزور عدة مرات. وأخيرًا تتوجت مثابرته بنجاح، فقد اشترينا فرسه البيضاء واسمها «سعادة» لعزبة لتربية الخيل بعد أن أكد شيخ الأخدعات (؟) وحمود شلاح من قبيلة أبو ساراي (؟) أصالتها.

قطعت العبور الأخير على شمسة فأعجبت كثيرًا بهيئة سيرها، ومع ذلك نفد صبري من حميتها إذ إنها كانت تسير بسرعة طوال النهار. هذه الفرس سريعة جدًا دون شك وتلويحتها ممتازة ويساعدها على هذا قوائمها الرائعة. عندما رأى الشرطي صاحب الفرس «سعادة» حمية شمسة فسر أن هذه الحمية بسبب عدم تعودها للألجمة الحديدية، واقترح أن نتبادل بخيولنا. وعندما تبادلنا وجدت أن شمسة فعلاً هدأت من سرعتها عندما امتطاها الجندي بالأرسان؛ أما سعادة فوجدت خطواتها عذبة وسريعة، ولكنها كانت تتعثر كثيرًا فاتضح أن ساقيها الأماميتين مشوهتان.

بعد ابتعادنا ٣-٤ فرستات عن دير الزور رأينا في البعيد قطيعًا من الغزلان، فنزل شيرباتوف عن حصانه وأخذ بندقيته، فقد فكر أن يقترب منها سيرًا على الأقدام بمسافة يمكنه إطلاق النار عليها، لكن الحيوانات الحساسة خافت من شيء ما فأخذت تعدو واختفت بعد لحظة. رأينا خلال النهار العديد من هذه القطعان ولكن كلها كانت ترعى بعيدة عن الطريق.

ركبنا اليوم في منطقة من الرافدين التي تشكل مثلثًا من الفرات ورافدة الخابور ويسمي السكان المحليون هذه المنطقة بالجزيرة. والجزيرة لا تختلف كثيرًا عن بادية الشام، ففيها التربة الرملية نفسها والعشب النادر والجبال المنخفضة، إلا أن وادي الخابور فيه تباين رائع بأرضه المحيطة به وخضرة شواطئه المغطاة بالشجيرات القصيرة

والمروج بعشبها الكثيف والعالي. ومن قمم الهضاب المطوقة من الغرب يتراءى جريان النهر بفرستات كثيرة إلى الجنوب والشمال على شكل خط أخضر ومسطح ومتعرج في وسط الصحراء الكئيبة والرتيبة. لا يمتاز نهر الخابور بعرض كبير في أية منطقة ومع ذلك فهو سريع الجريان وغزير المياه.

بما أننا عزمنا العودة إلى دير الزور بعد غد أردنا أن نتخلص من الهموم الزائدة في نقل الحيوانات، فتركناها على الضفة اليمنى تحت حماية الحرس الذي وضعه الأتراك حتى في هذا المكان المنعزل من الصحراء. أما نحن فعبرنا النهر على ماعون مثل الذي كان على الفرات إلى الضفة المقابلة ونصبنا مخيمنا على مرجة مغطاة بالأعشاب، وكانت تلك المنطقة رائعة بغزارة مياهها المنعشة للجو وبكثرة خضرتها في كل مكان.

بعد أن نصبنا مخيمنا جاء إلينا الشيخ حفل (؟) من قبيلة الأخدعات (؟) التي تتنقل في مكان قريب من هنا. وتبين من أحاديثنا أن عائشًا خدعنا أو أن سركيس لم يفهم عليه، لأن يعس (؟) شيخ الشمر موجود على مسيرة يومين من هنا، ولا يجرؤ الاقتراب أكثر من ذلك خوفًا من الأتراك.

تترحل الأخدعات (؟) في كل منطقة الجزيرة وتنتقل بين الحين والآخر إلى شاطئ الفرات الأيمن. ومنذ عشرات السنين أصبحت هذه القبيلة مشهورة بخيولها المنتمية إلى أفضل السلالات العربية الأصيلة. فمثلاً من بين الخيول التي رأيناها هنا التي وصل عددها إلى الستين، رأينا السلالات كدهمان أم عمر (؟) وكحيلان العجوز وكحيلان نواق وكحيلان أبو عرقوب وعبيان شرك (؟) وصقلاوي جدران وغيرها. كل أعضاء الأخدعات (؟) يحملون حرابهم ويعتبرون من البدو الحقيقيين وهم مسالمون على وتيرة واحدة مع الشمر والعنزة ولو أنهم لا ينتمون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

الخميس ٦ (١٩) نيسان، الوقفة على الخابور: زارنا حفل (؟) مرة أخرى في الصباح الباكر مع ابنه، فأهدى شيرباتوف لابنه عباءة وكوفية وسكين، ثم جاء بعدهم البدو بكثرة وكأنّ القبيلة كلها حضرت، وأحضروا خيولهم التي تعطشوا كثيراً لبيعها لنا.

انشغلنا كثيراً في مشاهدة الخيول خلال ٣-٤ ساعات فلم أتمكن من أن أصور صورة وقفتنا ولو أن منظرها كان بهيًا جدًا في تلك الأثناء. كانت الخيم على طرف واحد يجلس في ظلها الشيخ وهو عجوز وقور في حدود السبعين، ومن طرف آخر كانت غابة من الحربات المغروزة في الأرض وأصحابها البدو يجلسون مزدحمين أو يقفون في كل مكان. وكانت الخيول تحضر إلى المكان الفارغ في وسط الزحمة وكل الموجودون يشاركون في الحديث بنشاط فيما يخص سلالات تلك الخيول.

وإذا أضفنا إلى هذه الصورة الخيول التي ترعى على العشب الأخضر المحيط بنا والنهر السريع مع حصن تركي على ساحله والصحراء البائنة في البعيد والسماء الزرقاء والشمس الوهاجة وشفافية الهواء الاستوائية تترسم منها حتى الأشياء البعيدة بوضوح، فستكون صورة جديرة بريشة خيرة الفنانين.

كان الجو حاراً طوال النهار فانتهزنا فرصتنا النادرة وهي قربنا من النهر فكان الجميع يذهبون بالدور للسباحة. في المساء زار شيرباتوف حفل (؟).

الجمعة ٧ (٢٠) نيسان، دير الزور، الضفة اليسرى من الفرات: من أجل تجنُّب القيظ أرسلنا القافلة في التاسعة صباحًا وبقينا في خيمتنا الوحيدة حتى الظهيرة، ثم تحركنا في الثانية عشرة والنصف إلى طريق العودة فوصلنا الفرات دون توقف.

كانت شمسة تتحمى من وجود الخيول الأخرى فاضررت أن أتنحى بها في البداية إلى جانب الطريق، وعندما اختفى رفقائي عن نظري عدت إلى الطريق

الضيق وأكملت رحلتي بمفردي. وكان قد حلّ الظلام عند نزولي إلى وادي الفرات وكانت شمسة قد هدئت أخيراً. تراءى على يسار الطريق شخص لفت انتباهي بعجلة سيره، فكان يسير تارة ويركض تارة أخرى. وبعد قليل التقيت بقطيع من الحمير وكان أصحابها يتكلمون بحرارة فيما بينهم عن شيء ما. ثم اتضح أنهم اشتركوا في النصف الساعة الأخيرة بالبحث عن سارق الخيل ومن المحتمل أنه الشخص الذي رأيته قبل قليل. كان عائش وشيرباتوف وغيرهم يركبون في المقدمة فرأوا شخصاً من بعيد كان يسحب فرساً مربوطة بهدوء، فشك عائش فيه لسبب ما، فجرى خلفه وصدق فيه ظنّه، وبعد أن أخذ منه الفرس سلمها للحمَّارة وأطلق سراح السارق لعدم رغبته بالاتصال مع الشرطة.

أرسل شيرباتوف عائشاً ليستقبلني فقص عائش لي هذه الحادثة وأضاف أن سراق الخيل يكثرون في ضواحي دير الزور وأن السلطات التركية تعاقبهم بشدة.

ظهرت أضواء مخيمنا في الثامنة مساءً فقط، فنزلت عن فرسي بكل سرور بعد سبع ساعات ونصف من الجلوس المتواصل على السرج والركوب بلا وقوف.

السبت ٨ (٢١) نيسان، دير الزور: بدأت القافلة تنتقل تدريجيًا إلى الضفة المقابلة من الفرات في السابعة صباحًا، واستمر هذا الإجراء البطيء والممل حتى العاشرة عندما تحركنا أنا و (ي) مع الأمتعة الأخيرة والخيول والبغال والحمير إلى مكان العبور، وقد ذهب شيرباتوف و (أ) قبلنا. كانت الضفة عالية ومغطاة بالوحل اللزج، فكانت الحيوانات المسكينة تحرن وتتراجع إلى الخلف فيدفعها البغالون وعندئذ تتزحلق إلى أسفل المنحدر حيث تستند بساقيها الأماميتين على قاع الماعون أما ساقاها الخلفيتان فتبقيان على الدحدورة، فتضطر عندئذ أن تقفز قفزة ارتفاعها أرشين لتجتاز جانب الماعون وثبًا. حرن بغل أو بغلان فاضطر البغالون إلى تعصيب

عيونها وإدخالها إلى الزورق بالأيدي. عندما جاء دور الخيول خشيت أن تكسر أرجلها أو يصيبها أذى، ولكن لحسن الحظ لم يحدث شيء كهذا.

في خلال هذا الوقت، أي وقت الشحن، ازدحم السكان المحليون على الشاطئ وحاولوا الدخول إلى الماعون، كان رجالنا يكادون يطردونهم بالعصي ليتخلصوا من إلحافاتهم. وعندما أقلعنا تدفقت الزحمة تدفقًا جنونيًا، وزيادة على ذلك كان بعض الشرطة يتصرفون بتحد كبير، فلا الجنود الذين كانوا معنا ولا البغالون استطاعوا إيقافهم، عندئذ نفد صبر (ي) تمامًا من سلاطة هؤلاء الرجال والنساء فهدد أن يشتكي للمحافظ وأمر لميخايلو وفولكوف أن يخرجا بقوة هؤلاء الذين استطاعوا الدخول إلى الزورق.

بعد نزولنا في دير الزور ذهبت إلى الأسواق بصحبة الشاويش لأشتري بعض الحاجات اللازمة. كان الجميع يعرفون عن شرائنا لشمسة التي كانت مشهورة لدرجة أن الجميع عندما يرونها يعرفونها مباشرة ويقولون وهم يشيرون إليها: «العنقاء!»، فإذا توقفت كان السكان المحليون يحيطونني ويتأملون الفرس ويتمتعون برؤيتها. عندما عاد إبراهيم من المدينة إلى المخيم قال إن الناس في السوق لا يتكلمون إلا عن شرائنا، فكما قال بالعربية: «كل السوق تتحدث عن العنقاء!».

توقفنا في مكاننا الأسبق وبدأنا بمشاهدة الخيول من جديد. نصح عائش وويس أفندي لنا بالبقاء هنا لبضعة أيام أخر، لأن الأمل ضعيف في الالتقاء مع البدو في هذا العام في الصحراء، ويمكنهم إحضار خيولهم إلى هنا. والساعية إلى الشيخ فياض وعبتاين (؟) بن مرشد لم يعودوا حتى الآن.

أرسلنا في المساء برقيات التهنئة إلى روسيا.

الأحد، عيد الفصح، ٩ (٢٢) نيسان، دير الزور: هنّأ بعضنا بعضًا بالعيد وأهديتُ لكل واحد بيضة مما اشتريته من روسيا سلفًا قبل سفرنا. جاءت القافلة كلها لتهنئنا وقد عَيَّدوا هم عيد الفصح منذ أسبوع. لم يختلف يوم العيد هذا عن أيام أخرى إلا بالعدد الكبير من الخيول المحضرة إذ وصل عددها اليوم إلى الخمسين. لم نشتر منها إلا فرسين، واحدة بيضاء اللون من سلالة جلفية الأطناب الفولاذية وأخرى كُمَيتة من سلالة صقلاوي عرجبية (؟).

احتفالاً بعيد الفصح كان غداؤنا هذه المرة فاخرًا يتكون من المعلبات المختلفة والشمبانيا! تطاولت سهرتنا وأحاديثنا هذا المساء، وهذا ما يحدث نادرًا لأن الجميع يسعون عادة إلى النوم باكرًا، إلا أن المناسبة اليوم وتبادل الذكريات والتأثرات قد طردت النعاس.

الاثنين ١٠ (٢٣) نيسان، دير الزور: ازداد الطقس حرارة فكانت درجاتها في الظهيرة ٥٠ تحت الشمس وفي الخيمة ٢٨. ذهب الجميع إلى النهر للسباحة مرتين وأنا كنت أتحمم في خيمتي.

في الصباح من الساعة الثامنة حتى الحادية عشرة كنا ـ كعادتنا ـ نشاهد الخيول، فشاهدنا ٤٧ حصانًا، ولكن لم يكن من هذا العدد إلا القليل من الجياد. أعجبت أكثر الشيء بجواد أمغر من سلالة صقلاوي جدران من أب ريشان شرابي(؟)؛ كانت عظامه ومتنه ممتازة وبنيته متينة ومنتظمة، وكان أنيقًا سواء في سيره أو وقوفه، وكان رأسه جميلاً ولو أنه لاحم بعض الشيء. ولد عند العنزة وانتقل منها إلى الشيخ فارس من الشمر، ومنه إلى صاحبه الحالي وهو من مواطني دير الزور. ولكن للأسف كانت ساقاه الأماميتان ملتويتين وهذا ما منعنا عن شرائه. وكان جواد آخر ترددنا في أمره كثيرًا أنشتريه أم لا، وقد كان أكثر أصالة وجمالاً من الأسبق[١]؛ كان ذاك عيبه الوحيد، ومع ذلك كان كبيرًا بالنسبة للفحل "كوربا".

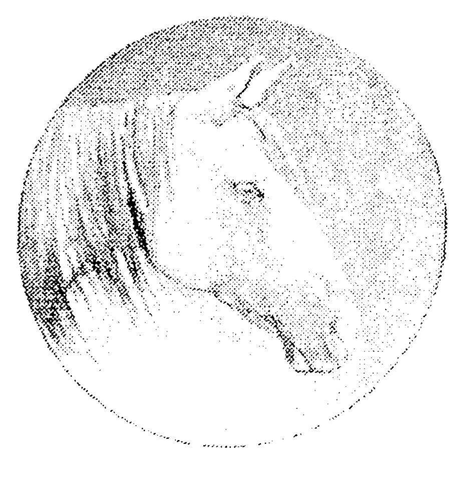
(١) رأس ذلك الجواد مطبوع في بداية الفصل الرابع في الجزء الأول من هذا الكتاب، المؤلفة.

لونه رمادي وعمره خمس سنوات وسلالته كحيلان عجوز. يمتاز هذا الحصان المليح بوقفته ومشيته النادرتين، فليس من العجيب أن يتمتع بسمعة كبيرة في دير الزور والقبائل المجاورة. وكانت قصة كوربا هذه الأولى في كل رحلتنا.

مرت الفترة بين الفطور والشاي مثل الأيام الباقية ثم بدأنا بمشاهدة الخيول من جديد. وفي المساء عندما برد الجو تنزهنا أنا وشيرباتوف بمفردنا على جريفة وحمد. عندما تجاوزنا الثكنات ركض خلفنا طابور من المشاهدين ثم لحق بنا الراكبون الراغبون في عرض خيولهم علينا وكانوا يختلفون هنا وهناك.

الثلاثاء ١١ (٢٤) نيسان، دير الزور: من الظاهر أن احتياطات الخيول بدأت بالنفاد، فقد أحضر اليوم عدد ضئيل جداً منها وكلها كانت سيئة. هبت الرياح الجنوبية الشديدة طوال النهار، وعلى الرغم من أن الغيوم حجبت الشمس كان الجو خانقاً بشكل لا يطاق: كانت درجات الحرارة ٣١ في المكان الظليل الوحيد أي في الخيمة، وزادت على الستين تحت الشمس بكل تأكيد، وكان ميزان الحرارة يؤشر على ٦٠ فقط، فخشيت أن ينفجر فغطيته فنزل بعدها إلى ٥٩. حتى الليل كان حاراً لأول مرة.





جلفية

الفصل الرابع

الأربعاء ١٢ (٢٥) نيسان، قباقب: ودّعنا ويس أفندي الطيب وغادرنا دير الزور في السابعة صباحًا بصحبة عائش الذي افترقنا عنه بعد قليل.

كان بعض أصحاب الخيول الذين لم يستطعوا أن يبيعوا لنا كدشهم[١] يتخطرون أمامنا آملين أن يلفتوا انتباهنا. كان من بينهم واحد يركب فرسًا بيضاء يصاحبها مهر عمره سنتان أو ثلاثة. كان هذا الساكن المحلي يركب ذهابًا وإيابًا، وكان يبطئ بفرسه ثم يسرع بها من جديد. لم يتأخر المهر عن أمه ولا دقيقة كما أنه لم يتعثر على الرغم من المنطقة المحتجزة والمحفورة بالتجويفات المحترفة.

كان شيرباتوف راكبًا على حريفة طوال الاجتياز وكان مسرورًا بها، وقطعت أنا جزءًا من الطريق على حمد والجزء الثاني على شمسة النحيلة والهزيلة، إذ كان

(١) الكديش: حصان غير أصيل كما يسمونه البدو احتقارًا.

تسمينها بهذا العلف السيِّئ مستحيلاً. ومع ذلك فإن مشترياتنا الجديدة من الخيول تمثل بهيئة سيرها وطاقتها تباينًا عجيبًا مع الخيول المستأجرة.

كان الجو عند انطلاقنا باردًا ولكن مع رياح شديدة ترفع سحبًا من الغبار تقذي العيون، والآن أصبح الجو حارًا.

توقفنا في بئر قباقب ليس في مكاننا الأسبق بل ابتعدنا عنه قليلاً.

الخميس ١٣ (٢٦) نيسان، بئر قباقب: قررنا أن نتوقف هنا بضعة أيام لأن البدو يبدؤون بالاقتراب إلى هنا من الجنوب، فلذلك أرسلنا بعض الناس إلى دير الزور لشراء الشعير.

زارنا في الصباح بعض الأشخاص من فدعان محيد (؟) وقالوا إن خمسمائة بدوي من قبائل فدعان الفرعية وهي محيد (؟) والعجاجرة والشميلات (؟) وخريسة (؟) وغيرها قد رحلوا منذ خمسة عشر يومًا تحت زعامة حجيم بن محيد(؟) وهو شيخ قبيلة المحيد (؟) المعادية للروالة.

جاء في النهار شيخ قبيلة العجاجرة (؟) على فرس كميتة أحمة عجيبة من سلالة عبية شركية (؟)، منتظمة البنية برأس وأرجل عربية أصيلة ونموذجية وكأن عمرها أربع سنوات، كانت هذه الفرس مثالاً نادرًا لتوافر كل الصفات الجيدة ولكن عمرها الذي تجاوز خمس عشرة سنة كان عائقًا خطيرًا لشرائها.

كان الشيخ يتأمل خيولنا بإمعان مستخدمًا الطريقة البدوية الغريبة لفحص انتظام ساقيها الأماميتين وذلك بقياسها بالأصابع، زد على ذلك أنه يجب أن تكون المسافة بين الحافر وأعالي الركبة ٢١-٢٢ أصبعًا.

وجد أحد أفرادنا ماء جيدًا نسبيًا على بعد فرستا واحدة من هنا، فنستطيع الآن استخدامها بدلاً من الماء الرديء من البئر الموجود هنا.

أخذ شيرباتوف وفولكوف و (أ) وكاراكين والسواس الخيول إلى الضواحي المحيطة بحثًا عن العشب لتتغذى الحيوانات بالعلف الطازج ولو قليلاً، لأنها لا تأكل سوى القش والشعير، وحتى هذا العلف المأخوذ من دير الزور نفد ولم يحضر الجديد حتى الآن. بدأ (أ) بعلاج شمسة التي مرضت حقيقة وامتنعت عن العلف.

الجمعة ١٤ (٢٧) نيسان، السبت ١٥ (٢٨) نيسان، قباقب: تجري الأيام هنا متشابهة. لا تحضر الخيول إلا قليلاً وكلها متوسطة جدًا باستثناء فرسين، الأولى حدبة عنزيخة (؟) رمادية اللون وعمرها خمس سنوات تابعة للبدوي من العواجة، والأخرى جلفي ستام (؟) الفولاذ عمرها تسع سنوات ورمادية اللون أيضًا تابعة لقبيلة الفدعان. لم نرض أن ندفع لكل واحدة أكثر من ستين نابليوندر[1]، إلا أن أصحابها الذين طلبوا ثمانين وتسعين عملة ذهبية لم يتنازلوا فامتطوها ورحلوا.

في مساء يوم الجمعة جاء الشيخ حميد بن عيد مع ابنه والبدو. أثناء وجودنا في دير الزور كتب الشيخ لشيرباتوف رسالة يطلب فيها أن يحضر له القهوة والرز، فجاء الآن ليستلمها. وقد غضب شيرباتوف من هذا الطلب السليط وعبر للشيخ بالعبارات العنيفة عن رأيه تجاه سلوكه وأنه مخطئ جدًا في طلبه الهدايا.

ذهب (ي) و (أ) مع سركيس بفرقتين منفصلتين عن كاراكين وعبد الله إلى مخيمات البدو الموجودة في الضواحي، إلا أن البدو كانوا يرونهم الخيول بتكرُّه لسبب غير معروف واستقبلوهم ببرودة.

الأحد ١٦ (٢٩) نيسان، قباقب: جاء في الصباح العقيد العائد من الغزوة ضد الروالة اسمه حمش بن قرميت بن محيد (؟) وهو ابن الشيخ محيد (؟) ومعه حوالي

(١) نابليوندر: العملة الذهبية الفرنسية قدرها ٢٠ فرنك تضم ٥,٨ غرام من الذهب الصافي. تصك منذ عام ١٨٠٣م. تسمى بهذا الاسم لأن صورة نابليون الأول ونابليون الثالث منقوشتان عليها، المعرب.

عشرة بدو. هذه الغارة الكبيرة التي تحدثت عنها سابقًا والتي اشترك فيها أكثر من مئتين فدعان، لم تجلب لهم نتائج كبيرة، فلم يسلبوا سوى حصانين وثلاثين جملاً. كانت الروالة متنبهة لهذه الغزوة فوضعوا إبلهم وأغنامهم وخيولهم في وسط دائرة أحاطوها بالحجارة ودافعوا عن أنفسهم من ورائها وصدوا غارة فدعان بسهولة، وكان الفدعان عديمو القدرة أمام هذا الحصن المنيع.

اهتممنا أنا و (ي) بالتصوير كثيراً في هذه الأيام، فكدنا نحرق خيمنا بالمصباح المظلم لأن جدرانه الورقية كانت تحترق باستمرار. صنعنا الغرفة المظلمة من الرداء الطويل والعباءة المعلقتين على عمود الخيمة، ومع أن الحر كان في داخلها شديداً كنا نستمر في تبديل رقائق التصوير وتحميض السلبيات. بعد أن كاد الحريق يحدث مرة أخرى قررنا أن نقضي على هذا المصباح ونحرم أنفسنا من متعة العمل مع هذه الأداة الخطرة.

الاثنين ١٧ (٣٠) نيسان، بئر حميدية: انطلقنا في السابعة صباحًا: شيرباتوف على شمسة وأنا على جريفة، فركبنا حتى بئر حميدية دون توقف، وكان طول الاجتياز أربعين فرستا.

الثلاثاء ١٨ نيسان (١ أيار)، السخنة: أرُونا هنا جوادين متوسطين جداً. نصحنا رجال الشرطة أن نركب متراصين وبحذر لأن قبيلة العمور «تشاغب» في الأماكن القريبة من هنا. بما أن الخيول لا تأكل شيئًا سوى القش والشعير منذ خمسة أيام، تعمدت الوقوف بعد ابتعادنا بضعة فرستات عن حميدية مع عبد الله ودرويش اللذين كانا يسحبان خيولنا الثلاثة بالأرسان. فقد كان المرعى هنا فاخراً، فهجمت الحيوانات الجائعة على العشب الريان بشراهة كبيرة. بعد ساعة تحركنا من جديد فضللنا الطريق وعرفنا ذلك عندما رأينا شرطيين راكبين على يسارنا بعيداً.

تذكرت إنذار الجنود في حميدية فاستعجلت لألحق بفرقتنا الطليعية وكنت أتوقف كل دقيقة لأستعجل عبد الله ودرويش اللذين كادا يغفلان في السرج . وأخيرًا عندما صعدنا الربوة على بعد خمس فرستات عن السخنة رأيت من بعيد رفقاءنا الراكبين على شكل سلسلة طويلة، وكانوا يركبون باطمئنان .

الأربعاء ١٩ نيسان (٢ أيار)، أرك، والخميس ٢٠ نيسان (٣ أيار)، تدمر : كانت اجتيازاتنا في اليومين الأخيرين قصيرة : قطعنا البارحة ٣٦ فرستا إلى أرك وبتنا الليلة فيها، واليوم إلى تدمر ٣١ فرستا . الطقس حار جدًا وخانق . بعد اختيارنا مكانًا للتوقف بقليل رأينا قافلة أخرى تقترب منّا من جهة الشمال . كان في مقدمتها شخص أوروبي راكبًا حصانه وفاتحًا مظلته الخضراء ومعه ترجمان عليه ألبسة فاخرة، ومسلح بالمسدسات، وعلى رأسه كوفية ساطعة الألوان . وكان خلفهم أربعة أشخاص اتضح أن اثنين منهم ألمانيان والاثنين الآخرين أمريكيان، أما الذي في المقدمة فكان إنكليزيًا وهو الدكتور المعروف من بيروت وكان مرشدًا للبقية . يترحل هؤلاء الرحالة في سوريا منذ ثلاثة أشهر بهدف دراسة النباتات والحيوانات الخاصة لهذه المنطقة . كانت الأعلام ترفرف فوق خيمهم ومنها العلم الأمريكي والألماني والإنكليزي والتركي، لأن قافلتهم كانت مصحوبة بالحراس مع ضابطهم .

لم نُسَرَّ للأخبار التي وصلتنا هنا : كان الشيخ محمد مريضًا وشاكًا في قدرته على إتمام الرحلة معنا غدًا؛ كما أنه لم يجمع أية معلومات، فلم نتقدم في معرفتنا عن البدو بأي شيء . ومع ذلك قررنا التصميم على مشروعنا الموضوع سلفًا ونذهب مباشرة إلى ضمير، لأن مخيمات الرحل الروالة وولد علي موجودة في ضواحيها دون شك .

الجمعة ٢١ نيسان (٤ أيار) : انطلقنا في السادسة والنصف، وفي الحادية عشرة وصلنا إلى عين البيضاء والقافلة في الثانية عشرة . كان الشيخ محمد مصممًا على

مصاحبتنا على الرغم من سوء حالته الصحية الواضح، وكان يركب على ذلول كبير الحجم من أجل الراحة.

نظرًا لعدم وجود المياه في مكان توقفنا القادم أخذنا خمسة من الجمال محملة بالماء من تدمر، أما الحيوانات فشربت من البئر. وجدنا في عين البيضاء بعض البدو من القموصة الذين عرفوا حمدَ، من أول نظرة، وتأسفوا كثيرًا لكون قبيلتهم حرمت من خدمات هذا الفحل الممتاز كما قالوا عنه. أخبرنا البدو أن الشيخ فياضًا موجود مع قبيلته جنوب تدمر على مسافة ١٠-١٢ يومًا ركوبًا.

انطلقنا في الواحدة والنصف، وبعد ثلاثة ساعات وجدنا مكانًا ممهدًا وصالحًا للتوقف وحوله كمية كافية من العشب، فقررنا أن ننصب مخيمنا هناك، كان الطقس حارًا طوال النهار، قطعت القافلة خمسين فرستا بسرعة أي بعشرة ساعات ونصف.

السبت ٢٢ نيسان (٥ أيار)، القريتين: لقد ترسخ في ذاكرتي أن اجتيازنا في هذا اليوم أطول وأشق اجتياز في رحلتنا، ولو أنه لم يكن أكثر مسافة من الاجتيازات الأخرى إلا قليلاً، وقد خيل إليَّ أن الجميع شعروا بما شعرت به أنا، في حين أننا لم نقطع سوى ٥٨ فرستا دون توقف وبسرعة في ثماني ساعات والقافلة في إحدى عشرة ساعة.

بعد انطلاقنا في السادسة والنصف هبت رياح غربية شديدة جدًا واستمر هبوبها حتى ساعة متأخرة من الليل، وكانت تهب في مواجهتنا وتحرق الوجوه وتقذى العيون بالغبار مع أن الجميع غطّوا رؤوسهم بالكوفيات.

كانت الحرارة خمسين أو ستين درجة (تحت الشمس لعدم وجود الظل)، والشمس الساطعة كانت تبهر العيون طوال النهار بالإضافة إلى الغبار، واستمر كل

هذا ثماني ساعات متتالية إذ لم نتوقف خلال هذه المدة، فتعبنا كثيراً وتشوقنا لرؤية القريتين.

كان الطريق آمنًا، فلم تكن حاجة لنسير متراصين، فامتدت الفرقة الطليعية مع القافلة عدة فرستات طولاً. كان كل فرد راكبًا وحده لا يهتم بغيره ولا يشغل باله إلا بالاحتماء من الرياح والغبار والوصول السريع إلى مكان التوقف دون أن ينهك حصانه.



البدو العائدون من الغزوة عام ١٩٠٠

كنت راكبة في المقدمة على جريفة التي تسير بخطًا واسعة، فرميت لها الزمام وغفوت تحت هذا القيظ. يبدو أنني نمت بعد ذلك، وصرت أهتز في سرجي، لأن (ي) الذي كان راكبًا خلفي قدم لي سيكارة لأنها وسيلة جيدة للتخلص من النوم.

عندما رأينا مآذن مساجد القريتين عن بعد شعر الجميع بخفة فضاعفنا من سرعتنا ظنّا منا أن الوصول إليها قريب، إلا أن المسافة لم تنقص وكأن البلدة

تستهزئ بنا باقترابنا الخادع في حين أنها لا تزال بعيدة. وسبب هذا الخداع استواء الأرض وشفافية الهواء في الصحراء التي توهم بقرب الأشياء البعيدة.

زاد عطشنا كثيرًا لأننا لم نشرب منذ ساعة انطلاقنا، فارغمنا أنا و(ي) أن نحلم بالارتواء القريب من قنوات السقاية الموجودة بثلاث فرستات قبل الوصول إلى القريتين. وكم كانت خيبتنا عندما وجدنا أن انخفاض الماء ثلاثة ساجينات تحت مستوى الأرض وصبب الضفاف لا يسمح بالنزول إليها. بعد تجولنا قرب القناة عبثًا وتأكدنا في عدم استطاعتنا بلوغ القاع أسرعنا إلى مكان التوقف حيث الجدول يجري. وبعد دخولنا القريتين تهنا بين البساتين والأزقة فطلبت من صبي أن يرشدنا ووعدته بالبقشيش، ولكنه لم يفهم علي، فأرشدنا إلى خان حيث قدم لنا شرطي خدوم قربة من الماء الممتاز تلبية لطلبي. من الصعب تصور شعورنا بالروعة من هذه الدقيقة دون المرور بالتجربة، عندما استطعنا أخيرًا أن نروي عطشنا الذي امتد طوال النهار بالماء البارد والنقي. شربنا أنا و (ي) قربة كاملة حتى أفرغناها، ثم ذهبنا ونحن منتعشين خلف الصبي الذي أرشدنا إلى مكان توقفنا السابق. وصلنا في الساعة الثانية، أما البقية فوصلوا متفرقين: شيرباتوف و (أ) في الثانية والنصف، وسركيس في الرابعة ومعه الخيمة، أما القافلة ففي الخامسة، وكان الجميع قد أنهكهم العطش فكانوا يندفعون إلى الماء بمجرد وصولهم.

عندما روينا عطشنا أحسسنا أننا لم نأكل شيئًا منذ الصباح الباكر أي منذ عشر ساعات فأخذنا نستعجل سركيس الذي يتأخر كعادته.

زارنا الشيخ فياض وأرانا بعض جياده، ثم ذهب شيرباتوف مع الشيخ محمد إليه لزيارته:

الأحد ٢٣ نيسان (٦ أيار)، الناصرية: لكي لا نضيع وقتنا الغالي هباء قررنا الذهاب إلى الناصرية اجتيازًا واحدًا، والناصرية قرية صغيرة على مسافة ساعة ونصف أو ساعتين ركوبًا من جيرود وثمانية وخمسين فرستا من القريتين؛ ومن

الناصرية يمكننا الذهاب مباشرة إلى ضمير ونصلها في خمس ساعات أو ست ساعات. وهكذا يمكننا اختصار الطريق ليوم واحد.

عندما تحركنا في السادسة صباحًا كان الجو حارًا والهواء ساكنًا، ثم هبت رياح جنوبية غربية شديدة من جديد حيث بدأت بالهبوب منذ مغادرتنا قباقب، فبدأ الجو يلطف ثم صار باردًا في المساء.

علمتنا تجربة أمس ألا يغيب عن نظرنا سركيس وعبد الله اللذان يحملان الطعام وكنا نستعجلهما طوال الوقت. توقفنا عند آثار الخان القديم لنتلمج. انتظرنا مرور القافلة وانطلقنا خلفها.

الناصرية قرية صغيرة، ترتوي حقولها بقنوات السقاية الكثيرة، وعلى بعد فرستا عن القرية توجد بساتين تخترقها قناة مليئة بالمياه الجارية والنقية. لقد فرحنا كثيرًا لرؤية الأشجار لأول مرة في الأسابيع الخمسة الأخيرة، وتأسفنا لعدم تمكننا من البقاء في هذا المكان الممتاز لفترة طويلة. كان مخيمنا محاطًا بالمياه من ثلاث جهات، ونصبت خيمنا تحت ظلال أشجار الحور العالية. كانت هنا حقول من الشعير حصدت ولكنها مليئة بالأعشاب، فتمكنت الخيول المسكينة أن تشبع أخيرًا من العشب الأخضر، فعدم وجود مثل هذا الغذاء أثر فيها كثيرًا، فالقش المفروم تفتت تمامًا ولم يبق منه إلا المسحوق، وكان علفًا وحيدًا مخلوطًا بالشعير كانت الخيول والبغال تتغذى عليه خلال أحدَ عشر يومًا مضت. لم ينحف الحصان حمد وغيره من الخيول المشتراة كثيرًا، أما شمسة المسكينة المريضة فأصبحت غير معترف بها.

أظهرت الخيول العربية صبرًا جيدًا وهي تتغذى بهذا العلف السيّئ خلال رحلتنا من دير الزور إلى ضمير، فبعد أن تستريح نهارًا كاملاً أي بعد أن تقطع ١٥–٥٠ فرستا بالأرسان، تكون نشيطة في اليوم التالي، فلذلك كنت أقطع المسافات على حمد وجريفة بالتناوب، أما (أ) فعلى جلفة وسعادة.

أرسلنا في المساء رسولاً إلى دمشق ليحضر لنا البريد. وفي الليل حدث اضطراب، فقد دوت طلقة نارية وتلتها ثانية ثم ثالثة، فاندفع الجميع من الخيم وقد تمكن شيرباتوف و (أ) أن يلبسا بسرعة أما (ي) فخرج بثياب النوم ومسدس في يده. كان كاراكين مناوبًا فأخذ (ي) يناديه إلا إنه لم يرد، فظن (ي) أنه جريح أو مقتول وأسرع باتجاه الطلقات النارية مستمراَ في ندائه حتى سمع صوته. ثم تبين أن كاراكين أطلق النار على الخنازير التي اقتربت من مخيمنا كثيراً، وبعد أن أطلق عليها ثلاث رصاصات وسمع صرخات من بعيد ظن أنه جرح شخصًا بالخطأ، وأسرع هو وعبد الله المناوب معه فوجدا خنّوصًا (خنزيرًا صغيرًا) تأخر عن أمه. ركض عبد الله خلف هذا الحيوان الصغير مع أن عقيدته الإسلامية تقول بنجاسة الخنازير، فأمسكه وأحضره إلى المخيم بصورة مهيبة، ولكنه نفق في الصباح. وبَّخ شيرباتوف كاراكين على هذا الإزعاج توبيخًا عنيفًا.

الاثنين ٢٤ نيسان (٧ أيار)، ضمير: كان الجو باردًا طوال النهار وكانت الرياح تهب شديدة وذهب بنا الشيخ محمد من الناصرية إلى الجبال، وعندما تأخرت القافلة عنا ضلت الطريق فاضطررنا أن ننتظرها، لأن محمد مرشدنا الوحيد، ولا يعرف أحد الطريق غيره. عندما عبرنا التضاريس الجبلية خيل لنا أننا انتقلنا إلى دنيا أخرى، فقد رأينا سهلاً واسعًا ممتدًا وفي وسطه قرية رحيبة الكبيرة المغمورة بالأشجار الخضراء، وكانت البساتين والحقول المحروثة وقطعان من الأغنام والجداول تظهر في كل مكان، بكلمة واحدة كانت بصمة الحضارة هنا والقر الذي أذهلنا بعد رتابة الصحراء وجفافها.

كان الطريق من رحيبة إلى ضمير مطروقًا ومارًا قرب جدول جبلي جميل كان يغرينا بخريره على القاع الرملي، فلم نتمالك عنه فشربنا منه وأسقينا خيولنا. لم نذق ماءً نقيًا صافيًا كهذا منذ مغادرتنا دمشق.

ركبنا دون أن نشعر بالوقت بسبب تنوع المناظر في المنطقة حيث كانت الجبال تتخللها الوديان، فكنا ننزل ثم نصعد من جديد، ونستمتع بالمناظر الطبيعية المتجددة بعد كل منعطف الطريق. بعد الصعود الأخير بدا أمامنا منظر مدينة ضمير، وخلفها المناطق البرية الممتدة مئات الفرستات إلى الجنوب والشرق.

مرض الشيخ محمد تمامًا فأخذناه إلى بيت الشيخ المحلي لينال قسطًا من الراحة. زاره (أ) وأعطى له بعض الأدوية من صندوقي.

سمعنا هنا أخبارًا سيئة بأن القبيلتين ولد علي والروالة على بعد ١٠-١٥ يوم ركوبًا إلى الجنوب من بركة. لم نعرف بعد ذلك كيف نجيب عن سؤالنا المطروح: ماذا نفعل وأين سنجد الخيول؟

الثلاثاء ٢٥ نيسان (٨ أيار)، ضمير: في الحادية عشرة عاد الساعي حاملاً البريد! كم كانت هذه اللحظة سعيدة لأننا لم نستلم شيئًا منذ ١٥ آذار سوى الرسالتين العاجلتين المرسلتين إلى دير الزور. قضينا الصباح كله في قراءة الرسائل والصحف التي أرسلها إلينا (ب) اللطيف من دمشق.

لكون الخيول غير موجودة هنا قررنا الذهاب في الغد إلى حمص (١٤٤ فرستا) وحماه وهي مدينة شمالية في سوريا وتشتهر بأسواق الخيول الكبيرة. وخلال غيابنا ستقترب القبائل الروالة وولد علي إلى بحيرة العتيبة أو بركة العتيبة كما يسميها السكان المحليون وهي على بعد ساعة ونصف جنوب ضمير. أما الشيخ محمد فسينتظرنا هنا وسيجمع معلومات عن البدو خلال هذا الوقت.

تعدّ ضميرَ حدًا فاصلاً بين سوريا والفرات، فمنها ينطلق ساعي البريد الذي يحمل البريد من دمشق إلى بغداد ويعود إليها عبر الصحراء، وهذه الرحلة خطيرة جدًا إذا حسبنا أنها تستغرق تسعة أيام على ذلول جيد وسريع، ولا يصادف خلال هذه الرحلة أي مخلوق حي، ولا توجد قطرة ماء في الطريق. ويكون الساعي

متعلقًا بجمله تمامًا، لأنه يحمله ويحمل كل احتياطاته من الطعام والماء، فإذا مات الجمل أو تعرج فهذا يؤدي إلى موت صاحبه الأكيد.

بلدة ضمير قليلة الأهمية جداً، إلا أن آثارها القديمة الماثلة في كل مكان تثبت أنها كانت أكثر أهمية في قديم الزمان. وقد ظهرت هذه البلدة منذ زمن طويل جداً كما هو ظاهر من الكتابات الإغريقية المنحوتة على معبد قديم، التي تقول إن هذا المعبد أنشئ عام ٢٤٦ ميلادية. وفي ضواحي البلدة تجري مياه كثيرة تنبع من الجبال ويستعملها السكان لإدارة الطواحين.

الأربعاء ٢٦ نيسان (٩ أيار)، قلدون: كان طريقنا يمر في المناطق المتحضرة، فيها بلدات كثيرة متناثرة في كل مكان. استغرقنا من ضمير إلى رحيبة ساعة ونصف من الزمن على الطريق نفسه الذي أتينا منه، ثم توجهنا باتجاه شمال غرب قرب الحقول المحروثة، وبعد ساعة بلغنا بلدة معضمية على منتصف الطريق بين دمشق وجيرود. ومنها يبدأ الطريق المعبد الممتاز المؤدي إلى حمص الذي يمتد على ثغور ومنحدرات سلسلة جبال لبنان الشرقية. وفي بعض الأمكنة كانت تجري سيول جبلية بمائها النقي الشفاف، فكانت خيولنا تنزل إليها فناطيسها بكل سرور. بشكل عام كانت المناطق في غاية الروعة بجبالها وثغورها وصخورها المختلطة بالأشجار والبساتين ومزارع الكروم، وكان هذا تباينًا عجيبًا مع المناظر الطبيعية التي رأيناها في الأسابيع الأخيرة.

لم يكن مرشدونا يعرفون المنطقة جيدًا، فقد قالوا إن قرية عين التينة واقعة على الطريق المؤدي إلى البريج، وهي بلدة كان علينا أن نجتازها في طريقنا إلى حمص، فلذلك تركنا سركيس وعبد الله وغيرهما من الذين يتباطؤون دائمًا خلفنا وانحرفنا نحن الأربعة عن الطريق استجابة لنصائح عابري السبيل، وسرنا على الطريق الضيق الفاتن المار بين سياجات من الورد الجبلي والنباتات الأخرى. ومن بين

مزارع الكروم كانت تنبت أشجار الفستق الضخمة التي أبهجتنا بأغصانها العريضة وبأوراقها الخضراء الداكنة. وكان المنظر أجمل في الضواحي الأخرى من عين التينة التي كانت متناسقة على العرائش على رأس الثغر، فكانت هناك أحراش الجوز الضخمة وأشجار الفستق والتين تشكل أحراجًا كاملة، ومن تحتها الشعير وغيره من أعشاب العلف التي كانت تغطي الأرض بسجادة خضراء تسقى بالجداول الجبلية الغزيرة في كل مكان.

وكم كنّا نتمنى أن نتوقف في هذا المكان ونستمتع بالظلال الجذابة بعد نصب المخيم تحتها، إلا أننا أدركنا بأننا لم نركب سوى أربع ساعات ونصف، وسيكون هذا ضعفًا لا يغتفر من جهتنا إذا استسلمنا لذلك الشعور، لذا تابعنا رحلتنا آسفين. عندما وصلنا إلى قمة الجبل أدركنا لأول مرة كيف ضللنا المرشدون عندما وجهونا إلى عين التينة؛ فبسبب هذا الخطأ قطعنا ٦-٧ فرستات زائدة على طريق ضيق جميل ولكنه كثير الحجارة شديد الانحدار في حين أنه كان من الأفضل لو بقينا على الطريق الرئيسي. لم يكن السواس معنا ولذلك لم نستطع أن ننبه القافلة في الوقت المناسب بألا تتبعنا عبثًا، على كل حال كان لا بد أن نخبرها عن اتجاهنا ولهذا بقي شيرباتوف في عين التينة بانتظار سركيس، أما نحن فذهبنا لنبحث عن مكان التوقف.

لم يكن هذا البحث سهلاً، فعلى امتداد الطريق المعبد الذي نزلنا إليه بعد قليل كانت خزانات من الماء الزلال ومياه المطر موضوعة متقاربة ولم يكن بقربها ساحات من الأرض الممهدة لتنصيب الخيم، إضافة إلى ذلك لم تكن أية قرية قريبة نقصدها لشراء الشعير والقش. وأخيرًا وصلنا إلى الحقل الفسيح قرب بلدة القسطل، ولكنها كانت مليئة بالعمال المصلحين للطريق، والمهندس التركي الذي كان يعطيهم التوجيهات كان قد نصب خيمته. وكانت نتيجة وجود كل هؤلاء الناس تلوث

الخزانات حيث كان السكان المحليون يستحمون ويغسلون ألبستهم. أرغمتنا هذه الظروف أن نعود إلى الوراء وأن نختار مكانًا غير ممهد كثيرًا ولكنه أفضل من الأمكنة الأخرى، وكان هذا قرب بلدة قلدون الظاهرة على الجبل.

وصلت القافلة بعدنا بثلاثة ساعات، وكان جميع أفرادها منحرفي المزاج من هذا الاجتياز الجبلي البالغ اثنتين وأربعين فرستا الذي أنهك حيوانات الرحلة كثيرًا.

لقد عبَّرت الجبال القريبة المغطاة بالثلج عن نفسها في الليل حيث كان باردًا جدًا.

الخميس ٢٧ نيسان (١٠ أيار)، البريج: كان النصف الأول من طريق اليوم يمتد على منطقة متموجة ومحجرة بين الحقول المحروثة، ثم على الهضاب الموحشة غير المأهولة. وتوجد على مسافة ساعتين ونصف (١٧ فرستا) عن قلدون مدينة النبك وهي مدينة صغيرة ومحاطة ببساتين الفواكه، يخترقها جدول عريض بماءه الغزير تحت ظلال الأشجار. توجد في النبك محطة التلغراف والبريد والدير الإغريقي الكاثوليكي حيث يقيم الأسقف.

بعد النبك ظهرت الحقول من جديد، وكانت تظهر من بينها القرى على شكل جزر خضراء داكنة على خلفية من الحقول المحروثة فاتحة اللون. وفي قرية قارة كان علينا أن نتوقف لنتناول الطعام، ولكن من بين هذه البساتين الواقعة في كل مكان لم نستطع أنا و (ي) الراكبين في المقدمة أن نجد روضة صغيرة يكون فيها متسع ولو لخيمة واحدة، فقد كانت المنطقة كلها مزروعة بالشعير والحبوب الأخرى. ثم صعدنا إلى ساحة في مركز المدينة من شارع منحدر يجري في وسطه جدول من الماء. خاطبت أول امرأة رأيتها طالبة منها أن تدلنا على مكان نستطيع أن نتوقف فيه، فاقترحت أن نستريح في بيتها.

ربطنا خيولنا في الخارج، ودخلنا عبر خوخة ضيقة إلى الفناء الصغير وكان في زواياه معالف الحيوانات والظلل لها أيضًا، وعلى يسار المدخل كان باب غرفة الضيوف منخفضًا. دفعتنا أناقة هذا المسكن وبرودته أنا و (ي) أن نختاره للتعريس دون تردد. أدخلت خيولنا إلى الفناء بسرعة وظهر أمامها الشعير والقش مباشرة، ووقف صبي في الشارع بانتظار شيرباتوف و (أ). ولم تتوقف صاحبة البيت الطيبة على ذلك بل أحضرت لنا حليبًا ولبنًا رائبًا وقبل ذلك فرشت حصائر نظيفة على الأرض.

بينما كنا نستريح في هذه الغرفة منعزلين عن الشمس الحارة، أحضرت لنا الخيول المعروضة للبيع، وكان من بينها «خال» حمد، وهو جواد رمادي اللون وعمره خمس سنوات وشكله الخارجي لا بأس به، أنيق جدًا ولكن بنوام عظيمة على ساقيه الأماميتين. اتضح أن حمدًا معروف هنا أيضًا فقد ذكر الناس مباشرة سلالته واسم البدوي الذي كان صاحبه.

قالوا لنا في قارة إن قافلة روسية مرت من هنا قبلنا بقليل متجهة إلى تدمر. عرفنا من رسالة (ب) التي استلمناها في ضمير بأنه توجد فرق عديدة من أبناء بلدنا يتجوّلون في سوريا.

سكان قارة خليط من المسيحيين والمسلمين؛ وفيها بعض الأعمدة والحجارة المنحوتة القديمة المتناثرة بين البيوت التي تدل على وجود مدينة كوموشار(؟) القديمة في هذا المكان سابقًا. يسير الطريق في هذا المكان إلى الأسفل ويمر بين هضاب صغيرة، تتراءى عليها بين الحين والآخر الآثار القديمة من الأبراج الحراسية. ثم يرتفع الطريق في الجبل إلى البريج المبنية على ذيل سلسلة جبال لبنان الشرقية وفيها خان محصّن ومحاط بالجدران العالية.

استقر المقام بنا مقابل مثوى القوافل قرب بساتين الفواكه. وبعد قليل ظهرت النساء والفتيات يحملن جرات فخارية كبيرة من الماء، فنصحن لنا أن نجلبه من

الخزان الموجود قرب الخان. وأخذت النساء الأخريات يزودن الخيول بالشعير الأخضر. من الظاهر أن سكان هذا المكان متعودون على رؤية المسافرين عندهم.

كان اجتيازنا اليوم (٤٨ فرستا) على الشكل التالي: ساعتين ونصف من قلدون إلى النبك: ١٧ فرستا، وساعتين من النبك إلى قارة: ١٤ فرستا، وساعتين ونصف من قارة إلى البريج: ١٧ فرستا، واجتازت القافلة المسافة نفسها في اثنتي عشرة ساعة.

قررنا في المساء بعد المشاورة العامة أن نرسل (ي) و (أ) مع سركيس في الساعة الرابعة ليلاً إلى حمص. وكان الهدف من هذا السفر المبكر هو تجميع المعلومات عن الخيول المعروضة للبيع هناك واختيار مكان للتوقف. بما أننا قررنا أن نقضي في حمص يومين أو ثلاثة أيام فكان من المستحسن أن نستقر في مكان مريح.

الجمعة ٢٨ نيسان (١١ أيار)، حمص: تحركنا أنا وشيرباتوف في السابعة صباحًا ولم نأخذ معنا إلا فولكوف. ركبنا بسرعة كبيرة دون الإشفاق على خيولنا لأنها سترتاح كثيراً في حمص وستشبع من العلف الطازج.

قطعنا المسافة على الشكل التالي: ساعتين وربع إلى حسية: ١٧ فرستا، ومن حسية إلى شمسين المسافة نفسها والوقت نفسه، وعشرين فرستا من شمسين إلى حمص بساعتين. والجملة ٥٤ فرستا بست ساعات ونصف. وسارت القافلة اثنتي عشرة ساعة.

ينعطف الطريق من البريج تدريجيًا إلى الشرق عن سلسلة جبال لبنان الشرقية ومنحدراتها الجبلية، ثم ينزل إلى سهل كبير حيث يجري نهر العاصي التاريخي. وفي الطريق مررنا بقرية حسية الصغيرة، وهي مكان مفضل للبدو من العنزة. قال الشيخ محمد إنه عندما تتجمع القبائل الكبيرة هنا وهي السباع والفدعان في حزيران

وآب، عندئذ تتحول هذه المنطقة إلى صورة عجيبة. فقد قال إن هذا السهل الواسع الذي يمتد عشرات الفرستات في كل الجهات يصبح مرقشًا بالخيم البدوية ترعى بينها الخيول، وعدد لا يحصى من الإبل وقطعان الأغنام.

من ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر كانت حمص ظاهرة عن بعد بحصنها الكبير، ونطاق واسع من بساتين الفواكه ومزارع الكروم، وكانت تبدو كالجزيرة الخضراء بين السهول المحيطة بها.

استقبلنا (ي) عند مدخل المدينة وقال إنهم وصلوا إلى هنا باكرًا واتجهوا مباشرة إلى المقهى على الساحة الرئيسية من المدينة. بعد أن عرف صاحب المقهى سبب سفرهم اقترح عليهم أن يستأجروا بستانه لإقامة المخيم فيه. كان بستانه جزءًا من الفسحة الكبيرة المسيجة عليه أشجار الفواكه واللوز والتين وغيرها، زرعت تحتها الخضروات. وكانت هذه الأرض مقسمة إلى قطع ولكل قطعة صاحبها.

كانت قطعة أرض صاحبنا محاطة بالجدران الطينية من جهتين، ومن الجهتين الأخريين قطعة الأرض المجاورة، وفي إحدى زواياها كانت شجرة جوز ضخمة تلقي بظلالها الواسعة على الأرض، كما كان الطريق بين صفين من الشجر حدًا لمخيمنا من جانب واحد، وفي كل الجهات كانت تبدو الأشجار أو الشجيرات الأخرى.

كان من الصعب إيجاد مكان مناسب لإقامة المخيم أكثر من هذا، وخاصة أن هذا المكان له مدخل واحد فقط يجلس بقربه حارس يحمينا من الضيوف المتوغلين.

ولو أننا لم نترحل ستة أسابيع متواصلة تحت الشمس المحرقة في الصحراء الخالية من النباتات والظلال لما تذوقنا لذة هذا المكان، حيث يمكننا أن نستريح تحت ظلال الشجرة الكبيرة ونستمتع بخضرة النباتات المحيطة بنا. حتى الآن لم يمح من ذاكرتي هذا النعيم الذي تذوقناه في هذه الأيام الثلاثة التي قضيناها في حمص.

بينما كان سركيس يجمع معلومات عن الخيول كان (ي) و (أ) ينتظران في المقهى ويلعبان الدومينو.

حمص مدينة نظيفة واسعة، شوارعها عريضة، أبنيتها حجرية وأسواقها جيدة. عدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة ويتكونون من ٨٠٠٠ أورثوذوكسي و ٢٠٠٠٠ مسلم و ٢٠٠٠ ملكي. كانت المدينة محاطة بالجدار وعلى الهضبة الشمالية الغربية توجد أنقاض الحصن الذي فجره إبراهيم باشا. كانت حمص في قديم الزمان تسمى "إيميسا" وكانت تتعرض مع سوريا كلها للهجومات المختلفة التي حدثت كثيراً عبر تاريخ هذه المنطقة. ذكر عن إيميسا بلينوس واسترابونوس وبطليموس، وفي التلمود تعرف هذه المدينة باسم حماتس. في عام ٦٣٦م احتل إيميسا السراسيون (؟) وفي عام ١٠٩٩م احتلها الصليبيون.

عندما وصلنا إلى هنا جلسنا تحت ظلال حرش الجوز وروينا عطشنا بالعصير المثلج بلذة كبيرة. وصلت القافلة في الساعة السابعة.

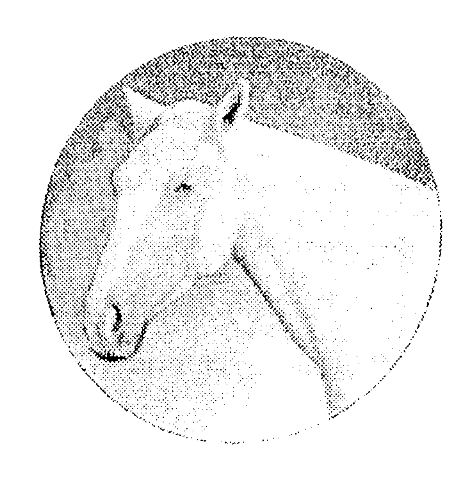
زارنا في المساء المعلم الأكبر من مدرسة المجتمع الفلسطيني المحلية، وقد نال العلم في روسيا، وكان يتكلم الروسية بطلاقة ولو مع ثقل خفيف. دعانا المعلم للحضور غداً إلى الكنيسة حيث ستقام خدمة دينية باللغة الروسية بمناسبة عيد ميلاد الأمير العظيم سيرغي ألكساندروفيتش. اعتذر شيرباتوف عن الحضور لأنه كان ينوي السفر غداً إلى حماه، أما أنا فوعدته بأني سأحضر.

افترقنا في ساعة متأخرة ليلاً بسبب الغداء المتأخر الذي قدم لنا في التاسعة مساء.

كان وصولنا إلى هنا خاتمة لأطول اجتياز خلال رحلتنا، لأننا ركبنا من قباقب اثني عشر يوماً دون توقف تقريباً عدا وقفة النهار القصيرة، فقطعنا ٤٨٧ فرستا أي

حوالي ٤٧ فرستا وثلث يوميًا . وهذه الخاتمة لا بأس بها للحيوانات التي كانت تتغذى بطعام القديس أنطون ومع ذلك كانت سليمة ونشيطة .





سعادة

الفصل الخامس

السبت ٢٩ نيسان (١٢ أيار)، حمص: رحل شيرباتوف و (أ) وسركيس في الثالثة والنصف ليلاً إلى حماه لمشاهدة الخيول. ويمتد من حمص إلى حماه طريق معبد ممتاز يمكن أن يقطع منه سبعون فرستا في خمس ساعات بالعربة.

في السابعة صباحًا وأنا ما أزال غارقة في نومي مستغلة راحة النهار أيقظني صوت ميخايلو الذي أخبرني أن الناس في الكنيسة ينتظرون مجيئي قبل البدء بالخدمة الدينية، وكان هذا الخبر مفاجئًا وكريهًا وخاصة أن المطران الحمصي سيكون حاضراً هناك. قمت بسرعة وأرسلت أحد الناس ليخبرهم بأن يبدؤوا الخدمة الدينية بدوني، ثم لبست وأخذت معي فولكوف وذهبت إلى الكنيسة. كانت الخدمة الدينية قد انتهت عند مجيئي للأسف، ولكنهم كانوا ينتظرونني، وكل الأطفال ما زالوا في الكنيسة، منهم ٥٠٠ صبي و ٤٠٠ طفلة، فغنوا «كول سلافين»

وبعض الصلوات الأخرى بعذوبة كبيرة. ثم تحدثت مع المعلمين والمعلمات وكلهم يجيدون الروسية، وبعدها عدت إلى البيت.

قضينا أنا و (ي) نهاراً كاملاً على المقاعد الموضوعة تحت ظلال حرش الجوز، نقرأ وننام ونستمتع بـ dolse far niente الكامل الذي استحققناه بعد الاجتيازات الطويلة قبل وصولنا إلى هنا. لم يزعجنا أحد وكان الهدوء تامًا وخاصة أن البغالين مع حيواناتهم توقفوا خلف السياج في ساحة المدينة، ولم يكن قرب خيمنا سوى المرابط المشتراة للخيول الجديدة وأفرادنا المستريحين مثلنا.

كنا نقوم فقط للفطور والشاي والغداء ثم نعود إلى مقاعدنا المريحة من جديد. بدأ الباعة يحضرون خيولهم إلينا في المساء، وكان من بينها جواد كميت فاتح وأنيق بصورة مدهشة، وكان شكله ولون شعره يدلان على عدم أصالته العربية مع أن صاحبه وهو من سكان حمص أكد أن أم الجواد من سلالة كحيلان أخرس، وأنه اشتراه من قبيلة المصراب. ومن الإناث كانت فرس واحدة كميتة من سلالة عبية شركية (؟) وقد أعجبت كثيراً بانتظام شكلها، فوعدت صاحبها أن أشتريها إذا أشهد لي شهادة أمينة على أصالتها، لأنني لم أكتف بمجرد كلام. كما كانت فرس أخرى حدبة عنزخية (؟) وكانت أيضًا حسنة جدًا ورأسها أصيل. كان صاحبها في دير الزور، فأرسلنا برقية لعائش لنعرف منه إذا كان بإمكانه أن يثبت صحة أصالة الفرس هذه، ولكننا لم نستلم منه جوابًا. وكانت أيضًا فرس سعدة طوقان صاحبها بدوي من الموالي، رأسها ممتاز وأرجلها نقية وهيئتها منتظمة لكنها صغيرة الحجم؛ والجواد كحيلان العجوز رمادي اللون عمره خمس سنوات كان لا بأس به، ولكن بنامية على ساقه الخلفية.

استلمنا في المساء رسالة عاجلة من شيرباتوف يطلب فيها إرسال كاراكين إلى حماه ليأخذ الخيول المشتراة. كان الجو حارًا ودرجة الحرارة $32°$ في الخيم.

الأحد ٣٠ نيسان (١٣ أيار)، حمص: قضينا نهارنا كنهار أمس في قراءة الكتب والكلام والاستراحة. بعد تناول الشاي استأجرنا عربة وتنزهنا في المدينة، ثم على طريق حماه لنستقبل شيرباتوف، ولكن عندما حل الظلام عدنا إلى مخيمنا قبل أن يصل. أحضرت اليوم خيول كثيرة.

وصل شيرباتوف و (أ) في التاسعة مساء وقضينا الغداء في تبادل الأسئلة والكلام. لقد شاهدوا هناك حوالي ثمانين جوادًا واشتروا منها ثلاثة: الجواد دهمان أم عمر، وفرسين صقلاوية جدرانية وكحيلانة العجوز. كان هناك جواد آخر حسن جدًا وجميل الشكل ولكن بنامية نافذة على ساقه الخلفية. لقد تأسف شيرباتوف كثيرًا لأن هذا الوضع الأخير لم يسمح له بشرائه، وقال إن هذا الجواد ذو جمال وأصالة نادرتين[١]. يظهر إنه من سلالة عبيان شرك(؟).

جاء كاراكين مع الخيول في منتصف الليل.

الاثنين ١ (١٤) أيار، حمص: شاهدنا الخيول بنشاط من جديد مع استراحات قصيرة تحت ظلال حرش الجوز. زار شيرباتوف المطران ثم زار المطران شيرباتوف بدوره.

في المساء عندما حل الظلام أحضرت الفرس الكميتة العبية الشركية (؟) التي تحدثت عنها سابقًا. كان مع صاحبها أربعة شهود من المواطنين الشرفاء في حمص، وقد جاؤوا جميعهم ليؤكدوا صحة الشهادات عن سلالتها. بعد إتمام الأحاديث ودفع المال قطع صاحب الفرس (سميناها منوى) فرع إحدى الشجيرات ولف بها أرسان منوى ووضعها في يدي إشارة منه أن الفرس هذه أصبحت ملكي.

---

(١) من تعليقات المؤلفة سنة ١٩٠٢م: لقد اشترت عزبة لتربية الخيل الحكومية هذا الجواد سنة ١٩٠١م لأن النامية على ساقه قد شفيت.

الثلاثاء ٢ (١٥) أيار، البريج: أرسلنا القافلة في السابعة صباحًا وانطلقنا بأنفسنا في العاشرة. بعد تحركنا بدأت الغيوم تتجمع فورًا ثم تحولت عند بلوغنا حسية إلى عاصفة رعدية شديدة مع المطر الوابل، فتدثرنا أنا وشيرباتوف بعباءاتنا لنحمي أنفسنا من البلل، أما ي و (أ) فتبللا تمامًا. على أي حال لم يدم المطر طويلاً وعندما وصلنا إلى البريج كانت الشمس قد طلعت.

زار كاراكين في طريقه حسية ورأى فيها أخًا آخر لحمد (وكان حمد معروفًا فيها أيضًا). قطعنا الاجتياز الذي طوله ٥٤ فرستا على الشكل التالي: حمص شمسين في ثلاث ساعات، شمسين حسية في ساعتين وربع، حسية البريج في ساعتين وربع، أي فيما مجموعه سبع ساعات ونصف. لقد ارتاحت البغال والخيول خلال الأيام الثلاثة في حمص وشبعت من الشعير الأخضر فكانت تسير بنشاط، وهكذا وفرت القافلة من سيرها ساعة واحدة بالمقارنة مع الوقت الذي استغرقته في ذهابها إلى حمص.

الأربعاء ٣ (١٦) أيار، النبك: وصلنا أنا وشيرباتوف إلى النبك، وبينما نحن نستريح سألت السكان المحليين عن الطريق المباشر بين النبك وضمير الذي سمعنا عنه وتقول الشائعات إنه غير مأمون لوجود العمور، ولكنه أقصر بكثير من الطريق المعبد المار بقلدون ومعضمية. اتضح أن هذا الطريق فعلاً يمتد على الجبال إلى قطنا وهي ضيعة صغيرة قرب جيرود. إنه طريق ضيق وغير مريح لحيوانات الرحلة ولكنه يخلو من عوائق صعبة.

قررنا على أساس هذه التعليمات أن نتوقف هنا ونستأجر في الغد حراسة من رجال الشرطة ونتجه مباشرة إلى ضمير. كانت وقفتنا في النبك حسنة بكل شيء، فقد نصبت الخيم على الأرض الطينية التي تستخدم للدراس وتحيط بها الحوائط الطينية واحدة منها كانت عالية جدًا ما جعلها مكانًا تستظل بظله الخيول. كما أن

قرب الماء والقرية شيء مريح أيضًا للبغالين والخيول التي نالت كمية وافرة من الشعير الأخضر وهو غذاؤها المفضل.

زارنا شيخان من ضمير كانا هنا بمناسبة التجنيد؛ إذ كان على الشيوخ أن يصاحبوا المجندين الذين هم من أبناء بلدتهم إلى المدينة المعينة لقبولهم. لقد اشتكى الشيخان أنهما مضطران أن يغيبا عن بيوتهما في موسم حصاد الحقول الذي بدأ. وقد أخبرانا أن قبائل ولد علي والروالة تترحل في ضواحي ضمير منذ أربعة أيام. وكما قالا إن الخيم كثيرة لدرجة أن الركوب من الطرف إلى الطرف الآخر يستغرق بضعة ساعات وأن الإبل تغطي الأرض لكثرتها.

جاء مع القبائل ثلاثة من أكبر الشيوخ شأنًا في الصحراء، فمع ولد علي جاء سطام بن طيار ورشيد بن سمير، ومع الروالة خالد بن شعلان وشقيقه. حدثنا معارفنا الضميريون عن الخلافات التي نشبت بين قبائل الروالة الفرعية بعد وفاة شيخهم المعروف سطام بن شعلان؛ وقد انتخب الجزء الصغير من القبيلة ابنه نوري خليفة له، أما القسم الأكبر فانتخب ابنه الآخر. كان نوري يحلم بأن يصبح خليفة أبيه ورئيس كل الرواليين فدبر كمينًا لأخيه وقتله، ثم خشي من عواقب فعله وهرب مع أنصاره إلى قلب الصحراء. بعد ذلك انتخب الباقون من الروالة شقيق المقتول خالد بن شعلان الذي صدقته السلطات التركية منذ بضعة أيام.

أرسل شيرباتوف رسولاً إلى الشيخ محمد ليخبره عن مجيئنا غدًا إلى ضمير.

الخميس ٤ (١٧) أيار، ضمير: كان الصباح باردًا لدرجة أنني بردت تمامًا في أثناء تجهيز البغال، فامتطيت حصاني بكل سرور آملة أن الركوب سيدفئني. وفي النهار أصبح الجو خانقًا بسبب سكون الرياح. تحركنا في السادسة والنصف صباحًا نظراً للاجتياز الطويل والشاق، وكان شيرباتوف يمتطي جلفة، أما أنا فامتطيت كحيلة. اتجهنا من النبك إلى الجنوب، وبعد ساعة بدأنا بالصعود إلى الجبال، لم تكن الجبال عالية جدًا ولكنها صخرية ومنحدرة.

كان معنا شرطيان بأسلحتهما المحشوة يمسكانها باستعداد بعرض السرج. كانت خدمة هؤلاء الجنود هي الإرشاد والحراسة في آن واحد. إن الاحترام الملحوظ الذي يبديه العمور تجاه الجنود الأتراك هو بسبب العقوبات الشديدة التي يتلقونها على نهبهم، لدرجة أن وجود جندي أو جنديين كان كافيًا لتوفير الأمن للمحروسين.

بعد حوالي ساعتين ركوبًا عن النبك توجد قمة المعبر الجبلي من حيث ينخفض الطريق الضيق إلى وادي جيرود بالثغر الجبلي البري وهو جميل للغاية، وعن بعد ظهرت بلدة محاطة بمزارع الكروم.

المسافة بين النبك وقطنا لا تقل عن إحدى وعشرين فرستا لأننا ركبنا ثلاث ساعات ونصف وكنا نترجل كثيرًا في الأمكنة المنحدرة الصعبة على الخيول. وبعد قطنا أخذنا مرشدنا عبر الحقول فتجاوزنا رحيبة شرقًا. إلا أن مرشدنا ضل الطريق فأرغمنا بذلك أن نقطع ٤-٥ فرستات زائدة على الأرض المحجرة.

بعد ساعتين وخمس وأربعين دقيقة بلغنا الجدول على السكة السلطانية بين رحيبة وضمير، فتوقفنا ونصبنا خيمتنا على ضفته. كان هذا الجدول السريع يبرد الهواء فلم نشعر بالجو الحار في ظل الصخرة. انتظرنا حتى تمر القافلة فأزلنا خيمتنا وتحركنا خلفها. وصلنا إلى ضمير وتوقفنا في مكاننا الأسبق.

استقبلنا الشيخ محمد وأكد صحة ما سمعناه في النبك عن قرب الروالة وولد علي، وأضاف أنه يشك في أن البدو سيحضرون خيولهم إلى هنا. تبين من كلامه أنه لم يستعلم بشيء مرة أخرى، ولم ينفذ مهمته بتجميع المعلومات عن البدو، وتنبيههم عن رغبتنا في شراء الخيول. فقرر شيرباتوف أن يذهب إلى كبار الشيوخ بنفسه ليعرف منهم شخصيًا ما نفعله: أنبقى في ضمير أو نتجه إلى البركة. كما سمعنا أن الشيوخ الثلاثة استقروا في مكان على بُعْد أربع ساعات ركوبًا من هنا. كانت الريح الجنوبية تهب من جهة الصحراء فارتفعت حرارة الجو وزادت عن الحد ولم يبرد لا في المساء ولا آخر الليل.

الجمعة ٥ (١٨) أيار، بركة العتيبة: انطلق شيرباتوف في الساعة الرابعة ليلاً بصحبة (أ) وسركيس. ازداد الطقس حرارة بشكل لا يطاق والرياح لم تخف. في الحادية عشرة والنصف في عز القيظ استلمت رسالة مختصرة من شيرباتوف يطلب فيها أن نتحرك مع القافلة بطاقمها الكامل إلى البركة وإلا فلن نرى الخيول. بعد أن أخبرت (ي) عن مضمون الرسالة ناديت كاراكين وأمرته أن يبدأ بإزالة المخيم، فأدى أمري هذا إلى الاضطراب والسخط العام، فقد ذهب البغالون كلهم إلى المدينة ولم يبق في المخيم سوى سمعان ودرويش ويوسف وفايز، عندئذ أرسلنا درويشًا والساعي المبعوث من شيرباتوف للبحث عن الغائبين وبدأنا بجمع الأمتعة البسيطة بمساعدة الناس الموجودين.

عاد البغالون بعد فترة طويلة واحدًا واحدًا وبغير إرادة، وبعد ذلك انصرف الكثير منهم من جديد بحجة شراء الشعير والقش. وبسبب ذلك لم ننطلق إلا في الثانية والنصف. وفي هذه الأثناء هبت زوبعة رملية في غاية الشدة، لدرجة أننا لم نستطع فتح عيوننا. ملأت الرمال الجو وكانت مشابهة للعواصف الثلجية بدورانها حول نفسها حاجبة الرؤية فكان من الصعب تمييز الأشياء على مسافة بضعة ساجينات.

استقبلنا شيرباتوف على طرف البركة الشمالي قرب أول خيم ولد علي. لم يتوج سفره بنجاح فلم يجد الشيوخ، لأنهم سافروا جميعهم إلى دمشق لبضعة أيام. ولكنه زار مقرات ابن سمير وابن شعلان حيث استقبله أقرباء الشيوخ؛ وفي هذه الأثناء دار (أ) وسركيس بين الخيم وشاهدا الخيول الموجودة فيها. نصبنا مخيمنا على ضفة البحيرة.

السبت ٦ (١٩) أيار، البركة: استيقظنا باكرًا واتجهنا أولاً إلى مخيم ابن سمير ولم نجد عندهم شيئًا جديرًا بالمشاهدة، فقد كان البدو قد عادوا من الغزوة لتوِّهم

وكان الهدف منها القبض على السُّراق الذين سلبوا منهم مئتي جمل. استمرت المطاردة عشرة أيام ولم يترك البدو سروجهم خلال هذه الفترة تقريبًا. وبعد أن عادوا إلى بيوتهم عند بلوغهم الهدف، كانوا قد أنهكوا خيولهم بسبب العمل المجهد وحرمانها من العلف الجيد، فكان الكثير منها مستلقيًا على الأرض ولا تستطيع الوقوف.

ركبنا من وقفة الصباح إلى وقفة المساء ساعتين ونصف عبر الصفوف المتواصلة من خيمات ولد علي والروالة، فقد امتدت مخيماتهم إلى البعيد ولم تظهر نهايتها. رأينا هذا الحشد من القبائل لأول مرة فتأملنا هذا العدد الكبير من الخيم والإبل بعجب.

بعد أن طفنا حول البحيرة من الشرق والجنوب توقفنا على ضفتها الغربية. ما كدنا ننصب مخيمنا حتى أخذ البدو يحضرون خيولهم، فشاهدنا منها مئة وعشرين خلال يوم ونصف. كان من بينها جوادان شقيقان كانا يقيمان عادة في دمشق، وفي الربيع يحضران للسفاد إلى مخيمات الروالة وولد علي، وكلتا القبيلتين تقدِّران الجوادين كثيرًا والاثنان من سلالة عبيان أبو حريس (؟). واحد منهما أمغر اللون ويبرر سمعته حقيقة بانتظام شكله وأناقته البديعة. كان من الممكن أن نشتريه لولا النوامي العظيمة الكبيرة على ساقيه الأماميتين، والرأس غريب الشكل حيث كان على خط جبينه حدبة ظاهرة تمتد من الأذنين إلى العينين بدلاً من الوهدة التي تمتاز بها الخيول العربية. من الجدير أن نلفت النظر إلى أن الخيول التي شاهدناها عند الروالة وولد علي تتشابه في شكل الرأس، ولم نر مثل هذه الهيئات من قبل. وجدنا أن البدو من هذه القبائل لا يرون شيئًا غريبًا في مثل هذه البنية، ثم استنتجنا أنها علامات مميزة لدى هذه الخيول[1].

---

(١) عندما كتبت السيدة آن بلانت عن صفات الخيول عند الروالة انتبهت أنها لم تلاحظ هذه الميزة في أثناء وجودها في هذه القبيلة.

لم نتحقق اليوم من صحة شهادات البدو تجاه الخيول فحسب بل من انتشار شرف السُّمعة للأحسن منها. فمن خلال مكالمتنا مع عربود بن شعلان وهو ابن المتوفى سطام بن شعلان سألناه إذا كان يعرف الجواد الذي يتحلى بشهرة كبيرة عند الرولة منذ ١٣-١٤ سنة والذي اشتريناه عام ١٨٨٨م في دمشق (ما زال الجواد هذا الذي سميناه القادر يخدم في المصنع فحلاً). فقال عربود إنه يذكره جيدًا وأشار العجوز الجالس عند مدخل الخيمة وقال: «ها هو ذا صاحب حصانكم القديم!».

فرحنا كثيرًا من الحظ الذي قابلنا مع هذا البدوي وأتاح لنا الفرصة لمعرفة تفصيلات القادر واختبار جنسه، فبدأنا نساءل صاحبه القديم كيف كان ذاك الجواد وما هو شكله ولونه وعمره وجنسه وغير ذلك. فوصفه لنا مصراب بن مؤجل (كما كان اسم البدوي) بالتفصيل ووصف جيل أبيه وأمه صحيحًا، بكلمة واحدة نقل الكثير من المعطيات المعروفة لنا وأضاف أكثر مما سمعناه لأول مرة.

لم تنته العاصفة الرملية التي هبت من الجنوب، فملأت الخيم بالغبار وسخَّنت الهواء الخانق.

الأحد ٧ (٢٠) أيار، دمشق، اليوم الواحد والخمسين والأخير من رحلتنا: رحل الشيخ محمد إلى دمشق باكرًا في الصباح لكي يلتقي كبار شيوخ الرولة وولد علي ويدعوهم لزيارة شيرباتوف، ورحلت القافلة في التاسعة صباحًا، أما نحن فبقينا عند البركة بضعة ساعات أخر.

بعد تناول شاي الصباح مباشرة ذهبت مع (أ) وسركيس إلى الخيم القريبة آملة أن أجد عندهم الخيول. وقد رأينا العديد منها مما يستحق الشراء ولكننا لم نستطع ذلك، فقد كان صاحب الواحدة منها غائبًا ولم يجده أحد، أما الأفراس الثلاثة البهية فكانت ملك الشيخ خالد بن شعلان ولا تباع طبعًا. وهكذا لم نشتر سوى فرس واحدة عمرها ثلاث سنوات من جنس كحيلان العجوز.

في الثانية عشرة استأجرنا مرشداً وودعنا الصحراء وانطلقنا إلى اجتيازنا الأخير. أردنا أن ندخل دمشق بصورة مهيبة فكان شيرباتوف راكبًا على جريفة وأنا على حمد أما (أ) فعلى دهمان الذي لم يكف عن الهيجان والعجلة والسحب والصهل.

بعد ساعة من الركوب وصلنا إلى منطقة الأراضي المحروثة التي تمتد بفرستات كثيرة حول دمشق، ومع هذه الأدلة الحضارية الأولى بدأنا نعاني من المتاعب. من الظاهر أن الأمطار الغزيرة هطلت هنا منذ فترة قصيرة فملأت قنوات السقاية وشكلت بركًا عريضة مع ضفافها الموحلة. لم تر خيولنا الماء بحياتها إذا لم نحسب البرك الصغيرة الموجودة في موطنها الصحراء، فكانت تنظر إلى هذه البيئة الجديدة عليها برعب فتحرن وترفض الاقتراب من المياه. كان (ي) راكبًا في المقدمة لأن جواده مولود في بيروت وأشجع من رفاقه فكان يختار طريقًا مناسبًا.

في أحد الأماكن حفر السيل مجرى عميقًا عرضه سبعة أو ثمانية ساجينات، يفصله جرف ساقط من الأعلى من جنب واحد عن قنة رملية ضيقة. اقترب (ي) إليه وفطن أن العبور سيئ هنا فانعطف إلى الجانب باحثًا عن مخاضة سطحية فتبعته من الخلف، أما (أ) وهو الراكب الثالث فقد نفد صبره من حمية دهمان فدفعه إلى الجدول، وبعد دقيقة غاص الاثنان في الماء حتى الرقبة وأخذ الجواد يسبح باتجاه الشاطئ المقابل، إلا أن هذا الحمام من الماء البارد لم يهدئ أعصابه، وعندما خرج إلى القنة المذكورة أخذ الحصان يرقص حتى كاد يسقط مع راكبه إلى الجرف. كان وضع (أ) بعد هذه الحادثة وضعًا لا يحسد عليه إذ وجب عليه الركوب بضعة ساعات في ثياب مبللة والدخول بهذا المنظر إلى دمشق! لحسن الحظ كان الجو حارًا يجف قبل وصولنا المدينة. كان (ي) قاسيًا لدرجة إنه انفجر بالضحك عندما اختفى (أ) تحت الماء وبقي يضحك بعدها فترة طويلة.

بعد هذه الحادثة بقليل رأينا رجلاً راكبًا على الحصان، وكان يحثُّه بكل قوته وصاح لنا شيئًا ما أثناء الجري. وعلى اليمين في البعيد كان فارسان آخران يجريان على حصانيهما في اتجاه الرجل الأول. وفي أول بلدة دخلناها وجدنا سكانها مضطربين كثيرًا فكانوا يراقبون هؤلاء الفرسان من سطوح المنازل. بعد أن تساءلنا عن سبب الاضطراب قالوا لنا إن سارق الخيل قد هرب على الحصان المسروق لتوه وكان هذان الفارسان اللذان رأيناهما يطاردانه يطاردونه.

بعد منتصف الطريق زادت المنطقة تحضرًا فقد أصبحت القرى والمنازل المنعزلة تتقارب أكثر، كما أصبحت القنوات والجداول الجبلية منظمة والجسور مبنية عليها. ظهرت الشجيرات والأشجار المنفردة، وبعد اجتيازنا السد قرب طاحونة بهية جدًا دخلنا البساتين والأحراج بطرقها الطويلة بين صفوف الأشجار التي تحيط بدمشق من كل الجهات.

تمتاز الضواحي القريبة لهذه المدينة بجمالها البديع: تجري المياه الزلال النقية على شكل جداول سريعة في كل مكان بين شواطئها الخضراء، وتحيط بالطريق أحراش الجوز الضخمة والشنانير وأشجار الفستق والزيتون، وتلقي بظلالها على المسافرين بأغصانها المتشابكة. وتوجد على الجانبين أشجار أخرى وبساتين الفواكه والأزهار، وبعبارة موجزة فإن المنطقة غنية بالخضرة والظلال والمياه التي تذهل المسافرين بعد قضائهم لأول مرة فترة طويلة في الصحراء الرملية الخالية من الحياة.

عندما اقتربنا من دمشق «تذكر» سركيس فجأة أنه ترجمان فظن أن من واجبه الركوب في مقدمة الطابور. كان يحاول دون جدوى أن يحجز هذا الموضع منذ بداية الرحلة، ثم تنازل عنه لي ولـ (ي) بعد أن أصبح يتأخر عنا كل يوم أكثر وأكثر. وهنا أثّر فيه القرب من المدينة الكبيرة كتأثير كمية من زرنيخ، فقد تنشط سركيس واتخذ وضعية الوقار والإجلال فأخذ يسبقنا وهو فخور بنفسه. مع الأسف

يجب عليّ الاعتراف بأن شيرباتوف الذي كان خلفه لم يكن أهلاً للأمر وحط من كرامته "Altesse" أمام ترجماننا الجليل. وحدث ذلك أثناء مرورنا تحت أحراش الجوز الذي نضج وكانت ثماره منخفضة فكان قطفها باليد سهلاً. كان الإغراء قويًا، فأخذ شيرباتوف يرمي ثمرات الجوز خفية على سركيس مصوبًا على كوفيته. في بادئ الأمر لم يفهم سركيس شيئًا فكان ينظر متحيراً فوقه وحوله، وعندما عرف السبب نظر إلى شيرباتوف بابتسامة مسامحة كابتسامة المربي الذي يتسامح مع شغب الأطفال.

بما أننا أرسلنا القافلة قبلنا بساعات أملنا أن نجد مخيمنا جاهزاً ومنصوبًا، ولكن القافلة وصلت قبلنا بنصف ساعة فقط، وكان سبب تأخرها المشقات نفسها التي صادفناها في طريقنا، بالإضافة إلى بعض المغامرات. فقد سقط بغل أسعد في الماء ثلاثة مرات مع رحله، وكان الناس يخرجونه من الأخدودة بصعوبة بالغة، ثم سقط سمعان مع حصانه إلى القناة، وبينما كان كاراكين يساعده على الخروج مع أحد البغالين ذهبت القافلة بعيدًا فضل هؤلاء الثلاثة الطريق.

الاثنين ٨ (٢١) أيار، دمشق: ذهبنا مع شيرباتوف في الصباح إلى إسطبل سعيد باشا على مسافة ساعة واحدة ركوبًا عن دمشق. كانت الخيول التي قيل عنها إنها عربية أصيلة مختلطة مع أجناس أخرى دون شك، فكلها كانت رطبة وسيئة الأرجل وقليلة الأناقة عدا فرسين لا بأس بهما: الواحدة قالوا عنها حدبة عنزخية (؟) كميتة برأس حسن ومنتظمة إلى حد ما، ولكن سيئة الأرساغ. والثانية قالوا عنها إنها كحيلانة سويتي رمادية اللون وبالغة ست سنوات من العمر اشتروها من سطام بن شعلان (؟ غير مؤكد). وكانت الجياد تنبئ عن عدم أصالتها بغلاظة بنيتها وضخامة رقابها وسوء أرجلها، وهذا حتمًا يدل على اختلاطها بالأجناس الأوروبية.

التقى الشيخ محمد الشيوخ الثلاثة الذين صمموا على زيارة شيرباتوف ووعدوا بإرسال خيولهم. بعد الفطور تجولنا أنا و (ي) في الأسواق، وعند عودتنا إلى البيت رأينا قرب مخيمنا حشدًا كبيرًا من تجار الخيل وأهل المدينة، والبدو الذين أحضروا خيولاً معروضة للبيع. ومن هذا العدد الكبير كان أول ما يلفت الانتباه ثلاثة من إناث الخيل التي كان يمسكها البدو، وكانت الواحدة منها حسنة لدرجة أننا طلبنا من الشيخ محمد أن يتفق على ثمن معين لشرائها للكونت إستروغانوف. طالت المحادثات كثيرًا لأن صاحب الفرس مؤجل بن شعلان لم يرد أن يتخلّى عن فرسه، وبعد ساعتين من الأحاديث سارت الأمور على ما يرام. كانت هذه الأنثى أفضل ما اشتريناه في رحلتنا، وكانت تستحق الجهود المبذولة والنقود المصروفة عليها لأنها ممتازة البنية، ولها أرجل ومتن بلا عيب، ورأسها عربي نموذجي أي رقيق، وعيناها وفتحتا الأنف واسعتين. وكميتة اللون وعمرها ثمان سنوات، وتابعة لسلالة سمحان القميع (؟). إذا أخذنا بعين الاعتبار كل محاسنها فمن الممكن تصور درجة تكدرنا ويأسنا عندما استلمنا بعد عودتنا إلى روسيا برقية من كاراكين الذي تركناه مع الخيول يخبر فيها أن معلفها قد انقلب في أثناء تحميل الباخرة في بيروت فماتت الفرس مباشرة.

أما الفرسان الباقيتان من البارزات فكانت الواحدة منهما من جنس كحيلان حلاوي رمادية اللون وعمرها عشر سنوات وتابعة لبدوي من ولد علي ومعبرة الرأس، وارتفاعها فيرشوكين وثلاثة أرباع على الأقل. إنها حسنة بكل شيء ولم يكن لها إلا عيب واحد وهو فقرر ركبها، ولكنها أذهلت الجميع بجمال سيرها إذ كانت حركاتها خفيفة وممتازة. وعندما سألنا عن ثمنها قال صاحبها: «ثلاثمائة عملة ذهبية تركية»، وعندما قلنا إن الثمن غالٍ لم يرد صاحبها بكلمة واحدة فامتطاها ورحل بها. وكان صاحب الفرس الثالثة هو الشيخ سطام الطيار وتكاد

فرسه تكون أفضل من السابقة، ولكننا أخفقنا مرة أخرى لأن الشيخ لم يتعهد بكفالة أصالتها بالتفصيل، ولكنه لم يقتنع بهذا تمامًا حتى يستطيع بيعها بكفالة أو استعمالها لنسل، ولو أنه كان متأكدًا أنها أصيلة، كم أسفنا لضياع فرصتنا في شراء فرس حسنة كهذه ولكن الشك في أصالتها كان عائقًا لشرائها لا يغلب عليه.

زار الشيخان خالد بن شعلان ورشيد بن سمير شيرباتوف نهارًا، فأهدى شيرباتوف للأول خنجرًا وللثاني عباءة.

كانت تلك نهاية رحلتنا الثانية إلى الجزيرة العربية وسوريا، وكانت نتيجتها شراءنا جوادين واثنتي عشرة فرسًا، وقد استخدم بعض هذه الإناث لتعبئة عزبة لتربية الخيل العربية التابعة للكونت إستروغانوف، وبعضها الآخر لتأسيس مشتل كهذا في دير كول والعزبة الجديدة للأمير شيرباتوف.

خلال ٥١ يوم من رحلتنا منذ مغادرتنا دمشق قطعنا ٣٢ اجتيازًا و ١٤٠٥ فرستات. ركبنا من دمشق إلى قباقب أحد عشر يومًا دون توقف، فقطعنا ٣٨٤ فرستا أي وسطيًا ٣٥ فرستا يوميًا. وقطعنا في طريق عودتنا مسافة أكثر من ذي قبل لأننا ذهبنا بعد قباقب إلى حمص، فاستغرق ذلك اثني عشر يومًا مع استراحة نهار واحدة فقط، أي قطعنا في أحد عشر اجتيازًا ٤٨٧ فرستا أي وسطيًا بمعدل ٤٧ فرستا وثلث يوميًا.

❊ ❊ ❊

قائمة الاجتيازات
(عدد الفرستات[١] وكمية الوقت المستغرق)

الرحلة الأولى عام ١٨٨٨م

التاريخ	الاجتيـــازات		عدد الساعات		عدد
	مـــن	إلـــى	سيرنا	سير القافلة	الفرستات
١٤ أذار	بيروت	شتورة	٦	٩	٤٥
١٥ أذار	شتورة	الديماس	٧	٩	٤٠
١٦ أذار	الديماس	دمشق	٢,٥	٤	٢٥
١٨ أذار	دمشق	التوقف الأول	٢,٥	٤	١٥
١٩ أذار	التوقف الأول	جيرود	٥,٥	٨,٥	٤٠
٢١ أذار	جيرود	القريتين	١٠	١٥	٦٢
٢٣ أذار	القريتين	مقر الشيخ فياض	٤	٦	٢٤
٢٤ أذار	مقر الشيخ فياض	مقر ولد علي	٥	٩	٣٦
٢٦ أذار	مقر ولد علي	التوقف التاسع	٤	٦	٢٤
٢٧ أذار	التوقف التاسع	مخيمات المصراب	٥,٥	٧	٢٨
٢٩ أذار	مخيمات المصراب	مخيمات المصراب الثانية	٥	٧	٢٨
٣٠ أذار	مخيمات المصراب	التوقف في جبال العمور	٥	٧	٢٨
٣١ أذار	التوقف في جبال العمور	أرك	٩,٥	١٤	٦٢
١ نيسان	أرك	السخنة	٥	٧,٥	٣٦
٢ نيسان	السخنة	التوقف في الصحراء	٨	١٠	٤٥

(١) نظراً لعدم صحة خرائط بادية الشام فسوف نقيس المسافات باجتيازاتنا وسرعة القافلة التي تسير بلا توقف بخطوات منتظمة تعادل ٤-٥ , ٤ فرستات في الساعة .

التاريخ	الاجتيازات		عدد الساعات		عدد الفرستات
	من	إلى	سيرنا	سير القافلة	
٣ نيسان	التوقف في الصحراء	التوقف في الصحراء	٦	٩	٤٠
٤ نيسان	التوقفات في الصحراء	دير الزور	٥,٥	٩	٤٥
١٩ نيسان	دير الزور	التوقفات في الصحراء	٣,٥	٥,٥	٢٨
٢٠ نيسان	التوقفات في الصحراء	التوقفات في الصحراء	٦,٥	٩	٤٧
٢١ نيسان	التوقفات في الصحراء	السخنة	٧	١١	٥٥
٢٢ نيسان	السخنة	تدمر	٨,٥	١٣	٦٧
٢٣ نيسان	تدمر	عين البيضاء	٤	٧	٢٨
٢٤ نيسان	عين البيضاء	التوقفات في الصحراء	٧,٥	١٠,٥	٥٠
٢٥ نيسان	التوقفات في الصحراء	القريتين	٥	٦	٣٠
٢٦ نيسان	القريتين	جيرود	١٠	١٤	٦٢
٢٧ نيسان	جيرود	دمشق	٧	١٠	٥٥
٢٨ نيسان	دمشق	الديماس	٢,٥	٥,٥	٢٥
٢٩ نيسان	الديماس	شتورة	٥	٩,٥	٤٠
٣٠ نيسان	شتورة	بيروت	٦	٩,٥	٤٥
	٢٩ اجتيازًا	المجموع	—	—	١١٥٥

المسافة بين دير الزور وبيروت ٥٣٢ فرستا قطعناها في اثني عشر يومًا دون توقفات النهار أي ٤٤ فرستا وثلث يوميًا؛ زد على ذلك أن البغال قطعت في اثني عشر يومًا ١١٠,٥ فرستا أي وسطيًا تسع فرستات وثُمن يوميًا.

الرحلة الثانية عام ١٩٠٠م

التاريخ	الاجتيازات		عدد الساعات		عدد
	من	إلى	سيرنا	سير القافلة	الفرستات
١٨ أذار	دمشق	التوقف الأول	٢,٥	٣,٥	١٥
١٩ أذار	التوقف الأول	جيرود	٦	٨,٥	٤٠
٢٠ أذار	جيرود	التوقف الثالث	٤	٦	٢٧
٢١ أذار	التوقف الثالث	القريتين	٥,٥	٨	٣٥
٢٢ أذار	القريتين	الوقفة في الصحراء	٧	١٠	٥٠
٢٣ أذار	الوقفة في الصحراء	تدمر	٨	١٢	٥٨
٢٤ أذار	تدمر	جبال العمور	٤	٦,٥	٢٨
٢٥ أذار	جبال العمور	مخيمات العواجة	٢,٣٦	٧,٥	٣٥
٢٦ أذار	مخيمات العواجة	السخنة	٥,٥	٧,٥	٣٥
٢٧ أذار	السخنة	بئر حميدية	٦	٩	٤٠
٢٨ أذار	بئر حميدية	بئر قباقب	٦	٩	٤٠
٢٩-٣٠	الوقوف				
٣١ أذار	بئر قباقب	دير الزور	٧	١٠,٥	٥٠
١-٢-٣- ٤ نيسان	الوقوف				
٥ نيسان	دير الزور	نهر الخابور	٧	٩,٥	٤٥
٦ نيسان	الوقوف				
٧ نيسان	نهر الخابور	دير الزور	٧,٥	٩,٥	٤٥
٨-٩-١٠ -١١ نيسان	الوقوف				
١٢ نيسان	دير الزور	بئر قباقب	٧,٥	١٠,٥	٥٠
١٣-١٤- ١٥-١٦ نيسان	الوقوف				

التاريخ	الاجتيازات		عدد الساعات		عدد
	من	إلى	سيرنا	سير القافلة	الفرستات
١٧ نيسان	بئر قباقب	بئر حميدية	٧	٨	٤٠
١٨ نيسان	بئر حميدية	السخنة	٦,٥	٨,٥	٤٠
١٩ نيسان	السخنة	أرك	٦	٨	٣٦
٢٠ نيسان	أرك	تدمر	٤,٥	٧	٣١
٢١ نيسان	تدمر	التوقف في الصحراء	٧,٥	١٠,٥	٥٠
٢٢ نيسان	التوقف في الصحراء	القريتين	٨	١١	٥٨
٢٣ نيسان	القريتين	الناصرية	٨	١١,٥	٥٨
٢٤ نيسان	الناصرية	ضمير	٥	٦,٥	٣٠
٢٥ نيسان	الوقوف				
٢٦ نيسان	ضمير	قلدون	٦,٧٥	١٠	٤٢
٢٧ نيسان	قلدون	بريج	٧	١٢	٤٨
٢٨ نيسان	بريج	حمص	٦,٥	١٢	٥٤
٢٩-٣٠ نيسان و١ أيار	الوقوف				
٢ أيار	حمص	بريج	٧,٥	١١	٥٤
٣ أيار	بريج	النبك	٤	٦	٣١
٤ أيار	النبك	ضمير	٧	١٠	٤٢
٥ أيار	ضمير	الضفة الشرقية للبركة	٢,٥	٤	٢٠
٦ أيار	الضفة الشرقية للبركة	الضفة الغربية للبركة	٢	٣	١٥
٧ أيار	البركة	دمشق	٦	٩	٤٠
	٢٣ اجتيازًا	المجموع	–	–	١٢٦٥
		حمص – حماه: الذهاب والإياب	–	–	١٤٠
	سير القافلة من بيروت إلى دمشق ذهابًا وإيابًا		–	–	٢٢٠
		المجموع	–	–	١٦٢٥

قائمة الخيول

المستوردة من بلاد العرب في الرحلتين ١٨٨٨م و ١٩٠٠م

أ) الفحول[1]:

الاسم	سلالة الأم	سلالة الأب	عام التولد	اللون	عام الشراء	المالك
بولات	كحيلان العجوز	أعنق ابن سبيل	١٨٨٥	رمادي	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
سطام القريش	صقلاوي الجدران	صقلاوي الجدران	١٨٨٣	رمادي	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
شيخ	أعنق لقرة (؟)	كحيلان العجوز	١٨٨٦	رمادي	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
أمير العرب	كحيلان القروش	عبيان الشرك (؟)	١٨٨٣	أمغر	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
القادر	كحيلان السويتي	أعنق ابن سبيل	١٨٨٢	أبيض	١٨٨٨	الأمير شيرباتوف
فارس	عبيان الشرك (؟)	كحيلان الرأس الفضاوي	١٨٨٦	أبيض	١٨٨٨	الأمير شيرباتوف
دهمان	دهمان أم عمر (؟)	دهمان أم عمر	١٨٩٥	كميت	١٩٠٠	عزبة لتربية الخيل الحكومية
حمد	كحيلان غمري (؟)	أعنق ابن سبيل	١٨٩٦	كميت	١٩٠٠	الأمير شيرباتوف

(١) انظر بالتفصيل: كتاب العزبة لتربية الخيول العربية في روسيا، المجلد الأول، ١٩٠١م.

ب) الإناث:

الاسم	سلالة الأم	سلالة الأب	عام التولد	اللون	عام الشراء	المالك
عنزة	عبيان الشرك (؟)	أعنق ابن سبيل	١٨٧٧	بيضاء	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
أرابكا	صقلاوي جدران	صقلاوي حدران	١٨٨٦	رمادية	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
غزال	كحيلان الرأس الفضاوي	سمحان المقميع (؟)	١٨٨٥	رمادية	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
خازو	سعادان طوقان	دهمان أم عمر	١٨٧٩ أو ١٨٨٠	بيضاء	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
دير سكايا	صقلاوي عنزخي (؟)	كحيلان حيفي	١٨٩٥	كميتة	١٩٠٠	الكونت إستروغانوف
جريفة	سعادان طوقان	عبيان الشرك (؟)	١٨٩٥	مغراء	١٩٠٠	الأمير شيرباتوف
جلفة	جلفان الأطناب الفولاذية	سمحان القميع (؟)	١٨٩٥	بيضاء	١٩٠٠	عزبة لتربية الخيل الحكومية
كحيلية	كحيلان العجوز	دهمان أم عمر	١٨٩٣	كميتة	١٩٠٠	عزبة لتربية الخيل الحكومية
منوى	عبيان الشرك (؟)	حدبان العنزخي (؟)	١٨٩١	كميتة	١٩٠٠	الكونت إستروغانوف
نوري	كحيلان العجوز	كحيلان تمري (؟)	١٨٩٧	كميتة أحمة	١٩٠٠	الأمير شيرباتوف

الاسم	سلالة الأم	سلالة الأب	عام التولد	اللون	عام الشراء	المالك
عتيبة	أعنق حدروج (؟)	صقلاوي حدران	١٨٩١	بيضاء	١٩٠٠	الكونت إستروغانوف
سعادية	سعادان طوقان	كحيلان العجوز	١٨٩٢	بيضاء	١٩٠٠	عزبة لتربية الخيل الحكومية
سعيدة	كحيلان جلال	صقلاوي حدران	١٨٨٤	مغراء	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
صقلاوية	صقلاوي حدران	كحيلان أبو الجنب	١٨٩٤	رمادية	١٩٠٠	عزبة لتربية الخيل الحكومية
حمرة	حمداني سمري(؟)	كحيلان نواق	١٨٨٤	كميتة	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
حيفي	كحيلان حيفي	كحيلان السويتي	١٨٩٦	كميتة	١٩٠٠	الكونت إستروغانوف
شقراء	أعنق ابن سبيل	عبيان الشرك (؟)	١٨٨٣	مغراء	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
شمسة	أعنق حدروج (؟)	أعنق ابن سبيل	١٨٩٤	كميتة	١٩٠٠	الأمير شيرباتوف
يالا	صقلاوي عبيران؟)	أعنق حدروج (؟)	١٨٨٠	مغراء	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف
بدوينكا (البدوية)	أعنق ابن سبيل	حمداني سمري(؟)	١٨٧٨	بيضاء	١٨٨٨	الكونت إستروغانوف

بعض المعلومات
عن الخيول التي شاهدناها في رحلتنا عام ١٩٠٠
(من مفكرتي الشخصية)

١) أماكن المشاهدة وعدد الخيول

المكان	العدد
في دمشق	٧٠
في القريتين	٣
في تدمر	٤
في مقر الشيخ فرحان	٢٠
في مقر قباقب	٩٩
في دير الزور	٢٢٠
في ضمير	١٠
في قارة	٥
على نهر الخابور	٥٠
في بئر حميدية	٤
في عين البيضاء	٨
في حمص	٦٠
في حماه	٨٠
عند البركة	١٢٠
في بيروت	١٥
المجموع	٦٧٨

توجد بعض الملاحظات المفصلة عن ١٨٤ حصان من هذا النوع

٢) صنفت الخيول حسب الجنس على الشكل التالي:

عدد الأفراس	١٤٠
عدد الأحصنة	٢٣
عدد الحجور الصغيرة	١٤
عدد الأمهار	٧
المجموع	١٨٤

٣) من بين ١٨٤ حصان كانت ستة لها العيوب التالية:

«كوربا» ٢
حبيرة ١
بُقع فوق الركب (spavin) ٢
نوام عظيمة نافذة ١

٤) صنفت الخيول بألوانها على الشكل التالي:

الأمغر ٣٦
الكميت ٤٢
الرمادي ٤٨
الأبيض ٢٦
الأسمر الداكن ٥
الكميت الأحم ٥
الأسود ١
الأشقر (العربي غير الأصلي) ١
غير المعروف ٢٠
المجموع ١٨٤

٥) صنفت الخيول بأعمارها على الشكل التالي:

العمر	عدد الخيول	عدد الإناث	عدد الفحول
سنتان	١٠	٦	٤
٣ سنوات	١١	٨	٣
٤ سنوات	١٨	١٤	٤
٥ سنوات	٢٣	١٩	٤
٦ سنوات	٢٠	١٨	٢
٧ سنوات	١٤	١٤	-
٨ سنوات	١٢	١٠	٢
٩ سنوات	٥	٥	-
١٠ سنوات	١١	١١	-
١٥ سنة	٢	٢	-
غير معروف	٥٨	٤٧	١١
المجموع	١٨٤	١٥٤	٣٠

٦) صنفت الخيول بسلالاتها على الشكل التالي:

١ - السلالات الفرعية من جنس كحيلان عددها ٦١ وهي:

ك . أبو عرقوب ٢
ك . أبو الجنب ٣
ك . تمري (؟) ٤
ك . نواق (؟) ٩
ك . القروش (؟) ١
ك . العجوز ٠
ك . الشريف ٣
ك . حيفي (؟) ١
ك . الغزالي ١
ك . السويتي ٢
ك . جلفي (؟) ١
ك . جريجي (؟) ١

ك . مخلادي (؟) ١
ك . مسنح (؟) ١
ك . واتي (؟) ٢
ك . أنس دعويش (؟) ٢
ك . مليحا (؟) ١
ك . حلاوي ٣
ك . أخرس ١
ك . ابن ثمان (؟)*[١] (لم نسمع عن هذه السلالة من ذي قبل ولم نستطع التأكد منها، والسلالة التي تليها مشكوك فيها أيضاً)
ك . الدريس (؟)* ١

٢ - السلالات الفرعية من جنس مناقي (؟) عددها ١٤ وهي:

م . ابن سبيل ٧
م . جدروح (؟) ١

٣ - السلالات الفرعية من جنس عبيان (؟) عددها ٢٨ وهي:

ع . شرك (؟) ٢٠
ع . أبو جريس (؟) ٤
ع . الحدر (؟) ١
ع . لبدا (؟) ١

ع . ساغلي (؟) ٢

---

(١) كل إشارة استفهام التي بقربها نجمة * من المؤلفة، المعرب.

٤ - السلالات الفرعية من جنس الصقلاوي عددها ١٩ ومنها:

ص . جدران ٧	ص . العبد ٢
ص . عنجمي (؟) ١	ص . عرجي (؟) ٣
ص . شايفي (؟) ١	ص . عبيران (؟) ٤
ص . جدران من عشيرة ابن سبيني . ١	

٥ - حمداني سمري ١٢

٦ - جلفان (؟) ١٢ ومنها:

ج . الأطناب الفولاذية ١١

ج . صحوة (؟) ١

٧ - سعادان طوقان ١٢

٨ - شعيمان سباع ١

٩ - دهمان أم عمر ٣

١٠ - حدبان ٨ ومنها:

ح . عنزخي (؟) ٧

ح . مشخطب (؟) ١

١١ - عدنان خرسان ٢

١٢ - ريشان (؟) شرابي ٢

١٣ - طويسان علجامي (؟) ١

١٤ - قبايشان العمير (؟) ٣

١٥ - سمحان القميع (؟) ١

١٦ - الأجناس غير المعروفة لنا ٥ وهي:

عبيان حبيل (؟)
كحيلان عرموش
عبيان حويتة (؟)
كحيلان الأنس (؟)
سعادان عنينة (؟)
المجموع . . . ١٨٤



ملاحظات
من كتاب السفر عن الخيول المشتراة عام ١٩٠٠م

١) الخيول التي شاهدناها في مخيمات رحل قبيلة العواجة:

١ – الفرس الكميتة الأحمة، ٨ سنوات، عنقاء ابن سبيل، سيئة.

٢ – الفرس الرمادية، ٦ سنوات، سعادية طوقان. سيئة، عظام ساقيها الأماميتين فقيرة وركبها مسطحة.

٣ – الفرس المغراء عوادنية خرسية (؟).

٤ – الفرس المغراء ابنة الفرس السابقة؛ كلتا الفرسين متينتا البنية ولكن أناقتهما قليلة ورأسيهما غير أصيلتين.

٥ – الفرس المغراء، ٣ أعوام، كحيلانة غزالية، أنيقة جداً في سيرها ولكن عظامها فقيرة تحت ركبتيها على الساقين الأماميتين (ni-deit)، ومتنها متوسط ورأسها غير نموذجي.

٦ – المهر الكميت الأحم، عامان، شعيمان سباع. غير حسن.

٧ – فرس رمادية، ٥ أعوام، جلفية الأطناب الفولاذية، أنيقة جداً في سيرها وسكونها وبرأس أصيل جداً والساقان الأماميتان ممتازتان، ركبها منخفضة وعظامها جيدة. بكلمة واحدة إنها حجر حسنة من كل النواحي. (في طريقنا إلى حمص أرسلنا ساعا إلى قبيلة العواجة وعرضنا لهم مئة عملة ذهبية مقابل هذه الفرس وإرسالها إلى دمشق ولم نستلم ردهم).

٨ – الفرس الكميتة، ٥ سنوات، كحيلانة نواقية، كانت ملك الشيخ فرحان. سيئة.

٩ - الفرس البيضاء، ٦ سنوات، عبية لبدة (؟)، كانت ملك سطام بن فرحان، والدها كحيلان السويتي، حسنة الرأس والعظام وركبها منخفضة. أنيقة، كبيرة الحجم، حسنة بكل شيء ولكن ساقيها الأماميتين مشوهتان وعليها نوام وأرساغها سميكة.

١٠- الفرس الكميتة، ٦ سنوات، عنقاء حدروجية (؟)، سيئة.

١١- الفرس الرمادية، ٣ سنوات، كحيلان أبو الجنب، والدها صقلاوي جدران من عشيرة ابن الدري، عظامها سيئة والفرس كلها ليست جيدة.

١٢- الفرس المغراء، سنتان، كحيلان العجوز، رأسها نموذجي إلى حد ما مع وهدة على خط الجبين مثل كل خيول عائلة بلانت، فقيرة العظام.

١٣- الفرس البيضاء، ٣ سنوات، صقلاوية عبيرية (؟)، متوسطة.

١٤- الفرس الكميتة، ٥ سنوات، كحيلية جفنية، رأسها نموذجي مثل الرقم ١٢، لا بأس بها ولكن حوافرها مسطحة.

١٥- الفرس المغراء، كحيلية جرجية (؟)، قليلة الكثافة جداً.

٢) الخيول التي شاهدناها قرب بئر قباقب في ٢٨-٣٠ آذار:

١٦- الفرس البيضاء، ٧ سنوات، كحيلية تمرية (؟)، كانت ملك الشيخ حميد بن عيد، ولدت عند الشمر وسلبت منهم بالغزوة منذ سنتين. لم تستخدم سلالتها للنسل أبداً. رأسها أصيل ومنتظم. إنها حجر حسنة بكل شيء ولكن الشيخ لم يقدر أن يكفل أصالتها.

١٧- الفرس البيضاء، ٦-٧ سنوات، عبية سغلية (؟)، ولدت عند الشيخ حميد بن عيد. كانت مثل هذه السلالة موجودة سابقاً عند الشمر فقط، والآن توجد عند الشيخ حميد والقموصة. أصبحت هذه السلالة في عشيرة الشيخ منذ

زمن بعيد لأن سالفتها كانت مسلوبة من الشمر بالغزوة. والد الفرس أعنق ابن سبيل. الفرس متوسطة.

١٨- الفرس الرمادية، ٤ سنوات، جلفية الأطناب الفولاذية، كانت ملك البدوي فدعان بن غيل (؟) حيث ولدت. كان والدها عند ابن جلان من العمارات وجنسه عبيان حونية (؟). اشتبه أ بأنها مصابة بربو الخيل وهي فرس جيدة بكل شيء.

٣) الخيول التي شاهدناها في دير الزور في ٣١ آذار ٤ نيسان:

١٩- الحصان الرمادي حمداني سمري، ولد عند العمارات، والده كحيلان العجوز. رأسه حسن. جبيرة وأورام على الركب، ساقاه الأماميتان متباعدتان.

٢٠- الحصان الأبيض، ٥ سنوات، كحيلان العجوز؛ اشتري عندما كان عمره سنة من جدعان وهو بدوي من قبيلة محد (؟) من فدعان (العنزة). الحصان أصيل دون شك، فقد ضمنه عائش وويس. جميل وأنيق جدًا في سيره ووقوفه، رأسه عربي بهي، عيناه كبيرتان وقصبة أنفه أصيلة وهيئته جيدة. بكلمة واحدة إنه حصان صالح تمامًا للإنتاج. نقصه الوحيد هي "كوربا" على ساقه الخلفية اليسرى.

٢١- الفرس الرمادية، ٥ سنوات، كحيلية العجوزة. سيئة.

٢٢- الفرس الرمادية، ٦ سنوات، صقلاوية عبيرية (؟) والدها كحيلان حيفي (؟) وهو حصان مشهور جدًا وملك الشيخ محمد من قبيلة شميلات (؟) من فدعان. تفلت من حصان ريشان شرابي (؟). جميلة ومتنها ممتاز ورأسها نموذجي، ولو أن قصبة أنفها عريضة بعض الشيء. رقبتها جيدة وركبها مسطحة وعظام ساقيها الأماميتين فقيرة.

٢٣- الفرس البيضاء، ٦ سنوات، سعادية طوقان، اشتريت وعمرها أربع سنوات من شيخ الشمر فارس. أناقتها قليلة، صدرها ضيق، كفلها وركبها فقيرة، وتوجد نوام.

٢٤- حصان كميت، ٥ سنوات، ريشان (؟) شرابي، والده كحيلان القروش؛ سلب هذا الحصان بالغزوة مع القموصة حيث ولد.

٢٥- الفرس الكميتة، ٧ سنوات، كحيلية العجوزة، والدها حمداني سمري (؟). رأسها غير نموذجي وعظامها نحيلة وسيئة.

٢٦- الفرس البيضاء، ٨ سنوات، سعادية طوقان، حسنة جدًا بكل شيء ولكن لم يتكفل أحد أصالتها ولولا هذا لاشتريناها.

٢٧- الفرس المغراء، ٧ سنوات، كحيلية ابن تمار (؟)*، سلبت من الشمر بالغزوة. متينة البنية، عريضة ورأسها جيد. كان من الممكن شراؤها لكن ويس قال لنا إن هذه السلالة ليس لها وجود.

٢٨- الفرس السوداء الداكنة، ٤ سنوات، كحيلية العجوزة، والدها كحيلان نواق(؟)، توجد نوام، وقليلة الكثافة وصغيرة الحجم.

٢٩- الفرس الكميتة، ٦ سنوات، عبية شركية (؟)، والدها غير معروف. سلبت من الشمر بالغزوة. رأسها حسن ورقبتها ممتازة وأصيلة تمامًا. تكفلها ويس. حسنة بكل شيء. لم نشترها بسبب حافرها الملتهب على ساقها الأمامية اليمنى وفكش أطنابها على الساق اليسرى.

٣٠- الفرس البيضاء، ٤ سنوات، صقلاوية جدرانية، كانت ملك الشيخ محمد التدمري (رأيناه وهو يمتطيها في تدمر). قال ويس إنه لا يمكن ضمان أصالتها.

٣١- حصان ٤ سنوات، كحيلان نواق (؟)، كان ملك بدوي من قبيلة خريسة (؟) (من فدعان)؟* والده أعنق ابن سبيل. رأسه جميل وأصيل، ساقاه الأماميتان

جيدتان بركبتين منخفضتين. جيد بشكل عام لكنه صغير الحجم: أرشينان وربع فيرشوك.

٣٢- الفرس المغراء، ٧ سنوات، صقلاوية جدرانية، والدها غير معروف. رأسها غير أصيل وساقاها الأماميتان سيئتان بسبب ركبتيها المسطحتين.

٣٣- الفرس المغراء، كحيلية شريفة، ٥ سنوات، اشتريت من الشمر عندما كان عمرها عام واحد. والدها ريشان (؟) شرابي، حسنة جدًا من كل النواحي وكانت جديرة أن نشتريها لولا ركبتها الملتوية على ساقها الأمامية اليسرى.

٣٤- الفرس الرمادية، جلفية دحوة (؟). والدها ريشان (؟) شرابي، لا بأس بها ولكن غليظة الرأس.

٣٥- الفرس الرمادية، حديبة عنزخية (؟) من الشمر، غير حسنة وغير رديئة.

٣٦- الفرس الكميتة، كحيلية العجوزة، اشتريت من الشمر. رأسها جيد، حجمها صغير، ركبها مسطحة، أرساغها نحيلة وضعيفة.

٣٧- الفرس الرمادية، ٨ سنوات، كحيلة الدريس (؟)، والدها طويسان علجامي (؟)؛ كانت تابعة للبدوي من البقرة. رأسها جميل وعظامها نحيلة، صغيرة الحجم وبورم على ساقها.

٣٨- الفرس الرمادية عبية شركية (؟)، لا بأس بها.

٣٩- الفرس المغراء عنقاء حدرجية (؟)؛ والدها كحيلان نواق (؟)، متينة البنية وأرجلها ممتازة، جيدة بشكل عام ولكن رأسها أحدب.

٤٠- الفرس المغراء، ٤ سنوات، حمدانية سمرية (؟)، غير حسنة وغير رديئة.

٤) الخيول التي شاهدناها عند نهر الخابور التابعة لقبيلة الأخدعات (؟):

٤١- الفرس كحيلية العجوز، غير أصيلة الشكل.

٤٢- الفرس البيضاء، ٦ سنوات، كحيلية نواقية (؟)، والدها كحيلان حدلي (؟) من العنزة. رأسها أصيل وجميل وكلها لا بأس بها.

٤٣- الفرس البيضاء، ٤ سنوات، دهمة أم عمر، والدها كحيلان العجوز، تستخدم سلالة والدتها في عشيرة صاحبها منذ مئة عام. رأسها حسن جداً وأصيل ولكنها صغيرة الحجم وخفيفة الشعر.

٤٤- الفرس كحيلية العجوزة، غير حسنة وغير رديئة.

٤٥- الفرس المغراء عنقاء ابن سبيلة، رأسها جيد ولكن شعرها خفيف وحركتها سيئة.

٤٦- الفرس الكميتة الأحمة، صقلاوية جدرانية، صغيرة الحجم.

٤٧- الفرس البيضاء، ٦ سنوات، كحيلية أبو عرقوب، رأسها أصيل جداً وكلها جيدة ولكن صغيرة الحجم.

٤٨- الفرس الكميتة، ٤ سنوات، كحيلية العجوزة، والدها صقلاوي جدران، أصيلة جداً وحسنة ولكن أرجلها سيئة.

٤٩- الفرس الرمادية، عامان، دهمة أم عمر؛ ابنة الرقم ٤٣، والدها كحيلان نواق(؟)، صغيرة الحجم.

٥٠- الفرس البيضاء، ٧ سنوات، عبية شركية (؟)، والدها كحيلان العجوز، رائعة في أصالتها وأناقتها، هيئتها حسنة، تستحق الشراء ولكن عليها جبيرة.

٥١- الفرس الكميتة، ٦ سنوات، سعادية طوقان، صغيرة الحجم.

٥٢- الفرس المغراء، ٦ سنوات، صقلاوية عرجبية (؟)، أنيقة جداً وأرجلها جيدة ولكن شعرها خفيف.

٥٣- الفرس الرمادية، عامان، حمدانية سمرية، لا توجد عليها أية عيوب خاصة ولكن لا تستحق الشراء[١].

---

(١) عموماً لم نشتر لا إناثاً ولا فحولاً يقل عمرها عن أربع سنوات. تعليق المؤلفة.

٥٤- الفرس المغراء، عامان، كحيلية العجوزة، غير أصيلة.

٥٥- الفرس البيضاء، ٤ سنوات، عنقاء حدروجية (؟)، سلبت بالغزوة من الفدعان. أنيقة في حركتها ولكن خفيفة الشعر.

٥٦- الفرس الكميتة، ٣ سنوات، كحيلية مخلدية (؟).

٥٧- الفرس الكميتة، صقلاوية جدرانية، متوسطة.

٥٨- الفرس الرمادية، عامان، كحيلية نواق (؟)، نحيلة.

٥٩- الفرس المغراء، ٤ سنوات، عبية جبيلية (؟)*، سلالتها مجهولة.

٦٠- الفرس البيضاء، ٦ سنوات، حمدانية سمرية، رأسها غليظ وحجمها صغير.

٦١- الفرس المغراء، سعادية طوقان، متوسطة.

٦٢- الفرس البيضاء، كحيلية مسنح (؟)، حسنة ولكن صغيرة الحجم.

٦٣- الفرس المغراء، ٣ سنوات، سعادية طوقان، كبيرة الحجم ولكن بعيوب.

٦٤- الفرس المغراء، ٤ سنوات، عبية شركية (؟)، جيدة البنية ولكن قليلة الأناقة.

٦٥- الفرس المغراء، ٥ سنوات، كحيلية العجوزة، والدها كحيلان تمري (؟). اشتريت في سنتها الأولى من بدو بني صخر. لا بأس بها ولكن سيئة الرأس.

٦٦- الفرس الكميتة، ٤ سنوات، كحيلية واتية (؟)، أصيلة وجمية الرأس وممتازة المتن ولكن بنوام على ساقيها الأماميتين.

٦٧- المهر عمره عامان، سعادان طوقان، متوسط.

٥) دير الزور ٧-١١ نيسان:

٦٨- الحجر السمراء الداكنة، ٩ سنوات، عبية شركية (؟)، والدها كحيلان أخرس. إنها حفيدة الفرس المشهورة «عنزة» التابعة للكونت استروغانوف الذي اشتراها في دير الزور عام ١٨٨٨م. كان رأسها جيداً جداً ولو أن عينيها

صغيرتان، وكانت تشبه أمها بأناقتها. هيئتها جيدة ولكن بنوام على ساقيها الأماميتين منعتنا من شرائها.

٦٩- الفرس الكميتة الأحمة، ٧ سنوات، عبية شركية (؟)، والدها جلفان الأطناب الفولاذية، ولدت عند البدوي سليمان العوا من البقرة. رائعة الأناقة في حركتها وسكونها ورأسها ممتاز ونموذجي. متنها جيد ومنتظم، ولكن للأسف كان صدرها ضيقًا جدًا.

٧٠- الفرس الكميتة، ٦ سنوات، عبية شركية (؟)، من عشيرة صغلي (؟) (من فدار الشمر). سلبتها السلطات التركية من الشمر فأصبحت ملك سليمان بيه؛ وقد جاء صاحبها فدار ليأخذها. إنها أصيلة دون شك وممتازة ولكن حوافرها مسطحة. عريضة الهيئة ومتينة البنية وأنيقة حتى الروعة.

٧١- الفرس المغراء، ٨-٩ سنوات، صقلاوية العبد، والدها أعنق ابن سبيل. رأسها جيد ومتنها سيّئ.

٧٢- الحصان الرمادي، صقلاوي جدران، متوسط.

٧٣- الحجر الرمادية، ٧ سنوات، سعادية عنينة (؟)*، والدها ريشان شرابي. أحضرها البدوي جس. عندها نوام.

٧٤- الفرس المغراء، ٤ سنوات، عبية شركية (؟). سيئة.

٧٥- الفرس السمراء الداكنة، عنقاء ابن سبيل، متوسطة.

٧٦- الفرس الرمادية، جلفية الأطناب الفولاذية، صغيرة الحجم.

٧٧- الفرس المغراء، حمدانية سمرية، توجد نامية عليها.

٧٨- الفرس البيضاء، ٥ سنوات، كحيلية أنس دعويش (؟)، والدها عبيان شرك(؟) متوسطة.

٧٩- الفرس الكميتة، ٦ سنوات، حمدانية سمرية، رأسها جيد، حجمها صغير.

٨٠- الفرس الرمادية، كحيلية نواقية (؟)، كبيرة السن جدًا.

٨١- الحجر البيضاء، جلفية الأطناب الفولاذية، ليست أصيلة تمامًا.

٨٢- الحجر عبية شركية (؟)، والدها كحيلان نواق (؟)، ٩ سنوات.

٨٣- الفرس الكميتة، ٧ سنوات، جلفية الأطناب الفولاذية، والدها صقلاوي جدران. صاحبها بدوي من الأخدعات (؟). رائعة الأعضاد والضفار. أما نواقصها فهي ضيق الصدر وتسطح الركب.

٨٤- الفرس المغراء، عنقاء حدروجية (؟) غير حسنة وغير رديئة.

٨٥- الفرس البيضاء، كحيلية أنس دعويش (؟)، ٨-٩ سنوات، رأسها أصيل جدًا وعيناها كبيرتان ومعبرتان. هيئتها جيدة ولكن حجمها صغير.

٨٦- الفرس المغراء، ١٠ سنوات، كحيلية شريفة، والدها كحيلان واتي (؟). صاحبها الشاويش عبد الرحمن. جيدة الرأس والرقبة وفائقة الجمال. هيئتها جيدة ولكنها مركوبة وكبيرة السن للبيع.

٨٧- الفرس الكميتة، كحيلية أبو عرقوب، كبيرة السن.

٨٨- الفرس المغراء، طويسة علجمية (؟)، ١٠ سنوات، كبيرة السن.

٨٩- الحصان الكميت، ٦ سنوات، عبيان صغلي (؟)، أصالته قليلة.

٩٠- الفرس الرمادية، كحيلية مليحة (؟)، قليلة الأصالة.

٩١- الفرس الرمادية، ١٠ سنوات، صقلاوية شايفية (؟)، حسنة وأصيلة ولكن كبيرة السن.

٩٢- الفرس الكميتة، عنقاء حدروجية (؟)، ٣ سنوات، والدها صقلاوي جدران من عشيرة ابن سبيني. فرس جيدة ولكن ساقها الأمامية ملتوية.

٩٣- الفرس الرمادية، جلفية الأطناب الفولاذية، ٦ سنوات، والدها ريشان (؟) شرابي من القموصة. ركبها مسطحة وعظامها رفيعة.

٩٤- الفرس الرمادية، جلفية الأطناب الفولاذية، متوسطة.

٩٥- الحصان الأسمر الداكن، ٦ سنوات، صقلاوي جدران، والده ريشان (؟) شرابي. ولد في قبيلة العنزة وأصبح ملك فارس شيخ الشمر فاشتراه منه صاحبه الحالي. الحصان متين البنية وحسن العظام والمتن وأنيق جدًا في الجري. رأسه منتظم ولكن غير ناشف تمامًا، وساقاه الأماميتان مقلوبتان إلى الداخل.

٩٦- الفرس المغراء، ٩ سنوات، عنقاء ابن سبيل، والدها حمداني سمري (؟). إنها ابنة أخت فرس الكونت استروغانوف الرمادية التي اسمها بدوينكا التي اشتراها في دير الزور عام ١٨٨٨م. شعرها قليل الكثافة.

٩٧- الفرس البيضاء، جلفية الأطناب الفولاذية، والدها صقلاوي جدران. رأسها حسن وكلها جيدة ولكن صغيرة الحجم.

٩٨- الفرس البيضاء، ٥ سنوات، صقلاوية عرجبية (؟)، والدها كحيلان العجوز، متوسطة.

٩٩- الفرس الكميتة، كحيلية العجوز، والدها كحيلان القروش. كانت ملك البدوي من خريسة (؟). قوية وجبارة وكبيرة الحجم ولكن قليلة الأصالة كما بدا من شكلها.

١٠٠- الفرس البيضاء، ٥ سنوات، حمدانية سمرية، والدها صقلاوي جدران من ابن سبيني. صاحب الفرس بدوي من خريسة (؟). رأسها أصيل جدًا ولكن متوسطة بجودتها.

١٠١- الحصان الرمادي، ٣ سنوات، حمداني سمري، ساقه ملتوية، صاحبه بدوي من الخريسة (؟).

١٠٢- الفرس الرمادية، ٤ سنوات، حمدانية سمرية، صاحبها بدوي من الخريسة، أحد حوافرها ملتوية.

١٠٣- الفرس الكميتة، سعادية طوقان، توجد نامية عظيمة (splint) وانتفاخ الأوعية الدموية.

١٠٤- الفرس المغراء، ٤ سنوات، كحيلية شريفة، والدها ريشان (؟) شرابي.

٦) بئر قباقب ١٢-١٦ نيسان.

١٠٥- الفرس الرمادية، كحيلية عرلويش (؟)*، ٨ سنوات، والدها عبيان الشرك(؟)، صاحبها نافع وهو بدوي من قبيلة الرسالين. اشتريت وهي صغيرة من بدو صقلة من الشمر. حسنة ولكن حافرها ملتوٍ.

١٠٦- الفرس الكميتة الأحمة، ١٥ سنة، عبية شركية (؟)، والدها أعنق ابن سبيل، ولدت في قبيلة العجاجرة حيث كانت ملكًا لشيخها. رأسها مثالي بانتظامه وجماله، ورقبتها جيدة. هيئتها ممتازة وطولها حوالي أرشينين وثلاثة فيرشوكات. أنيقة حتى الروعة في سكونها وحركتها. بعبارة دقيقة إنها فرس عجيبة في كل شيء ولكن كبيرة السن.

١٠٧- الفرس الرمادية، أخذت بالغزوة من الشمر، جيدة جداً. لم يستطع صاحبها البدوي من العجاجرة أن يتكفل أصالها.

١٠٨- الفرس الكميتة، ٤ سنوات، كحيلية العجوزة، والدها دهمان أم عمر موجودة عند القموصة. لا بأس بها ولكن صغيرة الحجم.

١٠٩- الفرس الرمادية، قبيشية العمير (؟)، قليلة الأصالة.

١١٠- الفرس البيضاء، ١٠ سنوات، كحيلية العجوزة، والدها صقلاوي جدران، جيدة جدًا للركوب ولكن ليست في المستوى الذي نريده.

١١١- الفرس ١٠ سنوات، ريشية (؟) شرابية من الرسالين، متوسطة.

١١٢- الفرس المغراء، ٥ سنوات، حمدانية سمرية، والدها عبيان الشرك (؟).

١١٣- الفرس المغراء، ٥ سنوات، كحيلية العجوزة، خفيفة الشعر.

١١٤- الفرس الرمادية، ٥ سنوات، كحيلية حلاوية، كانت ملكًا للبدوي من العواجة الذي اشتراها وهي صغيرة من زيدان العواجي من فدعان. والدها حدبان عنزخي (؟) وكان ملك نايف بن قشيت وهو شيخ قبيلة الخريسة(؟). الفرس حسنة تمامًا وأصيلة ولو أنها صغيرة الحجم وتوجد نامية فوق حافرها الخلفي الأيسر. رفض صاحبها بيعها بالثمن الذي عرضناه.

١١٥- الفرس البيضاء، ٩ سنوات، جلفية الأطناب الفولاذية، والدها كحيلان حدلي (؟). كانت ملك البدوي سمير من قبيلة روص (فدعان)، واشتراها من ابن دحوة من فدعان. طولها أرشينان وفيرشوكان وربع. إنها فرس تناسبنا ولكن لم يتنازل صاحبها عن سعره المطلوب.

١١٦- الفرس المغراء، صقلاوية عنجمية (؟)، كانت تابعة للبدوي من محد (؟) الذي عاد من الغزوة. كانت سيئة بشكلها الخارجي ولكن قالوا عنها إنها قوية جدًا.

١١٧- الفرس الرمادية، ٦ سنوات، كحيلية نواقية (؟)، والدها كحيلان أبو عرقوب، ولدت عند شيخ قبيلة ولد علي. غير أصيلة الشكل.

٧) حمص ٢٨ نيسان - ١ أيار:

١١٨- الفرس الرمادية، ٣ سنوات، عبية شركية (؟)، أصيلة ولكن متوسطة.

١١٩- الفرس الكميتة، ٣ سنوات، جلفية الأطناب الفولاذية، اشتريت من السباع. لا بأس بها ورأسها جميل ولكن ساقيها الأماميتين عليهما نوام عظيمة (splint).

١٢٠- الفرس ٦ سنوات، كحيلية تمرية، ولدت في قبيلة الرسالين عند ابن الدري. ساقاها الأماميتان مقلوبتان.

١٢١- الحصان الكميت الفاتح، ٤ سنوات، كحيلان أخرس، زعموا أنه ولد عند أحد سكان حمص. كان لونه لوحده يدل أنه ليس عربيًا أصيلاً. رأسه جميل جدًا ولكن ليس من الطراز العربي. أما هيئته فثقيلة وغليظة.

١٢٢- الفرس الرمادية، حمدانية سمرية، اشتريت والدتها من قبيلة غير بدوية أصيلة وهي الجس (؟) التي تترحل في الجزيرة. فرس جميلة ولكن أصالتها مشكوك فيها.

١٢٣- الفرس الرمادية، عبية شركية (؟)*، والدها صقلاوي جدران، اشتريت من الدروز (؟)*. رأسها جيد وكلها لا بأس بها ولكن أصالتها مشكوك فيها.

١٢٤- الفرس المغراء، ٧ سنوات، عنقاء حدروجية (؟) مثل والدها. أحضرها بدوي من الحسنة (؟) حيث ولدت. هيئتها جيدة ولكن رأسها غليظ.

١٢٥- الحصان الرمادي، ٥ سنوات، عبيان أبو جريس (؟)، اشتري من العنزة. رأسه جيد ولكنه خفيف الشعر وضعيف الأرجل.

١٢٦- الفرس الكميتة، ٥ سنوات، سعادية طوقان، كانت ملكًا للمواطن الحمصي حمود الحايبي وهو نصف بدوي من قبيلة الموالي. والدها صقلاوي جدران من ابن سبيني، موجود في حمص عند صعاب أفندي. رأسها جميل جدًا وأرجلها نقية وكلها جيدة ولكن صغيرة الحجم. تستحق الشراء لولا صغر حجمها.

١٢٧- الحصان الرمادي، ٤ سنوات، كحيلان العجوز وهو ملك عبد القادر نجيب. اشتري منذ عام من بدوي من قبيلة الحدادين حيث ولد.

١٢٨- الفرس الرمادية الداكنة، ٤ سنوات، كحيلية سويتية، والدها صقلاوي جدران، كانت ملك المواطن الحمصي عبد الساعتي طيارة وهو نصف بدوي

من السباع. جميلة جداً ورأسها أصيل وشكلها حسن ولكن توجد نوام على ساقيها الأماميتين.

١٢٩- الفرس الرمادية، ٥ سنوات، حدبة عنزخية (؟)، والدها ريشان (؟) شرابي الموجود في دمشق. كانت سلالة الفرس تستخدم دائماً عند مزيد بن حافل وهو بدوي من فدعان، أما أمها وجدتها وأختها فكانت تابعة للمواطن الحمصي علي أفندي. جيدة بكل شيء ولكن ارتفاعها لا يزيد عن أرشين وفيرشوك.

١٣٠- الفرس البيضاء، ١٥ سنة، عبية شركية (؟)، كبيرة السن و spavin.

١٣١- الفرس الكميتة، ٨ سنوات، سعادية طوقان، ولدت عند العواجة. رأسها جميل جداً ولا بأس بها ولكن متنها سيئ.

١٣٢- الحصان ٤ سنوات، صقلاوي عبيران (؟)، اشتريت والدته من القموصة. رأسه جميل جداً وأنيق وعموماً أنه مهر جميل وحسن العظام ولكنه ليس بدرجة حاجتنا.

١٣٣- الحصان كحيلان أبو الجنب (؟)، سيئ.

٨) عند البركة ٥-٦ أيار:

١٣٤- الفرس البيضاء، ١٠ سنوات، عنقاء حدروجية (؟)، قوية جداً وعظامها جيدة ورأسها جميل ولكن غليظة.

١٣٥- الفرس المغراء، كحيلية القروش (؟)، سيئة الرأس.

١٣٦- الفرس البيضاء، ٨ سنوات، صقلاوية جدرانية من ابن سبيني، رأيناها عند ولد علي. منهكة جداً.

١٣٧- الفرس الرمادية، حدبية عنزخية (؟)، كانت تابعة لابن شعلان، والدها عبيان شرك (؟). جيدة جداً وكبيرة الحجم. كان من الممكن شراؤها على الرغم من كبر سنها ولكنها لم تكن للبيع.

١٣٨- المهر ٣ سنوات، عبيان الحدر (؟)، شعره قليل الكثافة.

١٣٩- الفرس الكميتة، ٧ سنوات، عنقاء بن سبيلية، والدها صقلاوي جدران، كانت تابعة للبدوي مصراب بن مؤجل من قبيلة عشاجة (؟). الفرس حسنة الهيئة وممتازة العظام ونظيفة الأرجل ولكن بسيطة جداً.

١٤٠- الحصان الأمغر، ٣ سنوات، عبيان أبو حريس (؟)، أنيق بدرجة عالية وجميل، حركته منتظمة وهيئته جيدة ولكن توجد نامية كبيرة على ساقه الأمامية، ورأسه محدب ولو أنه جميل.

١٤١- الحصان الرمادي، ٤ سنوات، أخو الحصان الأسبق، وهو أقل منه أناقة ورأسه غير جميل.

١٤٢- الفرس الكميتة، ٣ سنوات، كحيلية العجوزة، والدها كحيلان تمري الكميت، موجود في حمص. ولد عند البدو من الفدعان. صاحبها الذي ولدت عنده اسمه فدعوز ابن شيخ قبيلة عشاجة (؟) ابن مؤجل. كما قال عردوب بن شعلان إن الفرس أصيلة تماماً. إنها حسنة جداً وأصيلة الرأس ولكن صغيرة الحجم.

١٤٣- الفرس الكميتة، ١٠ سنوات، كحيلية العجوزة، رأسها رائع وجميل ورقبتها أيضاً حسنة الشكل، ولكن ساقيها الأماميتين مشوهتان.

١٤٤- الفرس الكميتة، ٧ سنوات، كحيلية العجوز، والدها صقلاوي جدران. ممتازة وكبيرة الحجم وحسنة في كل شيء. لم تكن للبيع لأنها كانت ملك خالد بن شعلان شيخ قبيلة الروالة.

والخيول الثلاثة الباقية لا تقل حسناً عن الأخيرة وكانت تابعة للشيخ أيضاً، ولم نتمكن من معرفة تفاصيلها بسبب غياب صاحبها.

٩) دمشق ٨ أيار. خيول محمد سعيد باشا

١٤٥- الفرس الكميتة، حدبة عنزخية (؟). اشتراها المواطن الحمصي درويش برازي من السباع ثم باعها لسعيد باشا. كبيرة الحجم جداً ورأسها حسن وأرساغها سيئة. أصالتها مشكوك فيها.

١٤٦- الفرس الرمادية، ٦ سنوات، كحيلية سويتية، اشتريت من سطام بن شعلان. مشكوكة. لا بأس بها ولكن غير أصيلة.

١٤٧- الحصان الكميت، ٣ سنوات، صقلاوي جدران، اشتري عام ١٨٩٩م من قبيلة بني صخر. رأسه غليظ ورقبته لحمية وهيئته مثل «أردين».

١٤٨- الحصان الرمادي، عبيان أبو حريس (؟). نفس العيوب مثل الحصان السابق.

١٤٩- الحصان ١٠ سنوات، كحيلان واتي (؟)، ولد عند الفدعان واشتراه منهم الشيخ محمد التدمري وهو ابن ثلاثة أسابيع، ثم بيع في دمشق وعمره سنة. حجمه صغير جداً.

١٥٠- الحصان الكميت، ٦ سنوات، صقلاوي عبيران (؟) من ابن الدري، ولد في قبيلة المصراب. غير أصيل.

١٥١- الفرس الرمادية، ١٠ سنوات، كحيلية حلاوية، والدها كحيلان حدلي(؟). ولدت عند البدوي من قبيلة ولد علي وكانت تستخدم سلالته في هذه العشيرة منذ غابر الزمان. كانت فرساً من النوع الأول في كل شيء: كبيرة الحجم وممتازة البنية والأعضاد والمتن والكفل والأرجل، كلها جيدة. رأسها ورقبتها، حسنة ومنتظمة. أنيقة في سيرها حتى الروعة وحركتها مذهلة، ركبها فقيرة إلى حد ما. يظهر أن صاحبها لم يوافق على بيعها.

١٥٢- الفرس الكميتة، ٥ سنوات، حمدانية سمرية، والدها صقلاوي جدران. صاحبها شاعلر وهو من أقرباء خالد بن شعلان. الفرس لا بأس بها ولكن غير أصيلة كما بدا من شكلها الخارجي.



مقتطفات من كتاب السيد والتر غيلي
«تربية الخيول في إنكلترا والهند،
والخيول المخصصة للخيالة في البلدان الأجنبية»

(Horse breeding in England and India and remont horses abroad by Sir Walter Gilbey, London 1901)

. . . نحن نعطي الأفضلية للحصان الأصيل ليس من حسن عظامه ومتانة بنيته وحسن تكوينه، بل لأنه «أصيل»، وصاحب الفرس لا يستفسر عن هيئته وشكله بل يسأل «ما سلالته؟»، والسلالة الشائعة هي إجازته الوحيدة والخيرة (ص٥).

ومع ذلك كانت في السابق آراء أخرى، فبين العامين ١٨٠٠م و ١٨٥٠م كان الفحل «هونتر» يستخدم لإنتاج النسل مثل «هونتر». إلا أن أصحاب عزب لتربية الخيل «هونتر» لم يكتفوا باستخدام هؤلاء المنتجين فقط، لأن «باراتوست» المتزايد باستمرار لدى الخيول أجبرتهم على تطوير خيول السباق مثل كونياك (الفحل «هونتر») . . . إن استخدام الحصان الأصيل لإنتاج «هونتر» ناجح، ونحن نظن أن هذا الحصان من الجيل السابق قد تغير كثيراً، وأصبح خليفة العصري صالحًا لهذا الهدف، وهذا هو سبب فشلنا الأساسي.

نصطدم في تربية الحيوان بخيبات كثيرة، والإخفاق دائمًا أكثر من النجاح. والإخفاق غالبًا يحدث بسبب الحصان الأصيل، أو فرس «هونتر» الأصيلة.

والإخفاق يؤدي إلى اليأس لدى المالك، لأن الفرس لا تصلح لا للخيالة ولا للخدمة وبكلمة واحدة تصبح مثل «المعزة» (ص ٦).

. . . لا توجد سلطة من السلطات المحلية مهتمة بتربية الخيول، لا تسر لجنس واحد ولا تعتمد عليه لوحده لتحسين كل الأجناس. والنظام الأساسي لدى كل البلدان يهدف إلى رفع مستوى الأجناس. . .

عندما كان ينفذ نظام الاختيار الحر للأحصنة ظهرت النتيجة في بعض الأجناس التي تعيد الإنتاج بنفسها دون تغيير في طرازها. ففي المجر مثلاً تشكل جنس خيول الفروسية، وفي فرنسا تشكل جنس الخيول الطقمية تمامًا، وهي الإنكليزية النورماندية، وتنتج دون أن تتغير خصالها. وليس هذا فحسب بل تحافظ عليها في أثناء التهجين مع الأجناس الأخرى وتنقل خصالها إليها (ص ١٠-١١).

. . . كل الإحصاءات المعتمدة على المعلومات عن الخيول المستوردة تدل أننا لم ننتج خيول الخدمة. ويقول في ذلك اللورد كاتكارت ما يلي: «ما عدا الأصالة لا بد أن ندبر لمعاونتها الجسامة». وفي الحقيقة ما زلنا نعمل في تربية الخيول ظانين أن الأصالة تنتج الجسامة، وكان هذا منذ مئة عام أو أقل من ذلك، ولكن الآن تغير كل شيء، وعلينا أن نتخلى عن هذه الفكرة التي ترسخت فينا لدرجة أننا اعتبرنا الجنس الأصيل قادرًا على تحسين خيولنا لوحده، أسوة بأصحاب العزب الأجانب في الوقت الحاضر علينا أن نبحث عن خيول جيدة العظام وجسيمة ولكن ليس حيث كانت موجودة في الماضي.

مهما كان حصان السباق العصري يتفوق على أجداده من ناحية الرشاقة، ولكن لا تتوافر فيه الصفات التي تجعله صالحًا لإنتاج خيول الخدمة . . . خلال القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر كانت الرشاقة وقوة التحمل تتوافران في حصان السباق. كان طول هذا الحصان في تلك الأيام لا يزيد وسطيًا

عن أرشينين وفيرشوك واحد متفقًا بذلك مع الفحول الثلاثة المشهورة التي خلفته. استخرج بايرلي تبرك عام ١٦٨٩م ودارلاي أرابيان عام ١٧٠٦ وغودولفين أرابيان عام ١٧٣٠م[1]، وكلها كان ارتفاعها أقل من أرشينين وفيرشوك واحد. كانت بالمقارنة مع خيول السباق الحالية سيسي، ومع ذلك كانت تنفذ مهماتها التي يمكن قراءتها في المدونات التاريخية السباقية عام ١٧١٨-١٧٦٤م. في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٧١٨م حيث كان في نيوماركت ٢٣ سباقًا للخيل و ٢٢ منها بمسافة أربعة أميال (٦ فرستات). وكانت أربعة أميال تعدّ مسافة اعتيادية للسباق، وستة أميال (٩ فرستات) اعتُرف بها، وكانت مسافات السباق في تلك الأيام تنقسم إلى ثلاثة أقسام. وكان الوزن المخصص في القانون يتراوح بين ٣٣ بالم ٩/ ٥ ٣٥ رطلاً و ٤ بالم ٩/ ٦ ٢٥ رطلاً حسب عمر الحصان.

ألغيت سباقات الخيل التي مسافتها ستة أميال في أواخر القرن الثامن عشر، أما التي مسافتها أربعة أميال فبقيت حتى بداية القرن التاسع عشر.

استطعنا ببذل جهودنا أن نزيد من رشاقة الحصان وننتج حصانًا ذا خطوات كبيرة وأرجل طويلة أكثر من أسلافه.

الخيول مثل شارك وخمبلتونيان جسيمة وعظامها جيدة. والمهمات التي خصصت لها تحتاج إلى صفات الخيول العالية وهي الصبر والقوة والقدرة على حمل الأثقال (ص ١١-١٣).

. . . كانت الصفات الثمينة نفسها للخيول التي يمكن الاعتماد عليها بأنها ستقطع مسافات السباق الثلاث في يوم واحد، وطول المسافة أربعة أميال، كما يمكن الاعتماد عليها بأنها ستخلف نسلاً.

(١) كل الخيول الثلاثة عربية. المؤلفة.

تختلف خيول السباق العصرية عن أسلافها التي كانت في بداية القرن الماضي كثيراً، ومع ذلك فإن أصحاب عزب تربية الخيل في وقتنا الحاضر يريدون منها أن تخلف نسلاً مطابقًا للذي كانت تنتجه خيول السباق من الطراز القديم.

الكل يعرف أنه في تربية الحيوان إذا زادت صفة معينة عن الحد فسوف تؤثر تأثيراً سيئًا في الخصال الأخرى. وكانت تلك هي نتيجة عملية تطوير سلالة معينة من الخيول التي كان هدفها زيادة رشاقتها فقط، أما الخصال الأخرى التي لا غنى عنها كالقوة والصبر فأهملت تمامًا.

طبعًا أنا لا أنكر قيمة الحصان الأصيل أنه فحل صالح لتحسين السلالات التي تنقصها الأصالة والرشاقة (ص ١٤).

إدخال السباقات القصيرة: إن السباقات القديمة التي كانت مسافتها أربعة أميال أصبحت أقل شهرة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. كما أن السعي إلى اختصار مسافات السباق والتخفيف من الأوزان المحملة على الخيول أصبح أكثر ظهوراً في أوائل القرن التاسع عشر.

كانت في نيوماركت كرافين ميتينغ عام ١٨٢٠م سباقات الخيول العديدة طول واحدة منها ثلاثة أميال (٥ , ٤ فرستًا) وخمسة منها طولها ميلان (٣ فرستات) وأكثر من عشرين منها طولها ميل واحد (فرستا ونصف) واثنان طولهما أقل من ميل. كانت في نيوماركت كرافين ميتينغ عام ١٩٠٠م ثلاثة سباقات طولها ميل ونصف (فرستاتين وربع) وستة طولها في حدود ميل واحد (فرستا ونصف)، وإحدى عشرة طولها ثلاثة أرباع الميل (فرستا وربع) أو أقل من ذلك.

جدول السباقات في نيوماركت

عدد الأميال	المسافات بالفرستات والأميال						
عدد الفرستات	٣	٢	١,٥	١	أقل من ١	٥-٦ف	المجموع
السنة	٤,٥	٣	٢,٢٥	١,٥	١,٥	١-١,٢٥	
١٨٢٠	١	٥	-	٢٠	٢	-	٢٨
١٩٠٠	-	-	٣	٦	-	١١	٢٠

وضعت في عام ١٨٣٢م قواعد جديدة لوزن الفناجرة على الجوائز الملكية. ومنذ ذلك الحين بدأ يتطور نظام السباقات القصيرة، ونظام الوزن الخفيف فبدأ حصان السباق يتغير في نوعيته. مع كل محاولات أصحاب العزب إنتاج الخيول الأصيلة التي تتوافر فيها القوة والرشاقة، وجدوا استحالة إنتاج الصفة الأولى من هاتين الصفتين، وخيول السباق على المسافات الطويلة. لكي تكون في الوقت الحاضر الفرس قادرة على الفوز في السباق يجب أن تكون رشيقة بالدرجة الأولى. ولكن لا حاجة للحصان الذي يقطع مسافة تزيد عن ١,٥ ميل (٢,٢٥ فرستا) في أن يكون رشيقًا. وإذا كان بإمكانه حمل وزن قدره ٣,٥ بود يكون هذا الوزن متناهيًا.

تنبأ الكتاب البصيرون عن نتيجة تغيير الوزن والمسافة منذ بداية القرن الماضي عندما كان عدد الخيول الأصيلة التي تتمتع بالقوة والصبر أكثر بكثير من الآن. كتب أحد الكتاب وقتذاك ما يلي: «توجد أسباب عديدة تجعلنا نقتنع بأن الرشاقة لدى خيول السباق المعاصرة (١٨٣٦م) لا تعوض لوحدها عن الصفات الأخرى كالقوة ومتانة البنية التي كانت تمتاز بها الخيول في الماضي». كان حصان السباق في الثلاثينات أكثر خفة بالمقارنة مع أجداده، ولكنه كان أقوى في بنيته من خيول السباق المعاصرة وأفضل منها (ص ١٦-١٧).

الملحق الخامس..

أ. شيرباتوف و س استروغانوف
كتاب عن الحصان العربي

الباب الأول
الحصان العربي المعاصر

كلّما كانت سلالة الحصان أقدم كانت الصفات المخصصة لها مترسخة فيها أكثر، وكانت إزالتها صعبة بخلطها مع دم آخر. وهذا الاستقرار يقوى بشكل ملحوظ إذا استمرت معيشة الحصان المستقلة في ظروف الحياة الثابتة التي أهمها المناخ والتربة ونمط التربية.

هذا هو مفهوم الأصالة لدى الحصان.

إذا كان النسل من caeteris paribus وكان الأول منها أصيلاً والثاني هجينًا فستكون الوراثة من الأول أكثر من الثاني. عند تكثير سلالات الحيوانات من الأصالة المعروفة عندئذ يمكن التأكد سلفًا أن الأنسال ستكون مشابهة لوالديها. تلك هي القاعدة العامة. وإذا كانت أصالة الوالدين مجهولة فلا أحد يضمن أن الأنسال ستورث الصفات الجيدة، لأن هذه الصفات قد تكون شخصية وليس الخاصة بالسلالة؛ ومن المحتمل أن لا تنتقل هذه الصفات إلى الأنسال الأولى وستزول تمامًا في الأجيال القادمة.

وهكذا فإن الأصالة هامة جدًا في تربية الحيوان لكي تنتقل الخصال الجيدة إلى الأجيال القادمة. وبفضل هذا تظهر إمكانية تحسين كل أنواع الحيوانات بسرعة، وذلك بطريقة حقن دم الأجناس الأصيلة. ومع ذلك فمن المعروف أن أجناس الحيوانات الجيدة التي جودتها شخصية إذا تعرضت للطلبات الكبيرة لا تستطيع أن تتحسن، فمثلاً تحسين مواشي اللبن التي لا يطلب منها شيء سوى الحليب أسهل بكثير من تحسين أجناس الخيول التي يجب أن تحمل عدة صفات في آن واحد.

تتعقد تربية الخيول جداً إذا كان هدفها واسعًا وغير محدود. وإذا كان هدف التحسين هو تطوير صفة معينة مثل رشاقة الجري، يصبح منال النتيجة أسهل نسبيًا. وإذا سعى مربي الخيل إلى تحسين كل الصفات فسيجد نفسه في وضع حرج جداً. ولهذا السبب يكون عمل عزبة تربية الخيل الحكومية شاقًا، فعند وجود الأجناس الكثيرة في الدولة مع تنوع طلبات السكان والدولة نفسها، يصعب التوقف على نظام الدعم والتشجيع فقط. وإذا ألغيت بعض الطلبات غير المتفقة مع طلبات الأكثرية وألغيت الأجناس التي يحتاج إليها الأقلية لأهدافهم الخاصة، فعندئذ سيكون العمل أسهل بشكل ملحوظ. كل الحكومات تحتاج إلى قوة النقل بالعربات وتستخدم لهذا الهدف نوعين أو ثلاثة أنواع من خيول الطقم، كما تحتاج إلى خيول السباق للخيالة. هذه هي الطلبات الأساسية، أما غيرها فثانوية.

من أجل إنتاج الأنواع المطلوبة ودعمها وتطويرها، لا بد من وجود نماذج أعلى من المستوى المتوسط وهي الخيول من خيرة الأجناس من كل نوع، وبمعنى آخر لا بد من الخيول الأصيلة. ومن أجل تطوير خيول السرج التي تهمنا كثيراً، لا بد من الأجناس الأصلية التي تحمل في ذاتها (ليس في بعض النماذج منها بل في السلالة كلها) كل الخصال التي لا غنى عنها لتطوير الخيول المحتاجة إلى تحسين.

من بين كل الخيول لا تتوافر الأصالة إلا في الخيول العربية، لذا فهي تتفوق على كل الأجناس بمقدرتها على إنجاب الأنسال، ونقل خصالها إليها وتطوير الأجناس الأخرى. في مثل هذه الحالة يمكننا القول إن أصالة الحصان العربي لا تحتاج إلى براهين، لأنها مجربة بالفعل عندما حسّن الدم العربي عشرات من الأجناس المختلفة. ومع ذلك فإن البحث عن أصالة الحصان العربي يحتاج إلى الدقة والانتباه، لأنه يوجد شك في أصالة بعض ممثليه العصريين في البلاد العربية.

يوجد عند العرب العديد من الأساطير عن ظهور حصانهم العربي، وأشهرها ما يأتي:

في زمن سليمان وهو ابن حفيد إسماعيل (بين ١٧٠٠ و ١٦٠٠ قبل الميلاد) كان أحد العرب مطاردًا من قبل عدوه فتوقف لفترة قصيرة ليريح فرسه. وقد ولدت الفرس في تلك الأثناء مهرًا أنثى، فترك الأعرابي المهر وراح يعدو من جديد. وعندما توقف بعد بضعة ساعات اندهش من مجيء هذه الفرس الصغيرة التي كانت تتبع أمها. وعندما عاد الأعرابي إلى بيته بالسلامة سلمها للعجوز لكي تعتني بها. فربتها العجوز ونالت تلك الفرس اسم «كحيلية العجوز» أي فرس كحيلاوية اللون أو السمراء التي ربتها العجوز، فأصبحت سلفًا لخمسة أجناس عربية رئيسية. وسنشير فيما بعد إلى تصنيف أجناس الخيول العربية.

طبعًا هذه الأسطورة لوحدها لا قيمة لها، ولكن وجود أجناس الخيول القيّمة في زمن تلك الأسطورة مؤكدة بالمعلومات التاريخية. ويقول التاريخ العربي إن ربيا وهو سليل إسماعيل في الجيل الثالث عشر عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد (أي في زمن داود) لُقب بالفرّاس أي صاحب الخيول. ويفسر هذا اللقب بأنه استلم خيول والده نصار التي كانت تنتج منذ زمن سليمان المذكور أعلاه. كان عند ربيا الفراس حفيد اسمه عنزة وهو سلف القبيلة الكبيرة العنزة التي تملك أفضل خيول الجزيرة العربية حتى الآن.

يوجد في التاريخ العربي الكثير من التعليمات عن قيمة الخيول عند العرب القدماء. قبل النبي محمد لم يلعب العرب دورًا هامًا بين الشعوب، وتتكون مدوناتهم التاريخية من جداول النسب وأصل بعض القبائل، والحروب التي حدثت بينها وغيرها من الأحداث الطفيفة قليلة الأهمية. ومن جهة أخرى يشدد المدوّن (بسبب عدم وجود الوقائع الكبيرة) بالتفصيل على الأشياء الطفيفة التي تمنحنا

إمكانية تصور نمط حياة السكان في تلك الأيام وعاداتهم وعقائدهم. وهي تبين إلى درجة كبيرة ثبات حياة القبائل العربية المتنقلة خلال آلاف السنين من وجودها، وكم كانت الحروب كثيرة بينها وكم كان العرب يقيمون خيولهم التي تنفعهم للحروب. وعلى سبيل المثال الحرب بين عَبْسٍ وذُبيان (؟) التي استمرت أربعين سنة ونشبت بسبب المجادلة في سباق بين حصانين. حدث هذا في القرن الأول أو الثاني الميلادي.

كان نمط حياة العرب يعود كالعادة إلى ظروف البيئة التي تختلف كثيراً عن البلدان الأخرى. نستطيع القول إنّ الجزيرة العربية هي عبارة عن صحراء قاحلة قليلة المياه، ما عدا بعض الواحات (أي مناطق فيها كمية كافية من المياه لسقاية البساتين والحقول). والحضر لا يستطيعون العيش إلا قرب هذه الواحات أما باقي الأرض فلا يمكن أن تمارس عليها إلا الحياة المتنقلة. ومن جراء ذلك فإن الحضر أقل عدداً من البدو وليس هذا فحسب، بل يتبعون للبدو عدا الاستثناءات القليلة منهم، ولم تلعب في تاريخ الجزيرة العربية إلا دوراً ثانويًا. وفي القبائل المتنقلة لا يمكن أن تحدث تغيرات كبيرة في الأخلاق والعادات والقوانين نظراً لظروف الحياة. ولذلك فإن علاقاتهم تجاه خيولهم والتعصب القبلي موروثة من أجدادهم دون شك. يعتز العربي المتنقل بأصله، وأكثر شيء يعتز به في الدنيا تبعيته لأقدم الشعوب، ولا يقل عن ذلك اعتزازه بأصل حصانه، ويعتقد أنه عطاء من الله كالإحسان الخاص له. إنه يسمي نفسه بدويًا، والبدوي هو الإنسان الذي يختلف عن الحضر كالفلاح. كما أنه يسمي جواده بالحصان أو الفرس، أما الخيول من الأجناس الأخرى فيسميها بالكديش. كما أنه يمنع فرسه من الاقتراب من حصان من جنس آخر وإلا فسيكون ذلك إثمًا وشناعة. ومع ذلك علينا الأخذ بعين الاعتبار أنه في الجزيرة العربية كان وما زال جنس واحد من الخيول يستخدم للأغراض الحربية فقط، فالتنقل يتم على

الإبل التي تستخدم للعمل أيضًا. نستنتج من ذلك أن الخيول التي كانت تربى خلال مئات السنين بل آلاف السنين لهدف واحد أنجبت سلالات لا تتغير خصالها الداخلية عبر الأجيال. ولهذه الأسباب لا يمكن أن يكون في الجزيرة العربية عدد كبير من الخيول، فلا يوجد لا قطعان منها ولا عزب كالتي في أوربا. لا تجد عند البدوي الغني أكثر من ١٥-٢٠ حصانًا، وعند القسم الأكبر دون العشرة، والأكثرية لا يملكون سوى حصان واحد أو حصانين. وفي بعض الحالات يملك عدة أشخاص فرسًا واحدة في آن واحد يتوزعون نتاجها كل واحد منهم مرّة. ومن جهة أخرى لا يمكن أن تمارس تربية الخيول في كل أرجاء الجزيرة العربية. فالجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية جنوب النجد كله صحراوي وتسمى هذه الصحراء بالربع الخالي. أما النجد فهو الثلث الأوسط الجبلي من شبه الجزيرة العربية (مع جبل الشمر)، والظروف المحلية فيه غير ملائمة لتربية الخيل إلا قليلاً. وكان هذا هو سبب انتقال البدو من قبيلة الشمر إلى الشمال، حيث طردهم البدو من قبيلة العنزة إلى الرافدين. قبيلة العنزة أكبر وأقدم قبيلة في كل الجزيرة العربية، وتترحل في كل الصحراء التي يحدها من الشمال نهر الفرات، ومن الشرق العراق والخليج العربي، ومن الجنوب جبل الشمر، ومن الغرب فلسطين وسوريا وسلسلة جبال لبنان الشرقية. وهذه المناطق قليلة الواحات بالواحات، وأكثرها صغيرة ما عدا الأكبر منها كواحة الجوف وتدمر (بالميرا القديمة).

المناظر الطبيعية في هذه الصحراء (صحراء حماد) متنوعة جدًا، والمناطق الرملية فيها قليلة عدا قسمها الجنوبي المؤدي إلى جبل الشمر، توجد أراضٍ مغطاة بالرمل الزفزف. عمومًا هذه المنطقة هضبية وصخرية بعض الشيء، تتكون من سلاسل من الجبال المنخفضة، وفيها مناطق سهلية تمامًا تشبه السهوب في بلدنا خلف نهر الفولغا. التربة كلها رملية وحجرية وفي كثير من المناطق تغطي الأرض

الحجارة من الحجوم المختلفة. وتتغير مناظر الصحراء مع تغير فصول السنة، ففي بداية الربيع بعد فصل الأمطار تتغطى بعض مناطقها بالأعشاب. المياه قليلة جداً، وتوجد في بعض الأمكنة آبار يبعد بعضها عن بعض عشرات الفرستات ولكن أكثرها في معظم أيام السنة خالية من المياه. أما بعد الأمطار الغزيرة فتنصب المياه إلى الأماكن المنخفضة وتشكل بركًا كبيرة تستخدم لسقي الإبل والخيول. يسكن البدو في فصل الشتاء في الجزء الجنوبي من صحراء حماد، وفي الربيع ينتقلون إلى الجزء الشمالي منها.

تسكن على أطراف صحراء حماد قبائل بدوية غير منتمية للعنزة، وبعضها يعيش حياة شبه حضرية، فيعملون بالزراعة ولا يترحلون إلا ضمن حدود ضيقة. لا يمكن شراء الخيول من هذه القبائل بسبب عدم التأكد من أصالتها. ثلث الخيول إذا لم نقل نصفها من التي تشترى من هؤلاء شبه الفلاحين تسمى ببني الحصان، أي إنها هجين من الحصان الأصيل والحجور الهجينة. وتوجد الخيول الأصيلة عند البدو من العنزة والشمر دون شك، وتوجد في وسط الجزيرة العربية ولكنها قليلة جدًا، لذلك يطلب العرب في تلك المنطقة المساعدة من العنزة لتجديد أصالة خيولهم.

ينقسم البدو من العنزة إلى عدد كبير من القبائل التي تتفرع بدورها إلى فروع مختلفة. والخيول موجودة عندهم جميعًا، ولكن تربية الحيوان عند بعضها متطورة أكثر من غيرها. فمثلاً في القبيلة الكبيرة الروالة نقص عدد الخيول خلال العشرين السنة الأخيرة بشكل ملحوظ؛ وأكبر عدد الخيول في قبيلة السباع، كما أنها كبيرة العدد في الفدعان وولد علي. قبيلة السباع من أبرز القبائل وأكثرها إبلاً الجمال، وهي تتفرع إلى سبعة فروع وتلك هي أسماؤها: القموصة، الرسالين، المسحة، العبادات، العواجة، الدوام، العمارات. وتتمتع قبيلة القموصة بالنفوذ الأعظم.

تنقسم قبيلة الفدعان إلى أربعة فروع: الخريسة، العجاجرة، المحد (؟)، الشميلات. وتنقسم قبيلة ولد علي إلى قسمين ولكل قسم شيخها المستقل.

لا يوجد عند البدو سلاسل النسب المسجلة للخيل، وتحسب السلالات عن طريق الحجور وليس عن طريق الأحصنة أي أن المهر دائمًا ينتمي إلى سلالة أمه وليس لسلالة أبيه. والسبب في ذلك أنّ أي بدوي لا يسمح لحصان غير أصيل بالاقتراب من فرسه، وما دامت أصالة الأم مشهود عليها فلا يوجد أي شك في أصالة النسل. في بعض الأحيان تحضر إلى أحصنة هذه القبائل إناث الخيول غير الأصيلة التابعة للسكان المجاورين من الحضر. والبدو بعادتهم يركبون على الأفراس فقط، ولا يباع منها إلا القليل، أما الأمهار الفتية فتباع للبدوي بأعداد كبيرة ولا يترك البدو لأنفسهم إلا ما يصلح لأن يكون فحلاً. تعدّ الحجور ملكًا خاصًا للبدوي، أما الجزء الأكبر من الفحول فتكون ملك القبيلة كلها.

والآن سنتحدث بإيجاز عن الأجناس التي تنتمي إليها الخيول العربية وعن تصنيف هذه الأجناس.

يكون لون جلد الخيول العربية أكثر دكنة من خيول الأجناس الأخرى. وفي بعض النماذج توجد خطوط محيطية حول فتحات الأنف والعيون حيث يكون الشعر قليلاً، وهذا ما يلفت الانتباه مباشرة. سميت هذه الصبغة الداكنة بالكحيلان (والمؤنث كحيلية) أي مغطى «بالأنتيمون» (أو الكحل). في الماضي القديم كان كل حصان عربي يسمى بالكحيلان على اختلاف جنسه، وفي بعض الأحيان لا يزال هكذا. وكانت تعطى الألقاب للخيول من أسماء أصحابها مثل كحيلان النواق ونواق اسم بدوي، أو من صفاتها الخاصة مثل كحيلان الرأس الفضاوي. وهكذا أضيفت إلى التسمية الأولى «كحيلان» تسمية فروعه. مع مرور الزمن تفرعت من الكحيلان الأقسام الأولى ونالت تسمياتها الخاصة. وبما أن أسماء الفروع الأولى

أصبحت معروفة لدى الجميع، أخرجت الأسماء الجديدة ليسموا بها الفروع المختلفة بالاسمين الأخيرين، فمثلاً «الصقلاوي» كان يسمى سابقًا بالكحيلان الصقلاوي، وعندما تكاثرت الخيول من هذا النوع المشهور وظهرت منها فروع جديدة مثل كحيلان الصقلاوي الجدران وكحيلان الصقلاوي العبيران وغيرها، فلم تعد هناك حاجة للتعبير عن انتمائها إلى الكحيلان فصاروا يسمونه فقط بالصقلاوي الجدران والصقلاوي العبيران إلخ . . .

يفترض أن الأجناس الأولى كان عددها خمسة، وإذا كان الحصان ينتمي إلى «الخمسة» يعني هذا خمسة أجناس قيمة تقدر كثيرًا في الجزيرة العربية حتى الآن، لكن البدو لا يتفقون في آرائهم في الأجناس التي تنتمي إلى الخمسة. من المؤكد أن الخمسة تضم كل فروع الكحيلان ثم الصقلاوي ثم العبيران، ولكن الآراء تختلف في الجنسين الباقيين اللذين يأخذان المرتبتين الأخيرتين من الخمسة، ربما حدبان وحمداني.

على أية حال لا داعي لهذا الاشتغال بالخيول المنتمية إلى الخمسة، لأنه يوجد الكثير من الأجناس غير المنتمية إليها، ومع ذلك تقدر عاليًا، وهي ليست أسوأ من الخيول التابعة للأجناس الخمسة الرئيسية. من المحتمل أن كل هذه الأجناس أصلها من الخمسة.

سأعدد بعض تفرعات الأجناس البارزة لدى الخيول العربية: من سلالة الكحيلان يأخذ المرتبة الأولى الكحيلان العجوز، ويظهر أنها أقدم سلالة، وبعده كحيلان أبو الجنب وكحيلان عرقب وكحيلان نواق وكحيلان تمري وكحيلان القروش وكحيلان الرأس الفضاوي[1].

(١) يؤكد بعضهم أنها كلها متفرعة من كحيلان العجوز.

عدد الكحيلانيين أكثر من الأجناس الأخرى، وعدد فروعها لا يقل عن ٥٠ أو ٦٠ فرعًا.

سلالة الصقلاوي قليلة الفروع، ويؤكد البعض أن عددها ثلاثة فقط وهي: صقلاوي جدران (أكثرها قيمة) وصقلاوي عبيران وصقلاوي العبد. ومن أشهر تفرعات صقلاوي جدران هي ابن الندري، وهذه التسمية نسبة إلى العشيرة الموجودة حتى الآن في قبيلة القموصة (السباع العنزية) التي تحمل الاسم نفسه.

وسلالة عبيان أيضًا قليلة الفروع، أشهرها عبيان الشرك وفيها تفرع يسمى بأبي جريس.

تنقسم سلالة حدبان كما يظهر إلى ثلاثة فروع فقط وهي: حدبان عنزخي وحدبان الفرش وحدبان المشطب.

ومن سلالة حمداني لا أعرف سوى فرع واحد وهو حمداني سمري.

يوجد في سلالة الأعنق المشهورة كثيرة العدد فرعان رئيسان وهما: أعنق السلاجي وأعنق حدروج. أما أعنق ابن سبيل فمن أفضل التفرعات. ومن التفرعات الأخرى لا أعرف سوى أعنق لقرة (؟).

ثم تتبعها الأجناس التي لا تنقسم إلا لفرع واحد ونادرًا لفرعين أو ثلاثة، وينتمي إليها سعادان طوقان ودهمان أم عمر أو أبو عمر وجلفان الأطناب الفولاذية وسمحان القميع وطويسان العلقمي وريشان شرابي وعدنان خرسان وشعيمان السباع وقبايشان العمير وبدان الشب.

حسب معلوماتي لا توجد أجناس مؤكدة سوى الستة عشر المذكورة، أما الفروع والتفرعات فكثيرة ما عدا التي ذكرتها. عند شراء الخيول لا بد من التأكد ليس من سلالتها فحسب، ولكن في التفرعات التي تنتمي إليها أيضًا.

على الرغم من أن العرب يقدرون بعض الأجناس أكثر من غيرها[1] ويكون تقديرهم عادلاً في بعض الأحيان، لكن قلما تكون بينها الفروق التي تتصادف بين عزبنا المتشابهة. يحدد الانتماء من سلالة الأم، أما أصل الأب أو الجد أو أب الجد فلا يحسب لها حساب (بشرط أن تكون كلها أصيلة)، وهكذا تتكون سلالة الحصان نتيجة اختلاط الأجناس. عزب تربية الخيل الكبرى ليس لها وجود فلا مجال لإنتاج الطرازات المعينة على وجه التدقيق. تتشابه الآراء في الخيول وتربيتها في كل القبائل، ولا يوجد إلا القليل من العشائر التي تتمسك بفروع معينة من الأجناس، ومنها عشيرة ابن الندري (عند السباع من العنزة) يتكاثر فيها صقلاوي الجدران، ويتكاثر أعنق حدروج في عشيرة ابن سبيل، وتتكاثر في عشيرة أبو جريس أفضل الأنواع من عبيان الشرك.

ومن جهة أخرى لا توجد بين الخيول العربية أنواع معينة ليست من طراز واحد كما يظن الكثيرون. وأظن أن السبب في ذلك هو ترحل القبائل بعيداً بعضها عن بعض والحروب المستمرة بينها، فيضطر البدو إلى إرسال حجورهم إلى الفحول التي تقاربها في الجنس، ومع هذه العودة المستمرة إلى الدم نفسه (inbreeding) ينتج بعد جيلين أو ثلاثة أجيال نوع معين من الخيول يضيع مباشرة بعد تهجين الخيول مع الدماء الأخرى. وهكذا يمكن أن تنتج مؤقتًا عند القبائل المختلفة أنواع من الخيول ليس بينها أي شبه. ولكن حركة الخيول وخاصة إذا كانت محتمية تدل على أصالتها العربية الموحدة، مهما كانت الأنواع التي تنتمي إليها، لأن الحصان في سيره يصبح نشيطًا وكريمًا ويرفع ذيله، أما رأسه ورقبته فيعبّران عن فخر واعتزاز.

والآن سأشير إلى بعض مميزات الخيول العربية:

---

(١) وهي الفروع التي عددناها من الكحيلان وصقلاوي الجدران وعبيان الشرك.

١ – اللون: توجد خيول من كل الألوان عدا البلقاء منها والكميت الفاتح والسنجابي وغيرها. السوداء قليلة جدًا فأنا شخصيًا لم أر سوى فرس واحدة سوداء اللون، وحتى هذه كان سوادها مَشُوبًا. أما رمادية اللون فيوجد منها الكثير بالمقارنة مع الأجناس الأخرى، وأكثرها كميتة اللون بأنواعها، والمغراء ليست قليلة أيضًا.

٢ – الحجم: الحجم صغير: من نصف فيرشوك حتى ثلاثة فيرشوكات فوق الأرشينان، ووسطيًا فيرشوك واحد أو اثنين. الحجم الصغير هو نتيجة تغذية الخيول من علف المراعي مع الإضافات القليلة من الأنواع الأخرى من العلف عند عدم وجود العشب. كما أن كثرة الركوب على الحجور أيضًا يؤثر على حجمها، وهذا بسبب قلة أحصنة السباق. يربي البدو عددًا ضئيلاً من الفحول، وغالبًا ما يكون لفحل واحد، كما أخبروني، من ٦٠ إلى ٨٠ أنثى[(١)]. تكون الخيول العربية الفتية المتولدة في روسيا أكبر حجمًا، فمع اختيار دقيق للفحول والغذاء الملائم ليس من العجيب أن حجم الحصان في سنواته الأربعة من عمره يصبح من فيرشوك وثلاثة أرباع حتى ثلاثة فيرشوكات وربع وسطيًا في الجيل الأول بذاته. مع هذا أظن أن التزييد من حجم الحصان بطريقة غير طبيعية يضر سلالته التي يستطيع الحصان بها تنفيذ واجباته جيدًا، فالخيول الصغيرة نسبيًا تحمل أثقالاً أفضل من الخيول الضخمة من الأجناس الأخرى.

تكون الحاجة إلى حصان كبير الحجم للأغراض الخاصة، فهو ينفع للخيالة الثقيلة التي هدفها الهجوم وتحتاج إلى قوة الاستمرار الكبيرة التي تحدث بفعل وزن

---

(١) كتب السيد Blunt في كتابه عن مئتين أنثى عند فحل واحد، ولكن يظهر أن هذا خطأ، وكان المقصود مئتين فئة.

الحصان الثقيل. كما أن الحجم الكبير ينفع للقران وخاصة الخيول التي خصصت لسحب الشحنات الثقيلة بطيئًا. وهذا لأن وزن الحصان يتناسب طردًا مع حجمه، والحصان الخفيف الوزن غير قادر على نقل الشحن. ولكن لا توجد أية علاقة بين وزن الحصان وقوته. وبما أن حصان السباق يحتاج إلى القوة وليس إلى الوزن فلا حاجة في أن يكون كبير الحجم. من المعلوم أننا نتحدَّث عن الاختلافات في الحجوم ضمن حدود معينة أي في حدود فيرشوكين أو أربعة أو خمسة فيرشوكات، ثم إن حصان السباق مخصص للحركة السريعة وليس للبطيئة مع ثقل على متنه لا يزيد عن ٨-٩ أبواد. يمكننا التأكد من أن حصانًا ارتفاعه ٥ فيرشوكات أسهل عليه حمل ٨ أو ٩ أبواد على متنه بالمقارنة مع حصان ارتفاعه فيرشوكان. وفي السير السريع لا يتعب الحصان الأصغر حجمًا بل الذي يصعب عليه السير السريع بطبيعته. نضيف إلى ذلك أن حصان السباق يجب أن يستخدم ليس للأهداف الرياضية فحسب كالجري على الطرقات المرصوفة أو الوثب على الأرض الممهدة المكسوة بالعشب، ولكن يجب أن يكون قادرًا على تنفيذ أي عمل سريع في الظروف المختلفة كالتربة السوداء اللزجة والرمال العميقة والمستنقعات وغيرها. ومن أجل هذا يجب أن يكون الحصان قويًا وحثيثًا وخفيف الوزن في آن واحد. وسيؤيدني في ذلك الصيادون الذين يملكون خيول الصيد الإنكليزية الغالية الثمن، ويذهبون إلى الصيد على الخيول القوزاقية ليس من أجل الراحة ولكن لأن هذه الخيول على الرغم من بلادتها قادرة على تحمل العمل على الأرض الوعرة والسير في الأماكن الموحلة.

لا تنفع لخيالتنا الخيول الكيرغيزية أو الكاباردينية التي ارتفاعها نصف فيرشوك، كما لا تنفع لذلك الخيول ٤ فيرشوكات غير القادرة على الحركة السريعة بطبيعتها وخاصة الجري. تحتاج الخيالة إلى خيول متوسطة الحجم تتمتع برشاقة كبيرة بالمقارنة مع خيولنا السهبية ولا تقل عنها قوة وصبرًا. هكذا هو الحصان العربي

القادر على حمل فرساننا الذي ارتفاعه من فيرشوك ونصف إلى فيرشوكين ونصف. إلا أنه قد لا يلبي طلبات المحتاجين إلى حصان كبير الحجم لأغراضهم الخاصة.

٣ - الطول: يبدو من الوهلة الأولى أن الحصان العربي ليس طويلاً بالمقارنة مع الحصان الإنكليزي، ولكن في الحقيقة إذا وقف الحصان العربي على ساقيه الخلفيتين فسيشغل حيزاً كبيراً. والسبب في ذلك بسيط، فهيئة الحصان العربي منتظمة ومتماثلة أكثر من حصان السباق الإنكليزي. وطول الحصان الإنكليزي أنتج اصطناعيًا بهدف تطوير رشاقته في العدو خلال أجيال كثيرة. والعرب مع كل حاجتهم لرشاقة الحصان لم يسعوا أبدًا لتطوير هذه الصفة اصطناعيًا، وهم يهتمون بالدرجة الأولى بخفّة الخيول وحركتها ومهارتها، فيدربونها على هذا منذ صغر سنها. كما أن الحصان العربي عندما يتدرب يقوم بالانعطافات السريعة أثناء القماص المتوسط، وفي بعض الأحيان يتنكص بسرعة ثم ينطلق من جديد، ولكن الخيول عند عدم اللزوم قلما تجري بأقصى سرعتها على خط مستقيم، وإذا حدث فعلى مسافات قصيرة فقط. والجري المعتاد هو القماص المتوسط والخبب البطيء لا يركب به. وإذا سار الحصان العربي بخطوات بطيئة فعندئذ لا يسرعه أحد بل يتركونه حرًا. هكذا تربت مئات الأجيال، ومن الطبيعي أن الطول الكبير لا يحدث مع هذا النوع من التربية لأنه يتطور مع الجري السريع.

٤ - الهيكل: يمتاز الحصان العربي بتناسق شكله وتناسب أطرافه، وهذا هو ما يميزه، لأنه يضم كل صفاته الحسنة والبارزة بما في ذلك الجمال. وعند النظرة الدقيقة إلى حسنات هيكله يمكن أن تظهر بعض سيئاته.

متون الخيول العربية ممتازة بشكل عام، وخيول السرج قليلة العدد، ولكن ذات المتون الطويلة كثيرة. ومع ذلك فهذا النقص غير منتشر بل العكس صحيح فطول

المتن عند الحصان العربي متناسب مع طول هيكله أكثر من الحصان الإنكليزي. العين المتعودة على رؤية كفل الحصان الإنكليزي الطويل أي على المسافة الكبيرة بين العصعص والذيل وطول عضلات الكفل، ستجد كفل الحصان العربي قصيراً، وهو فعلاً أقصر. والسبب هو نفسه الذي ذكرته سابقًا عن طول الحصان العربي. ونادراً ما تجد الحصان العربي بكفل منخفض، بل بالعكس، المتن والكفل غالبًا ما يكونان على استقامة واحدة، وهذه ميزة أكثر الخيول العربية، وتلفت الانتباه في أثناء سير الحصان لأن ذيله يكون مرتفعًا. إذا كان المتن جيداً والعضلات فوق الكلاوي قوية (قاعدة عامة) تكون العصاعيص عالية، ويبدو أن التواء العمود الفقري غير طبيعي ولكن العين تتعود ذلك بسرعة، وخاصة أن هذا لا يسبب ضرراً للحصان كما علمتني تجاربي الشخصية.

عرض الخيول العربية متوسط، والصدر قوي جداً وتكاد لا توجد خيول عربية بصدر ضيق. الأعضاء ممتازة بميلها المتناسق ومغطاة بالعضلات. عمق حزام السرج كما هو يجب أن يكون والأضلاع منحدرة. وكثيراً ما توجد بين عظام الفخذ عضلات ضعيفة. والمؤخرة عمومًا أقل عرضًا من المقدمة.

٥ - الأرجل: نادراً ما تجد الخيول العربية دون زوائد عظمية على ساقيها الأماميتين الممتازتين[١]، ولكنها منتظمة وقوية وحوافرها نموذجية. أما نواقص الساقين الأماميتين فهي: الركب الصغيرة وضيق الساق تحت الركبة. أنا شخصيًا لا أرى هذا نقصًا، فأولاً عظام الخيول العربية متينة جداً ولذا فهي تعوض عن هذا النقص بكيفيتها الجيدة وزيادة، ثم إن حجم الأطناب لا تهم كما تهمنا متانتها ورطوبتها كما يسمونها. أكثر الخيول العربية نحيلة الركب وصغيرة الأطناب ومع ذلك فهي قوية وجافة. لقد علمتني التجارب أنّ مثل هذه الأرجل قادرة على تنفيذ

(١) وهذا ما عدا التسمكات والنوامي العظيمة من تأثير الجروح والكدمات التي تتصادف كثيراً وتحدث بسبب الحجارة الحادة على الأرض وطريقة ترويض البدو لخيولهم الفتية.

كلّ الوظائف[1] . أما الأرساغ فطولها مختلف، ولكني لم ألحظ منها الضعيفة أو الطويلة فوق الحد. تكثر النواقص على الساقين الخلفيتين بالمقارنة مع الأماميتين، ولكن مفصل الوثب ممتاز. وصلها نقي والجروح النافذة نادرة الحدوث. تكثر الخيول التي لها كفل البقر، وسبب ذلك ما ذكرناه سابقًا عن طريقة ترويض البدو خيولهم الفتية، أي بالنكص المستمر أثناء القماص والانعطافات الشديدة أثناء السرعة الكبيرة.

٦ - الرأس والرقبة: يبدأ العرب فحص خيولهم من الرأس، وشكله يلعب دورًا كبيرًا، وطلباتهم في هذا المجال محددة. يجب أن يكون حجم الرأس متناسبًا مع حجم الجسم، كما يجب أن تكون المسافة بين الأذنين صغيرة، أما الأذنان فيجب أن تكونا طويلتين مثل أذني الغزلان منتظمتي الشكل وحروكة، ويجب أن تكون أطرافهما مدببة قدر الإمكان. أما الجبين فيجب أن يكون ناتئًا متعرضًا بالتدريج باتجاه العينين، ويجب أن تكون العينان متباعدتين كبيرتين صافيتين ذكيتين، ومن المنظر الجانبي يجب أن تكون العظمة فوق العين بارزة عن الخط العام. ويجب أن تكون الخدود قوية جدًا ويفضل أن يكون الرأس كله إسفيني الشكل أي متضيقًا من الأعلى إلى الأسفل. لا يمكن أن يكون الأنف محدبًا بل بالعكس يجب أن تكون قصبة الأنف متجوفة ظاهرًا. عندما يستريح الحصان يجب أن تكون فتحات أنفه على شكل شقوق ضيقة وطويلة، وعندما يتحرك عندئذ يجب أن تكون عريضة على قدر الإمكان. كما يجب أن يكون الرأس رفيعًا دون زوائد لحمية عليه.

في الحقيقة نادرًا ما يرضى العرب برؤوس خيولهم. الرؤوس نحيفة بشكل عام كالخيول نفسها ومتناسقة مع الجسد وجميلة. العيون ذكية ومعبرة، ونتوء الجبين

---

(١) لم ألحظ عند الخيول العربية ظاهرة فكش الأطناب، والسيد Blunt لم يلحظ ذلك أيضًا خلال رحلته.

التي لا توجد عند الخيول من الأجناس الأخرى إلا نادراً، توجد في الفصيلة العربية بكثرة. فتحات الأنف كما هي مطلوبة في حركة الحصان. لم أر قط خيولاً محدبة الأنف بل رأيت من التي كان خط أنفها مستقيمًا أو مقعراً.

ينتبه العرب كثيراً على المسافة بين الخدين وهم محقون في هذا المجال، فإذا كان الخدان متقاربين تكون الحنجرة ضيقة فيصعب الشهيق والزفير. ورقبات الخيول العربية طويلة إلى حد ما، وعليها ثنيات جميلة، كما توجد رقبات قصيرة ومستقيمة. وثنيات الرقبات عند الأحصنة أكثر من الحجور دون الاستدارة الزائدة عن اللزوم.

٧ - بعض المميزات الأخرى والمنظر العام: وصفنا ما يخص لون الجلد سابقًا. الجلد رقيق جداً والشعر خفيف وناعم كالحرير. والشعر على الأرجل ظاهر. وفي الشتاء لا يختلف الشعر عن الصيف إلا قليلاً. الذيل عالي الموضع وفي السير يتحرك بسرعة. هذه هي مميزات الخيول العربية. كما توجد خيول ترفع ذيلها عاليًا جداً بشكل عمودي تقريبًا. الخيول التي ترفع ذيلها عاليًا لا يمكن أن تكون عربية أصيلة. شعر الذيل كالحرير الصافي.

لا أريد وصف المنظر العام للحصان العربي وجماله، سأقول فقط إنها كلها وخاصة الحجور منها تتغير كثيراً في أثناء في انتقالها من وضعية الوقوف إلى الحركة. البدو لا يعرفون كيف يورون خيولهم ولا يحاولون ذلك، فإذا جاء بدوي راكبًا فرسه أو ساحبًا إيّاها من أرسانها، فلا يوقفها ليوريها بل يتركها لحريتها، والفرس غالبًا ما تكون منهكة ونحيلة فتقف بكسل ونعاس وعيونها نصف مغلقة فلا تتحرك من مكانها. ولكن إذا امتطاها أحد عندئذ تنشط الفرس وترفع ذيلها فتتغير بشكل غير متوقع. لا أستطيع وصف ذلك فهذا يحتاج إلى الرؤية بأم العينين. الحصان العربي لا يتفق مع تصورات الناس عنه، فهيكله غير مستدير ورقبته لا

تلتوي مثل القوس. من الصعب معرفة سر جماله، ربما في تماثل أطرافه وتناسقها والأهم من ذلك كرامته التي تدل على أصله قديم الأزل.

٨ - الطبع: الخيول العربية ذكية وخلوقة مثل أصحابها، فهي لا تقبل المعاملة الصارمة من الولادة، وتعيش بين الناس وتتعود على ركابها في السنة الأولى من عمرها. لا أحد يركب على الأمهار التي عمرها سنة واحدة إلا الصبية الصغار. يركب البدو بعادتهم من غير الشكائم ويبدلون اللجامات بالرسن الصوفي ومقود طويل. ويوجه الراكب حصانه من اليسار إلى اليمين بالزمام، ومن اليمين إلى اليسار باليد أو العصا. ولتوقيف الحصان ينبغي شد المقود قليلاً ورفع اليد اليمنى إلى الأعلى وإحداث صوت من الحنجرة مثل «حمس!» فيتوقف الحصان مباشرة حتى بعد العدو السريع. طيب أخلاق الخيول وثقتها بالإنسان تورث حبًا كبيرًا لها، وإضافة إلى ذلك إنها شجاعة وغير خوافة أبدًا. ولكن مع كل وداعتها فالكثير منها عصبي المزاج وحميّة، فيكون إفسادها سهلاً بالمعاملة الخشنة التي لا تقبلها. لم أصادف من بينها خيولاً كسولة فكلها نشيطة ويستمر نشاطها حتى بعد التعب الطويل. والنشاط أكثر الصفات قيمة عند الخيول العربية.

٩ - الحركة والقوة والصبر: لكي نستطيع تقدير الحصان العربي تقديرًا صحيحًا يجب أن يكون مجربًا في الفروسية برحلة طويلة إلى الصيد مثلاً. وبعد هذه التجربة سيحبه أي إنسان على نشاطه وذكائه وحركاته العجيبة وأرجله الأمينة وقوته وصبره.

تظهر في كل أنواع جري الحصان العربي الميزة التالية: الحصان لا يرفع ساقيه الأماميتين عاليًا أبدًا، وساقه لا تنثني كثيرًا سواء عند الركبة أو الرسغ، فيندفع إلى الأمام بنشاط وكأنه يريد أن يقف على رؤوس حوافره. هذه هي الحركة الأنيقة فتكشف عضلاته عن مرونتها.

خطوات الحصان العربي خفيفة وكبيرة، وساقاه الخلفيتان تتحركان بعيداً عن الأماميتين. ولكن خطوات الخيول المولودة في بلاد العرب ليست خفيفة، فالحصان يمشي بسهولة ولكن يحرك أرجله منخفضاً، ينظر من حواليه ويتنكص باستمرار. لا يعرف الحصان العربي الخبب ولكن الكثير منها تتعلمه بسرعة.

يجيد الحصان العربي القماص وجريه خفيف جداً وأنيق ومرن. ينبسط الحصان العربي أقل من الإنكليزي ولكن جريه أسرع منه، فيبدو أنه يستمتع بالجري وهو غير شاق عليه أبداً.

الحصان العربي رشيق، فما عدا حصان السباق الإنكليزي يتفوق الحصان العربي على خيول من الأجناس الأخرى كثيراً من ناحية رشاقته مهما كانت المسافات[1]. ولكن قيمة الحصان العربي الكبرى هي في قوته الرائعة في الجري، فجهاز تنفسه قوي جداً، وحتى الخيول غير المدربة لا تتنفس تنفساً ثقيلاً. ثم إن بنيته تساعده على الجري أكثر من خيول الأجناس الأخرى. لا يوجد حصان يستمتع الشخص بركوبه بالقماص أكثر من الحصان العربي، فالجلوس عليه مريح جداً كما أنه يقطع مسافات طويلة دون تعب، فقد رأينا بأم أعيننا كيف كانت الخيول العربية تقطع ٥٠-٦٠ فرستا دون قطرة ماء وتحت القيظ الشديد، وإذا سارت قماصاً وقطعت فرستا أو فرستاين فعندئذ تتغلب على حمل ركابها وتتنافس فيما بينها تقطع بذلك ١٠-١٢ فرستا بسهولة. ونضيف إلى ذلك أن الحجور كانت أكثرها تفلى والأرض مليئة بالحجارة الكبيرة. نحسب حساب أن البدو لا يدربون حجورهم على الهجوم. والحجور غالباً ما تكون منهكة وتغذيتها سيئة كما أنها

(١) الحصان العربي لا يتعثر في القماص أبداً فأمانة أرجله مذهلة، وأرض الجزيرة العربية مليئة بالحجارة ومحفرة بجحور السوالق. فمن العجيب أن الحصان لا يسقط فيها. يمكن الركوب على الحصان العربي بأمان كما يمكن النزول عليه من الجبال المنحدرة والصخرية بالجري السريع.

تفلى في أكثر الحالات ومع ذلك تتحمل السير السريع وتقطع المسافات الطويلة. فهل من اللازم أن نضيف إلى ذلك أنها غير شرهة الغذاء وتشرب قليلاً جداً أي مرة واحدة في النهار وتستطيع أن تستغني عن الماء يوماً كاملاً؟

نستنتج مما سبق أن الحصان العربي المعاصر موهوب بكل الصفات اللازمة للسباق وأن أصالته الأكيدة تنقل هذه الصفات إلى الأجناس الأخرى المحتاجة إلى تحسين. مع الأسف تضيع هذه الثروة هباءً بسبب التحمس إلى الخيول الإنكليزية الزائد عن الحد. الخيول الإنكليزية الكريمة بارزة طبعاً ولكن القول إنها الوحيدة الجيدة وغيرها رديء هذا أيضاً نوع من التطرف. وإذا أردنا الاعتراف بقيمة أصالة الخيول في تربية الحيوان فينبغي علينا التفكير في أصل الحصان الإنكليزي، ومن أين جاء هذا الجنس وما هو دمه؟ سوف نصف ذلك باختصار.

يمكننا تقسيم تاريخ ظهور حصان السباق الإنكليزي إلى ثلاث مراحل. تبدأ المرحلة الأولى منذ عهد الملك إيوان أي من بداية ظهور خيول السباق الخاصة، وتنتهي بالثورة الكرومفيلية عام ١٦٤٩م. منذ هذه المرحلة بدأ الاعتراف بقيمة الدم الشرقي وصلاحيتها لتحسين الخيول المحلية. كانت في تلك الأيام عزبة لتربية الخيل الملكية الخاصة التي ازدهرت في عهد الملك هنري الثامن وياكوب الأول، وكانت هذه العزبة مليئة بالخيول البربرية ولا غيرها. ثم تعلم من العزبة الملكية أصحاب العزب الأخرى. كانت الخيول البربرية (barbs) تحضر رأساً من شمال القارة الإفريقية ومن إسبانيا وإيطاليا حيث بدؤا بتربية الخيول الشرقية. كانت لهذه الخيول تسميتها العامة «barbs» أي خيول من أصل شرقي، ويظهر أن الخيول العربية الأصيلة كانت من بينها، كما كان من بينها الحصان المشهور Markhan Arabian.

تبدأ المرحلة الثانية بعد اعتلاء الملك كارل الثاني العرش عام ١٦٦٠م وفيها أحضر إلى إنكلترا Darley Arabian و Godolphin Arabian المشهورين. أصبح

هذان الحصانات عصراً كاملاً في تاريخ تربية الخيول في إنكلترا، ومنذ ذلك الحين بدأت المرحلة الثالثة التي استمرت حتى التوقف عن استيراد الخيول العربية المنتظم أي في منتصف القرن الثامن عشر تقريبًا. بعد ذلك امتنع الإنكليز عن استخدام الدم العربي، فنالت خيولهم المخصصة للسباق تسمية الأصيل وحفظت من الاختلاطات مع الأجناس الجانبية. معنى هذا أن وجود الحصان الإنكليزي بشكل مستقل استمر مائة وخمسون عامًا أي أكثر بقليل من وجود أحصنة نا الخابة.

نهبت الثورة الكرومفيلية البلاد بما في ذلك عزب تربية الخيل، ومعها ضاعت كتب التأصيل، وبعد أن ساد النظام أصبح إعادة إنشاء أجناس خيول الجري مستحيلاً، ولكن الخيول لم تضع كلها خلال أعوام الثورة فأصبحت مواد لازمة بين الأيدي مع الفرق أن هذه الخيول كانت دون تأصيل.

كانت تربية الخيول في المرحلة الثانية مثل المرحلة الأولى ولكنها أكثر نشاطًا وعددًا. الحركة الثورية لم تنته وتجدد استيراد الخيول الشرقية. ففي عهد كرومفيل استورد Place's White Turk أي الجواد التركي الأبيض الذي أخرجه Place وهو صاحب الإسطبل الكرومفيلي. يذكر اسم هذا الحصان كثيراً في تأصيلات الخيول المشهورة في القرن الثامن عشر. أعاد الملك كارل الثاني إنشاء عزبة تربية الخيل الملكية، ومن أجل كسب الخيول الشرقية أوفد إلى هناك شخصًا من حاشيته Sir John Fenwick. أحضر Frenwick الكثير من الخيول ولكن مع الأسف لم تكن تعرف الخيول التي أصلها عربي والخيول التي أصلها بربري وتركي. ولكن تأثيرها على خيول السباق المحلية كان كبيراً لدرجة أنها قدرت عاليًا، فلا شك أنها كانت من أصل قيم. نالت الحجور من هذه الكمية المستوردة تسمية Royal Mares أي الخيول الملكية، وكان لبعض منها أسماؤها الخاصة مثل Sedbury Royal Mares و D'Arley's Royal Mares وغيرها، والبعض منها مسمّاة في التأصيل بأسمائها

العامة. تتلاقى Royal Mares في كل التأصيلات دون استثناء خيول القرن الثامن عشر المشهورة، لذلك ينبغي علينا أن نشهد على أصلها الشرقي. ومن الفحول حفظت اسم الاثنين منها فقط وهما: Fenwick Grey Barb ، Dadsworth، ولا يزال دم الاثنين يجري في شرايين الخيول المعاصرة. في ذاك الحين جددت تربية الخيول في القطاع الخاص، وأسرع أصحاب العزب الخاصة إلى شراء الخيول الشرقية بتنافس فيما بينهم فاستوردت منها بين العامين ١٦٦٠م و ١٧٠٢م كمية هائلة، وبقي الكثير منها مجهولة، ولكن أسماء أكثرها حفظت لاستنتاج تأثيرها في تحسين خيول السباق. فمثلاً كل من يدرس أصل خيول السباق الإنكليزية يعرف أسماء أحصنة اللورد D'Arcy وهي Yellow Turk و Lister Turk و White Turk و Byerly Truk و Arabian Harbur Greyhound و Honeywood Arabian إلخ . . .

Arabian و Honeywood Arabian إلخ . . .

يمكننا أن نستنتج مما سبق كم نقصت أصالة الخيول المحلية في بداية القرن الثامن عشر، ورشاقتها لم ترض الإنكليز، لهذا استمر خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر تهجينها مع الدم العربي الأكثر أصالة. ما عدا Godolphin و Darley أحضرت الخيول العربية بكميات كبيرة، ففي عهد الملكة آنا (١٧٠٢-١٧١٤) استوردت ٩ خيول عربية و ٨ بربرية و ٦ تركية، أشهرها Bethell's Arabian و Leedes Arabian و Oglethorpc Arabian و Lowther Arabian و St Victor's Barb .

سجل في Stud-Book الإنكليزي أسماء ١٧٢ جواد من الأصل الشرقي، ومنها ٩٠ عربيًا و ٤٦ بربريًا و ٣٢ تركيًا و ٤ من أصل فارسي، كما سجل عدد كبير من إناث الخيول الشرقية بما في ذلك Royal Mares ، وأكثرها بربرية. كما يجب أن نضيف إلى ذلك أنه في Stud-Book لم تدخل كل الخيول المستوردة بل دخل فقط

أسلاف الخيول التي كانت موجودة عند بداية إنشاء Stud-Book التي كانت معلومة علم اليقين.

نلاحظ أن هذه اللمحة المختصرة توضح أن خيول السباق الإنكليزية مدينة بحياتها للخيول العربية، ليس على تأثيرها بطريق المصادفة، بل على تكريم أسلافها وتحسينها المثابر والمستمر بالدم العربي. ويثبت على هذا القول دراسة التأصيل لكل مشهورات القرن الثامن عشر، أي الخيول التي نسلت الأجناس المعاصرة دون اطراد، الاستعانة بالدم العربي. وعلى سبيل المثال سأتحدث عن بعض هذه الدراسات، أما الآن فسأتوقف على القضية التالية:

من بين كمية الخيول الشرقية المسجلة في Stud-Book يزيد عدد الخيول العربية على النصف بقليل، أما غيرها فلها أسماء بربرية (Barb) وتركية (Turks). ماذا تمثل بنفسها الخيول البربرية والتركية؟ أكبر عدد من الكتاب الإنكليز الذين يدافعون عن الدم الإنكليزي الأولي يستخدمون هذا التنوع في الأجناس كأقوى برهان مضاد لقيمة الدم العربي السائدة. لا أستطيع أن أوافقهم في ذلك.

إذا راجعنا قليلاً استيطان العرب في شمال إفريقيا على ساحل البحر المتوسط وطبيعة هذه البلدان في الوقت الحالي، فسوف نتأكد من تعريبها الكامل. فتونس وطرابلس والجزائر والمراكش سكن فيها العرب بعد فتحها مباشرة، كما أن السكان المحليون من البرابرة كان قد أبيد جزء منهم والجزء الآخر اختلط مع العرب الفاتحين، ففقدوا بذلك مميزاتهم بما في ذلك لغتهم. فاللغة العربية تسود في هذه البلدان مع العادات والأخلاق العربية كذلك. تنتج عند بعض القبائل المتنقلة والمستقلة خيول يعدّها السكان المحليون عربية أصيلة ولهذا يقيمونها كثيراً. كما أن نظرتهم تجاه الخيول مثل نظرة البدو العرب في الجزيرة العربية. لهذا أرى أنه من غير المحتمل أن يسمح العرب الفاتحون في شمال إفريقيا، وبعد ذلك ذرّيّاتهم بأن تختلط

خيولهم الأصيلة مع الأجناس الأخرى، بل العكس صحيح، والمنطق البسيط يطلب استنتاجًا معاكسًا. برأيي أن الخيول البربرية هي الخيول العربية نفسها، وربما مع اختلاط بسيط جدًا مع الأجناس الأخرى.

والآن سنتكلم عن Turks أي الخيول التركية. في أراضي الإمبراطورية العثمانية الفسيحة في القرنين السابع عشر والثامن عشر توجد إلى جانب الخيول العربية خيول من الأجناس الأخرى، ولكن لا يوجد منها أجناس ذات صفات مميزة حتى الآن أو على الأقل الأجناس المشهورة. في الحقيقة لا يوجد شيء اسمه الخيول التركية وما زال هكذا حتى الآن. ومع ذلك فالخيول بالتركية التي استوردتها إنكلترا في القرن الثامن عشر أثرت في تحسين خيول السباق الإنكليزية وكان تأثيرها لا يقل عن تأثير الخيول العربية. يكفي أن نتذكر Byerly Turk أبو جد المشهور Herod و Lister Turk الذي يذكر اسمه في تأصيل Eclipse ثلاثة مرات. وطبعًا هذه الخيول لا يمكن أن تكون غير أصيلة أو قليلة الأصالة لكونها وصلت إلى مستوى الخيول العربية الثابت، فهل يمكننا أن نشك في أصلها العربي؟ لقد سميت هذه الخيول بالتركية لأنها تربت ليس في الجزيرة العربية أو بلاد الشام بل تربت في القسطنطينية مثلاً أو في آسيا الصغرى أو تركيا الأوروبية. طبعًا الخيول العربية الأصيلة كانت في الإمبراطورية العثمانية كثيرة وقتذاك، أكثر بكثير من الآن، لأن تربية الخيول عند البدو كانت أوسع قبل إدخال الأسلحة النارية الحديثة، ولا عجب أن الخيول كانت تستوردها إنكلترا من الشرق كله وليس فقط من سوريا ومصر.

وهكذا ينبغي علينا الاعتراف بأن الخيول العربية هي ليست تلك الأسلاف لخيول السباق المعاصرة فقط التي تسمى Arabians بل إنّ Barbs و Turks تنضم إليها أيضًا.

والآن سنبحث في الجداول التأصيلية عن أصل الخيول البارزة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ونسبة الدم الشرقي والدم غير المعروف فيها. من بين خيول هذا العهد توجد ثلاثة أجناس كانت وما زالت تمتاز بنجاحها الكبير، وهي: Eclipse (1764) و Herod (1758) و Matchem (1748).

من خلال دراسة التأصيلات نستنتج ما يلي:

في Matchem ٨٢,٨٪ من الدم الشرقي، و ١٧,٢٪ من الدم غير المعروف.
في Herod ٦٨,٧٥٪ من الدم الشرقي، و ٣١,٢٥٪ من الدم غير المعروف.
في Elipse ٧٠,٩٪ من الدم الشرقي، و ٢٩,١٪ من الدم غير المعروف.
يعني هذا أنها كلها أصيلة بنسبة ٧٥٪.

نتساءل الآن ما هي الإناث التي كانت تستخدم معها، وهل حافظت أنسالها على نسبة الدم المذكورة؟

إذا درسنا تأصيل الفصيلة المشهورة. Waxy Penelope[(١)] فسوف نستنتج أشياء مفاجئة. فنسبة الدم العربي لم تبق في خيول بداية القرن التاسع عشر فحسب بل زادت بسبب أصالة الإناث بالنسبة للفحول. فمثلاً Herod سجل في كتاب التأصيل مرتين وفيه ٦٨,٧٥٪ من الدم الشرقي. أما الإناث التي استخدمت معه فكان في الواحدة ٧٨,٥٪ وفي الثانية ٩١٪ من الدم الشرقي. في Sportmistress وهي أم Pot'os ٨٠٪ من الدم الشرقي. وفي ابنة Snap التي أنجبت بعد سفادها مع Mathem مهراً Conductor فيها ٨٧,٥٪ من الدم الشرقي.

أنا شخصيًا لا أشك أن حصان السباق الإنكليزي فيه ٧٥٪ من الدم الشرقي على الأقل، وخاصة أن الكثير من أسلافه المجهولين شرقيو الأصل ولو أن أجناسهم

(١) Whalchone (1807), Web (1808), Wofule (1809), Wire (1811). Whisker- (1812).

غير معروفة. وبما أن الجزء من أسلافهم لم تكن خيولاً عربية أصيلة، فيمكننا القول إنّ مثل هذا الحصان الإنكليزي فيه من ٥٠ إلى ٧٥٪ من الدم الشرقي.

نستنتج مما سبق أن السعي لتحسين الخيول وخاصة إلى تطوير رشاقتها في السباق أرغم الإنكليز أن يتوقفوا بعد تجارب كثيرة مع الأجناس المختلفة على الجنس العربي لأنه الوحيد المحقق للهدف، وأنتجوا بفضله السلالة التي سميت بالأصيلة. تتمتع هذه السلالة بمزايا باهرة، ولكن لا نستطيع أن نعترف بأصالتها التامة على مستوى الحصان العربي.

ومع ذلك فالخيول المجنسة هي أفضل من الخيول الأصيلة في الوقت الحاضر. يبرر هذا بتفوق ممثلي هذه الأجناس على الخيول الأصيلة؟ لا أظن ذلك وسأحاول أن أبرر رأيي.

نعرف أن حصان السباق الإنكليزي مدين بكل شيء للحصان العربي الذي طور فيه صفة الخفة. وفي بادئ الأمر كان الهدف من ذلك هو التزييد من رشاقة الحصان السباقية مع الحفاظ على صبره وقوته دون ضياع جماله وكرامة شكله وحركته كما يبدو من أوصاف هذا الحصان، وصوره في القرن الماضي.

كانت في القرن الثامن عشر مسافة التجارب السباقية العادية أربعة أميال أي ست فرستات وكان الجري مع القفز فوق العوائق الخاصة. إنها الطريقة نفسها التي تستخدم عندنا للعدو الخاب. يكون الحصان فائزاً بالجائزة الأولى بعد الوثبة الأولى إذا بقي منافسوه خلف الأعلام، وإلا فهو مجبور على إعادة الجري، ويصل عدد هذه الإعادات إلى ثلاث. وفي بعض الأحوال كانت الخيول تضطر إلى قطع ٢٤ فرستا جريًا يوميًا. من المعلوم أن الخيول التي عمرها سنتان أو ثلاثة لم تكن تقبل في هذه المباريات، كما لم تقبل الخيول قليلة الصبر أو ضيقة التنفس أو ضعيفة الأرجل إلخ . . . إذاً الخيول الناجحة في المنافسات لم تكن خيولاً مبكرة النضج بطريقة اصطناعية بل كانت حيوانات جيدة الصحة وقوية البنية.

لكن هذا لم يدم طويلاً، فهذا الاتجاه الضيق الذي هدفه فقط تربية الرشاقة دون الانتباه إلى الصبر والقوة غيرت شكل الخيول الخارجي وصفاتها الداخلية رويدًا رويدًا. فالتربية السباقية المطولة الصالحة لتحديد مزايا الخيول النسبية والحفاظ على جنسها لم تكن لصالح تربية الخيل. لم تكن الخيول التي توافرت فيها الرشاقة وقوة الجري كثيرة العدد، فثمن الأنسال الباقية لم تعوض عن المصروفات كما، أن انتظار كهالة الخيول الفتية طويل، حتى تبلغ أربع سنوات من عمرها، وهذا طبعًا يؤدي إلى الخسائر. أصبحت مسافات السباق تختصر شيئًا فشيئًا فلم تعد هناك حاجة لانتظار الخيول الفتية حتى تكبر. بلغت هذه الاتجاهات المخبولة ذروتها في منتصف القرن التاسع عشر عندما ظهرت سباقات خيول عمرها سنة. ومع ذلك كانت اتجاهات عزب تربية الخيل تتغير أكثر فأكثر فأصبحوا لا يركزون في تربية الخيل على نسبة الجودة في الخيول المنتجة بل على سرعتها في الجري والسباق.

طبعًا هذا كله انعكس على صفات الخيول الداخلية والخارجية، فقد أصبحت الخيول أكثر رشاقة ولكن هذا النمط من التربية الوحيد الطرف أفقد الخيول تماسكها وانتظام شكلها الضروريين للقوة وخفة الحركة والمهارة. وبما أن الرشاقة تؤدي إلى زيادة الطول لذلك صارت الخيول طويلة الجسم عالية الأرجل خفيفة الشعر. أصبحت العضلات التي تتقلص أثناء العدو السريع قوية، ولكن ضاع التوازن بين أطراف الجسد التي تتوقف عليه خفة الحركة ومهارة الحصان العربي[١].

---

(١) في الجزيرة العربية لا توجد عوائق اصطناعية كالسياجات أو الخنادق، ومع ذلك فالحصان العربي المتوسط يتعلم على اجتياز العوائق أسهل وأفضل من الحصان الإنكليزي المتوسط، وتفسير هذا بسيط جدًا: الحصان الإنكليزي توازنه أسوأ ويصعب عليه فصل مقدمته عن الأرض ونقل مركز ثقله إلى الساقين الخلفيتين، أما الحصان العربي فينفصل بسهولة ولا يتعلق بالاستناد على ساقيه الأماميتين إلا قليلاً.

النضج الاصطناعي المبكر والعمل المجهد في سن المراهقة لدى الحصان لا بد أن تنعكس على صحته وحيويته عاجلاً أم آجلاً، والطلبات الضيقة تتطور على حساب صفاته الأخرى. كلّما تربى جنس الحصان لهدف واحد، توطدت فيه الصفات المعينة، ومع ذلك تزداد نواقصه التي هي نتيجة التربية الوحيدة الظرف. تزداد مزايا الحيوانات بثقافتها ولكن بشرط ألا تؤثر هذه الثقافة على طبيعتها.

وهذا ليس رأيي الشخصي، فهكذا يظن الكثيرون في إنكلترا حيث يعترف جميع أصحاب العزب الجديين بضرورة إجراء إصلاحات كبيرة في عملية السباق وحيث بدأت الدعوة لإعادة إنشاء المزايا المفقودة في خيولهم. فمثلاً Richard Jon-son المعروف الذي كان حكمًا في سباق الخيل أربعين سنة، سئل عن هذه القضية عام ١٨٩٢، فقال: «لقد تغيرت أشكال الخيول الخارجية كثيراً حسب ما أذكر، والخيول الراهنة ليست قوية بهذه الدرجة. إنها بلا ريب أكثر رشاقة من أسلافها وأكبر منها حجمًا وطولاً وأعلى منها بأرجلها (أي إن حجمها قد ازداد ليس بسبب كبر أطرافها بشكل منتظم بل من ارتفاع أرجلها). أنا أتذكر الحصانين Blackloc و Altisidor وهما نسلان قريبان للخيول العربية ويشبهانها كثيراً».

كما أضاف العقيد Meysey-Thompson أنه في الماضي كانت الخيول الأصيلة تتمتع بقدرتها الكبيرة على السباق ومع ذلك كانت أكثر تماسكًا وكانت أرجلها أقصر. الكل ينسبون هذا إلى سبب واحد وهو قرابتها إلى أسلافها العربية. يشتكي الكثيرون أن الخيول الراهنة لا تصلح مثل أسلافها لإنتاج وتحسين خيول الصيد التدريبي، فلماذا لا نستعين بالسلالات العربية من جديد؟[1].

---

(١) لا أستطيع ألا أسجل مقتطفة شيقة أخرجها Meysey-Thompson من كتاب Disserta-tion William Osmer on horses الذي نشر في عام ١٧٥٦. قال Osmer: «إذا سألني أحد ما هو سر جمال الحصان، سأقول في تناسب كل أطراف جسده؛ وما هو سر قوة الحصان: في التناسب نفسه. ولكن القوة والجمال لوحدها لا تكفي لحصان السباق فلا بد =

John Doyle فنجري مشهور في بداية القرن عاش حتى شاخ وهرم (بدأ بالفروسية عام ١٨٠٣ وكانت خيوله الأولى أحفاد Eclipse)، وقد أكد أن خيول زمنه كانت أقوى وأكثر صبراً (stouter and hardier) ولكن أقل رشاقة بلا ريب. ولكن من جهة أخرى كانت الخيول كبيرة الحجم ٤,٥ فيرشوك وإنه لم يلاحظ الفرق الكبير في حجمها. لقد تغير منظر الخيول الخارجي، فخيول الماضي كان حزام سرجها أعمق وأرجلها أقصر، فكانت تشبه خيول الصيد. والعقيد Westenra يؤيد رأيه.

كما قال Meysey Thompson إن أنسال الخيول العربية أصغر حجماً من أنسال الخيول الإنكليزية، ولكن يزداد حجمها في الجيل القادم من جديد مع زيادة الطاقة والتناسب التي لا غنى عنها. حدث أحد تجار الخيل في دبلن أنه منذ فترة أدخل إلى إيرلندا جواداً عربياً صغيراً، فظن هذا المضارب أنه سيفسد كل خيولهم، ولكن تبين بعدئذ أن أنساله حسنة وأن واحداً منها فاز بالجائزة الأولى في سباق الصيد في معرض دبلن، فتغير رأيه تجاه الخيول العربية.

من جهتي أضيف إلى ذلك أن تدهور الخيول الإنكليزية التدريجي لا يتمثل بفقدانها قوتها وصبرها التي قلّلت من عدد الخيول القادرة على المشاركة في المباريات الطويلة من ثلاث إلى أربع فرستات بلا صعوبة فقط، بل إن بعض التفرعات منها مصابة بربو الخيل الوراثي. وعلى الرغم من هيكلها القوي إلا أنها أصبحت عظامها أسوأ بكثير من الماضي، أما النوامي العظيمة والعيوب الأخرى

= من طوله أيضاً . . . نلاحظ كثيراً كيف تتغلب الخيل المختلفة على بعضها حسب المنطقة، فالخيول المتراصة والقصيرة تتغلب على الخيول الطويلة في المناطق الهضبية. والعكس صحيح أي إن الخيول الطويلة تتغلب على الخيول المتراصة في المضمارات الممهدة». Ergo، لا يمكن أن نحكم حتى على رشاقة الخيول النسبية لوحدها بغض النظر عن قوتها ومهارتها في السباق على دوائر السباق الممهدة.

فأصبحت ظاهرة في منتهى الوضوح. تفقد أطنابها قوتها باستمرار، وأخيراً الخيول منعمة جداً وتحتاج إلى عناية تامة.

لكن الإنكليز لا يستطيعون تغيير نظامهم بشكل جذري، لأنهم يعتمدون على الجمهور الذي يهتم بعملية السباق. والجمهور يهتم بالسباق على أنه نوع من اللهو فقط. وهذا يؤدي إلى إضرار بالخيول وإلى هزالها في السباق وعدم استطاعتها المشاركة إلا إذا كان النظام صحيحاً. بدأ الإنكليز في السنوات الأخيرة باستجلاب خيول من أوستراليا حيث الخيول أكثر صبراً وجهاز تنفسها أفضل. ولكن هذا حلّ مؤقت ملطف لا غير، أما التغيير الصحيح للأفضل فيحتاج إلى تغيير نظام السباق جذريًا وتجديد الأجناس بالاستعانة بالجنس العربي مرة ثانية.

لا يختلف نظام السباق الروسي عن الذي في أوروبا، فالمسافات نفسها تقريبًا وكذلك الوزن وعمر الفرس والجوائز إلخ . . . فلا شيء يصون الحصان الإنكليزي المربى في روسيا من التدهور الذي يتعرض له الحصان نفسه في إنكلترا. وعلى العكس، فالمناخ الرسمي القاسي يؤدي إلى البطء في نضج الحصان الفتي، أبطأ من أووربا الغربية بكثير، ولهذا تضر السباقات خيولنا الصغيرة السن أكثر من البلدان الأجنبية.

أتخيل أن التطوير الوحيد الطرف، الذي أدى إلى رشاقة الخيول الإنكليزية الزائدة عن الحد على حساب الصفات الأخرى يسود عندنا أيضًا. فمن وجهة نظر المصالح الحكومية لا يوجد أي فرق أجرت الفرس مسافة فرستاتين أو ثلاث بثوانٍ أسرع أم أبطأ، كما لا يوجد أي فرق أبلغ الجواد الخاب الروسي رشاقة الأحصنة الخابة الأمريكية أم لا. ولكن وجهة النظر نفسها تختلف إذا كانت الرشاقة كهذه تعترف بأحسن صفة تقيس صلاحية الفرس أو السلالة كاملة لتحسين الخيول الروسية. طبعًا الرشاقة لفرس السباق لا بد منها ولكنها لوحدها لا تكفي. وتفوق الحصان الإنكليزي على العربي يرتكز فقط على هذا.

لا أريد أن يكون كل ما كتبته عن عيوب خيول السباق الإنكليزية استنكارًا عامًا للسلالة كلها. بل بالعكس، فمع معرفتي التامة لها أنا أقيمها كثيراً وأعتقد أنه لو لا الحصان العربي لما كان هناك سبب للبحث عن الأجناس الأكثر صلاحية لتحسين خيولنا المخصصة للفروسية، وعلينا فقط استخدام كل الوسائل لمحو عيوبها أو التخفيف منها، لأنها للأسف، لا تزال تزداد فيها بسبب نضجها بطريقة اصطناعية ومضادة للطبيعة.

وما دامت الأجناس الأصيلة والفتية بين أيدينا، أي الأجناس المنتجة ليس في إنكلترا فحسب بل في غيرها من البلدان حيث توجد خيول ممتازة أخرى مثل حصاننا السباقي من الجنس الأورولفي والأورولوفي الراستوبتشيني الذي ضاع بلا أثر، فلا بد أن نستخدمها على قدر الإمكان.

القطاع الخاص عاجز عن ذلك وخاصة عزب تربية الخيل الخاصة التي عندنا، لأنها تنتظر ابتكاراً من الدولة دائمًا وتعتمد عليها. وإذا جدد المشتل العربي الحكومي المؤكد أصالة الخيول، فسيكون هذا عملاً عظيمًا في تربية الخيول في روسيا، كما سيكون عملاً سهلاً لا يحتاج إلى مصروفات كبيرة، فالمبلغ المصروف لاستجلاب الجواد المعروف غالتي مورا، يكفي لاستجلاب حوالي ٨٠ أنثى وعدداً لازمًا من الفحول التي تستخدم كأساس المشتل من الجزيرة العربية. وهكذا سيكون المشتل الحكومي قادرًا على تزويد أصحاب العزب الخاصة بالفحول العربية وإناثها، وليس هذا فقط، بل سيستطيع دعم ميزات الخيول العربية الذي يعجز عنه القطاع الخاص أيضًا. وذلك هو السبب: العزبة الخاصة التي لا تجدّد فيها الفحول (أقصد الأحصنة والأفراس) إلا بأنسالها، وتقاس صلاحية الخيول الفتية للعزبة بشكلها الخارجي فقط. والمشتل الحكومي الذي يملك موارد كثيرة لا ينبغي أن يقتصر دوره على انتظار كهولة الخيول الفتية فحسب (والخيول العربية تكهلها متأخر في سن الخامسة أو السادسة)، بل يستطيع أن يعطي عملاً جاداً فيدعم بذلك القوة والصبر وغيرها من الصفات الأساسية في الأجيال القادمة.

الباب الثاني

الفصل الأول
الحصان العربي وأهميته

تشترط أصالة الخيول بكل معنى هذه الكلمة أن يكون أصلها من الخيول البدائية دون أية تهجينات مع الأجناس الأخرى منذ بدايتها وحتى الآن. كما أن شرط الأصالة الضروري هو عيشة الخيول من الجنس المعين ضمن ظروف طبيعية واحدة حيث نشأت، كما أن التأكد من انتقال صفاتها الجيدة لأنسالها ضروري أيضًا.

وفي هذا المعنى تُعرف الخيول العربية بالأصيلة. أما الأجناس الأخرى فهي أصيلة ولكن ليست نقية الدم. أما الحصان العربي الذي بقي كما هو منذ زمن النبي محمد أي منذ ١٣٠٠ سنة، ولا حاجة للافتراض أنه ظهر في الجزيرة العربية من بلد آخر وتغير تحت تأثير التهجين مع الأجناس الأخرى. ويرى العرب أنّ أصالة الخيول ذات أهمية بالغة، وهذا هو أساس الثقة في أصالة الخيول العربية. والإيمان بأهمية الأصالة عند العرب وحبهم للخيول وصل إلى درجة التعصب.

لاتزال هذه العقائد موجودة منذ زمن النبي محمد. وما عدا ضمان الإيمان الشعبي بأصالة الخيول تؤكد ذلك الصفات الخاصة بالخيول العربية التي تنتقل إلى أنسالها كاملة. وهذه الصفات كرامة شكلها الخارجي والصبر. ودوام نقل صفاتها الحسنة إلى أنسالها كونت للخيول العربية شرفًا، وتطورت فيها بفضل أصالتها الوراثية عبر القرون وحفظها من التهجينات، ومن تأثير الظروف الطبيعية الصحراوية ونمط سكان الجزيرة العربية في تربيتها. واللوم الوحيدللحصان العربي

هو صغر حجمه، ولكنه لا يستحق هذا اللوم، لأن الخيول الكبيرة الحجم تتلاقى في الجزيرة العربية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فصغر حجمه هو شرط كيفيته الهامة التي تتوافر فيها كل صفات الخيول الجيدة. فهذا ما يشابه قطرة من الزيت الوردي التي عصرت من ألف وردة فينتشر شذاها لمسافات بعيدة ولفترات طويلة بما لا يتناسب وحجم هذه القطرة، والشيء نفسه مع الحصان العربي الذي هو نتيجة الصيانة التامة من قبل أصحابه المتعصبين لأصالته وتحسنه التدريجي خلال آلاف السنين، فإنه قادر أن ينقل صفاته الجيدة من فحل واحد إلى عدة أجيال قادمة. وحتى إذا نقل الحصان العربي إلى بلد آخر وتغير وفقًا للظروف والطلبات والتهجين مع أجناس أخرى، فإنه على الرغم من ذلك ينقل إلى أنساله جماله وطاقته وصبره وسرعة حركته.

وهنا نتساءل: هل يوجد في الدنيا أجناس من الخيول تمتاز بجمالها ورشاقتها في الجري أو الخبب وليس فيها دم عربي؟ أليست هذه ظاهرة عجيبة أنه بعد مئة عام من تهجين الحصان العربي بالجواد الخاب الروسي، وبعد مئتين سنة من ظهور حصان السباق الإنكليزي من الفحول العربية، ما زال في كلا الجنسين سمات من الدم العربي، وفي بعض الأوقات تولد بعض النماذج بملامح من أجدادها العربية؟ في تاريخ تربية الخيول في البلدان الأوروبية العظمى كانت السلالة العربية معترفًا بها كأساس لتحسين خيول الفروسية والطقم، وذلك بمنحها جمالاً ورشاقة وصبرًا وكرامة.

في الآونة الأخيرة أخفى الاهتمام بخيول السباق الإنكليزية أهمية الحصان العربي. ولكن لا بد أن نتذكر أن الحصان الإنكليزي استمد أساسه من الحصان العربي، وأن وجوده المستقل لم يستغرق سوى مئتي عام في حين أن الحصان العربي ظهر منذ آلاف السنين. فلا يمكن أن يكون الإنكليزي أصيلاً تمامًا لأنه أصله عربي

فقط من أسلافه الفحول، أما من أسلافه الإناث فغير محدد. ولم يكن في استطاعة حصان السباق الإنكليزي أداء رسالته لولا الدم العربي على الرغم من أنه يلقى العناية والتربية اللتين يلقاهما الحصان العربي.

أهم مميزات الحصان العربي هي التالية:

١) كرامة الشكل: لا تجد في أي جنس من الأجناس الأخرى مثل هذه الرقبة الأنيقة وهذا الذيل الرائع وهذا الرأس المعبر والجميل والعيون اللماعة الكبيرة التي عند الحصان العربي. ولا تجد حصانًا من الأجناس الأخرى عند الانتقال من الهدوء إلى الحركة يتحول من حصان عادي للوهلة الأولى إلى حصان مفعم بالكرامة ويتنفس بالنار التي تسير في كل شرايينه مثل الأجناس العربية.

٢) قوة الحصان العربي وصبره لا تتناسب وصغر حجمه، والشرف عن صبر الحصان العربي انتشر منذ وقت طويل، لأن الحصان العربي هو الوحيد الذي يقطع مئة وعشرين فرستا يوميًا ويقدر على حمل فارسه خمسة أيام، وبعد استراحة لفترة ثلاثة أيام يقطع المسافة نفسها. لقد أثبت الحصان العربي تفوقه في صبره في الحملة القرمية عند مقارنته بخيول من الأجناس الشرقية كان يمتطيها الفرسان الفرنسيون مع الخيالة الإنكليزية. وفي سباق الخيالة الأخير بين فيينا وبرلين عام ١٨٩٢ اعترف الإنكليز بتفوق الحصان العربي على الإنكليزي عندما بدلوا الخيول الإنكليزية بالعربية في الفوج العلياني (؟) في الحملة على الخرطوم. وأخيرًا أخرج في القرن الحالي في الجيس النمساوي نسل من الجواد العربي شاقيا (؟) نال سمعة يستحقها على صبره الذي لا يوجد عند الخيول الأخرى.

٣) قدرة الخيول العربية على نقل صفاتها الخارجية والداخلية إلى أنسالها عجيبة، فالصفات هذه لا تضيع حتى بعد مئة عام دون تجديد التهجين.

نستنتج من هذه الأوصاف أن الحصان العربي يحتفظ دائمًا برسالته في تحسين صفات الخيول في البلدان المختلفة إذا احتاجت خيولهم إلى تكريم شكلها الخارجي أو تحسين هيكلها ومنح القوة والصبر لها، وتحريرها من العيوب الوراثية كهشاشة الهيكل وضعف أجهزة التنفس وسوء حوافرها إلخ . . .

وبعد حالة من الفتور تجاه الحصان العربي عاد إليه الحب من جديد نظرًا للعيوب والنواقص التي ظهرت عند الخيول المحلية بسبب تربيتها بطريقة اصطناعية. في الوقت الراهن تتَّبع الطريقة العربية في تربية الخيول إلا في روسيا جزئيًا وفرنسا والنمسا وفيورتمبيرغ، ويقولون إن الإمبراطور الألماني اعترف أيضًا بأهمية الخيول العربية لعزبة تربية الخيل الحكومية. وأكبر مشقة في الحصول على خيول عربية تلبي الرغبات العالية وجودها فقط في الجزيرة العربية، وهي المكان الوحيد حيث تكون الثقة التامة بأصالة الخيول كما يفهمها البدو، أي الخيول القادرة على نقل صفاتها الحسنة لأنسالها، والصفات هذه لا توجد إلا في الخيول العربية. يعترف البدو بأصالة الحصان العربي فقط إذا كان الحصان ينتمي إلى السلالات الخمس الأساسية أو السلالات الست عشرة الثانوية. وإذا كان شك صغير في أصالة الحصان فهذا يفرض لأنساله عيوبًا لا تمحى تخرجها من دائرة الخيول الأصيلة إلى الأبد.

كل الرحالة الذين يعرفون حياة البدو يقرّون بأهمية الأصالة لخيولهم. في كل الأحوال لا يرى البدوي الكذب إثمًا ويمكنه أن يحلف حلفًا كاذبًا، ولكن فيما يخص أجناس الخيول لا يقول البدوي في ذلك إلا الصدق. هذا الإيمان بأهمية الأصالة وهذا الصدق في الشهادات على أصالة الخيول هو الأساس الوحيد والمقيد بالشروط للثقة في أصالة الخيول العربية، فلهذا لا تعدّ الخيول أصيلة إلا المشتراة من البدو الذين قاموا بتربيتها أو التي أنجبتها الخيول المشهود لها بالأصالة.

في الوقت الحالي يوجد أكبر عدد من الخيول الأصيلة عند البدو الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات وبلاد الشام . وقد استقرت قبيلة الشمر على ضفة الفرات اليسرى ، وعلى الضفة اليمنى ، وفي دمشق استقرت قبيلة العنزة التي تتفرع إلى الفروع الرئيسة التالية : الفدعان ، السباع ، الروالة ، ولد علي ، ابن حداد ، الحسنة ، السرحان ، الفضي (؟ـ) ، الطوف . وما عدا الشمر والعنزة توجد بعض القبائل الأخرى الثانوية والمستقلة بدأ انتقالها من نجد منذ مئتين عام وانتهى في أواخر القرن الماضي . وما زالت الروالة القبيلة الوحيدة التي احتفظت على بعض العلاقات مع نجد . ويؤكد كل البدو سواء في نجد أو شمال جزيرة العرب أن الحصان العربي هو نفسه عند الجميع ، ولكن قد يحدث بين الفينة والأخرى أن بعض أجناس الخيول تكثر أو تختفي مؤقتًا في أية قبيلة . ويعترف البدو جميعهم أن خيرة الأجناس توجد عند القبائل الشمالية العنزة والشمر وليس في نجد .

تقول الأساطير البدوية عن الحصان العربي ما يلي : إن أصل الخيول العربية فرس اصطادها إسماعيل ابن النبي إبراهيم ، فأنجبت فرسًا اعوجّت لأنها وضعت بعد الولادة مباشرة في الكيس (الخرج) ثم وضعت على الجمل . فخرجت منها سلالة خاصة اسمها بنات الأعوج ؛ ومنذ ذاك الحين صارت سلالة بنات الأعوج ، أو الأعوج جوهرة السلالة العربية .

أكد الأمير عبد القادر الجزائري المقاوم المعروف للفرنسيين في الجزائر الذي استقر في الستينات في دمشق ، أن هذه التسمية موجودة في الصحراء الكبرى حتى الآن . أما في الجزيرة العربية فاختفت ، ولو أن السلالات الحالية أصلها من بنات الأعوج . وفي إفريقيا الشمالية لا يعرفون السلالات الخمس الرئيسية ، فيفترض أن سلالة الأعوج قسمت إلى خمس سلالات بعد أن فتح العرب إفريقيا الشمالية أي بعد القرن السابع والثامن الميلادي . يعترف عبد القادر الجزائري بقدم الأجناس

الخمسة وأن الكحيلان كان منذ زمن النبي محمد. وهذا ما يثبت وجود تسمية الكحلاني في بلاد فارس الذي يطلق على أجناس الخيول غير الأصيلة.

يفترض أن سلالة الكحيلان تفرعت من السلالة الجذرية الأعوج وسميت بهذا الاسم لوجود حلقات سوداء حول العيون وفتحات الأنف. وتقول الفرضية الأخرى إن الكحيلان يضم كل السلالات العربية، وإن هذه التسمية محولة من الأعوج. يقول الرَّحالة المشهور نيبور: «على الرغم من أن سلاسل نسب الخيول لا توجد عند البدو فإن أصالة الكحيلان غير مشكوك فيها، لأنه لا يوجد أية فرس أصيلة ينزو عليها جواد إلا بوجود الشهود البدو. البدو عمومًا غير صادقين، ولكن فيما يخص أجناس الخيول فهم صادقون في كلامهم لأنهم يعلمون أن الأقسام الكاذبة في هذه الأشياء ستجلب إفلاسًا لعشيرتهم».

ثم يفترض أن الأجناس الأربعة الباقية من الخمسة نشأت من الكحيلان، وقد حدث هذا التفرع منذ مئة أو مئة وخمسين سنة، ولكن الأسطورة التي تقول إن الكحيلان عاصر الملك سليمان ليست من تأليف البدو وغير صحيحة دون شك.

والآن نأتي إلى مناقشة الأجناس الخمسة التالية:

١ - الكحيلان: وهو جنس أكثر عددًا وقيمة تنتمي إليه الخيول كميتة اللون. والعلامة المميزة لهذه الخيول هي الرشاقة ولكن صبرها أقل من الأجناس الأخرى. يفترض أن دارلاي أرابيان واحد من الأسلاف الثلاثة للحصان الإنكليزي أصله من هذه السلالة. خيول الكحيلان أقل أناقة من غيرها. في جنس الكحيلان ٥٤ فرعًا أشهرها كحيلان العجوز وكحيلان نواق وكحيلان أبو الجنب وكحيلان الرأس الفضاوي.

٢ - الصقلاوي: أفضل فرع من هذه السلالة ومن كل الخيول العربية هو صقلاوي الجدران، ولكن الخيول من هذه الفصيلة نادرة ولم يبق منها إلا في بعض

عشائر العنزة، ولا توجد عند الشمر أبدًا. فروع الصقلاوي الرئيسية هي التالية: صقلاوي الجدران، صقلاوي العبيران، صقلاوي العرجبي، صقلاوي العبد. وقد نشأت من أربع أخوات عدا صقلاوي الجدران الذي حفظ عن التهجين عند شيوخ ابن الدري وابن سبيني. وصقلاوي العبيران هجن مع الكحيلان والأجناس الأخرى. وفصيلة صقلاوي العبد ولو حافظت على نقاء جنسها بعض الشيء عند الشيخ ابن شعلان لكن بعض التهجينات انعكست عليها. الخيول التابعة للشيخ ابن الدري من فصيلة صقلاوي الجدران قوية ورشيقة ولكن غير أنيقة. أما خيول الشيخ ابن سبيني التي حافظت على أصالتها فهي أنيقة.

٣ - العبيان: وهي أكثر الخيول العربية أناقة ولكنها صغيرة الحجم وغير صالحة للسباق. أفضل فصيلة من هذا الجنس هي عبيان الشرك، فشكل الحصان من هذه الفصيلة أحسن ما يكون، وله قدرة سباقية جيدة. كانت عند الشيخ بطين بن مرشد فرس رائعة أمها عبيان الشرك ووالدها كحيلان العجوز. أما الخيول عبيان الشرك من الأب والأم فلا توجد إلا في عشيرة جلعاس وأبو جريس من المسخة.

٤ - الحمداني: خيول هذه السلالة تكاد تكون غير موجودة، والفصيلة الوحيدة الباقية منها هي حمداني سمري، والخيول التي تمثل هذه الفصيلة أكثرها رمادية اللون. كان عند القموصة جواد أسمر داكن، وكانت عند Blunt فرس بيضاء «شريفة» ولدت في نجد عند ابن سعود وهو مالك مدينة الرياض، طولها أرشينان ونصف فيرشوك، دون وسمات، وعليها صبغة سوداء حول العيون وفتحات الأنف. أذناها طويلتان كأذني الأيل، وعيناها كبيرتان ولينتان. أذهلت البدو في كل الصحراء. كانت تشبه hunter بشكلها الخارجي أكثر من فرس.

٥ - الحدبان: لا تتصادف نماذج هذه السلالة عند العنزة إلا نادراً، والأفضل منها في قبيلة الروالة. وينال الدرجة الأولى حدبان عنزخي، حجمه أرشينان

وفيرشوك ونصف، كميت اللون وعليه وسم أسود، مقسم ذيله رائع كما أن حميته كبيرة وشكله كجواد السباق، إنه نوع جيد ومثالي. أما الفصيلتان الباقيتان وهما: حدبان مشخطب وحدبان الفرض فلا تتمتعان بشرف كبير بين البدو.

ما عدا الأجناس الخمسة المذكورة يوجد ستة عشر جنسًا أصيلاً لا ينتمي إلى الخمسة.

١ - الأعنق (أي ذو الرقبة الطويلة)(١): يفترض أن أصله من كحيلان العجوز. وخيول هذه الفصيلة ليست أنيقة كثيرًا ورؤوسها غليظة وأعناقها طويلة ورفيعة وأعضادها كبيرة وهيئتها طويلة، وأكفالها قوية وغليظة وهياكلها جيدة. تشتهر بصبرها الكبير ورشاقتها في قطع المسافات الطويلة. وأوصاف نيروب لجنس الكحيلان تناسبها تمامًا. أفضل فصائلها هي:

أ - الأعنق الحدروج، توجد عند الشيخ ابن سبيل من قبيلة القموصة، ولذلك أصبحت الخيول المولودة عنده تسمى بأعنق ابن سبيل بدلاً من الأعنق الحدروج.

ب - الأعنق السلوقي وهي الفصيلة الأساسية لهذه السلالة.

٢ - السعادان: وأشهرها سعادان طوقان. كانت أقوى وأجمل فرس، والزوجان بلانت من هذه السلالة. حجمها أرشينان وفيرشوك ونصف، رائعة الجمال والقوة ولكن أقل أناقة من خيول الكحيلان. كانت تشبه بشكلها الخارجي صورة الفرس إكليبس من «Book of the Horseå. ولدت عند قبيلة الطوف وكانت معروفة في كل الصحراء كـ «السعادية المشهورة».

٣ - الدهمان: وفيها فصيلة دهمان أم عمر، أكثرها كميتة وكميتة أحمة. كانت عند قبيلة القموصة فرس ممتازة من هذه الفصيلة.

---

(١) عند المؤلف الأعنق. المعرب.

٤ – الشعيمان : وفيها فصيلة شعيمان السباع . كانت عند الشيخ فارس من قبيلة الشمر الفراتية فرس من هذه الفصيلة غليظة الشكل ولكن قوية وشجاعة وأنيقة في حركتها .

٥ – الجلفان : وفيها فصيلة جلفان الأطناب الفولاذية[١] . كان عند قبيلة المؤجل من المصراب مهر من هذا الجنس .

٦ – الطويسان : وهو طويسان القميع . رأى Blunt جوادًا من هذا الجنس وكان أنيقًا جدًا ولكن صغير الحجم .

٧ – السمحان : وهو سمحان القميع . الجواد الذي شاهده السيد بلانت كان أكبر وأقوى من كل الأحصنة وكان تابعًا لهذه الفصيلة .

٨ – العواذان : عواذان الخرسان .

٩ – الريشان : ريشان الشرابي .

١٠ – القبايشان : قبايشان العمير .

١١ – الملغان .

١٢ – الجريجان .

١٣ – الجيطاني .

١٤ – الفريجان .

١٥ – الطرفي .

١٦ –الربضان .

كل هذه السلالات الإحدى والعشرين المذكورة ما عدا الست الأخيرة لها تسمية ثانية إضافة إلى تسميتها الأساسية التي ظهرت بعد تفرع الأجناس إلى الفصائل لبيان كيفية الخيول أو أسلافها أو العشيرة التي كانت تتبع لها .

(١) عند المؤلف جلفان ستام البولاد . المعرب .

تعرف الخيول بصلاحيتها للعزبة (hadud) ليست التي يقال عنها عربية أصيلة فحسب بل يجب أن تكون سلالتها وفصيلتها معروفتين أيضًا. وإذا لم يستطع أحد تحديد انتماء الحصان لفصيلة من فصائل السلالة فهذا دليل على عدم أصالته، ويرى البدو حصانًا كهذا غير صالح للعزبة ولو أن البدو لا يصنفون الخيول إلى أنواعها، فإذا كان الحصان أصيلاً فهو صالح للعزبة. ولكن توجد فصائل تشتهر بقيمتها في الصحراء أكثر من الأخرى، ويعود هذا إلى صفات أسلافها الحسنة والمجربة، فمثلاً كحيلان العجوز وصقلاوي الجدران قيمتهما أكبر بكثير من ريشان الشرابي وسمحان القميع. ويجب أن يؤخذ في الحسبان أن أصل الحصان يعود إلى أصل أمه أما أبوه فيسكت عنه.

وبعد إنهائنا لهذه اللمحة المختصرة عن الأساطير وآراء البدو في أصالة الخيول العربية ننتقل إلى تقدير البدو لخيولهم عمليًا كما لاحظها السيد والسيدة أن بلانت ولاحظناها نحن من خلال رحلتنا إلى سوريا.

تقسيم الخيول العربية إلى واحد وعشرين جنسًا وفصيلة مضى عليه وقت طويل لدرجة أن القواعد البدوية بعدم الالتفات إلى الفحول، التي يكفي أن تكون أصيلة فقط أصبحت غير صحيحة تمامًا، ففي الحقيقة كل هذه الأجناس اختلطت بعضها مع بعض، والأوصاف السابقة التي تخص كل فصيلة لم يعدْ لها قيمة عملية. في الحقيقة يوجد جنس عربي مشترك بين كل الخيول العربية مع بعض الاختلافات والمميزات في العشائر المختلفة، مارس فيها البدو اختيارات معينة من الفحول خلال فترة من الزمن، وكان السعي إلى التمسك بفصيلة واحدة من الخيول واضحًا. في الوقت الحاضر لا يمكن عند تحديد أصل الخيول الاكتفاء بأصالتها فقط، بل يجب تحديد جنسها (مثل صقلاوي الجدران) والتأكد من صلاحيتها للعزبة، وأخيرًا تجميع كل المعلومات عن أسلافها وعن القبائل والعشائر التي كانت تتبع لها، وهكذا

ستكون الثقة بصفاتها كبيرة عند شرائها من القبائل التي تشتهر في الصحراء بمعاملتها الحسنة للخيول وأجناسها وبمذاهبها الأصلية في تربية الخيول. فمثلاً عشيرة ابن سبيل من قبيلة القموصة مشهورة بسلالة الخيول الموجودة عندها من فصيلة الأعنق الحدروج، لدرجة أن هذه الخيول غالبًا ما تسمى بالأعنق ابن سبيل بدلاً من الأعنق الحدروج.



أهمية الحصان العربي
في تربية الخيل الروسية

لا يغتفر في تربية الخيل الروسية عدم الاعتراف في تحسين الأجناس المحلية. أليس الحصان العربي هو الذي خلف الجواد الخاب الروسي والسلالة البروزونية؟ أليس الحصان العربي هو الذي أهدى لروسيا الجنس الألورولوفو الراستوبشيني وحسن أجناس الخيول السهبية والجبلية كالدونسكايا وكاباردينسكايا؟

تكفي نظرة واحدة إلى الخيول الخابة من الطراز الأورلوفي وخيول الفروسية من الجنس الأورلوفي الراستوبشيني حتى نعرف من رقباتها الموضوعة موضع الاعتزاز، ومن عيونها اللماعة، وجلدها الرقيق وعفرتها الحريرية، وذيلها ومظهرها الكريم، الدم العربي الذي هجن مع هذه الأجناس مرة واحدة منذ مئة عام.

من خلال رحلتنا إلى سوريا رأينا في دمشق حصانًا عربيًا أصيلاً لأول مرة واندهشنا من مشابهته بشكله الخارجي الأحصنة الخابة.

وأهمية الحصان العربي الكبرى في روسيا هي مقدرته على نقل خصاله الداخلية لنسله، كعدم التعنت في العناية والعلف، والصبر العجيب والقوة غير المتناسبة مع صغر حجمه، بكلمة واحدة الخصال الثمينة في هذا المناخ القاسي مع عدم وجود الطرقات والمسافات الروسية الشاسعة. إن أنصار خيول السباق الإنكليزية يتحمسون لمزاياها ويحاولون بذلك أن يستروا صفات الخيول العربية الجيدة. ولكن نتساءل: أين استطاع هؤلاء الناس رؤية الحصان العربي الأصيل إذا

لم يزوروا البلاد العربية؟ وهل يمكن الحكم على الحصان العربي اعتماداً على هذه الخيول الحقيرة، مجهولة الأصل الموجودة في أوروبا التي يستهين بها أي بدوي أو خبير بالخيول؟ أليس الحصان العربي هو الذي منح لحصان السباق الإنكليزي صفاته الأساسية، وأنه لولا فقدان الظروف المواتية للحفاظ على أصل الحصان الإنكليزي من العربي لأعطت الجهود المبذولة لكماله نتائج أفضل، ولما كان حصان السباق الإنكليزي أصيلاً فحسب، بل لكان نقيًا بدمه وقويًا في بنيته تحت تأثير التغذية المقوية والمناخ الرطب، ولكان كريمًا بشكله الخارجي ودون أية عيوب على الرغم من التهجين مع الخيول غير الأصيلة.

إذا قارنا الأمهار الإنكليزية والعربية فسنجد أن الأمهار الإنكليزية إذا حرمت من العناية والمكان الدافئ والتغذية المقوية فستكبر وهي كسحاء، أما الأمهار العربية التي تتربى في الشتاء على الهواء الطلق أو الأمكنة الباردة وتتغذى فقط بالأعشاب المجففة وفي الصيف بكلأ المرعى، فتكبر وهي طبيعية تمامًا ولو صغيرة الحجم بعض الشيء. حصان السباق الإنكليزي هو حصان الرفاهية وتحتاج تربيته إلى عناية كبيرة ومصروفات هائلة، ولهذا عندما تعالج تربية الخيل في بلد ما الذي يحتاج للخيالة والطقم والأشغال، ولكي تتأقلم هذه الخيول باختصاصاتها الثلاثة مع طبيعة تلك البلد وترضي طلبات سكانه، يجب أن تكون الأفضلية للخيول العربية.

إن المعرفة الحقة للحصان العربي تؤكد أنه قادر على إرضاء كلّ الطلبات. ومن خلال رحلتنا إلى البلاد العربية كنا نندهش كثيراً عند رؤية الخيول العربية الأصيلة وتشابهها مع الأحصنة الخابة من الجنس الأورلوفي وأحصنة السباق الإنكليزية.

من خلال معرفتنا التامّة للحصان العربي في موطنه تأكدنا من صحة صفاته الفريدة المنسوبة إليه، كما تأكدنا من أهمية الأصالة السائدة. فبفضل إيمان البدو

بأهمية الأصالة تمكنوا من الحفاظ على أصالة خيولهم خلال آلاف السنين، في حين أنه عند الشعوب المجاورة والأوروبية على الرغم من اختيارهم الدقيق للفحول وعنايتهم الفائقة بأنسالها، فقدت الخيول العربية عندهم صفاتها الحسنة لأنهم أهملوا أصالتها.

من خلال دراسة تاريخ تربية الخيل في الدول الأوروبية كروسيا والنمسا والمجر وفيورتمبيرغ وإيطاليا وفرنسا وإنكلترا، نجد أن أهمية الحصان العربي نزعت ثقة أصحاب العزب من قلة معرفتهم للوضع الأساسي في تربية الخيل العربية وبسبب سوء تنفيذهم لعملهم.

إلى جانب الخيول الأصيلة القليلة المستوردة إلى أوروبا من البلاد العربية كان يستورد عدد هائل من الخيول التي كانت عربية بتسميتها فقط. ولكن توجد حالات استثنائية. ففي بعض البلدان الأوروبية ظهرت الخيول العربية الأصيلة حقيقة الصالحة للإنتاج، وهي خيط ذهبي في هذه الأحداث، أما أنسالها فأصبحت عصراً كاملاً في تاريخ تربية الخيل. فهكذا كان تأثير سميتانكا على تربية الخيل في روسيا، وهكذا كان تأثير جوادين رماديين أصيلين Draley Arabian و Godolphin Qrabian في إنكلترا، والتأثير نفسه كان للجواد الصحراوي «شاقيا» في النمسا.

ومع ذلك تظهر في أوروبا محاولة اتباع الطريقة الصحيحة في تربية الخيول العربية الأصيلة. فليس في عزبة ستريليتسكي ولا في بابولن ولا في فيورتيمبرغ ولا في بومبادور، ولا في أية من هذه المناطق يهتمون بأصالة الخيول وخاصة الإناث منها. ونظراً للسعي إلى زيادة حجم الخيول تستخدم في تربيتها طريقة التهجين، أما أنسالها مع قلة حركتها وتغذيتها فتؤدي إلى انحلال الحصان العربي.

نطرح السؤال التالي: هل من الممكن في روسيا وغيرها من الدول العظمى الحصول على الخيول العربية عن طريق شرائها من بلاد العرب بعد التأكد من

أهميتها، أم أن هذه الدول تحتاج إلى تأسيس عزبها الخاصة لإنتاج الخيول العربية وتوفيرها في البلاد؟ تقول المعطيات إن تربية الخيول في البلاد العربية نفسها في طريقها إلى التدهور. فبعض الأجناس من الخيول العربية تكاد تنقرض كصقلاوي الجدران الذي أصبح قليل العدد وأصبح إيجاده صعبًا.

ومن أسباب تدهور تربية الخيل في بلاد العرب هو تبديل الحربات بالأسلحة النارية، ومن جراء هذا تخوض القبائل الغزوات على الإبل بدلاً من الخيول إذ يمتطي شخصان جملاً واحدًا. والأسباب الأخرى هي تأثير الأتراك في الصحراء بإقامة مواقعهم الحراسية فيها قرب الواحات لمنع الحروب بين البدو. وهذا ما قضى على أهمية الحصان العربي القتالية، وهي قيمته الرئيسية عند البدو. وما عدا هذين السببين يؤثر على تربية الخيل في البلاد العربية سلبيًا حظر الأتراك على تصديرها خارج البلاد، الأمر الذي يخفض من أسعارها في الأسواق، فتحلّ محلّ تربية الخيل أعمال أخرى أكثر ربحًا كتربية المواشي والإبل. والسبب الأخير هو استهانة البدو بالأحصنة التي تسوّق بأول فرصة إلى حلب وحمص وحماه ودير الزور ودمشق ما يؤدي إلى النقص في الفحول عند البدو. فبعض البدو يأخذون حجورهم إلى المدن أي إلى الفحول التي سوّقت قبل ذلك. ونحن اشترينا في دمشق جوادًا كان يستخدم في قبيلة الروالة فحلاً.

والخطر الأهم هو مدّ السكك الحديدية في الصحراء، فمع هذا التقدم العصري ستزول العقائد البدوية أو سيتحول البدو إلى فلاحين أو سينقرضون وسينقرض معهم الحصان العربي الأصيل وسيُهتم بتربية الخيول الملبية لطلبات السوق كالسوق الهندي حيث تنتج أنواع من الخيول تسمى Gulf Arabs أو Bagdadi. وهذه الخيول بجسامتها الكبيرة لا تستطيع منافسة الخيول العربية الأصيلة وصفاتها الحسنة.

آمل أنني برهنت على ضرورة تأسيس مستولد للخيول العربية الأصيلة على الطريقة البدوية وتشجيع المذاهب البدوية في تربية الخيول .

ينبغي إنشاء كتاب عزبة الخيول العربية كأساس للمذهب الجديد ، ويجب أن يكون هذا الكتاب مجزآً إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول مخصص للخيول العربية الأصيلة المولودة من الأجناس العربية . يجب أن نعترف بأن الخيول العربية الأصيلة أنتجت في بادية الشام أو صحراء الجزيرة العربية ، وأنها أنسال الخيول الأصيلة دون أية تهجينات . وقد أكد ذلك البدو من العنزة والشمر وغيرها من القبائل التي تمارس تربية الخيول وفقًا للعادات العربية .

الباب الثاني : تدخل فيه التحديدات لأصالة الخيول العربية من شكلها الخارجي ومن الشهادات عن أصلها من التي يعطيها الشخص الذي يمارس تربية الخيل من دون تهجينها . في هذا الباب تتحدد أصالة الحصان بعلاماته الخارجية أي بمطابقته مع شكل الخيول الأصيلة الخارجي . ومع مرور الزمن يفضل أن تحدد أصالة الحصان من أبيه المسجل في قوائم الباب الأول .

الباب الثالث : وتدخل فيه الخيول الهجينة التي ولدت من الفحول العربية الأصيلة وإناث من الأجناس المختلفة .

كل ما هو مقدم الآن مؤسس على مبدأ أنّ الخيول العربية فقط هي القادرة على التأثير في تربية الخيل في البلدان المختلفة ، وأنه من أجل استمرار التحسين للأجناس المحلية لا بد من تأسيس مزارع لاستيلاد الخيول العربية . كما أن عدد أيام تربية الخيول العربية عند البدو معدودة . بقي أن نطرح السؤال التالي : كيف نحافظ على أصالة الأجناس العربية؟ وما الدول المهتمة بهذا الأمر؟ وأية دولة تسنح لها الظروف الطبيعية عمل ذلك .

لا يمكن الاعتماد في ذلك على مبادرة الحكومة التركية، نظرًا لعداوة البدو لها، لأن نظام تلك الحكومة هو نظام التخريب وليس البناء. إذًا يجب أن تنفذ هذه المهمة دولة أخرى تسنح لها في ذلك الظروف الطبيعية والثقافية. وفي هذا المجال نستطيع أن نقول بحزم إنه لا توجد دولة في العالم قادرة على الحفاظ على أصالة الجنس العربي في الخيول بحكم مصالحها ومناصرة سكانها لتربية الخيل وبحكم ظروفها الطبيعية إلا روسيا. نتساءل: هل يوجد في العالم بلد آخر فيه ٣٠ مليون حصان مع أراضيها الفسيحة وقلة عدد سكانها؟ ومن أجل هذا فتربية الخيل لا غنى عنها لنقل الناس والبضاعة وحراثة الحقول. وإذا ارتفعت أسعار الخيل قليلاً فسيجلب هذا أرباحًا طائلة. وتثبت الحسابات درجة ارتفاع أسعار الخيول الروسية البسيطة بعد تحويلها إلى الأحصنة الخابة والأجناس البيتوغية والأورلوفية الروستوبشينية بتهجينها مع الخيول العربية. فبطريقة تكريم الخيول وحدها ظهرت المواد التصديرية المربحة القادرة على منافسة الخيول الرخيصة المستوردة من أوروبا وأستراليا وأمريكا وكندا. وأما فيما يخص الظروف الطبيعية فتوجد بعض الأقاليم في روسيا تصلح لتربية الخيول العربية أكثر من البلدان الأخرى.

فمثلاً العزب البيلوفودية الواقعة قرب الحدود الشمالية للمحافظة الدونية ذات السهوب غير المحروثة تتوافر فيها مراعٍ صالحة لتربية الخيول القوية والصبورة. والتربة الطباشيرية في تلك المناطق تساهم في تقوية هياكل الخيول وانتظام حوافرها. حتى البرد الشتوي القارص لا يشكل ضررًا على تربية الخيول التي تعودت في موطنها على قضاء نهارها وليلها في الهواء الطلق تحت الشمس الصيفية المحرقة أو تحت المطر الشتوي البارد.

عند تأسيس مستولد الخيول العربية لا بد من تربية كل نوع من نوعيها على حده، فيكون القسم الأول مخصصًا للخيول صغيرة الحجم ومستديرة الشكل

والأنيقة، والقسم الثاني للخيول القوية والطويلة وغليظة البنية بعض الشيء. ويفضل أن تبعد خيول المستولَد عن كل التهجينات بأمر الدولة.

ونظرًا لاستحالة توفير ظروف للخيول مثل التي عند البدو فلا بد من الحفاظ على صفاتها الجيدة كالصبر والقوة، بتدريبها على الرشاقة اعتمادًا على تعليمات أصحاب المضامير والحفاظ على رشاقتها وصبرها وانتظام شكلها.

طريقة تهجين الأجناس المحلية مع العربية صعبة جدًا، ولا يمكن أن تنجح إلا بالتجارب ومقارنة النتائج بنتائج أصحاب العزب المختلفة. فعلى سبيل المثال الكونت أورلوف شيسمينسكي صاحب الموارد الهائلة والخيال البارز برهن أنه بذل جهودًا عظيمة لإنتاج الخيول الخابة وخيول الفروسية المعروفتين. والمثال الثاني الدول الأوروبية المختلفة التي تؤكد المنفعة الكبيرة من نقل صفات الخيول الإنكليزية العربية الجيدة إلى أنسالها. وهكذا فمن أجل إنتاج خيول الخدمة أو السباق أو الطقم أو العمل يجب الاعتراف بضرورة الاستعانة بالحصان العربي، وإيجاد وسائل التهجين بالمعارض السنوية وسباقات الرشاقة واجتماعات أصحاب عزب تربية الخيل.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

جغرافيا صحراء الجزيرة العربية وبادية الشام، وتاريخهما بوصفهما موطن الخيول العربية

من أكثر مصادر المعلومات تفصيلاً عن جغرافيا صحراء الجزيرة العربية وبادية الشام وتاريخهما أي موطن الحصان العربي هي مؤلفات Lady Anne Blunt الأولى : «The Bedouins of the Euphrhte والثانية : «Pilgry mage to Nejd» التي نشرت في العامين ١٨٧٩ و ١٨٨١ .

وقبل سفر الزوجين بلانت كانت هناك معلومات شاملة ومفصلة عن هذه المناطق وعن الحصان العربي، وكان هذا في تقرير اللجنة النمساوية المجربة عن استيراد الخيول العربية من سوريا . قضت هذه اللجنة في سوريا سنتين من ١٨٥٧ حتى ١٨٥٨ . كما جمع بوليغريف وغوارماني في الستينيات من القرن نفسه تعليمات أخرى عن المنطقة والحصان العربي . وكان من آخر الرحالة إلى نجد وسوريا هو نولديه عام ١٨٩٣ .

ويوجد في مؤلفات Lady Anne Blunt لمحة عن كل الرحلات السابقة، ونولديه يؤيد كل ما لاحظته هي مع زوجها ولهذا فإن المقال المقدم معتمد على المعلومات المستخرجة من كتب Lady Anne Blunt .

يحتل القسم الشمالي من البلاد العربية، وذلك حسب التعليمات المعاصرة، كل الأراضي بين سوريا وبلاد فارس، ويتصل شمالاً بخط عرض ٣٧ حتى مستوى مدينة أورفا وماردين . ويضم شمال البلاد العربية الرافدين والعراق والسهل

الشمالي من تدمر وصحراء حماد يتشابه سكانها وطبيعتها. وقبائل الشمر والعنزة والمنتفيق وأبناء جنسهم في نجد وعلى ضفاف الفرات والجوف والحجاز واليمن كلها من أصل عربي واحد. تستخدم عبارة بلاد العرب في الوقت الحالي مرادفة لصحاري شبه الجزيرة العربية وبادية الشام، ويفترض أن البدو من بادية الشام الذين يملكون قطعانًا كبيرة من الإبل هم بناة الحضارة العربية القديمة، وليس المسلمون الذين يسكنون في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية.

وهذه الصحاري هي عبارة عن سهول فسيحة وممهدة التي تتداخل مع الوديان وسلاسل الجبال بتربتها الفقيرة غير الصالحة للزراعة لقلة المياه. وتوجد في بادية الشام سلسلة جبلية وحيدة تمتد من دمشق حتى الموصل، ولبعض جبالها الأسماء الآتية: جبل رواق وجبل العمور وجبل عبد العزيز وجبل السنجر، ويخرق هذه السلسلة الجبلية نهر الفرات بزاوية قائمة. وتقسم السلسلة الجبلية هذه مخيمات البدو إلى جزئين مختلفين، ففي شمالها مراعٍ صالحة لتربية الضأن فقط، وفي جنوبها مراعٍ صالحة للإبل. تنبت في هذه المنطقة شجيرات نادرة وعطرة جداً وخشبية الساق.

وهذه النباتات مختلفة ومنوّعة ولهذا فصلاحيتها لغذاء الماشية مختلفة أيضًا، فمنها ما يصلح ليكون كلأ الجمال ومنها ما يصلح ليكون كلأ الضأن فقط، ومنها ما لا يصلح لأي شيء. تظهر على التربة الخصبة بعد فصل الأمطار بعض الأعشاب والنباتات، ففي شمال الرافدين وبادية الشام لا يختلف النبت في فصل الربيع عن المروج الأوروبية، ولكن هذا التشابه سطحي بسبب عدم وجود طبقة أرض مكسوة بالعشب ومفعمة بجذورها في بادية الشام وصحراء الجزيرة العربية.

يتجه البدو في الربيع إلى الجزء الشمالي من بادية الشام لجزّ الصوف عن ضأنهم والتجارة مع المدن، ففي مثل هذا الفصل من السنة يكون كلأ المرعى في تلك

المنطقة غزيراً. في شهر حزيران عندما تبدأ الأعشاب تجفّ بسبب القيظ، تظهر على النباتات براعم فتية، ومع أول الأمطار الخريفية يظهر عشب فتي، كما أن الورود أيضًا متوفرة في القسم الشمالي من البادية، وفي سنوات قاحلة تضطر القبائل البدوية أن تستقر محتشدة مع قطعانها في وادي الفترات والدجلة. وعندما يبدأ فصل الشتاء تتجه قبائل العنزة إلى الجنوب، وفي شهر كانون الأول لا يبقى في الشمال جمل واحد. وليس البرد هو سبب هذه الانتقالات المستمرة لأن الجمال لا تخاف منه، ولكن السبب هو عدم كفاية العلف المفضل من النباتات الشجيرية، ولهذا فالبدو الشماليون لا يربون إلا الضأن، أما البدو الذين يقومون بتربية الجمال فيضطرون إلى الترحل في فصول معينة من السنة فيصلون إلى خط عرض ٢٨ في الجنوب إلى شمال جبل الشمر، ويترحلون من تشرين الثاني حتى أيار ضمن عشر درجات من خطوط العرض فيقطعون حوالي ٣٠٠٠ فرستا.

في فترة ولادة النوق أي من شباط وحتى أوائل آذار تستقر العنزة في الجزء الجنوبي من مكان ترحلها حيث تتوافر شجيرات تسمى غادة، وهذه الشجيرات هي علف مفضل للجمال، ساقها أحمر اللون وعليها أشواك وأوراق خضراء ويصل طولها إلى خمسة أقدام. وعندما تنتهي فترة ولادة النوق ينتقل البدو إلى الشمال فيقطعون ١٢-١٥ فرستا يوميًا ويعود ذلك إلى كمية كلأ المرعى. وسرعة حركتهم لا تزيد عن ثلاث فرستات في الساعة.

تكون الصحراء في مثل هذا الفصل بهية بنباتاتها وأزهارها الكثيفة، وتسود الأزهار الحمراء على التربة الغنية، وتوجد في المنخفضات مراعٍ ممتازة، أما التربة الفقيرة فتثبت عليها نباتات بصلية.

لا يأخذ البدو ضأنهم إلى الجنوب بل يكفلون الضأن لقبيلة ولدي والأخدعات وغيرها لحين عودتهم، فالعائق الأكبر لنقلها إلى الجنوب هو عدم وجود المياه.

يتوفر الحليب في فترة ولادة النّوق وعندئذ يستعمله البدو بديلاً للماء ويسقون به خيولهم. أما الجمال فتشرب من الآبار التي يبعد بعضها عن بعض كثيراً، وتشرب من البرك بعد هطول الأمطار.

في نهاية شهر نيسان عندما تصبح المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية فقيرة بالموارد والعلف، ينتقل البدو إلى الشمال إلى خلف السلسلة الجبلية. يبدأ قص الضأن في أيار وفي الوقت نفسه يبدأ البدو ببيع الأمهار والأحوار. يصل البدو المتنقلون إلى ضفاف الفرات في السنوات القاحلة فقط عندما تخلو الصحراء من الأعشاب، أما في السنوات الأخرى فيفضلون الصحراء. أكثر البدو من العنزة لم يروا الفرات بحياتهم. ومن جهة أخرى فالفلاحون المستقرون على ضفاف الفرات يخافون من حياة البراري كثيراً.

تقع المدن العربية كلها على الأنهار، ولا يوجد على الواحات أكثر من اثنتي عشرة بلدة أشهرها القريتين وتدمر، وفي الجنوب أكبر بلدة قرب الواحة هي الجوف.

التاريخ: يبدأ التاريخ الحديث لشمال الجزيرة العربية منذ احتلالها من قبيلة الشمر التي خرجت من النجد منذ مئتين عام تحت قيادة الشيخ فارس. نهب البدو من الشمر تدمر وقطعوا الاتصالات بين بغداد ودمشق، واحتلوا صحراء الحماد كلها، ثم اتجهوا بطول وادي الفرات ووصلوا في الشمال إلى بئر الشيق. بعد ذلك دعا زعماء الموالي وهم من السكان المحليين شيوخ الشمر إليهم بحجة مفاوضات السلام فقتلوهم كلهم في خيمهم، ومنذ ذاك الحين تعتبر مخيمات الموالي مخيمات العار (بيت الموالي: بيت العيب). وعلى الرغم من ذلك حافظت قبيلة الشمر على مستعمرتها.

وبعد الشمر مباشرة خرجت من النجد قبيلة أخرى وهي العنزة بعد أن سمعت عن المراعي الجيدة التي وجدتها الشمر في الشمال، فجاؤوا ليتقاسموها معهم. اتحدت قبيلة الموالي مع العنزة فطردوا قبيلة الشمر خلف الفرات. وعندما وجد البدو من الشمر خلف الفرات مراعي أفضل من التي في بادية الشام، تولوا الحكم على السكان المحليين فمدوا نفوذهم خلف نهر الدجلة، ووصلت هجوماتهم إلى الموصل وحدود بلاد فارس.

كانت السلطات التركية لا مبالية تمامًا تجاه هذه الغزوات، وحتى الباشاوات من المدن الحدودية كالموصل وبغداد لم يحركوا ساكنًا لتوقيفها.

لقد توقف النقل التجاري عبر الصحراء بسبب هذه الغزوات وصارت القوافل تسير بطرق غير مستقيمة أي عن طريق ماردين وأورفا. وفي الوقت نفسه احتلت القبائل البدوية الأخرى العراق وهي المنتفيق وبنو لعام.

تتغير أوضاع القبائل البدوية باستمرار سواء سياسيًا أو اقتصاديًا. فإذا كانت الإبل تنجب نسلاً جيدة، وكان زعيم القبيلة شيخًا شجاعًا وذكيًا، عندئذ تصبح القبيلة غنية وتتمتع بنفوذ بارز في الصحراء. وقد بقي نفوذ القبيلتين الرئيسيتين الشمر والعنزة سائدًا على القبائل الثانوية.

تسيطر قبيلة العنزة على الأراضي الممتدة بين صحراء الحماد وحلب، أما الشمر فتسيطر على الرافدين. والخلافات التي نشبت بين هاتين القبيلتين منذ انتقالهم إلى هذه المناطق مستمرة حتى الآن، وهي ثورات تتخللها هدنة مؤقتة، أما السلام التام فلم يحل بينهم حتى الآن. في فصل الربيع تتجدد الغزوات بينهم بانتظام مع عودة طيور السنونو من الجنوب. كانت لكل قبيلة من هاتين القبيلتين مراحل تاريخية عندما كانت تسيطر على القبائل الأخرى. في أيام زمان كانت قبيلة الشمر مسيطرة على بغداد، كما غز الشيخ ابن شعلان من قبيلة الروالة المتفرعة من العنزة بلاد

فارس. ولكن قبيلة الشمر ـ دون شك ـ أضعف من العنزة، والذي ينقذها من الخضوع التام لها هي الخلافات الداخلية بين قبائل العنزة الفرعية. ويعود ضعف قبيلة الشمر إلى قلة عددها وقلة عدد الخيول فيها.

عندما بدأت قبيلة العنزة تنتقل من النجد إلى الشمال لم يكن في الشمال سوى قبيلة الفدعان والخمسة، ثم تبعتها قبائل أخرى كابن حداد والسباع وولد علي. وفي نهاية القرن الماضي أي بعد مئة عام، غادرت النجد قبائل العنزة الباقية وهي الطوف والفضي. وفي الوقت نفسه وصلت قبيلة الروالة إلى دمشق.

في الستينات من القرن الحالي بدأت السلطات التركية تظهر بعض نشاطاتها الخاصة بالبدو، ففي عام ١٨٦٢ بعد الحملة على القرم أصبحت تحت سيطرتها أموال وجيوش عظيمة، فأرسل لمحافظ حلب عمير باشا أمر بسلب المدن: جابر ودير الزور من البدو، فسلب عمير باشا مدينة دير الزور بفضل قوة المدفعية الثقيلة وأعاد العلاقات التجارية بين حلب وبغداد.

كما تصرف على النمط نفسه محافظ بغداد مدحت باشا الذي طرد البدو من نهر دجلة. بعد ذلك حاولت السلطات التركية أن تحوِّل البدو إلى الفلاحين، ويقال بأنهم نجحوا في هذه المحاولة مع قبيلة المنتفيق. وإضافة إلى ذلك منحت السلطات التركية الشيخ فرحان من الشمر في الثمانينات تسمية باشا مع راتب سنوي قدره ٣٠٠٠٠٠ روبل، بشرط أن يحول البدو من الحياة المتنقلة إلى الحياة الحضرية، وقد تبين أن هذه المحاولة أخفقت. فذات يوم أرسل محافظ دير الزور عسلان باشا جنوده لمحاصرة مخيم السباع وأمرهم ببناء البيوت وحراثة الحقول، ولكن بمجرد ذهاب الجنود ترك السباعيون بلدتهم ورحلوا إلى الصحراء.

ما عدا الشمر والعنزة توجد قبائل بدوية أخرى مثل الجبوري على الدجلة والصيغة على الفرات، وهم يعيشون بسلام مع جيرانهم ويعملون في تربية

المواشي. والبدو من قبيلة الحدادين لا يعملون إلا في تربية الضأن. وسكان حلب والموصل يثقون بهم ويعهدون في قطعانهم إليهم وإلى قبيلة ولدي. عدد الخيم في قبيلة العنزة ٣٠٠٠٠ خيمة بينما عدد الخيم في قبيلة الشمر لا تزيد عن ١٢٠٠٠ خيمة.

الشمر: المعلومات التي زودنا بها الشيخ فارس الشمري أمام المشيخة الشمرية هي التالية: كلهم بدو أصليون يملكون الجمال والخيول ومسلحون بالحربات. يخضع البدو لشيخهم الذي ينتخبونه إذا كان فقط من سلال الشيخ فارس الذي أخرجهم من النجد في القرن السابع عشر. في الثمانينات من القرن الحالي كان شيخهم فرحان بن صفوق، ولكن جزءاً من القبيلة انفصل عنه وانتخب شقيقه فارسًا شيخًا لهم. أصل شمر الرافدين من شمر الجبل أي النجد. تترحل القبيلة من الشمال إلى الجنوب وبالعكس في فصول معينة من السنة. إنهم يجمعون الإتاوات من القبائل الصغيرة الخاضعة لهم ولا يعترفون بالحكم التركي.

تنقسم قبيلة الشمر إلى القبائل الثانوية التالية:

١ - الجربة: ٢٠٠٠ خيمة.
٢ - الحطية: ٥٠٠ خيمة.
٣ - العسلان: ٤٠٠ خيمة.
٤ - الصائغ: ٥٠٠ خيمة.
٥ - العليان: ٣٠٠ خيمة.
٦ - العبدة: ١٠٠٠ خيمة.
٧ - الشدادي: ٣٠٠ خيمة.
٨ - الحائط: ٥٠٠ خيمة.
٩ - الجيرات: ٥٠٠ خيمة.
١٠ - الفدارة: ٧٠٠ خيمة.
١١ - العموت: ١١٠٠ خيمة.
١٢ - العفاريت: ٥٠٠ خيمة.
١٣ - المنية: ٨٠٠ خيمة.
١٤ - الثابت: ١٠٠٠ خيمة.
١٥ - اللحي: ٤٠٠ خيمة.
١٦ - السديت: ٤٠٠ خيمة.
١٧ - الحمَّارة: ٤٠٠ خيمة.
١٨ - الصقلة.

القبائل الحليفة للشمر والخاضعة لها هي التالية:

١ - الزوبعة: في الجزء الجنوبي من الرافدين، ٥٠٠٠ خيمة. ٢ - الحدادين: في الجزء الشمالي من الرافدين، ٢٠٠٠ خيمة. ٣ - الطائي: أصل قبيلة الطائي من وسط الجزيرة العربية، ١٠٠٠ خيمة. ٤ - الجس: ليسوا من البدو الأصليين، يسكنون في شمال غرب الرافدين، ١٠٠٠ خيمة. ٥ - أبو حميد: شبه فلاحين، ١٠٠٠ خيمة. ٦ - الجبوري: أعضاؤها فلاحون من وادي الدجلة، ٤٠٠٠ خيمة. ٧ - العجوري: أقرباء الجبوري، ١٠٠٠ خيمة. و ٩ - البقرة: شمال الجريفة، ٨٠٠ خيمة.

العنزة: يشكل البدو من العنزة قبيلة كبيرة واحدة مثل الشمر وتتفرع إلى قبائل ثانوية. وهم كالشمر مسلحون بالحربات ويملكون الخيول والجمال. والنزاعات الداخلية مستمرة بين فروع هذه القبيلة، وهم لا يعترفون بشيخ واحد عليهم جميعًا. تمتد مخيماتهم من جبل الشمر في النجد جنوبًا إلى حلب شمالاً.

تتفرع قبيلة الشمر الكبيرة إلى الفروع التالية:

١ - الفدعان: أكبر قبيلة محاربة وخيولها قليلة. تتفرع إلى:

أ) المحد: ١٠٠٠ خيمة، ب) الشميلات: ١٠٠٠ خيمة، ج) العجاجرة: ١٠٠٠ خيمة، د) الخربة: ١٠٠٠ خيمة. وتمتاز العشيرتان: ابن سبيني وأبو سنون من الفدعان بكثرة خيولهما وجودة أجناسها.

٢ - السباع: غنية بجمالها وخيولها، وتتفرع إلى:

أ) القموصة: ١٠٠٠ خيمة، ب) الرسالين: ٥٠٠ خيمة، ج) العبادات: ٥٠٠ خيمة، الدوام: ٥٠٠ خيمة، هـ) المسخة: ٥٠٠ خيمة، و) العواجة: ٥٠٠ خيمة، ز) العمارات: ٥٠٠ خيمة. وقبيلة المصراب جزء من قبيلة الرسالين.

٣ - ابن حداد: قبيلة غنية وخيولها كثيرة، ٤٠٠٠ خيمة.

٤ - الحسنة: قبيلة مفلسة منذ ستين عامًا بسبب هجومات السباع والروالة. يعيش أعضاؤها قرب دمشق تحت سيطرة الحكم التركي.

٥ - الروالة أو جلعاس: أكبر القبائل ثروة وجبروتًا من بين قبائل العنزة، ويصل عدد خيمها إلى ١٢٠٠٠ خيمة. عندهم حوالي ١٥٠٠٠٠ جمل، ولكن خيولهم قليلة العدد لأنهم بدلوا حرباتهم بالأسلحة النارية في الغزوات. لقد مضى على مغادرتهم نجد سبعون عامًا ولكنها قبيلة وحيدة من بين قبائل العنزة التي حافظت على علاقاتها مع موطنها الأسبق.

٦ - ولد علي: وهي من أقدم تفرعات العنزة، ولها قبائل نسيبة أي لها الاسم نفسه وتوجد في وسط الجزيرة العربية وفي مصر. لهم جمال وخيول كثيرة. عدد خيمهم ٣٠٠٠ خيمة.

بقي أن نذكر أسماء القبائل الصغيرة وهي سرحان والعرفودي والطوف.

والقبائل الحليفة للعنزة هي الموالي والولدي والعرفودي وأبو ساراي وغيرها.

وكذلك توجد في شمال صحراء الحماد القبائل المستقلة التالية: بنو صخر، اللحف، العمور، العدوان، الشرارات، العلوين، الصليب.

تخضع لباشا بغداد القبائل التالية: المنتفيق، بنو لعام، المعدن، أبو محمد، الشمرتوقا، البطة.

النجد: تقول Lady Anne blunt عن النجد ما يلي: النجد بالنسبة لبدو الشمال منطقة شاعرية لأنها مهد عشيرتهم ونقطة انطلاق كرامتهم وأصلهم.

لم يمض وقت طويل على انتقال العنزة والشمر إلى الشمال، وأساطيرهم عن النجد مسجلة في مذكرات الأجيال الأخيرة.

يميل سكان بصرى وتدمر ودير الزور وقبيلة طي (أصحاب جبل الشمر الأسبقون) لنجد أكثر من الحجاز لأنهم خرجوا منه. ونجد بعيدة عن مخيمات البدو بالصحراء المنيعة والقاحلة، ويكاد لا يوجد بدوي واحد من الشمال الذي عبر صحراء النفوذ الكبرى (وهي الصحراء الفاصلة بين شمال الجزيرة العربية ووسطها).

في منتصف القرن الثامن عشر دعا محمد بن عبد الوهاب، وهو «لوثر» الإسلام، إلى تهذيب الإسلام مما دخل فيه من بدع في نجد فاعتنقه ابن سعود شيخ الدويري من العنزة. ثم تحول ابن سعود بمساعدة ابن عبد الوهاب من الشيخ إلى سلطان الجزيرة العربية، فخضعت له كل القبائل المجاورة، وبعد ذلك توحدت الجزيرة العربية في دولة واحدة وكان هذا لأول مرة بعد زمن النبي محمد. وفي عام ١٧٦٠ انتقلت عشيرة ابن عروق، التي لم ترض بالنظام الجديد في النجد، إلى الشمال، وكما تقول الأساطير التي سجلت في القصيدة التاريخية إن الإخوان الثلاثة من ابن عروق انطلقوا على جمل واحد ولم يأخذوا معهم إلا سيوفهم. استقر واحد منهم في واحة الجوف والثاني في تدمر حيث تزوّج وأصبح شيخًا لقبيلته. والشيخ محمد الذي كان مرشدًا لـ Lady Anne Blunt هو سليله المباشر، ووالده عبد الله وعمه فارس.

التقى الزوجان بلانت في رحلتهم إلى الجوف والنجد بأقرباء الشيخ محمد وهم أعضاء عشيرة ابن عروق فاعترفوا بأن الشيخ محمد هو من أقاربهم.

كان الزوجان بلانت من أول الأوروبيين في نجد لم يخفوا جنسيتهم، فكان بإمكانهم تنفيذ دراسات بارومترية وكتابة يوميات السفر. أما الرحالة الذين سبقوهما بسفرهم إلى النجد مثل فالين وغوارماني وبولغريف فكانوا كلهم يتنكرون

بالملابس المحلية . وقد زعم البروفيسور الفنلندي فالين أنه شيخ ، فوصل في عام ١٨٤٨ من شاطئ البحر الأحمر إلى الفرات ماراً بحايل . وكانت المعلومات التي أوصلها إلى الجمعية الجغرافية الملكية الإنكليزية قليلة الأهمية . ثم كلفت الحكومة الفرنسية غوارماني بزيارة نجد، وفي عام ١٨٦٥ نشر قصته الممتعة عن كل رحلته في كتاب : «Socié té de Geógraphic» . وهذا الكتاب مليء بالأوصاف المفصلة عن قبائل الصحراء ، ولكنه يخلو من وصف الطريق الذي سلكه وتضاريس البلاد ، من المعروف فقط أنه انطلق عام ١٨٦٣ من القدس وزار المناطق التالية : طيمة ، خيبور ، عنزة ، بريدة ، وحايل ، وعاد إلى سوريا عن طريق الجوف ووادي سرحان .

وبعد غوارماني سافر إلى النجد بأمر نابليون الثالث بولغريف وهو مبشر جزويتي تنكر بلباس التاجر السوري وكان يجيد العربية . لقد زار بولغريف في عام ١٨٦٤ حايل والرياض عاصمة الوهابيين ، ووصل إلى الخليج العربي في القطيف . وكان وصفه للمنطقة الوسطى من الجزيرة العربية أكثر تفصيلاً ومتعة من الذين قبله ، ولكنه اقتصر في مذكراته على وصف السكان والعلاقات الاجتماعية فقط . لم يكن بولغريف عاشقًا للطبيعة ، فكان يقوم بأسفاره ليلاً خوفًا من القيظ ، ولم تكن أوصافه لتضاريس صحراء النفوذ الكبرى وجبل الشمر صحيحة تمامًا .

كانت المعلومات الأكثر صحة عند الزوجين بلانت ، فهما أول من درس طريق الحج الكبير الذي يبدأ من الفرات ، كما أشارا إلى الخطأ في تحديد ارتفاع هضبة حايل وارتفاع الجبال المحيطة بها فوق سطح البحر . وهما اللذان أجريا بحثًا في خريطة شمال الجزيرة العربية ، كما أنهما وصفا الأوضاع القانونية الهامة السائدة عند القبائل المتنقلة .

عبر المجمع الجغرافي الملكي الإنكليزي عن شكه في المعلومات التي قدمها الزوجان بلانت بأن صحراء النفوذ الكبرى وجبل الشمر هي جزء من النجد . فقد

استنتج ذلك المجمع أن النجد هو الجزء الأوسط من الجزيرة العربية ويقع بين جبل طويق وصحراء النفوذ الصغرى، وأن جبل الشمر وجبل القاسم لا ينتميان إليه . ولكن برأي السيد بلانت أن حايل هو جزء من النجد، وهذا الرأي مرتكز على شهادات السكان المحليين وعلى المعلومات المأخوذة من المصادر المختلفة . نستنتج مما سبق أن النجد عبارة عن مكان واقع بين صحارى النفوذ الثلاث ويتكون من ثلاثة أجزاء ولكل جزء مميزاته التضريسية، فمن الشمال يحدها جبل الشمر والقاسم ويحدها من الجنوب جبل العارض . بعد هذا نطرح السؤال التالي : هل تُعدُّ صحارى النفوذ الثلاث جزءاً من النجد؟ طبعًا البدو يرونها كذلك لأن فيها المراعي الوحيدة القريبة من حايل التي تصلح لرعي المواشي .

الجزء الأوسط من النجد هو هضبة حجرية خالية من النبات . وتُعدُّ واحة الجوف في الشمال وخيبر وطيمة في الشمال الغربي خارج نطاق النجد . وتقع المدن جوبة وحريق أيضًا خارج حدود النجد، ذلك حسب موقعها الجغرافي، إلا أنها تخضع لسلطة أمرائها، فهل هي تنتمي للنجد أو لا؟

١ – يرى الكاتبان العربيان أبو الفيض والإدريسي (والعقيد روس يؤيدهما) أن النجد تحتل كل الأراضي بين اليمن والحجاز والعراق .

٢ – يزعم الكاتب العربي ياقوت الذي عاش في القرن الثامن عشر وذكر عند أوزينشتاين أن منطقة عجا (؟) تنتمي إلى النجد أيضًا .

٣ – ميراسيد يؤيد رأي ياقوت .

٤ – يعتبر الشيخ حميد بن القاسم (وهو أيضًا مذكور عند أوزينشتاين) أن النجد تحتل كل أراضي الجزيرة العربية الوسطى، فينضم إليها جبال الشمر والقاسم والصحراء الكبيرة في الجنوب .

٥ - قال نيبور: «تقع جبال الشمر بمسافة عشرة أيام عن بغداد وتضم المدن التالية: حايل، مونيق، كيفور، وبوقا. كما تنتمي إلى النجد واحة الجوف ووادي السرحان التي تقع على الطريق بين جبل الشمر وبلاد الشام».

٦ - رسم شاناي خريطة وطبعها عام ١٨٣٨ فضم فيها إلى النجد القاسم وجبل الشمر ومد حدود النجد إلى الشمال البعيد.

٧ - يرى فالين أن النجد هي المنطقة التي ينبت عليها نبات الغودة (؟)، ولا شك أن هذا التحديد بدوي، فيستنتج من ذلك أن النجد تضم جبل الشمر كله، وصحارى النفوذ الثلاث والجزء الجنوبي من وادي السرحان.

٨ - كتب في قاموس كازميرسكي المنشور عام ١٨٦٠ ما يلي: «تسمى المناطق المحيطة بنجد بالغودة حيث ينبت نبات بهذا الاسم».

٩ - كتب غوارامانى: «الجبل الشمالي من نجد هو واحد من أجزاء نجد السبعة. وكما أشهد شيخ العنزة زميل، هذه الأجزاء السبعة هي التالية: العارض وخسة (؟) وحريق في الجنوب ووشم في الوسط وجبل الشمر والقاسم وصديرة في الشمال».

ويصرح بولغريف عن بعض الاختلافات النسبية في المعلومات المذكورة عن النجد، كما فسر معنى كلمة النجد أي الهضبة، وهي تمتد موازية لشاطئ البحر الأحمر، ويقول في ذلك: «يقصد بالنجد كل المناطق الواقعة بين جبل الشمر في الشمال والصحراء الكبيرة في الجنوب، وسلسلة جبال الطويق في الشرق، وطريق الحج الممتد من تركيا في الغرب (جبل الحجي). والأراضي الواقعة بين هذه المناطق تشكل متوازي الأضلاع وتمتد بعرض شبه الجزيرة العربية من شمال شرق إلى جنوب غرب. ويقسمها السكان المحليون إلى القسمين التاليين: النجد الأعلى والنجد الأدنى. لا يعتبر جبل الشمر جزءاً من النجد ولكنه ينحاز إليه، كما أن العرب في أكثرهم يعدُّون واحة الجوف جزءاً منها.

نستنتج مما سبق أن نجد منطقة جبلية تضم جبل الشمر وهي أكثر نقطة ارتفاعًا في وسط الجزيرة العربية والقاسم حتى العارض.

بعد أن تأسست الدولة الوهابية لم تقتصر «نجد» على تسمية جغرافية فحسب بل صارت سياسية أيضًا، فقد انضمت إليها كل الدولة الوهابية مع الجوف والخسة(؟) التي تقع على شاطئ البحر وتخضع حاليًا للأتراك، ولكنها حتى الآن تعتبر جزءًا من النجد.

عندما زار بولغريف جزيرة العرب لم يكن جبل الشمر ضمن حدود الدولة الوهابية بل كان متعلقًا سياسيًا بها. بعد ذلك انفصلت القاسم عن النجد أيضًا أما خسة (؟) فاحتلها الأتراك. وفي الوقت الحاضر ليس للنجد سوى أهمية جغرافية.

في عام ١٨٩٢ قام البارون نولديه برحلته من دمشق إلى النجد ومنها إلى بغداد. والمعلومات التي دونها البارون عن جغرافية الجزيرة العربية تؤكد كل ما كتبه Blunt وتكمله.

حدد البارون نولديه المناطق التي تحتلها مخيمات رحل البدو على الشكل التالي: في الشمال من دمشق إلى حلب فعطفة (؟) فالموصل على شكل نصف دائري، وفي الجنوب صحراء الدخنة، وفي الشرق جزء من نهر الدجلة بين الموصل وبغداد وحدود بلاد فارس والخليج العربي حتى شبه جزيرة قطر، وفي الغرب فلسطين والحجاز والأسير. والجزء الباقي من شبه الجزيرة العربية أي عمان وحضرموت مفصول عن باقي شبه الجزيرة بالصحراء، وسكانها من البدو أيضًا ولكنهم منعزلون عن القبائل الباقية.

صنف البدو في المناطق المذكورة على الشكل التالي: قبيلة الشمر الشمالية في الرافدين، والعنزة غربي الفرات، والمنتفيق في العراق، والشمريون الجنوبيون في النجد الذين اختلطوا مع القبائل الأخرى لدرجة أنهم فقدوا أصالتهم تقريبًا. كما

يترحل حول النجد البدو من قبيلة العتيبة والمطير (التي تسمى أيضًا بالعنيزة نسبة إلى منطقة وجودها) والخازيق والحربس التي يخافونها لأن أعضاءها يعملون في قطع الطرق. وتضم هذه القبيلة من ١٥٠٠٠ إلى ١٨٠٠٠ فارس وتهاجم قوافل الحجاج المتجهين إلى مكة.

يقدّر عدد البدو في كل الجزيرة العربية بـ ١٢٠٠٠٠ فارس وحوالي ٦٠٠٠٠٠ من السكان كلهم. كما أنهم يحتلون مساحة هي ضعف مساحة ألمانيا أي ٥٤٠٠٠٠ كيلو متر مربع. عدد البدو من قبيلة الشمر الشمالية ١٥٠٠٠ فارس وفي العنزة ٣٠٠٠٠ فارس وفي النجد ٣٠٠٠٠ والحربس ١٥٠٠٠ والمنتفيق مع سكان العراق ١٠٠٠٠.

ظهرت حركة الوهابيين عام ١٧٤٦. كان أمير مدينة درعية محمد بن سعود أول زعيم لهذه الطائفة فاحتل وسط الجزيرة العربية بما في ذلك مكة والمدينة. وخلال ستين عامًا أخر توسعت الدولة الوهابية إلى حوران وجزء من سوريا، أما دمشق فكانت مضطرة أن تفدي نفسها عنها. كما أن الوهابيين توسعوا حتى الفرات ووصلوا إلى بغداد. في عام ١٨١٠ أرسل سلطان مصر محمد علي باشا ابنه طوسون ليحارب الوهابيين، ولكن الحرب لم تكن ناجحة. في عام ١٨١٦ توفي سعود وتولي مكانه ابنه عبد الله. في عام ١٨١٨ احتل إبراهيم باشا الابن الآخر للسلطان محمد علي وخليفة الجزيرة العربية فوقع عبد الله أسيرًا إلى أن أعدم في القسطنطينية.

بقيت الجزيرة العربية تحت السيطرة المصرية حتى عام ١٨٤٢ عندما انسحبت قواتها من الرياض من جراء بعض المشاكل الداخلية في مصر، فتولى الحكم في الجزيرة العربية فيصل بن عبد الله. حافظت إمارة حايل على استقلالها ومعها مدينة العنيزة والبريضة والسقرة والحريق والحوطة، والقبائل: حربس والعتيبة والمطير.

في عـام ١٨٧٢ تولى الحكم في إمـارة حـايل مـحـمـد بن رشـيـد. وفي العـامين ١٨٧٤-١٨٧٥ سلب الأتراك غزة من إمارة حايل. وفي عام ١٨٩١ دمر ابن رشيد بعد معارك كبيرة المدن المعادية له، وهي: بريضة والراز وقبيلة العتيبة والمطير، ومنذ ذاك الحين توطدت سيطرته على الجزيرة العربية.



الفصل الثالث

بعض البيانات عن جنس الحصان العربي

توجد تحت تصرفنا معلومات من المصادر الأربعة التالية :

١ - من تقرير اللجنة التي أرسلتها الحكومة النمساوية إلى سوريا برئاسة العقيد برودبرمان بهدف شراء الأحصنة والأفراس العربية في العامين ١٨٥٦ و١٨٥٧ .

٢ - رحلة Mr. Wilfred و Lady Anne Blunt إلى النجد وإلى البدو الشماليين عام ١٨٧٨ و ١٨٨١ .

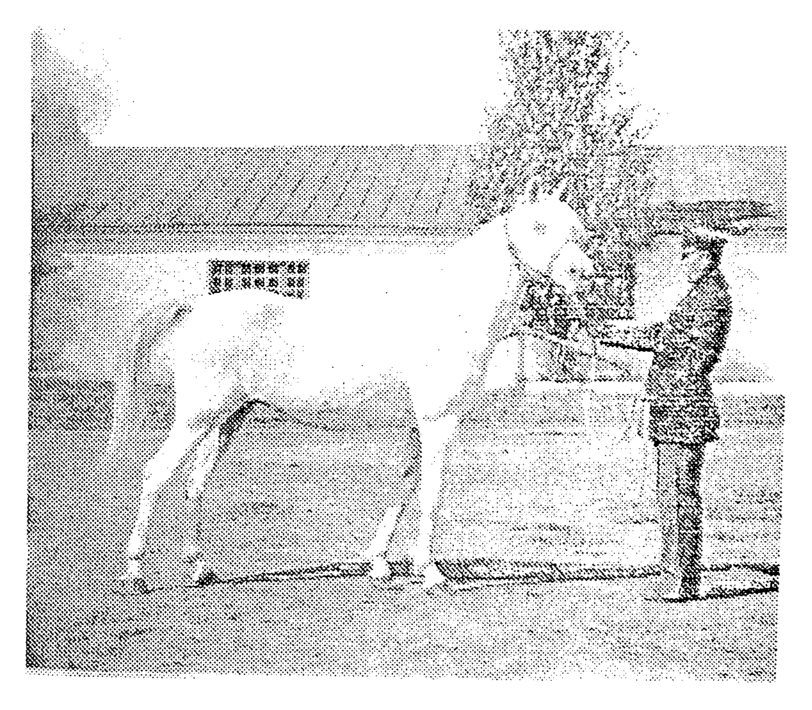
٣ - رحلة البارون نولديه إلى النجد عام ١٨٩٣ .

٤ - رحلتنا من دمشق إلى دير الزور عام ١٨٨٨ .

وأهم هذه المعلومات موجودة في مجلدات Lady Anne Blunt الأربعة، لأنها درست مع زوجها بعض المعطيات المنشورة قبلهما، وترحلت طويلاً بين المخيمات البدوية بهدف دراسة الحصان العربي. وما يثير الانتباه أن تقارير اللجنة النمساوية المجرية وبارون نولديه لا تختلف كثيراً عن معطيات Lady Anne Blunt. أما شهاداتنا فتؤكد على كل ما كان مدروساً قبلنا. وما يثير الانتباه أيضاً هو أننا سلكنا الطريق نفسه الذي سلكه الزوجان بلانت وقابلنا البدو أنفسهم الذين يعرفهم الزوجان ويذكرانهم في كتبهما. لذا سنبدأ هذا الفصل بموجز بيانات الرحالة الإنكليزية السيدة بلانت.

مقتطفات من كتب Lady Anne Blunt : لاحظت المؤلفة أن الكتب السابقة عن بلاد العرب لم تذكر شيئاً عن الحصان العربي. أما نيبور وبومغراد فلا يذكران

عنه إلا قليلاً. أما بو لغريف وهو يحتقر البدو فقال قولاً سطحيًا عن خيول قبيلة العنزة، وعندما شاهد الإسطبل في الرياض كرر قصة الخيول المنتمية إلى سلالة مميزة في النجد. يظهر أنه سمع هذه القصة من سكان الرياض لأن البدو الشماليين يعرفون كلهم ابن سعود حاكم مدينة الرياض، ويعرفون كذلك كل الخيول الموجودة عنده. وقد أكدوا جميعهم أن الخيول هذه جزء منها أخذ من الرياض نفسها والجزء الآخر اشتري منهم. في الوقت الحالي أي في عام ١٨٩٨ يشتري عبد الله بن فيصل ابن سعود الحجور من البدو الشماليين، وذات مرة أرسل أربعةً منها إلى فحل مشهور في حلب.



صبحة

فرس رمادية اشتراها السيد بلانت في القاهرة. عربية أصيلة من سلالة حمدانية سمرية. ولدت عام ١٨٧٩ من خيول عباس باشا. اشترته عزبة لتربية الخيل الحكومية عام ١٨٩٩.

أما الجنرال دوماس فلم يقل في كتابه عن خيول الصحراء الكبرى إلا بعض الكلمات : وما عدا كتاب غوارماني الصعب المنال يوجد كراس وحيد جيد عن الحصان العربي كتبه القبطان أوتون، عنوانه : " Gleanings from Arabia " و " Newmarket & Arabia " . وقد عدل المؤلف كراسه وكمله عام ١٨٧٦ بعد أن زار السباع والموالي وغيرها من القبائل في ضواحي حلب .

إذا أقدمنا إلى هذه المسألة بعرض رأي Lady Anne Blunt وزوجها فسنكون على حق إذا افترضنا أن الجزيرة العربية هي البلاد التي وجدت فيها الخيول البرية من البداية . ولا نقصد بذلك منطقة النجد بل بادية الشام، لأن النجد غير محتمل أن تكون موطنًا للحصان لعدم كفاية المياه والمراعي فيها . وأكبر احتمال أن موطن الحصان العربي بلاد الرافدين . وبعد أن زار الدكتور كولفيل الرياض عام ١٨٥٤ قال إنه لم ير خلال تنقُله سوى حصان واحد، أما غزة فوجد فيها خيولاً صغيرة الحجم ولكنها رائعة الجمال وقوية . وقد جلبت الحروب بين الشعوب اختلاطات الخيول العربية مع الأجناس الأخرى من السهوب الروسية وآسيا الوسطى، وهذا ما يظهر من الخيول المرسومة على الأبنية الكلدانية القديمة . وهذه الخيول رؤوسها كبيرة ورقابها غليظة وأعضادها عريضة، أي أنها كانت صالحة لجر العربات الثقيلة أكثر من السباق . وكل الأساطير البدوية تقول إن البدو من أول عهدهم كانت مراقبتهم دقيقة للحفاظ على أصالة الحصان .

يتراوح ارتفاع الحصان العربي الأصيل من أرشينين إلى أرشينين وفيرشوكين، أما هيئته فتشبه هيئة حصان السباق الإنكليزي . والفرق الأكبر بينهما هو شكل الرأس، فرأس الحصان العربي أكبر في أعلاه من رأس الحصان الإنكليزي، وعظام الخدّين أعمق وأكثر عرضًا في الأسفل . أما أذناه فرفيعتان وجميلتان كبيرتان محاطتان بخطوط . وعيناه كبيرتان ليّنتا التعبير، وجبينه ناتئ كجبين الأطفال،

ومنخاره ضيق ومجعد بعض الشيء. أما الخيول الإنكليزية فمعقوفة الأنف بالمقارنة مع الخيول العربية، وشكل رأسها مختلف تمامًا. وقد ذهلت Lady Anne Blunt من رؤوس الخيول الإنكليزية وهي مشدودة الجلد وضيقة الحلق.

رقبة الحصان العربي خفيفة الشعر وليست عنده تلك العفرة مثل التي على صورة Godhlphin Arabian. وعضد الحصان العربي جيد والجزء من رقبته الملاصق لمتنه مرتفع، ولكن هذا غير ظاهر بسبب ارتفاع كفله. كما أن عضله في الجزء الأعلى من ساقه قوي جدًا. متنه أقصر من متن الحصان الإنكليزي وضلوعه أكثر استدارة، أما أربيته فصغيرة. ومنبت ذيله عال ولكن ليس على مستوى المتن كما يظن البعض. ومقسم ذيله رائع وهو رمز أصالة الحصان العربي. بعض الحجور ترفع ذيولها إلى الأعلى لدرجة أنه يمكن تعليق العباءة عليها كما يقول البدو. ومؤخرته أعلى من مقدمته وأضيق من موخرة الحصان الإنكليزي، وهذا ما يدل على أصالته كما يدل على رشاقته أكثر من قوته. وخط مفصل الجري عند الحصان العربي أضيق من الذي عند الحصان الإنكليزي، وحركاته أكثر خفة ومفصله فوق الركبة أطول من مفصل حصان السباق. وركبتاه الخلفيتان أكبر حجمًا وأكثر انخفاضًا باختلاف الحصان الإنكليزي، والجزء الأسفل من ساقه الأمامية ما تحت الركبة قصير. أرجله قوية ولكن كثيرة الأطناب وقليلة العظام. ونقاء الأطناب وصلابتها هي صفة هامة للحصان العربي الذي لا يعرف الفكش. أرساغه رفيعة وطويلة فتثير بذلك القلق على سلامتها. والبدو يفضلون الأرساغ الطويلة لأنها بتقديرهم علامة الرشاقة. وحوافر الحصان العربي مستديرة وكبيرة وصلبة جدًا.

والنقص الوحيد في حصان السباق العربي هو صغر حجمه، ولكن عند مقارنة الحجوم لا يدري أحد أيهما أكثر رشاقة، الحصان العربي أم الإنكليزي. يدرب البدو خيولهم على الجري وهي تعرف الخبب والسير البطيء جيدًا. الحصان العربي

لا يسير بخطوات عالية ويحرك أرجله أثناء الجري منخفضًا. وفي السير البطيء يكون الحصان العربي ساهًا ولكن ليس هنالك خطر منه. ومن أدلة أصالة الحصان العربي هي دوران رأسه إلى اليمين واليسار أثناء السير. ولكن بسبب ذلك وبسبب الأرساغ الطويلة كثيرًا ما تغوص أرجل الحصان في التربة وخاصة إذا كان المكان وعرًا. ومع ذلك لا يتعثر الحصان العربي على الأرض الصعبة للعبور أبدًا. والركب المضروبة سببها هو ركوب البدو على خيولهم في الأماكن المحجرة وهي أمهار ضعيفة، ولا يرى البدو الكدمات على الركب نقصًا.

إذا تصورنا الحصان العربي الذي ارتفاع منبت رقبته عن الأرض خمسة فيرشوكات فهو حتمًا سيسبق الحصان الإنكليزي في الجري. طبعًا إذا كانت مسافة السباق من ثلاثة إلى خمسة أميال فستظهر رشاقة الحصان الإنكليزي أكثر من العربي، ولكن إذا كانت المسافة عشرين ميلاً فسيفوز الحصان العربي، فهو صبور ويتحمل المسافات الطويلة ولو كان محملاً بالأثقال، كما أنه يتحمل التدريب بشكل ممتاز. يستطيع الحصان العربي أن يسير عدة أيام ولا يتغذى أثناءها إلا بكلأ المرعى، ومع ذلك لا يفقد طاقته، ويبقى مستعدًا للجري السريع حتى بعد قطع مسافات طويلة. والحصان العربي وديع بطبيعته ويرتبط بصاحبه ولا يهابه. ويمكن الاقتراب بسهولة من الحصان المستلقي على الأرض فلن ينهض، كما أن الأفراس كثيرًا ما تقترب إلى أصحابها وتحك بهم مثلما تحك بالحائط. صحيح أن الصفات تعود إلى التربية ولكنها أيضًا ظاهرة من ظواهر الأصالة.

أكثر الخيول عند قبيلة العنزة كميتة اللون، والخيول البيضاء قيمة جدًا ولكنها نادرة. وقد ذُهل البدو من قبيلة القموصة عندما رأوا فرس الزوجين بلانت بلونها الأبيض وأناقة رأسها. من كل مئة من خيول العنزة حوالي خمس وعشرون كميتة، وثلاثون رمادية، وخمس عشرة مغراءوالباقية كميتة أحمة أو دهماء. لا يمكن أن

تكون الخيول العربية الأصيلة كميتة شهباء اللون أو بلقاء أو مصفرة، بذنب وعفرة فاتحة اللون أو شقراء. توجد عند الخيول الكميتة علامات سوداء، فتبدو كالجوارب الطويلة، أو على الجبين فتبدو كالصلعة أو النجمة. من أكبر الخيول حجمًا وأكثرها أناقة من التي شاهدها الزوجان بلانت كان حصان من سلالة سمحان القميع، كميت اللون مع بعض السمات السوداء، عمره ثلاث سنوات وارتفاع رقبته عن الأرض حوالي أرشينين وثلاثة فيرشوكات. وعلى الرغم من حسن هيكله بدا أخرق في سيره، وقد تكون التربية هي السبب. وكانت أفضل الخيول من التي شاهدها الزوجان بلانت كلها كميتة اللون، والأفضلية دومًا لهذا اللون سواء في البلاد العربية أو إنكلترا. عند شراء الخيول العربية يفضل اختيار الكميتة منها بعلامات سوداء. والافتراض الذي يقول إن البدو يملكون خيولاً من الدرجة الأولى خاطئ. لم ير الزوجان بلانت خلال رحلتهما إلا فرسًا واحدة مثالية عند قبيلة القموصة من سلالة عبية شركية، ولم يجدا خيولاً مماثلة لها إلا قليلاً. لم يجد الزوجان في قبيلة الشمر إلا حصانين بارزين، وفي قبيلة الفدعان حوالي ستة، وعند الروالة لم يجدا حتى حصانًا واحدًا جيدًا. وقبيلة القموصة هي الوحيدة من بين قبائل العنزة التي تتوافر خيول جيدة. وقد رآها الزوجان بلانت كلها واحدة واحدة في الغزوة عندما كان كل بدوي يمتطي أفضل حصان عنده. ومع ذلك لم يكن من بينها أكثر من عشرين حصانًا بارزًا بصفاته وحوالي خمسين حصانًا تستحق الشراء.

تشك Lady Anne Blunt أن الخيول البارزة في بلاد الشام يزيد عددها عن مئتين. ولا شك في أن تربية الخيل في البلاد العربية قد ساءت خلال عشرين أو خمسين سنة مضت. كان عند قبيلة الروالة في بداية القرن الحالي عدد كبير من الخيول، وكان البدو يفتخرون ببعض السلالات الموجودة عندهم. أرسل عباس باشا ذات مرة ابنه إلى شيخهم ابن شعلان ليتربى عنده، فاشترى ابنه منهم أفضل

الخيول التي أصبحت رمزاً لإسطبل أبيه. ومنذ ذاك الحين امتنع البدو من الروالة عن استعمال الحربات وبدلوها بالأسلحة النارية، فأخذوا يخوضون المعارك وهم يمتطون الجمال، فباعوا كل الخيول الموجودة عندهم. كما قل عدد الخيول عند الشمريين الشماليين، والسبب في ذلك هو أن كبار شيوخهم وهم صفوق وفرحان قد خضعوا للنفوذ التركي، وهذا ما أدى إلى الخلاف الداخلي الذي استغله البدو من العنزة لنهبهم. إضافة إلى ذلك اشترى عباس باشا منهم أفضل الخيول بمبالغ هائلة، فلم يبق عندهم الآن حصان واحد من سلالة صقلاوي الجدران، وكانت القبيلة مشهورة به من قبل.

قبيلة المتفيق (؟) المشهورة قبل كل شيء بخيولها، فقدت أصالتها بسبب إفراطهم في تكثيرها لتسويقها إلى الهند. فقد وجدوا أن النسل من الاختلاط بين الحصان العربي والفارسي يتسوق إلى الهند بسهولة مقابل الخيول العربية الأصيلة، كما يزداد ثمنها بازدياد حجمها. يكون ارتفاع الخيول الفارسية والتركمانية أرشينان وأربعة فيرشوكات وقد خلطها المتفيق (؟). تسمى هذه الخيول في الهند Gulf Arabs.

كانت قبيلة السباع مشهورة بأفضل خيول البادية، ولكن بعض الظروف المختلفة أدت إلى انخفاض عددها، فقد بيعت الكثير منها بسبب الجفاف والمجاعات، والبعض منها سلم لأهل المدن بالتناصف. قال مؤجل بن مصراب إنه سلم فرسه الممتازة إلى المدينة وفق الشروط نفسها، فبقيت هذه الفرس واقفة على أرجلها الأربعة لمدة سنة دون مغادرة المربط. كما أن الخلافات الداخلية المستمرة بين القبائل أدت إلى أضرار كبيرة في هذا المجال، فالحصان المسلوب من الأعداء يباع مباشرة إلى المدينة لكي لا يضطر السالب إلى إرجاعه إلى صاحبه القديم دون استلام الفدية منه في حال السلام. وقد رأى الزوجان بلانت في حلب كيف كانت تحضر الخيول إليها وهي منهكة ومجروحة بالحربات.

ما عدا هذه الأسباب المذكورة يوجد سبب آخر وهو الطريقة البدوية الضارة في تربية الخيل. صحيح أن هذه الطريقة موجودة منذ زمن بعيد، ولكن في قديم الزمان عندما كان البدو أغنى من الآن كان عندهم عدد كبير من الأحصنة. أما الآن فليس عندهم إلا جواد واحد لكل مئتي فرس. وهذا ما يفسر وجود عدد هائل من الأفراس «العازبة» والنسل السيئ. وما يؤثر ضررًا أيضًا على السلالة هو سفاد الخيول القريبة بدمها، وهذا بسبب الحروب القبلية المستمرة فتضطر كل قبيلة أن تكتفي بالخيول الموجودة عندها فقط دون خلطها مع خيول القبائل المجاورة. يختار البدو الفحل وفقًا لسلالته وهو غالبًا ما يكون بنواقص ظاهرة في شكله الخارجي. رأى الزوجان بلانت عند قبيلة الأخدعات جوادًا صغير الحجم دون أية صفة جيدة ومع ذلك كان الكل يحترمونه نظرًا لانتسابه لسلالة أعنق حدروج من عشيرة ابن سبيل.

إذا أخذنا بعين الاعتبار كل الأخطاء والجهالة لدى أصحاب الخيول فسوف نندهش كيف استطاعت تلك الخيول أن تحافظ على نفسها بهذا الزمن الطويل دون أن تفقد صفاتها الجيدة. من أجل الحفاظ على أصالة الحصان يجب الابتعاد عن خلطه مع الخيول غير الأصيلة، ولكن ما يضر أيضًا هو إعطاء الأفضلية ليس لحصان جيد ولو كان من سلالة غير قيمة، وإنما لحصان منتسب إلى سلالة قيمة ولو كان سيئًا.

عندما يسعر بدوي حصانًا معتمدًا على شكله الخارجي، يلتفت إلى الرأس أولاً فيعرف بذلك سلالته. كما أن وجود السمات المذكورة مهم أيضًا، أما هيئته فلها الدرجة الثالثة من الأهمية. وليس هناك أهمية كبيرة لرشاقة الحصان، ففي الحرب حيث الهروب والمطاردة التي لا تكون على طريق مستقيم، يصبح صبر الحصان بدرجة عالية من الأهمية، زد على ذلك يشتهر الحصان برشاقته فقط إذا كان

خفيف الحركة ومروضا. البدو لا يعرفون استخدام رشاقة الحصان بشكل جيد، وإذا أرغمتهم الظروف على ذلك عندئذ يركبون بخبب خفيف فلا يقطعون أكثر من ميل أو ميلين. وفي السفر الطويل يقطع الحصان العربي يوميًا مسافات كبيرة بالسير البطيء أو الخبب على الرغم من التوقفات الكثيرة، فتارة يركبونه شهرًا كاملاً على التوالي ولا تتناول الخيول خلاله إلا كمية ضئيلة من العلف، وتحرم من الماء لعدة أيام في بعض الأحيان بالإضافة إلى القيظ أو البرد أو الرياح الشديدة. والأمهار جديدة الولادة تتربى على هذه الطريقة القاسية، ولكن هذا يؤثر سلبًا على حجمها وتطور سرعتها.

عندما يولد مهر (وهذا يحدث طوال العام لأن البدو لا يلفتون انتباههم إلى ذلك) يربطونه مباشرة إلى شاخصة الخيمة من رقبته وساقه فوق الركبة، فيبقى مربوطًا هكذا حين ترعى أمه أو إذا كانت غير موجودة في المخيم. وسبب ذلك هو ضرورة استخدام الفرس للركوب عليها. لا يريح البدو أفراسهم إلا لفترة شهر أو شهر ونصف قبل أن إنجاب المهر ومثلها بعد الإنجاب. وعندما يكبر المهر قليلاً يبدأ الأطفال بامتطائه. من العقائد البدوية التي تشاركهم فيها Lady Anne Blunt أنه يجب امتطاء الحصان قبل بلوغه ثلاث سنوات من العمر لكي يكون صالحًا للفروسية. لذلك يركب البدو خيولهم وهي في السنتين من عمرها ويستخدمونها حتى في الأسفار الطويلة، ويدربون الأمهار على اللف والدوران في الجري. ومن جراء هذا العمل الجهيد غالبًا ما تتصادف عند الخيول العربية نوام عظيمة، ولو أن «كوربا» والجبيرة ظواهر نادرة الحدوث.

تتدرب الأفراس على النمط نفسه وتبدأ بالولادة وهي في الرابعة من عمرها. تباع الأحصنة لأهل المدن كدير الزور وحلب والموصل، أو للمشترين الذين يزورون البدو لهذا الهدف في مخيماتهم الصيفية. يحصل أهل المدن على خيرة الأنسال لأن

تجار الخيل الذين يزودون السوق الهندي بالخيول نادراً ما يشترون الخيول الأصيلة؛ لأنها أغلى من الخيول العادية بثلاث مرات، وكتابة سلسلة النسب الكاذبة أمر سهل. والبعض منها تباع للقبائل الثانوية لإعادة بيعها.

لا يسمع عن البدو شيء ما يخص أمراض الخيول إلا قليلاً، فأمراض جهاز التنفس لا تتصادف أبداً، ولم تر Lady Anne Blunt إلا فرساً واحدة مصابة بربو الخيل. أما التواء الأمعاء وغيرها من الأمراض الباطنية الأخرى فتحدث كثيراً عند الخيول العربية، وأكثر هذه الأمراض مميتة. تتغذى الخيول أكثر فترات السنة دون شبع فلا يطعمونها إلا الذُّرة، وفي الحالات الشاذة لبن الجمال. تتغطى الخيول في الشتاء بالشعر فتصبح شعثاء ولا تنظّف حتى الربيع حين زوال الشعر. وتكون الخيول في الشتاء جائعة وقذرة وشعثاء، أما في الصيف فيلمع شعرها كالحرير ويدل منظرها الخارجي على الأصالة.

معطيات الزوجين بلانت عن الخيول التي شاهداها عند البدو: البدوي لا يهتم بمنظر حصانه الخارجي عند بيعه، فيحضره للشاري قذراً ومجعداً كما هو في بيته. فالبدوي يقدِّر في حصانه السلالة قبل كل شيء ويظن أن الشاري له التقدير نفسه. لقد تهرب الزوجان بلانت على قدر الإمكانية عن شراء الخيول من البدو الذين يعرفانهم، فقد سمعا أن التفاهم معهم صعب لأنهم يبدلون طلباتهم وأسعارهم المعروضة باستمرار. ويكون الشراء منتهيًا فقط بعد أن ينتهي صاحب الحصان من عد النقود بوجود ستة أشخاص من أصدقائه. البدوي لا يكذب قطعًا في موضوع سلالة الخيول الموجودة عنده، وتمنعه من ذلك العادات والخوف من الاستنكار العام وعدم إمكانيته إخفاء ذلك. البدو غير مرتبطين بخيولهم، ومع ذلك يعتزون بها ويدركون قيمتها.

كتبت Lady Anne Blunt عن شراء الخيول في دير الزور ما يلي: «تشتهر مدينة دير الزور بسوقها الخيلي، ولأنها أيضًا مدينة وحيدة في شمال النجد حيث يقدِّر سكانها أصالة الخيول. وهولاء السكان هم البدو أنفسهم في حقيقة أمرهم ولم يتحضروا إلا منذ فترة قصيرة. إنهم يشترون الأمهار من قبيلة القموصة وغيرها من قبائل السباع، ثم يبيعونها بالتناصف فينتجون عنها سلالات معينة، وهم يتبعون في ذلك العادات البدوية بكل معنى الكلمة. يمكن القول إن خيول دير الزور أصيلة تمامًا، لذا فإن شراء الخيول فيها أفضل من شرائها من دمشق أو حلب».

لقد اشترى الزوجان بلانت فيها فرسًا من سلالة سعادان طوقان المشهورة في كل البادية بجمالها، ولكنها لا تنجب أمهارًا. كما اشترى الزوجان فرسين، واحدة العنقاء والثانية الصلاحية (؟). وفي طريقهما من دير الزور إلى بغداد رأى الزوجان في منطقة مدين عند مديرها فرسًا كميتة من سلالة عبية شركية، وكانت سريعة جدًا. أروهما فرسًا أخرى جميلة أيضًا لونها بين الرمادي والكميت الأشهب من سلالة الكحيلية، وبما أن صاحبها لم يكن عارفًا اسمًا ثانيًا لسلالتها فكان غير ممكن الاعتراف بصلاحيتها للعزبة. وهذا الواقع يبرهن على صدق البدو في الإجابة عن الأسئلة الخاصة بالخيول، فقد كان بإمكانه أن يقول اسم أية سلالة تأتي على خاطره حتى يقبض أموالاً ضخمة.

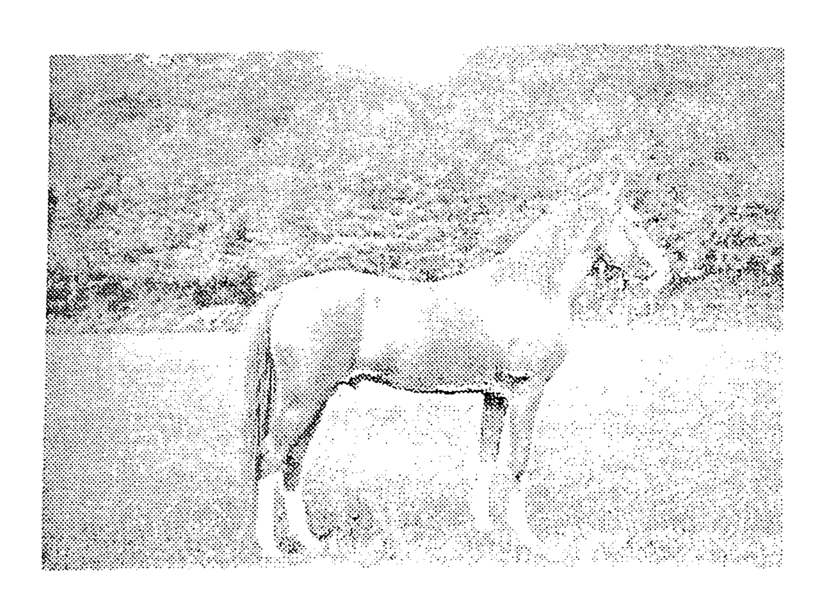
كان الشيخ ابن شعلان من الروالة يعتبر نفسه مالكًا وحيدًا لسلالة صقلاوي الجدران، لذا اندهش كثيرًا ولم يقدر أن يصدق كلام الزوجين بلانت بأنهما شاهدا السلالة نفسها في عشيرة ابن الدري من قبيلة القموصة وابن سبيني من محد.

كان عند الشيخ صياد من قبيلة ثابت الشمرية فرس كميتة قوية من سلالة صقلاوية عرجبية.

كل خيول قبيلة الشمر أصيلة دون شك، ومع ذلك لم يجد الزوجان بلانت منها خيولاً أنيقة خلال رحلتهما إلى الرافدين. وكانت من أفضل الخيول التي شاهداها فرس شيخ الشمر فارس، ارتفاع رقبتها فيرشوكين، ولونها رمادي من سلالة سعادية طوقان. كما كانت عنده فرس أخرى شعيمة السباع وقوية العضدين وعميقة حزام السرج وفولاذية الأرجل، ومع ذلك كانت غليظة الكفل وغير أنيقة الشكل.

اشترى القنصل في حلب السيد إسكين للزوجين بلانت فرسًا بيضاء من سلالة حمدانية سمرية. وكان جدعان شيخ العنزة وعقيدها يركب جوادًا من سلالة كحيلان الأخرس يبلغ من العمر أربعة سنوات وارتفاع رقبته فيرشوكين، كميت اللون مع «جوارب طويلة» على ثلاثة من أرجله، وبعلامة بيضاء على الجزء الواصل بين الرقبة والمتن. لم يكن عضداه الممتازان وكفله اللحيم تعوض عن نواقصه الكبيرة، كالرقبة الثقيلة، والمسافة الطويلة بين ركبتيه الخلفيتين وحوافره. كانت عند عم الشيخ علي من قبيلة العواجة من السباع فرس قوية مغراء غامقة من سلالة كحيلية أخرس التابعة لجدعان. والأجمل من كل هذه الأفراس هي فرس الشيخ فرحان من سلالة حديبة مشخطيب.

لم تكن عند قبيلة ولد علي خيول بارزة عدا الاستثناء الوحيد وهو جواد رمادي صغير الحجم، ارتفاع رقبته دون فيرشوك واحد فوق الأرشينين ولكن جيد، وكان منتميًا لسلالة صقلاوي الجدران من عشيرة ابن الدري. أما في قبيلة القموصة فوجد الزوجان بلانت مهرًا رائعًا بالغًا من عمره ثلاث سنوات، كميت اللون بعلامات سوداء من سلالة سمحان القميع، ارتفاع رقبته فيرشوكين. على الرغم من صغر سنه كان أكثر الخيول قوة من التي رآها الزوجان بلانت، كما كان له عضل واضح في زنده وأفخاذه، وحركاته ممتازة. والأحصنة نادرًا ما ترضي أصحابها في الترويض بخلاف الأفراس.



مسعود

حصان أمغر ولد عام ١٨٨٧ عند علي باشا الشريف في القاهرة. أحضره إلى إنكلترا السيد بلانت. سلالته صقلاوي جدران. عربي أصيل

ذات مرة جاء الشيخ بطين بن مرشد من قبيلة القموصة إلى مقر الشيخ محمد دوخي على فرس عمرها ثلاث سنوات من سلالة عبية شركية، لونها كميت غامق وارتفاع رقبتها فيرشوكين، رأسها جميل، والاتصال بين رأسها ورقبتها يدل على كرامتها. رقبتها خفيفة الشعر وأنيقة، والاتصال بين رقبتها ومتنها عال عن الأرض، طويلة العضدين وقوية مفصل الجري، هذه كلها دلائل على رشاقتها. ركبتها الخلفية ممتازة ومقسم ذيلها أيضًا. بشكل عام كان شكلها الخارجي وسيرها يمتازان بخفتهما وأناقتهما كالغزلان. كانت هذه الفرس من أفضل الخيول التي شاهدها الزوجان بلانت في ذاك الوقت، وقد اشتراها صاحبها بـ ١٣٥ جنيه استرليني.

كان مع القموصيين مؤجل من قبيلة المصراب على جواده الجميل من سلالة جلفان الأطناب الفولاذية.

وما يخص الخيول في حايل تلك هي ملاحظات Lady Anne Blunt تجاهها:
عزبة ابن رشيد لتربية الخيل في حايل من أشهر العزب في شبه الجزيرة العربية التي أزاحت عزبة فيصل بن سعود في الرياض. حدث هذا التغير بسبب التعقيدات السياسية ونقل مقر الحكم في الجزيرة العربية من واحة العارض إلى جبل الشمر. حدث ذلك عام ١٨٦٥، وانتقلت السلطة من أسرة ابن سعود إلى أيدي أمراء حايل. الأمير الحالي محمد بن رشيد ليس أميرًا جبارًا فحسب بل هو من أغنى شيوخ البدو، لهذا استطاع الحصول على أفضل خيول النجد بسهولة.

يُعدّ تملك الخيول الأصيلة عند العرب رمزًا للسلطان، لهذا بعد أن فقد أتباع ابن سعود دورهم السياسي فقدوا قدرتهم على دعم عزبتهم فأدى هذا إلى انحلاله. وفي الوقت الحالي لم يبق في الرياض إلا الجزء العشرون من مجموعة الخيول السابقة.

من المحتمل أن عزبة ابن سعود كانت أول عزبة لتربية الخيل في البلاد العربية، ولكن لا داعي للافتراض أنها كانت مختلفة عن العزبة التي شاهدها الزوجان بلانت في حايل، أو أن الخيول الموجودة فيها مختلفة عن الخيول الموجودة في القبائل البدوية في النجد. العكس صحيح، فكل الأجوبة عن الأسئلة التي طرحها الرحالة تدل على الرأي الخاطئ بأن أمير الرياض كان يملك جنسًا مميزًا من الخيول التي توجد في واحة العارض منذ غابر الزمان وتختلف عن خيول وسط الجزيرة العربية. الكل حاولوا إقناع الزوجين بلانت بأن خيول مدينة الرياض مجمعة من قبائل صحارى النفوذ الثلاثة. صحيح أن هذا التجميع قيم، ولكنه مجرد تجميع، وأي بدوي كان يضحك عندما كان يسمع عن جنس مميز من خيول النجد.

واصل وكلاء فيصل المفوضون بحثهم عن الحجور، وكثيراً ما كان الأمير يغزو القبائل المجاورة بهدف واحد وهو الحصول على الخيول المميزة منهم، التي تنتسب إلى جنس مميز. كان يكسب من قبيلة المطير (التي تسمى في بعض الأحيان دوشان) أفضل الأجناس من الخيول كحمداني سمري وكحيلان القروش. أما قبائل بني خالد وضفير والشمر، حتى العنزة في بعض الأحيان، فكانت تزوده بنماذج مختلفة من أجناس الخيول. احتفظ عبد الله بن سعود حليف الأمير على البعض منها حتى الآن، ولكن أكثرها انتقلت إلى أيدي متعاب وبندر وهما من أسلاف محمد بن رشيد. ومحمد يتبع الطريقة نفسها ولكنه لا يأخذ الخيول من البدو بالإكراه بل يدفع لهم ثمنها. توجد عزبته في مدينته لكن الخيول تحضر إليها من خلف نطاق المدينة وهذا ما يصون أجناسها من الانحلال، وهذا قد يحدث إذا بقيت الحيوانات في إسطبلها دون حركة تتغذى بالعلف الدسم.

توجد مفاهيم خاطئة تقول إن واحات جبل الشمر والعارض تصلح بظروفها الطبيعية لتربية الخيل أكثر من غيرها، وإنها محاطة بالأراضي الرملية القاحلة الخالية من مراعي. ولكن العكس صحيح، فالواحات التي توجد فيها المدن لا ينبت فيها سوى نخيل التمر والنباتات البستانية، والمناطق المحيطة تخلو من العشب ومراعي الجمال. لذا لا يربي أهل المدن إلا أعداداً محدودة من الجمال والحمير للعمل، وهي تتغذى بالتمر والشعير. أما الخيول فهي للترف فقط ولا يملكها سوى الأمراء المالكين، حتى السكان الأغنياء يقومون بأسفارهم سيراً على الأقدام، وفي الرحلات الطويلة يستأجرون الهجن والبدو.

ومن جهة أخرى تحتوي صحارى النفوذ على أفضل المراعي الصالحة لرعي جميع أنواع الحيوانات. يتجه ابن رشيد في الربيع إلى هذه المراعي مع الجزء الأكبر من قطيعه الذي يعهد فيه إلى البدو، ولا يترك في مدينته إلا الكمية اللازمة

للاستخدام اليومي. أكدت Lady Anne Blunt الوقائع غير المعروفة بأن النجد حيث توجد المدن والقرى هي عبارة عن صحارى حجرية خالية من النبت تقريبًا، في حين أن صحارى النفوذ تحتوي على أفضل المراعي. وقلة المياه فقط تقلل من أهميتها، والبدو المترحلون لا يبتعدون أكثر من ٢٠-٣٠ ميل عن بئر، والآبار نادرة.

شاهد الزوجان بلانت الخيول في عزبة ابن رشيد ثلاث مرات أو أربع مرات وهي مربوطة، ومرة واحدة في الترويض. تحتوي الإسطبلات على أربعة أفنية متصلة حيث الخيول مربوطة بمعالف مربعة الشكل ومصنوعة من القرميد. تقف الخيول في الهواء الطلق مغطاة بأرديتها الطويلة والسميكة المزررة على صدرها. كما أن الخيول مربوطة بالسلاسل بالأرض من أرجلها، وكان منظرها غير جميل بسبب عدم العناية بها وبرودة الشتاء. في أثناء التوقف في حايل تمنع الخيول من الحركة فتبقى مربوطة لمدة أسابيع عدا دقائق معدودة في كل مساء عندما تؤخذ إلى السقاية. لا تتغذى هذه الخيول إلا بالشعير الجاف، وفي الربيع تنال عشبًا أخضر يزرع خصيصًا لها. ثم تؤخذ إلى صحراء النفوذ أو إلى الحرب. من العجيب أن الخيول في مثل هذه الظروف تبقى قادرة على العمل.

كان في الفناء الأول ٢٥-٣٠ فرسًا وفي الثاني ٢٠ من التي تعيش في ظروف أفضل من غيرها ومستعدة لتستخدم عند الحاجة. يجب أن يكون الإنسان خياليًا لكي يعترف بأنها خيول عربية بمنظرها القذر والمهمل وهي مربوطة بمرابطها، ولكن ما تحت سرجها شيء مختلف تمامًا.

امتازت منها الخيول التالية:

١ - الفرس المغراء كحيلية القروش، ثلاثة من أرجلها «بجوارب طويلة» (مطلق اليمين)، ارتفاعها أكثر من أرشينين بقليل ولكن قوية جدًا. رأسها غليظ

وناشف وضيق فتشبه بذلك الطراز الإنكليزي. رقبتها ثقيلة وعضداها ممتازان وثنتها طويلة الشعر. يبدو عليها من الوهلة الأولى أنها غير أصيلة الهيكل، ولكن إذا صارت تحت سرج الأمير سيتعجب بها الكل عدا الأشخاص المتعنتين جداً. إنها فرس مثالية ومفضلة لدى محمد، ومن أفضل أجناس النجد. حصل ابن رشيد على هذا الجنس من الخيول من إسطبلات ابن سعود في الرياض ولكن أصلها من قبيلة المطير.

٢ - الفرس الكميتة حمدانية سمرية، أيضًا من عزبة ابن سعود، جميلة الرأس ولكن دون صفات أخرى جيدة. وفرس الزوجين بلانت شريفة من نفس السلالة ولكن أسوأ منها.

٣ - الفرس الرمادية صقلاوية شايفية، بسيطة الشكل جداً، واطئة الكفل وغليظة الرأس ولكن ممتازة الأعضاد. لها شهرة كبيرة في حايل، وما يلفت الانتباه أيضًا هو أنها ختامية في سلالة الفرس المشهورة التي اشتراها عباس باشا. تسمع هذه البيانات في النجد وشمال البلاد العربية.

٤ - الفرس الكميتة الغامقة كحيلية العجوز، ارتفاعها أكثر من أرشينين بقليل، على ساقها «جورب طويل»، ممتازة الهيكل، من بين كل هذه الخيول لها أجمل رأس وأكبر عيون. حركاتها مثالية، ووضعية رأسها ومقسم ذيلها لا عيب فيهما، تشبه فرس بطين بن مرشد ولكن رأسها أفضل. إنها ملك حمود (واحد من مقربي محمد بن رشيد)، الذي يفتخر بها ويقول إن أصلها من جرب الشمر. غريب ما الذي جاء بها إلى هنا من ضفاف الدجلة؟ يقولون إن تبادل الخيول بين الشمريين الشماليين والجنوبيين يحدث كثيراً.

٥ - فرس كميتة أحمة غامقة من سلالة كحيلية العجوز، توجد على ساقها

فوق الحافر علامة بيضاء. ممتازة الرأس وأصيلة الشكل، وجريها أفضل جري من بين الخيول الموجودة عدا الأولى والرابعة. ومن الصعب تحديد الأفضل من الثلاثة.

ومن أحصنة الأمير الثمانية كان الأفضل منها من سلالة شعيمان السباع، قوي جدًا، كبير الرأس ومع ذلك أنيق. كان يشبه فرس الشيخ فارس جربة وهي من السلالة نفسها، ومن المحتمل أنهما قريبان لتشابه شكلهما. ولد هذا الجواد في النجد.

الجواد الرمادي صقلاوي الجدران من عشيرة ابن الدري في قبيلة القموصة العنزية وهو ممثل سيّئ لسلالته، إلا أن احترام البدو لهذه السلالة تتفوق على نواقص الحصان، ولو أن صقلاوي الجدران الأصيل لم يعد موجودًا عندهم. هذا الواقع بأن جوادًا مثل هذا قيّم في حايل يبرهن على سمو الخيول العنزية في النجد. وقد اقتنع الزوجان بلانت أيضًا بتفوّق الخيول العنزية على النجدية برشاقتها، ومهما كان سكان حايل النجديون يعتزون بخيولهم، فإنهم يعترفون بأن خيول العنزة رشيقة أكثر منها. والخيول التي اشتراها الزوجان بلانت أيضًا تمتاز برشاقتها.

لقد ذهل الزوجان الإنكليزيان من صغر حجم الخيول النجدية وعدم جسامتها بالمقارنة مع الخيول التي شاهداها في الشمال.

الخيول النجدية قصيرة الرقبة والجسد، لذا فهي تغطي أثناء وقوفها مساحة من الأرض أقل من خيول العنزة. إنها حسنة العضدين وعالية اتصال الرقبة بالمتن ولكن قصيرة المؤخرة، ولولا أناقة مقسم ذيلها لكانت مؤخرتها غليظة. أرجلها حسنة ولكن لا تجد عند واحدة منها هذه الاستقامة الجميلة في الساق الخلفية فوق الركبة التي تجدها عند خيول العنزة الأصيلة. من الصعب الحكم على حوافرها نظرًا لوجودها المستمر في المربط. أما عفرتها وذيلها فأسوأ وأكثر كثافة مما يجب.

ولكن رؤوسها أفضل من رؤوس خيول العنزة بكثير في نظر البدو.

رأس الحصان العربي كما يجب أن يكون وفقًا لآراء البدو:

أولاً: يجب أن يكون الرأس كبيرًا، فالبدو يكرهون الرأس الصغير، ومع ذلك فحجم الرأس يجب أن يكون متركزًا في الجزء الأعلى من الجمجمة. يجب أن تكون المسافة بين الأذنين والعينين كبيرة، وبين العينين كذلك، ولكن يجب ألا يكون هكذا بين الأذنين. يجب أن يكون الجبين وما تحت العينين وبينها ناتئًا، والعينان واسعتين. ويجب أن تكون كل عظمة مترسمة بوضوح لأن اكتناز هذا الجزء من الرأس باللحم وتسطح الجبين يُعدُّ نقصًا. يجب ألا تكون العينان محاطتين بالشعر حتى يكون الجلد الأسود واضحًا من الأسفل، ويجب أن يكون الجلد حول العينين أكثر سوادًا من الأجزاء الأخرى. يجب أن تكون العظام الوجنية عميقة ورفيعة أما عظمة الفك فيجب أن تكون مترسمة بوضوح. أما قصبة الأنف فيجب أن تكون متضيقة إلى الأسفل ونهايتها حادة نسبيًا ليس عند فتحات الأنف كالحصان الإنكليزي، بل عند الشفاه. ويجب أن تكون فتحات الأنف على استقامة واحدة مع قصبة الأنف وتكون على شكل شقوق مثل الفم، ويجب أن تكون الشفة السفلى أطول من الشفة العليا. ويجب أن تكون الأذنان طويلتين وخاصة عند الأفراس ولكن برسم محيطي رفيع وجميل كأذن الغزلان.

بشكل عام يهتم العرب بالدرجة الأولى بالرأس والذيل. وهذه الأجزاء من الجسد ممتازة عند خيول النجد ومنها خيول حايل، ومهما كان الاختلاف بينها فإنها لا تختلف في مقسم ذيلها وهو مستقيم الشكل وليس منحنيًا.

أما ما يخص لون الخيول فقد كانت في حايل من كل مئة حصان أربعون رمادية اللون أو بالأحرى بيضاء اللون، وعشرون مغراء وثلاثون كميتة والباقية كميتة أحمة، ولم يكن بينها دهماء اللون أو مشكلة الألوان. لقد أكد الأمير تفضيل

الزوجين بلانت للخيول الكميتة والمغراء. اللون الذي يفضله العرب هو كميت بعلامات سوداء أو بيضاء بجلد أسود وحوافر سوداء. لا تُعدُّ الأرجل «المحجلة بحجال طويل» نقصًا، ولكن بشكل عام في البلاد العربية لا يلتفتون إلى اللون كثيرًا، فالأهم من ذلك هو انتساب الخيول لسلالة دارجة.

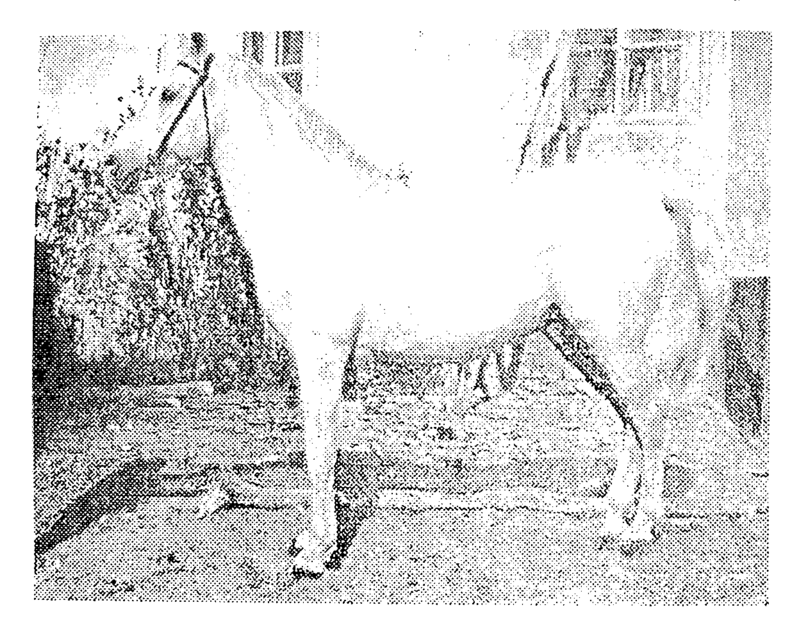
ما عدا الحيوانات الكهلةتوجد عند ابن رشيد من ٣٠ إلى ٤٠ مهرًا لا يزيد عمرها عن سنة، ولكنها منهكة جدًا وممتهنة. الأمهار الموجودة في الصحراء هزيلة الشكل، ولكن هذه أسوأ منها. إنها مربوطة بأرجلها طوال النهار، فيكون منظرها كئيبًا ولا شيء يدل على لعوبتها. قال الأمير للزوجين بلانت إنه يرسل كل ربيع حوالي مئة مهر إلى الكويت على الخليج العربي مع واحد من أرقائه من أجل بيعها إلى بومباي، فيقبض على كل رأس حوالي مئة جنيه إسترليني، وطبعًا هذه الأمهار تُسمَّن في المراعي الربيعية في صحراد النفوذ قبل بيعها.

عمومًا لقد أحبط الزوجان بلانت ممّا شاهداه في النجد، ولم يكن من بين هذه الخيول إلا ثلاثة أو أربعة حجور يمكن أن تقارن مع خيول قبيلة القموصة.

ملاحظات بلانت العامة في موضوع خيول النجد:

أولاً الخيول في النجد قليلة، وحتى إذا قطع أحد مسافة طويلة قد لا يجد على الأرض أثرًا واحدًا لحوافر الخيل. لقد فحص الزوجان بدقة كل الطرقات ولم يجدا منذ مغادرتهما قبيلة الروالة حتى وصولهما إلى مشهد على قرب بغداد أكثر من عشرين أثرًا للخيل. قال البدو من قبيلة قطرين النجدية، وهي فرع من فروع بني خالد إنه يمكنهم أن يجمعوا مئة فارس من قبيلتهم، والبدو من قبيلة المطير المشهورة بتربية الخيل في النجد لا يملكون أكثر من أربعمئة فرس.

الحصان في شبه الجزيرة العربية هو للترف وليس للحاجة اليومية كما هو في شمال البلاد العربية . وسكانها يقومون برحلاتهم أو يخوضون الحروب وهم يركبون الجمال، والشيخ لا يمتطي حصانه إلا في الحرب، وسبب كل هذا هو قلة المياه في المنطقة .



القادر

حصان أبيض ولد عام ١٨٨٢ في قبيلة الروالة في الجزيرة العربية . سلالته كحيلان سويتي . أحضره إلى روسيا الأمير شيرباتوف عام ١٨٨٨ . ارتفاع منبت رقبته أرشينان وفيرشوكان ونصف

ثانيًا كل الخيول الموجودة في النجد مولودة في صحراء النفوذ وليس في الواحات . ففي صحارى النفوذ ينبت العشب طوال العام . القبائل المشهورة بتربية الخيل في النجد هي المطير وبنو خالد وضفير والشمر، ولكن كلهم يعترفون أن أفضل الأجناس لا توجد إلا في قبيلة العنزة . وقبيلة العنزة تركت النجد إذ بدأ البدو من العنزة ينتقلون إلى الشمال منذ حوالي مئتي عام، وبعدها استمروا في الانتقال

التدريجي إلى أن غادر النجد آخر أشخاصهم. لا شك أن البدو من العنزة هم الذين شهروا خيول النجد في الشرق. استقر البدو العنزيون قرب خيبر على الطرف الغربي من صحراء النفوذ، والروالة في جنوب واحة الجوف والعمارات في الشرق. من المحتمل أن هذه القبائل هي التي نقلت الخيول من النجد إلى سوريا وبغداد وبلاد فارس. ومنها ما نقل إلى الجنوب لأن أسرة ابن سعود هي عشيرة من عشائر العنزة، لهذا تركزت أفضل الأجناس بأيديهم ماضيًا وحاضراً. حتى الآن تستمر قبيلة العنزة بتفريق أجناس الخيول المأخوذة من النجد المسمّاة بالنجدي عن الخيول المسلوبة من القبائل الشمالية التي تسمى بالشمالي.

لا تختلف طريقة تربية الخيل وترويضها في النجد عن الطريقة البدوية، ولكن في حايل يستعملون اللجام الحديدية بدلاً من الأرسان التي يستعملها البدو، ولا يسمع شيء عن السباق (الجري) في النجد.

القواعد العربية لتربية الأمهار

من أجل تطوير الرشاقة المرغوبة فيه:

«يكون المهر في شهره الأول بعد ولادته قرب أمه ولا يتغذى إلا بلبنها، وبعد مرور شهر يضاف إلى غذائه لبن الماعز ويستمر هكذا خمسة أشهر. ثم يضاف إلى غذائه خلال الأشهر الستة التالية لبن الجمل والقمح المنقوع في الماء لفترة ربع ساعة.

عندما يبلغ المهر سنة من عمره يتوقف عن تناول الحليب ويتغذى بالقمح والعشب.

وعندما يبلغ سنتين من عمره يجب أن يبدأ بالعمل فيطعمونه الشعير كالحصان الكهل، وفي الصيف يطعمونه عصيدة كل يوم وقت الظهيرة. تعد العصيدة على الشكل التالي: توضع حفنتان من الطحين في الماء ثم تخلط بالأيدي إلى أن يصبح الماء كالحليب، ثم يرشح بالمصفاة ويقدم السائل للمهر ليشربه.

من الضروري أن يعتاد المهر على الشمس منذ ولادته، لأن الظل يضر الخيل، وإذا كان الجو حاراً تركوا المهر يشرب حتى يرتوي.

ابتداء من هذه الفترة ينبغي الركوب على المهر، ويجب أن يأخذه صاحبه إلى كل الأماكن لكي يراها ويتعلم الشجاعة. كما يجب أن يكون المهر في حركة مستمرة، «لا تدعوه يستريح زيادة قرب معلفة، علّموه الجري عندما يبلغ من عمره ثلاث سنوات».

أفضل سلالات الخيول هي: كحيلان العجوز، كحيلان القروش، عبيان شرك، أعنق حدروج، ربضان وقبايشان.

ما عدا الخيول الأصيلة توجد خيول نصف أصيلة «محسنة»، أو كما يسميها البدو «بني حسن».

توجد عند قبيلة قطرين السلالات التالية: عدنان، ريشان، ربضان وشعيمان.

اقترح بدوي من قبيلة جنفانة الشمرية على الزوجين بلانت شراء فرس كحيلية العجوز، ارتفاع منبت رقبتها عن الأرض فيرشوكان، كميتة اللون، حسنة الرأس والأعضاد ومقسم الذيل، ولكنها صغيرة العينين وعريضة قصبة الأنف وغليظة الكفل.

أشهد بدوي من قبيلة ابن الدولة فرساً من جنس عدنان، كميتة اللون، ارتفاعها دون أرشينين، جميلة الرأس، ناتئة الجبين، حسنة الفنطيسة، عالية موضع المؤخرة والساق، ولكن ثنتها قرب أرساغها مليئة بالشعر.

عندما كان الزوجان بلانت في الرافدين عند قبيلة الشمر، سمعوا بعض البيانات عن النجد من سمير، وهو من أقرباء الشيخين فرحان وفارس: سافر سمير إلى جبل الشمر (النجد) بتوصية من الشيخ فرحان. وقد أفاد سمير أن الخيول في

النجد من نفس الأجناس مثل التي في شمال البلاد، أي نفس الكحيلان والجلفان والدهمان والملغان. الخيول قليلة. يشتري ابن رشيد خيولاً حيثما يجدها ولكن الأفضل منها خيول العنزة. أحضر سمير معه من النجد فرسًا من جنس جلفية الأطناب الفولاذية وأعطى مقابلها فرسًا أخرى وخمسة جمال وعشرين نعجة. لونها مغراء و «جوارب طويلة» على أرجلها الثلاثة وليست أنيقة جدًا. ارتفاعها أكثر من أرشينين بقليل. كان رشيد بن علي ضيفًا عند قبيلة الشمر، وقد تحدَّث عنه بولغريف، وقال إنه ينتمي إلى سلطة جبل الشمر (النجد). وقد أكد رشيد بن علي أيضًا أن النجد ليس فيها أجناس مميزة من الخيول وأن أفضلها في قبيلة العنزة. قابل الزوجان بلانت عند البدو القموصيين من السباع الشيخين بطين ومشهور، وقد كان الاثنان أصلهما من جبل الشمر وقالوا الكلام نفسه.

بيانات من كتاب لوفلر، تقرير اللجنة النمساوية لشراء الخيول عام ١٨٥٦-١٨٥٧

بعد أن تأكدت الحكومة الإمبراطورية بتجربتها من أهمية الحصان العربي للخيول النمساوية المحلية، أرسلت إلى البلاد العربية عام ١٨٥٦ لجنة عسكرية برئاسة بروديرمان بهدف شراء الخيول. وكان مؤلف هذا الكتاب الملازم لوفلر واحدًا من أعضائها. قال البدو القريبون من مدينة غزة إن أجناس خيولهم أصلها من الجواد والأفراس النجدية. وفي طريقهم من القدس إلى بحيرة طبرية قرب منطقة بتول حيث يترحل البدو من قبيلة موناسة (؟)* رأى بروديرمان فرسًا جميلة بيضاء وتجرأ على شرائها على الرغم من أن عمرها كان ثمان عشرة سنة، وقدم عليها ٢٠٠٠ غولدين، فرد صاحبها العربي بابتسامة بأنه عندما اشتراها منذ سنتين دفع هذا الثمن نفسه على رسنها فقط، فامتطاها ورحل بها. اشتري في منطقة جنين

جواد رمادي رائع الجمال والسلالة وكانت الأفراس تحضر إليه من كل المناطق. لم يكن له اسم ثابت، فكانوا يسمونه «حدودي» (أي صالح لعزبة لتربية الخيل). كان هذا الجواد من سلالة حدبان[1] المولود في قبيلة الروالة. التحق هذا الجواد بالعزبة الليبيسية.

اشتُرِيْت من البدو قرب الناصرة من قبيلة صديقة لبني صخر من الشيخ عقيل آغا فرسًا كميتة أحمة اسمها غزالة من سلالة حدبية، ثم فرس مغراء اسمها خزنة من سلالة عبية شركية اعترف عبد القادر بعد مشاهدتها في دمشق بأنها أفضل فرس من بين الخيول المشتراة؛ وفرس اسمها شامية في دمشق من سلالة صقلاوية، أصلها من قبيلة السباع. واشتريت من قبيلة الروالة فرس اسمها زهرة من سلالة صقلاوية، ومن قبيلة عويسة (؟) في حوران فرس ودهة من سلالة عنقاء، وفي دمشق فرس عايدة من سلالة كحيلية العجوز من قبيلة الروالة، ثم فرس نيالي من قبيلة الشمر وفرس مرزوش من قبيلة الروالة من سلالة كحيلية العجوز من قبيلة ولد علي.

البدو يحبون التساوم، وغالبًا ما يخفضون أسعارهم المعروضة. يقول الشاري السعر الأخير والبدوي يبتسم ويقول: «زدها». وإذا لم يزيدها الشاري عندئذ يتشاور البدوي مع أصدقائه ويقول ما هو سعره عن طريق شخص آخر. ويستمر التساوم تارة بضعة أيام، وقد تكون نهايته زيادة طفيفة للسعر كالكوفية مثلاً. وقد يحدث تارة أن ينتهي التساوم والنقود معدودة والهدايا مقبولة، فيعيد البدوي كل هذا للشاري ثم يمتطي فرسه ويرحل.

---

(١) يجدر الانتباه على الواقع أنه عندما توصف الخيول المشتراة فلا تسمى إلا باسم سلالتها دون تذكير فروعها. ومع ذلك فهذه التسمية عند البدو دليل على عدم أصالة الحصان كما قيل في الفصل الأول. كان هذا التجاهل للقواعد الضرورية في تحديد السلالة سببًا في إدخال خيول من أصل مشكوك فيه إلى أوروبا، ومن جراء هذا ولدت منها أنسال سيئة. تعليق المؤلف.

كل البدو يقولون إن قبيلة ولد علي حافظت على أفضل خيولها لأنها امتنعت عن بيعها لعباس باشا.

وخيول قبيلة الروالة من الطراز نفسه مثل خيول قبيلة ولد علي ولكنها أقل عددًا، ولو أن الروالة كانت مشهورة بأفضل خيول البادية منذ زمن قريب. خيول قبيلة الحسنة قليلة العدد. تترحل قبيلة السباع قرب الفرات عند مدينة دير الزور، وفي الربيع تقترب إلى حماه وحمص. الخيول عند قبيلة السباع كثيرة العدد ولكنها أضعف جسديًا من خيول ولد علي والروالة وأسوأ بهيكلها، أكثرها سرجية. وقد بيع الكثير منها لعباس باشا.

خيول قبيلة الفدعان عظامها أفضل من عظام خيول السباع ولكن أسوأ من الروالة وولد علي. وبما أنهم يترحلون قرب حلب فأكثر الخيول التي صدرت إلى أوروبا كانت خيولهم مثل Darley Arabian الذي كان مشترى من حلب. وغليوخ تاجر الخيل المعروف أيضًا من حلب، وهو الذي أرسل إلى أوروبا في الثلاثينات أعداد كبيرة من الخيول، واشترى الكثير منها بارون غيربيرت للحكومة النمساوية. وبدأ الأوروبيون يزورون دمشق فقط منذ عهد إبراهيم باشا.

تملك قبيلة بني صخر خيولاً جيدة كخيول قبيلة الشمر في الرافدين.

كانت لدى الفرنسيين في الخمسينات لجنة استقرت في الموصل بهدف استيراد الخيول المستمر، ولكنها لم تكن تستورد إلا القليل منها وأكثرها أمهار. وقبيلة المنتفيق جنوب بغداد تصدر الخيول العربية إلى الهند، ولكن كل الخيول المصدرة إلى الهند لا تُعدُّ عربية أصيلة.

يزعم البعض أن النجد تعيش فيها أصناف مميزة من الخيول، ولكن هذا غير صحيح. كل البدو يتكلمون عن النجد بإحلال لأنها موطنهم القديم، والقبيلتان: ولد علي والروالة لا تزالان محافظتين على العلاقات مع النجد، ولكن كلهم ينفون

هذا الرأي بأن خيول النجد تختلف في أصلها أو أصنافها أو كيفيتها عن خيول شمال البلاد العربية. إنهم يعرفون أن خيول شمال البلاد أكثر صبرًا ورشاقة وخفة في الحركة نتيجة التربية، بالمقارنة مع التي نشأت في واحة النجد وهي مربوطة في إسطبلاتها، وبقيت متوقفة عن الحركة التي لا غنى عنها لتطوير صفتها العربية الجيدة. تنتج في النجد كمية كبيرة من الحبوب، وفي بعض الأحيان تأتي القبائل البدوية إلى هناك من الصحراء المجاورة، ولكن النجد غير متطورة في تربية الخيل لأن البدو مع أنهم يقدّرون الخيول كثيرًا ولكنهم لا يتجرؤون على استعمالها لحراثة الحقول، فليس الحصان عندهم إلا للترف والرفاهية. من الصعب التأكد من هذه المعلومات لأن زيارة النجد صعبة بالنسبة للأوروبيين. والنجد ليست واحة فحسب، بل تنضم إليها الصحارى المحيطة بها حيث يترحل البدو. أما في الشرق فيسمى الحصان العربي الصحراوي بالنجدي.

أهم ظرف من الظروف التي تنشئ الحصان العربي بجودة عالية هو وجوده المستمر في الصحراء مع مراعاة الحياة المتنقلة مع أصحابه البدو. ونتيجة ذلك يتنفس الحصان العربي طوال حياته بالهواء الصحراوي الجاف ويتغذى بالنباتات الصحراوية، ولا يتناول الشعير ولبن الجمال إلا نادرًا، بالإضافة إلى استمراره في السير. أما خيول واحة النجد فمعاكسة لها تمامًا، فهي تقضي أكثر أيام حياتها في الإسطبل، وهي محرومة من الحركة. لا شك أن النجد هي موطن الحصان العربي مثلما هي موطن البدو. من المحتمل أن احتلال النجد من قبل المصريين في عهد إبراهيم باشا قد أثر ضررًا على تربية الخيل في تلك المنطقة.

أكبر مزية في الحصان العربي هي أصالته، فهو لم يتغير خلال آلاف السنين إلا قليلاً كصاحبه البدوي الذي لم يتغير أيضًا من ناحية عقائده وظروفه المعيشية خلال الفترة نفسها. المناخ والنبت والعلف والبيئة في المنطقة بقيت أيضًا كما هي. لقد بلغ

لقد بلغ الحصان العربي درجة عالية من الكرامة والصبر والسرعة وانتظام الشكل والجمال، وكل هذا بفضل عدم الإفراط في الغذاء، وبفضل الحركة المستمرة والتربية القاسية. ومن أهم أسباب الحفاظ على أصالة الحصان العربي العقيدة الدينية لدى البدو، دون حساب الحروب المستمرة وضرورة استخدام الحصان الجيد للأهداف الحربية التي أثرت أيضًا في هذا التطور في تربية الخيل والعناية بأصالتها.

كل القصص الدينية الخاصة بالخيول التي توضح غنى اللغة العربية وجمالها أثرت كذلك في الخيال العربي، وزرعت في نفوسهم الإيمان بأنهم شعب الله المختار وأن الحصان خلق لهم خصيصًا [. . .].

كانت في مخيم السباع خيول كثيرة، ولكن الجيدة منها قليلة. على أي حال لم يصل الجزء الأكبر من القبيلة من الجنوب حتى الآن. لقد رأينا بعض الأحصنة في حماه. وبعد عودتنا إلى دمشق قيل لنا إن قبيلة ولد علي تقف في سهول حوران قرب باب الماردين، وعندهم خيول ممتازة. قال شيخ قبيلتهم محمد دوخي إن عباس باشا دفع للبدو مبالغ هائلة ففقدت قبائل كثيرة أفضل خيولها نتيجة ذلك، ولكنه لم يستطع أن يشتري من قبيلته كثيرًا.

حصلت اللجنة النمساوية المجرية على ثلاث وعشرين خيلاً من قبيلة ولد علي، ومنها ثلاثة أحصنة وعشرون فرسًا. كان من أبرز الأحصنة الحصان علان إذ كان يمتاز بكرامته وحسن هيكله، ويليه الحصان أمير كميت أحم اللون التابع لقبيلة الروالة، وأخيرًا الحصان حمد جيد الشكل وارتفاعه أرشينان وعمره ثلاث سنوات. كان البدو يستعملونه فحلاً.

لم تجمع اللجنة هذه الكمية الكبيرة من المعلومات كالتي جمعتها من قبيلة ولد علي. كل البدو يعترفون بصحة واقع لا ينقض بأن أصل الخيول العربية من خيول

النبي محمد الخمسة. وتقدر أنسالها المباشرة بأسعار غالية جدًا، وتنال المرتبة الثانية سلالات أخرى متفرعة منها، والمرتبة الأخيرة تنالها سلالات أخرى متفرعة من الخمسة. يقدِّر البدو أكثر السلالات وهي سلالة «حدود» ويرونها صالحة لعزبة لتربية الخيل، ويقصد بهذه الكلمة سلالات صافية غير هجينة مع أجناس أخرى من الخيول. وإذا لم توجد «حدود» فالبدوي مستعد أن يقوم بالسفر إلى أماكن بعيدة ليجد فحلاً أصيلاً لفرسه. وقيمة «حدود» معروفة من تجربة تصدير الفحول العربية إلى أوروبا التي هي، على الرغم من حسن أشكالها لم تبرر قيمتها في نسلها، وهذا فقط لأنها لم تكن «حدود» كما يحددها البدو، أي هجينة مع أجناس أخرى.

كل هذا الكلام يدل على أن الفحول الأصيلة لا يحصل عليها إلا في الصحراء من البدو. أما الخيول غير الأصيلة تمامًا ولكنها جميلة الشكل فيمكن الحصول عليها بأسعار منخفضة نسبيًا. ولكن مع الأسف فمفهوم الأصالة وقيمتها غير منتشرة في أوروبا. كثيراً ما تباع في المدن خيول ذات إجازات مزيفة. البدوي لا يسجل أصل الحصان وأسلافه، ولكنه معروف لدى كل عضو من أعضاء القبيلة، وكان البرهان على ذلك أكثر من مرة عندما كان البدو من قبائل أخرى يكررون حرفيًا كل المعلومات عن الحصان بكل تفاصيلها كما قال صاحبه. وهذا ما يرغم الناس على تصديق أسطورة خيول النبي الخمسة. وإذا أعطى بدوي شهادات كاذبة عن حصانه فهذا يعدُّ جريمة كبيرة يعاقبه الله عليها بشدة.

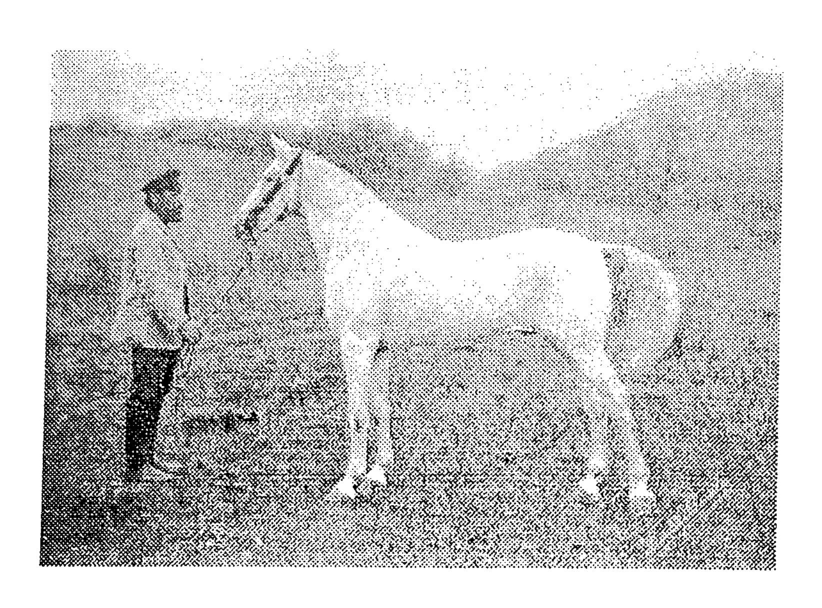
كما اشترت اللجنة من ولد علي فرسين من سلالة الأعنق (؟)* واحدة اسمها دجانية ممتازة الهيكل وكريمة وَمَثَل أعلى لأنثى عزبة لتربية الخيل، والثانية اسمها حوتة ليست قوية البنية كالأولى ولكن هيفاء وناتئة الجبين كالخيول من السلالات الكريمة، ويقول البدو إنه دليل على الذكاء.

امتازت أفراس قبيلة ولد علي بخفتها ورشاقة حركتها، أما الأحصنة فامتازت بقوتها وعضلها وعيونها الواسعة والمليئة بالطاقة والحرارة. اجتمع أصحاب الخيول بدعوة من شيخهم وعرضوا كل الخيول الموجودة عندهم ولكن طلبوا عليها أسعاراً باهظة من ٣٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠ غولدين.

لا يركب البدو إلا الأفراس، لذا فعدد الأحصنة قليل، لا يزيد في كل قبيلة عن خمسة أو ستة أحصنة ويختارون منها أفضل أجناس. وتجري الغزوات أيضًا على الأفراس لأن الأحصنة غالبًا ما تكشف عن نفسها بصهيلها [...].

تدل التجارب أن الأفراس تتفوق على الأحصنة، فالعيوب عند الأحصنة تتصادف أكثر من الأفراس إذا أخذنا نفس العدد من الجهتين، كما أن الأفراس تتولد أكثر من الأحصنة. حتى في تربية الخيل المتحضرة وباختيار دقيق للفحول لا تولد الأحصنة الجيدة إلا القليل منها. وهذا ما يؤكد صحة النظرية البدوية باعتمادهم في تربية الخيل على الأفراس، وعدد صغير من الأحصنة من خيرة الأجناس. وتلبية لهذا المبدأ يبيع البدو أكبر عدد من الأحصنة لسكان المدن بعد ولادتها.

تعيش الخيول العربية على كلأ المرعى الذي يكون في الربيع متوافراًويجف في الصيف. يطعم البدو الميسورون خيولهم في فترة الصيف الشعير، أما خيول البدو الفقراء فتنحف على الرغم من الكميات الكبيرة من لبن الجمال التي تنالها. يزعم البدو أن لبن الجمال يقوي الرئتين ويصلح ليكون بديلاً للماء. لا يطعم البدو خيولهم الشعير إلا قليلاً وقبل الأسفار فقط. وفي الوقوف تربط الخيول قرب الخيم بحبال طويلة مصنوعة من وبر الجمل. تبقى الخيول على مرأى أصحابها باستمرار، ولا يخلع سرجها عن متنها ليلاً ولا نهارًا لكي تكون دائمًا جاهزة للاستعمال. يركب البدو خيولهم دون لجام حديدية ويستعملون الأرسان المزينة بالصدف والريش، وحول قصبة الأنف تثبت سلسلة.



سطام القريش

حصان أمغر ولد عام ١٨٨٣ في قبيلة بني صخر في الجزيرة العربية . سلالته صقلاوي جدران .
أحضره إلى روسيا الكونت إستروغانوف عام ١٨٨٨ . ارتفاع منبت رقبته أرشينان وفيرشوكان

يسير البدو بخيلهم في التنقلات بخطوات بطيئة أو قماص ، ولا يسيرون خببًا إلا قليلاً جدًا . ولهذا كان من الصعب تعليم خيول البادية الخبب ، ولكن بعد ذلك تصبح حركاتها العضدية ممتازة . يمتطي الأولاد الخيول البالغة من العمر سنة ونصف لفترة قصيرة ، ويقود الأولاد الأمهار بالعصا أو اليد بضربها على رقبتها من اليمين أو اليسار . وعند الوقوف يشدون الزمام فتضغط السلسلة على قصبة الأنف . تستعمل الخيول البالغة سنتين من عمرها كالخيول الكهلة فيركب عليها أصحابها . ووجود الخيول المستمر بين الناس في أسرة بدوية ومعاملتها اللطيفة هي سبب أناستها ووداعتها .

يتوقف البدو عن ركوب أفراس تفلى بشهر قبل ولادتها وعشرة أيام أو أربعة عشر يومًا بعد ولادتها . وعندما تطعم الفرس وليدها أي خلال مئة يوم يطعمونها

شعيراً ولبن الجمال بكميات كبيرة. ويعطونها في الليل كمية من العلف أكثر من الصباح، لكي تكون الفرس مستعدة للسير. وعندما تبلغ الفرس ثلاث سنوات من عمرها عندئذ تقدم لفحل ثم يأخذون منها الأمهار بعد سنتين. يجري السفاد في فصل الربيع. تعيش الأفراس من ثلاثين إلى أربعين سنة أما الأحصنة فأقل.

أمراض الخيول غير منتشرة في الصحراء. وفي بعض الحالات الاستثنائية تحدث الالتهابات الداخلية، ويستعمل البدو لمكافحتها طريقة العلاج الخارجي وهو الكي بالحديد المحمّى لدرجة الاحمرار. وهذه الاستثناءات هي مغص والتواء الساق بسبب الجهود الزائدة عن الحد. وطريقة العلاج الوحيدة التي يعترف بها البدو هي الكي بالحديد المحمّى لدرجة الاحمرار، وتستعمل للناس والحيوانات على حد سواء. ولكن في أكثر الحالات وفي حالات الكسور العظمية يترك العلاج لرحمة الله.

على الرغم من حب البدو لخيولهم، إلا أنهم لا يعتنون بها ولا ينظفونها قط. كل النكبات والأعباء التي يلقيها صاحب الحصان على حصانه يتحملها الحصان بصبر، وعندما يتخلص من لجامه الحديدية يمدد كل أعضاء جسده ويرفع رأسه وتلمع عيونه فتصبح نظرته فخورة وهو ينتظر فارسه بفارغ الصبر. يجلس الفارس على السرج فينطلق الحصان كالبرق ويبتعد عن الخيمة والأسرة عدة أيام أو أسابيع. عندما يتناول البدو الطعام يقترب الحصان الهادئ والخلوق إلى خيمتهم بانتظار صدقة ولا يصطدم بالرفض أبداً. وعندما يدخن صاحبه البدوي النركيلة يستنشق الحصان الدخان بسرور وهكذا يتعود على عائلة صاحبه، والحصان هو فخرها واعتزازها.

مقتطفات من محاضرة العقيد برودیرمان

في موضوع استيراد الخيول من سوريا في العامين ١٨٥٦-١٨٥٧

عند الوصول إلى حلب ينبغي الاستعانة بالقنصل ليجد العرب الذين يعرفون مكان وجود البدو في ضواحي حلب وحماه. فالبدو بعادتهم يستقرون قرب هذه المدن من أيار حتى أيلول. ثم ينبغي إرسال سعاة إلى شيوخ هذه القبائل ليخبروهم أننا نرغب في شراء الخيول منهم وليرسلوا لنا المرشدين. سيصل الجواب بعد ستة أيام، هكذا يكون الاتفاق مع الساعي. وخلال هذه الأيام يمكن مشاهدة خيول حلب. ومن حلب ينبغي الانطلاق نحو قبيلة الفدعان العنزية ثم إلى السباع. يجب أن يكون شيخ كل قبيلة موعوداً بهدية قدرها حوالي خمس ليرات تركية على كل حيوان مشترى. ينادي الشيخ كل ملاك الخيول من قبيلته فتجري المتاجرة عن طريقه، وكل سعر يقوله الشيخ يكون سعراً أخيراً.

في كل ما يخص الخيول لا يقول البدو إلا الحقيقة. ويمكن التأكد من أصالة الحصان فقط بعد أن يحلف البدوي أنه «حدود» وصالح لعزبة لتربية الخيل. لا يلتفت البدو إلى عيوب الحصان إذ يكتفون أن يكون أصيلاً فقط. إنهم يقدّرون الرشاقة والصبر ويهتمون بالعلامات الخارجية التالية: إذا كانت وضعية الساقين الأماميتين مستوية، يجب أن تدخل بين الحافرين إصبعين أو ثلاثة أصابع على الأقل، ثم يتحسسون جفاف الساق تحت الركبة، ويقيسون المسافة من مكان اتصال الرقبة بالمتن حتى آخر الشفاه، ومن مكان اتصال الرقبة بالمتن حتى الذيل، فيجب أن تكون المسافة الأولى أطول من الثانية.

وبعد القيام بزيارة البدو ينبغي مشاهدة الخيول في حماه وحمص وحسية. ومن دمشق يجب الذهاب إلى قبيلة ولد علي العنزية التي تستقر قرب جبل حازة في

حوران. والخيول الأصيلة توجد في دمشق أيضًا. خيول ولد علي أفضل خيول البادية، فقد رأى بروديرمان عندهم حوالي ٥٠٠-٦٠٠ فرس كل واحدة أفضل من الثانية. ومن ولد علي ينبغي التوجه إلى قبيلة الروالة قرب نوى ومزيريب وبصرى. وفي الطريق من حلب إلى الروالة يمكن شراء ما بين ثلاثين إلى أربعين فرسًا وما بين أربعة إلى خمسة أحصنة. وعند الحاجة يمكن التوجه إلى وادي الأردن عن طريق مدينة فيق حيث يترحل البدو من قبيلة حوارة مع شيخها عقيل آغا، ثم إلى بني صخر فسرحان فسردية. ويمكن أن توجد الأحصنة البدوية في المدن أيضًا، فقد اشترى بروديرمان الأفضل منها في نابلس والناصرة.

عند شراء الخيول من البدو يجب أن تكون عين الشاري حادة لملاحظة كل مزايا الحصان وعيوبه مباشرة. أكثر العيوب التي تتصادف عند الحصان العربي هي التالية: الركب المنحرفة إلى الخلف والعيب في حزام السرج، والأرجل المقلوبة أو الملتوية إلى الداخل، كما تتصادف بين الحين والآخر الأرساغ المتمددة والضعيفة. ويكون مفصل القدم مستقيمًا تارة، وتارة يكون معقوفًا. لم تكن الخيول معتلة المفصل إلا أربعة منها، ونادرًا ما تتصادف الخيول معقوفة الساقين إلى الخارج أو معتلة الحوافر أو العيون أو متطاولة المتن.

إذا لم تشتر الحصان مباشرة فعندئذ يمتطيه صاحبه البدوي ويرحل به ولن تراه بعد الآن، لأنهم يعيشون بعيدين بعضهم عن بعض. أكثر الخيول العربية ممتازة الحركة. غالبًا ما تكون أرجل الخيول العربية كثيفة الشعر. وتحدد أصالة الحصان عفرته وذيله ورأسه، والأهم من ذلك حركته.

اشترى العقيد بروديرمان الخيول التالية:

الأحصنة

السعر بالفورين

أديجان من قبيلة تياهو (؟)*[1] من سلالة محلدية (؟)*[2] ٩٥٠

مافور من قبيلة طواريين قرب غزة (؟)* ٩٥٠

جبرين من قبيلة السوارقة (؟)* من سلالة جلفان ٩٥٠

يستدريلون من قبيلة الروالة من جنس كحيلان العجوز ٩٠٩

حامي من قبيلة الروالة من سلالة صقلاوي (؟)* ١١٣٢

مشبود من قبيلة تياهو من سلالة عبيان الخضر ١١٠٠

بشيد من قبيلة الجلعاس من سلالة كحيلان العجوز ٨٠٠

عنجر من قبيلة الروالة من سلالة أعنق (؟)* ١٢٩١

الطور من قبيلة بني صخر من سلالة كحيلان (؟)* ٦٠٥

دشريا من قبيلة سرحان من سلالة كحيلان أبو عرقوب ١٠٠٩

علان من قبيلة ولد علي من سلالة كحيلان أبو عرقوب ١٠٠٩

حمود من قبيلة ولد علي من سلالة عبيان أبو جريس ١٧٢٧

أمير من قبيلة الروالة من سلالة صقلاوي (؟)* ١٢٧٢

الأفراس

شيشانية من قبيلة الروالة من سلالة جلفية (؟)*.

حكمة من قبيلة الحناجز (؟)* من سلالة كحيلية العجوز.

خزنة من قبيلة ولد علي من سلالة عبية شركية.

(١) سوف أضع إشارة استفهام قرب كلّ قبيلة غير معروفة أو مشكوك في اسمها. تعليق المؤلف.

(٢) توضع إشارة استفهام أيضًا إذا كان اسم السلالة غير صحيح تمامًا وليس لها وجود في البادية أو عندما يكون تفرع السلالة مجهولاً. المؤلف.

غازية من قبيلة جلعاس من سلالة حدبة عنزخية.
شامية من قبيلة السباع من سلالة صقلاوية (؟)*.
عيدة من قبيلة الروالة من سلالة كحيلية العجوز.
نيامية من قبيلة الشمر من سلالة كحيلية العجوز.
صقيبة من قبيلة بني صخر من سلالة كحيلية العجوز.
عقلة من قبيلة ولد علي من سلالة كحيلية العجوز.
طترة من قبيلة ولد علي من سلالة كحيلية العجوز.
جدعة من قبيلة الروالة من سلالة كحيلية طريشي.
مبروشة من قبيلة ولد علي من سلالة طويسة (؟)*.

في عام ١٨٦٥ قدم مشير الجيش التركي سردار عمير باشا وهو محافظ بغداد عن طريق رسول باباوي للإمبراطور النمساوي حصانين عربيين أصيليين في ذكرى أصله النمساوي البعيد، وبمناسبة بداية خدمته في جيش النمسا. أحد هذين الحصانين جواد جاء به من النجد بدوي من قبيلة الشيخ ابن مجيلود، لونه كميت أحم غامق من سلالة أعنق حدروج؛ وفرس مغراء من سلالة صقلاوية جدرانية. سُلّم الجواد إلى بابولن ثم استُرِدّ من هناك بعد سنة دون أن يخلف أنسال.

معلومات عن الحصان العربي من كتاب نولديه ١٨٩٣

مع الأسف لا يوجد هواة الخيول بين الأوروبيين الزائرين للبلاد العربية إلا القليل. درس دوني البلاد العربية ولم يقل شيئًا عن الخيول، وبولغريف الذي دافع عنه نولديه من تهمة عدم زيارته البلاد العربية لا يفهم فيها شيئًا. كما ضاعت مذكرات الفرنسي خيوربير المقتول عام ١٨٥٥، الذي زار النجد مرتين. لم تبق سوى معلومات الزوجين بلانت. والمعلومات هذه موثوق بها، ونولديه يؤيدها

كاملة. وما قال الزوجان بلانت عن الحصان العربي فيه الكفاية، أما مسجلات نولديه فتستخدم فقط كشهادة إضافية لها.

ثم نتسائل: هل توجد في وسط الجزيرة العربية مثل عليا للأجناس الخيلية؟ حتمًا سيرد نولديه: لا. ظهرت هذه الأفكار بسبب تحمس بعض الأشخاص وأوهامهم. توجد في النجد بعض الخيول من الأجناس السامية يصل عددها إلى اثنتي عشرة في البلاد كلها، وبلانت رأيه كذلك. ولكن عددها يقل من عام إلى عام. الأحصنة مضطربة الأخلاق لذا يعتبرها البدو غير صالحة للركوب وخوض المعارك، أما خصيها فحرام، لذا فهي ليست إلا للرفاهية ولا تستخدم إلا فحولاً للعزب عند الشيوخ والأمراء المالكين، وتكون سيئة المظهر. والسبب في ذلك هو الإهمال الذي يتميز به الشرق وعدم وجود نظريات ومعارف ومبالغ كبيرة من الأموال لتربية الحصان بسبب قلة العلف.

استطاع محمد بن رشيد أمير جبل الشمر بفضل ثروته أن يملأ اسطبله اعتباراً من عام ١٨٧٢ بأفضل الخيول بينها ثلاثون جوادًا. صحيح أنها من خيرة الأجناس ولكن العناية بها سيئة إذ إنها تقف باستمرار محرومة من الحركة، كما أنها قذرة وحوافرها مغطاة بالشعر، والأكثر منها فهي إما كبيرة السن أو صغيرة السن ولا تصلح لعزبة لتربية الخيل، فلم يجرؤ نولديه على اختيار واحدة منها.

إذا كانت تلك الخيول أفضل فحول في كل البلاد العربية فيمكننا أن نتصور كيف هي حالة الخيول الأخرى. ويضيف نولديه إن الأفراس أيضًا لها الحال نفسها. لقد استطاع نولديه من خلال سفره أن يشتري بعض الخيول الجيدة، ولكن بعد عشر سنين أو عشرين سنة لن يكون في النجد حصان واحد جيد.

خيول النجد صغيرة الحجم لا يزيد ارتفاعها عن أرشينين. ومن بين الخيول التي قدمها نولديه هدية كانت فرس واحدة فقط ارتفاعها حوالي أرشينين وأربعة

فيرشوكات، وهكذا كانت فرس الأمير المفضلة فرحة، ولكن هاتين الفرسين ليستا إلا حالة استثنائية نادرة. فرس فرحة مغراء اللون من سلالة عبية أبو جريس. جمالها لا بأس به وكانت معروفة وناشفة على الرغم من الوقوف الطويل. قدمها نولديه مع جواده المفضل الأعنق هدية للسلطان، فبقيت هذه الفرس في الإسطبل سنة ونصف وقد حافظت خلال هذه الفترة على منظرها أي بقيت قوية وناشفة. كانت تمتاز بعضلاتها المدهشة. لم تكن عندها عيوب، ولكن ركوبها كان صعبًا إذ كانت متوقدة الحمية وتسير «بلانساد» فتنهك بذلك الرُّكاب الضعاف. في مرة من المرات أسقطت راكبها عن متنها وأخذت تضربه. كانت فرحة الفرس الوحيدة الشرسة من بين كل الأفراس التي رآها نولديه، إذا قطعت هذه الفرس عدة فرستات جريًا فلم تحرك جنبيها بل كانت تكتفي بعدة استنشاقات لتهدئ أنفاسها، ويُعدُّ هذا في البلاد العربية دليلاً على قوة الرئتين. كانوا يعدّون رشاقة فرحة في النجد خيالية، ومع ذلك لم تكن تقارن مع حصانَيْ نولديه وهما الجواد أعنق والفرس من سلالة صقلاوي الليل (؟)*. في المسافات القصيرة لا يمكن أن تقارن رشاقة الحصان العربي مع الإنكليزي ولكن في المسافات الطويلة بالعكس.

نولديه يعشق الحصان العربي ويؤيد آراء بلانت بكل شيء عدا رأي واحد وهو قدرة الحصان العربي على اجتياز العوائق. يزعم بلانت أن هذه الصفة موجودة عند الحصان العربي، في حين أن نولديه ينفي ذلك مؤكدًا أن الجزيرة العربية خالية من العوائق فلا شيء يرغم الحصان العربي على تعلم الوثب، ويجب أن تتطور هذه القدرة عبر الأجيال.

كلمة «خمسة» ليس لديها معنى مستقل عند الحصان العربي، وقد سماه هكذا الدارسون السطحيون للبلاد العربية، والبدو الذين عاشرهم نولديه لم يفهموا المقصود من هذه الكلمة. تستخدم هذه الكلمة في تحديد أجناس الحصان العربي

الخمسة الرئيسية. يعدُّ جنس الكحيلان في المرتبة الأولى، وحمداني وحدبان ينالان المرتبة الرابعة والخامسة، ومن الصعب تحديد من ينال المرتبة الثانية والثالثة: صقلاوي أم أعنق. يحصي بلانت إحدى وعشرين جنسًا ومنها الأجناس الخمسة بالدرجة الأولى. أما الأجناس الباقية فمشتقة منها أو فروعها التي ظهرت من اختلاط بعض الأجناس. توضح الأسطورة العربية التالية نشوء الأجناس الثانوية الفرعية: كانت في قديم الزمان قبيلة مطاردة من قبل أعدائها تهرب منهم، ولكن الأعداء لحقوا بأعضائها فلم تهرب منهم إلا امرأة عجوز واحدة على فرس من جنس الكحيلان، فأصبح هذا الجنس يسمى منذ ذاك الحين بكحيلان العجوز.

رحلتنا إلى البلاد العربية عام ١٨٨٨

لقد قررنا في عام ١٨٨٨ (أي زوجتي الأميرة أولغا ألكساندروفنا والكونت إستروغانوف وأنا) أن نقوم برحلة إلى بلاد الشام بهدف التعرف على الحصان العربي في موطنه. لم تنبعث فكرتنا بالقيام بهذه الرحلة من حبنا للخيول فحسب بل من قراءة كتاب عن رحلة Lady Anne Blunt وزوجها إلى البلاد العربية.

وضعنا مخطط رحلتنا وفقًا للطريق الذي سلكه الزوجان بلانت في رحلتهما الأولى، وكلفنا وكالة كوك تنظيم الرحلة والقافلة. لقد وفرت لنا هذه الوكالة ترجمانًا ومرشدًا أصله من أسمى عشيرة في الصحراء، وكان وسيطًا بيننا وبين البدو. كان اسمه الشيخ نصر بن عبد الله، وكان أصله من قبيلة الرسالين وهي فرع من فروع قبيلتها الرئيسية السباع. نحن مدينون للشيخ نصر على حسن استضافة البدو وشراء الخيول من خيرة الأجناس وبأسعار مقبولة. وقبل سفرنا كان الشيخ نصر يعمل لدى الحكومة التركية ناقلاً للبريد بين دمشق وبغداد، فتعرف بذلك على البادية كلها وكوَّن علاقات متينة مع قبائل بدوية كثيرة.

غادرنا بيروت في ١٥ آذار ووصلنا إلى دمشق في ١٧ آذار. وفي دمشق شاهدنا عند تاجر ثري اسمه بردى بيه فرسًا جيدة كميتة اللون عمرها ثلاث سنوات تشبه حصان السباق الإنكليزي، ورأينا جوادًا أبيضَ أنيقًا جدًا ولكنه غليظ ومركوب. كانت الفرس من سلالة كحيلان أبو عرقوب أما الجواد فمن سلالة قبايشان العمير.

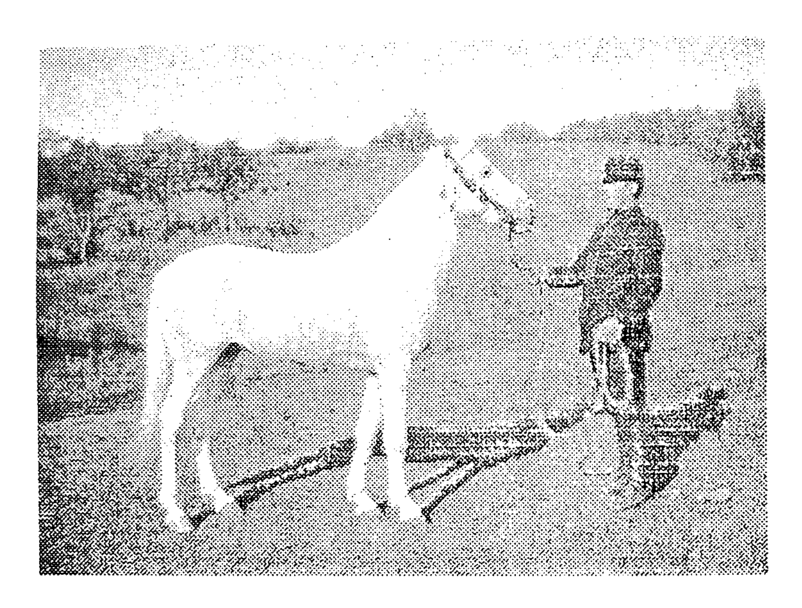
لم نر في بيروت وجبال لبنان إلا خيولاً نصف أصيلة (الكديش). وفي دمشق توجد خيول أصيلة كثيرة يشتريها الباشاوات وسكان المدينة من عند البدو. أحضر لنا في دمشق حصان أبيض جيد جدًا ذكّرنا شكله الخارجي الطراز القديم للجواد الخاب الأورلوفي، ولكن أصغر حجمًا منه. اشتريناه في طريق عودتنا بنصف المبلغ الذي عرض علينا قبل ذلك.

بعد ثلاثة أيام وصلنا إلى القريتين وهي بلدة صغيرة على طرف البادية، حيث رأينا جوادًا واحدًا من سلالة سعادان طوقان وبعض الحجور. وفي اليوم التالي أرينا فرسين في مقر الشيخ فياض القريتيني واحدة منها صقلاوية جدرانية عريضة جدًا لكنّها قصيرة وغليظة الرأس، والأخرى صقلاوية عبيرية طويلة وسيئة الكفل وغليظة الرأس لكنّها أنيقة في حزام سرجها.

في ٢٥ آذار وصلنا إلى الشيخ سطام من قبيلة الطيار وهي فرع من فروع قبيلة ولد علي. عرضت لنا عنده الأحصنة صقلاوي عبيران وكحيلان أبو عرقوب وحدبان عنزخي وفرس كبيرة السن لم نسجل اسم سلالتها، وكانت هي الوحيدة بين الكل.

في الطريق تفقدنا شيوخًا في مخيم الشيخ ابن مرشد من قبيلة الحسنة. كان عنده مهر أمغر من سلالة حمداني سمري أنيق جدًا ورأسه لا بأس به وطرازه كحصان السرج الأورلوفي. ساقاه الأماميتان جيدتان ولكنه خفيف الشعر العظام

سيّئ المتن، أما «البوتشكي» فليس لها وجود. كما كان عنده مهر رمادي لا بأس به وفرس جيدة جدًا بيضاء اللون ومبقعة عمرها ثمان سنوات من سلالة حمدانية سمرية، ممتازة العظام وعريضة الكفل وحسنة الأرجل وغليظة الرقبة وجيدة الرأس لكنها صغيرة العيون. أما الأفراس الباقية فكلها من أسمى الأجناس لكنها غير مستحقة الانتباه. طلبت عليها مبالغ هائلة.



شرك

حصان رمادي ولد عام ١٨٨٥ في الجزيرة العربية. سلالته عبيان أبو جريس.
أحضره إلى روسيا الكونت إستروغانوف عام ١٨٩٠.
ارتفاع منبت رقبته أرشينان وفيرشوكان ونصف.

خيول قبيلة بني والي، شبه فلاحين، سيئة. في ٢٧ آذار وصلنا إلى مقر الشيخ فياض من قبيلة المصراب وهي فرع من فروع القبيلة الرئيسية السباع. كان الشيخ فياض مضيافًا جدًا فقضينا عنده وعند قبيلته عدة أيام نتنقل معهم من مكان إلى

آخر. شاهدنا في قبيلة المصراب خيولاً كثيرة فاخترنا منها التالية:

١ - فرس مغراء ذات أرجل بيضاء عمرها أربع سنوات من سلالة كحيلية جلالة، والدها صقلاوي جدران. قدرها الشيخ نصر بـ ٣٠٠ خازي وطلبوا عليها ٨٠٠ خازي.

٢ - فرس كميتة عمرها ٧ سنوات، أنجبت مهراً في العام الماضي. والدتها كحيلية تمرية ووالدها أعنق ابن سبيل. قدرناها بـ ٢٥٠ خازي وطلبوا عليها ١٠٠٠ خازي.

٣ - مهر رمادي عمره ثلاث سنوات والدته صقلاوية جدرانية ووالده أعنق ابن سبيل. بيع أخوه الذي عمره خمس سنوات بـ ٥٠٠ خازي، طلبوا عليه ٩٠٠ خازي.

٤ - فرس كميتة وهي أخت المهر المذكور، عمرها تسع سنوات، قدرها الشيخ نصر بـ ٦٠٠ مجيديّ أي ٢٧٠٠ فرنك.

٥ - فرس رمادية عمرها ثلاث سنوات والدتها كحيلية العجوز ووالدها صقلاوي جدران. بدا عليها أنها خفيفة الشعر وجائعة.

٦ - فرس كميتة عمرها سبع سنوات والدتها عنقاء حدروجية، سيئة، ساقاها الأماميتان مفترقتان وركبتاها الخلفيتان متقاربتان، ضيقة الصدر، كفلها ومتنها جيدان، حركتها أنيقة.

٧ - فرس مغراء عمرها خمس سنوات، والدتها عبية نجرام، والدها أعنق ابن سبيل، كفلها ككفل البقر، حركتها مقيدة ومقدمتها جيدة.

٨ - فرس رمادية فاتحة عمرها تسع سنوات (ملك بدوي من قبيلة القموصة فرع من قبيلة السباع). لم يكن فيها أي شيء من الطراز العربي عدا مقسم الذيل. تبدو فرسًا كريمة وممتازة الأرجل وعظامها كعظام الفرس الخابة. والدتها عنقاء لقرة. طلبوا عليها ٦٥٠ خازي.

٩ - مهر عمره عامان، ابن الفرس السابقة، لونه رمادي غامق، يبدو جيداً من شكله الخارجي، طلبوا عليه ٣٠٠ خازي. والده كحيلان العجوز.

لم يكن تقدير الشيخ نصر للخيول مطابقًا تمامًا لتقديرنا، فمثلاً الفرس رقم ٢ كانت حتمًا أفضل الجميع، ولكنه قدرها بأرخص من الخيول الأخرى. حددت الأسعار بالعملة المحلية، خازي أرخص بقليل من المجيدي تعادل عشرين قرشًا، والعملة الذهبية التركية التي تعادل ثلاثة فرنكات، ففيها مائة وخمسة وعشرون قرشًا.

في ٣١ آذار في طريقنا إلى تدمر شاهدنا فرسًا كميتة كحيلية العجوز، قصيرة وجيدة للركوب لكنها غير أصيلة كما بدا عليها. طلبوا عليها ٣٥٠ خازي.

قبل وصولنا إلى تدمر بيوم اشترى الكونت إستروغانوف من البدو من قبيلة القموصة مهراً لونه رمادي غامق من سلالة كحيلان العجوز (سماه بولات)، كما رأينا عندهم فرسًا مغراء فاتحة من سلالة عنقاء لقرة.

مررنا بتدمر دون أن نتوقف فيها. وفي الطريق رأينا خيولاً عند الجنود الأتراك بدا عليها أنها أصيلة، ولكن كان من غير الممكن التأكد من أصلها.

وصلنا من تدمر إلى دير الزور على الفرات بخمسة أيام حيث اضطررنا أن اثني عشر يومًا لأن الباشا التركي لم يسمح لنا بمغادرة المدينة بحجة عدم وجود أوراق رسمية لازمة عندنا. غادرنا دير الزور فقط بعد أن استلمنا تصريحًا بذلك من السلطان عن طريق السفارة في القسطنطينية.

في دير الزور يمكن الحصول على خيول جيدة، لأن البدو يحضرونها من طرفي الفرات. كانت أفضل الخيول في تلك الفترة عند سكان المدينة. اشترى الكونت إستروغانوف فرسًا بيضاء من سلالة عنقاء ابن سبيل عمرها ٨-٩ سنوات، عريضة جداً وممتازة الأرجل. كما اشترى فرسًا عجيبة من كل النواحي، مثالية الأناقة

ومشهورة في كل البادية بجمالها، من سلالة عبية شركية، سميناها عنزة. كما اشترينا من البدوي الشمري مهراً عمره عامان رمادي اللون، والدته عبيان غنيديش ووالده كحيلان الرأس الفضاوي، فارع وممتاز الأرجل وجميل الرأس. لا يزال في عزبتنا لتربية الخيل حتى الآن، اسمه فارس. ثم رأينا فرسًا بيضاء مبقعة من سلالة عبية شركية، رائعة الأناقة تشبه الحصان. طلبوا عليها ٣٠٠ ليرة تركية.

كانت تحضر لنا خمسة أو ستة خيول يوميًا أكثرها أفراس وأبرزها التالية:

١ - فرس مغراء صغيرة الحجم لكنها أنيقة الرأس جداً.

٢ - فرسان عمر كل واحدة منهما سنة ونصف، كلتاهما من الشمر. طلبوا ثمنهما ٥٠ و ٦٠ ليرة تركية.

٣ - فرس رمادية كحيلية نواقية، ممتازة المقدمة والرأس ولكن المسافة بين عصعصها وكفلها صغيرة وكفلها أخطل.

٤ - فرس جميلة صغيرة عمرها سنة ونصف.

في ١٩ نيسان تمكنا من مغادرة دير الزور فاتجهنا في طريق العودة من حيث أتينا. ذهب الكونت إستروغانوف في أول مبيتنا إلى قلب البادية بغيرمتاع لزيارة قبيلة السباع، ومعه الشيخ نصر والقوزاق كاراكين وواحد من السواس. اشترى فرسين من بدو قبيلة المسخة وهي إحدى فروع القبيلة الرئيسية، ومن الشيخ محويش بن حولان من قبيلة الرسالين. واحدة من الفرسين مغراء اللون صقلاوية عبيرية والأخرى بيضاء اللون سعادية طوقان، كما كان من بين الخيول التي أعجب بها الكونت فرس مغراء صقلاوية نجم مع كل دلائل الأصالة وهي: الجلد الأسود حول العيون وفتحات الأنف. والعرب يقدِّرون هذه الدلائل كثيراً ومنها ظهر اسم سلالة الكحيلان. كما أعجب الكونت بفرس أخرى صقلاوية جدرانية دهماء اللون.

تبين من كلام البدو أن إنباء الشيخ نصر عن وجود جنس مميز من الخيول في النجد فيه بعض الصحة. في الحقيقة لا يوجد في النجد جنس مميز من الخيول ولكن الخيول من أفضل السلالة وهي كحيلان القروش قد انقرضت في شمال البلاد العربية، فهي لا توجد لا في قبيلة العنزة ولا الشمر، ولم يبق سوى فرسين من هذا الجنس في الرياض عند الأمير محمد بن رشيد.

يتذكر الكثير من سكان دير الزور زيارة الزوجين بلانت لمدينتهم فقد حكوا بعض التفاصيل عنهما. كما أننا رأينا بعض الضباط والجنود الأتراك الذين كانوا أسرى في روسيا عام ١٨٧٨، وهم يتذكرون معاملة الروس تجاههم بكامل الشكر.

قابلنا في تدمر الشيخ محمد من عشيرة ابن عروق الذي صاحب الزوجين بلانت في كل الأماكن.

في طريق عودتنا وعند مرورنا ببلدة جيرود، أي بمسافة اجتياز واحد عن دمشق أخذ البدو يحضرون لنا خيولهم فأعجبت بفرس واحدة كثيراً. اغتنمنا فرصة توقفنا في دمشق لشراء الحصان الأبيض الذي رأيناه من قبل، والدته كحيلان سوبتي ووالده أعنق ابن سبيل، سميناه «القادر»، واشترى الكونت إستروغانوف الحصان الأمغر «أمير» والدته كحيلان القروش ووالده عبيان شرك.

إجمالاً اشترينا حصانين والكونت إستروغانوف اشترى أربعة أحصنة وتسع أفراس. وبعد سنتين أحضر الشيخ نصر شخصيًا إلى روسيا جوادين ليهديهما للكونت إستروغانوف، وكان واحد منهما غنيمة من الحرب ضد أمير النجد محمد ابن رشيد.

لم تجلب رحلتنا كل ما تمنيناه، فلو أننا هيئنا أنفسنا لكل المفاجآت لكانت نتائجها أفضل.

لقد دُهشنا عندما رأينا في دمشق خيولاً متينة العضل وعريضة العظام بدلاً من الخيول الهيفاء والأنيقة. وقبل أن نستيقظ من هذا الانطباع وجدنا أنفسنا في المخيمات البدوية حيث الخيول هزيلة نحيلة ومغطاة بالشعر كئيبة المنظر وهي واقفة في الجو البارد قرب مخيمات البدو الفقيرة، وهذا خلاف ما تصورناه عن الخيول العربية.

ثم تخبلنا من أسرنا في دير الزور ورغبتنا في العودة إلى البيت في أسرع وقت. ولكن كل هذه المصائب لم تمنعنا من تأمل الخيول الجيدة حقيقة وتقدير حالتها بعد تجريبها بالركوب.

ركب الكونت إستروغانوف أثناء زياراته لمخيمات البدو على فرسه الرائعة عنزة ثلاثة أيام متتالية من الصباح الباكر حتى الليل، ولم يكن يترك السرج إلا لفترة ساعة أو ساعتين يوميًا كانت فرصة لها لتناول الشعير، ولم تشرب إلا مرة واحدة في اليوم.

وعلى الرغم من ذلك وصلت إلينا وهي ناضرة ونشيطة عندما لحق الكونت إستروغانوف بنا يوم الأحد في عيد الفصح قرب تدمر.

نتيجة لمعاشرتنا المستمرة للبدو تعلمنا اللغة العربية قليلاً إلى حد التفاهم معهم دون الاستعانة بالترجمان، فاستوعبنا آراءهم وعقائدهم تجاه الخيول. في الوقت الراهن مضى على رحلتنا إحدى عشرة سنة، فبعد أن تذكرنا كل ما شاهدناه وتفحصنا مزايا الحصان العربي من أنساله الهجينة، اقتنعنا بتقدير العقيد بروديرمان والزوجين بلانت والبارون نولديه للحصان العربي، واعترفنا أن الحصان العربي هو المنبع الوحيد لتحسين تربية الخيل المحلية.

رحلة رئيس الإسطبل الملكي فون خيوغل إلى مصر لشراء الخيل من عزبة عباس باشا لتربية الخيل بالمزاد العلني عام ١٨٦٠

في أواخر شهر تشرين الأول من عام ١٨٦٠ علم الملك الفيرورتيمبيرغي بوفاة حامي باشا ابن عباس باشا وأنه سيجرى بيع عزبته بالمزاد العلني. نشر المصرف المصري إعلانات وقوائم الخيول المعدة للبيع، وحدد المزاد العلني في العاشر من شهر كانون الأول.

ولد عباس باشا بن طوسون باشا وابن أخ السلطان محمد علي في الجزيرة العربية، حيث كان والده محافظ مكة. كانت تربيته وعقائده بدوية تمامًا، فلم يكن يرى شيئًا أسمى من الحصان. وبعد أن استلم منصب الحكم في مصر وهو يملك أموالاً ضخمة خضع لهوايته، وأسس في الصحراء قرب القاهرة عزبة لتربية الخيل وبنى إلى جوارها قصراً لنفسه. تسمى هذه المنطقة بالعباسية.

كان عباس باشا مالكًا خبيراً لعزبة تربية الخيل إذ كان عنده في عام ١٨٥٢ ألف رأس. كان ذلك في أثناء زيارة فون خيوغل الثانية، لكن عباس باشا لم يكن قط يري خيوله للكفار، لذا لم يتمكن فون خيوغل من مشاهدة الخيول العربية لا في مربطها ولا في مشيتها، على الرغم من أنه أحضر معه هدية لعباس باشا من الملك وهي فرسان من عزبة الفيورتيمبورغية لتربية الخيل. خلافًا لوكلائه الدائمين الذين يشترون خيولاً لعزبته، كان عباس باشا لا يشفق على أمواله من أجل تعبئة عزبته، وكان يجهز عند الحاجة بعثات كبيرة للحصول على حصان مشهور من قبيلة معينة.

يفترض البعض أن أعمال عباس باشا فيها بعض الأهداف السياسية المخفية، إذ إنه يقوي علاقاته مع البدو ليؤمن نفسه بتأييدهم وحمايتهم من أجل الحفاظ على منصبه الحكمي.

أجرى عباس باشا تجارة مع البدو وفقًا لعاداتهم إذ كان يحق لصاحب الفرس الأسبق أن يأخذ مهرًا واحدًا من الأمهار المولودة من فرسه التي باعها، وكان البدو يأتون إليه في فترة إنجاب الأمهار تمامًا مهما كانت المسافة التي يقطعها البدوي بعيدة.

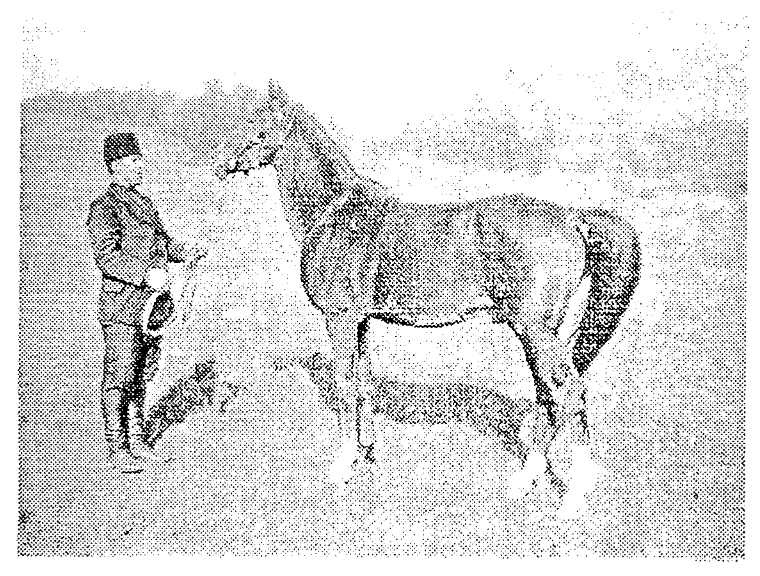
تدل القصة التالية على تقدير عباس باشا لخيوله: فقد أهدى عباس باشا لملكة إنكلترا حصانًا رماديًا من سلالة صقلاوي (دريبة ؟)، فلم يعجبوا به في إنكلترا فباعوه إلى الهند. وعندما علم عباس باشا عن ذلك استدعى البدوي الذي باع له ذلك الحصان وأمره أن يجده بأي ثمن. طاف البدوي بالهند كلها ووجد ذلك الحصان وأعاده لعباس باشا الذي صرف على ذلك، كما يقولون، خمسمائة جنيه إسترليني.

عندما توفي عباس باشا عام ١٨٥٦ ضاعت معظم خيوله بسبب العناية السيئة بها، والبعض منها سرق، كما هجم البدو على الجزء الموجود على طريق السويس من عزبته ونهبوه. أما أنقاض أبنيته فشاهدها فون خيوغل بأم عينيه.

كان حامي باشا وريث عباس باشا الوحيد وهو صهر السلطان. كان عمره لا يتجاوز الثمانية عشرة ولم يكن يقدِّر عزبة أبيه، فأخذ بعد وفاته يوزع الخيول إلى كل الجهات حتى انخفض عددها إلى ٣٥٠ رأس لحين وفاته. وبفضل الإعلان الذي نشره المصرف المصري في الوقت الملائم تمكن الكثير من هواة الخيول العربية الأوروبيين أن يحضروا المزاد العلني. وصل فون خيوغل إلى القاهرة بسبعة أيام قبل بدايته.

عين للبيع حوالي ثلاثين حصانًا منها ١٤ عزبية، و ١١٠ أنثى و ١٨٠ مهر. كان صعبًا إدراك هذه الكمية الكبيرة من الحيوانات ومعرفة معلومات مفصلة عنها. كان منها سبعة أحصنة مأخوذة من الصحراء والباقية متولدة في مصر. لم يكن شيء أكثر متعة للهواة من مشاهدة هذه العزبة التي كانت ممنوعة عن الأجانب قبل ذلك،

وحيث كان ممثلو كل أجناس الخيول العربية. وأكثر شيء أذهل المشاهدين أفراس كبيرة الحجم وقوية لا تختلف في هيئتها عن أي حصان صيد إنكليزي. اعترف فون خيوغل أنه تفاجأ عندما رأى خيولاً عربية بهذه الحجوم والهيئات القوية.



أمير العرب

حصان أمغر ولد عام ١٨٨٣ في قبيلة ولد علي في الجزيرة العربية. سلالته كحيلان القروش.
أحضره الكونت إستروغانوف إلى روسيا عام ١٨٨٨.
ارتفاع منبت رقبته أرشينان وفيرشوكان وثلاثة أرباع فيرشوك

كان عباس باشا يعرف شتى الطرائق للحصول على الخيول حتى من الأماكن التي لم يستطع أحد الحصول عليها منها قبله؛ فمثلاً عندما عرف عباس باشا أنه في قلعة القاهرة شيخ محبوس أكثر من عشرين سنة أخذه محمد علي أسيراً في أثناء الحرب مع الوهابيين، أطلق سراحه بشرط أن يرسل له أفضل حصان من النجد. وقد وفى الشيخ وعده فأرسل لعباس باشا حصاناً من سلالة سامية اسمه قدير، وقد اشتراه فون خيوغل بالمزاد العلني لعزبة تربية الخيل الفيورتيمبيرغية.

كانت أبرز الخيول في المزاد العلني من سلالة صقلاوية جدران ودهمان (الشحواني ؟). وغيرها كانت خيول من سلالة صقلاوي (مريفي ؟) ودهمان أم عمر وكحيلان نواق وكحيلان (عبيان ؟) وحدبان وربضان. أكثرها رمادية اللون وتليها المغراء فالكميتة. كما كانت أجناس مجهولة مثل شحامة التي استخرجت من المنطقة الجنوبية العربية من النجد قرب البحر الأحمر. كان من هذه السلالة فرسان امتازتا بمظهرهما الدال على الأصالة بعمق حزام سرجهما وقصر أرجلهما ومتانة بنيتهما، ولكنهما طويلتا المتن بعض الشيء وقصيرتا الكفل مع علاوة منبت الذيل. اقترح فون خيوغل على واحدة منها ٥٠٠ جنيه، ولكن ما أوقفه عن شرائها النهائي ليس ثمنها الغالي فحسب، بل لأنها كانت ستجلب مهراً بعد أسبوع فكان من الصعب توصيلها. كان حجمها قد أثر أيضًا في ثمنها.

بدأ المزاد العلني في العاشرة صباحًا في العاشر من شهر كانون الأول، وكان يرأسه أدهم باشا الذي كان وزير المعارف في زمن عباس باشا. لم يكن البيع منظمًا إذ كانت الخيول تباع كما اتفق. وكانت على رقبة كل حصان بطاقة عليها وصفه المفصل باللغة العربية، لذا كان الاستدلال عليها صعبًا على الأوروبيين، في حين أنه كان مفهومًا للمصريين. كان على يمين الرئيس مكان مخصص للأوروبيين وعلى اليسار لممثلي الدول الشرقية. أجري المزاد العلني باللغة العربية والإيطالية وكان ثلاثة من الوكلاء يعلنون الأسعار وهم يدورون بين صفوف الشارين. كانت الأسعار تحدد بالجنيهات الإنكليزية. كان يُباع ٢٥-٢٨ رأسًا يوميًا من العاشرة صباحًا حتى الثالثة عصراً. بيع في اليوم الأول عشرون حصانًا بخمسة آلاف جنيه. كان ثمن الخيول البالغة من العمر سنة ١٠٠ جنيه، والسنتين ٢٥٠ جنيه والبالغة عشرين سنة من العمر ٢٥٠ جنيه. وكان بعضها يباع بثلاثمئة جنيه وسبعمئة جنيه.

اشترى أكثر الخيول السكان المحليون وألحقت بعد ذلك بعزب تربية الخيل الصغيرة قرب القاهرة. وحصل الشاب علي بيه رئيس الحكومة التجارية على حوالي أربعين رأسًا؛ وحصلت الحكومة الفرنسية على ثمانية عشر ما بين حصان وفرس، والحكومة النمساوية حصلت على حصانين عن طريق الأمير أرينبيرغ، والحكومة الإيطالية عشرين حصانًا.

اشترى فون خيوغل للعزبة الفيورتيمبيرغية حصانين وثلاث أفراس (قدير وشدحان ودحمة ودريبة ومرية). كان أكثرها قيمةً قدير (صقلاوي جدران) ودهمة (دهمية الشحوان)، وقد أدى تصديرها إلى أوروبا إلى سخط كبير بين السكان المحليين.

أنجبت دريبة أمهارًا بعد ثلاثة أسابيع من وصولها[1].



(١) من تعليقات المؤلف: عندما كنت في القاهرة في شتاء عام ١٨٩٩ تعرفت على حسين بيه الشريف الذي اشترى حوالي أربعين من أفضل خيول عزبة عباس باشا بالمزاد العلني. كما بيعت عزبة علي باشا الشريف أيضًا بالمزاد العلني عام ١٨٩٧.

عرفت من كلام حسين بيه أن عباس باشا نائب ملك مصر كان يملك حوالي ١٨٠٠ حصان عربي أصيل، وقد حصل على أكثرها بشرائها من البدو أو بنهبها منهم قسرًا، وكان أكبر وكلاء علي بيه الذي لا يزال حيًا.

كانت أشهر خيوله من سلالة دوم أو دحم (وتقول Lady Anne Blunt أنها دهمان).

امتلك خيول علي باشا الشريف عدّة أشخاص، وقد اشترى الزوجان بلانت الأفضل منها.

الفصل الرابع

أرى أنه لا بد من أن أضيف إلى هذا الفصل «معلومات عن الحصان العربي» وهي مقتطفات من كتاب القبطان الإنكليزي الألاني اسمه أوبتون، عنوانه «نيوماركت والجزيرة العربية». هذا الكتاب ممتع لأنه يشهد مدى حاجة الإنسان الإنكليزي للحصان العربي إذا كان هاويًا كبيرًا للخيول ورياضة الخيل. والقبطان أوبتون كرس حياته لدراسة الحصان العربي وتاريخه وسنحت له الفرص للتأكد من آرائه بالتجارب الكثيرة والمتنوعة.

قال القبطان أوبتون في مقدمة كتابه إن أصل حصان السباق الإنكليزي من الخيول البربرية أو التركية التي لا تُعدُّ عربية ولا بأي شكل من الأشكال. والجد العربي الوحيد للخيول الإنكليزية هو دارلاي أرابيان الذي خلف أفضل خيول السباق فلاينغ تشايلدارس.

نظرًا لأن أصالة الحصان شرط لا بد منه لتوفير جودته العالية فإن مسألة أصل الحصان الإنكليزي هامة جدًا. تفسر جودة الحصان الإنكليزي بطريقتين: البعض يزعمون أن أصله من الخيول العربية الأصيلة أبناء البادية، والبعض يزعمون أن هيئة الحصان الإنكليزي الحسنة تعود إلى حسن اختيار الفحول وتربية النسل دون العودة إلى الأصل.

كان في سباقات الخيل الأولى في إنكلترا خيول غير معروف انتماؤها لجنس أو لآخر، ففازت خيول من أصل شرقي. اشترى الملك يعقوب الأول حصانًا عربيًا للسباق من السيد مرخم بـ ٥٠٠ جنيه استرليني، لم يكن أصله معروفًا ويبدو أنه لم

يلتحق بعزبة لتربية الخيل لأنه لم ينل إعجاب صاحب الإسطبل الملكي الذي سماه حصانًا هزيلاً وصغيراً.

لم تكن سباقات الخيل في زمن الملك كارل الأول مدعومة ولكنها توضح أن الخيول الشرقية قد حسنت التركيب الخيلي في الخيالة. أما الملك كارل الثاني فكان ناصراً كبيراً للسباقات الخيلية فاشترى الفحول البربرية والتركية والحجور من الأجناس الشرقية التي نالت تسمية «الملكية»، ويزعمون أن البعض منها استورد من المجر. وكان واحد من أسباب إعطاء الأفضلية للخيول البربرية والتركية هو التحامل الكبير من جهة الذوق نيوكاستل ضد الخيول العربية. على أي حال فإن تفوق الأجناس الشرقية على المحلية ثابت ومؤكّد.

كانت أفضل الأنسال هي التي أنجبتها أفراس ليست عربية أصيلة بل مستوردة من الشرق وغير هجينة، ظهر منها: بايرلاي تارك وبيه بيغوت وليدس أرابيان وتشايلدارس الأول والثاني وفرس اللورد لونسدال: دارلاي أرابيان. والرأي الذي يقول إن أفضل حصان في السباق الإنكليزي كان فلاينغ تشايلدارس هو رأي صحيح.

من الغريب أن تشايلدارس قد أهملوا المحافظة على أصالته مع مرور الزمن، وبدلاً من التمسك بالأجناس الشرقية بوجه الاستثناء أصبحوا يأخذون الأمهار من الأحصنة والأفراس الهجينة، فمرت الأجناس الحالية التي أصلها من بارلاي تارك ودارلاي أرابيان بفحول وإناث الخيل الهجينة مع الأجناس المحلية أو أجناس مجهولة الأصل، مما أدى إلى انخفاض جودة حصان السباق الإنكليزي الذي لم يبلغ حتى الآن ذلك الكمال الذي بلغه في زمن فلاينغ تشايلدارس عندما كانت أصالة فحول الخيول الشرقية تلفت النظر.

يبدأ تأصيل الحصان الإنكليزي منذ عام ١٦٨٩ من ثلاثة أحصنة: بايرلاي تارك ودارلاي أرابيان وغودولفين أرابيان. وتُستثنى من ذلك الفحول الأخرى لأنها لم تخلف أنسالاً منها مباشرة (ومنها بعض الخيول البارزة مثل تشايمزلاي تارك وبلاس تارك وليستر تارك ودارلاي وايت تارك ودارلاي بالو تارك وبلاودي باوتوكس وليدس أرابيان).

كان بارلاي تارك ملكًا للقبطان بارلاي في زمن الحروب مع إيرلندا، وكان والدًا للحصان سيرات وجيغ ولم تكن له أنسال أخرى.

إذا نظرنا إلى أنسال بارلاي تارك نلاحظ أنه نال سمعته بعد هجنه مع أنسال دارلاي أرابيان وهو الجنس الأصيل الوحيد الثابت في سلسلة نسب الخيول الإنكليزية. طبعًا من الصعب تأكيد أهمية هذه التهجينات، ولكن دراسة سباق الخيل تعطي دلائل واضحة على ذلك.

كان دارلاي أرابيان حصانًا كميتًا يتمتع بكل الصفات اللازمة للسباق. كان تابعًا لسلالة كحيلان الرأس الفضاوي فاشتراه من قبيلة العنزة القنصل الإنكليزي في حلب السيد دارلاي. كان على رأسه خط أبيض، وساقاه الخلفيتان، والساق الأمامية اليسرى «محجّلة بحجال طويل». لم يَنْزُ إلا على أفراس قليلة، وأبناؤه: فلاينغ تشايلدارس وألمانزور وكيوبيد وبرسيك وحلب.

الحصان فلاينغ تشايلدارس أفضل حصان السباق في الماضي والحاضر، وكان شرقيًا أصيلاً، كميت اللون وارتفاعه أرشينان وفيرشوكان، يوجد خط بطول رأسه، وأرجله كلها «محجّلة بحجال طويل»، ممتاز الهيئة وأعلى رأسه نتوء عظمي.

رأى أوبتون صورة هذا الحصان التي كانت مرسومة بالألوان الزيتية حيث كان رأسه عربيًا: أي متضيقًا من الأعلى إلى الأسفل وبجبين عريض ومسطح بين

العينين، عيناه كبيرتان، مستقيم المتن عالي الردف، عضداه قليلا الانحدار، وحزام السرج ليس بعميق جدًا، ولكن ضلوعه الخلفية وطيئة إذ إن خط البطن من عظام اللوح إلى الأرجل الخلفية موازٍ للمتن تقريبًا.

من بين نسل غودولفين أرابيان لم تكن إلا أحصنة قليلة ناجحة مثل بارلاي تارك، ولم تنجح أنسال الأول في السباق إلا بعد هجنها مع دارلاي أرابيان.

وصف بارلاي تارك وصفًا تامًا يجعل تقديره صحيحًا. وأما ما يخص أصل غودلفين أرابيان فتوجد شكوك في هذا الموضوع. يفترض أنه استخرج من شمال إفريقيا وليس عربيًا أصيلاً، والبرهان على ذلك هو تحسن نسله الأنثوي ولكن هذا التحسن لم ينتقل إلى الأنسال الأخَر.

يقول أوبتون إنه ضحك كثيرًا على النظرية التي تقول بأن حصان السباق الإنكليزي ظهر بطريقة اصطناعية بفضل عبقرية الشعب الإنكليزي ومثابرته. كما يقولون إن رشاقة الحصان العربي وصبره اكتملا بفضل الخيول التركية والبربرية، وأجري التهجين مع الخيول العربية فقط من أجل إعادة الكرامة. كل هذا يشبه طريقة إعداد الحلوى بودينة، في حين أن النجاح ظهر بفضل الاستعانة بالخيول العربية الأصيلة دارلاي أرابيان في تربية الخيل في إنكلترا. وحتى في الوقت الحاضر واضح أن أفضل خيول السباق هي أنسال دارلاي أرابيان المباشرة من الذكور.

يظهر من تاريخ الحصان الإنكليزي أنه غير أصيل، ففي تشايلداري يظهر تهجين مستمر مع الأجناس الأخرى. تقول النظرية إن أي تهجين صغير مع خيول غير أصيلة يزول بعد ثمانية أجيال. العرب لا يؤيدون هذا الرأي، وأي خروج عن الأصالة يعدُّونه خطأً لا يصلح. علينا أن نعترف بصحة رأي العرب لأنهم أفضل مربي الخيل في العالم. إنهم يروْن مقياس الأصالة الصبر والقوة إلى جانب الرشاقة.

يقول الأمير عبد القادر الجزائري: «إذا كان حصان ما يتمتع بصفة الرشاقة دون الصبر أو الصبر دون الرشاقة فلا يمكن أن يكون أصيلاً».

يفترض البعض أن حصان السباق فقد الصفات المذكورة أعلاه بسبب التدريب المبكر جداً، في حين أن رأي العرب بأنه من أجل تقدير الخيول تقديراً صحيحاً يجب ركوبها وهي في السنتين من عمرها وتشغيلها في الجر وهي في الثالثة من عمرها. يؤكد الأمير عبد القادر ذلك معتمداً على ملاحظته لعشرة آلاف مهر ومن اثني عشر وخمسة عشر ألف فارس، بأن الحصان إذا لم يكن مركوباً قبل بلوغه الأربع سنوات من عمره سوف يفقد صفاته الجيدة حتى آخر عمره.

كان في جريدة «تايمس» المقال التالي: «صحيح أن خيولنا السباقية تفقد صبرها، ولا نرى خيولاً كبيرة السن في السباق قطعاً، ولكن من جهة أخرى بلغت الخيول التي عمرها سنة حجماً كبيراً وقوة». نستنتج من ذلك أن حجم الحصان ليس صفة أساسية، وأن قوته التي ظهرت نتيجة كبر حجمه ليست إلا صفات شكلية بعيدة عن الحقيقة.

أليس قلة الصبر والقوة لدى الحصان الإنكليزي بالمقارنة مع العربي سببها هو عدم أصالته؟ إن القوة والصبر اللتين تتفقان مع الرشاقة وكرامة الشكل الخارجي هي نقطة واحدة من دم غير أصيل.

يا ترى، ما هي الخيول العربية والشرقية التي ظهر منها حصان السباق الإنكليزي؟ كانت تلك الخيول تسمى بالعربية والتركية والبربرية والفارسية والمصرية والتركمانية والأجنبية.

تحدد هذه الخيول بقرابتها من أجناس الخيول العربية. الخيول التركية، ما عدا الاستثناءات القليلة منها أي العربية التي أهديت للسلطان، لا يمكن أن تنتمي إليها. كان صعباً على الأتراك الحصول على الخيول من الصحراء بسبب سوء علاقة البدو

تجاهبهم. ومع أن الخيول التركية فيها بعض الدم العربي والدليل على ذلك أرجلها الحسنة، لكن صفات الخيول العربية الأخرى لا توجد عندها.

يفرق الأمير عبد القادر الجزائري بين الخيول البربرية وخيول الصحراء الكبرى التي هي أنسال الخيول العربية. يزعم الجنرال دوماس أن الخيول البربرية غير أصيلة.

الخيول التي تسمى بالعربية المصدرة إلى إنكلترا مجهولة الأصل عدا دارلاي أرابيان الذي يذكره البدو حتى الآن.

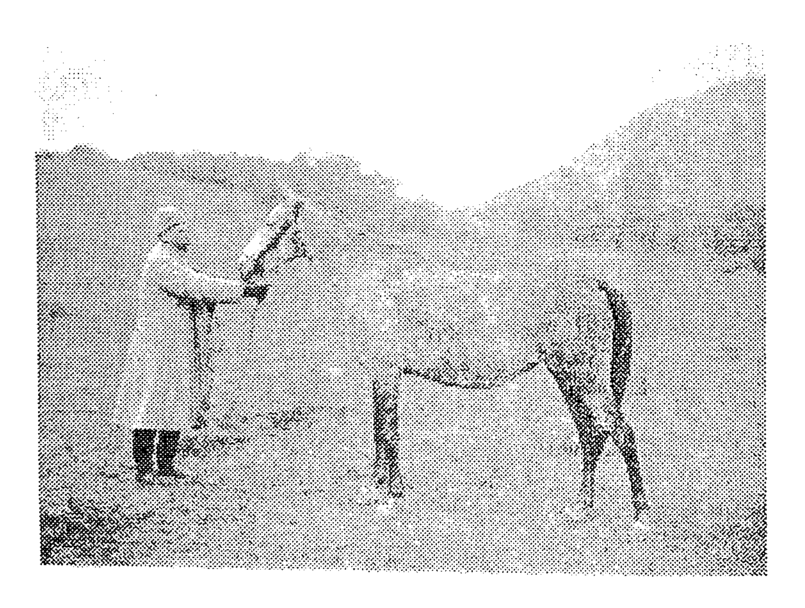
إذا تأملنا تكوين حصان السباق المعاصر فسوف نلاحظ أنه فقد الكثير ممّا ورثه من أجداده الخيول العربية الأصيلة الجيدة. فالخيول الإنكليزية فقدت كرامة شكلها الخارجي وفقدت الرأس العربي، وآذانها كبيرة وعريضة بدلاً من أن تكون صغيرة، ورقبتها إما طويلة أو قصيرة وغير أنيقة. متنها متمدد وكفلها أخطل وذيلها دون مقسم منخفض وأرجلها سيئة وضعيفة وحركتها غير منتظمة تمامًا وخطاها غير ثابتة وغير جريئة. بكلمة واحدة أصبحت الخيول المسماة بالإنكليزية الأصيلة أكثر شبهًا للخيول الشرقية غير الأصيلة وليس للخيول العربية.

إنّ أوبتون متأكد من أن هذا التغير حدث خلال ثلاثين عامًا مضت. أصبح عضد حصان السباق أكثر انحدارًا وأقل قوة، وأصبح الكفل أكثر انخفاضًا، فأدى هذا إلى تطول متنه وبدنه، ولكن هذا التطول موهوم أكثر مما هو حقيقي. بعض أطراف بدن الحصان الإنكليزي متراصة بشكل سيّئ، كما غاب عنه هذا الانتظام في الشكل كالذي عند الحصان العربي، وهذه من أهم صفاته. غالبًا ما ترى في المضمار خيولاً قصيرة وطويلة الأرجل وضامرة؛ بعض منها غليظة الشكل أو خفيفة الشعر والبعض هذا وذاك، والبعض منها مشوهة إلى أقصى حد. إذا بدا متن الحصان طويلاً فالسبب في ذلك العضد أو الكفل، والمتن الطويل مع الكفل الجيد يدل على أن عضده مستقيم الشكل، وإذا كان العضد جيدًا والمتن طويلاً عندئذ يكون الكفل

قصيرًا وغير منتظم، أو يكون المتن طويلاً بسبب العضد المستقيم أو الكفل القصير.

ما عدا أسلاف حصان السباق الشرقية وغير الأصيلة، فسدت الخيول الإنكليزية بسبب سفاد أفراسها مع خيول غير أصيلة. نعلم أن الفرس تنقل إلى أنسالها كل شوائب سفاداتها السابقة.

كانت الأحصنة الثلاثة خيرود وماتشيم وأيكليبس، التي ظهرت منها خيول السباق المعاصرة، نصف أصيلة: أي ولدت من فحول نصف أصيلة وأفراس نصف أصيلة، وهذا ما ينقض نهائيًا ذلك الافتراض بأن حصان السباق الإنكليزي أصله من الخيول العربية وأصلها من النجد. ولكنها لم تسفد مع أفراس أصيلة لذا ذهبت سلالتها دون أن تترك أثرًا.



حمدانية

فرس رمادية ولدت عام ١٨٩٣ في عزبة لتربية خيل الكونت إستروغانوف. عربية أصيلة من سلالة حمدانية سمرية، والدها الحصان سطام القريش ووالدتها الفرس حمراء. ارتفاع منبت رقبتها أرشينان وثلاثة فيرشوكات ونصف.

مع إنهائنا لموضوع حصان السباق الإنكليزي وانتقالنا إلى الحصان العربي، ينبغي الاعتراف بأن العربي هو جنس صافٍ ومستقل، دون أية دلائل الانحلال أو الاختلاط. غير ذلك لا يوجد في العالم جنس آخر من الخيول وصل إلى هذه الدرجة من الكمال كالأجناس العربية، كما لا يوجد أي جنس من الخيول في العالم يمتاز بخصال خاصة إلا التي لها أجداد من الخيول العربية.

نشهد على ذلك من وصف الحصان العربي من إنجيل العهد القديم من كتاب أيوب الإصحاح التاسع والثلاثون: «هل أنت تعطي الفرس قوته وتكسو عنقه عرفًا أتوثبه كجرادة. نفخ منخره مرعب يبحث في الوادي وينفز ببأس. يخرج للقاء الأسلحة. يضحك على الخوف ولا يرتاع ولا يرجع عن السيف. عليه تصل السهام وسنان الرمح والمزراق. في وثبه ورجزه يلتهم الأرض ولا يؤمن أنه صوت البوق، يقول هه ومن بعيد يستروح القتال صياح القواد والهتاف». ذلك كلام الله الخالق لأيوب يدلنا على عظمة الحصان وجبروته والرعب الذي يزرعه في القلوب.

الحصان العربي مثال الخيول، ارتفاعه أرشينان وفيرشوك واحد، وطوله يوافق ارتفاعه، هذا بالإضافة إلى قوته وانتظام شكله ومرونته وخفة حركته. إنه مخلوق منسق بكل شيء، واعتدال حجم الخيول هو جوهر صفاتها الجيدة. يجب أن يرى الإنسان الحصان العربي بأم عينيه لكي يقدر أناقة رأسه وعينيه وأذنيه وفكه وفمه ومنخره. آذان الخيول العربية صغيرة ولكن رسمها المحيطي رائع، ورأسها عريض في أعلاه؛ وعيناها لينتا التعبير، ذكيتان في حال الوقوف، وعندما تتحرك تعبران عن الحماس والحرارة وليس الرعب كما هو عند خيول الأجناس الأخرى. تكون فتحات أنفه على شكل شقين متطاولين في حالة الهدوء، وجيدة الرسم المحيطي، وتتوسع كثيرًا في حالة التنفس السريع. ورقبته رمز القوة والعظمة. وحلقه لين ومرن خاصة في الحركة، وهذا دليل ليس على جودة تنفسه فحسب بل على قدرته

على الحركة المستمرة دون تعب. المسافة بين فكيه كبيرة. عضده طويل ولا يتصادف مثله عند الخيول الإنكليزية إلا نادراً، كما أن عضده يتوسع عند مكان اتصال الرقبة بالمتن. قفص صدر الحصان العربي عميق جداً، ولكن هذا غير واضح بسبب ضلوعه الطويلة والعريضة. متنه قصير و «بوتشكي» قوية وكفله طويل وقوي وحسن الموضع، ومقسم ذيله عال وركبه عريضة وحسنة، وقسم ساقه ما فوق الركبة طويل وما تحتها قصير وصلب ونقي، وشرايينه قوية وناشفة ومرئية جيداً، وأرساغه طويلة وعريضة وقوية ومرنة، والقسم ما بين الأرساغ والحوافر كبير وفسيح للشرايين والعضلات، وحوافره صلبة وعميقة. قلبه قوي وخدّه كالحرير وشعره كالأطلس.

لا يمكن أن يكون الحصان العربي قليل الكثافة، وهذا ما يدل عليه قدرته على حمل الأثقال وجسمه الكبير فيه متسع لنشاط الرئتين والقلب. وإذا وقف أحد أمامه فسوف يرى جنبيه المستديرين خلف صدره وعضديه. ومن الخلف تظهر ضلوعه البارزة خلف عضله الفخذ الخلفية. وإذا نظر أحد إلى الحصان الإنكليزي العصري من أمامه فلن يرى جنبيه أو ضلوعه بسبب ضيقها. والخيول الإنكليزية السابقة ليست كذلك والدليل على ذلك صورة الفنان إكليبس.

لا شيء في الدنيا أجمل من الحصان العربي، فهو أهيف وكريم وهيئته مثالية كما يجب أن تكون، فلا شيء يضاف إليها ولا ينقص، لأن كل شيء فيها كامل الأوصاف. وعلى متنه مكان صغير صالح لتثبيت السرج عليه لأن أقسام جسده الباقية كلها مخصصة للحركة.

إذا تأملنا الحصان العربي بوضوح فسوف نجد أنه لا يوجد لأي جنس آخر من الخيول هذا التركيب الجيد للمفاصل التي تعود إليها سرعة الجري. وكلما نظر إليه الإنسان أكثر زاد إعجابه به وتأكد من جودة خصاله.

يفترض البعض أن حصان السباق الإنكليزي يشبه في هيئته الحصان العربي. طبعًا لا يمكن أن يكون هذان الحصانان مختلفين تمامًا إذا أخذنا في الحسبان أن أصل الحصان الإنكليزي من العربي. ولكن من جهة أخرى الحصان الإنكليزي عليه بصمة واضحة من الأجناس الأخرى التي هجن معها، ويتبين ذلك عند مقارنة الحصان العربي والإنكليزي بشكلهما. الحصان العربي مثالي الرأس والنظرة والأذنين والفنطيسة والفك، ولا توجد مثلها عند أية أجناس أخرى، ورقبته أنيقة وقوية ودالة على العظمة، وعضداه دون شك، أفضل من عضدي الحصان الإنكليزي. يظنون في إنكلترا أن عضدي الحصان العربي غليظتان في حين أنهما نحيفان وقويان في آن واحد. اتصال الرقبة بالمتن عند الحصان الإنكليزي ضيق ونحيف وضعيف وغالبًا ما يكون عالي الموضع وبشعًا، في حين أنه عند الحصان العربي عريض وصالح لحمل الأثقال. حصان السباق الإنكليزي ثقيل الأعضاد في الأسفل وصدره أعرض من صدر الحصان العربي، لذلك فإنه يشبه بجريه بولدغ[1]، لذا فعضداه أثقل وأضعف من الحصان العربي. أما صدره الواسع الثقيل فهذا حتمًا نقص كبير. ثم إن جوانب الحصان الإنكليزي مسطحة، وهذا الاختلاف عن الحصان العربي هو اختلاف للأسوأ. أما الحصان العربي فضلوعه مستديرة وبارزة خلف عظام اللوح في ساقيه الأماميتين. كما أن الفرق واضح في تركيب الفخذ، وهو ضعيف عند الإنكليزي، وهذا دليل على سوء جنسه. أما «بوتشكي» الحصان العربي وكفله فأكثر أناقة وقوة، ولو أنها ليست صفة هامة التي يتميز بها الحصان العربي، ولكنها غالبًا ما تدل على وجود الأجداد العرب لدى حصان ما. ثم إن أرساغ الحصان العربي خفيفة الانحدار وواسعة وقوية، وهذا ما لا يوجد عند الحصان الإنكليزي وهو ضعيف المفاصل بشكل عام.

---

(١) بولدغ: نوع من الكلاب. المعرب.

قال بوتان وهو شخص ذو نفوذ كبير: «يسمو الحصان العربي على غيره من الخيول بعضده ورأسه. وخط عظمة اللوح في العضد له ميل لائق يغطيه عضل قوي دون أن يثقل عليه. يمكن أن يبدو صدره ضيقًا لغير المختصين، ولكن جنبيه يتسعان خلف الأعضاد فتعطي بذلك متسعًا من الفراغ لنشاط الرئتين». يتوقف يوتان على هذه الصفة الأخيرة بشكل خاص فيقول: «أكبر فضل من التهجين مع الأجناس العربية هو ظهور تركيب جيد للقفص الصدري العريض والعميق عند النسل. الخيول العربية، برأي البعض، نحيفة جدًا ولكنها تعوض عن ذلك باستدارة جوانبها خلف الأعضاد، فتكون جوانبها فسيحة للرئتين ومركز ثقل جسمه خلف ساقيه الأماميتين وليس أمامها، فيحافظ بذلك على توازنه وتتخلص الساقان الأماميتان من الاهتزاز الزائد الذي يضرها. هذا هو البرهان على تناسق أطراف الحصان العربي خادمة للغرض. وإذا أراد أحد أن يقدر هيئته فعليه أن يكون عالمًا في التشريح وفنانًا، فإذا نقل الحصان العربي إلى لوحة الفنان كان حجمه وانتظامه واضحًا».

يصف السيد غريفود بولغريف الخيول العربية في الرياض على الشكل التالي: «إنها صغيرة الحجم بعض الشيء، لا أظن أنّ ارتفاعها يصل إلى أرشينين وفيرشوكين، ووسطيًا لا يزيد على أرشينين. ولكن هيئتها منتظمة ومتناسبة لدرجة أن صغر حجمها لا يؤثر عليها. أفخاذها ممتلئة وأعضادها رشيقة القد تمنحها جمالاً أخّاذًا كما سيقول أي شاعر إذا رآها. وتقوس متنها البسيط إلى حد المرونة لا يجعلها ضعيفة. رأسها عريض في أعلاه وينتهي في أسفله بمنخار ضيق لدرجة أنه يدخل في الكأس. نظرتها ذكية ولينة التعبير وعيونها كبيرة وآذانها صغيرة ومدببة، وأرجلها الأربعة كأنها مطروقة من فولاذ كما أنها نقية إلى حد ما ومفتولة العضلات. حوافرها نقية ومستديرة وصالحة للسير على الأرض الحجرية. ذيلها مقوس، شعرها يلمع في ضوء الشمس، وعفرتها خفيفة وطويلة دون زيادة عن الحد.

إذا سألني أحد: ما الصفات المميزة لخيول النجد؟ فسوف أجاوب: خط العضد، ونقاء الأرجل تحت الركب، واستدارة الأفخاذ. كل مفصل يذهل المشاهد بجودته. وبشكل عام تمتاز هذه الخيول بانتظام هيئتها التي ليس لها مثيل قط عند خيول من أجناس أخرى. وانحدار عضديها يمنحها خفة ومرونة في الحركة بفضل تركيب جسدها الممتاز وكفلها القوي ومقسم ذيلها الفريد من نوعه وفنطيستها اللينة ومتنها الممتاز. وهذا ما يجعل الخيول العربية مثلاً أعلى لا تصل إليه أجناس أخرى من الخيل».

يليها وصف الرَّائد غواتكين للحصان العربي بيرقوت الذي اعترف السيد إيليوت بأنه أفضل ممثل لسلالته في الهند:

«بيرقوت من النجد عمره ثمان سنوات، ارتفاع منبت رقبته أرشينان وفيرشوك واحد، لونه رمادي مائل للفضي قليلاً، أسمر الجلد أصيل الرأس كبير العينين واسع البوز وخفيف الرقبة. عضداه مسطحان مغطيان بالعضل، منبت رقبته عال. جيد الزند عظام أرجله مسطحة، أوعيته الدموية متينة ومنفصلة عن العظام وأرساغه طويلة. أما متنه وبوتشكي «الأنيقتان فتجعلاننا نتصور درجة قوته».

نقدم الآن صورة الحصان الذي أهداه الأمير عبد القادر الجزائري للإمبراطور نابليون الثالث: «اسمه أمير عمره ثمان سنوات، كميت اللون ذو شعر حريري، ثلاثة من أرجله «محجلة بحجال طويل»، توجد بقعة بيضاء على رأسه ورقبته. ارتفاع منبت رقبته أرشينان ونصف فيرشوك. رأسه متطول جيد ناشف حسن الموضع. أذناه صغيرتان وعيناه وديعتان وذكيتان. شعر ذيله وعفرته ناعم ورفيع، رقبته أنيقة مستقيمة قوية زائدة الطول. عضداه طويلان يوضحان أصالته. أرجله حسنة قوية وكفله متين. عريض الضلوع والمتن. حوافره سوداء متينة عريضة في كعبها. مفاصله عريضة وركبه حسنة جدًا. بشكل عام أمير حصان ظاهر القوة متين

البنيـة ، إنه كث جداً وهذا ما لا يجعله رشيقًا بالإضافة إلى أرساغه المنخفضة . حركته أكثر مرونة مما هو متوقع من حصان مثله . إنه هادئ كالحمل ، ومع ذلك ليس بكسول . منظره العام يدل على أصالته» .

صرح القبطان أوبتون أن الذي وصف الحصان أميرًا لا يفهم كيف يمكن أن يكون الحصان رشيقًا وهو كثيف الهيئة إلى هذا الحد . ولكنها ميزة من ميزات الحصان العربي الذي يمكن أن تقترن فيه هاتان الصفتان . والأرساغ القصيرة أيضًا ليست نقصًا نظرًا لقوتها . كما نظن أن الذي قال عن رأس الحصان أمير بأنه متطول كان قد أخطأ .

للحصان فلاينينغ داتشمان (وهو الحصان الإنكليزي الذي تشبه أرساغه أرساغ الحصان العربي) أرجل ممتازة أرساغه أطول بقليل مما يجب أن تكون . وعندما كانت الخيول الباقية مصونة ولا تتدرب إلا بالقماص الخفيف ، كان المدرب فوبير يجبر هذا الحصان على الجري بكل قواه على الأرض الصلبة وعلى مسافة أربعة أميال .

لقد تعود الجميع على لوم الحصان العربي لصغر حجمه ، وصحيح أنه ليس بضخم ولكن هيئته لا تختلف عن هيئة الحصان الكبير . والذين لا يعرفون الحصان العربي لا يستطيعون فهم ذلك ، فالأكثرية يظنون أن الحصان الذي ارتفاعه أرشينان وفيرشوكان حتى يكون قويًا كالحصان الذي ارتفاعه أربعة فيرشوكات فوق الأرشينين لا يمكن أن يكون منتظم الشكل . إنهم يعتمدون في ذلك على مقياس الخيول الإنكليزية ، ويقصدون خيول السيسي الإنكليزية والفرنسية غير القادرة على حمل أكثر من ثلاثة أبواد ، فيظنون أن الخيول العربية كذلك . مع ذلك سوف نقدم شهادة عضو المعهد الملكي للطب البيطري ، الذي استطاع أن يقدّر خصال الحصان العربي بفضل معلوماته الواسعة في علم التشريح : «أعتقد أن الخيول العربية قادرة على حمل وزن قدره خمسة أبواد ، ويسير أخف من سير أكثر الخيول التي ارتفاعها

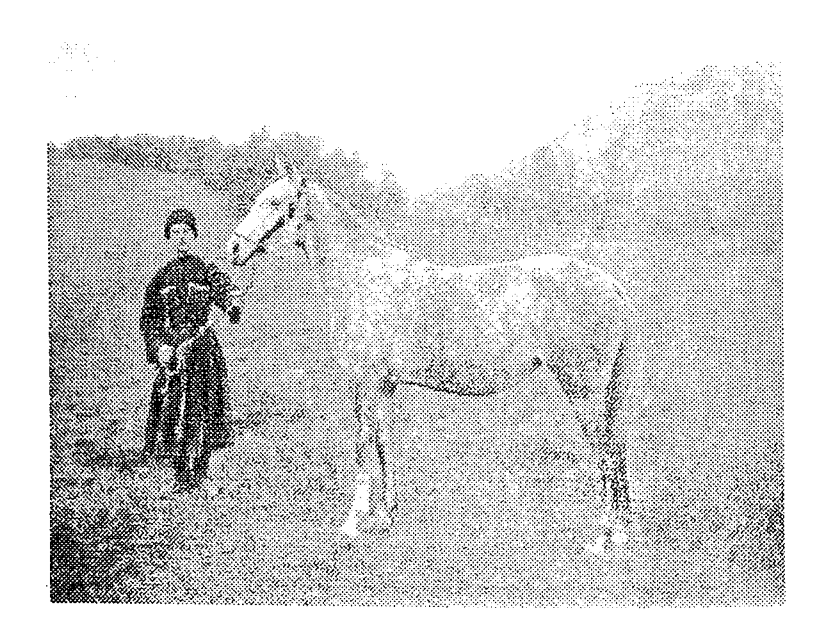
أربعة فيرشوكات فوق الأرشينين. أكفالها عريضة وأكثر قوة من الحيوانات الضخمة». ها هو ذا رأي شخص ذي نفوذ قضى ثلاثين عامًا من عمره بين الخيول الإنكليزية ومرة واحدة فقط رأى بالمصادفة حصانًا عربيًا متوسط الجودة وليس مثاليًا.

إن صغر حجم الحصان ليس دليلاً على ضعفه، إذ يمكن أن يكون الحيوان كبير الحجم وبأعضاد وكفل ممتازين ومفاصل كبيرة وهيكل جيد ولكن بمتن و «بوتشكي» سيئين ضعيفين هزيل البنية. إنه غير منتظم الشكل فلا تكفيه قوته الداخلية لتحريك جسده الضخم. وإذا كان الحصان صغير الحجم مسطح الضلوع سيّئ «البوتشكي» صغير الجسامة، فسيكون أيضًا خفيف العضل على الرغم من الصفات الجيدة التي فيه. إنه رشيق قادر على أن يفوز في السباق في وقتنا الحاضر، ولكنه لم يكن قادرًا على ذلك منذ مئة عام. ليقولوا عن كلامي هذا إنه هراء فارغ، ولكنه صحيح، فبعض الخيول الفائزة في السباق كانت فعلاً ضعيفة وهزيلة.

كما يوجد رأي يقول إنّ الحصان العربي سيّئ العضدين والحركة، ولكن هذا يعود إلى راكب الحصان بالدرجة الأولى. ثم إن وثب الحصان العربي ممتاز وخببه وخطواته كبيرة. كفله جميل برسمه المحيطي ومعضل جدًا. أخلاقه ممتازة. وقبل بدء السباق بكسو الحصان العربي جمال المنظر، وهو مليء بالحرارة، ومع ذلك يبقى وديعًا. وعند ركوبه لا يستطيع أي حصان منافسته لا بالقوة ولا بالنشاط.

قال أحد أصدقاء القبطان أوبتون الذي له علاقات متينة مع البدو النجديين عن الحصان العربي ما يلي: «صحيح أنه ليس رشيقًا جدًا في قطع المسافات القصيرة بالمقارنة مع الحصان الإنكليزي، ولكنه أقوى وأكثر صبرًا منه، ومسافة الوثب الذي يقفزه الحصان العربي أطول من وثب الحصان الإنكليزي بالنسبة إلى حجميهما».

حصان السباق الإنكليزي أكثر تسطحًا وأنحف، وليست له تلك الاستدارة في الشكل كالتي يتمتع بها الحصان العربي الذي عضداه متناسبان مع حجمه وهما أطول من عضدي خيول الأجناس الأخرى. من ناحية انحدار العضد لا يمكن أن تقارن معه إلا خيرة الخيول الإنكليزية. وعضلات الحصان العربي بارزة ولم أر مثلها عند الخيول الأخرى قط. هيكلها أكثر متانة وأثقل بالوزن النوعي من الحصان الإنكليزي، وركبتاه الخلفيتان ليستا أصغر حجمًا، أما أرجله فأقوى. كل الخيول العربية الجيدة لها كفل عالٍ وطويل وعريض ومقسم ذيلها عالٍ أيضًا.



قموصة

فرس رمادية ولدت عام ١٨٩٢ في عزبة لتربية خيل الكونت إستروغانوف.

عربية أصيلة من سلالة كحيلان الرأس الفضاوي من الحصان تمري والفرس غزال.

اشتراه الأمير شيرباتوف عام ١٨٩٩

حتى أكبر أعداء الحصان العربي يعترفون أن ركضه جيد حتى على الأرض الوعرة، وهذا دليل على قوة عضديه. كما أن مهارته التي تساعده على تجنب الوِقاط والحفر أيضًا جديرة بالانتباه، فهو يحرك عضده الأيمن مع ساقه اليمنى تارة وعضده الأيسر مع ساقه اليسرى تارة أخرى. كما أنه يتقن في جريانه السيطرة على أرجله فيجري خلف فراشة أو عصفور كالهر الصغير الذي يلعب بالكرة الصغيرة. وهذا لا يكون إلا إذا كان الحصان حسن العضدين. وهذا برهان آخر على ذلك: وقعت الساق اليمنى لحصان القبطان أو بتون ذات مرة وهو يجري بسرعة في جحر المرموط فغاص فيها حتى الركبة، فلم يتعثر ولم ينتبه أحد إلى ذلك. ومرة أخرى كان القبطان عائدًا من الصيد فغاص حصانه في مستنقع حتى بطنه، واستطاع ذلك الحصان العربي البالغ من العمر عشرين عامًا أن يقوم بعدة وثبات حتى وصل إلى الضفة. وبعد خمس دقائق عاد إلى الجري السريع خلف كلاب الصيد وكأن شيئًا لم يحدث. لم ير في إنكلترا أحد قط شيئًا مماثلاً مع خيولهم المحلية.

كان في مجلة «بيكادور» مقال وصف الحصان العربي في الجري وصفًا ممتازًا: «اجلسوا عليه براحة تامة وضعوا أيديكم إلى الأسفل وأعطوا لحصانكم حرية تامة، عندئذ ستتذوقون شيئًا لا يتذوقه إلا فارس جيد: سوف يجري الحصان تحتكم بخطوات رشيقة ومرنة تجعلكم تشعرون وكأنكم تجلسون على نوابض من أفضل الأنواع».

نستنتج أن الحصان العربي الأصيل له أهمية كبيرة في ذاته أو في عملية التهجين. فتلك هي ميزات حصان السباق العربي: النشاط، الوداعة، الإطاعة، الصبر، قوة الأعصاب، الهمة، العزم والرشاقة الكبيرين. لا يمكن القول إن الحصان بليد إذا كان باستطاعته قطع ميلين بثلاث دقائق وثمان وأربعين ثانية وهو

محمل بالأشياء الثقيلة. ورشاقة الحصان العربي في السباق هي رشاقته الطبيعية، أما رشاقة الحصان الإنكليزي فمصطنعة وتطورت بطريقة التربية والتدريب عبر أجيال عديدة، وظهرت على حساب خصال أخرى ذهبت كلها. الحصان العربي رشيق في الجري من البداية إلى النهاية، وهو قادر على بذل جهود خلال سنوات متوالية. أخلاقه طيبة، لذا فالانطلاق عليه سهل.

الحصان العربي في السباق

تسير الخيول العربية على دائرة السباق في أكثر الأحوال متراصة، وقبل نهاية السباق يبدأ كفاح عنيف بين المتنافسين. إذا تأملنا صفحات «أوربنتال سبورتينغ مغازين» فسوف نرى أن الانطلاق على الخيول العربية ليس فيه شيء من الصعوبة. ثم إن حصان السباق يحتاج إلى توافر شروط كثيرة حتى يكون رشيقًا وقويًا على الرغم من صغر حجمه قفص صدره في وسط جسده عميقًا وعريضًا (وهو شرط أهم للرشاقة).

لا شيء زائد في هيئة الحصان العربي بفضل تماثله الممتاز، وهو أطول وأكثر قوة من الحصان الإنكليزي بالنسبة لحجمه. وعندما يبذل الحصان العربي جهدًا لا يفتح فاه ولا يفلت شكيمته (وهذه الصفة تزداد في الحصان الإنكليزي من عام إلى عام). قلب الحصان العربي ثابت وقوي يحمي صاحبه من التعب والإنهاك بعد الجري، كما أن الحصان العربي قادر على تكرار الشيء نفسه كل يوم. وأفضل مقياس قدراته السباقية هي السباقات في الهند حيث يتسابق الحصان العربي منذ سنوات وغالبًا ما يتنافس مع خيول إنكليزية. صحيح أن الخيول الإنكليزية ومعها الأسترالية كانت في بعض الحالات أكثر رشاقة من العربية، ولكن الحالات المعكوسة حدثت أيضًا. الحصان العربي المغلوب كان يثبت تفوقه عمومًا إذا لم يكن

منهكًا ودخل السباق عدة أيام متوالية في حين أن الحصان الفائز الأصيل يحتاج قسطًا من الراحة .

البعض يقولون إن الخيول الإنكليزية التي تتسابق في الهند هي خيول من الدرجة الثالثة ، ولكن من سيؤكد أن الخيول العربية التي تسابقت معها كانت من الدرجة الأولى وليست من الدرجة الثالثة أيضًا؟ تجلب الخيول العربية إلى الهند عن طريق تجار الخيل الذين لا يمكن الثقة بكلامهم عن أصل الحصان ، لذا فالكثير منها ليست خيولاً أصيلة . ثم إنها تلتحق بدائرة السباق وهي كبيرة السن ولم تتسابق بحياتها قبل ذلك . لا تصدر من البلاد العربية إلى الهند إلا الأحصنة فقط في حين أن التجارب التي أجريت في الهند تقول إن الحجور تجري أفضل من الأحصنة .

يمكن أن نستخرج بعض البيانات عن رشاقة الحصان العربي السباقية في الهند من «أوربنتال سبورتينغ مغازين» حيث قيل ما يلي : «في عام ١٨٤٧ قطع The Bar-on نصف ميل وهو يحمل وزنًا قدره ثلاثة أبواد وأحد عشر رطلاً في أربع وخمسين ثانية . وفي عام ١٨٤٤ قطع سير خيوغ نصف ميل في إحدى وخمسين ثانية . وفي عام ١٨٤٧ قطع تشايلد أوف ذي أيلاندس (عمره ٦ سنوات) ثلاثة أرباع الميل وهو يحمل ما وزنه ثلاثة أبواد وواحد وعشرون رطلاً في إحدى وعشرين ثانية . في عام ١٨٤٧ قطع مينسيت (٥ سنوات) ميلاً واحدًا في دقيقة وخمسين ثانية . الحصان العربي غراي لايغ ارتفاعه أرشينان وفيرشوك ، شارك في ثمانين سباقًا خلال سبع سنوات من عام ١٨٦١ حتى ١٨٦٨ ، ففاز منها في واحد وخمسين سباقًا بمختلف المسافات والأوزان المحملة عليه . في عام ١٨٦٤ تغلب هذا الحصان في فوريس ستاكس في كلكتا على فرس إنكليزية شارك روك وفرس أوسترالية فان ديمن . كما فاز الحصان العربي حرميت في اثنين وثلاثين سباقًا . وقطع الحصان ترادس بلات في عام ١٨٦٢ ميلاً ونصف ميل وهو محمل بوزن قدره أربعة أبواد في دقيقتين

وسبع وخمسين ثانية . وفي اليوم التالي فاز في كلكتا ستاكس إذ تغلب على الفرس الأوسترالية أكرتون التي كانت تحمل وزنًا أخف من وزنه بسبعة أرطال . قطع ميلين في ثلاث دقائق وإحدى وخمسين ثانية» .

تدل السباقات في الهند أن الخيول العربية أكثر رشاقة من الجميع ، وأن رشاقتها لا تقل بعد قطع مسافات طويلة ، ولا يعود هذا إلى حجمها .

ثم نتساءل : بعد أن قمنا بتربية خيول مخصصة للسباق عبر أجيال كثيرة منها ، هل بلغنا نتائج بارزة حتى نقارنها مع رشاقة الخيول العربية؟ وهل كان باستطاعتنا أن نعطي نتائج أفضل مع الحصان العربي إذا درسنا تطور رشاقته؟ أولَسنا نرى في السباقات باستمرار أن الخيول الإنكليزية الأصيلة أقل رشاقة من العربية؟ وهل جربنا الحصول من البلاد العربية على الخيول البالغة من عمرها سنة أو سنتين لكي نجرب رشاقتها مبكرًا؟ وهل أجريت عليها تجارب بتدريبها وركوبها عبر عدة أجيال كما كان يفعل مع الحصان الإنكليزي؟ لا نستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة إجابة مقبولة ؛ لذا لا نستطيع أن ننهي مجادلتنا في رشاقة هذين الجنسين من الخيول والمفاضلة بينهما .

مهما قوّم الحصان العربي في الهند ، فإنه لا تبذل جهود ملحوظة لاستخراج نوع أول منه . إن شغف الإنكليز بالخيول الكبيرة الحجم تنعكس سلبًا على حال الخيول العربية المستوردة ، ولو أن تجار الخيل قالوا بأن الشارين لا يمكنهم أن يشترطوا معهم على حجوم معينة للخيول . ولكن الحال استمر كذلك ، فوجد تجار الخيل أن الأفضل لهم أن يبيعوا خيولاً كبيرة الحجم ، ولكن ليست عربية نقية الدم وهم يدَّعون بأنها نقية . لهذا لم يشتر الإنكليز برفوت وهو نيصكل ، ولو أن تاجر الخيل المعروف في كلكتا الشيخ إبراهيم بن علي حاول أن يثبت للجميع خصال برفوت فبرهنها في السباقات . يدعي الكثير أن تجارب السيد يتفود والجنرال أنغيرشتاين في

تهجين الخيول الإنكليزية بالعربية قد فشلت، ولكن هذه التجارب لا تدل على أي شيء، لأن بلادة النسل قد تكون بسبب الاختيار السيّئ وغير الدقيق لإناث الخيل. من الأفضل أن نقارن الفائزين في السباق داربي مع بعض الخيول العربية الجيدة. كانت المسافة للاثنين ميلاً ونصف. تلك هي نتائج السباق في داربي: فلاينينغ داتشمان قطع المسافة في ثلاث دقائق، فولتيجير في دقيقتين وخمسين ثانية، تيدينغتون في دقيقتين وإحدى وخمسين ثانية، دانيال أوروف في ثلاث دقائق وإحدى وعشرين ثانية، ويست أوستراليان في دقيقتين وخمس وخمسين ونصف ثانية، إيلينغتون في ثلاث دقائق وأربع ثوان، بلينك بوني في دقيقتين وخمس وأربعين ثانية، بيدسمان في دقيقتين وخمس وأربعين ثانية، موشيد في دقيقتين وتسع وخمسين ثانية، فونبام في دقيقتين وخمس وخمسين ثانية، كاراكتوكس في دقيقتين وخمس وأربعين ونصف ثانية، مكاروبي في دقيقتين وخمسين ثانية ونصف، بلار إيفول في دقيقتين وثلاث وأربعين ثانية. أما الخيول العربية وهي تشايلد أوف ذي آيلاندس ففي دقيقتين وثمان وأربعين ثانية، وحلب في دقيقتين وخمس وخمسين ثانية. كما أن الخيول العربية تمتاز بأن الوزن الزائد لا يؤثر في رشاقتها.

الحصان العربي في الصيد والخيالة

الحصان العربي مشهور في الصيد والقتال، فشجاعته وليونته وخفته ومرونته، وأطرافه بعضلاتها القوية، كلها شروط لا غنى عنها ليكون الحصان صالحًا للصيد. كما أن هذه الصفات تجعله فحلاً ثمينًا في عملية التهجين. اعترف الصياد الملكي الإنكليزي المشهور ديفيس بأن حصان الصيد حتى يكون جيداً فلا بد أن يكون من أصل عربي.

وفي الخيالة الهندية كانت الخيول العربية تتمتع دائمًا بسمعة جيدة، أما الفرنسيون في إفريقيا فاضطروا إلى أن يستعينوا بها أيضًا للتعويض عن خسائر الخيل في خيالتهم[١]. كما نأخذ في الحسبان أن وزن فارس مسلح بالإضافة إلى السرج والرحل يصل إلى تسعة أبواد وسبعة وعشرين رطلاً، فيجب أن تكون قوة الحصان عجيبة ليتحمل هذا الثقل وهو محروم تقريبًا من الغذاء ويسير على أرض وعرة بهيئات سير مختلفة. قال الأمير عبد القادر الجزائري إن الحصان العربي باستطاعته قطع ٧٥ فرستًا يوميًا خلال ثلاثة أو أربعة أشهر متتالية، وفي حالات طارئة قد يقطع ٢٢٥ فرستًا في اليوم.

قدم الجنرال دوماس المثالين التاليين: قطع بدوي شاب على فرس أبيه حوالي ثلاثمئة فرستًا بأربع وعشرين ساعة. لم تشرب هذه الفرس إلا مرة واحدة ولم تأكل إلا بعض أوراق النخيل عندما كان صاحبها نائمًا، فوصلت ناضرة ونشيطة نسبيًا. والمثال الثاني: في عام ١٨٣٧ كانوا ينتظرون أخبارًا من مدينة تلامسان، فأرسل رئيس الفرقة الأورانية بدويًا، فعاد البدوي بعد يوم وقطع ٢٧٠ فرستًا. قطع واحد من الضباط في مدراس على الحصان العربي بالمراهنة ٦٠٠ فرستًا بخمسة أيام، واقترح أن يعيد الرحلة في اليوم الثاني.

في عملية التهجين مهمٌ جدًا أن يورث الفحل العربي إلى نسله تركيب قفص صدره، فالصدر المستدير والثقيل لا ينفع لحصان الصيد. أما المقدمة الضيقة والجوانب المسطحة فدليل على الرشاقة في قطع مسافات قصيرة. ولكي يكون الحصان صالحًا للخيالة ينبغي ألا يكون صدره واسعًا جدًا من الأمام، كما يجب أن يكون جنباه مستديران. يفسر بوات هذا على الشكل التالي: يجب أن تكون الرئتان

---

(١) حدث الشيء نفسه في مصر حيث كان الخيالون يمتطون الخيول الإنكليزية. وفي عام ١٨٩٦ أو ١٨٩٧ استبدلت الخيول العربية بها كلّها، فنجحت الخيالة في حملتها ضد المهدي عام ١٨٩٨. المؤلف.

كبيرتي الحجم والقلب كذلك، لتنفذ وظائفها على الوجه الأكمل، لذا يجب ألا يكون القفص الصدري مستديراً لأنه غير قابل للشد. وأفضل شكل للقفص الصدري أن يكون وسطًا بين الدائري والإهليلجي، أي أن يكون واسعًا في حالة الهدوء مع قابلية الشد في حالة التوتر. يجب أن يكون القفص الصدري عريضًا لتقوية العضلات والأوعية الدموية، وعميقًا ليتوفر دم الشرايين في الجسم. إذا كان القسم الأكبر من التجويف الصدري خلف عضدي الحصان، فعندئذ تكون مقدمته خفيفة، ولكن إذا كان صدر الحصان مستديراً وعريضًا، عندئذ تكون مقدمته خفيفة، ولكن إذا كان صدر الحصان مستديراً وعريضًا، عندئذ تكون مقدمته أثقل من مؤخرته. من بين كل خيول العالم تجد أفضل هيئة لهذه الأجزاء من الجسد بالإضافة إلى خفة العضدين في الحصان العربي، وبفضله فقط ظهرت خيول ذات قفص صدري جيد في تركيبه.

في الهند يقول العقيد شكسبير إن أفضل الخيول موجودة في حيدر آباد وديكان وقد ظهرت بفضل الفحول العربية المستوردة في بداية القرن الحالي وكان عددها حوالي خمسمئة رأس.

كتب في مجلة «تايمس» بتاريخ ٢٤ شباط ١٨٧١ أنه عندما انسحبت جيوش بورباك من سويسرة عام ١٨٧٠ لم يكن بين خيولها غير الخيول العربية التي لم تنهك بل بقيت نشيطة في حركتها.

رأس الحصان العربي أكبر دليل على خصاله الجسدية والأخلاقية. قال أحد أصحاب عزبة لتربية الخيل المشهورين: «لا تهتموا أبدًا بالأعضاء الأخرى من جسد الحصان، فإذا كان المهر حسن الرأس، فستكون الأعضاء الباقية من جسده مطابقة له». لا شك في أن الشكل المميز لرأس الحصان العربي هو دليله الذي يمتاز به، ولا توجد خيول غير عربية تصل رؤوسها إلى هذه الدرجة من الكمال. رأس الحصان

العربي ليس صغيراً بل بالعكس إنه كبير في الجزء الذي يجب أن يكون كبيراً. قال ممثل معروف لمعهد الطب البيطري إن أجمل رأس، أي رأس الحصان العربي، موافق لغايته لأنه يعبر عن الحمية والفطانة والأصالة والنشاط والرشاقة والصبر. كما يماثله في ذلك تكوين جسده كله. الحصان العربي هو مثال الجمال المقترن بالأهلية.

أما حصان السباق الإنكليزي فلا يمكن أن نعترف بنفعه. والدليل على ذلك هو استعماله للسرج والخيالة. لم يصلح هذا الحصان في الهند للتعويض عن خسائر الخيالة، ومع ذلك يتوقع منه نفع كبير في الجر. كل هذه الخصال متوافرة في الحصان العربي لأنه صالح للسباق والحرب والصيد على حد سواء.

لا شك في أن المؤلفين الأوائل لكتاب عزبة تربية الخيل الإنكليزية كانوا يقصدون أن أصل الحصان الإنكليزي من الأجناس الشرقية وخاصة العربية. عند مراجعة ستود بوك مراجعة مفصلة يظهر أن تربية الخيول الإنكليزية المخصصة للسباق فيها، عيوب وأنها هجنت من الخيول غير الشرقية كثيراً. في الوقت الراهن ساءت حالها، فظهر فيها إما صفات بارزة أو كريهة، وفقًا لجهود صاحب العزبة، أو من وجود بعض الكمية من الدم العربي فيها الذي انتقل وراثيًا. عمومًا لا يستطيع حصان السباق الإنكليزي في تربيته الحالية أن يكتمل، فتهجينه مع خيول غير أصيلة أصبح عائقًا يصعب معه الوصول إلى هذا الكمال.

وهكذا إذا أخذنا في الحسبان ضرورة الأصالة من أجل إجراء تربية الخيل بشكل صحيح، فالطريقة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف هي الاستعانة بالخيول العربية الأصيلة. لا شك في أن الخيول العربية في إنكلترا ستزيد من حجم خيولها المحلية، وبذلك ستزيد رشاقتها وقوتها إذا كانت هذه الزيادة متناسبة. حدثت هذه الزيادة في الحجم لدى حصان السباق المعاصر مصحوبة بأن طالت مفاصله وخاصة في القسم

الأسفل من أرجله تحت الركبة في حين أن القسم الأعلى بقي كما هو . إنه نقص كبير من ناحية السير . فإذا أخذنا حصانين بحجمين متساويين ، فالحصان الذي فيه الجزء الأسفل من ساقه أطول من الأعلى ولو ببوصة واحدة، سيكون أقل رشاقة من الحصان الذي فيه هذا الجزء من الساق أقصر . كما أن الحصان الأول سينهك أسرع من الثاني . وهكذا فإن الزيادة في حجم الحصان الإنكليزي أفقدته صفاته الأخرى ، وأعطته تفوقًا مؤقتًا على الحصان العربي في الرشاقة . ولكن في المستقبل إذا جر الحصان الإنكليزي عربة ثقيلة فسوف ينعكس عليه هذا إخلالاً في التناسب إذ تطول عظمة القصبة .

عند تأسيس عزبة لتربية الخيول العربية بهدف زيادة حجمها ثلاثة فيرشوكات ونصف ، أجري اختبار دقيق للفحول ، فيمكننا التوقع أنه سيحافظ على التناسب تمتاز به الخيول العربية . ومن أجل تحقيق هذا لا بد من معاونة الحكومية ووضع جوائز خاصة للخيول العربية الأصيلة في السباق .

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

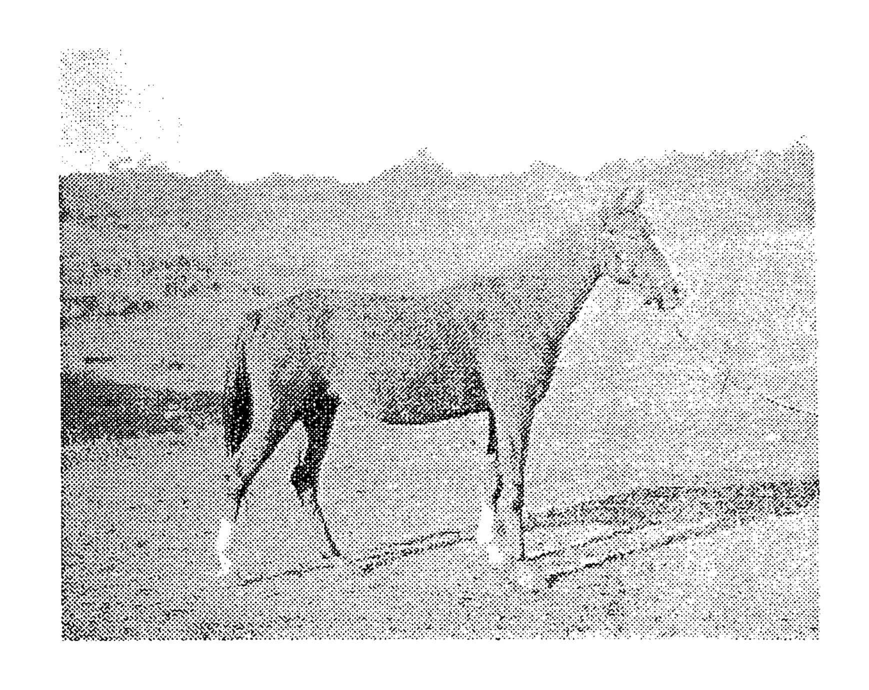
الوضع الراهن لتربية الخيول العربية في أوروبا

توجد أكثر البيانات في هذا المجال في كتاب الطبيب البيطري دونكيبيرغ المنشور عام ١٨٩٨ ، عنوانه :

"Die Zuchtwahg des Pferdes im besonderen des English-Arabischen Vollblute"

يركز الدكتور دونكيلبيرغ في كتابه على أهمية الدم العربي في كل الحالات التي يتطلب أن يكون الحصان فيها ليس رشيقًا فحسب ، بل صبورًا وماهرًا وقادرًا على تحمل الحرمان من الغذاء في الرحلات الطويلة .

ويستنتج الدكتور من دراسة دقيقة لموضوع تربية الخيل تأثير الدم العربي المفيد ليس في الخيول الإنكليزية السباقية فحسب بل في غيرها من الأجناس التي تمتاز بصفات خاصة . ويشير الدكتور دونكيلبيرغ في عملية التهجين اعتمادًا على المعطيات الموجودة ، أن أفضل النتائج لم تكن من الخيول الإنكليزية النقية الدم بل من الخيول الإنكليزية العربية . عند مراجعة تاريخ تربية الخيل العربية في المزارع الأوروبية الكبرى ، أي في فيورتيمبيرغ وألمانيا والنمسا وفرنسا ، يشير الدكتور دونكيلبيرغ على النفع الذي جلبه التهجين مع الدم العربي حتى لفترة قصيرة كالعزبة التاركينينية ، من جهة ، وعدم ظهور نتائج متوقعة بسبب تربية خاطئة للخيول العربية ، كالنقص في تغذيتها وحرمانها من الحركة من جهة أخرى .



سمورة
فرس مغراء ولدت عام ١٨٩٥ في عزبة الكونت إستروغانوف لتربية الخيل.
عربية أصيلة من سلالة كحيلان جلالة. ولدت من الحصان أمير العرب والفرس سعيدة.
ارتفاع منبت رقبتها أرشينان وفيرشوك وثلاثة أرباع فيرشوك.

أكبر اتهام موجه إلى الحصان العربي هو صغر حجمه، مع وجود بعض الاستثناءات القليلة، وقد حاولوا القضاء على هذا النقص بتهجينه مع خيول أكبر حجمًا. حاولت عزبة فايل شورنغاوزين لتربية الخيل في فيورتيمبيرغ لوحدها أن تزيد من حجم الحصان العربي، فانتهت هذه المحاولة بنجاح. وحدث فقدان بعض الصفات الكريمة في النسل بسبب استخدام فحول شرقية غير أصيلة تمامًا، كالتركمانية والفارسية وغيرها، وقد عوض ذلك بالعودة إلى استخدام الخيول العربية نقية الدم.

الخيول الفيورتيمبيرغية منعمة بسبب حرمانها من الحركة، ويمكن القضاء على هذا النقص بإجراء مسابقات في الرشاقة كما يفعلون بالخيول الإنكليزية السباقية. ما عدا صغر الحجم، يُتَّهم الحصان العربي أيضًا بسوء توريث خصاله الجيدة للنسل، ولكن السبب في ذلك يعود إلى شراء خيل مشكوك في أصلها من تجار الخيل.

نتتقل الآن إلى دراسة مزارع الخيول العربية في أوروبا، وسنبدأ بأشهرها وهي المزرعة الفيورتيمبيرغي، التي وصفت في كتاب:

"Die Gestüte und Merirein S.M. des Königs von Würtemberg von Hügel und Schmidt"

أسسها وريث العرش الملكي عام ١٨١٠ وفي بادئ الأمر لم يكن فيها إلا حجور السرج التابعة للأمير، والجوادان فينيكس وألكيد مجهولا الأصل اللذان اشتريا في العامين ١٨١٠ و ١٨١١. بعد ذلك أخذت العزبة تتسع تدريجيًا وتتعبأ بالفحول والإناث من الخيل المختلفة، وفي عام ١٨١٧ عندما استلم الوريث العرش أصبحت العزبة حكومية.

في العامين ١٨١٤ و ١٨١٧ بدأت العزبة تزود بالخيول العربية المشتراة من البارون فيختيخ المقيم في دمشق حيث كان له وكيل دائم. اشتُريت منه أربعة أحصنة: أمير ومملوك وطيار كميت اللون وبيرقدار رمادي اللون، والاثنان الأخيران من سلالة صقلاوي جدران؛ بالإضافة إلى سبع حجور أصيلة. كانت أنسالها أكبر حجمًا وجسامة منها ولم تفقد كرامتها. وأكثر فحل نقل خصاله إلى نسله هو الحصان بيرقدار. لقد كان فحلاً في عزبة لتربية الخيل حتى عام ١٨٣٨ أي إلى أن بلغ الأربع والعشرين من عمره. وكان من نسله سبعة أحصنة وسبع وثلاثون فرسًا ولم يكن من بينها حصان واحد سيِّئ. لم يختلف عنه ابنه الحصان أمورات، فبقي في العزبة من عام ١٨٣٦ حتى ١٨٥٠. ونسله الآخر هي بورنو وأمورات الثاني وطيار الكميت، وكلها حافظت على خصالها.

أكدت تجارب العزبة الفيورتيمبيرغية أنه إذا ابتعدت الأنسال عن أهلها، فإن تزاوج الخيول القريبة لا يؤثر ضرراً على النسل، وأن انتقاء الحجور الدقيق هام جداً كانتقاء الفحول.

خلال خمسة وأربعين عاماً استوردت ثمانية وثلاثون حصاناً وثمان وثلاثون فرساً. وفي العامين ١٨١٧ و ١٨١٨ وبمعاونة الملكة كاترين بافلوفنا أخت القيصر ألكسندر بافلوفيتش، أدخل إلى عزبة تربية الخيل من القوقاس وبلاد فارس عدد كبير من الخيول القوقاسية والفارسية، إلى قسم العمليات التهجينية من العزبة، حصل عليها محافظ تفليس الجنرال أشغيرتوف. كما أدخلت خيول من العزب الروسية التابعة للكونتات راستوبشين وبرانينسكي وأورلوف ورجيفوسكي، ومن ليبي ديتمول في ألمانيا وليموج في فرنسا والكونت غونيادي في المجر.

في عام ١٨١٩ أنتج الملك الفيورتيمبيرغي بمساعدة السفير الروسي في القسطنطينية، وعن طريق الملاك البولوني رجيفوسكي ثمانية أحصنة واثنتا عشرة فرساً من خيرة الأجناس العربية. استغرق الكونت رجيفوسكي في ذلك سنتين، وكان يسكن بين البدو وحتى كان شيخاً لإحدى قبائلهم. جاء إلى ليفورنو بخيوله عام ١٨١٩ . ومنذ ذاك الحين أصبح أفضل نسل في العزبة الفيورتيمبيرغية الملكية أصله من إناث الخيل العربية، وهي: عصفورة وإيلكاندا وشقراء ومورانة وأبو لولو.

كان في فايل شورنغاوزين قسمان: قسم للخيول الأصيلة وقسم للعمليات التهجينية. وقد تبين من أول الأمر أن الحجور الروسية لا تنفع للقسم الثاني.

في عام ١٨٦١ سجلت في العزبة الجياد التالية: بورنو الرمادي، طيار الكميت، أمورات الرمادي الغامق، سعيد الكميت الأحم، سليمان الرمادي وقدير الرمادي الفاتح عمره أربعة عشر عام من سلالة صقلاوي الجدران وأصله من النجد.

كان فحلاً مفضلاً عند الخديوي عباس باشا، وبعد وفاته بيع من عزبته في العباسية كما بيعت معه ثلاث حجور.

امتاز قدير بكرامة رأسه، وشعره وعفرته الحريرية، والاتصال الممتاز بين رأسه ورقبته الطويلة، وعضديه العميقين المنحدرين وردفه الطويل ونقاء أرجله ونشوفتها وأطنابها الممتازة ومفصل الجري الرائع. في فصل الشتاء تبقى الخيول دون حركة تقريبًا، وفي الصيف تخرج إلى المرعى باستمرار. بشكل عام لقد ورثت الأنسال خصال أسلافها وكانت رشيقة ولو أقل من خيل السباق الإنكليزية.

ألحق بقسم الخيول الأصيلة من عزبة تربية الخيل التالية:

أربعة أحصنة وسبع أفراس مشتراة من عام ١٨١٤ حتى ١٨١٧ من البارون فيختيخ الذي قام بتربيتها في دمشق، وفي عام ١٨١٩ ثمانية أحصنة واثنتا عشرة فرسًا اشتراها الكونت رجيفوسكي من البدو.

في عام ١٨٢٢ اشترت العزبة من البارون فيختيخ حصانًا رماديًا اسمه مملوك. وفي العام نفسه أحضرت بعض الخيول من الصعيد المصري، ولكن تبين أنها غير أصيلة ففصلت من العزبة.

كذلك فُعِل بالخيل الأخرى المشتراة في مصر عام ١٨٢٥ من تاجر الخيل ليبول. وفي عام ١٨٢٦ اشترت العزبة في حلب عن طريق القنصل الإنكليزي بيكير حصانًا أمغرًا صقلاويًا (؟)* وفرسًا رمادية كعبة (؟)*. استخدم الحصان في قسم العمليات التهجينية من العزبة.

في عام ١٨٢٧ استوردت من فرنسا فرسان دهماوان جبذية ودرخة. وفي عام ١٨٢٩ اشترت العزبة من تاجر الخيل الأرميني غليوخو حصانًا رماديًا جبارًا اسمه سلطان محمود؛ كان أصله من ضواحي بغداد من جزيرة بارزين (؟) وكان تابعًا لسلالة الخيول البوشيرية. لم يرشح إلى قسم الخيول الأصيلة.

في عام ١٨٣٣ أرسل غليوخو حصانًا رماديًا اسمه شبان وفرسًا كميتة مابودا. وفي عام ١٨٣٦ اشترى الطبيب البيطري دامدلي، بأمر من الملك، خيولاً من الدروز، وهي الحصان الرمادي الذي سموه أبو عرقوب، ودهمان الأمغر، وعبيان الكميت وطيار الكميت، والفرس الرمادية شقراء. قضت الجياد في العزبة عامًا واحدًا. في عام ١٨٣٧ اشترى الملك من إنكلترا حصانًا كميتًا أحمّ اسمه سلطان أهداه السلطان المسقطي لملك إنكلترا. خدم هذا الحصان في العزبة أربع سنوات. في عام ١٨٣٨ اشتروا من إيطاليا حصانًا أمغر اسمه شارب، ولم يحصلوا منه على نسل. وفي العام نفسه جلب من إنكلترا حصان رمادي بادشاه الذي خلف في قسم التهجين نسلاً ممتازًا.

في عام ١٨٤٠ حصل الكونت تاوبينغايم من الشرق على حصان أمغر اسمه الشام اشتراه في دمشق، وفرسًا كميتة من بعلبك. كان الحصان رشيقًا وأصيلاً جدًا. كان يخدم في قسم الخيول الأصيلة وفي قسم التهجين على حد سواء. في عام ١٨٤٧ اشتروا في غاليسيا من الكونت رازفودوفسكي حصانًا رماديًا اسمه جلالي من سلالة الكحيلان (؟)* كان في الأسبق مُلكًا لباشا المدينة، وفي الوقت نفسه جلب من إنكلترا حصان زمشيد قدم هدية للملكة من الهند. وبعد سنتين باعوه لإيطاليا.

في عام ١٨٥٢ أُرسل صاحب الإسطبل الملكي خيوغل إلى مصر من حيث أورد الحصان حوبان من قبيلة العنزة السباعية، وكان هدية من نائب السلطان عباس باشا، ومعه فرسان رماديتان واحدة كحيلان العجوز والثانية صقلاوي (؟)* وكلتاهما اشتريتا من مكان واحد. كان الحصان في السفاد سنة واحدة فقط.

في تلك السنة اشترت العزبة من بروسيا الغربية حصانًا رماديًا اسمه واريف. حصل عليه الأمير بيوكلر من الصحراء وهو مهر صغير. خلف الكثير من إناث الخيل في العزبة.

في عام ١٨٥٧ حصلت العزبة على الحصان سعيد من الأمير ألبرت في إنكلترا الذي ناله هدية من الإمام المسقطي. لا يزال في العزبة حتى الآن.

في عام ١٨٥٨ أهدى حامي باشا ابن عباس باشا حصانًا رماديًا اسمه الحامي، لا يستعمل إلا في قسم التهجين.

في عام ١٨٥٩ اشترى الملك من الهند حصانًا خلف نسلاً جيدًا في مايسور. وفي العام نفسه أهدى السيد دبون للملك فرسًا عربية كميتة اسمها توبان، والفرس رمدي بالتبادل.

في عام ١٨٦٠ اشتُريت فرس رمادية من النجد بقيت بعد أحمد باشا الغارق في النيل، والحصان سليمان والفرس عريفة التي حصلوا عليها من حامي باشا بالتبادل.

في عام ١٨٦٠ اشترى صاحب الإسطبل الملكي خيوغل بالمزاد العلني في القاهرة من عزبة عباس باشا الأسبق الحصانين قدير وسدحان والأفراس دغمة ودنيبة وسورينا.

في عام ١٨٦١ كانت في قسم الخيول الأصيلة من العزبة إحدى وخمسين فرسًا، منها صقلاوية (من سلالة صقلاوية جدرانية) وسعيدة (كحيلية العجوز) ورمدي (حمدانية؟*) ونجدة (كحيلية؟*) وعريفة (من قبيلة السباع) ودغمة (دحمية شحوان؟*) تربت في العزبة. أما الخيول الباقية المولودة في العزبة فكلها أصلها من الحصان بيرقدار قريبًا أو بعيدًا.

أما الفحول فهي التالية: طيار المولود من أمورات والفرس جدران؛ أمورات الثاني أخو طيار؛ سعيد من إنكلترا من الإمام المسقطي، سلالته صقلاوي؛ سليمان المولود من قدير وفرس عربية من قرب القاهرة، نشأ في قبيلة الروالة؛ قدير من سلالة صقلاوي جدران، نشأ في النجد.

رسالة من إدارة عزبة تربية الخيل الفيرتيمبيرغية الملكية

شتوتغارت، ٢٩ آب ١٨٩٩

في ١ كانون الأول من عام ١٨٦٠ اشترى صاحب الإسطبل الملكي السيد فون خيوغل في القاهرة من عزبة عباس باشا الخيول التالية :

١ - الحصان الرمادي قدير . هلك عام ١٨٦٦ وخلف نسلاً .

٢ - الحصان الأسمر الداكن سدحان . هلك عام ١٨٦٣ دون أن يخلف نسلاً .

٣ - الفرس الرمادية المبقعة دهمة ، ولدت فرسًا واحدة والأخيرة ولدت أربعة أمهار لم تترك أثرًا .

٤ - الفرس الرمادية دويبة . وصلت من القاهرة وهي تفلى . بيعت لألمانيا عام ١٨٦٣ .

٥ - الفرس البيضاء موربقيا . من بين كل أمهارها لم تكن إلا فرس واحدة التحقت بالعزبة في المجر . ولم يكن من كل ما اشتري إلا الحصان قدير الذي أثر في عزبة تربية الخيل تأثيرًا ملحوظًا . ولو أن العزبة حصلت في عام ١٨٩١ على بعض الأفراس العربية الأصيلة ، ولكنها لم تؤثر في التركيب الخيلي ، في عام ١٨٩٣ شغلت العزبة بأربعة أحصنة وفرسين . ومنذ ذاك الحين لم يشتروا إلا العربية الأصيلة .

إجمالاً أدخلت إلى العزبة خمس وأربعون فرسًا وثمانية وأربعون حصانًا . ومنذ تأسيس العزبة التحقت بها حوالي ثلاثمئة فرس .

في عام ١٨٩٢ هجنت الخيول بالدم الإنكليزي ، فنقصت الخيول العربية الأصيلة في المزرعة بشكل ملحوظ . في الوقت الحاضر تحتوي العزبة على عشر أفراس عربية أصيلة فقط ، أما الأحصنة الثلاثة :

١ - دودر كميت غامق، ولد في المزرعة عام ١٨٩١ .
٢ - جيلان الأمغر المولود عام ١٨٩٠ في القسطنطينية في مزرعة السلطان .
٣ - سواقيم الأمغر، ولد عام ١٨٩٤ في العزبة .

إمضاء: مدير العزبة فرانزاير

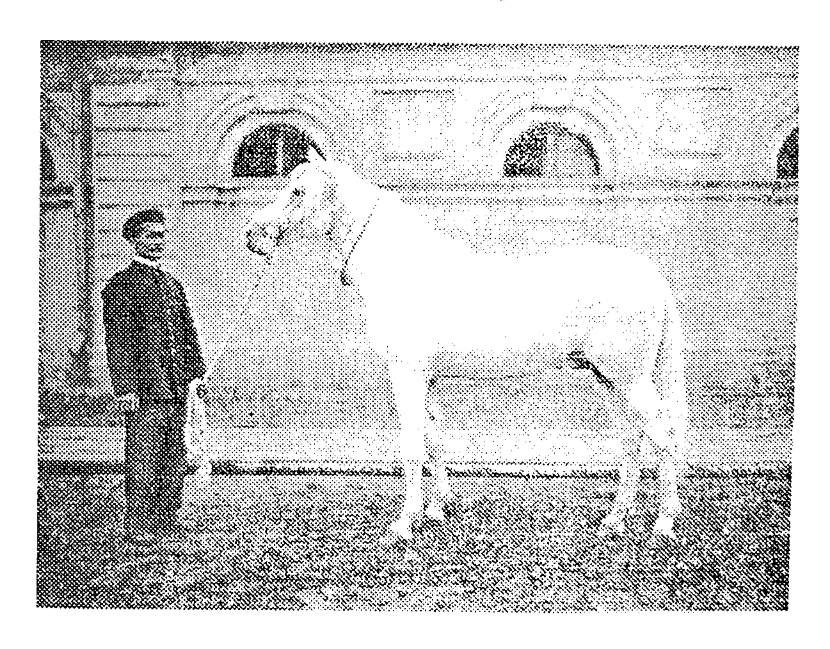
مقتطفات من مذكرة فريغير فون خيوغل عن الخيول العربية في المزرعة الفيورتيمبيرغية

لقد مضت مئات السنين منذ أن بدأت الدول الأوروبية المهتمة بتربية الخيل تلجأ إلى منبع الخيول الكريمة وهي الجزيرة العربية للحصول على فحول جيدة . ومن أجل إجراء التهجين مع الخيول العربية على أسس ومبادئ صحيحة، قرر ملك فيورتيمبيرغ تأسيس مستولد عربي في ألمانيا . أما الآن وبعد سنوات عدّة من تربية الخيول العربية في المزرعة الفيورتيمبيرغية، نتساءل : هل ذاب الحصان العربي في مناخه الجديد، وهل هذا التغير ظاهر بتغير صفاته الخارجية وخصاله الداخلية؟

يمكننا أن نجاوب عن الجزء الأول من هذا السؤال بأن الخيول التي نشأت في فيورتيمبيرغ لا تقل كرامة وأناقة عن التي ولدت في الصحراء . وأمّا ما يخص حجمها وانتظام شكلها فتفوقت عليها . بلغت الخيول هذا النجاح بفضل التغذية الجيدة والعناية بها والاختيار الصحيح للفحول . وفيما يخص صبرها فقد انعكس المناخ الألماني المختلف عن مناخ الجزيرة العربية على النسل . ولو أنه لا توجد خيول في العالم قادرة على التأقلم في كل المناخات إلا العربية، ولو أن الخيول العربية المولودة في ألمانيا أبدت خصالها التي يمتاز بها أجدادها، ولكنها لا تقارن معها في الصبر .

في هذا المجال لا يمكن أن ننسى كلام عباس باشا الذي قاله لي في عام ١٨٩٢ : «إنني أصدق بأنكم نجحتم في تربية الخيول من أصل عربي في أوروبا، ومع ذلك لا تتخيلوا أن الخيول المولودة عندكم عربية فعلاً لأنها لا تتمتع بخصالها الخاصة إلا عندما تستنشق جو الصحراء».

مهما كان هذا الكلام غريبًا، إنه يتضمن معنى عميقًا لا يفهمه المرء إلا إذا ركب في مرة من المرات على الخيل عبر الصحراء، وأحس تأثير الهواء الجاف والرياح الصحراوية على جسم الحيوان. وسبب انحلال الحصان العربي في مناخنا يعود إلى تبدلات حادة في الحرارة، وديمومة البرد، والرطوبة التي تعيق تربية الخيول الفتية في البراري، وتكون عواقبها البطء في نمو الأجهزة التنفسية لدى الخيول.



فارس
حصان رمادي ولد عام ١٨٨٦ في قبيلة الشمر في الرافدين، سلالته عبيان غنيديش. أحضره الأمير شيرباتوف إلى روسيا عام ١٨٨٨. ارتفاع منبت رقبته أرشينان وفيرشوكان ونصف.

الحصان العربي الذي يعيش منذ ولادته تحت قبة السماء الصحراوية بدلاً من السقف، ولا يعرف الإسطبل حتى موته، يكون في كفاح مستمر مع البيئة ليعيش. الحصان العربي وهو مهر صغير، يشارك أصحابه البدو في حياتهم التنقلية. يمتطيه الصبية الصغار عندما يبلغ العامين من عمره. لا يتغذى الحصان العربي إلا بحفنات صغيرة من الشعير والتمر وكميات صغيرة من لبن الجمل، وفي بعض فصول السنة يرعى أعشاب الصحراء. ينال الحصان العربي الماء نادرًا وبكميات ضئيلة. وعندما يبلغ ثلاث سنوات من عمره يُعدّ حصانًا كهلاً ويستخدم في الركوب والتنقلات. وفي أوقات الفراغ يبقى مربوطًا بالخيمة فيعاشر صاحبه البدوي ويستنشق هواء الصحراء النقي باختلاف هواء المرابط.

ينمو الحصان العربي عقليًا وإدراكيًا بفضل تقاربه المستمر مع صاحبه وعائلته. كثيرًا ما يحدث أن الحصان يسبق فارسه فينبهه على اقتراب العدو أو الصيد. لا يهمه الاجتياز الذي مدته ثلاثون ساعة متواصلة في عز القيظ دون غذاء وقطرة ماء. والغزوات التي تستمر عدة أيام وبسرعات هائلة واستراحات قصيرة ظاهرة اعتيادية بالنسبة للحصان، لأن البدوي لا يهتم بالمسافات.

يحدث في جبال النجد تبدلات حرارية حادة، وقد سمعت شخصيًا من أحد شيوخ قبيلة بني صخر أن الثلج بقي في تلك المناطق عدة أسابيع وكان سمكه قدمًا واحدةً. وفي هذه الظروف الحياتية يتعود الحصان العربي على تحمل كل المحن من صغره، فتقوى أعصابه وعضلاته ويتعزز تنفسه، فتظهر عنده الخصال التي يندهش منها الأوروبي ولا يستغني عنها البدوي. هذا ما كان يقصده عباس باشا عندما قال أن الحصان العربي يحتاج إلى الجو الصحراوي. وأكبر سبب في ظهور هذه الخصال عند الحصان العربي هي أن البدو أنفسهم يحتاجون إلى أن تكون خيولهم بهذه الصفات. أما في تربية الخيل المتحضرة فالكل يسعون إلى تربية الصفات التي

يريدونها في خيولهم، فتكتسب الخيول قدرات مختلفة في أجناسها المختلفة. فمثلاً يحتاج الإنكليزي إلى حصان رشيق من أجل الصيد، أما الروسي فيحتاج إلى حصان الجر. فيربي كل واحد منهما إمّا جنس الهونتر أو الجواد الخابّ. وكذلك الحصان العربي فهو خليق بالبدو نظرًا لحاجتهم إلى صبره ورشاقته. وعندما ينتقل هذا الحصان إلى أوروبا حيث يُحتاج إلى البيئة نفسها التي اعتادها، يذوب بسبب عدم تربيته منذ البداية على متطلبات الموطن الجديد، لذا فهو ليس إلا صورة من الأصل، وأي خبير أو هاو للخيول سيفرق بين الخيول المولودة في الصحراء وبين الخيول المولودة في غير الصحراء ولو كانت من جنس واحد.

مزرعة لتربية الخيل في نايشتادت

تأسست المزرعة التابعة لملك بروسيا فريدريخ فيلغيلم في نايشتادت على دوّسا عام ١٧٩٠ لإنتاج خيول سرج رشيقة ونشناشة. في عام ١٧٩٣ أحضر صاحب الإسطبل الملكي إيريغفورت من دمشق وحلب بعض الأحصنة، بقي منها حصانان رماديان نيشتي وبايو. خلّف الحصان العربي توركماياناشتي الذي اشتراه القنصل النمساوي الأمير كاونيتس في عام ١٧٩١ نسلاً جيدًا. كان لونه كميت وأصله من قبيلة العنزة. ارتفاعه أرشينان وأربعة فيرشوكات، رأسه صغير ومستقيم ذو جبهة عريضة، عيناه مليئتان بالحمية، حواجبه بارزة وعريضة، ولكن فكه الأسفل قليل اللحم. رقبته أنيقة جدًا وعضداه في وضع حسن وعَضِلان، ومنبت رقبته عال بعض الشيء. ورسم ظهره المحيطي واضح جدًا كما أنه قوي وقصير. «بوتشكي» جيدة جدًا. عجزه طويل ومستدير، كفله قوي للغاية، عريض الفخذ. ساقاه الأماميتان فيهما بعض التطاول في عظمة القصبة تحت الركبة، كما أن القسم الأعلى من الساق ضعيف بعض الشيء. والعيوب التي انعكست على نسله لم تكن بسببه

بل بسبب الأفراس الإنكليزية المتزاوجة معه. وإضافة إلى الخيول العربية كان في المزرعة خيول إنكليزية وهجينة.

في عام ١٨١٧ أحضرت من الشرق إلى نايشتادت الأحصنة التالية: سيواس، كوبودان، باشا، ماديم، وفي عام ١٨٢٦ اشتري من إنكلترا الحصان بوروك المولود في كلكتا، والحصان يوفورد أيضًا من الهند. كان الأخير يمتاز بجماله الفاتن وخلف نسلاً ممتازًا. أثبتت الأجناس الإنكليزية العربية من الخيول في نايشتادت أهميتها.

مزرعة لتربية الخيل الإنكليزية العربية في بومبادور في فرنسا

اشترت المزرعة في عام ١٨٢٠ فرسًا عربية نيشاد وحصانًا مصود. بدأ تيَّار التهجين الإنكليزي العربي عام ١٨٤٣.

في عام ١٨٧٢ (أو ١٨٧٣) اشترت المزرعة بعض الأفراس من سوريا. وفي الأعوام ١٨٨٠ و ١٨٨٧ و ١٨٩٢ و ١٨٩٣ استُورِدت خيول عربية أصيلة أخرى من سوريا.

مزرعة لتربية الخيل بابلونا في المجر

تسمى بابلونا بـ «المجر العربية» وتقع على مسافة ساعة واحدة ركوبًا عن مزرعة كيسبيرا، وعشرين دقيقة عن محطة Nagg lgmond no Siid Bahn على الطريق بين رآب وبودابست. في عام ١٨٠٦ عينت للمزرعة وظيفة وهي تربية الخيول الإسبانية والفولشيتينية، ومنذ عام ١٨١٦ بدأت العزبة تستورد الفحول من الدم الشرقي لإجراء عمليات التهجين. في عام ١٨١٦ أحضرت من فرنسا من العزبة

Rosiére خيول مختارة من قبل جنود الخيالة الثقيلة، وهي : .L'Ardent, Pyrrhus
. Thibon. Ulysso. Mustapha. Thorox

في الوقت نفسه اشترى البارون فيختيخ من الصحراء الحصانين صقلاوي الجدران وعبشان والفرس طفلة. خلف صقلاوي الجدران نسلاً جيدًا. أما الفرس طفلة فأنجبت حصانًا ممتازًا جدران الثاني. بعد بضع سنوات اشترت المزرعة من تاجر الخيل دانتس في القسطنطينية الأحصنة : عنزة، نجدي بابا، درزي وصقلاوي الرابع.

في عام ١٨٢٧ حصلوا من تاجر الخيل غليوخو على الحصان قوقد والفرسين قبّة وجيدة، وفي عام ١٨٢٩ ألحق بمزرعة ميزوخيفييس لتربية الخيل الحصان مسرور، وأخيرًا في عام ١٨٣٣ اشتروا عن طريق البارون فيختيخ في لينغييل توتي حصانين عربيين أصيلين وهما البدوي الأول والثاني.

وبعد كل هذه المشتريات لا نستطيع أن نفهم سبب إدخال ثلاثة أحصنة إنكليزية في عام ١٨٣٥ وخيول إسبانية في أوقات مختلفة إلى بابلونا. على أي حال فالقرار الأولي بعدم العمل في بابلونا إلا مع الخيول العربية الأصيلة لم ينفذ قط، لأنه في عام ١٨٣١ لم يكن فيها إلا ثمانيةأحصنة عربية وخمس أفراس.

في عام ١٨٣٦ بعد مرض الخيول الشامل بالتهاب حزام السرج، أرسل الرائد فون غيربيرت إلى سوريا لشراء الخيول، فحصل الرائد من البدو قرب دمشق وحلب على الأحصنة التالية : عرقل، أنيس، ذهبية، ابن البورن، فرحان، قدر، شاقيا، كلبي، نادر، أما الأفراس فهي : فريدة، حدبانية، حمدانية، سرية، طايسة.

كان الحصان شاقيا الوحيد الذي أصبح سلفًا للسلالة التي استقرت في بابلونا. كان من نسله همامة مضرب المثل في صبرها في الجيش النمساوي المجري. كما خلف الحصان ذهبية أنسالاً جيدة.

أدى شراء هذه الخيول إلى نتائج ناجحة، لدرجة أن الرائد فون غيربيرت أرسل في عام ١٨٤٣ إلى مصر حيث عاد بالأحصنة التالية: أجيمور، أصيل، عسلان، علباس، قريشان، قويجس، شمر، نصر، أما الأفراس فهي: عروسة وعلداني. كانت الأفضل من هذا شراء الحصانين عسلان وقريشان، ولكن لا يقارن واحد منهما مع شاقيا.

أجبر وضع المزرعة المحزن عام ١٨٥٢ الحكومة على إرسال الرائد فون غوشليغ إلى سوريا، فجلب الأحصنة التالية: دهمان، جدران، البدوي، جدران موجوم، أعنق، مرصود، سعادان طوقان. والأفراس: غزة، صقلاوي، كحيلان، طويسة. ولكن الشراء لم يكن ناجحًا.

في عام ١٨٥٦ قامت بعثة العقيد بروديرمان الكبيرة إلى سوريا، فاشترى العقيد ستة عشر حصانًا وخمسين فرس ومنها أربع عشرة تفلى. ألحق بالمزرعة ليبيسيا حصانان وست عشرة فرسًا كلها رمادية اللون، أما بابلونا فألحق بها أربعة عشر حصانًا واثنتان وثلاثون فرسًا. الأحصنة هي: مسرور، عجام، جبرين، شريا، علان، حمود، أمير؛ والأفراس: نجنة، شيشانية، جكمة، سويهة، حزنة، غزالة، شامية، صخرة، وضكة، عيدة، نعيمة، وشبة، رويدة، عقلة، كرمة، نويرة، حدلة، غلولة، عليكة، حلالي، دقيمة، شميل، عصرية، الحارة، حولة، مودة، جدعة، نمزة، دوحابية، مبروشة؛ والأمهار: جكمة، الشام، نعمي، حدلة، نزيرة، شيشانية، رويدة، طنزة، غزاة.

نقدم الآن شهادة ممتعة للعقيد بروديرمان عن قسم الخيول الأصيلة في بابلونا بعد رحلته إلى سوريا: «أخذنا في الحسبان أنه ابتداء من عام ١٨٠٦ كانت وظيفة المزرعة هي تربية الفحول للبلاد كلها، فمن الصعب معرفة ماذا اعتمدت المزرعة خلال خمسين سنة أخيرة من أجل تحقيق هذا الهدف. إن تهجين الخيول في القسم

الأنثوي يدل على أن هذه الفكرة لم تنتقل من القول إلى الفعل قطعيًا. في البداية كانت تربى أجناس إسبانية من الخيل، فلو استمروا على هذا النمط لبلغوا نتائج مقبولة في هذا الاتجاه. ولكن في عام ١٨١٦ أدخلوا أحصنة من الأجناس الشرقية مع المحافظة على التركيب الأنثوي الأسبق. ولكن على الرغم من هذا كان من الممكن تكريم الخيول بالتوصل إلى الاستقرار لولا شراء بعض الحجور من الأجناس الشرقية بكميات زهيدة، فلم تظهر أجناس مستقلة فأدى هذا إلى اختلاط في الأجناس لا قيمة له.

حسب ما أذكر كان لدى العزبة فكرة إنشاء جنس من الخيل باختيار الفحول، ولكن كان ينبغي من أجل تحقيق هذا تأسيس مستولد صغير للفحول والإناث من الأجناس الشرقية. لم يكتفوا بالاختلاطات السابقة، ففي العامين ١٨٣٠ و ١٨٣١ أجروا تجارب جديدة مع الأحصنة الثقيلة الوزن كلادوبر التي تستعمل لجر مراكب البلاط الملكي.

تزاوجت هذه الأحصنة مع إناث الخيل الإسبانية والشرقية، وهكذا تغيرت رسالة المزرعة الأولية وهي نشء خيول من نوعية خاصة.

بعد هذا التهجين غير الناجح أدخلت أحصنة إنكليزية، ولكن ماذا كان الهدف من ذلك؟ لا يعرف أحد. عندما كنت أهيئ نفسي للسفر إلى سوريا عام ١٨٥٦ لشراء الخيول العربية الأصيلة، قال لي السيد المشير الكونت غوربيه: «إذا لم تتحسن حالة المزرعة بعد التهجين مع الدم العربي، فسوف نضطر إلى إغلاق أبوابها». وفقط بفضل تأثير هذا الخبير الكبير في الخيول استطعنا أن ننقذ مزرعتنا من الفساد التام.

دعا الأمير لوبوفيتس الناظر العام لتزويد الخيالة إلى تأسيس قسم للخيول العربية الأصيلة في بابلونا. ومع مرور الزمن تحويل المزرعة كلها إلى المزرعة العربية لتوليد الخيل. لو تحقق هذا لتمتعت مزرعة بابلونا بأهمية كبيرة في كل البلاد. وما

يعيق إنجاز هذه الخطة في الوقت الحالي هو أن مدير المزرعة يضطر أن يعمل مع موارد غير مختبرة فعليًا. كان ممكنًا المحافظة على نقاء جنس الخيول اعتمادًا على علاماتها الخارجية، ولكن ما يخص خصالها الداخلية وقدرتها على توريثها إلى نسلها، فهذا لا يحدث إلا بالمصادفة. لحسن حظي كانت وظيفتي مسهلة لأنني أعرف خصال الخيول التي اشتريتها في سوريا. ولكن إذا حق لي أن أكون مدير المزرعة ولو لفترة فلن أطمئن إلا بعد أن أختبر الخيول الملحقة بها اختبارًا دقيقًا. ودون ذلك سنضطر إلى العمل بالتحسس.

عندما استلمت منصب المدير في بابلونا عام ١٨٣٥ كانت فيها خمس وثلاثون أنثى عربية أصيلة. في عام ١٨٥٩ ألحقت بالتركيب الأنثوي فرس أصيلة واحدة فقط عمرها أربع سنوات، وفي عام ١٨٦٠ اثنتان، وفي ١٨٦١ خمس. وسبب ذلك أن الكثير من الأفراس تفلى من التزاوج مع الفحول الهجينة (سمحان الرابع وعسلان الأول).

لم يحدث هذا بسبب قلة الأحصنة النقية بدمها مثل عسلان وقريشان وجدران والبدوي وآغا وميروت. من الظاهر أن هذا قد أخر عملية تنقية الدم كثيرًا إذا لم نقل أفسدها. في المستقبل يجب وضع قاعدة بأن الأفراس الأصيلة لا تتزاوج إلا مع الفحول الأصيلة».

هكذا تنتهي شهادة العقيد برودירمان، ولكن في كتاب الكونت فرانغيل قيل: «لقد مضى اثنان وثلاثون عامًا على ظهور هذه المذكرة (١٨٩١) وما زال البرنامج الموضوع في بابلونا غير منفذ كما هو الحال في الماضي. يهيمن على المزرعة الاتجاه التهجيني في كل الأصناف والأجناس الخيلية، فابتعدت المزرعة عن اتجاه تربية الخيول النقية أكثر مما كان عليه عام ١٨٥٩. يحتوي قسم الخيول الأصيلة على ثلاث وعشرين فرسًا وحصانين. من بينها الفرس حجية مجهولة الأصل ولكن غير نقية الدم بكل تأكيد. ومن بين الخيول الباقية لا توجد إلا أربعة نقية الدم.

على الرغم من إنذار العقيد بروديرمان بين العامين ١٨٦١ و ١٨٦٥ استمر تزاوج بعض أفراس بابلونا في كيسبير مع الأحصنة الإنكليزية. ومع ذلك فوظيفة بابلونا هي تأسيس مزرعة لتوليد الخيل للخيول العربية الأصيلة مثل كيسبير للإنكليزية السباقية».

بابلونا بصفتها مزرعة لتربية الخيل المجرية الملكية

في عام ١٨٦٨ انتقلت مزرعة لتربية الخيل في بابلونا تحت إدارة وزارة الزراعة في المملكة المجرية. وبعد الانتقال أرسلت لجنة لتفقد مزارع الخيل كيسبير وبابلونا لتقديم آرائها في استمرار العمل. وجدت اللجنة أن الفحول غير صالحة، ولكن اعترفت بأن أفضل الخيول وأكثرها أصالة الحصان العربي دلمي، ويليه بولكان ثم محمود ميرزا فشاقيا المشترى في سوريا عام ١٨٥٧. أما الباقية فعُدّت سقطًا: الحصان أصيل بسبب هرمه ومرض عينيه، دهمان من سوء بنيته، أعنق بسبب عدم وجود العضل عنده، ومسعود لعدم طرازيته. ومن الهجينة بقي أبو جريس وحصانان من أبناء شاقيا. وعدّت سقطًا من التركيب الأنثوي خمس وثلاثون أنثى وثلاث عشرة فرسًا صغيرة، وقد قرر إحضار خمس وأربعين فرسًا من الأجناس الشرقية من ميسوخيغييس بدلاً منها.

ثم اختارت اللجنة لقسم الخيول العربية الأصيلة من المزرعة الأحصنة التالية: محمود ميرزا، دلمي وبولكان، ولقسم عمليات التهجين: أبو جريس وحصانين من أبناء شاقيا، وللخمس والأربعين فرسًا من ميسوخيغييس الأحصنة: دلمي وبولكان. كما عبرت اللجنة عن أملها في أن تصل إلى العزبة بعد خمس سنوات إلى مستوى عزبة كيسبير من الازدهار.

ولو أنه حدث تحسن ظاهر بعد سنتين، ولكن الأنسال عانت من العيوب التالية: صغر الحجم (١٥٠ سم)، فقر العظام، ضعف البنية، العجز عن حمل

الأثقال وجر العربات. حدث هذا بسبب سوء التغذية ومن الاعتقاد أن تربية الأمهار تربية قاسية تحقق نتائج جيدة، إضافة إلى ذلك أهملت العناية بالفحول التي يجب أن تكون سليمة الجسم وأن تنال كمية لازمة من الغذاء والدفء.

وبفضل العناية المحسنة زاد حجم الخيول الفتية إذْ وصل إلى ١٦٠ سم، كما تحسنت حالتها طبقًا لهذا.

١ - كانت أفضل الأنسال من محمود ميرزا المولود عام ١٨٥١ عربيًا أصيلاً، اشتراه الكونت باتياتي من الضابط الإنكليزي الذي كان يذهب به إلى الصيد ويركب عليه في السباقات في الهند. كان يمتاز بمتانة بنيته وأرجله النقية التي حافظت على نقائها حتى شيخوخته. خلف ثلاثة أحصنة ارتفاعها أرشينان وأربعة فيرشوكات ونصف تقريبًا. بلغت الأحصنة هذا الحجم بفضل التغذية الجيدة والركوب عليها وهي في السنتين من عمرها.

٢ - عبد العزيز حصان رمادي أهداه السلطان لواحد من أفراد حاشية الإمبراطور النمساوي في حفل افتتاح قناة السويس. إنه حصان ممتاز فهو عربي نموذجي ونبيل جدًا وصبور.

٣ - أمورات بيرقدار حسن العظام وأنيق في سيره.

٤ - بنزيت من عزبة ليبيسيا لتربية الخيل، أنيق جدًا ولكن عظامه فيها بعض العيوب.

ثلاثة من الأحصنة اشتراها مدير العزبة.

حصانان من شاقيا فيها بعض العيوب التي لا تنتقل وراثيًا إلى النسل.

في عام ١٨٧٢ كان أفضل حصان اسمه محمد علي ابن الحصان محمود، ويليه أمورات من فيورتيمبيرغ فعبد العزيز. والهجينة: محمود، أبو جريس، شاقيا، شاقيا الثالث، شاقيا الثاني، صقلاوي وسمحان.

كانت مزرعة بابلونا مستقلة حتى عام ١٨٧٥ ثم صارت تابعة لمزرعة كيسبير من عام ١٨٧٥ . حتى ١٨٨٣ ، وبعد ١٨٨٣ أصبحت مستقلة من جديد .

حددت وظيفة المزرعة المجرية الملكية لتربية الخيل في بابلونا على الشكل التالي :

١ - الحفاظ على نقاء الأجناس العربية في القسم المخصص لها .

٢ - تزويد البلاد بالفحول لعمليات التهجين .

من أجل تنفيذ هذا البرنامج عقد في عام ١٨٩٠ اجتماع في وزارة الزراعة في بودابست حيث عولج السؤال التالي : هل يجب أن يبقى قسم الخيول العربية الأصيلة في مزرعة بابلونا؟ وكان الجواب قراراً بضرورة تدعيم مزرعة الخيول العربية الأصلية بشراء الخيول من البدو .

قسم الخيول العربية الأصيلة في مزرعة الكونت إستروغانوف لتربية الخيل في شمال القوقاس

تأسست هذه المزرعة عام ١٨٨٩ ، وكان أساسها حصانين وتسعة أفراس حصل عليها الكونت استروغانوف عام ١٨٨٨ من خلال رحلته إلى سوريا وبادية الشام .

اشتريت الخيول مباشرة من البدو من قبيلة العنزة ، أي من قبائل السباع العنزية المختلفة ومن قبيلة المصراب . أما الأحصنة فحصل عليها الكونت في دمشق بمساعدة وكفالة صديقنا الشيخ نصر بن عبد الله ، وهو بدوي من قبيلة الرسالين (والرسالين فرع من قبيلة السباع العنزية) .

كما أنّ واحداً من الحصانين أمغر اللون «أمير العرب» ، سلالته كحيلان القروش ، ولد عند محمد دوخي بن سمير وهو شيخ قبيلة ولد علي العنزية .

والثاني رمادي اللون «سطام القريش» من سلالة صقلاوي الجدران، ولد في قبيلة بني صخر التي تترحل شرقي فلسطين.

إلى جانب الحصانين المذكورين اشترى الكونت حصانين آخرين، واحدًا عمره ثلاث سنوات من سلالة كحيلان العجوز من مدينة دير الزور على الفرات، والثاني عمره سنتان من سلالة أعنق لقرة حصل عليه من قبيلة القموصة، وإلى الآن لم يخدم هذان الحصانان إلا للأفراس الكاباردينية أو العربية الكاباردينية. وفي عام ١٨٩١ وصلت إلينا من الشيخ نصر هدية، حصانان، الأول «شرك» رمادي اللون من سلالة عبيان الشرك المولود في قبيلة السباع، والثاني «تمري» رمادي اللون أيضًا مولود في جبل الشمر (إمارة في شمال النجد) عند الأمير محمد بن رشيد.

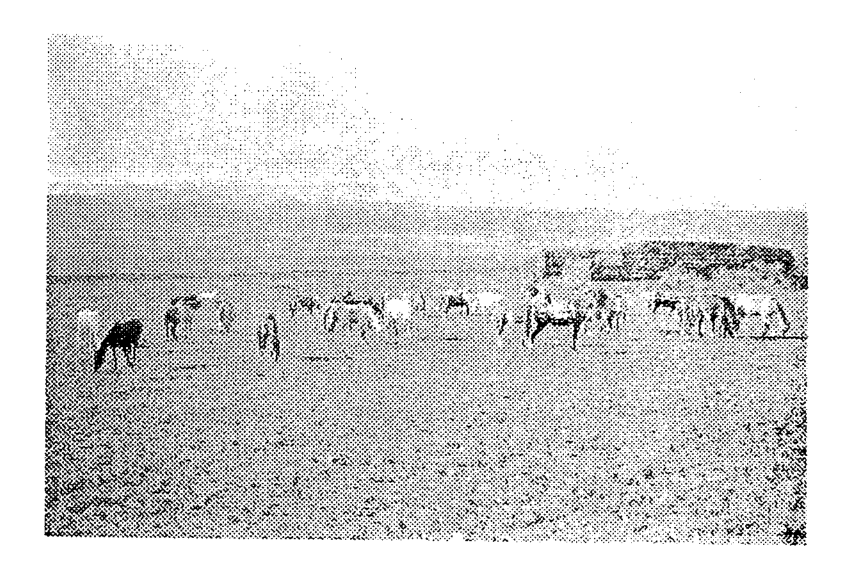
وأخيرًا في عام ١٨٩٥ قام الكونت إستروغانوف برحلته الثانية إلى الشرق، واشترى من دمشق وضواحيها ثلاث أفراس بمساعدة الشيخ نصر أيضًا.

في الوقت الحالي (تشرين الأول ١٨٩٩) يتكون القسم العربي في مزرعة الخيل من تسعة أحصنة وإحدى وعشرين فرسًا، وإجمالاً ٦٦ رأسًا بما في ذلك الخيول الفتية. تأسست المزرعة لهدفين: الأول تربية الخيول العربية من أصل موثوق، والثاني تحسين الخيول من الجنس الكاباردينى بالدم العربي.

الظروف المحلية أي المناخ والتربية هي شروط رئيسة لإجراء تربية الخيل، لذلك عينت المنطقة بدقة تامة. لقد اخترنا أرضًا لإنشاء مزرعة لتربية الخيل قرب بياتيغورسك بعد إحضار أول الخيول العربية إلى روسيا فورًا.

برأي صاحب المزرعة أنه لا يمكن أن نتوقع من النسل المحافظة على أهم خصال أجداده في المناطق المختلفة بظروفها الطبيعية عن شمال البلاد العربية كثيرًا. أهم هذه الظروف المناخ القاري الجاف مع صيفه الحار الطويل، والتربة الجافة الصلبة

المحجرة، وكلأ المرعى الجيد. المنطقة الواقعة عند أقدام الجبال القوقاسية والمجاورة للأراضي الكاباردينية تتوافر فيها هذه الشروط، فالرعي على السفوح الجبلية المنحدرة مفيد جدًا لتطور الخيول الفتية من كلّ النواحي.



قطيع من خيول الكونت إستروغانوف العربية (الإناث) في القرية الكونتية في المحافظة التيرسكية عام ١٨٩٩.

عند اختيار الفحول والإناث يلفت الانتباه بالدرجة الأولى إلى ما يلي: النشوفة العامة وخاصة نشوفة الأطناب ومتانتها، وسلامة الهيكل، مع وضعية الأرجل الصحيحة، وسلامة الحوافر والأعضاء التنفسية، وأخيرًا الانتظام العام في الشكل، ونمو كل أطراف البدن بالتناسب طردًا، وبتعبير موجز الجمال العام. ثم يجب أن تكون الحركات صحيحة وقوية ونشيطة. ومن جهة أخرى هدف المزرعة ليس إنشاء طراز خاص من الخيول العربية، لذا لا ينظر إلى شكل الرأس وحجم العيون.

لا تختلف الخيول الفتية في نمط تربيتها عن غيرها، إذ تنال الأفراس الكهلة والخيول الفتية الشوفان طيلة العام على حد سواء، عدا شهرين أو ثلاثة أشهر من السنة، عندما يكون كلأ المرعى غزيرًا جدًا. يرعى القطع في السهوب حوالي ثمانية أشهر من السنة، فتسرح بين المراعي من الفجر حتى الغروب، وحتى في الأشهر الأربعة الباقية تسرح إلى المراعي عندما يكون ذلك ممكنًا، وهذا يحدث كثيرًا لأن الشتاء في تلك المنطقة قليل الثلج. وتؤخذ الخيول إلى موارد الشرب التي توجد على مسافة فرستًا واحدة عن المزرعة مرتين يوميًا. تبدأ الأفراس الفتية تستخدم للتناسل عندما تبلغ الأربع سنوات من عمرها، وهذا بعد سنة من ركوبها. أما الأحصنة فتجرب بالركوب عليها لفترة أطول. تنشأ الخيول العربية متأخرة، فهي لا تنضج إلا في سن السادسة من العمر. وأمّا ما يخص حجم النسل بالمقارنة مع أجداده فلا نستطيع الحكم على ذلك. ولكن يظهر أن حجمها يزداد. فمثلاً يتراوح ارتفاع الأحصنة المستوردة بين أرشينين وفيرشوك ونصف وأرشينين وفيرشوكين وربع، أما الخيول الفتية فيتراوح ارتفاعها من أرشينين وفيرشوكين وثلاثة أرباع فيرشوك إلى أرشينين وثلاثة فيرشوكات ونصف. وبلغ واحد من الأحصنة أرشينين وأربعة فيرشوكات وثلاثة أرباع فيرشوك.

يتراوح ارتفاع الأفراس المستوردة بين أرشينين وسبعة أثمان فيرشوك وأرشينين وفيرشوكين وربع. أما الأفراس الفتية فيتراوح ارتفاعها بين أرشينين وفيرشوك ونصف إلى أرشينين وثلاثة فيرشوكات. الزيادة في حجم الخيول هذا ما تسعى إليه المزرعة، ويعود الفضل في هذه الزيادة إلى التربية والتغذية بالحبوب التي لا تتناولها الخيول العربية في موطنها. يمكننا أن نضيف بعض الكلمات عن القسم العربي الكابارديني من المزرعة التي تحتوي حاليًا على ٣٣٢ رأس ومنها ٩٠ أنثى: إن العمل في تحسين الخيول الكاباردينية بتهجينها بالدم العربي ناجح في كل النواحي. فالنسل

الهجين أنيق ورشيق. وورث من الأحصنة العربية النشاط ومرونة الحركة. إضافة إلى ذلك يزداد حجم الخيول الكاباردينية التي هي صغيرة بطبيعتها. ومع ذلك لا داعي للتوقف على الخيول الهجينة بل يجب توصيلها حتى يكون فيها ثلاثة أرباع أو سبعة أثمان من الدم العربي. من بين الخيول الفتية في المزرعة أصبحت ثلاثة أرباع منها لها ميزات عربية، باستثناء الخيول الفتية التي تعلف في الخريف والشتاء بالشوفان. فالقطيع من الخيول العربية الكاباردينية لا تتناول الشوفان بل ترعى في السهوب على كلأ المرعى خلال ثمانية أشهر من السنة، وفي الشتاء تعلف بالعشب المجفف.

أكبر نقص في الخيول العربية الكاباردينية هو بطء نموها، ولو أن الخيول الفتية تُركب وهي في الثالثة من عمرها، ولكنها لا تبلغ الكهولة إلا في سنّ السادسة.

كرابيت بارك، مزرعة لتربية الخيل العربية للسيد بلانت في إنكلترا

مزرعة تربية الخيل العربية كرابيت بارك تابعة للقطاع الخاص. أسسها السيد ولفريد بلانت والسيدة آن بلانت عام ١٨٧٨.

في فصل الربيع من السنة نفسها زار السيد والسيدة بلانت حلب ووادي الفرات وبغداد وتدمر، وفي طريق عودتهما زارا مخيمات الشمر والعنزة وهي قبائل شمال صحراء الجزيرة العربية. لقد اشترا منها أفراس أصبحت نواة مزرعتهما مع غيرها من الخيول المشتراة عن طريق السيد أسكين، وهو القنصل الإنكليزي في حلب، وخبير كبير في الخيول، وهذه الخيول أرسلت في السنة نفسها إلى إنكلترا مع ثلاثة أحصنة من قبيلة العنزة أيضًا، وهي: فرعون وكرسوم ودارلاي.

في العام الذي يليه أي ١٨٧٩ زار السيد والسيدة آن بلانت الجزيرة العربية من جديد، وكانت معارفهما قد توسعت بعد أن عاشا بين قبائل النجد، كما سافرا أيضًا في الربيع من عام ١٨٨١ وحصلا على مزيد من الخيول لمزرعتهما.

اتخذ السيد بلانت المبادئ وفقًا لنصيحة السيد أسكين: أولاً شراء الخيول من البدو مباشرة، لأنهم يملكون الأفضل منها، دون الاستعانة بتجار الخيل في المدن، مما يبعد الاصطدام بالتأصيلات المزورة والخيول المغشوشة المرباة في المدن، ثانيًا الانتباه إلى تعبيرية الطراز أكثر من الحجم أو الهيكل أو الرشاقة، وثالثًا الاستعداد الدائم لدفع مبالغ كبيرة عند إيجاد حصان بارز.

كان وقت زيارة الزوجين بلانت ملائمًا جدًا لشراء الخيل، لأنه اتفق مع زمن الحرب الروسية التركية التي استنفدت احتياطات النقد في الممتلكات التركية فأبعدت بذلك كل المنافسات. ومع ذلك فالأموال المدفوعة كانت تصل في بعض الحالات إلى ٣٠٠ نابليوندر (١٤٠ جنيه استرليني) على أفضل الأفراس المشتراة من الصحراء. كان أغلى ثمن هو ثمن الحصان فرعون: ٢٠٠ جنيه إسترليني.

في عام ١٨٨٤ عند وجود السيد والسيدة آن بلانت في الهند اشتريا ثلاثة أحصنة عربية بأسعار عالية، ولم يكن من بينها إلا الحصان «حدبان» الذي ترك أثرًا في العزبة. أما الاثنان الآخران اللذان فازا في السباق في الهند اتضح أنهما فحلان سيئان.

في عام ١٨٨٦ حصل الزوجان على الحصان «أزرق» من سلالة صقلاوي الجدران من عشيرة ابن الدري. لقد حصلا عليه من قبيلة العنزة حيث رآه قبل ذلك وهو مهر صغير. أصبح أزرق فحلاً من النوع الأول، ثم بيع بـ ٤٠٠ جنيه للسيد سيسيل رودس، وهو الآن في جنوب إفريقيا. كثير من إناث مزرعة كرابيت لتربية الخيل أصلها منه وكذلك الحصان «أحمر».

في عام ١٨٨٨ اشترى الزوجان مهرين عمرهما سنتان، الأول اسمه «مرزوق» والثاني «مسعود»، وقد اشتراهما من مزرعة علي باشا الشريف في القاهرة (وهي تشبه المزرعة التي أسسها نائب الملك عباس الأول قبله بأربعين سنة). بعد فترة بيع الحصان مرزوق إلى حكومة المستعمرة الكابية في جنوب إفريقيا، في حين أن مسعود لا يزال حتى الآن فحلاً رئيسيًا في كرابيت. مسعود ممثل ممتاز لأسمى أصناف الخيول العربية، ونال جوائز كثيرة في المعارض الإنكليزية.

وأخيرًا في عام ١٨٩٨ عندما توفي علي باشا الشريف، اشترى الزوجان بلانت من مزرعته كل الأفراس الباقية بعده التي كانت تستحق الشراء. ولا تزال أكثرها موجودة في مزرعة كرابيت لتربية الخيل حتى الآن.

في الوقت الحالي (سنة ١٨٩٩) توجد في مزرعة كرابيت الخيول التالية: اثنتان وثلاثون أنثى بما في ذلك البالغة من العمر ثلاث سنوات ستبدأ بالسفاد عام ١٩٠٠؛ ست عشرة فرسًا صغيرة وخمسة أحصنة وأربعة وعشرون مهرًا بما في ذلك البالغة سنة من عمرها والمولودة في العام الحالي.

نقدم الآن المبادئ التي اتخذتها مزرعة كرابيت في تربية الخيل:

١ - صيانة الحصان العربي من أية اختلاطات مع الخيول الإنكليزية أو أية خيول أخرى غير العربية ومن الأجناس الشرقية المشكوك في أصلها.

٢ - استخدام الفحول بالانتقاء الدقيق جدًا لدمها كالتي ينتقيها البدو من قبائل الجزيرة العربية لأفراسهم، والبدو مشهورون بخيولهم.

٣ - عدم الولوع بالزيادة من حجم النسل أكثر من الخيول العربية المستوردة بطريقة الاختيار أو الإفراط في العلف ولا بأي شكل. ويعدّ الارتفاع الطبيعي للخيول العربية المستوردة حوالي أرشينين وفيرشوك وربع.

٤ - إبعاد كل الخيول من الطراز غير العربي مهما كانت صفاتها الشخصية جيدة، لأن هدف المزرعة ليس إصلاح التركيب الخيلي وفقًا للعقائد الأوروبية، بل المحافظة على صفة الحصان العربي ليبقى كما كان منذ غابر الزمان، ولو أنه بدأ ينقرض حتى في موطنه بسبب تغير ظروف الحياة.

٥ - عند تأسيس المزرعة كان الهدف هو تطوير الرشاقة في الحصان. ولكن توضح بعد قليل أن زيادة في الرشاقة صعبة جدًا حتى لا يكون ذلك على حساب الخصال الأخرى الأكثر قيمة، لذا أهملت الفكرة هذه.

٦ - ينظر باهتمام كبير إلى الحركة، ليس من أجل الزيادة في ثمن الحصان بل لأنها دليل من دلائل الأصالة. لا يطالب بحركة الرُّكَب، بل يطالب بحركات حسنة في العضدين ومفصل الجري، بالإضافة إلى أناقة الرقبة النموذجية ومقسم الذيل. هذه هي مميزات الخيول العربية من أسمى الأجناس.

٧ - إلى جانب القواعد المذكورة أعلاه، تنفذ المزرعة أشغالها وفقًا للمبادئ العامة التي تنفذ في كل المزارع الأوروبية ذات الاتجاهات الصحيحة. الخيول الأكثر قوة وصحة وجمالاً وولادة تبقى في المزرعة، أما التي أقل قوة وصحة وأناقة وولادة فتفصل من المزرعة.

٨ - تُلحق الأفراس بالمزرعة وهي في الرابعة من عمرها، أما الأحصنة ففي الخامسة. ولكن لوحظ أن أفضل الأنسال تولد من الخيول بين ثماني سنوات وست عشرة سنة من عمرها. تستطيع الأفراس أن تخلف نسلاً جيدًا حتى سن السادسة والعشرين، أما الأحصنة فحتى سن العشرين وأكثر.

٩ - على الرغم من كون بعض الحجور المستوردة عقيمة، أصبحت في إنكلترا كلها تفلى. ولم تحدث ظاهرة العقم في واحد من نسلها. يمكن القول إن التركيب الخيلي الحالي في كرابيت ولود جدًا وقوي تمامًا.

١٠- إن عُدة مزرعة كرابيت بسيطة جدًا، ولا تحتاج إلى أموال ضخمة. تقضي الإناث والخيول الفتية شتاءها في المزارع في العنابر الخشبية البسيطة. وفي أواخر نيسان تخرج إلى المرعى حيث تبقى حتى شهر كانون الأول. وحدها الأحصنة هي التي تبقى في الإسطبل طيلة العام. تلبية للقاعدة العامة لا يعطى الشوفان إلا للخيول الفتية وإناث الخيل حديثة الاستيراد؛ لأنها تحتاج إلى عناية خاصة مدة سنة أو سنتين، ريثما تتأقلم. والأفراس الضعيفة التي لا تتحمل الحياة العادية تفصل من العزبة. أكثر المراعي فقيرة ولكنها فسيحة المساحة وقد دلت التجارب على أن الخيول تسهل عليها أكثر من المراعي المغذية التي تؤدي إلى الزيادة في حجمها على حساب الخصال الأخرى. يزعم السيد بلانت أن تأثير المناخ والتربة الجديدة في الخيول المستوردة مبالغ فيه جدًا، وأن فقدان الخيول العربية لخصالها في المزارع الأوروبية سببه قلة أصالتها منذ البداية.

هذا صحيح، فالخيول العربية النقية الدم تورث خصالها إلى نسلها في الظروف المناخية كافة.

١١- في كل سنة يقام في كرابيت بارك بيع الخيول بالمزاد العلني العام بداية من أواخر شهر حزيران، ويعرض للبيع قرابة خمسة وعشرين رأسًا بتقييد السعر الأدنى، ونضيف أن نصف المبلغ تقريبًا يبقى بيد الصاحب. كما تجرى بين الحين والآخر مبيعات خاصة. السعر الأدنى للخيول المعروضة للبيع من العزبة أكثر بقليل من مئة جنيه. وتباع الخيول الفتية في المزادات العلنية العامة عندما تبلغ السنتين من عمرها، وإذا لم يعرض أحد السعر الأدنى ثمنًا لها، عندئذ تترك إلى العام القادم.

١٢- لون الخيول في مزرعة لتربية الخيل العربي في كرابيت كميت وأمغر ورمادي وكميت أحم. أما الرمادي والأبيض والرمادي المبقع فهي ألوان أقل استقرارًا، وطالما أن اللون الرمادي قدر خلال مئات السنين بشكل خاص وأنتج بدقة تامة، فالكثير من الخيول الرمادية تعدّ نموذجية. أما الخيول الكميتة الأجمة فأقل نموذجية من غيرها، وتعدّ الخيول الدهماء حالات استثنائية أو مصادفة؛ لأن اللون الأدهم ليس عربيًا.





الفصل السادس

بعض الآراء عن أهمية الدم العربي في عمليات التهجين

نقدم رأي اللجنة التي أجرت تفقدًا في وحدة الجيش على السهب ما خلف نهر الدون، وفقًا للقاعدة المقررة في ١٨ نيسان ١٨٩٨ من قبل مدير وزارة الحربية الجنرال الملازم كوراباتكين التي وضعت تحت عضوية الجنرال من خيالة بيتروفسكي.

جلبت الخيول الأنيقة من الأجناس الشرقية؛ أي الفارسية والعربية، حتى الإنكليزية العربية نفعًا في تربية الخيل الدونية ليس من جنسها فحسب بل من مظهرها اللائق لخيول الركوب. لا نستطيع أن نوجه القول نفسه إلى الخيول الإنكليزية السباقية الأصيلة والهجينة، فهذه الخيول حتى الآن لم تجلب الفوائد التي توقعوها منها في تربية الخيل الدونية. الحصان الإنكليزي السباقي له غرضه الخاص، وهو القدرة على الجري السريع عند قطع مسافات قصيرة في مضامير السباق مع وزن فارسه الخفيف عليه، فأصبح مظهره مصطنعًا بميزاته التي يحتاج إليها حصان السباق. ولكن بعض هذه المميزات لا قيمة لها حتى إنها تضر حصان الخيالة أو الجر. فمثلاً كفل الحصان الإنكليزي قوي ولكن مقدمته خفيفة. إلا أن الحصان الإنكليزي نفسه ثابت في نسله. وهكذا تأكدت اللجنة اعتمادًا على مجموعة من الوقائع التي أكد عليها كل مربي الخيل في المزرعة تقريبًا أن القطعان المرباة خلف نهر الدون، حيث استخدم دم الخيول الإنكليزية السباقية بشكل واسع، ظهر طراز خاص من الخيول: منتظمة الجسد إلى حد ما، ولكن أرجلها فقيرة بعظمها حتى الرذالة. أي إنّ الخيول هذه غير صالحة لاحتياطات الخيالة. ومن جهة

أخرى رأت اللجنة في مزارع تربية الخيل التي لم تستعمل دمًا إنكليزيًا وإنما شرقيًا فقط، أن خيولها السهبية طورت في نفسها كل الخصال القيمة واللازمة لتعبئة الخيالة كأساس أرجلها المتين، وجسدها المنتظم، وأناقتها بشكل عام.

الأمير غيورغي رادزيفيل

ما يخص مذكرة الأمير أ. شيرباتوف عن الحصان العربي، أشاركه الرأي في أهمية الحفاظ على نقاء الخيول العربية في تربية الخيل في العالم كله. ولكن لا أحد بإمكانه تنفيذ ذلك إلا الحكومة. ولا شك أن الظروف الحياتية والاقتصادية والجغرافية في روسيا تجعلها دولة وحيدة قادرة على تنفيذ هذه المهمة. فالحصان العربي في روسيا لن يفقد كرامته وصبره، بل سيزيد من قدرته في السرعة وكما سيزيد من حجمه أيضًا، ما دام نمط تربيته يشبه النمط الذي أعطى هذه النتائج الناجحة في تربية الخيول الإنكليزية الأصيلة. كما أظن أنه ينبغي الإضافة إلى كتاب (مزرعة لتربية الخيل العربية) بابًا رابعًا عن الخيول الإنكليزية العربية إضافة إلى الأبواب الثلاثة الموجودة.

نيقولاي بيتروفيتش إرديلي

لقد تأسست مزرعتي عام ١٨٤٦ المكونة من الإناث العربية اللوبوخينية التي زاوجتها مع الفحول العربية. وكانت نتيجة هذا التهجين ظهور نسل ممتازة، وقد اشترى مني أحد الضباط الأفضل منها، أما الباقية فضمت إلى احتياطات الخيالة.

هكذا كان عملي جاريًا حتى الثمانينات، عندما بدأ الجميع يولعون بالخيول الإنكليزية، ويعتقدون أنها الوحيدة القادرة على دعم تربية الخيل الوطنية. انخفضت أسعار الخيول العربية إلى حد كبير، وبدأ الطلب على الحصان الإنكليزي

يزداد من عام إلى عام. اضطررت آسفًا أن أربي هذه الخيول الجديدة. والآن بعد أن مضى خمسة عشر عامًا وأنا أربي الخيول الهجينة بالدم الإنكليزي أعترف بكل صراحة أن النسل السابق كان أفضل بكثير من الحالي بغض النظر عن أن العناية بهذه الخيول الجديدة المتحضرة تحتاج إلى مبالغَ هائلة. أما الخيول نفسها ففقدت تلك الخصال التي كانت تتمتع بها الخيول السابقة: أين ذهبت كرامة شكل الحصان العربي وموضع رقبته الأنيق، ومقسم ذيله الفاتن، ورأسه الجميل، والتعبيري، وعيونه الكبيرة اللماعة، وقوته وصبره في ظروف الحياة القاسية؟

لهذا قرأت كراس الأمير أ. شيرباتوف «الحصان العربي وأهميته» بكل فرح وسرور. لقد سررت كثيرًا من أن الحصان العربي قد نال إعجابًا عامًا من جديد الأمر الذي كان يجب ألا يفتر قطعًا. كتبت في مقدمة هذا الكراس الذي عنوانه «الحصان العربي وأهميته في تربية الخيل في روسيا» حقيقة ساطعة لا يستطيع أحد نقضها إلا من ديدنه الجدل للجدل.

لا أنكر أن الحصان الإنكليزي يفيد في السباق أكثر من غيره، ولكن فيما يخص الخيول الصالحة للخيالة واحتياطاتها، تعطى جوهرة الأفضلية للحصان العربي فقط بسبب طيبة خلقه وقلة طلباته في العناية والغذاء وصبره المحسوس وقوته غير المتناسبة مع حجمه، بكلمة واحدة كل الخصال القيمة المحتاجة إليها في هذه الظروف المناخية القاسية، والمسافات الروسية الشاسعة، مع عدم وجود طرق المواصلات. ولهذا أتمنى من كل قلبي النجاح للإدارة العامة لتربية الخيل في تنفيذ هذه المهمة، وهي تأليف كتاب مزرعة لتربية الخيل العربية. أظن أن مصير تربية الخيل الوطنية يعود إلى نهضة الخيول العربية في بلدنا.

أدولف إغناتيفيتش كوبيز

تأسست مزرعتي عام ١٨٧٠. اشتريت أول إناث الخيل بالمزاد العلني في

يانوف، وأصلها من المزرعة الليماريفية، التي كانت في ذلك الأوان مزرعة للخيول العربية، ومن مزرعة الأمير سانغوشكو في سلافوت. قمت خلال سنوات عديدة بتربية خيول من أجناس عربية فقط، واستخدمت الفحول من يانوف للسفاد حين كانت الأحصنة العربية النقية الدم هناك، ولكن عندما استغني عن الخيول العربية (أسفت كثيراً من عدم بقاء أي خيول عربية في هذه المزرعة العريقة لتربية الخيل في يانوف)، اشتريت في سلافوت من الأمير ساغوشكو حصانًا عربيًا اسمه ذبيان غريس، فكنت أسفد الإناث معه سنوات عدة. ثم اشتريت حصانًا عربيًا آخر اسمه علي بيك من مزرعة الكونت كسافيدي برانيتسكي لتربية الخيل من أوزين، فخدم عندي أيضًا بضع سنوات. وبعد بيع علي بيك لجأت إلى أحصنة يانوف، فبقيت سبع سنوات أستأجر من هناك فحول إنكليزية عربية بهدف الزيادة من حجم نسلها من أجل إرضاء طلبات السادة المشترين الذين يبحثون عن خيول كبيرة الحجم. اشتريت منذ سنتين من السيدة ليفيتسكايا من ريغوف حصانًا عربيًا «نستور» ولا أزال أسفد معه الحجور حتى الآن. لقد سررت من قراءة كراس الأمير أ. شيرباتوف كثيراً، فهو يعبر عن معرفة تامة للموضوع ومحبة للخيول العربية. إنني أشارك رأي الأمير شيرباتوف بأن الحصان العربي هو الوحيد القادر على توريث صفاته الخارجية وخصاله الداخلية إلى نسله، لهذا أتمنى من كل قلبي النجاح في تأسيس أكبر عدد ممكن من المزارع لتربية الخيول العربية النقية.

م. شورينوفا

إنني أشارك كل المشاركة الأمير أ. شيرباتوف في رأيه المدون في كراسة «الحصان العربي وأهميته»، حيث يقول عن إمكان تهجين الخيول بالدم العربي. وهذا صحيح أن الخيول بعد ذلك تكتسب كرامة الشكل والقوة والصبر كالحصان

العربي. ويقول الأمير شيرباتوف الحق أنّ هذه الخصال تورث للنسل. كما تأكدت من صحة هذا القول بعد إجراء التجارب في مزرعتنا حيث تربى السلالة الأورلوفية الروستوبشينية منذ زمن طويل. فمثلاً في عام ١٨٦٤ بيعت فئة من مزرعتنا للمسؤول عن احتياطات الخيالة في القوقاس السيد أوميوروف، واشترى العقيد بانشوليدزيه حصانًا واحدًا من هذه الفئة، شارك في عام ١٨٧٨ في فتح كارس، وقام بكل حملاته إلى ما وراء القوقاس على هذا الحصان. في عام ١٨٨٥ جاء في العقيد في مزرعة لتربية الخيل ليشتري حصانًا جديدًا وطلب سلالة ياخونت. وعندما سألته كيف تعرف هو على سلالة ياخونت، قال إنه حصل عام ١٨٦٤ على حصان من هذه السلالة من أومورروف، وقام عليه بحملات عديدة، وأن هذا الحصان لا يزال في الجيش. وهذا الحصان ليس حالة استثنائية وإنما أقدمه هنا كمثال. لقد كانت عندنا فحول وإناث وصل عمر بعضها إلى ثلاثين سنة، ولكنها بقيت نشيطة وثابتة في شكلها فلا يظهر عليها الشيخوخة أو الكبر. هذا ما أرغم زوجي على الاستعانة المستمرة بالحصان العربي. كما أنني أؤيد الأمير شيرباتوف برأيه في أن روسيا أكثر البلدان صلاحية لتربية الخيول العربية. أضيف أنني لا أجد أيّ أهمية في الخيول العربية من النوع الثاني؛ أي الخيول المتطوعة وغليظة البنية، لأن خيولنا كبيرة الحجم بما فيه الكفاية، لذا فهي بحاجة إلى اكتساب الخصائص التي يتمتع بها الحصان العربي الصغير الحجم، وتلك الصفات هي: استدارة الشكل وأناقة المظهر. لقد تأكدت من هذا بعد أن قضينا أنا وزوجي أسبوعين في مزرعة الأمير رومان بافستاييفيتش سانغوشكو عام ١٨٧٥، فسنحت لنا الفرصة بمشاهدة المزرعة كلها حيث رأينا الخيول العربية الأصلية، منها صغيرة الحجم ومنها كبيرة الحجم. اشترينا من هذه المزرعة فحلين، أحدهما اسمه بانكو والده أبو هايل، عربي أصلي من سلالة صقلاوي الجدران، اشتراه الأمير سانغوشكو من دمشق عام ١٨٥٤. والدة بانكو اسمها فيرغيليا من الحصان العربي

الأصلي سراقي سلالته صقلاوي الجدران. والفحل الثاني فورتونيو المولود في مزرعة الأمير سانغوشكو من نسل الحصان العربي كحيلان أبو عرقوب، الذي اشتراه الأمير في حماه سنة ١٨٥٨ . والدته فيونوغ من العربي الأصيل عرجبي من سلالة صقلاوي الجدران. كلا الحصانين كان ارتفاعهما أرشينين وفيرشوك ونصفًا، أما أنسالهما فكانت أكبر حجمًا.

في عام ١٨٧٩ حصل زوجي المرحوم عن طريق شخص اسمه غازيت على حصانين عربيين، أحدهما لونه أمغر ذهبي اسمه وايل رابي من سلالة عبيان الأشوق وصقلاوي النجد، أبيض اللون وأسود العفرة. كان ارتفاع الأمغر أرشينين وفيرشوكًا ونصف فرشوك، وكانت له جبيرات نافذة لم يورثها إلى نسله، وصقلاوي النجد كان من سلالة النجد حوان، ولد في ضواحي مكة، وكان ملكًا للشيخ حجي محمد، سلالته صقلاوي وارتفاعه أرشينان وفيرشوك. كان شكله فاتنًا وبديعًا. صوره لانسيريه من الأصل، ومن أجل التأكد من جماله في وقتنا الحاضر يكفي تصفح ألبوم لانسيريه حيث طبعت صورة هذا الحصان. كلا الفحلان وايل رابي وصقلاوي النجد مشتريان من مدينة جدة، وكلاهما خلف نسلاً رائعة. ولا يزال دمهما يشهد على نفسه في الكثير من الخيول. لم ترب الأجناس العربية في مزرعتي بنقاء تام في دمها. وما عدا مزرعة لتربية الخيل سانغوشكو لا أعرف مزرعة أخرى تقوم بتربية الخيول العربية بنقاء دمها الخالص.

ف. كوتشاكوف سيفيتسكي

ما يخص مذكرة الأمير أ. شيرباتوف أوافقه رأيه في أهمية الحصان العربي في تربية الخيل. هذه المذكرة التي تحكي عن تاريخ الحصان العربي وتأصيله تنفي وجهة النظر المنتشرة حاليًا عن انحلال الحصان العربي في الجزيرة العربية، بأن الحصان العربي النقي لم يعد له وجود، فلا يستطيع أن يكون مورد التحسن في تربية الخيل.

ومن جراء هذه الشكوك أقول إن أفضل شيء هو عدم البحث عن النقاء الزولوجي، وإنما الاستعانة بالطرازات الموجودة من الخيول الأورلوفية والأمريكية والإنكليزية التي تتقن التزاوج إتقانًا تامًا إضافة إلى تدريبها وتربيتها التي مرت بأجيال عديدة في هذا السلالات الجديدة الإنشاء التي كانت أسلافها عربية دون شك.

أ. كرستوفتسوف

إن فكرة تأسيس كتاب مزرعة حكومية خاصة بالخيول العربية وإجراء المسابقات وتأسيس مربى لها من أجل دعم تربية الخيول النقية تستحق كل التشجيع والتقدير.

الأمير ر. سانغوشكو

لقد وجهت لي بعض الأسئلة في الرسالة من الإدارة الرئيسية الحكومية لتربية الخيل رقم ٤٢٧٢، فيحق لي الشرف بالإجابة عمّا جاء فيها:

١ - في مزرعتي خريستوفيتسكي أجناس عربية فقط منذ غابر الزمان دون أي تهجينات مع دم آخر عدا بعض الحجور المحلية.

وبعد إدخال مستمر للأحصنة العربية خلال مئة عام وكذلك بعض الأفراس، فخيول مزرعتنا فيها من ثلثين إلى أربعة أخماس من الدم العربي النقي، وتبرهن على ذلك كتب العزبة التي تكتب منذ عام ١٨٢٤، ووثائق كتابية أكثر قدمًا منها. بعض الخيول ليس فيها إلا الدم العربي وهي مولودة من الخيول المستوردة، أو من التي أصلها المباشر من الخيول الأخرى المستوردة.

٢ - كانت المرة الأولى عندما أرسل جد أبي فولينسكي فويفودا الأمير إيرونيم سانغوشكو أمين اسطبله بورساغو عام ١٧٩٨ إلى البلاد العربية لشراء الخيول.

٣ - لا أملك حاليًا خيولاً من دم عربي نقي؛ أي مولودة من أب وأم مستوردين. كان آخرها الحصان أطيق الذي بيع عام ١٨٩٩ (وفي الأسفل تأصيلته المفصلة).

٤ - تضاف قائمة مفصلة للأحصنة والأفراس المسفدة الموجودة في مزرعتي.

بصفتي مالك مزرعة لتربية الخيل العربية أدير أعمالها من أربعين عامًا، سوف ألبي دعوة الإدارة العامة الحكومية لتربية الخيل بالتعبير عن رأيي في مذكرة الأمير أ. شيرباتوف تحت عنوان: «الحصان العربي وأهميته» بالسرور نفسه الذي قرأت به هذه المذكرة. لا يستطيع هذا الرأي أن يصل إلى بلاغات المؤلف المحترم عن البلاد العربية وظروف الحياة اليومية عند البدو الرحل الذين أثروا طبعًا في تطور خصال الحصان العربي الحسنة والحفاظ عليها وتقويتها. كما لا أستطيع الحكم على السلالات والأصناف وفروع أجناس الخيول العربية الصحراوية التي لاحظها الأمير شيرباتوف. أنا لم أزر البلاد العربية ومعرفتي بالبدو ضئيلة، فلا أعرف طبعهم وحياتهم اليومية، لذا قرأت المعلومات التي دونها الأمير شيرباتوف في هذا المجال بكل متعة وسرور وبخاصة ما يتعلق بوصف سلالات مختلفة من الخيول العربية التي سمعت عن بعضها في طفولتي فأتذكرها الآن كأصدقائي القدامى.

هل يزول البدو الرحل تحت تأثير الثقافة الأوروبية عاجلاً أم آجلاً، كما يفترض الأمير شيرباتوف؟ لا أستطيع الحكم على ذلك. ولكن الحصان العربي يستحق المحافظة عليه. هل ستبقى الخيول العربية الصحراوية (أي التي تتمتع بخصال مشهورة غير موجودة عند خيول غير عربية) في حين أن منبعها سيزول مع زوال البدو؟ سيبقى هذا السؤال نظريًا ومفتوحًا مدة طويلة؛ لأن زوال البدو الرُّحل، كما أفترض، سيحدث إذا حدث في مستقبل بعيد مهما كان تأثير الثقافة الأوروبية قويًا، ومن المحتمل أن البدو سيحافظون على مربى خيولهم العربية

الصحراوية بكامل نقائها مدة طويلة. ما دامت إمكانية استرداد الخيول من بلاد العرب موجودة، ففي ظل النظام الثقافي في روسيا يمكن الحفاظ على نقاء الحصان العربي بخصاله الطبيعية، والبرهان على ذلك هو مزرعتنا السانغوشكوية القديمة.

أستطيع أن أشير إلى بعض الخيول الموجودة عندي التي ولدت في العزبة جيلاً خامسًا، أي إنّ من بين أسلافها كان حصان عربي مولود في الصحراء منذ خمسة أجيال قبلها، أما أسلافها الأفراس المولودة في الصحراء فأكثر من خمسة أجيال، وكلها فيها جزء بسيط (كما قيل أعلاه ثلث أو ربع أو خمس) من الدم المحلي غير العربي، ولكنها حافظت على طراز الحصان العربي الصحراوي وتورثه إلى نسلها أفضل من الخيول المستوردة حديثًا من الجزيرة العربية. وسبب ذلك أنه من بين الخيول التي يربيها التجار في بلاد العرب ويصدرونها إلى أوروبا والهند للخيالة الإنكليزية، غالبًا ما تتصادف خيول غير نقية الدم، وبما أن الحكومة التركية بعد الحرب الروسية التركية الأخيرة حظرت تصدير الخيل (وحاليًا ألغي هذا الحظر) وكانت الخيول العربية تصدر إلى أوروبا الغربية عن طريق مصر، كان صعبًا علينا تزويد مزارعنا في روسيا بالفحول العربية الجيدة، وصار معنا أكثر من مرة أننا حصلنا في بلاد العرب على حصان خصاله الداخلية وشكله الخارجي أسوأ من الخيول المتوافرة في المزرعة والمتولدة فيه وتعدّ حصنه وزينته.

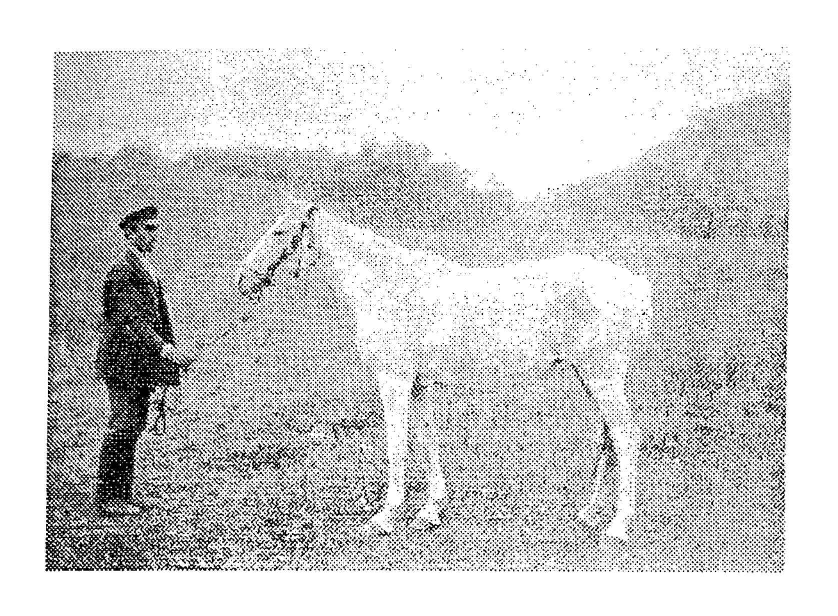
أكرر: أظن أن مزرعتنا السانغوشكوية وخيولها التي تولد فيها منذ مئة عام تبرهن على ما يأتي:

١ - أنه في ظل نظامنا الثقافي الأوروبي يمكن إنسال خيول حسنة لا تقل بخصالها عن خيول صحراء الجزيرة العربية، وحافظت على الطراز والصفات التي تتمتع بها الخيول العربية الصحراوية، طالما أنه يمكن الحصول على الفحول من البدو المتنقلين.

٢ - إذًا زال منبع الخيول العربية مع زوال أصحابها البدو.

وعلى الرغم من هذا إلا أننا نسطيع أن نحافظ على نقاء الدم العربي بدقة، وهكذا سنحافظ في أوروبا على الخيول التي لها الخصال نفسها مثل التي عند الخيول العربية الصحراوية. قد يفقد الحصان العربي في ظل المناخ الأوروبي بعض نشوفته الخاصة بجنسه وسيزيد حجمه، ولكن جماله وكرامته ووداعته ورشاقته وصبره ستبقى مترسخة فيه، ولو أقل قليلاً من الحصان الذي ولد ونشأ في الصحراء، ولكن أكثر من الخيول الإنكليزية النقية الدم. كما أن الأمير شيرباتوف يصرح بإتقان أن تربية الحصان العربي يكلف أقل بكثير من تربية الحصان الإنكليزي السباقي، الذي يقول عنه الأمير بحق إنه ليس إلا حصان البهاء. لذا فمهما كان التعلق بالحصان الإنكليزي، تعطى الأفضلية العادلة للحصان العربي. أشارك رأي الأمير شيرباتوف أنه عند تربية حصان السباق الإنكليزي وفقًا للشروط وهي الحفاظ على نقائه (أي من الأب والأم العربيين) فهذا الحصان العربي النقي الذي ولد في إنكلترا وتربى على النمط الإنكليزي؛ (أي الغذاء المشدد والحركة والتدريب والجري المستمرة) سيعطي نتائج أفضل بظهور حصان سباق نقي الدم بالمتانة نفسها في بنيته تحت تأثير الغذاء المشدد والمناخ الرطب، والرشاقة نفسها ولكن أكثر كرامة ودون هذه العيوب التي ورثها من دم أمه البارد وعديم الكرامة. والأهم من ذلك أن الحصان هذا سيكون أكثر صبرًا، ربما ليس في العمل الجهيد المستمر وإنما في نبو الظروف المحيطة به، والمناخ القاسي بطقسه المتقلب، وبخاصة في الظروف الحربية الصعبة.

بالنسبة لاقتراحات الأمير شيرباتوف العمليةأقول إن كتاب مزرعة لتربية الخيول العربية (stood-book)، الذي يقترح المؤلف المحترم إدخاله عندنا في روسيا، سيضمن مستقبلاً زاهرًا لمزارعنا التي تقوم بتربية الخيول العربية. ولكني أعترف أنني لا أفهم لماذا يريد الأمير شيرباتوف تأسيس مزرعة لتربية الخيل، في مزرعة ستريليتسكي مربى للخيول العربية النقية وتقسيمه إلى قسمين: واحد



لطيفة

فرس بيضاء ولدت عام ١٨٨٣ عند البدو من قبيلة الشمر. اشتراها الكونت استروغانوف عام ١٨٩٥ في دمشق. ارتفاع منبت رقبتها أرشينان وفيرشوكان. سلالتها كحيلية شريفة.

للخيول صغيرة الحجم ومستديرة الشكل وأنيقة، والثاني للخيول الكبيرة ومتطولة وغليظة البنية بعض الشيء. إنني لم أر الصحراء العربية في حياتي ولا أعرف إلا طرازًا واحدًا من الخيول الصحراوية بسلالاتها المتعددة ومميزاتها الخاصة، فحبذا لو كان هذا الطراز من الخيول الذي أعرفه سائدًا في مزارعنا الحكومية لصلاحيته في تحسين أجناس عديدة من خيولنا السهبية، وقدرته على المحافظة في نفسه على خصال الحصان العربي بدرجة لا تقل عن الخيول المرباة عند البدو الرحل، سواء في المزارع الحكومية أو الخاصة، طالما توجد إمكانية تطوير وتدعيم في خيولنا العربية النشوفة بتجديد تهجينها مع الفحول المرباة في الجزيرة العربية: الأحصنة والأفراس. ولكن الأفراس التي تجيد الولادة مع الأسف صعبة المنال. لا أستطيع

موافقة الأمير شيرباتوف بأن كتاب مزرعة (stood-book) يجب أن ينقسم إلى ثلاثة أبواب: الباب الأول مخصص للخيول العربية النقية؛ أي المتولدة في الصحراء، أو من الأب والأم المتولدين في الصحراء. هذه الخيول لن تكون كثيرة العدد كما هو في بابلونا حيث وضع هذا النظام منذ زمن طويل. والباب الثاني مخصص للخيول الأصيلة (إذا فهمت كلام المؤلف صحيحًا) التي فيها على الأقل كمية بسيطة من الدم العربي. ينبغي التسجيل في هذا الباب كل خيول مزرعتي لأنني لا أملك حاليًا أيّ حصان أصله المباشر من الخيول المتولدة في بلاد العرب؛ (أي ليس من الأحصنة فحسب بل من الأفراس أيضًا)، ولو أنني أستطيع أن أثبت أنّ فيها من ٦٦٪ إلى ٨٥٪ من الدم العربي النقي. إنني أتكلم عن عزبتي بشكل خاص؛ لأنني أعرفها جيدًا، ولكن ما أقول عنها يخص كل مزارع الخيول العربية الأخرى. ما الفرق بين الباب الأول والثاني؟ كما قيل أعلاه، الخيول في الباب الثاني، إذا كان أصلها من أفضل الفحول العربية، صالحة للركوب وأن تكون فحولاً في آن واحد، كما أن طرازها قد يكون أكثر نموذجية من خيول الباب الأول كما ذكرت أعلاه. أعرف ذلك من تجاربي لأن الخيول المتولدة في عزبتي كلها من الباب الأول والثاني. والباب الثالث يجب أن يكون مخصصًا للخيول الهجينة المولودة من الفحول العربية النقية أو الأصيلة (أي الفحول من الباب الأول والثاني) وإناث من أجناس مختلفة. يمكن أن تسجل في هذا الباب كل خيول الجر الموجودة في مزرعتي، لأن الخيول الأخرى، عدا الفحول العربية من مزرعتي أيضًا، التي هي غليظة البنية وقوية، لا تقوم بالسفاد مع أفراس الجر المحلية قطعًا، لذا توجد عندي خيول الجر حسنة التي فيها النصف من الدم العربي على الأقل، وفي الأجيال الآتية أكثر من النصف، وهي كثيرًا ما تباع بصفة الفحول الخاصة لأفراس الجر أو بصفة خيول الطقم الخفيفة أو خيول السرج للخيالة وحتى للعبة "polo". بهذا النمط سيكون هذا الباب كبيرًا جدًا، فأظن أنه من أجل الثبات على حصان ما بأن نصفه عربي، يكفي إعطاء

شهادات بأن والده عربي نقي أو أصيل، سجل في كتاب مزرعة تربية الخيول العربية، أما أمه فغير معروفة الأصل أو من الأجناس المحلية.

برأيي يجب أن يكون في كتب المزرعة (stood-book) باب واحد مخصص للخيول العربية، سواء النقية أو الأصيلة، كما يجب أن تدخل إليه خيول أصلها عربي، أي التي ليست فيها قطرة واحدة من الدم الآخر، وخيول متولدة في مزارع لتربية الخيل الروسية المشهورة التي فيها ثلثان من الدم العربي النقي على الأقل؛ أي ٦٦٪، ويجب أن يكون هذا مثبتًا.

وفيما بعد يجب أن تسجل في هذا الكتاب الخيول المعترف بها أنها عربية من الأب والأم، أو من الخيول العربية المستوردة التي قامت بالسفاد مع بعضها أو مسجلة في الكتاب نفسه. أظن أن هذه الطريقة التي قدمتها أسهل وتبعد كل المصاعب لتحقيق هذا الهدف.

ف. يلسكي

بعد أن استلمت ردًا من الإدارة الرئيسية لتربية الخيل الحكومية وقرأت مذكرة الأمير شيرباتوف عن الحصان العربي، أعبر عن شكري الخالص لمنحي فرصة التعبير عن رأيي في موضوع يهم كل هواة الخيول النقية الدم.

ما يخص مزرعتي، لا يوجد فيها أي حصان عربي نقي، ولكن كل الأفراس لها أصول عربية أقدره كثيرًا. لم تعد الخيول العربية النقية موجودة في المملكة البولونية. أعرف مزرعة لتربية الخيل تابعة للسيدة ريفيتسكايا في ريغوف في محافظة رادوم الاتجاه العربي بقي فيها ولكنه أيضًا ليس من الدرجة الأولى. ولو أن عزب الخيول العربية لم يعد لها وجود ولكنها منذ مدة قصيرة كانت موجودة. لقد اختفت أمام عيوني مزرعة لتربية الخيل أومينيتسكي في محافظة لو بين ومزرعة

مارتين بوبيل في كوروزفينكي في محافظة كيليتس، كما اختفت قبلها مزرعة فوتوفيتش في محافظة كيليتس أيضًا.

لقد فقد أصحاب مزارع لتربية الخيل في منطقتنا قيادتها وخضعوا لإصرار (الموضة). كما أنهم لم يتمكنوا من الحصول على الفحول العربية.

حصل على آخر خيول من الشرق (لا أجرؤ القول من الجزيرة العربية) صاحب مزرعة لتربية الخيل مارتين بوبيل من شخص يدعى تسيميرمان الذي قضى عمره في استيراد الخيول إلى أوروبا. أصله من محافظة بودولسك ولكنه اعتنق العادات التركية. في المرة الأولى اشترى منه بوبيل بعض الأحصنة عندما توقف تسيميرمان في فيينا ومعه خيول مختارة خصيصًا للإمبراطور نابليون الثالث. وعندما سمع عن الهزيمة في سيدان اضطر إلى بيع أحصنته بكل حال من الأحوال. كان منها جلابي، الأبيض، الذي امتاز بنسله، وكان الأفضل منها الحصان شريف الذي كان يذهل الجميع بجماله وإضافة إلى ذلك كان يفوز في سباقات الريف باستمرار. ثم توقف تسيميرمان في فيينا مرة ثانية ومعه أربعة أحصنة، كان هذا منذ عشر سنوات وكان مريضًا ومفلسًا، فاستعان مرة أخرى ببوبيل وباع له حصانين. كانت تلك هي الصفعة الثانية بينهما. وبعد مدة توفي الاثنان. لسوء الحظ لقد تعرض نسل الحصانين المذكورين لمتاعب كثيرة مختلفة، وخيول القطيع الباقية هجنت مع فحول إنكليزية Sic transit gloria mundi.

في الآونة الأخيرة يتربى في غاليشتينا حصان كميت كبير من قطيع السيد دزيدوشيتسكي. يقولون إنه أصيل جدًا وهو حاليًا ملك صاحب مزرعة لتربية الخيل فيليكس بوسكي في روغوف في محافظة كيليتس (البريد نوفي مياستو).

كل ما زاد فقد الخيول العربية في إقليمنا، زاد الإحساس بالخسائر التي حدثت من جراء ذلك.

سوف نرحب بأي مساندة من الحكومة في تربية الخيل بكل سرور.

طبعًا الشيء الأهم هو تأسيس مزارع للخيول العربية النقية، لأنها أسس متينة للأعمال الحالية. لهذا ينبغي شراء الأفراس العربية وفحلاً واحدًا من السيد بلانت.

ربما نتمكن من الحصول على خيول من الدرجة الأولى من الاسطبل الفيورتيمبيرغي أو الأفضل برأيي من الكونت دزيدوشيتسكي في غاليشينا، فقد كانت عنده في المدة الأخيرة اثنتا عشرة فرسًا من الأصل السامي!

طبعًا كل هذه الطرائق لتأسيس مزرعة لتربية الخيل العربية (بما في ذلك الطريقة الأخيرة وهي الحصول على الخيول من الجزيرة العربية) سوف تظهر نتائجها في تربية الخيل في الإمبراطورية بعد مدة طويلة جدًا. إنها أعمال المستقبل البعيد ومع ذلك periculum in more! يحتاج أصحاب المزارع الخيلية للأحصنة التي تتمتع بحجمها وانتظام بنيتها وكرامتها. لا تتوافر هذه الشروط إلا في الخيول الإنكليزية العربية كبيرة الحجم وقوية الهيكل. ومن أجل تحقيق هذا الهدف ينبغي إدخال الأفراس الهجينة الجيدة إلى مزارعنا الحكومية.

لا أستطيع معالجة المسألة الشاملة: من أين نحصل على هذه الأفراس؟ أريد فقط أن أذكر سريعًا عن المزرعة التي تهمني بسبب فرس واحدة جيدة الخصال. إنني أقصد مزرعة الجنرال كولغافيتش على نهر الدون. مرة ظهرت عندي فرس رمادية بثمن زهيد من الفوج الدراغوني التي بيعت بسبب أخلاقها العارمة. كانت متوسطة الحجم وتمتاز بمتانة بنيتها، وكثير من ملامح كرامة الخيول العربية وبخاصة نقاء الأطراف ونشوفتها. بعد سفادها مع حصان إنكليزي عربي جميل جدًا خلفت نسلاً حقيرة، ولكن بعد سفادها مع بعض الأحصنة الإنكليزية خلفت أفضل الخيول التي لا تزال عندي. لا أعرف إذا كانت في مزرعة لتربية الخيل المذكورة نماذج مماثلة لها، ولكني أحب أن أبلغ عن هذا الواقع.

بالنسبة لكراس الأمير شيرباتوف الممتع، سوف يكون هذا الكراس مقننًا ممتازًا لعلم الخيل؛ لأنه يعيد الحصان العربي إلى مكانته الصحيحة. ولكن آراؤنا تختلف في نقطة واحدة، عندما أكد الأمير شيرباتوف أن فحول مزرعة لتربية الخيل يجب أن تكون عربية نقية، في حين أن رأيي أن أفضل الفحول التي ترضي الطلبات العصرية هي الإنكليزية العربية الكبيرة الحجم.

أعترف أن فكرة إنشاء كتاب مزرعة لتربية الخيل العربية مفيد جدًا لأصحاب المزارع الذين حصلوا على الفحول العربية أو الذين سيحصلون عليها في المستقبل القريب. حاليًا تنفذ عندنا فكرة مماثلة بإنشاء كتاب مزرعة لتربية الخيل عن الخيول الهجينة مع باب خاص للخيول الإنكليزية العربية. ولكي أنهي جوابي سوف أقدم ملاحظة أخرى: الشيء الأصعب في تأسيس مزرعة لتربية الخيل هو اختيار الفحول القبلية. لا يوجد عندنا خبراء في هذا الميدان إلا القليل منهم. ومحتمل أن الأخطاء سوف ترتكب بكثرة. لم أر في حياتي فطنة استشفاف أهمية الحصان للمزرعة كفطنة أحد أقربائي العقيد المتقاعد ليف ميخايلوفيتش يلسكي وهو الرئيس الأسبق للاسطبل الحكومي في بالينا في محافظة بودولسك، والمقيم حاليًا في ضيعة أوديتش في محافظة مينسك (البريد سميلوفيتش). على الرغم من تقدمه في السن إنه لا يزال مخلصًا لأعماله في تربية الخيل، ويستطيع أن يعاوننا بنصائحه في اختيار الفحول معاونة لا بديل لها.

❋ ❋ ❋

ملحق جدول تأصيلة الخيول العربية

البيانات التي جمعها الأمير شيرباتوف في البلاد العربية عام ١٩٠٠ :

١ - كحيلان حلوج : يسمى أحيانًا بكحيلان حلوق .

٢ - كحيلان عش الخير : يقولون إن هذه السلالة انقرضت .

٣ - كحيلان الشريف : يظهر أن هذه السلالة لا توجد إلا في قبيلة ابن حدال من العنزة .

٤ - كحيلان الغزالي : لا يملكها إلا البدو من قبيلة القموصة والعواجة من السباع .

٥ - كحيلان جناح الثور : لا يوجد إلا في قبيلة الفدعان من العنزة .

٦ - كحيلان الجوهرة : يوجد فقط عند قبيلة القموصة (من السباع العنزية) .

٧ - كحيلان المغلادي وكحيلان الجازي وكحيلان أم العرف : يقول البدو إن هذه السلالات سيئة .

٨ - كحيلان نوفلي : يوجد فقط عند البدو من قبيلة ولد علي (العنزة) .

٩ - كحيلان أرنبي : ينبغي عدم الخلط بينه وبين أعنق أرنبي .

١٠- كحيلان السويتي : في بعض الأحيان يسمونه خطأ بكحيلان الشويتي .

١١- كحيلان العبيد : عند الشمر فقط .

١٢- كحيلان جلالة : في بعض الأحيان يسمونه خطأ كحيلان قلالة وكحيلان حلالة .

١٣- صقلاوي الجدران : تشتهر بهذه السلالة عشيرتان من البدو وهي ابن الدري من قبيلة الرسالين (فرع من فروع السباع العنزية)، وابن سبيني من قبيلة محد (فرع من فروع قبيلة الفدعان العنزية) . وتوجد عشيرة أخرى وهي العبد التي

اشتهرت طويلاً بسلالة صقلاوي الجدران لدرجة أن خيول هذه السلالة صارت تسمى عندهم بصقلاوي العبد وهو مرادف لصقلاوي الجدران.

١٤- عبيان الشرك: وله مرادفاته أيضًا وهي عبيان أبو جريس وعبيان غنيديش التي أصلها، كما قيل أعلاه، من العشائر البدوية التي لا تربي إلا سلالة واحدة من الخيل، وهي عبيان الشرك، وانتقلت إليها أسماء العشائر التي قامت بتربيتها. أبو جريس عشيرة من قبيلة مسخة (من السباع العنزية)، وغنيديش عشيرة من قبيلة سلقة من الشمر (الرافدين)، لذا فإن السلالة التي يقوم بتربيتها البدو من هذه العشيرة وهي عبيان الشرك المقيّمة كثيرًا يسمونها تارة بالخطأ بعبيان سلقة بدلاً من عبيان غنيديش. وتوجد عشيرة أخرى وهي صغلي (من الفدارة الشمرية) أيضًا نقلت تسميتها لخيولها من سلالة عبيان الشرك التي تسمى حاليًا بعبيان صغلي. في السابق لم تكن هذه السلالة إلا في قبيلة الشمر، أما الآن فتوجد في قبيلة القموصة أيضًا، وعند الشيخ حميد بن عيد (من قبيلة الرسالين).

١٥- عبيان لبدة من عشيرة نجرام، وغالبًا ما يسمونه حاليًا بعبيان النجرام.

١٦- أعنق حدروج من عشيرة ابن سبيل من قبيلة القموصة (من السباع العنزية)، أيضًا تسمى حاليًا بأعنق ابن سبيل.

١٧- حدبان عنزخي من عشيرة مشخطيب، وأيضًا نالت تسميتها المستقلة وهي حدبان مشخطيب.

١٨- حمداني: هذه السلالة ليس لها سلالات متفرعة عنها، والتسمية حمداني سمري لا يقصد بها سلالة فرعية، وإنما هذا نسبة إلى عشيرة سمري التي لا تربي إلا هذه السلالة، وتسمى بحمداني سمري للتفريق.

١٩- السلالات الباقية غير موضوعة في جدول التأصيلة ولو أن أسماءها متغيرة في كتاب السيدة آن بلانت، لأن الشيوخ البدو الذين نعرفهم لا يعترفون بها،

وهي : كحيلان الدجاني، كحيلان قاقا، كحيلان القولي، كحيلان المرح، كحيلان الغمزة، كحيلان الزبيري، كحيلان الرواحة، كحيلان حلادي، كحيلان البطليح، كحيلان البياعري، كحيلان شاليا، كحيلان عمياور، كحيلان منديغ، كحيلان حومات، كحيلان الجلابي، دهمان نجيب، ودهمان الشحوان .

❋ ❋ ❋

قائمة القبائل البدوية
في الجزيرة العربية وشيوخها

(وفقًا لكتب السيدة آن بلانت. راجعتها وكملتها الأميرة شيرباتوفا من خلال رحلتها إلى البلاد العربية من شهر آذار حتى أيار عام ١٩٠٠).

أ) الشمر: لها شيخان رئيسيان، وهما فارس بن صفوق وابن أخيه يعس بن صفوق.

فروع قبيلة الشمر	عدد الخيم
١) الجربة	٢٠٠٠
٢) الخطية	٥٠٠
٣) العسلان	٤٠٠
٤) الصايغ	٥٠٠
٥) عليان	٣٠٠
٦) العبدة	١٠٠٠
٧) الشدادي	٣٠٠
٨) العايط	٥٠٠
٩) الجيرات	٥٠٠
١٠) الفدارة، وفيها عشيرة مشهورة بخيول عبيان الشرك وهي عشيرة صغلي	٧٠٠
١١) العموت	١١٠٠

١٢) العفاريت ٥٠٠

١٣) المنية ٨٠٠

١٤) الثابت ١٠٠٠

١٥) اللحي ٤٠٠

١٦) السديت ٤٠٠

١٧) الحمّار ٤٠٠

١٨) السلقة : توجد في هذه القبيلة عشيرة مشهورة بخيول
سلالة عبيان الشرك وهي عشيرة غنيديش ١٠٠٠

القبائل الحليفة والمرؤوسة لها

عدد الخيم

١) الزوبعة في جنوب الرافدين ٥٠٠٠

٢) الحدادين في شمال الرافدين ٢٠٠٠

٣) الطي ١٠٠٠

٤) الجس : ليسوا بدواً حقيقيين ١٠٠٠

٥) أبو حميد : نصف فلاحين ١٠٠٠

٦) الجبوري : نصف فلاحين من وادي الدجلة ٤٠٠٠

٧) العجواري : أقرباء الجبوري ١٠٠٠

٨) الجريفة : نصف فلاحين ٥٠٠

٩) البقرة : تترحل في كل منطقة الجزيرة. قبيلة كبيرة
وغنية بخيولها ٨٠٠

عدد خيم الشمر كلها ١٢٣٠٠

عدد خيم الشمر مع القبائل الحليفة لها ٢٨٦٠٠

ب) العنزة : قبيلة غنية بخيولها وعندها خيرة خيول الجزيرة العربية .

فرع العنزة :

١ . الفدعان .

فروع الفدعان :

١) محد ، شيخها حجيم بن محد . توجد في هذه القبيلة عشيرة مشهورة بخيولها من سلالة صقلاوي الجدران وهي عشيرة ابن سبيني ١٠٠٠

٢) الشميلات ١٠٠٠

٣) العجاجرة ١٠٠٠

٤) الخريسة ، شيخها نايف بن حشيش ١٠٠٠

٥) الروص .... ؟

٦) دونغيل .... ؟

٧) ابن يرنات .... ؟

من بين قبائل الفدعان تشتهر عشيرة أبو سنون بخيولها .

٢ . السباع ، فيها أفضل خيول الصحراء .

فروع السباع :

١) القموصة ، شيخها عبتاين بن مرشد . تشتهر بخيولها وبخاصة أعنق الحدروج من عشيرة ابن سبيل ١٠٠٠

٢) الرسالين ، شيخها حميد بن عيد . تشتهر في هذه القبيلة عشيرة ابن الدري بخيول من سلالة صقلاوي الجدران ٥٠٠

فروع الرسالين:

مصراب، شيخها فياض بن محمد ٢٠٠

٣) الدوام ٥٠٠

٤) المسخة، شيخها ابن حدال، تشتهر في هذه القبيلة عشيرة

أبو حريس بسلالة الخيول عبيان الشرك ٥٠٠

٥) العبادات ٥٠٠

٦) العواجة، شيخها فرحان بن حديب ٥٠٠

فروع العواجة:

أ) الروفة، ب) الوتيرة، ج) العميان، د) البغد، هـ) البياعة.

كلها حوالي ١٠٠٠

٧) الحبادة

٨) العمارات ٥٠٠

هذه القبائل الأربعة الأخيرة أي المسخة والعبادات والعواجة بفروعها والحبادة، كلها تعترف بفرحان بن حديب شيخها الرئيسي.

٣) ابن حدال، شيخها ابن حمازدي ٤٠٠٠

٤) الحسنة، شيخها فارس بن مزيد (تترحل قرب دمشق) ٥٠٠

٥) ولد علي، شيخها الرئيسي رشيد بن سمير

فروع ولد علي:

الطيار، شيخها سطام الطيار

المجموع ٣٠٠٠

٦) الروالة أو الجلعاس ١٢٠٠٠

بعد وفاة شيخها الرئيسي سطام بن شعلان (في شهر آذار من عام ١٩٠٠)،

تولى مكانه ابنه خالد بن شعلان، ولكن الجزء من الروالة انفصلت وتبعت لعم خالد الشيخ نوري بن شعلان.

فروع الروالة:

العشاجع، شيخها ابن مؤجل

عشائر قبيلة الروالة المشهورة بخيولها هي: ابن روضان بكحيلان روضان وابن سودان بصقلاوي الحدران.

القبائل الثانوية هي سرحان وعرفودي والطرف

إجمالاً عدد خيم العنزة حوالي .... ٣١٠٠٠ خيمة.

القبائل الحليفة للعنزة:

١) الأخدعات، تترحل على ضفتي الفرات شمالي وجنوبي دير الزور. شيخها حفل.

فروع الأخدعات:

١) أبو ساراي، شيخها حمود الشلاح.

٢) الموالي.

٣) ولدي.

٤) العقودلي.

القبائل المترحلة في الأماكن المختلفة:

اللهب، بني صخر، العمور وهي قبيلة قطاع الطرق، الأخوينات، العدوان، العلوين، الصليب.

القبائل الخاضعة لباشا بغداد:

١) المستفيق، ٢) بني لعام، ٣) المعدن، ٤) أبو محمد، ٥) الشمرتوقا، ٦) البطة.

العشائر البدوية التي تعدّ في الجزيرة العربية في المرتبة الأولى بقدامتها ومنزلتها (العشائر الخمس الرئيسية موضوعة وفقًا لترتيب قدامتها ومنزلتها):

ابن مزيد من الحسنة (العنزة).

ابن جندل من الروالة (العنزة).

ابن طيار من ولد علي (العنزة).

ابن حمازدي من ابن حدال (العنزة).

ابن سمير من ولد علي (العنزة).

ثم تليها عشائر على مستواها تقريبًا:

ابن صفوق من الجربة من الشمر (الرافدين).

ابن حديب من العواجة (من السباع العنزية).

ابن مرشد من القموصة (من السباع العنزية).

الروص من محد (من الفدعان العنزية).

شيوخ الموالي.

شيوخ الطي.

العشائر المشهورة سلالات معينة من الخيول:

ابن الدري (من قبيلة الرسالين من السباع العنزية) مشهورة بصقلاوي الجدران.

ابن سبيني (من قبيلة محد من الفدعان العنزية) مشهورة بصقلاوي الجدران.

أبو جريس (من قبيلة المسخة من السباع العنزية) مشهورة بعبيان الشرك.

غنيديش (من قبيلة سلقة من الجربة الشمرية) مشهورة بعبيان الشرك.

صغلي مشهورة بعبيان الشرك (من قبيلة الفدارة الشمرية).

النجرام مشهورة بعبيان لبدة.

ابن سبيل (من قبيلة القموصة من السباع العنزية) مشهورة بأعنق حدروج.

أبو سنون.

ابن روضان (من قبيلة الروالة العنزية) مشهورة بكحيلان روضان.

ابن سودان (من قبيلة الروالة العنزية) مشهورة بصقلاوي الجدران.

❋ ❋ ❋

المصادر

1) Die Zuchtwahl des Prerdes im des English Arabischen Voll-blutes ven Dunkelberg.

2) Reise mach Arabien, Kurdistan und Armenien, 1892, von Baron Nolde.

3) Die Oesterrechische Prerde-Ankaufs-Mission unter dem K. K. Obersten Ritter Rudolf von Bruderman in Syrien, Palestina und Wpppüste in den Jagren 1856-1857 von Eduard Löffler.

4) Bedouin Tribes of the Euphrates by Lady Anne Blunt. 2 vols. Published by John Murray, 1879.

5) A Pilgrimage to Nejd by Lady Anne Blunt 2 vols. Published by John Murray, 1881.

6) Gleanings from the desert of Arabia by Major R. D. Upton. Published by C. Kegan Paul & C°, 1881.

7) An examination of the descent of racers and courses by Roger D. Upton. Published by Henry King & C°, 1873.

8) The arabian horse by Major General W. Tweedie. C. S. I. Published by William Blackwood and Sons, 1894.

9) Die Gestüte und Meierein Sr. Maj. des Könings von Württemberg. Herausgegeben von Frhrn I. von Hügel und Hofdom-Rath Schmitt.

10) Portraits of celebrated race Horses of the past and present centuries by Thomas Henry Sauton. M. A., vols. Published by Sampson Low. Marston. Scarle & Rivington, 1887.



استأذن من جلالة القيصر أن أهدي هذا الكتاب لسمو الأمير العظيم دميتري قسطنطينوفيتش، الذي أخذ على عاتقه واجب إحياء التقاليد الروسية في تربية الخيل التي بدأت في عهد حكم الإمبراطورة كاترين العظيمة، وبمبادرة الكونت أورلوف تشيسمينسكي. وسأصف فيما بعد كيف ظهرت هذه التقاليد ولبت طلبات الدولة وحب الشعب الروسي للخيول. كما أن هذه التقاليد لم تولع بسعي وحيد الطرف وراء تطوير الرشاقة والسرعة على حساب الخصال الجوهرية الأخرى التي يجب أن يتمتع بها الحصان ليجذب الانعطاف العام، فكان الاعتماد على جهود الشعب في تربية الخيل دون الاضطرار لتنمية الحصان اصطناعيًا. هذه التقاليد الروسية في تربية الخيل التي وصفها الكونت أورلوف تشيسمينسكي ضمت في نفسها كل الطلبات الموجهة للحصان كالرشاقة وجمال الشكل والقوة والصبر كان واجب تربية الخيل الأورلوفية سواء في الخيول الخابة أو السرج هو إنشاء حصان قادر على العمل في الجر وتحت السرج إلى أن يبلغ العشرين من عمره على الأقل؛ وقادر على الحركة الخفيفة تحت فارسه الكونت الذي وزنه ثمانية أبواد، وعلى جر العربات المشحونة بالشحن وزنه عشرين بودا.

أتشرف أن أقبل دعوة سمو الأمير في المشاركة على قدر الإمكانية في إحياء الاستعانة بالحصان النقي الوحيد في العالم وهو الحصان العربي وتقدير أهميته، فمن دونه لن ينال شهره ولا أي جنس من الخيول.

الأمير أ. شيرياتوف

أيار عام ١٩٠٠



الشيخ نصر بن عبد الله

بدوي من قبيلة الرسالين من السباع العنزية

الفهرس



مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ص.ب ٥٥١٥٦ ـ دبي ـ الإمارات العربية المتحدة

هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+ ـ فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+

E-mail: info@almajidcenter.org - www.almajidcenter.org